العود الهندي

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

الجزء الثاني

دار المنهاج



العود الهندي

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف
علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

عُني به
محمد مصطفى الخطيب

بمساهمة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والنشر

المجلد الثاني

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار المنهاج للنشر والتوزيع
جدة - هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ - فاكس ٦٣٢٠٣٩٢
الإدارة ٦٣١١٧١٠ - المكتبة ٦٣٢٢٤٧١
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5

المجلسُ السابعُ

[قال أبو الطيِّب المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَحْيَا! وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ وَٱلْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِيْ وَمَا عَدَلاَ

العجب من الحياة مع توفر أسباب عدمها وشرح البيت

يتعجَّبُ مِن نفسهِ ؛ إذ بقيَ علىٰ قيدِ ٱلحياةِ ، وأَيسرُ ما يلاقيهِ قاتلٌ ، وإذا كانَ أَيسرهُ قاتلاً . . فما بالُكَ بأَعسرِهِ ، ثُمَّ ذكَرَ أَنَّ ٱلبينَ جارَ علىٰ ضعفهِ وما عَدَلَ .

ومِنَ ٱلمعلومِ أَنَّ مَنْ جارَ . . لَمْ يَعدِلْ ، غيرَ أَنَّهُ يريدُ التَّأْكيدَ ، ويدَّعي أَنَّهُ جارَ عليهِ في سائرِ أَحوالهِ ، ولَمْ يُنصِفْهُ وقتاً ما ، فيمكِنُ أَنْ يَدخُلَ إذاً تحتَ قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل : ٢١] ؛ إذْ مِنَ ٱلبَدَهيِّ أَنَّ ٱلميْتَ غيرُ حيٍّ ، ولٰكنَّ ٱلمعنىٰ : أَمواتٌ لا حياةَ لَهُم أَبداً .

وإسنادُ ٱلجَورِ إلىٰ ٱلبَينِ يحتمِلُ أَنْ يكونَ حقيقةً ، ويحتمِلُ أَنْ يكونَ مجازاً عقليّاً بٱعتبارِ جانبِهِ .

الفراق مر المذاق

وكيفما كانَ ٱلأَمرُ . . فٱلفِراقُ مُرُّ ٱلمَذاقِ .

وللهِ درُّ ٱلقائِلِ [من الكامل] :

يَوْمُ ٱلْفِرَاقِ مِنَ ٱلْقِيَامَةِ أَطْوَلُ وَٱلْمَوْتُ مِنْ أَلَمِ ٱلتَّفَرُّقِ أَجْمَلُ

قَالُوْا ٱلرَّحِيْلُ، فَقُلْتُ: لَسْتُ بِرَاحِلٍ   لَٰكِـنَّ مُهْجَتِـيَ ٱلَّتِـيْ تَتَـرَحَّـلُ

الشاب العاشق

وقد سبقَ في ٱلمجلسِ ٱلأوَّلِ عَنْ أَبي عُثمانَ ٱلجاحظِ حديثُ الشَّابِّ ٱلَّذي ٱقترحَ علىٰ يزيدَ بنِ عبدِ ٱلمَلِكِ أَنْ يسمَعَ غناءَ جاريتهِ نُعمىٰ . ومِنْ تتمَّتِهِ : أَنَّ ذلكَ الشَّابَّ كانَ مِنْ أَوفرِ النَّاسِ حظّاً في ٱلمالِ وٱلجمالِ ، وأَنَّهُ ٱشترىٰ تلكَ ٱلجاريةَ مِنْ (بغدادَ) بمئةِ أَلفٍ ، وأَنَّ ٱلحجَّاجَ ٱغتصبها منهُ ؛ لِيَختصَّ بها ، ولمَّا ٱستجهرَهُ[1] جمالُها . . ٱستيقنَ أَنْ سيرتفعُ أَمرُها للخليفةِ ، فوجَّهَ بها إِليهِ مِنْ ليلَتهِ ، فتولَّهَ الشَّابُّ ، وٱنكفأَ إِلىٰ (الشَّامِ) ، وبقيَ بها مُنَكَّدَ ٱلعيشِ ، مُفرَّقَ ٱلبالِ ، مَذهوبَ ٱلعقلِ ، يمشي بينَ النَّاسِ في ٱلأَسواقِ مُتمثِّلاً بقولِ عبدِ ٱللهِ بنِ عجلانَ ـ ٱلآتي ذِكْرُهُ ـ وهوَ [في « الأغاني » ٢٢/ ٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

غَداً يَكْثُرُ ٱلْبَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُمُ   وَتَزْدَادُ دَارِيْ عَنْ دِيَارِكُمُ بُعْدَا

إِلىٰ أَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نفسُهُ ما سبقَ ٱقتصاصُهُ .

العشق عذاب

وكَمْ نَفْسٍ مِنْ حَرِّهِ مذابةٌ ؟ ومُهَجاتٍ حرَّىٰ[2] تُقاسي عذابَهُ ؟

قصيدة للمؤلف في الموضوع

وما أَحسنَ ما قُلتُ مِنْ مرثيَةٍ لبعضِ ٱلهَلْكىٰ في تلكَ السَّبيلِ[3] [في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ٥٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَعِيْـفٌ تَـوَلاَّهُ ٱلْغَـرَامُ بِمِثْلِـهِ   فَأَشْوَاهُ مِنْ فَرْطِ ٱلْجَفَا بِٱلضَّنَا ٱلْحُبُّ[4]
وَمَاتَ ذَلِيْلاً فِيْ ٱلطَّرِيْقِ وَهٰكَذَا   يَمُوْتُ ٱلشَّجِيُّ ٱلْقَلْبِ وَٱلْوَالِهُ ٱلصَّبُّ

---

(١) استجهرَهُ : كشفَهُ وفضحَهُ .
(٢) حرَّىٰ : عطشىٰ .
(٣) الأبيات قالها على سبيل المداعبة عندما رأى كلباً ميتاً على قارعة الطريق .
(٤) أَشواهُ : أَحرقَهُ وأَهلكَهُ .

وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ نَحْوَهُ فِيْ سَبِيلِهِ ذَوَىٰ تَحتَ تَأْثِيرِ ٱلنَّوَىٰ غُصْنُهُ ٱلرَّطْبُ[1]
مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ مَاذَا تَجرَّعُوْا مِنَ ٱلْعِشْقِ ؟ لَـٰكِنْ مُرُّهُ عِنْدَهُمْ عَذْبُ

جميل وبثينة

ولقد سأَلَ عبدُ ٱلمَلِكِ بنُ مروانَ يوماً كُثيِّراً عَنْ حالِ جميلٍ وبثينةَ، فقالَ : يا أَميرَ ٱلمؤمنينَ . . سايرتُهُ يوماً إِليها حتَّىٰ قرُبنا منهُم ، فأَقبلَتْ معَ نسوةٍ ، فلمَّا رأَينَهُ . . وَلَّيْنَ ، ووقفا يتحادَثانِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ حتَّىٰ طَلَعَ ٱلفجرُ ، ولمَّا أَزمعَ الرَّحيلَ . . ٱستَدْنتْهُ ، وسارَّتْهُ ، فخرَّ مغشيَّاً عليهِ ، ولمَّا أَفاقَ . . أَنشدَ [في « ديوانِهِ » ١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا مَاءُ مُزْنٍ فِيْ جِبَالٍ مُنِيْفَةٍ وَلاَ مَا أَكَنَّتْ فِيْ مَعَادِنِهَا ٱلنَّحْلُ[2]
بِأَشْهَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ قُلْتِ بَعْدَمَا تَمَكَّنَ مِنْ حَيْزُوْمِ نَاقَتِيَ ٱلرَّحْلُ[3]

مصعب بن الزبير يقلد جميلاً

ودخلَ مُصعبُ بنُ الزُّبيرِ يوماً علىٰ عائِشةَ بنتِ طلحةَ وهيَ تمتشطُ وتتمثَّلُ بقولِ جميلٍ [في « ديوانِهِ » ٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا أَنْسَ ، لاَ أَنْسَ مِنْهَا نَظْرَةً عَرَضَتْ بِـٱلْحِجْـرِ يَـوْمَ جَلَتْهَـا أُمُّ مَنْظُـوْرِ

وكانتَ أُمُّ منظورٍ هـٰذهِ موجودةً في سلطانهِ ، فٱستحضرَها ، وٱستخبرَها عَنْ شأْنِ ٱلبيتِ ، فقالَتْ :

كنتُ ماشطةَ بُثينةَ ، فزيَّنْتُها يوماً ، وجميلٌ مُقبلٌ علىٰ بعيرٍ لَهُ ، مُؤارٌّ عليهِ[4] ، فرآها بمؤَخَّرِ عينهِ ، فأَنشدَ ٱلبيتَ ، فأَمرَها مُصعبٌ أَنْ

---

(١) ذوىٰ : ذَبُلَ .
(٢) الجبلُ ٱلمُنيفُ : هوَ ٱلجبلُ ٱلعالي ٱلمُشرِفُ . المعادِنُ : ٱلخلايا .
(٣) الحيزومُ : الصَّدرُ . الرَّحْلُ : مركبٌ للبعيرِ والنَّاقةِ ، وٱلمُرادُ بقولهِ : (تمكَّنَ مِنْ حَيْزُوْمِ نَاقَتِيَ ٱلرَّحْلُ) . . وقتُ السَّفرِ .
(٤) مَآرَ : ٱفتخرَ .

تصنعَ بعائشةَ ما فعلتْهُ ببُثينةَ ، وصنعَ هوَ مثلَ ما صنعَ جميلٌ .

جميل يبكي من حب قاتلته

وفي وجههِ ذلكَ يقولُ جميلٌ [في « ديوانهِ » ١٧٥ـ١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ فَرِحَ ٱلْوَاشُوْنَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِيْ ... بُثَيْنَةُ، أَوْ أَبْدَتْ لَنَا جَانِبَ ٱلْبُخْلِ[١]

يَقُوْلُوْنَ : مَهْلاً يَا جَمِيْلُ وَإِنَّنِيْ ... لأُقْسِمُ مَا لِيْ عَنْ بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ

إِذَا مَا تَنَاشَدْنَا ٱلَّذِيْ كَانَ بَيْنَنَا ... جَرَىٰ ٱلدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِٱلْكُحْلِ

كِلانَا بَكَىٰ ، أَوْ كَادَ يَبْكِيْ صَبَابَةً ... إِلَىٰ إِلْفِهِ فَٱسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِيْ

فَيَا وَيْحَ نَفْسِيْ حَسْبُ نَفْسِيْ ٱلَّذِيْ بِهَا ... وَيَا وَيْحَ أَهْلِيْ مَا أُصِيْبَ بِهِ أَهْلِيْ

أَبِيْتُ مَعَ ٱلْهُلاَّكِ ضَيْفاً لأَهْلِهَا ... وَأَهْلِيْ قَرِيْبٌ مُوْسِعُوْنَ أُوْلُوْ فَضْلِ[٢]

خَلِيْلَيَّ فِيْمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا ... قَتِيْلاً بَكَىٰ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِيْ[٣]

عفَّةُ جميل وقصة موته وموت بثينة

وعنِ ٱلعبَّاسِ بنِ سهلِ السَّاعديِّ [كما في « مصارعِ العشَّاقِ » ١/ ٣١١] قالَ : قالَ لي رجلٌ : هل لكَ في عيادةِ جميلٍ ؛ فإنَّهُ مريضٌ ؟ فدخَلْنا عليهِ ، فإذا هوَ يجودُ بنفسهِ ، فنظرَ إليَّ ، وقالَ : ما تقولُ في رجلٍ لَمْ يَزْنِ ، ولَمْ يشرَبْ خمراً ، ولَمْ يسفِكْ دماً ، يشهدُ أَنْ لا إِلٰهَ إلاَّ ٱللهُ ، وأَنَّ محمَّداً رسولُ ٱللهِ ، منذُ خمسينَ سنةً ؟ فقلْتُ : مَن هٰذا ؟ فإنِّي لا أَراهُ إلاَّ ناجياً . قالَ : أنا ، قلْتُ : وكيفَ! وأَنتَ تُشبِّبُ[٤] ببُثينةَ طيلةَ هٰذهِ ٱلمدَّةِ ؟! قالَ : أَنا في آخرِ يومٍ مِنَ ٱلدُّنيا ، لا نالتني شفاعةُ محمَّدٍ . إنْ كنتُ وضعتُ يدي عليها لريبةٍ ، وأَكثرُ

---

(١) صَرَمَت : قطعَت . حَبلي : ٱلمودَّةُ والصلَةُ .

(٢) الهُلاَّكُ : الفقراءُ والصَّعاليكُ الَّذينَ ينزلونَ بالنَّاسِ طلباً لمعروفِهم مِنْ سوءِ ٱلحالِ .

(٣) القصَّةُ في « الأغاني » (٨/ ١١٩) .

(٤) شَبَّبَ بٱلمرأةِ : تغزَّلَ بها ووصفَ حُسْنَها .

ما يكونُ منِّي أَنْ أُسنِدَ يدَها إِلىٰ قلبي ، أَستريحُ بها ساعةً ، ثُمَّ أُغمي عليهِ ، ثُمَّ قالَ : مَنْ ينعاني إِلىٰ بثينةَ ، ولهُ هـٰذهِ ٱلحُلَّةُ ؟ فراحَ رجلٌ حتَّىٰ جاءَ ٱلحيَّ ، فأَنشدَ ما أَمرَهُ جميلٌ ، وهوَ [في « ديوانهِ » ١١٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

بَكَـرَ ٱلنَّعِـيُّ وَمَـا كَنَـىٰ بِجَمِيْـلِ   وَثَوَىٰ بِمِصْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قُفُوْلِ[1]
قُوْمِيْ بُثَيْنَةُ فَانْدُبِيْ وَتَهَتَّكِيْ   وَٱبْكِيْ خَلِيْلَكِ دُوْنَ كُلِّ خَلِيْلِ

فما كانَ بأَسرعَ مِنْ خروجِ بُثينةَ مكشوفةً ، تقولُ [في « مَصارعِ ٱلعشَّاقِ » ٢/٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ سُلُـوِّيْ عَـنْ جَمِيْـلٍ لَسَـاعَـةٌ   مِنَ ٱلدَّهْرِ لاَ حَانَتْ وَلاَ حَانَ حِيْنُهَا
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيْلُ بْنَ مَعْمَرٍ   إِذَا مِـتَّ بَـأْسَـاءُ ٱلْحَيَـاةِ وَلِيْنُهَـا

ثُمَّ قالَتْ للنَّاعي : يا هـٰذا ، إِنْ كنتَ صادِقاً . . فقد قتلتَني ، وإِنْ كنتَ كاذباً . . فقد فضحتَني ، فقالَ لها : وٱللهِ إِنِّي لَصادقٌ ، وأَطلَعَها علىٰ ٱلحُلَّةِ ، وكانتْ رأَتْها معَ جميلٍ ، فصرخَتْ ، وصكَّتْ وجهَها ، وأَقبلَ معها النِّساءُ يبكينَ ، حتَّىٰ خرَّتْ مغشيّاً عليها ، وما زالَتْ تردِّدُ قولَها : (وَإِنَّ سُلُوِّيْ . . .) ٱلبيتينِ ، حتَّىٰ ماتَتْ . لَمْ يُسمَعْ منها سواهُما .

الخلاف في اسم المجنون

وأَمَّا ٱلمجنونُ : فقد ٱختُلِفَ في ٱسمهِ ونسبهِ .

قصة حبه لليلى

والصحيحُ : أَنَّهُ عامرُ بنُ مُلَوَّحِ بنِ مُزاحمٍ ، أَحدُ بني عامرٍ .

وكانَ إِلىٰ أَبيهِ أَحبَّ بنيهِ ، ولَمْ يزلْ في نعمةٍ وثروةٍ ، ونشأَ معَ ليلىٰ ، فتداخلَتْ بينَهُما ٱلمحبَّةُ مِنَ ٱلحَداثةِ ، كما قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) مَا كَنَىٰ : ما سَترَ ولا تكلمَ بصورةِ الكنايةِ . غير قفولٍ : غير رجوع .

تعَلَّقْتُ لَيْلَىٰ وَهِيَ غِرٌّ صَغِيْرَةٌ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيْرَيْنِ نَرْعَىٰ ٱلْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَىٰ ٱلآنَ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ ٱلْبَهْمُ

ولَمْ يزَلْ يحادِثُها . . حتَّىٰ ٱشتهرَ بحبِّها ، فحجبُوها عنهُ ، ومنعوهُ منها ، فخطبَها ، ودفعَ لهُ أَبوهُ خمسينَ بعيراً وراعيها في مهرِها ، فأَبىٰ أَبوها ؛ لأَنفَةِ العربِ مِن تزويجِ مَنِ ٱشتَهرَ الخاطبُ بهواها ؛ لئلاَّ يصدقَ الظنُّ ، ويقولَ الناسُ : إِنَّما أَرادَ سترَ مَا أَخذَ مِن عُذْرَتِها . ولمّا يئِسَ منها . . قلقَ قلقاً ذهبَ بعقلِهِ ، فهامَ علىٰ وجهِهِ ، وجزعَتْ هي لذلكَ جَزعاً أَدَّىٰ إِلىٰ سُقمِها ، فحجَّ بِها أَهلُها ، وزوَّجوها من ثقفيٍّ خطبَها هناكَ ، بعدَ أَنْ تكاثرَ عليها الخُطَّابُ ، وردُّوهم . ولمّا ٱتصلَ بهِ الخبرُ . . قالَ [في « ديوانِهِ » ٢٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

سبب جنونه

أَلاَ إِنَّ لَيْلَىٰ ٱلْعَامِرِيَّةَ أَصْبَحَتْ ... تَقَطَّعُ إِلاَّ مِنْ ثَقِيْفٍ حِبَالُهَا
هُمُ حَبَسُوْهَا مَحْبَسَ ٱلْبُدْنِ وَٱبْتَغَىٰ ... بِهَا ٱلْمَالَ أَقْوَامٌ أَلاَ قَلَّ مَالُهَا
خَلِيْلَيَّ هَلْ مِنْ حِيْلَةٍ تَعْلَمَانِهَا ... فَيُدْنِيْ بِهَا تَكْلِيْمَ لَيْلَىٰ ٱحْتِيَالُهَا
فَإِنْ أَنْتُمَا لَمْ تَعْلَمَاهَا فَلَمْ أَكُنْ ... بِأَوَّلِ بَاغٍ حَاجَةً لاَ يَنَالُهَا
كَأَنَّ مَعَ ٱلرَّكْبِ ٱلَّذِيْنَ ٱغْتَدَوْا بِهَا ... غَمَامَةَ صَيْفٍ زَعْزَعَتْهَا شَمَالُهَا
إِذَا ٱلْتَفَتَتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلِيْ ... عَلَىٰ ٱلْعِيْسِ جَلَّىٰ عَبْرَةَ ٱلْعَيْنِ حَالُهَا[1]

لحوقه بالوحوش

ولمَّا ٱشتدَ هَيمانُهُ بها . . أَشارَ قومُهُ علىٰ أَبيهِ أَنْ يذهبَ بهِ (مكَّةَ) ؛ علَّ اللهَ يخفِّفُ عنهُ بعضَ ما بهِ ، فذهبوا بهِ ، وجرَتْ لَهُ في حجِّهِ غرائبُ ، ثُمَّ ٱنفلَتَ عليهم ، وٱلتحقَ بالوحوشِ ، وأَنِسَتْ بهِ

(١) القصة في « الأغاني » (٢/ ٤٤) .

لمَّا طالَتْ شعورُهُ وأظافرُهُ ، فكانَ يردُ معها الماءَ ، ويأكلُ الشجرَ ، ويكثرُ مِنْ ذكرِ جبلٍ ، كانَ يرعىٰ بهِ الغنمَ هو وليلىٰ ، يقالُ لهُ : (التوبادُ) ، فتارةً يشرفُ علىٰ (الشام) ، ويرىٰ ناساً لا يعرفُهُم ، فيقولُ لهم : أينَ (التوبادُ) ؟ فيقولونَ لهُ : وأينكَ منهُ ؟ ويدلُّونهُ عليهِ بالنجومِ ، فيشرفُ علىٰ (اليمنِ) ، ويقعُ لهُ معَ أهلهِ مثلُ ما وقعَ لهُ بـ(الشامِ) ، إلىٰ أنْ لاحَ لهُ (التوبادُ) ، فعرفَهُ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ حِيْنَ رَأَيْتُهُ ... وَكَبَّـرَ لِلـرَّحْمَـٰنِ حِيْـنَ رَآنِـيْ
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ ٱلْعَينِ لَمَّا عَرَفْتُهُ ... وَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ فَدَعَانِيْ
فَقُلْتُ لَهُ قَدْ كَانَ حَوْلَكَ جِيْرَةٌ ... وَعَهْدِيْ بِذَاكَ ٱلصَّرْمِ مُنْذُ زَمَانِ
وَقُلْـتُ لَـهُ أَيْـنَ ٱلَّـذِيْـنَ عَهِـدْتُهُـمْ ... بِقُرْبِكَ فِيْ خَفْضٍ وَطِيْبِ أَمَانِ ؟!
فَقَالَ: مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُوْنِيْ دِيَارَهُمْ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ يَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلْحَدَثَانِ[1]
وَإِنِّيْ لأَبْكِيْ ٱلْيَوْمَ مِنْ حَذَرِيْ غَداً ... فِـرَاقَـكِ وَٱلْحَيَّـانِ مُـؤْتَلِفَـانِ[2]

استئنـاس المجنـون بواحد يروي أشعاره

ولمْ يزلْ كذلِكَ حالُ عامرٍ معَ الوحشِ ، لا يألفُ أحداً مِنَ ٱلنَّاسِ ، كما قالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْعَـدَنِـيْ عَـنْ أَرْبُعِـيْ بُعْـدُ أَرْبَـعٍ ... شَبَابِيْ وَعَقْلِيْ وَٱرْتِيَاحِيْ وَصِحَّتِيْ[3]
فَلِيْ بَعْدَ أَوْطَانِيْ سُكُوْنٌ إِلَىٰ ٱلْفَلاَ ... وَبِٱلْوَحْشِ أُنْسِيْ إِذْ مِنَ ٱلإِنْسِ وَحْشَتِيْ ـ

إلاَّ واحداً ، تألَّفهُ [أَي : المجنون] لنقلِ أخبارِهِ وأشعارِهِ ،

---

(١) الحَدَثانِ : الليلُ والنهارُ .
(٢) القصة في « الأغاني » (٢/٤٩) .
(٣) أربُعي ـ جمع رَبعٍ ـ : المنزِلُ .

فيُروىٰ : أَنَّهُ قالَ لهُ يوماً : يرحمُ ٱللهُ قيساً [ابن ذريح] في قولِهِ [في «ديوانه» ١٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَبِيْتُ وَتُضْحِيْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَىٰ مَنْهَجٍ تَبْكِيْ عَلَيْهِ ٱلْقَبَائِلُ
قَتِيْـلٌ لِلُبْنَـىٰ صَـدَّعَ ٱلْحُـبُّ قَلْبَـهُ وَفِيْ ٱلْحُبِّ شُغْلٌ لِلْمُحِبِّيْنَ شَاغِلُ

فقالَ أنا أَشعرُ منهُ في قولي [مِنَ الطَّويلِ] :

سَلَبْتِ عِظَامِيْ لَحْمَهَا فَتَرَكْتِهَا مُعَرَّقَةً تَضْحَىٰ إِلَيْهِ وَتَصْحَرُ[1]
وَأَخْلَيْتِهَـا مِـنْ مُخِّهَـا فَكَـأَنَّهَـا قَوَارِيْرُ فِيْ أَجْوَافِهَا ٱلرِّيْحُ تَصْفِرُ
إِذَا سَمِعَتْ ذِكْرَ ٱلْفِرَاقِ تَقَطَّعَتْ عَـلائِقُهَـا مِمَّـا تَخَـافُ وَتَحْـذَرُ
خُذِيْ بِيَدِيْ ثُمَّ ٱنْهَضِيْ بِيْ تَبَيَّنِيْ بِـيَ ٱلضُّـرَّ إِلاَّ أَنَّنِـيْ أَتَسَتَّـرُ

وَأَنَّهُ حرَّكهُ يوماً بذكرِ شيءٍ مِن شِعرِ قيسٍ ، فقالَ لهُ : أَنا أَشعرُ منهُ في قولي [كما في «المستطرف» ٢/٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا وَجْدُ مَغْلُوْبٍ بِصَنْعَاءَ مُوْثَقٍ بِسَاقَيْهِ مِنْ ثِقْلِ ٱلْحَدِيْدِ كُبُوْلُ
قَلِيْـلُ ٱلْمَـوَالِـيْ مُسْتَهَـامٌ مُـرَوَّعٌ لَهُ بَعْدَ نَوْمَاتِ ٱلْعِشَاءِ عَوِيْلُ
يَقُوْلُ لَهُ ٱلْحَدَّادُ : أَنْتَ مُعَذَّبٌ غَـدَاةَ غَـدٍ أَو مُسْلَـمٌ فَقَتِيْـلُ
بِأَعْظَمَ مِنِّيْ لَوْعَةً يَوْمَ رَاعَنِيْ فِـرَاقُ حَبِيْـبٍ مَـا إِلَيْـهِ سَبِيْـلُ

موت المجنون

وَأَنَّهُ قالَ لَمْ أَزَلْ أُعاودُهُ إِلىٰ أَن وجدتُهُ يوماً ميْتاً بينَ الأَحجارِ .

ابن عجلان في نهر غسان واستباء هند عقله ولبه

وأَمّا عبدُ اللهِ بنُ عجلانَ . . فإِنَّهُ مِنْ قضاعةَ ، وقد عَلِقَ بهندٍ ابْنةِ كعبِ بنِ عمرِو بنِ ليثٍ النهديِّ ؛ وذلكَ أَنَّهُ خرجَ يوماً إِلىٰ شِعْبٍ مِنْ شعابِ (نجدٍ) ، ينشدُ ضالَّةً لهُ ، فشارفَ ماءً ، يُقالُ لهُ : (نهر

---

(١) المعروقُ : هو عظمٌ أُكِلَ اللحم الذي عليهِ .

غسَّانَ) ، تقصدُهُ بناتُ العربِ ، وتغتسلُ فيهِ ، فرآهنَّ مِنْ ربوةٍ تشرفُ عليهِ مِنْ بعيدٍ ، فمكثَ ينظرُ إليهنَّ مستخفياً حتَّىٰ صدرنَ ، وبقيَتْ هندٌ تُمشِّطُ شعرَها ، وترسلُهُ علىٰ بدنِها ، وكانَ طويلاً جَثْلاً[١] ، وهو يتأمَّلُ شفوفَ بياضِ جسمِها مِنْ خلالِ سوادِ شعرِها ، ولمّا نهضَ ليركبَ راحلتَهُ . . عَجزَ ، وأُقعدَ ساعةً ، وكانَ مِنَ الأَيْدِ[٢] بحيثُ يَصُفُّ أَربعَ رواحلَ ، يثبُ الثلاثَ ، ويركبُ الرابعةَ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كُنْتُ ذَا بَأْسٍ شَدِيْدٍ وَهِمَّةٍ إِذَا شِئْتُ لَمْساً لِلثُرَيَّا لَمَسْتُهَا
أَتَتْنِي سِهَامٌ مِنْ لِحَاظٍ فَأَرْشَقَتْ بِقَلْبِيْ وَلَوْ أَسْطِيْعُ رَدّاً رَدَدْتُهَا[٣]

ثُمَّ قال : هـٰذا واللهِ الضالَّةُ التي لا تردُّ ، ثُمَّ عادَ ، وقد تمكَّنَ الهوىٰ منهُ ، فأخبرَ صديقاً لَهُ ، فقالَ : ٱكتمْ وٱخطُبْهَا إِلىٰ أَبيها ، فإنَّهُ مُزوِّجُكَ ، ما لَمْ يشتهر حبُّكَ لها ، وإلاَّ حُرِمْتَها ، ففعلَ وتزوَّجَها ، وأَقامَتْ عندَهُ ثماني سنينَ ، لا يزدادُ فيها إِلاَّ غراماً وكَلَفاً[٤] ، غيرَ أَنَّها لَمْ تحمِلْ ، وكانَ أَبوهُ مثرياً ، فأَقسمَ عليه ليتزوَّجَنَّ أُخرىٰ للولدِ ، فأَبَتْ مِنَ ٱلضَّرَّةِ ، فأَلَحَّ عليهِ في طلاقِها ، فلَمْ يفعلْ ، حتَّىٰ سكرَ ، فأَرسلَ إِليهِ يدعوهُ ، فمنعَتهُ هندٌ ، وقالَتْ : واللهِ لا يدعوْكَ لخيرٍ ، وما أَراهُ إِلاَّ عرفَ سكرَكَ ، فدعاكَ للطلاقِ ، فأَبىٰ إِلاَّ ٱلخروجَ ، فجاذبَتْهُ ، ويدُها مخلَّقَةٌ[٥] بالزَّعفرانِ ، فأَثَّرَتْ في ثوبِهِ ،

---

(١) الجَثْلُ : هوَ الضخمُ الغليظُ .
(٢) الأَيْدُ : القوَّةُ .
(٣) الرَّشقُ : الرميُ .
(٤) كَلِفَ بالشيء : أُولعَ به .
(٥) مخلَّقةٌ : مطيَّبةٌ .

ولمّا جلسَ مع أَبيهِ ، وعندَهُ أكابرُ ٱلعربِ . . أَخذوا يعنِّفونَهُ ، ويتناوشونَهُ باللَّومِ مِنْ كلِّ مكانٍ ، حَتَّىٰ ٱستحيا فطلَّقَها ، فٱحتجبَتْ منهُ فوَجِدَ وَجْداً شديداً كادَ يقضي منهُ ، وعندما أَرادتْ أَنْ تتحمَّلَ عنهُم قالَ [كما في « الأغاني » ٢٢/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ زُوْرَا قَبْلَ شَحْطِ ٱلنَّوَىٰ هِنْداً ... وَلاَ تَأْمَنَا مِنْ دَارِ ذِيْ لَطَفٍ بُعْدَا[1]

وَلاَ تَعْجَلاَ لَمْ يَدْرِ صَاحِبُ حَاجَةٍ ... أَغَيّاً يُلاقِيْ فِيْ ٱلتَّعَجُّلِ أَمْ رُشْدَا

وَمُــرَّا عَلَيْهَــا بَــارَكَ ٱللهُ فِيْكُمَــا ... وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هِنْدٌ لِوَجْهَيْكُمَا قَصْدَا

وَقُوْلاَ لَهَا لَيْسَ ٱلضَّلاَلُ أَجَازَنَا ... وَلَـٰكِنَّنَا جُزْنَا لِنَلْقَاكُمُ عَمْدَا

غَدَاً يَكْثُرُ ٱلْبَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُمُ ... وَتَزْدَادُ دَارِيْ عَنْ دِيَارِكُمُ بُعْدَا

موته وموت هند متعانقين

ثُمَّ إِنَّ هنداً تزوَّجتْ في بني نُميرٍ ، وعبدُ اللهِ ينمو شوقُهُ ، ويتضاعفُ وجدُهُ ، وكانَتْ بينهم ثاراتٌ ودماءٌ ، فحذَّرَهُ أبوهُ مِنَ ٱلخروجِ إِليهِم ، فخرجَ سِرّاً ، حَتَّىٰ أَتاها ، وهي جالسةٌ علىٰ حوضٍ ، وزوجُها يسقي إِبلاً لهُ ، فلمّا تعارفا . . شَدَّ كُلٌّ منهما علىٰ صاحبِهِ ، وٱعتنقا ، وسقطا إِلىٰ الأَرضِ ، فجاءَ زوجُها ، فوجدَهُما مَيْتينِ .

عشقه يضرب به الأمثال

وكانَ موتُهُ قبلَ عامِ ٱلفيلِ بأَربعةِ أَعوامٍ ، وهوَ ممَّنْ تُضرَبُ بهمُ ٱلأَمثالُ في ٱلهوىٰ ؛ ولهـٰذا يقولُ قيسُ بنُ ذُريحٍ [في « ديوانِهِ » ١٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا وَجِدَتْ وَجْدِيْ بِهَا أُمُّ وَاحِدٍ ... وَلاَ وَجدَ ٱلنَّهْدِيُّ وَجْدِيْ عَلَىٰ هِنْدِ

وَلاَ وَجِدَ ٱلْعُذْرِيُّ عُرْوَةُ فِيْ ٱلْهَوَىٰ ... كَوَجْدِيْ وَلاَ مَنْ كَانَ قَبْلِي وَلاَ بَعْدِيْ

---

(١) **الشَّحْطُ** : البعدُ .

وقالَ أَبو عُيينةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا وَجدَ ٱلنَّهْدِيُّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً ... عَشِيَّةَ بَانَتْ مِنْ حَبَائِلِهِ هِنْدُ

وَلاَ عُرْوَةُ ٱلْعُذْرِيُّ إِذْ طَالَ وَجْدُهُ ... بِعَفْرَاءَ حَتَّىٰ شَفَّ مُهْجَتَهُ ٱلْوَجْدُ

كَوَجْدِيْ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ عِنْدَ ٱلْتِفَاتِهَا ... وَقَدْ طَارَ عَنْهَا بَيْنَ أَتْرَابِهَا ٱلْبُرْدُ(١)

وقالَ آخرُ [مِنَ الوافرِ] :

وَقَبْلِـيْ مَـاتَ مِـنْ وَجْـدٍ بِهِنْـدٍ ... أَخُـوْ نَهْـدٍ وَصَـاحِبُـهُ جَمِيْـلُ

وَعُـرْوَةُ وَٱلْمُـرَقَّـشُ هَـامَ دَهْـراً ... بِـأَسْمَـاءٍ فَلَـمْ يُغْـنِ ٱلْعَـوِيْـلُ

فأَمَّا النهديُّ . . فقد ٱقتصصْنَا حديثَهُ .

عروة بن حزام وعفراء

وأَمَّا عروةُ بنُ حِزامٍ . . فإِنَّهُ عذريٌّ ، توفِّيَ أَبوهُ ، ولهُ مِنَ ٱلعمرِ أَربعُ سنينَ ، وكَفَلَهُ أَبو عفراءَ ، فنشأا معاً ، فلمَّا ٱستوىٰ . . خطَبها إِلىٰ عمِّهِ ، فوعدَهُ ، ثُمَّ أَخرجهُ إِلىٰ (الشامِ) في عيرٍ لَهُ ، وجاءَ ٱبنُ أَخٍ لَهُ ـ يقالُ لهُ : أُثاثةُ بنُ سعيدِ بنِ مالكٍ ـ يريدُ الحجَّ ، فرأَىٰ عفراءَ ، فأَصابَتْ حبَّةَ قلبهِ ، فخطبَها مِنْ عمِّهِ ، فزوَّجَهُ إِيَّاهَا ، ولمَّا ٱحتَمَلَها . . أَقبلَ عروةُ ، فعرفَها مِنْ بعيدٍ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

بِنَا مِنْ جَوَىٰ ٱلأَحْزَانِ وَٱلْبُعْدِ لَوْعَةٌ ... تَكَادُ لَهَا نَفْسُ ٱلْجَلِيْدِ تَذُوْبُ(٢)

عَشِيَّـةَ لاَ عَفْـرَاءُ مِنْـكَ بَعِيْـدَةٌ ... فَتَسْلُوْ وَلاَ عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيْبُ

وَبإِثرِ ذلكَ ٱشتدَّ قلقُهُ ، وكثُر تعبُهُ ، وزادَ ضناهُ ، وجفاهُ نومُهُ ،

---

(١) البُرْدُ : كساءٌ أَسودُ تلبسهُ نساءُ العربِ .

(٢) الجَوىٰ : داءٌ في الصدرِ من شدَّةِ العشقِ .

وٱمتنعَ عليهِ طعامُهُ ، ومرَّ بهِ ٱبنُ أَبي عتيقٍ ، وهو نِضوٌ[1] ، تلاطفهُ أُمُّهُ ، فسأَلَهَا عَنْ شأَنِهِ ، فأَخبرتْهُ ، فقالَ : ٱرفعي عنهُ الغطاءَ ، فإِذا بهِ مثلُ الخيالِ ، فرَقَّ عليهِ ، وٱستنشدَهُ ، فأَنشدَهُ بعضَ أَبياتِهِ النونيَّةِ ، التي يصرِّحُ فيها بأَنَّ عمَّهُ ٱشتطَّ عليهِ في المهرِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٤٤ مِنَ الطَّويل] :

يُكَلِّفُنِـيْ عَمِّـيْ ثَمَـانِيْـنَ نَـاقَـةً ... وَمَالِيَ وَٱلرَّحْمَـٰنِ غَيْرُ ثَمَانِ

موت عروة وعفراء

ولمّا أَيسَ مِنَ ٱلشفاءِ . . حُمِلَ إِلىٰ (البلقاءِ) ، حيثُ يَشَمُّ رائِحةَ عفراءَ ، ويسارِقُهَا النظرَ في مظانِّ ورودِها ، ولم يزَلْ هناكَ حتَّىٰ عرفَهُ رجلٌ مِنْ عذرَةَ ، فجاءَ إِلىٰ زوجِ عفراءَ ، وقالَ لَهُ : متىٰ قدمَ عليكُم هـٰذا الكلبُ الذي فضحَكُم بنسيبهِ[2] فيكم ، قالَ : ومَنْ تعني ؟ قالَ : عروةُ بنُ حزامٍ ، قالَ : واللهِ لأَنتَ أَحقُّ بما قلْتَ فيهِ ، وأَسرعَ في طلبهِ حتَّىٰ لقيَهُ ، وأَقسمَ عليهِ بالمحرَّجاتِ أَلاَّ ينزلَ إِلاَّ عندَهُ ، فأَجابَهُ ، وأَضمرَ في نفسهِ أَنْ يركبَ الليلَ ، فمضىٰ ، وٱشتدَّ بهِ الأَلمُ ، وماتَ بـ(وادي القُرىٰ) ، ولمّا ٱتَّصلَ موتُهُ بعفراءَ . . ٱستأَذنَتْ زوجَها في ندبهِ والخروجِ إِلىٰ قبرهِ ، فأَذنَ لها ، وعندما وصلَتْ إِليهِ تمرَّغَتْ عليهِ ، وقالَتْ [مِنَ الطَّويل] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلرَّكْبُ ٱلْمُخِبُّوْنَ وَيْحَكُمْ ... بِحَـقٍّ نَعَيْتُـمْ عُـرْوَةَ بْـنَ حِـزَامِ[3]

فَإِنْ كانَ حَقّاً مَا تَقُوْلُوْنَ فَٱعْلَمُوْا ... بِأَنْ قَدْ نَعَيْتُمْ بَدْرَ كُلِّ ظَلاَمِ

فَـلاَ لَقِـيَ ٱلْفِتْيَـانُ بَعْـدَكَ رَاحَـةً ... وَلاَ رَجَعُـوْا مِـنْ غَيْبَـةٍ بِسَـلاَمِ

---

(١) نِضوٌ : هزيلٌ مريضٌ .

(٢) نسيبُ الشِّعرِ : رقيقهُ المتغزلُ بهِ في النِّساءِ .

(٣) المخبُّونَ : المضطربونَ ، وهذا نتيجة الخَبَب ، وهو ضرب من العَدْو .

وَلاَ وَضَعَتْ أُنْثَىٰ تَمَاماً بِمِثْلِهِ وَلاَ ٱنْفَرَجَتْ مِنْ بَعْدِهِ بِغُلاَمِ

الشجرتان المتعانقتان

وما فرغَتْ مِنْ شِعرِها إلاَّ وأَلقَتْ بنفسِها علىٰ القبرِ ، فحرَّكَها أَصحابُها ، فإِذا هي ميْتةٌ ، فدفنُوها إِلىٰ جانبهِ ، فنبتَ مِنَ القبرِ شجرتانِ ، ٱلتفَّتَا لَمّا صارتَا علىٰ حدِّ القامةِ بهيئَةِ المتعانقينِ[1] .

رواية للأصفهاني عن عروة

وأَخرجَ أَبو الفرجِ [في « الأغاني » ٢٤/١٣٧] مِنْ طريقِ ٱلكلبيِّ عَنْ أَبي صالحٍ قالَ :

كنتُ معَ ٱبنِ عبَّاسٍ بـ(عرفةَ) ، فحُمِلَ إِليهِ فتىً لَمْ يبقَ إِلاَّ خيالُهُ ، فقالُوا : ٱدعُ لَهُ ، قالَ : ومَا بِهِ ؟ قالوا : الهوىٰ ، ثُمَّ خفقَ في أَيديهم ، فما رأَيتُ ٱبنَ عبَّاسٍ في عشيَّتِهِ يسأَلُ اللهَ إِلاَّ العافيةَ ممَّا ٱبتُلِيَ بهِ الفتىٰ ، وسأَلْتُ عنهُ ، فقالوا : عروةُ بنُ حزامٍ ، وهـٰذهِ الروايةُ تناقِضُ التي قبلَها ، والأُولىٰ أَثبتُ ، وأَذكرُ في النّاسِ .

المرقش والخلاف في اسمه وشجاعته

وأَمَّا المرقَّشَ : فالمرادُ بهِ الأَكبرُ ، وٱسمهُ عمرٌو ، وقيلَ : عوفُ بنُ سعدِ بنِ مالكٍ ، ينتهي نسبُهُ لبكرِ بنِ وائلٍ ، وإِنَّما سمِّيَ المرقَّشَ ؛ لقولِهِ [كما في « البيان والتَّبيينِ » ١/١٩٦ من الكامل] :

ٱلـدَّارُ وَحْـشٌ وَٱلـرُّسُـوْمُ كَمَـا رَقَّشَ فِيْ ظَهْرِ ٱلأَدِيْمِ قَلَمْ[2]

أَو لأنَّهُ قَتلَ نَمِراً وَأَسَداً وَمرَّ بالحيِّ مُلْتحِفاً جِلْدَيْهما فسمَّوْهُ .

عشقه لأسماء بنت عوف

ولهُ ذكرٌ في حربِ وائلٍ ومكانٌ فيها ، وبأسٌ وشجاعةٌ ونجدةٌ ، وكانَ مِنْ خبرِهِ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٢٧] : أَنَّهُ عشقَ ٱبنةَ عمِّهِ أَسماءَ بنتَ عوفٍ ، فخطبَها ، فقالَ : لا أُزوِّجُكَ حَتَّىٰ تُعرفَ

---

(١) القصَّةُ بنحوها في « مَصارِعِ ٱلعُشَّاقِ » (١/٣١٧) .
(٢) الرَّقْشُ : الكتابةُ والتنقيطُ .

تزويج والدها إياها لرجل من مراد وهُيام المرقش بها وموته من ذلك

بالبأسِ ، وأَعطاهُ المواثيقَ ، فٱنطلقَ المرقَّشُ إلىٰ بعضِ الملوكِ ، وأَقامَ عندَهُ زماناً يمدحُهُ ، فأَكرمَ مثواهُ ، وأَجازَهُ ، وأَصابَ عوفاً مَحْلٌ وجَهدٌ ، فأَتاهُ رجلٌ مِنْ مرادٍ ، فزوَّجَهُ أَسماءَ علىٰ مئةٍ مِنَ ٱلإبلِ ، ثُمَّ تنحَّىٰ عَنْ بني سعدِ بنِ مالكٍ ، وأخذَ ٱمرأَتَهُ معهُ ، وجاءَ المرقَّشُ ، وٱتَّفقَ أَهلُهُ علىٰ أَن لا يخبروهُ بزواجِها ، وأَجمعوا علىٰ أَن يقولُوا لَهُ : ماتَتْ ، وبقيَ الأَمرُ علىٰ ذلكَ مدَّةً ، وأَثَرُ الضَّنىٰ يظهرُ عليهِ ، حتَّىٰ ٱستيقنَ دُخلَةَ[1] الأَمرِ مِنْ بعضِ الصبيانِ ، فدعىٰ بوليدةٍ لَهُ وزوجٍ لَها مِنْ بني عقيلٍ ، وٱحتملُوا معاً إلىٰ (اليمنِ) ، وٱشتدَّ بهِ المرضُ في الطريقِ ، فأَنزلُوهُ بكهفٍ يقربُ مِنْ أَرضِ مرادٍ ، ثُمَّ ٱنصرفا عنهُ ، وقالا : ماتَ ، ولَمْ يزلْ بذلكَ الكهفِ ، حَتَّىٰ أَقبلَ عليهِ راعي غنمٍ ، فسأَلَهُ عَنْ شأنِهِ ، فقالَ : أَنا مِنْ مرادٍ ، وأَنت راعيْ مَنْ ؟ قالَ : راعي فلانٍ ـ لزوجِ أَسماءَ ـ قالَ : هَل تستطيعُ أَنْ تكلِّمَ ٱمرأَةَ صاحبِكَ ؟ قالَ : لا ، ولا أَدنو منها ، غيرَ أَنَّ جاريتَها تأَتيني كلَّ ليلةٍ فأَحلبُ لها ما تشاءُ ، فقالَ لهُ : خُذْ خاتمي هـٰذا ، فإِذا حلَبْتَ . . فٱجعلْهُ في اللَّبنِ ، فإِنَّها ستعرفُهُ ، وستصيبُ بهِ خيراً لَمْ يصبْهُ راعٍ قطُّ ، ففعلَ ، وٱنطلقَتِ الجاريةُ باللَّبنِ ، وتركتْهُ بينَ يدي أَسماءَ ، فلمَّا سكنَتِ ٱلرغوةُ . . أخذَتْهُ ، فشربَتْهُ ، وكذلكَ كانَتْ تصنعُ ، فقَرَعَ الخاتَمُ ثنيتَها ، فأَخذَتْه ، وعرفَتْهُ ، فسأَلَتْ عنهُ الجاريةَ ، فقالَتْ : لا علمَ لي بهِ ، فٱستدعَتْ زوجَها ؛ ليستفْهمَ العبدَ عَنِ ٱلخاتمِ ، فأَخبرَهُمْ بِمَنْ دفعَهُ لَهُ ، وأَنَّهُ في الكهفِ بآخرِ

(١) الدُّخلَةُ : باطن الأمرِ .

رمقٍ ، فركبَتْ معَ زوجِها في الخيلِ ، حتَّىٰ طرقاهُ ، وٱحتملاهُ إِلىٰ الحيِّ ، وماتَ عندَهُم في أرضِ مرادٍ .

ولهمُ مرقَّشٌ آخرُ : هو ٱبنُ أخي الأوَّلِ ، وهو عَمُّ طَرفَةَ بنِ العبدِ ، وهو مِنْ عشَّاقِ العربِ أيضاً ، كانَ يهوىٰ فاطمةَ بنتَ المنذرِ الملكِ ، وكانَ يُشبِّبُ بِها ، وكانَتْ لَهُ في حربِ وائلٍ مواقفُ لا تقلُّ عن مواقفِ عمِّهِ[1] .

هناك مرقش آخر هو عم طرفة بن العبد

وأمّا قيسُ بنُ ذُريحٍ . . فسنتركُ حديثَهُ إِلىٰ الكلامِ علىٰ **قولِ الناظمِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٥ مِنَ البسيطِ] :

إحالة الحديث عن ابن ذريح إلى مكان آخر

عَلَّ ٱلأَمِيْرَ يَرَىٰ ذُلِّيْ فَيَشْفَعَ لِيْ إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

فإِنَّ لهُ بهِ ٱتِّصالاً قويّاً ، وما ذكرناهُ هنا كافٍ لمناسبةِ تعجُّبِهِ مِنَ ٱلعيشِ معَ كثرةِ ما يجورُ البينُ ، ويقتلُ الهوىٰ ، وما أَحسنَ قولَ عروةَ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

بقاء المحبين عجيب

وَمَا عَجَبِيْ مَوْتُ ٱلْمُحِبِّيْنَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ وَلَـٰكِـنْ بَقَـاءُ ٱلْعَـاشِقِيْـنَ عَجِيْـبُ

وقولَ قَيسِ بنِ ذريحٍ أَوِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ علىٰ ٱختلافِ الرِّوايةِ [في « ديوان قيس بن ذريح » ٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ عُرْوَةَ ٱلْعُذْرِيِّ إِنْ مُتُّ أُسْوَةٌ وَعَبْدِ بْنِ عَجْلاَنَ ٱلَّذِيْ قَتَلَتْ هِنْدُ
فَبِيْ مِثْلُ مَا قَدْ نَابَهُمْ غَيْرَ أَنَّنِيْ إِلَـىٰ أَجَـلٍ لَـمْ يَـأْتِنِـيْ وَقْتُـهُ بَعْـدُ
وَفَيْـضُ دُمُـوْعِ ٱلْعَيْـنِ بِـٱللَّيْـلِ كُلَّمَـا بَدَا عَلَمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَبْدُوْ

* * *

---

(١) كما في « الأغاني » (٦/ ١٣٦) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَداً وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاَ

من دلائل صدق الهوى

ذوبان الجسم في الحب

يقولُ : إِنَّ الوجدَ يقوىٰ ، والنوىٰ يزيدُ ، والصبرَ يذهبُ ، والجسمَ ينحلُ ، وهـٰذا دليلُ صحَّةِ الهوىٰ وصدقِ الحبِّ .

قالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ٩٧ـ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ٱلْجِلْدُ وَٱلْعَظْمُ عَارِياً وَلاَ عَظْمَ لِيْ إِنْ دَامَ مَا بِيْ وَلاَ جِلْدُ
أُقَلَّبُ بِـالأَيْـدِيْ وَقَـوْمِـيْ تَعُـوْلُنِـيْ يُفَدُّوْنَنِيْ لَوْ يَسْتَطِيْعُوْنَ أَنْ يَفْدُوْا[1]

أيزيد أم ينقص الحب؟

وقالَ [في « مَصارعِ ٱلعشَّاقِ » ٢/ ٩١ مِنَ ٱلوافرِ] :

ذَكَـرْتُ عَشِيَّـةَ ٱلصَّـدَفَيْـنِ لَيْلَـىٰ وَكُلَّ ٱلدَّهْرِ ذِكْرَاهَا جَدِيْدُ[2]
عَلَـيَّ أَلِيَّـةٌ إِنْ كُنْـتُ أَدْرِيْ أَيَنْقُـصُ حُـبُّ لَيْلَـىٰ أَمْ يَـزِيْـدُ

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في « ديوانهِ » ٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلْحُـبِّ آيَـاتٌ تَبَيَّـنُ لِلْفَتَـىٰ شُحُوْبٌ وَتُبْرَىٰ مِنْ يَدَيْهِ ٱلأَشَاجِعُ[3]

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ٦٣ـ٦٤ من الطويلِ] :

عَلِقْتُ ٱلْهَوَىٰ مِنْهَا وَلِيْداً وَلَمْ يَزَلْ إِلَـىٰ ٱلْيَـوْمِ يَنْمُـوْ حُبُّهَـا وَيَـزِيْـدُ
وَأَفْنَيْتُ عُمْرِيْ فِيْ ٱنْتِظَارِ نَوَالِهَا وَأَفْنَتْ بِذَاكَ ٱلدَّهْرَ وَهْوَ جَدِيْدُ

---

(١) **الإعالةُ** : المساعدة .
(٢) **الصدفانِ** : جبلانِ متلاقيانِ ، بيننا وبين يأجوجَ ومأجوجَ .
(٣) **الأَشاجِعُ** : هيَ أُصولُ الأَصابعِ التي تتَّصِلُ بعصَبِ ظاهرِ الكَفِّ .

الحب النامي

وقالَ هو أَو قيسٌ [كما في « ديوان قيس بنِ ذريحٍ » ١٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تعَلَّقَ رُوْحِيْ رُوْحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا ... وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نِطَافاً وَفِيْ ٱلْمَهْدِ
فَزَادَ كَمَا زِدْنَا وَأَصْبَحَ نَامِيَاً ... وَلَيْسَ إِذَا مِتْنَا بِمُنْفَصِمِ ٱلْعَقْدِ
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَىٰ كُلِّ حَادِثٍ ... وَإِنَّا لنَرْجُوْ ٱلْوَصْلَ فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّحْدِ

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوانهِ » ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ يَحْسَبِ ٱلْوَاشُوْنَ أَنَّ صَبَابَتِيْ ... بِعَزَّةَ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتِ[1]

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ ٱلْقُلُوْبِ وَلاَ أَرَىٰ ... نَصِيْبَكِ مِنْ قَلْبِيْ لِغَيْرِكِ يُمْنَحُ
فَبَعْضُ ٱلْهَوَىٰ بِٱلْهَجْرِ يُمْحَىٰ فَيَنْمَحِيْ ... وَحُبُّكِ عِنْدِيْ يَسْتَجِدُّ وَيَرْجَحُ

وقالَ المجنونُ أَو غيرُهُ [في « ديوانهِ » ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكَ لاَ تُنْسِيْكَ لَيْلَىٰ مُلِمَّةٌ ... تُلِمُّ وَلاَ يُنْسِيْكَ عَهْداً تَقَادُمُهْ[2]

الحب الصادق لا يبلى مدى الدهر

أَمَّا قولُ زهيرِ بنِ جَنَابٍ [مِنَ ٱلوافرِ] :

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَنْسَىٰ حَبِيْباً ... فَأَكْثِرْ دُوْنَهُ عَدَدَ ٱللَّيَالِيْ
فَمَا سَلَّىٰ حَبِيْباً مِثْلُ نَأْيٍ ... وَلاَ أَبْلَىٰ جَدِيْداً كَٱبْتِذَالِ

.. فقد ردَّهُ عليهِ جميلُ بنُ معمرٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَا ٱللهُ أَقْوَاماً يَقُوْلُوْنَ: إِنَّنَا ... وَجَدْنَا طِوَالَ ٱلنَّأْيِ لِلْحُبِّ شَافِيَا

---

(١) الغَمْرةُ : الشِّدَّة .

(٢) أَجِدَّكَ : منصوبٌ على المصدريةِ ، وهي كلمةٌ تستعملُ في معنىٰ : أَجِدٌّ منكَ ؟ وتأتي بمعنىٰ : مالكَ ؟ .

وهـٰذا البيتُ موجودٌ أَيضاً في قصيدةِ ٱلمجنونِ ٱلمشهورةِ ، وبعدَهُ [في « ديوانهِ » ٢٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَعَهْدِيْ بِلَيْلَىٰ وَهِيَ ذَاتُ مُؤَشَّرٍ   تَرُدُّ عَلَيْنَا بِٱلْعَشِيِّ ٱلْمَوَاشِيَا[1]
فَشَبَّ بَنُوْ لَيْلَىٰ وَشَبَّ بَنُوْ ٱبْنِهَا   وَأَعلاَقُ لَيْلَىٰ فِيْ فُؤَادِيْ كَمَا هِيَا[2]

القلب العاشق لا يعرف الملل

وقالَ ٱبنُ زيدونَ [في « ديوانهِ » ٥-٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ تَحْسَبُوْا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا   إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّينَا
وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً   مِنْكُمْ وَلاَ ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِيْنَا

وقد نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ الحارثِ بنِ كِلدَةَ يعاتبُ أَصحابَهُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

كَتَبْتُ إِلَيْهِمُ كُتُباً مِرَاراً   فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ لَهَا جَوَابُ
فَمَا أَدْرِيْ أَغَيَّرَهُمْ تَنَاءٍ   وَطُوْلُ ٱلْعَهْدِ أَمْ مَالاً أَصَابُوْا
فَمَنْ يَكُ لاَ يَدُوْمُ لَهُ وِصَالٌ   وَفِيْهِ حِيْنَ يَغْتَرِبُ ٱنْقِلاَبُ
فَعَهْدِيْ دَائِمٌ لَهُمُ وَوُدِّيْ   عَلَىٰ حَالٍ إِذَا شَهِدُوْا وَغَابُوْا

وقالَ حسَّانُ بنُ إِسحاقَ[3] ـ وهو مولىٰ بني مرَّةَ بنِ عوفٍ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

بِقَلْبِيْ بَلاَءٌ لَسْتُ أُحْسِنُ وَصْفَهُ   عَلَىٰ أَنَّهُ مَا كَانَ فَهُوَ شَدِيْدُ
تَمُرُّ بِهِ ٱلأَيَّامُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا   فَتَبْلَىٰ بِهِ ٱلأَيَّامُ وَهُوَ جَدِيْدُ

---

(١) ٱلمُؤَشَّر : ٱلمُرَقَّق . وفي الديوان : (ذات مؤصدٍ) ، وهو : القميص الصغير الذي يلبس تحت الثوب . والمعنى : أنها صغيرة .

(٢) أَعلاقُ ـ جمعُ عِلْقٍ ـ : وهو ما تعلَّقَ به القلبُ .

(٣) بل هي لأبي يعقوب الخزيمي كما في « البيان والتبيين » (١/١٢٦) .

قصائد للمؤلف في رثاء ولده

ويَنخَرِطُ في ٱلسلكِ قولي مِنْ رِثاءِ ولدي بَصريٍّ ، في اللاَّميَّةِ [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ٩٦ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَعِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلأُوْلَىٰ تَرَانِيْ ... صَبَرْتُ وَبَعْدَهَا قَلَّ ٱحْتِيَالِيْ

فَكَذَّبْتُ ٱلَّذِيْ قَدْ قَالَ قَبْلِيْ ... وَقَرَّبَ لِيْ ٱلْبَعِيْدَ مِنَ ٱلْمُحَالِ

(إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَنْسَىٰ حَبِيْبَاً ... فَأَكْثِرْ دُوْنَهُ عَدَّ ٱللَّيَالِيْ)

وقلتُ في الرائيَّةِ [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَدُّ لَبِيْدٍ فِيْ ٱلْبُكَاءِ لِمِثْلِهِ ... مِنَ ٱلشَّيْبِ أَمَّا ذَا.. فَمُبْكِيْ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ

وَلِيْ نَوْعُ سَلْوَىٰ بِٱعْتِقَادِيْ نَجَاتَهُ ... وَمَا أَنَا رَاجٍ فِيْ ٱحْتِسَابِيْ مِنَ ٱلذُّخْرِ

وَمَا شَابَ عِلْمِيْ مِنْ شُكُوْكٍ بِمَوْتِهِ ... فَمَا زَالَ مَلآنَاً بِتَمْثِيْلِهِ سِرِّيْ

ثَوَىٰ ذِكْرُهُ فِيْ خَاطِرِيْ وَخَيَالُهُ ... بِعَيْنَيَّ وَمِنْ رَيَّاهُ فِيْ الأَنْفِ كَالْعِطْرِ

وقلتُ مِنَ ٱللزوميَّةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِحَوْلَيْنِ مَرَّا مِنْ فِرَاقِكَ يَا بَصْرِيْ ... تَجَدَّدَ قَرْحٌ مَسَّنَا مِنْكَ فِيْ ٱلْعَصْرِ

فَبِتْنَا وَمَا زِلْنَا إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ فِيْ أَسَىً ... وَلَمْ تُمْسِ إِلاَّ - وَٱلنَّبِيِّيْنَ - فِيْ قَصْرِ

وقلْتُ في ٱلداليَّةِ [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ١٠٠-١١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

شُجُوْنٌ عَلَىٰ ٱلأَحْشَاءِ ذَاكَ وَقُوْدُهَا ... وَإِنْ قُدِّمَتْ أَسْبَابُهَا وَعُهُوْدُهَا

تَمُرُّ ٱللَّيَالِيْ وَهِيَ تَزْدَادُ جِدَّةً ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ قَرِيْبَاً وُجُوْدُهَا

تَكَادُ حَصَاةُ ٱلْقَلْبِ تَنْشَقُّ لَوْعَةً ... لِلاَعِجِ أَحْزَانٍ طَوِيْلٍ خُلُوْدُهَا(١)

كَأَنَّ فَضَاءَ ٱللهِ فِيْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ ... عَلَيَّ فَأَنْفَاسِيْ شَدِيْدٌ صُعُوْدُهَا

كَأَنَّ خَرِيْقَ ٱلرِّيْحِ يَهْفُوْ بِمُهْجَتِيْ ... لِتِذْكَارِ بَصْرِيْ مِنْ هُمُوْمٍ تَعُوْدُهَا

---

(١) اللاعج : الهمُّ المحرقُ مِنِ الحبِّ .

مُصَابٌ لَهُ دَمْعِي عَزَاءٌ وَمَحْجِرِيْ قَرِيْحٌ وَأَشْجَانِي تَوَالَىٰ وُفُوْدُهَا[1]
فَيَا طَلْعَةً كَانَ ٱلْوَثِيْرُ فِرَاشَهَا تَوَسَّدَتِ ٱلصَّخْرَ ٱلأَصَمَّ خُدُوْدُهَا[2]

وقلتُ في خطابِ جيرانِهِ ـ وهم أجدادُهُ لأُمِّهِ ـ مِنَ ٱلميميَّةِ [في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ١٠٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَهَلْ كَانَتْ وَدِيْعَتُنَا لَدَيْكُمْ مُكَرَّمَةً بِرَعْيٍ وَٱحْتِرَامِ
فَبَيْنَ جَوَانِحِيْ مِنْهَا لَهِيْبٌ وَمِنْ جَفْنَيَّ صَوْبُ ٱلدَّمْعِ هَامِيْ
كَأَنَّ حَشَاءَنَا فِيْهِنَّ سُمٌّ يُقَطِّعُهُنَّ أَوْ وَخْزُ ٱلسِّهَامِ
أَرَدْنَا مِنْ خَوَاطِرِنَا سُلُوّاً فَقُلْنَ لَنَا : ٱلسُّلُوُّ مِنَ ٱلْحَرَامِ
وَإِنْ غَيَّىٰ لَهُ حَوْلاً لَبِيْدٌ فَرَأْيُ أَخِيْ هُذَيْلٍ لِلْقِيَامِ

أَرَدْتُ قولَ لبيدٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ ثُمَّ ٱسْمُ ٱلسَّلاَمِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ ٱعْتَذَرْ

وقولَ أَبي صخرٍ ٱلهذليِّ [في « ديوانِ ٱلحماسةِ » ٢/ ٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَا حُبَّهَا زِدْنِيْ جَوَىً كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ ٱلأَيَّامِ مَوْعِدُكِ ٱلْحَشْرُ[3]

وإِنِّي لأُكاثِرُ التهاميَّ بما قلْتُهُ في رِثاءِ وَلَدي بَصريٍّ ؛ لأَنَّهُ كانَ عَنْ ذوقٍ سليمٍ ، ولذْعٍ في الصميمِ ، ولا يظهرُ صدقُ قولي إِلاَّ لِمَنْ بِرُمَّتِها رآها ، إِذِ ٱلقَدْرُ الذي كانَ محلَّ الشاهدِ هنا ليسَ مِنْ ذُراها ، وإِنِّي لَكَما قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٧١ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيُسِيْءُ بِٱلإِحْسَانِ ظَنّاً لاَ كَمَنْ هُوَ بِٱبْنِهِ وَبِشِعْرِهِ مَفْتُوْنُ

---

(١) المَحْجِرُ : العينُ .
(٢) الفراشُ الوثيرُ : المحشوُّ المريحُ .
(٣) الجوىٰ : الحرقةُ ، وشدَّةُ الوجدِ .

غيرَ أَنَّ الحقَّ لا يتلثَّمُ ، والصدقَ مَنْ قالَهُ لا يتأَثَّمُ .

بيت من الشعر يخرج الأحوص من السجن

وقالَ الزُّهريُّ : دعاني يزيدُ بنُ عبدِ ٱلمَلِكِ ، وقد غنَّتْهُ حَبابةُ بهـٰذا [في « ديوانِ الأَحوصِ » ٢/ ٢٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا رُمْتَ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ ... مِنَ ٱلْحُبِّ مِيْعَادُ ٱلسُّلُوِّ ٱلْمَقَابِرُ
سَيَبْقَىٰ لَهَا فِيْ مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَا ... سَرِيْرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبْلَىٰ ٱلسَّرَائِرُ

وقالَ : لِمَن هـٰذا ؟ فقلْتُ : للأَحوصِ ، وهو في سجنِكُم ، فأَمرَ بإِطلاقِهِ ، وأَنْ تُدفعَ لَهُ أَربعُ مئةِ دينارٍ ، ثُمَّ ٱستقدمَهُ ، وأَحسنَ جائزتَهُ . وإِنَّهُ لأَهلٌ لِما صنعَ بهِ في هـٰذهِ الرِّقَّةِ والإِحسانِ .

ومن العجيب أن البيت نفسه يكون سبباً في حرمانه العفو

وَمِنَ ٱلعجبِ! أَنَّ هـٰذا البيتَ كانَ سببَ حِرمانِهِ العفوَ مِنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ؛ وذلكَ أَنَّهُ كانَ يشبِّبُ بنساءَ ذواتِ أَخطارٍ مِنَ المدينةِ ، فرُفعَ أَمرُهُ إِلىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فنفاهُ إِلىٰ (دَهْلَكَ) ، فأَقامَ بها سلطانَهُ ، ولمّا وَلي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ . . كتبَ إِليهِ يستعطفُهُ ، ويقولُ لَهُ [كما في « الأحوص ـ حياته وشعره » ١٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَيْفَ تَرَىٰ لِلْعَيْشِ طِيْبَاً وَلَذَّةً ... وَخَالُكَ أَمْسَىٰ مُوْثَقاً فِيْ ٱلْحَبَائِلِ

وكلَّمَهُ فيهِ رجالٌ مِنَ ٱلأَنصارِ ، فقالَ لهم : مَنِ ٱلقائلُ : (سَيَبْقَىٰ لَهَا فِيْ مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَا) . . . البيتَ ؟ قالوا : هوَ ، قالَ : إِنَّهُ عنها يومئذٍ لمشغولٌ ، واللهِ لا أَرُدُّهُ ما كانَ لي سلطانٌ[1] .

تعليق المؤلف على القصة

والذي فعلَهُ يزيدُ أَدنىٰ إِلىٰ الصوابِ ، وأَشبهُ بسيرةِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقد تمنَّىٰ أَنْ لو كانَ النضرُ حيّاً . . فوهبَهُ

---

(١) القصة في « طبقات فحول الشعراء » (٢/ ٦٥٧) ، و« الأغاني » (٤/ ٢٤٤) .

لقُتَيلَةَ ؛ لمَّا ٱهتزَّ مِنْ شعرِها المعروفِ[1] ، معَ أَنَّ قتلَهُ لَمْ يكنْ إلاَّ عَدْلاً ، ولٰكنَّهُ أَرادَ لو لَم يسبقِ ٱلسيفُ العَذَلَ[2] أَنْ يغمرَهُ فضلاً .

متى يجوز العفو عن التعزير؟

وقالَ فقهاؤُنَا : بجوازِ العفوِ عَنِ ٱلتعزيرِ إِذا عفا صاحبُهُ ، أَو كانَ لحقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ علىٰ أَنَّ الأَحوصَ قد تُجُوِّزَ بهِ حدُّ العقوبةِ ، فما سبيلُهُ إِلاَّ أَنْ يتمثَّلَ لابنِ عبدِ العزيزِ بقولِ أَبي عُبادةَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِذَا مَحَـاسِنِـيَ ٱلـلاَّتِـيْ أَدُلُّ بِهَـا ... صَارَتْ ذُنُوْباً فَقُلْ لِيْ كَيْفَ أَعْتَذِرُ

شكوى الفراق وحفظ العهد

وممَّا يُعجبني في شكوىٰ الفراقِ ، وحفظِ العهدِ ، قولُ جميلِ بنِ معمرٍ [في « ديوانهِ » ١٥٢ـ١٥٣ مِنَ ٱلخفيفِ] :

---

(١) والنضرُ هوَ ٱبنُ ٱلحارثِ ، وكانَ مِنْ أَكثرِ ٱلمؤذينَ لرسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقتلَهُ رسولُ ٱلله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، بعدَ أَسرِهِ في غزوةِ بدرٍ .
وأَمَّا ٱلأَشعارُ ٱلَّتي قالتها قُتيلةُ فهيَ [من الكامل] :

يَـا رَاكِبـاً إِنَّ ٱلأُثَيْـلَ مَظَنَّـةٌ ... مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ
أَبْلِـغْ بِهَـا مَيْتـاً بِـأَنَّ تَحِيَّـةً ... مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا ٱلنَّجَائِبُ تَخْفِقُ
مِنِّـيْ إِلَيْـكَ وَعَبْـرَةً مَسْفُـوْحَـةً ... جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وَأُخْرَىٰ تَخْنُقُ
هَـلْ يَسْمَعَنِّـي ٱلنَّضْـرُ إِنْ نَـادَيْتُـهُ ... أَمْ كَيْـفَ يَسْمَـعُ مَيِّـتٌ لاَ يَنْطِـقُ
أَمُحَمَّـدٌ يَـا خَيْـرَ ضِـنْءِ كَـرِيمَـةٍ ... فِيْ قَوْمِهَا وَٱلْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
مَـا كَـانَ ضَـرَّكَ لَـوْ مَنَنْـتَ وَرُبَّمَـا ... مَنَّ ٱلْفَتَىٰ وَهْوَ ٱلْمَغِيْظُ ٱلْمُحْنَقُ
أَوْ كُنْـتَ قَـابِـلَ فِـدْيَـةٍ فَلْيُنْفِقَـنْ ... بِـأَعَـزِّ مَـا يَغْلُـوْ بِـهِ مَـا يُنْفِـقُ
فَـالنَّضْـرُ أَقْـرَبُ مَـنْ أَسَـرْتَ قَـرَابَـةً ... وَأَحَقُّهُـمْ إِنْ كَـانَ عِتْـقٌ يُعْتَـقُ
ظَلَّـتْ سُيُـوْفُ بَنِـيْ أَبِيْـهِ تَنُـوْشُـهُ ... للهِ أَرْحَـــامٌ هُنَـــاكَ تُشَقَّـــقُ
صَبْـراً يُقَـادُ إِلَـىٰ ٱلْمَنِيَّـةِ مُتْعَبـاً ... رَسْفَ ٱلْمُقَيَّدِ وَهْوَ عَانٍ مُوْثَقُ

(٢) العَذَلُ : هو قَبول اللوم والاعتذار ، وقولُه : سبقَ السيفُ العَذَلَ ، مَثلٌ يُضرب لما قد فات ، وأصل ذلك : أن الحارث بنَ ظالمٍ ضربَ رجلاً فقتلَهُ ، فأُخبِرَ بعذرِهِ فقال : سبقَ السيفُ العذَلَ .

مَنَعَ ٱلنَّوْمَ شِدَّةُ ٱلاِشْتِيَاقِ   وَٱدِّكَارُ ٱلْحَبِيْبِ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ
لَيْتَ شِعْرِيْ إِذا بُثَيْنَةُ بَانَتْ   هَلْ لَنا بَعْدَ بَيْنِهَا مِنْ تلاَقِي
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ نَادَىٰ ٱلْمُنَادِيْ   مُسْتَحِثّاً بِرِحْلَةٍ وَٱنْطِلاَقِ
لَيْتَ لِيْ ٱلْيَوْمَ يَا بُثَيْنَةُ مِنكُمْ   مَجْلِساً لِلْوَدَاعِ قَبْلَ ٱلْفِرَاقِ
حَيْثُ مَا كُنْتُمُ وَكُنْتُ فَإِنِّيْ   غَيْرُ نَاسٍ لِلْعَهْدِ وَٱلْمِيثَاقِ

البين يفتت الأكباد

وإذا كانَ ٱلبينُ بمجرَّدِهِ يُذيبُ الجمادَ ، ويفتِّتُ الأكبادَ . . فما بالُكَ بالبَينِ الذي لا يرجعُ صداهُ ، ولا ينتهي مداهُ ؛ ولهٰذا **قالَ الناظمُ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلَىٰ أَمَلٍ   مِنَ ٱللِّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلِ

كثير وقبر عزة

وقالَ كُثَيِّرٌ ، وهوَ واقفٌ علىٰ قبرِ عزَّةَ [في « ديوانِهِ » ٤٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَفْتُ عَلَىٰ قَبْرٍ لِعَزَّةَ نَاقَتِي   وَفِيْ ٱلْبُرْدِ رَشَّاشٌ مِنَ ٱلدَّمْعِ يُسْفَحُ
فَيَا عَزُّ أَنْتِ ٱلْبَدْرُ قَدْ حَالَ دُوْنَهُ ٱلْـ   ـتُّرَابُ وَوَارَاهُ ٱلصَّفِيْحُ ٱلْمُضَرَّحُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ مِنْ فِرَاقِكِ حَيَّةً   وَأَنْتِ لَعَمْرِيْ ٱلْيَوْمَ أَنْأَىٰ وَأَنْزَحُ
فَلاَ زَالَ رَمْسٌ ضَمَّ عَزَّةَ سَائِلاً   بِهِ نِعْمَةٌ مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ تُسْفَحُ(١)

القلب الخافق

وقالَ قيسُ [بنُ ذريح في « ديوانِهِ » ٦٤ـ٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْلاَ رَجَاءُ ٱلْقَلْبِ أَنْ تَعْطِفَ ٱلنَّوَىٰ   لَمَا حَمَلَتْهُ بَيْنَهُنَّ ٱلأَضَالِعُ
لَهُ وَجَبَاتٌ إِثْرَ لُبْنَىٰ كَأَنَّهَا   شَقَائِقُ بَرْقٍ فِيْ سَحَابٍ لَوَامِعُ(٢)

---

(١) الرمس : القبرُ .
(٢) وجبَ القلبُ : اضطربَ .

لا ينفع الوطن بلا سكن

وقالَ الشريفُ أبو جعفرٍ ، مسعودُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المحسنِ بنِ الحسنِ البياضيُّ في مجرَّدِ الرثاءِ [مِنَ البسيطِ] :

خَلِّ ٱلْوُقُوْفَ عَلَىٰ ٱلأَطْلاَلِ وَٱلدِّمَنِ ... فَلَيْسَ يَنْفَعُ مَسْكُوْنٌ بِلاَ سَكَنِ

أَمَا تَرَانِيَ لاَ أُثْنِيْ عَلَىٰ طَلَلٍ ... بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ وَلاَ آوِيْ إِلَىٰ وَطَنِ

وَكَيْفَ يَأْنَسُ قَلْبِيْ بِٱلدِّيَارِ وَقَدْ ... أَصَابَ فِيْهَا ٱلرَّدَىٰ مَنْ كَانَ يُؤْنِسُنِيْ

إِنَّ ٱلَّذِيْنَ أَذَاقُوْنِيْ فِرَاقَهُمُ ... أَفْنَيْتُ بَعْدَهُمُ دَمْعِيْ مِنَ ٱلْحَزَنِ

للهِ مَنْ لَعِبَتْ أَيْدِيْ ٱلْمَنُوْنِ بِهِ ... ضَنّاً بِمَا فِيْهِ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلزَّمَنِ

جَعَلْتُ رُوْحِيْ لَهُ مِنْ رُوْحِهِ عِوَضاً ... مُقِيْمَةً مَعَهُ فِيْ ذَلِكَ ٱلْكَفَنِ

فَصَارَ كَٱلْحَيِّ إِذْ رُوْحِيْ تُحِيْطُ بِهِ ... وَصِرْتُ كَٱلْمَيْتِ إِذْ لاَ رُوْحَ فِيْ بَدَنِيْ

يقولُها في جاريةٍ لبنتِ فخرِ الدولةِ هامَ بها ، حتَّىٰ شاعَ أمرُهُ ، فمرضَتْ . . فمرضَ ، ولمَّا ماتَتْ . . لَمْ يعِشْ بعدَها إلاَّ أيَّاماً يسيرةً .

خمرة العاشق ريق الحبيب

وأوردَ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٥/١٩٨] لَهُ قصيدةً لا بأسَ بإيرادِ شيءٍ منها ؛ لأنَّها لا تخرجُ عن موضوعِ البحثِ في الجُملةِ ؛ إذْ هيَ في شكوىٰ الفراقِ ، قالَ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ غَاضَ دَمْعُكَ وَٱلرِّكَابُ تُسَاقُ ... مَعْ مَا بِقَلْبِكَ : فَهُوَ مِنْكَ نِفَاقُ

لاَ يَبْعُدَنْ زَمَنٌ مَضَتْ أَيَّامُهُ ... وَعَلَىٰ مُتُوْنِ غُصُوْنِهِ أَوْرَاقُ

أَيَّامَ نَرْجِسُنَا ٱلْعُيُوْنُ وَوَرْدُنَا ... خَمْرُ ٱلْخُدُوْدِ وَخَمْرُنَا ٱلأَرْيَاقُ

وَلَنَا بِزَوْرَاءِ ٱلْعِرَاقِ مَوَاسِمٌ ... كَانَتْ تُقَامُ لِطِيْبِهَا ٱلأَسْوَاقُ

فَلَئِنْ بَكَتْ عَيْنِيْ دَماً شَوْقاً إِلَىٰ ... ذَاكَ ٱلزَّمَانِ فَمِثْلُهُ يُشْتَاقُ

أَيْنَ ٱلْمَصَابِيْحُ ٱلأُلَىٰ لَوْلاَهُمُ ... مَا كَانَ طَعْمُ هَوَىٰ ٱلْجَمَالِ يُذَاقُ

شَنُّوْا ٱلإِغَارَةَ فِيْ ٱلْقُلُوْبِ بِأَعْيُنٍ ... لاَ يُرْتَجَىٰ لأَسِيْرِهَا إِطْلاَقُ

وَٱسْتَعْذَبُوْا مَاءَ ٱلْعُيُوْنِ فَعَذَّبُوْا ٱلْـ ـعُشَّاقَ حَتَّىٰ دَرَّتِ ٱلآمَاقُ
وَنَمَىٰ ٱلْحَدِيْثُ بِأَنَّهُمْ نَذَرُوْا دَمِي أَوَلِيْ دَمٌ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ يُرَاقُ ؟!

ومِنَ ٱلقِحَّةِ[1] ما رُوِيَ عَنِ الحسنِ البصريِّ : أَنَّ مِنَ ٱلأَدبِ أَلاَّ يُعَزَّىٰ الرجلُ في زوجتِهِ . وما رُوِيَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ زيادٍ سأَلَ أَبا بكرَةَ عَنْ موتِ الأَهلِ ، فقالَ : موتُ الأَبِ قاصمةُ الظهرِ ، وموتُ الولدِ صدعٌ في الفؤادِ ، وموتُ الأَخِ قَصُّ الجناحِ ، وموتُ الزوجةِ حزنُ ساعةٍ . . فإنَّه أَنكرُ وأَقبحُ ممَّا سبقَ مِنْ قولِ زهيرِ بنِ جنابٍ ، ومخالفٌ معَ ذلكَ لفحوىٰ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ؛ إِذْ كيفَ السُّلوانُ يكونُ لمنْ ذهبَ معَ إِلفِهِ السكونُ ؟

شدة وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة

ولقد كانَ حزنُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ علىٰ خديجةَ شديداً ، بآيةِ أَنَّهُ سمَّىٰ عامَ موتِها عامَ ٱلحزنِ ، وكانَتْ لا تخرجُ عَنْ لسانِهِ مدَّةَ حياتِهِ ، حتَّىٰ غارَتْ عائِشةُ مِنْ ذلكَ ، فقالَتْ يوماً : ما تَذْكُرُ مِنْ عجوزٍ حمراءِ الشدقينِ ، قد هلكَتْ في غابرِ الدهرِ ، وأَبدلَكَ اللهُ خيراً منها ، قالَ : « ما أَبدَلَنِيَ اللهُ خَيْراً مِنْهَا ، لَقَدْ آمَنَتْ بِيَ إِذْ كَفَرَ بِيَ ٱلنَّاسُ ، وصدَّقَتْنِيْ حِيْنَ كَذَّبَنِيَ ٱلنَّاسُ ، وأَشْرَكَتْنِيْ فِيْ مَالِهَا حِيْنَ حَرَمَنِيَ ٱلنَّاسُ ، وَرَزَقَنِيَ اللهُ مِنْهَا ٱلْوَلَدَ ، وَحَرَمَنِي وَلَدَ غَيْرِهَا »[2] .

---

(١) القِحَّةُ : العيبُ الشديدُ ، أَوِ الوقاحَةُ ، وتعييب المؤلف هنا علىٰ من ينسب هذا الكلام إلىٰ هـٰذا الإمام العظيم . وكذلك على من يروي القول الآتي والله أعلم .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الإمام أحمد في « مسنده » (٢٤٨٦٤) والطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٢٢) و(٢١) و(١٤) و(٢٣) ، وبنحوه عند البخاري (٣٨٢١) تعليقاً ، ومسلم (٢٤٣٧) في فضائل الصحابة . =

وإنْ كانَ ليذبحُ الشاةَ فيبعثُ بها في خلائِلِهَا ، وتدخلُ عليهِ العجوزُ الشوهاءُ فينعمُ الإقبالَ عليها ، والتفتُّحَ لها ، ويسألُها عَنْ كلِّ كبيرٍ وصغيرٍ مِنْ شأنِهَا ، ويقولُ : « **إنَّها كَانَتْ تَأْتِينَا فِيْ أَيَّامِ خَدِيْجَةَ ، وإنَّ حُسْنَ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلإِيْمَانِ** »[1] .

وكانَتْ لَهُ عيبةَ نُصْحٍ[2] ، ووزيرة صدقٍ ، وكانَ لا يسمعُ ما يَسوؤُهُ . . إلاَّ فرَّجَ اللهُ بها عنهُ ، فتثبِّتُهُ وتصدِّقُهُ ، وتخفِّفُ عنهُ ، وتهوِّنُ عليهِ ما يَلقىٰ مِنْ قومِهِ ، وتشجِّعُهُ علىٰ المضيِّ في سبيلِ ما هوَ بصددِهِ .

عَلَىٰ أَنَّنَا لاَ نَدَّعِيْ أَنَّ جِنْسَهَا ... سَـوَاءٌ فَفَـرْقٌ بَيْنَهُـنَّ بَعِيْـدُ
فَمِنْهُـنَّ جَنَّـاتٌ تَفِـيءُ بِظِلِّهَـا ... وَمِنْهُـنَّ نِيْـرَانٌ لَهُـنَّ وَقِيْـدُ[3]

رثاء المؤلف لزوجته الأولى

وما أحسنَ ما قلتُ مِنْ قصيدةٍ رَثيتُ بها أَوَّلَ زوجٍ لي ماتَتْ [مِنَ الكاملِ] :

فَقْدُ ٱلأَلِيْفِ هُوَ ٱلْغَرَامُ وَإِنَّمَا ... يَـدْرِيْ بِـهِ أَهْـلُ ٱلْـوَفَـا أَمْثَـالِـيْ

وذلكَ أنَّهُ لا يتأثَّرُ بالفراقِ إلاَّ أهلُ النفوسِ الكريمةِ ، أَلاَ ترىٰ أَنَّكَ لو ربطتَ حماراً بجانبِ فرسٍ ، ثُمَّ فرَّقتَ بينهُمَا فإنَّ الحمارَ لا يتأثَّرُ ولـٰكنَّ ٱلفرسَ تكثرُ الحنينَ .

الأم بيت قالته العرب

وقد قالوا : إنَّ ألأمَ بيتٍ قالتهُ العربُ . . قولُ إبراهيمَ بنِ العبَّاسِ

= حمراء الشدقين : أي سقطت أسنانها لكبر سنها حتى ظهرت الحمرة في شدقها .

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في «مستدركه» (١/ ٦٢) والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩١٢٢) .

(٢) العَيبةُ : أصحابُ السرِّ .

(٣) البيتان من الطويل .

الصوليّ ، أو مسلمِ بنِ الوليدِ ، علىٰ ٱختلافٍ في الروايةِ [الأبيات في « ديوان الحماسة » ١/ ٩٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ يَمْنَعَنَّكَ خَفْضَ ٱلْعَيْشِ فِيْ دَعَةٍ نُـزُوْعُ نفـسٍ إِلَـىٰ أَهْـلٍ وَأَوْطَـانِ
تَلْقَىٰ بِكُلِّ بِلاَدٍ إِنْ أَقَمْتَ بِهَا أَهْـلاً بِـأَهْـلٍ وَجِيْـرَانـاً بِجِيْـرَانِ

اقتداء المتنبي به

ولَئِنْ ٱقتفاهُ الناظمُ في مثلِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا بَلَـدُ ٱلإِنْسَـانِ غَيْـرُ ٱلْمُـوَافِـقِ [وَلاَ أَهْلُهُ الأَدْنَوْنَ غَيْرُ ٱلأَصَادِقِ]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢١٢ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

فِي سَعَةِ ٱلْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ وَفِـيْ بِـلاَدٍ مِـنْ أُخْتِهَـا بَـدَلُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

غَنِيٌّ عَنِ ٱلأَوْطَانِ لاَ يَسْتَفِزُّنِيْ إِلَـىٰ بَلَـدٍ سَـافَـرْتُ عَنْـهُ إِيَـابُ

تكفيره عن نفسه

.. فقد كَفَّرَ عن كلِّ سيّئةٍ زلفَها في هـٰذا السبيلِ ببيتِهِ الَّذِي هوَ كالْغُرَّةِ الشادِخَةِ مِنَ ٱلكَمْتِ[١] ، أَوِ القرحةِ[٢] الواضحةِ مِنَ ٱلدُّهْمِ[٣] ، أَلا وهوَ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

خُلِقْتُ أَلُوْفاً لَوْ رُدِدْتُ إِلَىٰ ٱلصِّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِيْ مُوْجَعَ ٱلْقَلْبِ بَاكِيَا[٤]

---

(١) الغرةُ الشادخةُ : البيضاءُ الواسعةُ . الكَمْتُ : الفرسُ الذي لونهُ بينَ الأحمرِ والأسودِ .
(٢) الأقرحُ : الذي في جبهتِهِ بياضٌ بقدرِ الدرهمِ فما دونهُ .
(٣) الأدهمُ : الأسودُ .
(٤) قال الواحديُّ في شرح « ديوان المتنبي » : هذا البيتُ رأسٌ في صحّةِ الألف ، وذلكَ أنَّ كلَّ واحد يتمنّى مفارقَةَ الشيبِ . أمّا هو فيقول : لو فارقت شيبي إلىٰ الصِّبا .. لبكيتُ عليهِ ؛ لإلفي إيّاهُ إذْ خُلقْتُ أَلُوفاً .

الحكمة عند أمية بن أبي الصلت

وقالَ أُميَّةُ بنُ عبدِ العزيزِ ٱبنِ أَبي الصَّلْتِ الدانيُّ الأَندلسيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كَانَ أَصْلِيْ مِنْ تُرَابٍ فَكُلُّهَا ... بِلاَدِيْ وَكُلُّ ٱلْعَالَمِيْنَ أَقَارِبِيْ

وَلاَ بُدَّ لِيْ أَنْ أَسْأَلَ ٱلْعِيْسَ حَاجَةً ... تَشُقُّ عَلَىٰ شُمِّ ٱلذُرَىٰ وَٱلْغَوَارِبِ(١)

فأَصابَ في الثاني ، وأَخطأَ في ٱلأَوَّلِ .

من لزوميات المؤلف

ومِنْ لُزوميَّاتي [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ٤٥ـ٤٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا إِنْ تَذَكَّرْتُ مِنْ دَهْرِيْ ٱلَّذِيْ ٱنْصَرَمَا ... إِلاَّ وَأَذْكَىٰ بِأَحْشَائِيْ ٱلْجَوَىٰ ضَرَمَا

وَلَوْ مَضَىٰ رَغَدٌ فِيْ ٱلْعَيْشِ أَنْدُبُهُ ... أَوْ لَوْ عَلِمْتُ ٱلَّذِي أَرْثِيْ فَلاَ جَرَمَا

لَـٰكِنَّنِيْ لَمْ أَزَلْ مُذْ كُنْتُ فِيْ مِحَنٍ ... قَبْلَ ٱلْكُهُوْلَةِ سَاقَتْ لِلْقُوَىٰ ٱلْهَرَمَا

فَكَّرْتُ فِيْ مُقْتَضَىٰ هَـٰذَا ٱلْحَنِيْنِ فَلَمْ ... أَعْرِفْهُ لاَهُمَّ إِلاَّ ٱلإِلْفَ وَٱلْكَرَمَا(٢)

إِنَّ ٱلْكَرِيْمَ حَنُونٌ كَيْفَ كَانَ كَمَا ... أَنَّ ٱللَّئِيْـمَ إِذَا ٱسْتَغْنَـىٰ ٱمْتَلَـىٰ وَرِمَـا

وَرُبَّمَا ٱسْتَشْعَرَتْ نَفْسُ ٱللَّبِيْبِ عَلَىٰ ... غِلَظِ ٱلْحِجَابِ بِأَنْ قَدْ فَارَقَتْ حُرُمَا

جَـاءَتْ مِـنَ ٱلْمَـلأِ ٱلأَعْلَـىٰ مُـدَبَّـرَةً ... لِلْجِسْمِ وَٱلْعَوْدُ مَضْمُوْنٌ إِذَا ٱنْخَرَمَا

ولا أَضجرُ بما لِيَ في هـٰذا الموضوعِ مِنَ الأَشعارِ ، فإِنَّها كثيرةٌ جدَّاً .

دموع الأسف في ديوان السيد الحداد

وما أَرقَّ نسيمَ مولانا عبدِ اللهِ بنِ علويٍّ الحَدادِ ؛ فإِنَّ « ديوانَهُ » ممتلِىءٌ بدموعِ الأَسفِ علىٰ فراقِ الأَحبابِ ، حتَّىٰ لقد كانَ جَدِّي المحسنُ يسمِّيهِ : النائحةَ الثكلىٰ ، ومِنْ ذلكَ قولُهُ في رثاءِ زوجِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ تَنْسَ مَا بَيْنَ ٱلْقُبُوْرِ بِزِنْبِلٍ ... لِقَبْرٍ بِقَلْبِيْ ذِكْرُهُ قَطُّ لاَ يُنْسَىٰ

تَضَمَّـنَ إِلْفَـاً صَـالِحَـاً وَمُبَـارَكَـاً ... فَأَكْرِمْ بِهِ قَبْرَاً وَأَكْرِمْ بِهِ رَمْسَا

---

(١) الغواربُ ـ جمع غارب ـ : وهو الأعلىٰ من كلِّ شيءٍ .

(٢) لاهُمَّ : لغة في (اللّهمَّ) المراد بها الاستثناء .

دَفَنْتُ بِهِ مَنْ فِيْهِ رُوْحِيْ وَرَاحَتِيْ ... فَعَادَ أَغَضُّ ٱلْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ يَبْسَا
فَيَا رَحْمَةَ ٱلرَّحْمَـٰنِ زُوْرِيْهِ وَٱعْكُفِيْ ... عَلَىٰ قَبْرِهِ حَتَّىٰ تَطِيْبِيْ لَهُ نَفْسَا
وَقُوْلِيْ لَهُ : إِنَّا عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ وَٱلْوَفَا ... وَإِنَّ ٱلْفَنَا قَدْ عَمَّمَ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَا

قصائد للمؤلف في رثاء ولده بصري والبكاء عليه

ولاَ أَلُومُ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ ، إِذْ لاذَ بالدموعِ حينَ كادَ ينفطرُ قلبُهُ علىٰ ولدِهِ أَيُّوبَ ، فقد ذُقْتُ مثلَهُ علىٰ ولدي بصريٍّ ، وأَكْثَرْتُ فيهِ مِنَ ٱلمراثِي ، كَمَا عُلِمَ ممَّا مرَّ ، وقلْتُ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا زَالَ حَرْبٌ بَيْنَ صَبْرِيْ وَرَحْمَتِيْ ... وَإِنِّـيْ لَـرَاجٍ فِيْهِمَـا كَـامِـلَ ٱلأَجْـرِ
وَقَدْ أَنْكَرُوْا فِعْلَ ٱلْفُضَيْلِ وَمَشْيَهُ ... لِدَفْنِ ٱبْنِهِ فِيْ حِبْرَةٍ ضَاحِكَ ٱلثَّغْرِ(١)
وَخَيْرُ ٱلْوَرَىٰ فِيْ غَيْرِ مَا مَوْقِفٍ ذَرَىٰ ... وَبَلَّ ٱلثَّرَىٰ دَمْعاً يَفُوقُ عَلَىٰ ٱلدُّرِّ
لَـهُ وَلأُمِّ ٱلْمُـؤْمِنِيْـنَ وَصِهْـرِهِ ... وَسِبْطَيْهِ وَٱلزَّهْرَا صَلاَةٌ بِلاَ حَصْرِ

ولا أَزالُ أَتمثَّلُ بقولِ ديكِ الجنِّ [في « ديوانهِ » ٩٣ منَ ٱلكاملِ] :

لَوْ كَانَ يَدْرِيْ ٱلْمَيْتُ مَاذَا بَعْدَهُ ... بِٱلْحَيِّ مِنْهُ بَكَىٰ لَهُ فِيْ قَبْرِهِ
غُصَصٌ تَكَادُ تَفِيْضُ مِنْهَا نَفْسُهُ ... وَيَكَادُ يَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ

وقولِ العُذريِّ [عروةَ بنِ حزامٍ في « ديوانهِ » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ قَطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا ... عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَفَقَانِ

---

(١) الفُضَيلُ : هو الفضيلُ بن عياض ، والأمر الذي أنكروه عليه هو ما رواه القشيري في « الرسالة » (١/ ٨٥) قال :

قال أبو علي الرازي : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكاً ، ولا مبتسماً . . إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك !! فقال : إن الله أحبَّ أمراً فأحببت ذلك الأمر .

الحِبَرَةُ : ثوبٌ يصنعُ في (اليمنِ) .

وقولِ الآخرِ [مِنَ المنسرحِ] :

كَـأَنَّ قَلْبِـي إِذَا تَـذَكَّـرَهُ ... فَـرِيسَـةٌ بَيْـنَ سَـاعِـدَيْ أَسَـدِ

وإِنِّي وإِنْ كُنتُ قليلَ الزِّيارَةِ لهُ كَما قُلْتُ مِنَ اللاَّمِيَّةِ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٨ مِنَ الوافرِ] :

بِـوُدِّيْ أَنْ أَزُوْرَكَ كُـلَّ يَـوْمٍ ... فَقَـلَّ عَلَـىٰ زِيَـارَتِـكَ احْتِمَـالِـيْ

إِذَا عَـايَنْـتُ قَبْـرَكَ كَـادَ قَلْبِـيْ ... يَطِيْـرُ فَـأَنْثَنِـيْ لاَ عَـنْ مَـلاَلِ

فكلَّما رأَيْتُهُ تمثَّلَ لي قولُ المعرّيِّ [في « سقط الزند » ٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَوَاْ قَبْرُ! وَاهِ مِنْ تُرَابِكَ لَيِّنَاً ... عَلَيْهِ وَآهِ مِنْ جَنَادِلِكَ الْخُشْنِ[1]

لأَطْبَقْتَ إِطْبَاقَ الْمَحَارَةِ جَفْنَهَا ... بِلُؤْلُؤَةِ الْمَجْدِ الْجَدِيْرَةِ بِالْخَزْنِ

وقولُ الآخَرِ [مقاتل بن عطية كما في « المستطرف » ٢/ ٥٩٢ مِنَ البسيطِ] :

كَانَ الْوَزِيْرُ نِظَامُ الْمُلْكِ جَوْهَرَةً ... مَكْنُونَةً صَاغَهَا الْبَارِيْ مِنَ الشَّرَفِ

عَزَّتْ فَلَمْ تُدْرِكِ الأَيَّامُ قِيْمَتَهَا ... فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَىٰ الصَّدَفِ

وشيءٌ مِنْ هـٰذا لا يخالفُ قولَ معنِ بنِ أَوسٍ يَمدحُ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما [في « شعرهِ وحياتهِ » ١٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وإِنَّـكَ فَـرْعٌ مِنْ قُـرَيشٍ وَإِنَّمَـا ... تَمُجُّ النَّدَا مِنْهَا الْبُحُوْرُ الْفَوَارِعُ

ثَوَوْا قَادَةً لِلنَّاسِ بَطْحَاءُ مَكَّةٍ ... لَهُمْ وَسِقَايَاتُ الْحَجِيْجِ الدَّوَافِعُ

وَلَمَّا دُعُوْا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبْكِ مِنْهُمُ ... عَلَىٰ حَادِثِ الدَّهْرِ الْعُيُوْنُ الدَّوَامِعُ

---

(١) الجنادِلُ : الحِجارَةُ .

ولا ما سبقَ في المَجلسِ الثالثِ مِنْ قَولِ أَبي ٱلهِيْذام [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّا أُنَاسٌ مَا تَفِيْضُ عُيُوْنُنَا   عَلَىٰ هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ ٱلظَّهْرَا

ولا ما مرَّ أَواخرَ المجلسِ السادسِ مِنْ قَولِ بَشَامةَ بنِ حَزنٍ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ   مَعَ ٱلْبُكَاةِ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ يَبْكُوْنَا

وقولِ الأَميرِ تميمِ بنِ المُعِزِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَبِيْ كُلُّ مَا يُبْكِي ٱلْعُيُونَ أَقَلُّهُ   وَإِنْ كُنْتُ مِنْهُ دَائِمَاً أَتَبَسَّمُ

وإِنَّما هوَ مِنْ قَبيلِ التداوي بإِرسالِ الدموعِ في الخَلا ، حَسَبَما قرَّرْناهُ ، وذَكرنا الشواهدَ عليهِ في المجلسِ السادسِ .

التداوي بإرسال الدموع

وما زالتِ ٱلأَشرافُ تنفثُ بما لا بأْسَ فيهِ خشيةَ أَنْ تتفطَّرَ القلوبُ ، وتتقطَّعَ الأَكبادُ ، ولـٰكنَّها تحرِصُ جهدَها علىٰ أَنْ لا يشعرَ الناسُ بذلكَ ؛ ولهـٰذا يقولُ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

ظَلِلْتُ رِدَائِيْ فَوْقَ رَأْسِيَ حَاسِرَاً   أَعُدُّ ٱلْحَصَىٰ مَا تَنْقَضِيْ عَبَرَاتِيْ

وَقالَ أَبُو فرَاسٍ [في « ديوانهِ » ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱللَّيْلُ أَضْوَانِيْ بَسَطْتُ يَدَ ٱلْهَوَىٰ   وَأَذْلَلْتُ دَمْعَاً مِنْ خَلاَئِقِهِ ٱلْكِبْرُ[1]

الحرص على التكتم بالبكاء

وممَّا يؤكِّدُ حِرصَهُم علىٰ التجلُّدِ والتكتُّمِ بالبكاءِ متىٰ ٱضطُرُّوا إِليهِ . . قولُ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْكَيْتُمَانِيْ بَيْنَ صَحْبِيْ وَلَمْ أَكُنْ   أُبَالِيْ دُمُوْعَ ٱلْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

---

(١) أضواني : أتاني .

فإنَّهُ معَ مضربِ المثلِ بهِ في ٱلوجدِ والهُيَامِ لا يزالُ يُؤْثِرُ التستُّرَ ، ويتكلَّفُ التجلُّدَ .

وخيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّهِ . . ما ٱقتصَّهُ اللهُ جلَّ ذِكرهُ علينا مِنْ حالِ سيِّدِ المفجوعينَ في قولِهِ : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] فقد أَبتْ لهُ الشهامةُ أَنْ يظهَرَ أمامَ ولدِهِ بمظهَرِ ٱلحزنِ حتَّىٰ فارقَهُم وتولَّىٰ عنهُم .

الفناء عن الناس عند السادة الصوفية

أَمَّا ما يؤْثَرُ عنِ السَّادَةِ الصوفيَّةِ مِنَ ٱلفَناءِ في المحبَّةِ عنِ النَّاسِ . . فإنَّهُ لونٌ آخرُ ، ومنهُ قولُ سلطانِ ٱلعاشقينَ [في « ديوانهِ » ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَبْثَثْتُهَا مَا بِيْ وَلَمْ يَكُ حَاضِرِيْ ... رَقِيْبٌ بِهَا حَاظٍ بِخَلْوَةِ جَلْوَةِ[(١)]

الفرزدق يرثي ولده وأم ولده

وأَمَّا قولُ ٱلفرزدقِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَفْنِ سِلاَحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَدَيْهِ ٱلْبَوَاكِيَا
وَفِيْ جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُوْ حَفِيْظَةٍ ... لَوَ ٱنَّ ٱلْمَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لَيَالِيَا[(٢)]

---

(١) حاظٍ : ٱسمُ فاعلٍ مِن حَظِيَ . الجلوةُ : مِن جلوةِ العروسِ ، وهيَ : عرضُها على زوجِها مجلوَّةً .

(٢) دارمٌ : هو ابن مالك بن حنظلة أبو حي من تميم وهو جد الفرزدق.

وكانَ مِنْ قصَّةِ الأبياتِ أَنَّ الفرزدَقَ لقيَ جاريةً لبني نهشلٍ فجعلَ ينظرُ إليها نظراً شديداً ، فقالت لَهُ : مالَكَ تنظرُ فوٱللهِ لو كانَ لي ٱلفُ حِرٍ ـ فرجٍ ـ ما طمعتَ في واحدٍ مِنْها ، قالَ : ولِمَ يالخناءُ ؟! قالتْ : لأنَّكَ قبيحُ المنظرِ ، سيِّءُ المخبرِ فيما أَرىٰ ، قالَ : أَما واللهِ لو جرَّبتِني لَعفا خبري عن منظري ـ قالَ : ثمَّ كشفَ لها عن ذَكَرٍ مثلِ ذراعِ البَكرِ ـ فتضبَّعت لَهُ عن مثلِ سنامِ البَكرِ ، فعالجَها ، فقالت : أَنكاحٌ بنسيئةٍ ؟! هـٰذا شرُّ القضيةِ ، قالَ : ويحكِ! ما معي إلا جبَّتي ، أفتسلُبينني إِيَّاها ؟! ثمَّ تسنَّمَها ، فقالَ في ذلك أبياتاً ، =

.. فلاَ يخلو مِنَ ٱلقسوةِ ؛ إذْ لَمْ يذكُرِ ٱلحُزنَ ولا دمعَ ٱلعينِ جملةً ، وإنْ لَمْ يُصرِّح بأنتفائِهما ولكنَّ ٱلشِّعرَ نظيرُ ٱلخلوةِ يباحُ فيهِ ما يباحُ فيها ، كما قلتُ [في « ديوان المؤلف » ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا فِيْ ٱقْتِصَاصِيْ وَاقِعَ ٱلْحَالِ وَصْمَةٌ ... لَدَىْ عَارِفِيْ سِرِّ ٱلإِحَالَةِ فِيْ ٱلشِّعْرِ

القلب هو قبر الحبيب

ومِنْ أَرَقِّ ٱلرِّثاءِ وأبعثِهِ للأَشجانِ ، قولُ محمَّدِ بنِ عبد ٱلملكِ بنِ ٱلزَّيَّاتِ في أُمِّ ولدهِ [في « الأغاني » ٢٣/ ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُ لِيَ ٱلْخُلاَّنُ: لَوْ زُرْتَ قَبْرَهَا ... فَقُلْتُ : وَهَلْ غَيْرُ ٱلْفُؤَادِ لَهَا قَبْرُ ؟!

البكاء هو الدواء

وقولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ تُلْحِيَانِيْ إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا ... أُدَاوِيْ بِهَذَا ٱلدَّمْعِ مَا تَرَيَانِيْ
وَإِنَّ مَكَاناً فِيْ ٱلثَّرَىْ خُطَّ لَحْدُهُ ... لَقَدْ كَانَ مِنْ قَلْبِيْ بِكُلِّ مَكَانِيْ
وَهَبْنِيْ عَزَمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لأَنَّنِيْ ... جَلِيْدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لابْنِ ثَمَانِ ؟
ضَعِيْفُ ٱلْقُوَىْ لاَ يَعْرِفُ ٱلأَجْرَ حُسْبَةً ... وَلاَ يَأْتَسِي بِٱلنَّاسِ فِيْ ٱلْحَدَثَانِ
أَيَا مَنْ أُمَنِّيْهِ ٱلْمُنَىْ وَأَعُدُّهُ ... لِعَثْرَةِ أَيَّامِيْ وَحَرْبِ زَمَانِيْ
وَيَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِيْ ... وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطَنِيْ وَرَعَانِيْ

الفوادح تجفف الدموع

وقَالَ عِزُّ الملكِ الأَميرُ المختارُ المسبِّحي يرثِيْ أُمَّ ولدِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلا فِي سَبِيْلِ اللهِ قَلْبٌ تَقَطَّعَا ... وَفَادِحَةٍ لَمْ تُبْقِ لِلعَيْنِ مَدْمَعَا
أَصَبْراً وَقَدْ حَلَّ ٱلثَّرَىْ مَنْ أَوَدُّهُ؟ ... فَلِلَّـهِ هَمٌّ مَا أَشَدَّ وَأَوْجَعَا

= وحملَتْ مِنْهُ ، ثمَّ ماتتْ ، فبكاها وبكى ولدَهُ مِنْها بالأبياتِ الَّتي تقدمت أعلاه : (وجفن سلاحٍ . . . . إلخ) انظر « الأغاني » (١٠/ ٣٢٠) .

فَيَالَيْتَنِيْ قُدِّمْتُ لِلْمَوتِ قَبْلَهَا   وَإِلاَّ فَلَيْتَ ٱلْمَوْتَ أَذْهَبَنَا مَعَا

وٱلأخيرُ شبيهٌ بقولِ التِّهاميِّ [في « ديوانهِ » ٤٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَوَاللهِ لَوْ أَسْطِيْعُ قَاسَمْتُهُ ٱلرَّدَىٰ   فَمُتْنَا جَمِيْعَاً أَوْ لَقَاسَمَنِيْ عُمْرِيْ

وما أدري أيُّهما أخذَ عَنِ الآخرِ ؛ فإنَّهما مُتعاصِرانِ .

حياة عزيزة وموت مشرف

ويعجبني قولُ بعضِهِمْ وقد رواهُ أبو عليٍّ ٱلقاليُّ عَنِ ٱبنِ دُرَيدٍ عَنْ أبي حاتمٍ السِّجستانيِّ [في « أماليهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ فِـيْ سَبِيْـلِ اللهِ مَـاذَا تَضَمَّنَـتْ   بُطُونُ ٱلثَّرىٰ وٱسْتُودِعَ ٱلْبَلَدُ ٱلْقَفْرُ
بُدُوْرٌ إِذَا ٱلدُّنْيَا دَجَتْ أَشْرَقَتْ بِهِمْ   وَإِنْ أَجْدَبَتْ يَوْمَاً فَأَيْدِيْهِمُ ٱلْقَطْرُ
حَيَاتُهُمُ كَانَتْ لأَعْدَائِهِمْ عَمَىً   وَمَوْتُهُمُ لِلْفَاخِرِيْنَ بِهِمْ فَخْرُ
أَقَامُوْا بِظَهْرِ ٱلأَرْضِ فَٱخْضَرَّ سَهْلُهَا   وَصَارُوْا بِبَطْنِ ٱلأَرْضِ فَٱسْتَوْحَشَ ٱلظَّهْرُ

قصيدتان لتهييج العواطف

وممَّا يحرِّكُ البلابلَ ، ويهيِّجُ العواطِفَ ، ويثيرُ الأشْجَانَ ، ويبعثُ الأحزانَ قصيدةُ ٱبنِ زريقٍ الكاتبِ ، ونونيَّةُ ٱبنِ زيدونَ ، وهما مشهورتانِ .

ابن زيدون يصبّر أمه

ويُشجينِيْ مَا وَقَعَ لابنِ زيدونَ معَ أُمِّهِ ، وقد زَارتْهُ في سجنهِ ، وهوَ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَقْتُـولَـةَ ٱلْعَيْنَيْـنِ مَـا لَـكِ وَالِهـاً   أَلَمْ تُرِكِ ٱلأَيَّامُ حُرّاً قَضَىٰ قَبْلِيْ[1]
أَقِلِّـيْ بُكَـاءً لَسْـتِ أَوَّلَ حُـرَّةٍ   طَوَتْ بِالأَسَىٰ كَشْحاً عَلَىٰ مَضَضِ ٱلثُّكْلِ[2]
وَفِيْ أُمِّ مُوْسَىٰ عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ   إِلَىٰ ٱلْيَمِّ فِيْ ٱلتَّابُوْتِ فَٱعْتَبِرِيْ وَٱسْلِيْ

---

(١) والهاً : الشديدةُ الحزنِ على فقدِ وَلَدِها .
(٢) طوىٰ كشحهُ : أضمرَ وسترَ ما في قلبهِ .

وَللهِ فِيْنَـا عِلْـمُ غَيْـبٍ وَحَسْبُنَـا بِهِ عِنْدَ جَوْرِ ٱلدَّهْرِ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ

ورأيتُ ما قيلَ في رثاءِ العلاَّمةِ الجليلِ محمَّدٍ عبدُه ، ولمْ يبقَ لشيءٍ منهُ علىٰ كثرتِهِ طنينٌ بأُذُنِي سِوَىٰ مرثيَّةِ حافظٍ ، ومَطلع قصيدةٍ لغيرِهِ ، لا أَزالُ آمرُ بعضَ الحُداةِ بتكريرِهِ ، حَتَّىٰ نستفرغَ الدمعَ ، وهوَ [مِنَ ٱلكاملِ] :

إشارة إلى مراثي الشيخ محمد عبده

لِمْ لاَ تُجِيْبُ وَقَدْ دَعَوتُ مِرَاراً يَكْفِيْ سُكُوْتُكَ أَرْبَعِيْنَ نَهَارَا

وكثيراً ما يتندَّىٰ خَدِّي مِن قولِ حافظٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

الخطوب تعقد الألسنة

دَعَانِيْ رِفَاقِيْ وَٱلْقَوَافِيْ مَرِيْضَةٌ وَقَدْ عَقَدَتْ هُوْجُ ٱلْخُطُوْبِ لِسَانِيْ
مَلِلْتُ وُقُوْفِيْ بَيْنَكُمْ مُتَمَلْمِلاً عَلَىٰ رَاحِلٍ فَـارَقْتُهُ فَشَجَـانِـيْ
أَفِيْ كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ ٱلْحُزْنُ قِطْعَةً مِنَ ٱلْقَلْبِ إِنِّيْ قَدْ فَقَدْتُ جَنَانِيْ
تَفَرَّقَ أَصْحَابِيْ وَأَهْلِيْ وَأَخَّرَتْ يَدُ ٱلْمَوْتِ وَقْتِيْ فَٱنْتَظَرْتُ زَمَانِيْ
فَمَالِيْ صَدِيْقٌ إِنْ عَثَرْتُ أَقَالَنِيْ وَلاَ لِيْ حَبِيْبٌ إِنْ قَضَيْتُ بَكَانِيْ

والأَخيرُ يُشبهُ قولَ عمرِو بنِ معدِيكربَ الزُّبَيْديِّ [في « ديوانِهِ » ٨٢ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] :

الوحدة صعبة

ذَهَـبَ ٱلَّـذِيْـنَ أُحِبُّهُـمْ وَبَقِيْـتُ مِثْـلَ ٱلسَّيْـفِ فَـرْدَا

وعلىٰ ذِكرِ حافظٍ . . تذكَّرتُ أَنِّي قلتُ مرَّةً لِشيخِنا أَبي بكرٍ ٱبنِ شهابٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ : أَلَسْتَ أَشْعَرَ منهُ ؟ قالَ : لولا قولُهُ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٦١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

المفاضلة بين الشيخ أبي بكر ابن شهاب وحافظ إبراهيم

إِنِّـيْ أَرَىٰ وَفُـؤَادِيْ لَيْسَ يَكْـذِبُنِـيْ رُوْحاً يَحُفُّ بِهَا ٱلإِجْلاَلُ وَٱلْعِظَمُ
أَرَىٰ جَلالاً أَرَىٰ نُوْراً أَرَىٰ مَلَكاً أَرَىٰ مُحَيّـاً يُحَيِّيْنَـا وَيَبْتَسِـمُ
اللهُ أَكْبَـرُ هَـٰذَا ٱلْـوَجْـهُ نَعْـرِفُـهُ هَـٰذَا فَتَىٰ ٱلنِّيْلِ هَـٰذَا ٱلْمُفْرَدُ ٱلْعَلَمُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٦٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَمْ غَادَةٍ فِيْ ظَلاَمِ ٱللَّيْلِ بَاكِيَةٍ عَلَىٰ أَلِيْفٍ لَهَا يَهْوِيْ بِهِ ٱلطَّلَبُ
لَوْلاَ طِلاَبُ ٱلْعُلاَ لَمْ يَبْتَغُوْا بَدَلاً مِنْ طِيْبِ رَيَّاكَ لَـٰكِنَّ ٱلْعُلاَ تَعَبُ

استهزاء المؤلف ببعض الثقلاء

ثُمَّ ذَكرتُ هـٰذا بعدَ أُمَّةٍ مِنَ ٱلزَّمانِ لجماعةٍ مِنَ ٱلإِخْوانِ ، وفي المجلسِ ثقيلٌ ٱعترضَ فَضْلَ القِطعةِ الأَخيرةِ ، وزعمَ أَنَّها كلامٌ عاديٌّ لا تُوضعُ اليدُ عليهِ ، ولا تُعقدُ الخناصِرُ لهُ .

فقلتُ للحاضرينَ ـ وإلىٰ غيرهِ يُساقُ الحديثُ ـ : أَرأَيتمْ لو أَنَّ رَجُلاً مَجْدُوراً قبيحَ المنظرةِ ، أُخيفشَ[1] ، كثيفَ اللِّحيةِ ـ وهيَ صفةُ المعترضِ ـ وجدْتُموهُ يَبكي ـ ولَو علىٰ ضَوءِ ٱلنَّهارِ ـ ويتأَلَّمُ ، ويشتكِي ويتظَلَّمُ ، أَلا تترطَّبُ لهُ خدودُكمْ ، وتهتَزُّ عواطِفُكم وتُشفِقُ قلوبُكم ؟!

قالوا : بلىٰ .

قلتُ : فمَا بالُكُم لو أَنَّها غادةٌ بَضَّةٌ ، كأَنَّما صِيْغَتْ مِنْ فِضَّةٍ ، تغبِطُها ٱلْحُورُ ، ويحسِدُها ٱلنُّورُ ، وقد شاهدْتُموها باكيةً بعبرةٍ مسفوحَةٍ ، وكبدٍ مقروحَةٍ ، وحشَىً رَجَّافٍ ، وقلبٍ وَجَّافٍ ، أَلاَ يكونُ أَبْعَثَ لخشوعِكُم ، وأَذْرَفَ لدموعِكُم ؟

قالُوا : بلَىٰ .

قلتُ : هـٰذا معَ عدمِ العلمِ بالسببِ ، فأَمَّا إِذا علمْتُم بأَنَّ ما عندَها مِنَ ٱلاحتِراقِ . . نشأَ عنِ ٱلافتِراقِ ، وأَنَّهُ هو الَّذي أَقضَّ

(١) الأَخفشُ : هوَ الذي يبصرُ بالليل دونَ النَّهارِ ، أَو هوَ فسادٌ في الجفون بلا وجعٍ .

مهـدَهـا ، وبلـغَ جُهـدَهـا ، وأذاقَهـا الصَّـابَ[١] ، وجـرَّعَهـا ٱلأوصابَ[٢] ، ما مبلغُ حنانِكُم يكونُ ؟! فأنَّىٰ تُؤفكونَ ؟

فأكثَروا مِنَ ٱلاسترجاعِ ، وظهرتْ عليهمُ ٱلأوْجَاعُ .

قلتُ : وأيضاً ، فإنَّها تقاسي ٱلآلامَ في جُنحِ الظَّلامِ ، بلا جليسٍ يَبُلُّ لوعةً ، ولا أنيسٍ يَسُلُّ روعةً ، وأعظمُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ ٱعتلاجُ جوفِها بينَ رجائِها وخوفِها ، فٱلأملُ يَنشُرُ ، وٱليأسُ يطوي ، إذِ ٱلطلبُ لا يزالُ بصاحبِها يهوي ، لَمْ يَقِرَّ لهُ قرارٌ بعدُ ، ولم تدرِ ماذا يتلقَّاهُ ، نحسٌ أو سعدٌ ، فكأنَّما ذلِكَ ٱلقلبُ ٱلحائرُ معلَّقٌ في جناحِ طائرٍ .

فقالوا : رويدَكَ ، فإنَّ الحزنَ تأثَّلَ ، والخيالَ تمثَّلَ ، وشملتْهمُ ٱلهِزَّةُ[٣] ، وأخذَتْ صاحبنا العزَّةُ .

فقلت لهُم : هـٰذا كلُّهُ في بيتٍ حافظٍ ، ما لهُ مِنْ لافظٍ .

ثُمَّ إنَّ علىٰ البيتِ سِمَةً ممَّا ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ لأَبي عُبادةَ وهوَ قولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٩٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تُرْبِكَ ٱلْمُتَنَسَّمِ

وذكرتُ بهِ بيتاً آخرَ لأَبي عُبادةَ لا يُناسِبُ الموضوعَ كثيراً ، وَلـٰكنَّهُ معدودٌ مِنْ محاسِنِ البُحتريِّ ، وهوَ قولُهُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

من محاسن البحتري

قَلْـبٌ يُطِـلُّ عَلَـىٰ أَفْكَـارِهِ وَيَـدٌ تُمْضِي ٱلأُمُوْرَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ[٤]

---

(١) الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ ، إذا أصابتِ العينَ أتلفتها .

(٢) الوصب : الوجعُ والمرضُ .

(٣) الهِزة ـ بالكسر ـ : النشاط والارتياح .

(٤) عَدُّوا هذا البيت من محاسن البُحتري ؛ لأن قوله : (قلب يطل علىٰ أفكاره . . .) من الكلمات الجوامع ، ومراده بذلك : أن قلبه لا تملؤه الأفكار =

الناس في الفراق:

والحاصلُ ممَّا مرَّ في شأنِ الفراقِ : أَنَّ الناسَ علىٰ قسمينِ :

١ـ قسم ينسى مع الزمن

منهم : مَنْ ينسىٰ حبيبَهُ لمرورِ ٱلأَيَّامِ .

٢ـ قسم لا ينسى

ومنهُم : مَنْ لا ينساهُ إِلىٰ يومِ ٱلقيامِ .

٣ـ قسم متردد

ويبقىٰ قسمٌ ثالثٌ علىٰ شكٍّ مِنْ أَمرِهِم ، منهُم ٱبنُ ميَّادَة في قولِهِ [في « ديوانه » ٧٢ـ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأُشْفِقُ مِنْ وَشْكِ ٱلْفِرَاقِ وَإِنَّنِيْ ... أَظُـنُّ لَمَحْمُـولٌ عَلَيْـهِ فَـرَاكِبُـهْ

فَوَٱللهِ مَا أَدْرِيْ أَيَغْلِبُنِيْ ٱلْهَوَىٰ ... إِذَا جَدَّ جِدُّ ٱلْبَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهْ

وكُثَيِّرٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ٤٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَوَٱللهِ مَا يَدْرِيْ كَرِيْمٌ مُمَاطَلٌ ... أَيَنْسَاكِ إِذْ بَاعَدْتِ أَمْ يَتَصَدَّعُ

وأَخذهُ ٱبنُ أبي أُميَّةَ فزادهُ إِحساناً ، إِذ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَدَيْتُكَ لَمْ تَشْبَعْ وَلَمْ تَرْوَ مِنْ هَجْرِيْ ... أَيُسْتَحْسَنُ ٱلْهِجْرَانُ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرِ

أَرَانِي سَأَسْلُوْ عَنْكَ إِنْ دَامَ مَا أَرَىٰ ... بِـلاَ ثِقَـةٍ لَكِـنْ أَظُـنُّ وَلاَ أَدْرِيْ

لا يحل هجر فوق ثلاث

وقولُهُ : (مِنْ شَهْرِ) ممَّا تفرَّدَ بِهِ ، وما حملهُ علىٰ ذلكَ إِلاَّ مجيئُهُ في طريقِ ٱلقافيةِ ، وإِلاَّ فقدِ ٱقتصرتِ ٱلسُّنَّةُ[1] علىٰ ثلاثٍ إِذا

= ولا تحيط به ، وإنما هو عال عليها . يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح ، وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكاراً تستغرق القلوب . « المثل السائر » (١/٦٦) .

(١) وذلك كما في الحديث الذي رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه البخاري (٦٠٧٧) في (الأدب) ، ومسلم (٢٥٦٠) في (البر والصلة) ، عن رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنه قال : « لا يحلُّ لرجلٍ أَنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ صاحبه=

كانَ لغيرِ سببٍ ، وإلاَّ فإلىٰ ما شاءَ اللهُ ، وعليهِ تُحمَلُ مُهاجرةُ السلفِ الطيِّبِ ، علىٰ أَنَّ الهيتميَّ يقولُ في « تحفتِهِ » قالَ بعضُ شُرَّاحِ « البخاريِّ » : وإنَّمَا يَحرُمُ هجرٌ أكثرَ مِنَ ٱلثلاثِ . . إنْ واجهَهُ ولم يكلِّمْهُ ـ حَتَّىٰ بالسلامِ ـ أَمَّا لو لم يواجِهْهُ . . فلا حُرمةَ ، وإنْ مكثَ سنينَ ، وهوَ ظاهرٌ اهـ .

وفيهِ سَعَةٌ كبرىٰ لِمَا يقعُ بينَ السلفِ الصالحِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ .

وما أَشبهَ هـٰذا الشاعرَ في قولِهِ : (أَكْثَرَ مِنْ شَهْرِ) بذلكَ الخطيبِ الذي قالَ : إنَّ اللهَ خلقَ السمَاواتِ والأَرضَ في ستَّةِ أَشهرٍ ، فقالوا لهُ : إنَّها ستَّةُ أَيَّامٍ ، فقالَ : أَمَا واللهِ لقد قلتُها وأَنا أَتقالُّها ، ففرَّجتُم عنِّي .

شعراء من القسم الثاني

٦٠ وممَّا يتعلَّقُ بالقسمِ الثاني مِنَ ٱلنَّاسِ قولُ ٱبنِ مُطيرٍ [في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

قَضَىٰ ٱللهُ يَا أَسْمَاءُ أَنْ لَسْتُ بَارِحاً ... أُحِبُّكِ حَتَّىٰ يُغْمِضَ ٱلْعَيْنَ مُغْمِضُ

وقولُ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَيْفَ تناسِيْ مَنْ كَأَنَّ حَدِيْثَهُ ... بِأُذْنِيْ وَإِنْ غُيِّبْتُ قُرْطٌ مُعَلَّقُ ؟

= بالسلام » ، وفي الباب :

عن أنس عند البخاري (٦٠٧٦) ، ومسلم (٢٥٥٩) وفيه : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » .

قال الشاعر [من الكامل] :

يا هاجري فوق الثلاث بلا سبب ... خالفت قول نبينا أزكىٰ العرب
هجر الفتىٰ فوق الثلاث محرم ... ما لم يكن فيه لمولانا سبب

وقالَ الأَعمىٰ الثاني [في «سقطِ الزندِ» ١٥٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ أَنْسيَنَّـكِ إِنْ طَـالَ ٱلـزَّمَـانُ بِنَـا　　وَكَمْ حَبِيْبٍ تَمَادَىٰ عَهْدُهُ فَنُسِي(١)

وقالَ أَبنُ حيُّوسٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَسَّنْتُمَـا لِـيْ سَلْـوَةً وَتَنَـاسِيـاً　　وَلَمْ تَذْكُرَا كَيْفَ ٱلسَّبِيْلُ إِلَيْهِمَا

وقالَ المعريُّ أيضاً [في «سقطِ الزندِ» ٢١٤-٢١٥ مِنَ الطويلِ] :

وَلِيْ حَاجَةٌ عِنْدَ ٱلْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ　　فَإِنْ تَقْضِيَاهَا فَٱلْجَزَاءُ هُوَ ٱلشَّرْطُ

سَـلاَ عُلَمَـاءَ ٱلْجَـانِبَيْـنِ وَفِتْيَـةً　　أَبَتُّوْهُمَا حَتَّىٰ مَفَارِقُهُمْ شُمْطُ(٢)

أَعِنْـدَهُـمُ عِلْـمُ ٱلسُّلُـوِّ لِسَـائِلٍ　　بِهِ ٱلرَّكْبُ لَمْ يَعْرِفْ أَمَاكِنَهُ قَطُّ

* * *

(١) في المخطوط : تمادى عهدي .

(٢) شرح لصاحبَيهِ حاجتَهُ وهيَ : أَن يسأَلا علماءَ (بغدادَ) هل يعلمونَ لهُ دواءً مِن الشوقِ الذي غلبَ عليهِ ، والذي لم يهتدِ إليهِ . والجانبانِ : جانبا (بغدادَ) . وأَبَتُّوهُما : مِن أَبِنَ بالمكانِ : أَي أَقامَ بهِ . والشَّمَطُ : بياض الشَّعر في السواد .

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ	لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

شرح بيت الناظم والأقوال فيه

قيلَ : إِنَّ المرادَ بـ (اللَّهَا) جمعُ (لهاةٍ) ، وقيلَ : هو جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ (وَجَدَتْ) ولا حشو في ذلكَ ؛ لأَنَّكَ تقولُ : ما وجدتُ سبيلاً إِلىٰ كذا ، وتقولُ : ما وجدتُ لي سبيلاً إِلىٰ كذا ، كلاهُما جارٍ في ٱستعمالِ الفصحاءِ وأَهلِ النيْقَةِ[1] في الكلامِ ، غيرَ أَنَّ ٱبنَ هشامٍ يقولُ [في « المغني » ١/ ٢٨٤] : إِنَّ فيهِ تعدِّيَ فعلِ الظاهرِ إِلىٰ ضميرِهِ المتَّصلِ ؛ كقولِكَ : (ضربَهُ زيدٌ) وذلكَ ممتنعٌ ، فينبغي أَنْ يُقدَّرَ صفةً في الأَصلِ لـ (سُبُلاً) ، فلمَّا قُدِّمَ عليهِ صارَ حالاً منهُ ، كما أَنَّ قولَهُ : (إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا) كذلكَ ؛ إِذِ ٱلمَعنىٰ سُبُلاً مسلوكةً إِلىٰ أَرواحِنا . انتهىٰ .

وأَقولُ : لا مانعَ من تعلُّقِها بـ (المنايا) ، لإِشارَتِها إِلىٰ معنىٰ الفعلِ وتقدُّمِها رُتبةً ويسقطُ ذلكَ التكلُّفُ .

الفراق هو الطريق إلى الموت والدليل عليه

والبيتُ مِنْ خالصِ الشِّعرِ ومختارِ الكلامِ ، وإِنْ كانَ مأْخوذاً مِنْ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ جَاءَ مُرْتَادُ ٱلْمَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ	إِلاَّ ٱلْفِرَاقَ عَلَىٰ ٱلنُّفُوسِ دَلِيْلاَ[2]

---

(١) أهلُ النيقةِ : هُم المبالغونَ في تجويدِ الكلامِ .

(٢) مرتادُ المنيّةِ : طالبُ الموتِ .

وقد أخذهُ أبو تمّامٍ من قولِ قيسِ بنِ الملوّحِ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرُكَ لَوْلاَ ٱلْبَيْنُ مَا مَاتَ عَاشِقٌ ... وَلَوْلاَ ٱلْهَوَىٰ مَا نَاحَ بِٱللَّيْلِ آلِفُ

وقالَ قيسُ بنُ ذُرَيحٍ [في « ديوانهِ » ١٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنَيَّ بِٱلْبُكَا ... حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ

وَقَالُوْا غَداً أَوْ بَعْدَ ذَاكَ بِلَيْلَةٍ ... فِرَاقُ حَبِيْبٍ لَمْ يَبِنْ وَهْوَ بَائِنُ

وَمَا كُنْتُ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُوْنَ مَنِيَّتِيْ ... بِكَفَّيْكَ إِلاَّ أَنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

وقالَ أبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٠٨١ مِنَ ٱلكاملِ] :

هَلْ رَكْبُ مَكَّةَ حَامِلُوْنَ تَحِيَّةً ... تُهْدَىٰ إِلَيْهَا مِنْ مُعَنَّىً مُغْرَمِ

إِنْ لَمْ يُبَلِّغْكِ ٱلْحَجِيْجُ فَلاَ رَمَوْا ... فِيْ ٱلْجَمْرَتَيْنِ وَلاَ سُقُوْا مِنْ زَمْزَمِ

وَمُنُوْا بِرَائِعَةِ ٱلْفِرَاقِ فَإِنَّهُ ... سِلْمُ ٱلسُّهَادِ وَحَرْبُ نَوْمِ ٱلنُّوَّمِ

فالفِراقُ بريدُ الحِمامِ ، وفاتحةُ الأَسقامِ ، وحسبُكَ ما ٱتَّفقَ ليعقوبَ عليهِ السلامُ .

ما هي صورة الفراق لو تجسَّم؟!

وقالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٧٥] : كانَ الشهرستانيُّ يَروي بسندهِ المتَّصلِ إلىٰ النَّظَّامِ البلخيِّ ـ العالمِ المشهورِ وٱسمهُ إبراهيمُ بنُ سيَّارٍ [ت : ٢٣١ هـ] ـ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لو كانَ للفراقِ صورةٌ . . لارتاعتْ لها القلوبُ ، وٱنهدت منها الجبالُ ، ولَجَمْرُ الغَضىٰ أَقلُّ توهُّجاً مِنْ حملِهِ ، ولو عذَّبَ اللهُ أَهلَ النارِ بالفراقِ . . لاستراحوا إلىٰ ما قبلَهُ مِنَ ٱلعذابِ .

قصة الصمة بن عبد الله وصاحبته ريا

وكلُّ ما أَسلفناهُ مِن مصارعِ العشّاقِ ، وشُهداءِ الأَشواقِ ، في شرحِ البيتينِ قبلَهُ . . يدخلُ في الكلامِ علىٰ هـٰذا ، ونزيدُ عليهِ :

حديثَ الصمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ رَقَّاشٍ التغلبيِّ وصاحبتِهِ رَيَّا بنتِ مسعودِ بنِ رَقَّاشٍ ، وقد مرَّ ذروٌ[1] منهُ في المجلسينِ الأوَّلِ والثاني ، وتمامهُ [كما في « الأغاني » ٦/١١] : أنَّهُ لمَّا ذهبَ إلىٰ العراقِ بعدَ لجاجِ عمِّهِ وأبيهِ في البعيرِ ، وقولُ رَيَّا : ما رأيتُ رجلاً أضاعهُ أبوهُ وعمُّهُ ببعيرٍ إلاَّ الصمَّةَ . أضرَّ بهِ النوىٰ ، وأضناهُ الجوىٰ ، وكانَ شهماً أديباً شجاعاً عارفاً بأيَّامِ العربِ ، ويُذكرُ أنَّهُ أدركَ أوائِلَ الإسلامِ ، فمنعتهُ الشهامةُ أنْ يرجعَ إلىٰ أهلهِ بغيرِ طلبٍ منهم ، ولم يزَلْ حتَّىٰ أضناهُ السُّقْمُ ، وأعيتهُ الحيلةُ ، وقدمَ أحدُ مَذْحِجَ علىٰ مسعودٍ ، فخطبَ ريَّا بثلاثِ مئةِ ناقةٍ برُعاتِها ، فزوَّجَهُ بها فحملَهَا إلىٰ مذحجٍ ، فبلغَ الصمَّةَ الخبرُ فاْشتملَ عليهِ الفراشَ ، وقالَ قصيدتَهُ التي سبقَ شيءٌ منها ، ومنها [في « ديوانهِ » ٨٧ وما بعدُ مِنَ الطَّويلِ] :

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَدَاعَ مُفَارِقٍ ... وَلَمْ تَرَ شَعْبَيْ صَاحِبَيْنِ تَقَطَّعَا

بَكَتْ عَيْنُكَ ٱلْيُمْنَىٰ ولَمَّا زَجَرْتَهَا ... عَنِ ٱلْغَيِّ بَعْدَ ٱلرُّشْدِ أَسْبَلَتَا مَعَا[2]

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلْبِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا ... وَجَالَتْ بَنَاتُ ٱلشَّوْقِ تَحْتِي نُزَّعَا[3]

تَلَفَّتُّ نَحْوَ ٱلْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ ٱلإِصْغَاءِ لِيتاً وأَخْدَعَا[4]

وَأَذْكُرَ أَيَّامَ ٱلْحِمَىٰ ثُمَّ أَنْثَنِي ... عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

---

(١) ذروٌ : قليل .
(٢) أسبَلتا : أنهمرَ الدمعُ مِنهما بغزارةٍ .
(٣) البشرُ : جبلٌ في أطرافِ (نجدٍ) من جهةِ (الشامِ) .
(٤) اللِّيتُ : صفحةُ العنقِ . الأخدعانِ : عِرقانِ في جانبَي العنقِ .

أَمَـا وَجَـلاَلِ ٱللهِ لَـوْ تَـذْكُـرِينَنِـيْ ... كَذِكْرَاكِ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا[1]
فَقَالَتْ : بَلَىٰ وَٱللهِ ذِكْراً لَوَ ٱنَّهُ ... تَضَمَّنَهُ صُمُّ ٱلصَّفَا لَتَصَدَّعَا[2]

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلدَّهْرَ بِٱلتَّفْرِيْقِ وَٱلْبَيْنِ مُوْلَعَا ... وَلِلْجَمْـعِ مَـا بَيْـنَ ٱلْمُحِبِّيْـنَ آبِيَـا
فَـأُفٍّ عَلَيْـهِ مِـنْ زَمَـانٍ كَـأَنَّنِـيْ ... خُلِقْـتُ وَإِيَّـاهُ نُطِيْـلُ ٱلتَّعَـادِيَـا

موته وموتها من العشق

ولمْ يزل يشتدُّ بهِ البأسُ ، ويتجاذبهُ اليأسُ . . إلىٰ أن سمعَ ٱمرأةً تنادي بنتاً لها وتقولُ : يا ريَّا . . فخرَّ مغشياً عليهِ ، ثُمَّ أفاقَ وقالَ [في « ديوانِهِ » ٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَـزَّ بِصَبْـرٍ لاَ وَرَبِّـكَ لاَ تَـرَىٰ ... بُيُوْتَ ٱلْحِمَىٰ إِحْدَىٰ ٱللَّيَالِيْ ٱلْغَوَابِرِ
كَـأَنَّ فُـؤَادِيْ مِـنْ تَـذَكُّـرِهِ ٱلْحِمَـىٰ ... وَأَهْلَ ٱلْحِمَىٰ يَهْفُوْ بِهِ رِيْشُ طَائِرِ[3]

ولمْ يزلْ يردِّدُهَا . . حتَّىٰ فاضَتْ نفسُهُ[4] .

ولمَّا ٱتَّصلَ نعيهُ بريَّا . . داخلَهَا مِنَ ٱلْوَجْدِ ما منعهَا عنِ ٱلطعَامِ والشَّرابِ ، وجعلَتْ تبكي حتَّىٰ ماتَتْ .

وقولُهُ : (تَلَفَّتُّ نَحْوَ ٱلْحَيِّ) شبيهٌ بقولِ الآخرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَظْنَـاهُـمُ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ عُيُـوْنَنَـا ... بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ ٱللَّحَظَانِ[5]

---

(١) النهنهةُ : الكفُّ .
(٢) الصُّمُّ : الحجرُ الصلبُ . الصفا : العريضُ الأملسُ من الحجارةِ .
(٣) هَفَا الطَّائِرُ بجناحِهِ : أي خفقَ وطارَ .
(٤) انظر « الأغاني » (٨/٦) .
(٥) اللَّقوةُ : داءٌ يصابُ بِهِ الشدقُ فيعوجُّ .

وما سمعَهُ من دعاءِ المرأةِ بنتها شبيهٌ بما نذكرهُ أوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ من قولِ ٱلمجنونِ [في « ديوانهِ » ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مشابهته للمجنون

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًىٰ ... فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَىٰ غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِراً كَانَ فِيْ صَدْرِي

وقالَ أبو بكرٍ الصوليُّ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٦] : قالَ أبو زكريا البصريُّ : حدَّثني رجلٌ من قريشٍ قالَ : خرجتُ حاجّاً معَ رِفقةٍ لي ، فمِلنا عنِ ٱلطَّريقِ لنصَلِّيَ ، فجاءَ غلامٌ يقولُ : هل فيكم أحدٌ من أهلِ البصرةِ ؟ قلنَا كلُّنا مِنْ أهلِها ، فقالَ : إنَّ مولايَ يدعوكُم فقمنَا إليهِ ، فإذا مريضٌ بآخرِ رمقٍ ، منعَنا ضعفهُ أنْ نسألَهُ عنِ ٱسمِهِ ، فلمَّا أحسَّ بنا . . رفعَ طرفَهُ وما كادَ ، وأنشَا يقولُ [في « ديوانِ العبَّاسِ بنِ الأحنفِ » ٢٨٧ مِنَ ٱلمديدِ] :

وفـاة العبـاس بـن الأحنف عشقاً

يَا بَعِيدَ ٱلدَّارِ عَنْ وَطَنِهْ ... مُفْرَداً يَبْكِيْ عَلَىٰ شَجَنِهْ

كُلَّمَا جَدَّ ٱلرَّحِيلُ بِهِ ... زَادَتِ ٱلأَسْقَامُ فِيْ بَدَنِهْ

ثُمَّ أُغميَ عليهِ طَويلاً ونحنُ حولَهُ ، إذ أقبلَ طائرٌ ، فوقعَ علىٰ شجرةٍ كانَ تحتَها ، وجعلَ يغرِّدُ ، ففتحَ عينيهِ ، وجعلَ يستمعُ تغريدَ الطائرِ ، ثُمَّ أنشأَ يقولُ [في « ديوانهِ » ٢٧٨ مِنَ ٱلمديدِ] :

وَلَقَدْ زَادَ ٱلْفُؤَادَ شَجَا ... طَائِرٌ يَبْكِيْ عَلَىٰ فَنَنِهْ[1]

شَفَّهُ مَا شَفَّنِيْ فَبَكَا ... كُلُّنَا يَبْكِيْ عَلَىٰ سَكَنِهْ

ثُمَّ تنفَّسَ نفَساً عالياً فاضتْ معهُ روحهُ ، فجهَّزناهُ ثُمَّ سألنا عنهُ

---

(١) الفننُ : غصنُ الشجرةِ المستقيمِ .

الغلامَ، فقالَ: إنَّهُ العباسُ بنُ الأَحنفِ، وكانتْ وفاتُهُ سنةَ: (١٩٣ هـ).

رواية أخرىٰ في تاريخ وفاته

وهـٰذا يعارضُ ما يروىٰ [في «خزانة الأدب» ١/ ٤٢٥] من موتهِ وموتِ الكسائيِّ وهُشَيْمَةَ الخمَّارَةِ في يومٍ واحدٍ، وأَنَّ الرشيدَ أمرَ المأمونَ أَنْ يُصَلِّيَ عليهِم، وأَنَّهُ قدَّم العبَّاسَ لقولِهِ [في «ديوانه» ٨١ مِنَ الكاملِ]:

وَسَعَوْا إِلَيَّ بِهَا وَقَالُوْا إِنَّهَا ... لَهِيَ ٱلَّتِيْ تَشْقَىٰ بِهَا وَتُكَابِدُ

فَجَحَدْتُهُمْ لِيَكُوْنَ غَيْرَكِ ظَنُّهُمْ ... إِنِّيْ لَيُعْجِبُنِيْ ٱلْمُحِبُّ ٱلْجَاحِدُ

الدنوُّ يفضح الأحباب

وهوَ مثلُ قولِهِ أَيضاً [في «ديوانهِ» ٧٤ مِنَ الكاملِ]:

ٱللهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ ... إِلاَّ مُصَانَعَةَ ٱلْعَدُوِّ ٱلْكَاشِحِ

وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدِيْ وَتَسَتُّرِيْ ... أَدْنَىٰ لِوَصْلِكِ مِنْ دُنُوٍّ فَاضِحِ

وقولِهِ [في «ديوانهِ» ٩٩ مِنَ المتقاربِ]:

سَأَهْجُرُ إِلْفِيْ وَهِجْرَانُهُ ... إِذَا مَا ٱلْتَقَيْنَا صُدُوْدُ ٱلْخُدُوْدِ

كِلاَنَا مُحِبٌّ وَلَـٰكِنَّنَا ... نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِٱلصُّدُوْدِ

وقولِهِ [في «ديوانهِ» ١٩٥ مِنَ الطَّويلِ]:

كَذَبْتُ عَلَىٰ نَفْسِيْ فَحَدَّثْتُ أَنَّنِيْ ... سَلَوْتُ لِكَيْلاَ يُنْكِرُوْا حِيْنَ أَصْدُقُ

وَمَا عَنْ قِلَىً مِنِّيْ وَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ ... وَلَـٰكِنَّنِيْ أُبْقِيْ عَلَيْكِ وَأُشْفِقُ

عَطَفْتُ عَلَىٰ أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا ... قَمِيْصاً مِنَ ٱلْكِتْمَانِ لاَ يَتَخَرَّقُ

كتمان الحب مخافة الواشين

وهوَ معنىً متداولٌ بينَ الشُّعراءِ، منهُ قولُ جميلٍ [في «ديوانهِ» ٩٠ مِنَ الطَّويلِ]:

وَطَرْفَكَ إِمَّا جِئْتَنَا فَٱحْبِسَنَّهُ ... فَزَيْغُ ٱلْهَوَىٰ بَادٍ لِمَنْ يَتَبَصَّرُ

وَأَعْرِضْ إِذَا لاَقَيْتَ عَيْناً نَخَافُهَا ... وَظَاهِرْ بِبُغْضٍ إِنَّ ذَلِكَ أَسْتَرُ

فَقُلْتُ لَهَا: يَا بُثْنُ أَوْصَيْتِ حَافِظاً ... وَكُلُّ ٱمْرِىءٍ لَمْ يَرْعَهُ اللهُ مُعْوِرُ
سَأَمْنَحُ طَرْفِيْ حِيْنَ أَلْقَاكِ غَيْرَكُمْ ... لِكَيْمَا يَرَوْا أَنَّ ٱلْهَوَىٰ حَيْثُ أَنْظُرُ

وقالَ [في « ديوانه » ٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ ٱلْحَيِّ أَنَّنِيْ ... إِذَا جِئْتُ إِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيْدُ
فَأَقْسِمُ طَرْفِيْ بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِيْ ... وَفِيْ ٱلصَّدْرِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيْدُ

وقالَ مجنونُ عامرٍ [مِنَ الوافرِ] :

كِلاَنَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُغْضاً ... وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِيْنُ
وَأَسْرَارُ ٱلْمَلاَحِظِ لَيْسَ تَخْفَىٰ ... وَقَدْ تُغْرِيْ بِذِيْ ٱللَّحْظِ ٱلْعُيُوْنُ

وقالَ هوَ ، أَو غيرُهُ [في « ديوانِ المجنونِ » ٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِيْ لاَ أَزُوْرُهُ ... وَإِنْ حَلَّهُ شَخْصٌ إِلَيَّ حَبِيْبُ
هَجَرْتُكَ إِشْفَاقاً وَزُرْتُكَ خَائِفاً ... وَفِيْكَ عَلَيَّ ٱلدَّهْرَ مِنْكَ رَقِيْبُ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحْبِسُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ وَٱلنَّفْسُ صَبَّةٌ ... بِذِكْرَاكِ وَٱلْمَمْشَىٰ إِلَيْكِ قَرِيْبُ
مَخَافَةَ أَنْ يَسْعَىٰ ٱلْوُشَاةُ بِظِنَّةٍ ... وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيْبَ مُرِيْبُ

وقالَ بعضُهم في قصَّةٍ ذكرَها أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [مِنَ البسيطِ] :

غُضِّيْ جُفُوْنَكِ عَنِّيْ وَٱنْظُرِيْ أَمَمَا ... فَإِنَّمَا ٱفْتُضِحَ ٱلْعُشَّاقُ بِٱلْمُقَلِ

وقالَ ٱبنُ مُطيرٍ [في « ديوانه » ٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

سَلاَمٌ عَلَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي لاَ نَزُوْرُهُ ... مِنَ ٱلْخَوْفِ إِلاَّ بِٱلْعُيُوْنِ ٱللَّوَامِحِ
وَلَوْلاَ حِذَارُ ٱلْكَاشِحِيْنَ لَقَادَنِيْ ... إِلَيْهِ ٱلْهَوَىٰ قَوْدَ ٱلْجَنِيْبِ ٱلْمُسَامِحِ[1]

---

(١) الكاشحُ : العدوُّ المبغضُ . الجنيبُ : الطائعُ المنقادُ .

وقالَ [في «ديوانهِ» ٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَهْجُرُ بَيْتاً بِالْحِجَازِ تَكَنَّفَتْ ... جَوَانِبَهُ ٱلأَعْدَاءُ أَمْ أَنْتَ زَائِرُهْ[1]
فَإِنْ آتِهِ لَمْ أَنْجُ إِلاَّ بِظِنَّةٍ ... وَإِنْ يَأْتِهِ غَيْرِي تُنَطْ بِيْ جَرَائِرُهْ

وقالَ الأَبِيوَرْدِيُّ [في «ديوانهِ» ٢/ ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَيْفَاءَ لاَ أُصْغِيْ إِلَىٰ مَنْ يَلُوْمُنِي ... إِلَيْهَا وَيُغْرِيْنِيْ بِهَا أَنْ أَعِيْبَهَا
أَمِيْلُ بِإِحْدَىٰ مُقْلَتَيَّ إِذَا بَدَتْ ... إِلَيْهَا وَبِالأُخْرَىٰ أُرَاعِيْ رَقِيْبَهَا
وَقَدْ غَفَلَ ٱلْوَاشِيْ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّنِيْ ... أَخَذْتُ لِعَيْنِيْ مِنْ سُلَيْمَىٰ نَصِيْبَهَا

وممَّا يُعْزَىٰ إِلىٰ سيفِ الدَّولةِ قولُهُ [مِنَ الخفيفِ] :

رَاقَبَتْنِيْ فِيْكَ ٱلْعُيُوْنُ فَأَشْفَقْـ ... ـتُ وَلَمْ أَخلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ
وَرَأَيْتُ ٱلْعَدُوَّ يَحْسُدُنِيْ فِيْـ ... ـكَ مُجِدّاً يَا أَنْفَسَ ٱلأَعْلاَقِ
فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُوْنَ بَعِيْداً ... وَالَّذِي بَيْنَنَا مِنَ ٱلْوِدِّ بَاقِيْ
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفِ هَجْرٍ ... وَفِرَاقٍ يَكُوْنُ خَوْفَ فِرَاقِ

قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في «وفياتِ الأعيانِ» ٣/ ٤٠٢] : والأبياتُ بعينِها في ديوانِ عبدِ ٱلمحسنِ الصّوريِّ .

نفي الشيء بإيجابه

فإنْ قيلَ : إنَّ جحودَ العبَّاسِ لا لإيهامِ الرقيبِ التنصُّلَ مِنَ ٱلهوىٰ ، ولٰكِنْ لإحالةِ الشقاءِ علىٰ ما سواهُ ، فبينَ كلامهِ وبينَ ما سردتُهُ مِنَ ٱلشواهدِ بونٌ كبيرٌ . . قلتُ : لا يقولُ ذلكَ إلاَّ مَنْ لم يعرفْ أَنَّهُ قريبٌ مِنْ نفيِ الشيءِ بإيجابهِ ، وإلاَّ . . فجُحودُ المُسبَّبِ جحودٌ للسَّبَبِ ، فلا تباينَ .

---

(١) تكنَّفت : أحاطت .

سؤال عن الأحباب

ووقفَ بعضُهم علىٰ أعرابيٍّ ينشدُ [مِنْ مجزوءِ ٱلوافرِ] :

أَبِـــنْ لِـــيْ أَيُّهَـــا ٱلطَّلَـــلُ   عَـــنِ ٱلأَحْبَـــابِ مَـــا فَعَلُـــوْا
تُـرَىٰ سَـارُوْا ؟ تُـرَىٰ نَـزَلُـوا ؟   بِـــأَرْضِ ٱلشَّـــامِ أَمْ رَحَلُـــوْا ؟

فقالَ لهُ : بلْ ماتُوا ، فأخذَ الأعرابيُّ يردِّدُ قولَهُ : بلْ ماتُوا حَتَّىٰ فاضَ .

الضيف مبلغ الرسائل وموت العشاق

ومِنْ أَغربِ ما في ٱلموضوعِ ، ما أَخرجهُ الحافظُ مغلطايُ في « الواضحِ »[1] عنِ الأصمعيِّ وقد قالَ لهُ الرشيدُ : حدِّثني بأَعجبِ ما رأَيتَ ، قالَ أَخبرني السُّميدَعُ بنُ عمروٍ الكلابيُّ ـ وقد جاوزَ المئَةَ ـ قالَ : كنتُ كثيرَ الأَسفارِ فمررتُ في قَصدي إِلىٰ (اليمامةِ) ، وقد قَرُبَ اللَّيلُ ببيتٍ ، فأَردتُ المبيتَ عندهُ ، فقالتِ ٱمْرأَةٌ عندهُ : أَضيفٌ أَنتَ ؟ قلتُ : نعم ، فقالتْ : علىٰ الرَّحبِ والسَّعةِ ، وعيَّنَتْ لي مكاناً أَجلسُ فيهِ ريثَمَا يأْتيْ صاحبُ المنزلِ ، وحملتْ لي معَ جاريَتها تمراً وثريداً ، وقالتْ : تعلَّل بهـٰذا ، فقلتُ : في دونِهِ الكفايةُ ، فأَكلتُ ، وتوسَّدتُ ذراعَ ناقتي ، وأَخذتْني عيني ، فلم أُفِقْ إِلاَّ وشابٌّ علىٰ أَحسنِ ما يكونُ ، معهُ عبيدٌ أَقبلوا بحطبٍ ونارٍ ، فأَضرموها ، وجاؤُوا بكبشٍ فذُبحَ وكُشطَ وطبَخوا وثَرَدوا ، وقُدِّمَ إِلينا . . فأَكلنا ، ولمَّا أَشرفَ الصبحُ . . فعلَ كما فعلَ في الليلِ ، وقالَ : أَقِمْ عندنا اليومَ ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً ، وركبَ هوَ لبعضِ شأْنهِ وبقيتُ ، فدعَتني ربَّةُ المنزلِ وأَرختْ جانبَ السترِ ، وقالَتْ : أَينَ تريدُ ؟ قلتُ : (اليمامةَ) ، قالتْ : فأَحفظْ عنِّي هـٰذهِ الرسالةَ

---

(١) وتمام اسمه : « الواضحُ المُبينُ فيمن استشَهدَ من المحِبِّين » ومغلطاي هو ابن قَلِيج المصري الحنفي الحافظ المؤرخ ت سنة : (٧٦٢ هـ) .

وأَعِـدْ عليَّ جـوابَهـا ، قلـتُ : ومـا هـيَ ؟ قـالَـتْ : إذا جئتَ (الحضرمَةَ) . . فتغنَّ بهٰذهِ ٱلأبياتِ [مِنَ الخفيفِ] :

أَعَلَىٰ ٱلْعَهْدِ مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ ... أَمْ سَقَاهُ أَفَاوِقَ ٱلْغَدْرِ سَاقِي[1]

إِنْ يَكُنْ خَانَ أَوْ تَسَلَّىٰ فَإِنِّي ... لَعَلَىٰ ٱلْعَهْدِ لَمْ أَخُنْ مِيْثَاقِي

مَا أَلَمَّ ٱلرُّقَادُ مُذْ بِنْتَ إِلاَّ ... بِجُفُوْنٍ قَرِيْحَةِ ٱلآمَاقِ

فَعَلَيْكَ ٱلسَّلاَمُ مَا ٱبْتَسَمَ ٱلنَّوْ ... رُ وَمَا أَبَّ فِيْ ٱلثَّرَىٰ عِرْقُ سَاقِ[2]

فلمَّا خرجتُ في اليومِ الثاني . . سارَ في توديعي صاحبُ المنزلِ ، وقالَ : يا ٱبنَ عمّي ، هل أنتَ مبلِّغٌ رسالتي وعائِدٌ بجوابِها إذا ٱنصرفْتَ ؟ فقلتُ : نعم ، ونعمتُ عينٍ ، قالَ : قِفْ بقرَّانِ بني سُحيمٍ ، ثُمَّ تغنَّ بقولي [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا سَرْحَتَيْ قَرَّانَ بِٱللهِ خَبِّرَا ... عَنِ ٱلنَّاقَةِ ٱلْعَيْسَاءِ كَيْفَ نِزَاعُهَا ؟

فَلَوْ أَنَّ فِيْهَا مَطْمَعاً لِمُتَيَّمٍ ... نَأَتْ دَارُهَا عَنْهُ وَخِيْفَ ٱمْتِنَاعُهَا

لَهَانَ عَلَيْهِ جَوْبُ كُلِّ تَنُوْفَةٍ ... يُخَافُ عَلَيْهَا جَوْرُهَا وَضَيَاعُهَا[3]

تَغَرَّبْتُ عَنْ نَفْسِيْ وَأَيْقَنْتُ أَنَّهَا ... تُرِيْدُ وَدَاعاً يَوْمَ جَدَّ وَدَاعُهَا

فلمَّا وصلتُ (اليمامةَ) . . وقفتُ حيثُ وصفَ ، ورفعتُ عَقِيْرَتِي[4] بأبياتهِ . . فما كانَ بأسرعَ منْ جاريةٍ حاسرةٍ ، كأنَّها مُهرةٌ عربيَّةٌ تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَمَّلْ رَعَاكَ اللهُ مِنِّيْ تَحِيَّةً ... إِلَيْهِ جَدِيْدٌ كُلَّ يومٍ سَمَاعُهَا

---

(١) الأفاوقُ : ما ٱجتمعَ من السحابِ من ماءٍ ، فهوَ يمطِرُ ساعةً بعدَ ساعةٍ .

(٢) الأَبُّ : ما أنبتتِ الأرضُ .

(٣) التنوفَةُ : الفلاة التي لا ماءَ فيها ولا أَنيسَ .

(٤) العقيرَةُ : صوتُ المغنّي والباكي والقارىء .

وَخَبِّرْ عَنِ ٱلْعَيْسَاءِ أَنْ قَدْ تَوَخَّمَتْ   عَلَيْهَا مَرَاعِيهَا وَطَالَ نِزَاعُهَا
لَقَدْ قَطَّعَ ٱلْبَيْنُ ٱلْمُشَتِّتُ أُلْفَةً   عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُحَمَّ ٱنْقِطَاعُهَا[1]

ثُمَّ شَهَقَت شهقةً ، كانتْ فيها نفسُها ، ولمَّا جئتُ (الحضرمةَ) . . تغنيتُ بأَبياتِ المرأَةِ ، فإِذا فتىً كنصلِ السيفِ يجاوِبني بقولهِ [مِنَ الخفيفِ] :

لَمْ يَحُلْ عَنْ وَفَائِهِ ٱبْنُ سِنَانٍ   لاَ وَلاَ زَالَ وَجْدُهُ بِالْفِرَاقِ
إِنَّ بَيْنَ ٱلْحَشَا لَهِيْبَ ٱشْتِيَاقٍ   لَيْسَ يُطْفِيْ جَوَاهُ إِلاَّ ٱلتَّلاقِيْ
إِنَّمَا أَبْقَتِ ٱلْهُمُومُ خَيَالاً   بَالِيَاً مُمْسِكَاً بِبَاقِيْ رِمَاقِيْ

ثُمَّ تنفَّسَ نفَساً عالياً ، ٱقتضبَ حيازيمَهُ[2] ، فكانَ آخرَ أَنفاسهِ ، فلمَّا رجعتُ إِلىٰ الحيِّ . . أَخبرتُ المرأَةَ بجوابِ صاحبِها ، فلم أَستَتِمَّ الكلامَ إِلاَّ وهيَ هامدةٌ ، فٱرتفعتِ ٱلأَصواتُ ، وأَقبلَ صاحبُها ٱلشَّابُّ ، فقالَ لي : ما شأْنُها ؟ فبقرتُ لهُ الحديثَ علىٰ وجههِ ، ثُمَّ أَنشدتهُ جوابَ أَبياتهِ ، فقالَ : هاأَنذا ميِّتٌ ، ثُمَّ ٱضطَجعَ فكأَنَّما كانتْ نفسهُ في يدهِ .

يجود بنفسه وكأنها في يده

ويُشْبِهُ هٰذهِ القصَّةَ ، ما ذكرهُ العتبيُّ قالَ : تذاكرنا الهوىٰ يوماً ، وعندنا شيخٌ ساكتٌ ، فقلنا لهُ : أَلا تحدِّثُنا بما عندكَ في هٰذا ، قالَ : جلَسنا يوماً للشربِ ، ومعنا قينةٌ ، فغنَّتْ [مِنَ مجزوءِ ٱلمتقاربِ] :

عَلاَمَةُ ذُلِّ ٱلْهَوَىٰ   عَلَىٰ ٱلْعَاشِقِيْنَ ٱلْبُكَا
وَلاَ سِيَّمَا عَاشِقٌ   ذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكَىٰ

---

(١) حُمَّ الأمرُ : قُضِيَ .
(٢) الحيزومُ : ما ٱكتنفَ الحلقومَ من جانبِ الصدرِ .

فقالَ شابٌ في المجلسِ : أَحسنتِ واللهِ ، أَفتأْذنينَ لي أَنْ أَموتَ ؟ فقالَتْ : مُتْ راشداً إِنْ كنتَ صادقاً ، وكانَ يهوىٰ ٱلقَينةَ ، فٱضطَجَعَ فإِذا هوَ ميتٌ ، فتنغَّصَ المجلسُ علينا ، ثُمَّ دخلتُ إِلىٰ أَهلي ، فأَخبرتُهم بٱلقصَّةِ ، وكانَتْ لنا ٱبنَةٌ تهوىٰ ذلكَ الشابَّ ـ ونحنُ لا ندري ـ فلمَّا سَمِعَتِ ٱلخَبَرَ . . قامَتْ إِلىٰ خلوةٍ لَها ، وأَبطَأَتْ عنَّا ، فإِذا هيَ مَيْتَةٌ علىٰ الهيئةِ الَّتي ماتَ عليها الشابُّ ، ولمَّا خرجنا بجنازتِها وخرجَ أَهلُ الشابِّ بجنازتهِ . . إِذا جنازةٌ ثالثةٌ للقينةِ الَّتي كانت تغنِّينا ، وذلكَ أَنَّها كانتْ تهوىٰ ٱبنتَنا ، فلمَّا ٱتَّصلَ بها نعيُها . . سقطتْ مَيْتَةً .

هٰذا والشوطُ بَطينٌ ، والبابُ واسعٌ ، وقد أُفردَ بٱلمؤَلَّفاتِ ، ونحنُ ذاكرونَ في هٰذهِ المجالسِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ما تيسَّرَ بحسبِ المناسَباتِ .

المتنبي يتكلم في الفراق

وقد قالَ الناظمُ فيما يشبهُ البيتَ الذي نحنُ بطريقِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٦٤ـ٢٦٥ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

لاَ تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلاَ طَلَلَهْ ... أَوَّلَ حَيٍّ فِرَاقُكُمْ قَتَلَهْ

قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَهُ ٱلنُّفُوسُ بِكُمْ ... وَأَكْثَرَتْ فِيْ هَوَاكُمُ ٱلعَذَلَهْ

كل البلاء من الفراق

فالفراقُ ـ كما قلنا ـ مرُّ المذاقِ ، لاَ كَبِدَ إِلاَّ بهِ تَفتَّت ، ولا عظيمةَ إِلاَّ منهُ تأَتَّتْ ، ويا لهُ ، كمْ في المحبينَ مِنْ حيفٍ ، وجورٍ أَشوىٰ من وقعِ السيفِ ، لا يُحصىٰ مَنِ ٱشتَملَ عليهِ الترابُ مِنْ قتلاهُ ، ولا يَخلصُ مَنِ ٱعتصمَ بالأَجلِ من سوءِ بلاهُ . [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كُلُّ نِيرَانِ ٱلْجَوَىٰ تُحْرِقُ ٱلْحَشَا ... وَلاَ كُلُّ أَدْوَاءِ ٱلصَّبَابَةِ يَقْتُلُ

وأَنفعُ ما يَبُلُّ بهِ المرءُ غليلَ الجوىٰ ، ويتعلَّلُ بهِ المنكوبُ إذا أَضرَّ بهِ ٱلنَّوىٰ . . تحقُّقُ أَنَّ الحياةَ ليسَ لَها بَقاءٌ ، وأَنَّ ٱلافتِراقَ ليسَ إلاَّ إِلىٰ ٱلْمُلْتَقَىٰ ، وقد قالَ الأَوَّلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وصفة لشفاء العشاق

وَهَوَّنَ بَعْضَ ٱلْوَجْدِ عَنِّيَ أَنَّنِي ... أُجَاوِرُهُ فِيْ دَارِهِ ٱلْيَوْمَ أَوْ غَدَا

وقالَ ٱبنُ زريقٍ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَإِنْ تَنَـلْ أَحَـداً مِنَّـا مَنِيَّتُـهُ ... لاَ بُدَّ فِيْ غَدِهِ ٱلثَّانِيْ سَيَتْبَعُهُ

وقلتُ [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ٦٩ـ٧٠ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَـوْلاَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْيَـوْمَ صَعْـبٌ ... تَحُفُّ بِهِ ٱلْمَخَاوِفُ وَٱلصِّعَابُ
لَكَـانَ أَجَـلَّ مَـرْغُـوْبٍ لَـدَيْنَـا ... فَـوَاشَـوْقَـاهُ لِـلأَحْبَـابِ غَـابُـوْا

وقلتُ [كما في « ديوان المؤلفِ » ق ٣٢ من ٱلوافرِ] :

وَلَـوْلاَ نَـوْعُ سَلْـوَىٰ بِـٱلتَّمَنِّـيْ ... لأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ عَشِقَ ٱلنُّزُوْحُ
وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلتَّعَلُّلِ بَعْضُ طِبٍّ ... وَإِنْ زَمَّتْ عَلَىٰ ٱلْخَلَلِ ٱلْقُرُوْحُ

وقلتُ [كما في « ديوان المؤلفِ » ق ٣٢ من الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتُ أَلْقَىٰ مَنْ أُحِبُّ هُنَالِكَا ... فَلَيْتُ أَنْ لاَ أَبْكِيَ ٱلدَّهْرَ هَالِكَا
وَلَـٰكِنَّنِي لاَ عِلْمَ لِيْ بِٱلَّذِيْ لَهُ ٱلْـ ... ـمَآبُ مِنَ ٱلدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَا
سَلَكْنَـا وَلَـمْ نَـأْخُـذْ دَلِيْـلاً مُضِيْعَـةً ... فَكَيْفَ ٱلنَّجَا وَٱللَّيْلُ قَدْ كَانَ حَالِكَا ؟
لَقَدْ فَازَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِنْ يَقِيْنِهِ ... مَطَايَا تَعَوَّدْنَ ٱلسُّرَىٰ وَٱلْمَسَالِكَا
تَلَوَّتْ عَلَيْنَا ٱلْحَالُ وَٱعْصَوْصَبَ ٱلْبَلاَ ... فَحُـلَّ بِفَضْـلٍ مِنْـكَ عَنَّـا ٱلشَّبَـائِكَـا
وَفَـرِّجْ عَلَيْنَـا وَٱكْفِنَـا كُـلَّ مِحْنَـةٍ ... وَهَبْنَا ٱلرِّضَىٰ وَٱلْطُفْ بِنَا فِيْ قَضَائِكَا

ويُروىٰ : أَنَّ يوسفَ عليهِ السلامُ ، عاتَبَ أَباهُ علىٰ فَرْطِ ما ٱنقادَ

لهُ منَ الأحزانِ ، وقالَ لهُ : أَما علمتَ أَنَّ الموقفَ يجمعُنا ؟ قالَ لهُ : بلىٰ ، ولٰكنْ خشيتُ أن تموتَ علىٰ غيرِ دينِ آبائِكَ ، فيُذهَبَ بكَ إِلىٰ غيرِ طريقِهم . نسأَلُ اللهَ الثباتَ عندَ نزولِ المماتِ .

العاشق المعتكف على القبر

ومما يتَّصلُ بهٰذا ٱلمعنىٰ وسابقِهِ . . ما رُوِيَ [كما في «مصارع العشّاقِ» ٢٦/١ بتصرُّفٍ] عنِ ٱبنِ دريدٍ عنْ بعضِهم ـ [عبيدِ النِّعاليِّ غلامِ أَبي الهُذيلِ] ـ قالَ : ٱشتدَّت بيَ الهاجرةُ ، فملتُ إِلىٰ ظِلٍّ أَتفيَّأُ بهِ ، فسمعتُ صوتاً أَطربَني ، فطرقتُ البابَ أَستسقِي ، فأُذِنَ لي ، فإِذا شابٌّ علىٰ أَحسنِ صورةٍ ، ما خلا أَنَّ العلَّةَ لم تبقِ إِلا رسمَهُ ، فأَمر جاريتَه فسقَتْني ، ثُمَّ أَدخلني إِلىٰ منزلٍ مؤثَّثٍ بأَفخرِ الرياشِ ، وأَقبلَ يضاحِكُني حَتَّىٰ حضرَ الطعامُ ، فأَكلَ معي متغصِّصاً مُختنِقاً بالعَبَراتِ ، ثُمَّ قامَ بي إِلىٰ بيتٍ لطيفٍ فيهِ قبرٌ ، فشربَ وسقاني ثُمَّ أَنشدَ [منَ الكاملِ] :

أَطَأُ ٱلتُّرَابَ وَأَنْتِ رَهْنُ حُفَيْرَةٍ ... هَالَتْ يَدَايَ عَلَىٰ صَدَاكِ تُرَابَهَا[1] ؟!
إِنِّيْ لأَغْدَرُ مَنْ مَشَىٰ إِنْ لَمْ أَطَأْ ... بِجُفُوْنِ عَيْنِيْ مَا حَيِيْتُ جِنَابَهَا

ثُمَّ أَكبَّ علىٰ ٱلقبرِ مغشَّياً عليهِ ، فجاءَتِ ٱلجاريَةُ تَرشُّ عليهِ الماءَ . . حَتَّىٰ أَفاقَ ، فشربَ وسقَانِيْ ، وأَنشدَ [منَ الكاملِ] :

ٱلْيَوْمَ ثَابَ لِيَ ٱلسُّرُوْرُ لأَنَّنِيْ ... أَيْقَنْتُ أَنِّيْ عَاجِلاً بِكِ لاَحِقُ
فَغَداً أُقَاسِمُكِ ٱلبِلاَ وَيَسُوقُنِيْ ... طَوْعَاً إِلَيْكِ مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ سَائِقُ

ثُمَّ قالَ لي : قد وجبَ عليكَ حقِّي ، فأَحضُرْ غداً جنازَتي ،

---

(١) هالَ الترابُ : صبَّهُ . صداكِ : جثَّتكِ .

فدعوتُ لهُ بطولِ البقاءِ ، فقالَ : عققتَني إنْ لم تقلْ لي [مِنَ الكاملِ] :

جَاوِرْ خَلِيْلَكَ مُسْعَداً فِيْ رَمْسِهِ   كَيْمَا يَنالكَ فِيْ ٱلْبِلَىٰ مَا نَالَهُ

فأنصرفتُ عنهُ ولم أعرفِ ٱلنَّومَ حَتَّىٰ أَصبحتُ ، فأَتيتُ ذلكَ المنزلَ ، فإذا هُوَ مَيْتٌ ، فشهدتُ دفنَهُ بجانبِ ذلِكَ القبرِ ، ثُمَّ سَأَلتُ عن خبرهِ ؟ فقالوا : إنَّه كانَ يهوَىٰ ٱبنةَ عمِّهِ ، فدفعهُ أبوها ، ولمَّا ماتَ . . تزوَّجها ولم تقم معهُ إلاَّ ثلاثَ ليالٍ ، ثُمَّ حُمَّتْ وماتَتْ ، وأَقامَ بعدَها كما رأَيتَ ، إلىٰ أَنْ ماتَ بعدَها بثلاثةَ عشرَ يوماً .

ثُمَّ ذكرتُ أَنَّ عُروةَ بنَ حزَامٍ يقولُ في نونيَّتِهِ المشهورةِ [في « ديوانهِ » ٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَهْوَىٰ ٱلْحَشْرَ إِذْ قِيْلَ إِنَّنِيْ   وَعَفْـرَاءَ يَـومَ ٱلْحَشْـرِ مُلْتَقِيَـانِ

ويأْتي ما لهُ ٱتصالٌ بهـٰذا أَوائِلَ ٱلمجلسِ الثالثَ عشرَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِيْ دَنِفاً	يَهْوَىٰ ٱلْحَيَاةَ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

الحيـاة مـن أجـل الأحباب

يُقسمُ عليها بسِحر أَجفانِها. . إِلاَّ ما وصلَتْ مريضاً قد أُدنِفَ ، يهوىٰ الحياةَ إِن وصَلَتهُ ، وأَمَّا إِنْ صَدَّتْ عنهُ. . فلا يهوىٰ الحياةَ ، بلْ يُفضِّلُ عليها المماتَ ، وهُوَ قريبٌ مِنْ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٤٦ مِنَ ٱلخفيفِ] :

كُلُّ عَيْشٍ مَا لَمْ تُطِبْهُ حِمَامٌ كُلُّ شَمْسٍ مَا لَمْ تَكُنْهَا ظَلاَمُ

والأَصلُ قولُ الحُطَيئةِ في مديحِ علقمةَ بنِ عُلاثةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلُلْ حَيَاتِيْ وَإِنْ تَمُتْ فَمَا فِيْ حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ[1]

---

(١) وكانَ مِن قصَّةِ البيتِ الذي نحنُ بسبيلِهِ : أَنَّ سيِّدَنا عمرَ بنَ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ لمَّا أَطلقَ الحطيئةَ مِن حبسِهِ. . قالَ لهُ : يا أَميرَ المؤمنينَ. . اكتبْ لي كتاباً إِلىٰ علقمةَ بنِ علاثةَ لأَقصدهُ بهِ ؛ فقدْ منعتَني التكسُّبَ بِشعري ، فقالَ : لا أَفعلُ . فقيلَ لهُ : يا أَميرَ المؤمنينَ. . وما عليكَ مِن ذلكَ ؟ إِنَّ علقمةَ ليسَ بعاملِكَ فتخشىٰ أَن تأثَمَ ، وإِنَّما هوَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ تشفعُ لهُ إِليهِ ، فكتبَ لهُ بما أَرادَ ، فمضىٰ الحطيئةُ بالكتابِ ، فصادفَ علقمةَ قد ماتَ ، والناسُ منصرفونَ عَن قبرِهِ ، فوقفَ عليهِ ، ثمَّ أَنشدَ قولَهُ :

لَعَمْرِيْ لَنِعْمَ ٱلْمَرْءُ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ بِحَوْرَانَ أَمْسَىٰ أَعْلَقَتْهُ ٱلْحَبَائِلُ
فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلُلْ حَيَاتِيْ وَإِنْ تَمُتْ فَمَا فِيْ حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ
وَمَا كَانَ بَيْنِيْ لَوْ لَقِيتُكَ سَالِمَاً وَبَيْنَ ٱلْغِنَىٰ إِلاَّ لَيَالٍ قَلاَئِلُ

فقالَ لهُ ٱبنهُ : يا حطيئةُ. . كم ظننتَ أَنَّ علقمةَ يعطيكَ ؟ قالَ : مئةَ ناقةٍ ، =

وقالَ دِعبلٌ [في « ديوانه » ٢١٧ مِنَ السَّريعِ] :

مَـا أَطْيَـبَ ٱلْعَيْـشَ فَـأَمَّـا عَلَـىٰ ... أَنْ لاَ أَرَىٰ وَجْهَـكِ يَـوْمـاً فَـلاَ

وقالَ بعضُ الأَقدمينَ [معقل بن عيسى كما في «الأغاني» ١٠/ ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيْ لَئِنْ قَـرَّتْ بِقُـرْبِـكِ أَعْيُـنٌ ... لَقَدْ سَخِنَتْ بِٱلْبُعْدِ عَنْكِ عُيُوْنُ[1]

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقْفٌ عَلَيْكَ مَوَدَّتِيْ ... مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِيْ عَلَيْكَ مَصُوْنُ

فَمَا أَوْحَشَ ٱلدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ نَازِحاً ... وَمَا أَحْسَنَ ٱلدُّنْيَا بِحَيْثُ تَكُوْنُ

ولم ينسَ حظَّهُ ٱلقطبُ الحدَّادُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ ، بل أكثرَ منهُ في « ديوانِهِ » ، منه قولهُ [في « ديوانه » ٤٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحْسَنُ عَيْشٍ لَيْسَ فِيْهِ وُجُوْدُكُمْ ... وَإِنْ كَانَ مُلْكَ ٱلأَرْضِ فَهُوَ ذَمِيْمُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٥٢٨ مِنَ الكاملِ] :

وأَرَىٰ ٱلحَيَاةَ إِذَا خَلَتْ عَنْ وَصْلِكُمْ ... أَنَّ ٱلْمَمَـاتَ أَسَـرُّ مِنْهَـا وَٱلْفَنَـا

وقالَ إبراهيمُ بنُ العبَّاسِ الصوليُّ ـ في صبيٍّ ماتَ عليهِ ، من شاء بعدك فليمت وبعضُهم يرويها لأَحدِ الصحابةِ ، وأنَّهُ قالها بعقبِ مَوتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، والأَوَّلُ أَثبتُ ـ : [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٣٩ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

كُنْـتَ ٱلسَّـوَادَ لِنَـاظِـرِيْ ... فَعَمِـيْ عَلَيْـكَ ٱلنَّـاظِـرُ

مَـنْ شَـاءَ بَعْـدَكَ فَلْيَمُـتْ ... فَعَلَيْـكَ كُنْـتُ أُحَـاذِرُ

= قالَ : فلكَ مئةُ ناقةٍ ، يتبعُها مئةٌ مِن أَولادِها . انظر « الأغاني » (١٦/ ٣١٨) .

(١) سُخونةُ العينِ : بكاؤها . قرَّت العين : هدأت واستقرت .

ووجهُ ٱتِّصالِ هٰذا بذاكَ . . بغضُ الحياةِ في بيت الناظمِ ، وعدمُ المبالاةِ بالمصائِبِ في هٰذا .

حكمة من أعرابية

ولقد ماتَ ٱبنٌ لأَعرابيَّةٍ فجزعتْ عليهِ ، ثُمَّ قالتْ : لقد سلَّاني عنهُ أَنِّني أَمِنتُ مَسَّ ٱلمَصائِبِ من بعدِهِ .

ذهب الغالي . . لا أسف على الرخيص

وقالَ أَبو نُوَاسٍ يرثي ٱلأَمينَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/٣٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ ٱلْمَوْتَ وَحْدَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ لِيْ شَيْءٌ عَلَيْهِ أُحَاذِرُ

وقالَ [أَبو موسىٰ] التيميُّ في يزيدَ بنِ مَزْيَدٍ الشيبانيِّ [في « الأغاني » ٢٠/٥٧ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَـإِنْ يَهْلِـكْ يَـزِيْـدُ فَكُـلُّ حَـيٍّ ... فَـرِيْـسٌ لِلْمَنِيَّـةِ أَوْ طَـرِيْـدُ
لَقَـدْ عَـزَّىٰ رَبِيْعَـةَ أَنَّ يَـوْمـاً ... عَلَيْهَـا مِثْـلَ يَـوْمِـكَ لاَ يَعُـوْدُ

وقالَ فيهِ أَيضاً [كما في « ديوانِ الحماسةِ » ١/٣٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ فَلْيَمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا ... عَلَيْكَ مِنَ ٱلأَيَّامِ كَانَ حِذَارِيَا

وقالَ مُتمِّمُ بنُ نُوَيرةَ في أَخيهِ مالكٍ [في «وفياتِ الأعيانِ» ٦/١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُولُ لِهِنْدٍ حِيْنَ لَمْ أَرْضَ خُلْقَهَا ... أَهٰذَا دَلاَلُ ٱلْعِشْقِ أَمْ أَنْتِ فَارِكُ[1]
أَمِ ٱلصَّرْمَ تَهْوَيْنَ فَكُلُّ مُفَارِقٍ ... عَلَيَّ يَسِيْرٌ بَعْدَ مَا مَاتَ مَالِكُ

وقالَ مطيعُ بنُ إِياسٍ يرثي يحيىٰ بنَ زيادٍ الحارثيَّ [كما في « تاريخِ بغدادَ » ١٤/١٠٦ مِنَ السَّريعِ] :

أَقُـوْلُ لِلْمَـوْتِ حِيْـنَ نَـازَلَـهُ ... وَٱلْمَوْتُ مِقْدَامَةٌ عَلَىٰ ٱلْبُهُمِ[2]

---

(١) المرأَةُ الفاركُ : المبغضةُ لزوجها .
(٢) البُهَمُ : هم الشجعان الذين لا يُهتدىٰ لقتالهم .

اذْهَبْ بِمَنْ شِئْتَ إِذْ ذَهَبْتَ بِهِ   مَا بَعْدَ يَحْيَىٰ فِيْ ٱلرُّزْءِ مِنْ أَلَمِ[(١)]

وقالَ ٱبن المُقفَّع [في « ديوانِ الحماسةِ » ١/٣٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

رُزِئْنَا أَبَا عَمْرٍو وَلاَ حَيَّ مِثْلُهُ   فَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْحَادِثَاتِ بِمَنْ تَقَعْ

فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا   عَلَىٰ خَلَّةٍ مَا فِيْ ٱنْسِدَادٍ لَهَا طَمَعْ[(٢)]

لَقَدْ جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ أَنَّنَا   أَمِنَّا عَلَىٰ كُلِّ ٱلرَّزَايَا مِنَ ٱلْجَزَعْ

وقالَ إسحاقُ بنُ خَلَفٍ يرثي بِنتاً لَهُ ـ ولٰكنَّهُ تصرَّفَ في ٱلمعنىٰ ـ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَدْ كُنْتُ أَخْشَىٰ عَلَيْهَا أَنْ تُقَدِّمَنِيْ   إِلَىٰ ٱلحِمَامِ فَيُبْدِيْ وَجْهَهَا ٱلْعَدَمُ

فَٱلآنَ نِمْتُ فَلاَ هَمٌّ يُؤَرِّقُنِيْ   تَهْدَا ٱلْعُيُوْنُ إِذَا مَا أَوْدَتِ ٱلْحُرَمُ[(٣)]

وقالَ آخرُ [عقيلُ بن عُلَّفَةَ في « ديوان الحماسةِ » ١/ ٤١٠ مِنَ الطَّويل] :

لِتَغْدُ ٱلْمَنَايَا حَيْثُ شَاءَتْ فَإِنَّهَا   مُحَلَّلَةٌ بَعْدَ ٱلْفَتَىٰ ٱبْنِ عَقِيْلِ[(٤)]

فَتَىً كَانَ مَوْلاَهُ يَحُلُّ بِنَجْوَةٍ   فَحَلَّ ٱلْمَوَالِيْ بَعْدَهُ بِمَسِيْلِ[(٥)]

ولاَ يخرجُ عنهُ قولُ جميلٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ بُثَيْنَةُ لاَ أَعِشْ   فُوَاقاً وَلا أَفْرَحْ بِمَالِيْ وَلاَ أَهْلِيْ[(٦)]

---

(١) الرزءُ : المصيبة العظيمة .
(٢) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفقرُ .
(٣) أودت : هلكت . الحُرَمُ : نساءُ الرجلِ وأهلُ بيتِهِ .
(٤) لِتغدُ : لِتصبْ . محلَّلةٌ : مطلقةٌ . والمعنىٰ : لم تبق صعوبةٌ للمنايا بعدَ الفتىٰ ٱبنِ عقيلٍ ، فلتذهبْ إلىٰ مَن شاءَتْ .
(٥) النَّجوَةُ : ما علا من الأرضِ . المسيلُ : ما ٱنخفضَ منها . والمعنىٰ : لَم يبقَ لأحدٍ مِن أَقاربِهِ عزٌّ بعدَهُ ، فتحولوا من العزِّ إلىٰ الذلِّ .
(٦) الفَوَاقُ : هو المدَّةُ بين الحلبَتَينِ ، والمراد الكناية عن قِصَرِ عمرِهِ .

وقد وطِىءَ علىٰ هـٰذهِ ٱلأعقابِ حافظٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كُنتُ أَخشَىٰ عَادِيَ ٱلْمَوْتِ قَبْلَهُ   فَأَصْبَحْتُ أَخْشَىٰ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

المؤلف يتكلم عن إحساس النفس بالفراق

ثُمَّ كلُّ نَفْسٍ تُحِسُّ بِأَلَمِ الفراقِ ؛ لانفصالها عَنْ عالمِ القدسِ ، لهـٰذا لا تزالُ تحنُّ وتئِنُّ ، شعرَتْ بذٰلكَ السببِ أَم لم تشعرْ ، والأغلبُ عدمُ الشعورِ ، لانحجابها بالمادَّةِ ، فلا يخطُرُ لها أَنَّ شوقَها إِليهِ ، بل تظنُّهُ إِلىٰ غيرِهِ ، إِلاَّ أَنَّها كلَّما كَلِفَت[1] بشيءٍ . . لم تَنْطَفِ حرارتُها بإِدراكهِ ، بل تبقىٰ تلكَ اللَّوعةُ التي لا بدَّ وأَنْ تظهرَ مهما خفيَتْ ، ولا سيَّما عندَ تناشدِ الآثارِ ، وذكرِ الدِّيارِ ، والتغنِّي بما في شَكوىٰ الفراقِ مِنَ ٱلأَشعارِ ، فدلَّ بقاؤُها علىٰ أَنَّ المطلوبَ غيرُ ذلكَ الذي حصلَ ، وإِلىٰ هـٰذا الإِشارةُ بقولِ القطبِ الحدَّادِ [مِنَ ٱلوافرِ] :

مُحِبٌّ لَيسَ يَدرِيْ مَنْ يُحِبُّ   وَلاَ مَـاذَا يُحِبُّ أَيُسْتَتَبُّ
إِذَا سَجَعَتْ حَمَامَاتُ ٱلعَلاَلِيْ   عَلَىٰ أَغْصَانِهِـنَّ تَـرَاهُ يَصْبُو
وَإِنْ مَـرَّتْ أَحَادِيثُ ٱلغَـوَانِيْ   بِـهِ يَبْكِـيْ بَـلاَ دَمْـعٍ يُغَـبُّ

ولا يزالُ أَهلُ الهممِ العاليةِ يتدرَّجونَ في معارجِ الشوقِ . . حتَّىٰ يحلِّقَ بهم إِلىٰ فوقُ ، فهُم في سلوكِهِم كما قالَ حبيبٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٣١ مِنَ ٱلكاملِ] :

فَـإِذَا ٱرْتَقَـىٰ فِـي قُلَّـةٍ مِـنْ سُؤْدَدٍ   قَالَتْ لَهُ ٱلأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ[2]

---

(١) الكَلَفُ : هو حبُّ الشيءِ وشدَّة تعلُّقِ القلبِ بهِ .
(٢) القُلَّةُ : رأسُ كلِّ شيءٍ .

وما أَحسنَ قولَ لسانِ الدينِ بنِ ٱلخطيبِ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ اللهُ عَنِّيْ زَاجِرَ ٱلشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيْقَ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

وطَالما قرَّرنا هـٰذا المعنىٰ نظماً ونثراً في غيرِ موضعٍ ، ومنهُ قولُنا [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ: مَا مِنْ عَاشِقٍ قَطَّعَ ٱلنَّوَىٰ ... حَشَـاهُ وَأَضْنَـاهُ ٱلْجَـوَىٰ وَكَـوَاهُ
وأَضْـرَمَ فِيْـهِ ٱلـوَجْـدُ إِلاَّ وَتَنْطَفِـيْ ... ـ إِذَا دَامَ طِيْبُ ٱلوَصْلِ ـ نَارُ هَوَاهُ
وَلَـٰكِنَّ فِي ٱلإِنْسَانِ سِرّاً تَفَسَّخَتْ ... قَـوَائِمُـهُ مِـنْ حَمْلِـهِ وَقُـوَاهُ
إِذَا مَـا تَنُـوْشِـدْنَ ٱلمَـآثِـرَ هَـزَّهُ ... لِمَوْطِنِهِ ٱلأَعْلَىٰ ٱلْقَدِيْمِ جَوَاهُ
فَمَا مِنْ جَمَالٍ حَادِثٍ هَامَ وَامِقٌ ... بِـرُؤْيَـاهُ إِلاَّ وَٱلْمُـرَادُ سِـوَاهُ[1]

غيرَ أَنَّ كلامنا في الموضوعِ خالٍ عنِ الذَّوقِ ، وأَحمدهُ تعالى إِذ أَوجدَ لي إِليهِ نوعاً منَ ٱلشَّوقِ .

أَمَّا القطبُ الحدَّادُ وأمثالهُ . . فإِنَّما يعبِّرونَ بأَلسنتهم عمَّا يجدونَهُ من بواطِنِهم ، وعمَّا سارُوا عليه بكشفِهم وإِلهامهم ، إِذِ ٱلظَّنُّ بمثلهِ أَنَّهُ لم يَقرأْ عنه شيئاً ، وإِنَّما مشىٰ عليهِ بحالهِ .

لا قيمة للحياة إلا باجتماع الأحباب

ومِن هـٰذا القبيلِ ما سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ عَنِ ٱبنِ أَبي طالبٍ وأُنسهِ بالموتِ ، وقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : ـ وقد خيَّرهُ مَلَكُ الموتِ ـ « اللَّهُمَّ ٱلرَّفِيْقَ ٱلأَعْلَىٰ »[2] ، وما قَصَّ اللهُ علينا مِن خبرِ

---

(١) الوامِقُ : المحبُّ .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٤٤٦٣) في كتاب المغازي ، ولمسلم (٢١٩١) نحوه في السلام .

يوسفَ الصدِّيقِ ؛ فإنَّهُ لمَّا ٱنقطعتْ بهِ الأَمانيُّ . . لم يرغبْ إلاَّ في كمالِ الأُنسِ بٱنفصالِ ٱلنَّفسِ عَن عالمِ الحسِّ ، وٱلتحاقها بعالمِ القُدسِ فقالَ ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

ولمَّا تَذاكَروا الموتَ علىٰ عهدهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . قالَ أَحدُ أَصحابهِ ـ وظنِّي أَنَّهُ أَبو الدرداءِ ـ : (حبيبٌ جَاءَ علىٰ فاقةٍ)[1] .

وقالَها أَحدُ أَصحابِ القطبِ الحَّدادِ ، فٱنتهرَه وقالَ : لاَ يقولُها إلاَّ من صدَّق دعواهُ بعملٍ يشبهُ عملَ أَبي الدرداءِ .

وقد كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ مزهوّاً قبلَ الخلافةِ ثُمَّ ٱخشوشَنَ ، ولمَّا قيلَ لهُ في ذٰلِكَ . . قالَ : إنَّ لي نفساً ذوَّاقةً توَّاقةً ، كلَّما حصلَتْ علىٰ شيءٍ . . طمعَتْ فيما وراءَهُ ، ولم يبقَ لي طمعٌ في غيرِ ٱلجنَّةِ[2] .

ولاَ شوقَ إلاَّ فيما يقرِّبُ منها ، فالدنيا قبيحةٌ ، وكفَاها الموتُ فضيحة ، وهيَ دارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ـ لولا أَنَّها طريقٌ إلىٰ الأُنسِ الدائمِ والسعدِ المقيمِ ـ وما يجدُ طالبُ ذٰلِكَ معَ إفراغِ الجهدِ وصدقِ القصدِ مِنْ وَعْثاءِ الطريقِ . . هوَ أَقلُّ ممَّا يجدهُ المسافرُ في طلبِ الفوزِ المحققِ والنجاحِ المضمونِ ، وإنَّ لهُ في خلالِ ذلكَ من مسامراتِ

---

(١) أورده الهندي في « كنز العمال » عن حذيفة (٣٦٩٧٤) ونسبه إلى ابن أبي شيبة .

(٢) الخبر في « وفيات الأعيان » (٢/ ٣٠١) ، و« المدهش » (٢٢٨) .

الأَمانيِّ ، ومناغاتِ الآمالِ ما ينسيهِ كلَّ أَلمٍ ، ويهوِّنُ عليهِ كلَّ تعبٍ ، بلْ ما يَجدُ معهُ ، التعبَ لذَّةً ، والمشقَّةَ نعمةً ، وتحمُّلَ المكروهِ ليسَ بضائرٍ ما كانَ واسطةً إِلىٰ محمودٍ .

وفيما نقرِّرُه من أَحوالِ المحبينَ ـ ولا سيما ما نسوقُهُ مِن كلامِ سلطانِ العاشقينَ ـ شاهدٌ عدلٌ علىٰ ذلِكَ ؛ إِذِ ٱلمحبوبُ خيرٌ مِنَ ٱلحياةِ ، والمكروهُ بالطبيعةِ شرٌّ مِنَ ٱلموتِ .

أَمَّا الأُنسُ بالفاني . . فلَولا حكمةُ اللهِ التي تَسْتَنْزِلُ عَنْ قضايَا العقولِ لِما أَرَادَ مِنْ عمارةِ ٱلدنيا . . لَمَا عُدَّ إِلاَّ مِن صريحِ ٱلجنونِ ، لاَ سيَّما وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٢٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

أَشَـدُّ ٱلغَـمِّ عِنْـدِيْ فِـي سُـرُوْرٍ ... تيَقَّـنَ عَنْـهُ صَـاحِبُـهُ ٱنْتِقَـالاَ

لا يستأنس العاقل بالفاني

نظرَ بعضُهم إِلىٰ بُنيٍّ لهُ صغيرٍ . . أَعجبهُ حسنهُ ، وشدهَهُ جمالُهُ ، وراقَهُ بِلَهوِهِ وخفَّةِ روحِهِ ، فقالَ : لَولا الموتُ . . لعلَّقتُ قلبي بكَ .

والْتفتَ ٱبنُ مطيعٍ إِلىٰ دارِهِ ، فأَعجبهُ حسنُها ، فبكىٰ ثُمَّ قالَ : لَولا أَنِّي أَتمثَّلُ خروجَ جنازَتي عنها . . لكنتُ بها مسروراً ، ولولا ما أَصيرُ إِليهِ مِنْ ضيقِ القبرِ . . لَقَرَّتْ بها عيني ، ثُمَّ ٱرتفعَ نحيبُهُ .

وقالَ أَميرُ المؤمنينَ : وما أَصنعُ بفدكٍ ، وغيرِ فدَكٍ[1] ؟ والنفسُ

---

(١) فَدَك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ سنة سبع صلحاً ، وذلك لما نزل صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلا قسم منها ، وعندما اشتد بهم الحصار . . راسلوا رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يسألونه أن يُنزلهم على الجلاء ففعل ، فبلغ ذلك أهل فدك فراسلوا رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك ، فكانت خالصة لرسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وفيها عين فوّارة ونخيل كثيرة ، وهي التي =

مظانُّها في غدٍ جَدَثٌ[1] تنقطعُ في ظلمتهِ آثارُها ، وتغيبُ أَخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فُسحَتِها ، وأَوسعتْ يَدَا حافِرِها . . لأَضْغَطَها الحجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرَجَهَا الترابُ المتراكمُ[2] .

هُوَ ٱلْمَوْتُ لاَ مَنْجَىٰ مِنَ ٱلْمَوْتِ لِلْفَتَىٰ وَمَا هُوَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ أَدْهَىٰ وَأَصْعَبُ[3]

غيرُه [مِنَ الطَّويلِ] :

فَهُـنَّ ٱلْمَنَـايَـا أَيَّ وَادٍ سَلَكْتُـهُ عَلَيْهَا طَرِيْقِيْ أَوْ عَلَيَّ طَرِيْقُهَا

لا يستأنس من هو على خطر الفراق

ولَئِنْ خرجَ بنا الاستطرادُ عنْ موضوعِ البيتِ فالمناسبةُ بحالِها ؛ إِذْ حاصلُهُ أَن لا قيمةَ للحياةِ إِلاَّ بٱجتماعِ شَملِ الأَحبابِ ، وأَنَّىٰ يكونُ الأُنسُ بِٱجتماعِ الشملِ المهدَّدِ في كلِّ طَرفةِ عينٍ بِٱلافتراقِ ؟!

إِذن : فلا أُنسَ إِلاَّ فيما أَشرنَا إِليهِ ، ممَّا يشبهُ ما جاءَ بمناسبةِ علاجِ ثوبانَ[4] مِمَّا خالطهُ مِنْ فراقهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . أَلا

= قالت فاطمة رضي الله عنها : إن رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نحلنيها فقال أبو بكر : أريد لذلك شهوداً ، ولها قصة ، ثم أدى اجتهاد عمر رضي الله عنه بعد الفتوح أن يردها إلى ورثة رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فكان علي والعباس رضي الله عنهما يتنازعان فيها . . . انظر القصة مطولة في « معجم البلدان » (٤/٢٣٨ـ ٢٤٠) .

(١) الجدث : القبرُ .

(٢) « شرح نهج البلاغة » (١٦/٢٠٨) .

(٣) البيت من الطويل .

(٤) كانَ سيِّدُنا ثوبانُ رضيَ اللهُ عنهُ شديدَ الحبِّ لرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، قليلَ الصبرِ عنهُ ، فأَتاهُ ذاتَ يومٍ وقد تغيَّرَ لونُهُ ، ونَحُلَ جسمُهُ ، يعرَفُ في وجههِ الحُزْنُ ، فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « يا ثوبانُ . . لونُكَ »! فقالَ : يا رسولَ اللهِ . . ما بي ضُرٌّ ، إلا أَنّي إِذا لَمْ أَرِكَ ٱشتقْتُ إِليكَ ، وٱستوحشتُ وحشةً شديدةً حتَّىٰ أَلقاكَ ، ثمَّ ذكرتُ الآخرةَ ، وأَخافُ أَلاَّ أَراكَ =

وهوَ قولهُ تقدَّستْ أسماؤهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] .

[قال الإمام الحداد في « ديوانه » ٣٦٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

يَـا رَبِّ وَٱجْمَعْنَـا وَأَحْبَـابـاً لَنَـا ... فِيْ دَارِكَ ٱلْفِرْدَوْسِ أَطْيَبِ مَوْضِعِ

* * *

= هناكَ ؛ لأنّي عرفتُ أنّكَ تُرفَعُ معَ النبيِّينَ ، وأنّي إنْ دخلتُ الجنّةَ . . كنتُ في منزلةٍ هيَ أدنىٰ مِنْ منزلتِكَ ، وإنْ لَمْ أدخلْ . . فذلكَ حينٌ لا أراكَ أبداً ، فأنزلَ الله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] . القرطبي (٥/ ٢٧١) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

إلاَّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ	شَيْباً إذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلا[1]

حرقة الكبد وحرارة الفؤاد سبيل الهرم

يقولُ : إنْ لم يشِبْ ذلكَ المدنفُ . . فقد شابَتْ كبدهُ ، فإنْ آنسَ ساعةً سلُوّاً . . يخضِبُ شيبَ كبدهِ نصلُ ذلِكَ الخضابِ ، لأَنَّ السُّلوانَ سرعانَ ما يزولُ وقلَّما يلبَثُ ، وهوَ من قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانِه » ١/ ٢٠٨ مِنَ ٱلخفيفِ] :

شَابَ رَأْسِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيْبَ ٱلـ ـرَّأْسِ إلاَّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ ٱلفُؤَادِ

فنقلَ الناظِمُ شيبَ ٱلفُؤَادِ إلىٰ ٱلكبدِ ، قالَ الشارحُ : وهُوَ قبيحٌ ، وعندِي أَنْ لا قبحَ في تلكَ ٱلاستعارةِ ؛ لأَنَّ لكلٍّ مِنَ ٱلقلبِ والكبدِ ٱتصالاً بالشيبِ مِنْ حيثُ تعلُّقه بالدم ، فللكبدِ طبخُهُ ، وللقلبِ تفريقُه علىٰ العروقِ ، فمتىٰ قصَّرَ أَحدُهما في وظيفتهِ . . لحقَ بالإِنسانِ الضعفُ ، وتبعَ ذلكَ الهرمُ والشيبُ لا محالةَ ، فأَحدُهما مِنَ ٱلآخرِ كالصِّنوِ[2] مِنَ ٱلصنوِ يقتسمانِ العملَ ، ويشتركانِ في ٱلنَّتيجةِ ، وما أَكثرَ ما تسمعُ حرقةَ الكبدِ بدلاً من حرارةِ الفؤَادِ ، وكلُّ ذلِكَ إلىٰ الهمِّ طريقٌ ، وهُوَ إلىٰ الهرمِ سبيلٌ ، وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٢٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَٱلْهَمُّ يَخْتَرِمُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

(١) السلوَةُ : ذهابُ المحبَّةِ . النَّصلُ : ذهابُ الخِضابِ .
(٢) الصِّنْوُ : الشبيهُ ، أَو الأَخُ الشقيقُ .

الشعـراء والشيب وأسبابه عندهم

وأَكثرُ ما يقعُ أَثرُ الهمِّ علىٰ ذَيْنِكَ العضوينِ ، والشيبُ في الأَغلبِ إِنَّما هُوَ أَثرُ الانفعالِ الواقعِ علىٰ أَحدِهما ، ومنهُ يتبيَّنُ أَنْ لاَ قبحَ في ٱستعارةِ الناظمِ ، وللهِ دَرُّ التهاميِّ في قوله [في « ديوانهِ » ٤٧١ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَتَلَهُّبُ ٱلأَحْشَاءِ شَيَّبَ مَفْرِقِيْ ... هَـٰذَا ٱلشُّعَاعُ شُوَاظُ تِلْكَ ٱلنَّارِ[1]

وكثيراً ما يدَّعي العشَّاقُ علىٰ المعشوقينَ أَنَّهم أَشابُوهم ، ثُمَّ نفروا عنهم من أَجلِ الشيبِ .

قالَ أبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٨٤ مِنَ ٱلخفيفِ] :

عَيَّـرَتْنِيْ ٱلْمَشِيْبَ وَهْـيَ بَـدَتْـهُ ... فِيْ عِذَارِيْ بِٱلصَّدِّ وَٱلِاجْتِنَابِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَمَّلْتِنِـيْ ذَنْـبَ ٱلْمَشِيْـبِ وَإِنَّـهُ ... لَذَنْبُكِ إِنْ أَنْصَفْتِ فِيْ ٱلْحُكْمِ لاَ ذَنْبِيْ

وقالَ كشاجمُ [في « ديوانهِ » ٤٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَوَ تُنْكِرِيْنَ ٱلشَّيْبَ أَنْتِ جَلَبْتِهِ ... بِجِنَـايَـةٍ وَقَطِيْعَـةٍ وَعِتَـابِ
لَوْ لَمْ تَرُوْعِيْ بِٱلْغُرُوْرِ وَبِٱلنَّوَىٰ ... طَـوْرَاً لَطَـالَ تَمتُّـعِيْ بِشَبَـابِـيْ

مسألة الدور عند الشعراء

وقالَ بعضُهم ـ وكأَنَّهُ مِنَ ٱلفقهاءِ ، ويشبهُ أَنْ يكونَ ٱبن سريجٍ[2] ، فإِنَّهُ صاحبُ مسأَلةِ الدورِ في الطلاقِ ـ [مِنَ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

مَسْـأَلَـةُ ٱلـدَّوْرِ أَتَـتْ ... بَيْنِـيْ وَبَيْـنَ مَـنْ أُحِـبّ[3]

---

(١) الشواظُ : اللهبُ الذي لا دخانَ فيهِ .

(٢) ابن سريج : هو أحمد بن عمر أبو العباس ، أخذ عن الأنماطي صاحب المزني ، ونَشَرَ مذهب الشافعي في (بغداد) ، وهو الفقيه القاضي ، توفي سنة : (٣٠٦ هـ) ، وله مصنفات كثيرة قيمة .

(٣) الدور : هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه ، وله أنواع : فمنه الدور =

لَـوْلاَ مَشِيْبِـيْ مَـا جَفَـا ... لَـوْلاَ جَفَـاهُ لَـمْ أَشِـبْ

ولاَ يبعدُ عنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١/٣٢٨ مِنَ الكاملِ] :

قَالَتْ وَقَدْ رَأَتِ ٱصْفِرَارِيَ: مَنْ بِهِ؟ ... وَتَنَهَّـدَتْ فَـأَجَبْتُهَـا : ٱلْمُتَنَهِّـدُ

وقولُ أبي فراسٍ [في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَالَتْ: لَقَدْ أَزْرَىٰ بِكَ ٱلدَّهْرُ بَعْدَنَا ... فَقُلْتُ: مَعَاذَ اللهِ بَلْ أَنْتِ لاَ الدَّهْرُ

وقالَ محمَّدُ بنُ يحيىٰ بنِ حزمٍ [في « نفح الطيب » ٣/٤٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَجْزَعُ مِنْ دَمْعِيْ وَأَنْتَ أَسَلْتَهُ ... وَمِنْ نَارِ أَحْشَائِيْ وَمِنْكَ لَهِيْبُهَا

وقولُ مالكِ بنِ أسماءَ بنِ خارجةَ [في « البيان والتبيين » ١/٤٧٤ مِنَ البسيطِ] :

عَيَّـرْتِنِـيْ خَلَقـاً أَبْلَيْـتِ جِـدَّتَـهُ ... وَهَلْ رَأَيْتِ جَدِيْداً لَمْ يَعُدْ خَلَقَا[1] ؟

استعجال الشيب من حرقة الهوى

وأمَّا دعوىٰ ٱستعجالِ الشيبِ من حرِّ ٱلهوىٰ . . فلن يُحصى كثرةً في أقوالِ الشعراءِ قديماً وحديثاً ، ومنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/٣٦ مِنَ البسيطِ] :

بِحُبِّ قَاتِلَتِيْ وَٱلشَّيْبِ تَغْذِيَتِيْ ... هَوَايَ طِفْلاً وَشَيْبِيْ بَالِغَ ٱلْحُلُمِ

وقولُ القيروانيِّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَـرُبَّ بَـاكِيَـةٍ رَأَتْ فِـيْ لِمَّتِـيْ ... وَخْزَ ٱلْمَشِيْبِ تَأَلَّقَتْ ضَحِكَاتُهُ

= المصرح ، والدور المضمر . صرح في البيت : أنَّ سبب شيبه جفاء محبوبه ، ولو لم يكن جافاه لم يشب .

(١) الخَلَقُ : القديمُ البالي .

قَالَتْ : أَغُصْناً قَدْ عَلاَهُ فَلاَ أَرَىٰ ... زَهْرَ ٱلرِّيَاضِ وَنَوَّرَتْ وَرَفَاتُهُ[1]
فَأَجَبْتُهَا قَارَعْتُ فِيْ جَنْبِ ٱلْهَوَىٰ ... صَرْفَ ٱلزَّمَانِ وَهَـٰذِهِ نَكَبَاتُهُ

وللشُّعراءِ في البكاءِ علىٰ الشَّبابِ الكلامُ الطَّويلُ العريضُ ، وسنذكرُ ما يليقُ فيما يناسبُ مِنَ ٱلمجالسِ ، كما سنذكرُ عندَ الفرصةِ ما يقلِّلُهُ النّاسُ مِنْ أوقاتِ الصَّفَاءِ ، وما ٱختلفَ فيهِ أَهلُ الأَدبِ مِنَ ٱلمطالبةِ وعدمِها ، بمالَهم عندَ المحبوبينَ مِنَ ٱلدخولِ ، الذي من أرقِّ ما فيهِ قولُ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

المطالب العاشق والعافي المشفق

أَقُـولُ لإِلْـفٍ ذَاتَ يَـوْمٍ لَقِيْتُـهُ ... بِمَكَّةَ وَٱلأَنْضَاءُ مُلْقَىً رِحَالُهَا[2]
بِـرَبِّـكَ خَبِّـرْنِـي أَلَـمْ تَـأْثَـمِ ٱلَّتِـيْ ... أَضَرَّ بِجِسْمِي مِنْ زَمَانٍ خَيَالُهَا ؟!
فَقَالَ : بَلَىٰ واللهِ سَوْفَ يَمَسُّهَا ... عَذَابٌ وَبَلْوَىٰ فِيْ ٱلْحَيَاةِ تَنَالُهَا
عَفَـا اللهُ عَنْهَـا ذَنْبَهَـا وَأَقَـالَهَـا ... وَإِنْ كَانَ فِيْ ٱلدُّنْيَا قَلِيْلاً نَوَالُهَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

حَلاَلٌ لِلَيْلَىٰ شَتْمُنَا وَٱنْتِقَاصُنَا ... هَنِيْئاً وَمَغْفُوراً لِلَيْلَىٰ ذُنُوبُهَا

وقولُ كثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ١٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

هَنِيئاً مَـرِيْئـاً غَيْـرَ دَاءٍ مُخَـامِـرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا ٱسْتَحَلَّتِ[3]

* * *

(١) وَرَفَ النباتُ : إذا رأى الناظرُ لخضرَته بهجةً مِن ريِّهِ ونعمتهِ .
(٢) الأنضاءُ ـ جمع نِضوٍ ـ : وهو البعيرُ المهزولُ .
(٣) مخامرٌ : مخالِطٌ .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي [في «العُكْبَرِيّ» ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً	تَزُوْرُهُ فِيْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

رائحة الأحباب تطفىء نار العذاب

يُروىٰ (يَحِنُّ) بالحاءِ المهملةِ ، و(يُجَنُّ) بالمعجمةِ من أَسفلَ ، والمعنىٰ : أَنَّ هـٰذا الدنفَ يطولُ حنينُهُ ، أَو يعتادُه جنونُه ، ولولا أَنَّهُ يجدُ رائحةً شرقيَّةً مِنْ قِبلِ أَحبابهِ . . لَما عادَ إِليهِ عقلُهُ ، وَلـٰكنَّهُ إِذَا وجدَ ريحَ الشرقِ تهبُّ مِن جهةِ أَحبابهِ . . كانَ لهُ فيها نوعٌ مِنَ ٱلوِصالِ فخفَّ جنونُهُ ، وضَرْبُ البيتِ[1] يؤكِّدُ روايةَ الجيمِ ، وقد نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ ٱبنِ الدُّمينةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْتَنْشِقُ ٱلنَّسْمَاءَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ	كَأَنِّيْ مَرِيْضٌ وَٱلنَّسِيْمُ طَبِيْبُ

وقولِ ٱلمجنونِ [في «ديوانهِ» ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ عَارَضَتْنَا رِيْحُ لَيْلَىٰ بِهَبَّةٍ	عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ طِيْبِ أَرْوَاحِهَا بَرْدُ
فَمَا زِلْتُ مَغْشِيّاً عَلَيَّ وَقَد مَضَتْ	أَنَاةٌ وَمَا عِنْدِيْ جَوَابٌ وَلاَ رَدُّ[2]

وقولُهُ أَو قيسٍ [بن ذريح][3] [مِنَ الطَّويلِ] :

تَمُرُّ ٱلصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِ ذِيْ ٱلغَضَا	وَيَصْدَعُ قَلْبِيْ أَنْ يَهُبَّ هُبُوبُهَا[4]
إِذَا هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ ٱلشَّمَالُ فَإِنَّهَا	جَوَابِيْ بِمَا يُهْدِيْ إِلَيَّ جَنُوبُهَا

---

(١) ضربُ البيتِ : آخرُ كلمةٍ في العَجُزِ ، وآخرُ كلمةٍ في الصدرِ تُسمَّى عَروضاً .
(٢) أناةٌ : مَدَّةٌ .
(٣) الأبيات للمجنون في «ديوانه» ٦٩ ، وليست لقيس بن ذريح .
(٤) الصبا : الريحُ التي تهبُّ من مطلعِ الشمسِ إذا استوى الليلُ والنهارُ .

قَـرِيبَـةُ عَهْـدٍ بِـالْحَبِيـبِ وَإِنَّمَـا هَوَىٰ كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُهَا

وقولُ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ٦٩٤ـ٦٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا هَبَّتِ الأَرْيَاحُ مِنْ نَحْوِ جَانِبٍ بِهِ أَهْلُ مَيٍّ . . هَاجَ قَلْبِيْ هُبُوبُهَا

هَوَىً تَذْرِفُ ٱلْعَيْنَانِ مِنْهُ وَإِنَّمَا هَوَىٰ كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُها

وقولُ ٱلمجنونِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ ٱلْجَنُوبُ لأَرْضِهَا مِـنَ ٱللَّيْـلِ إِلاَّ بِـتُّ لِلـرِّيْـحِ جَـانِيـا

وقولُهُ [في « الأغاني » ٥/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَـا جَبَلَـيْ نَعْمَـانَ بِـاللهِ خَلِّيَـا نَسِيْمَ ٱلصَّبَا . . يَخْلُصْ إِلَيَّ نَسِيْمُهَا

فَـإِنَّ ٱلصَّبَـا رِيْـحٌ إِذَا مَـا تَنَسَّمَـتْ عَلَىٰ نَفْسِ مَخْزُوْنٍ تَجَلَّتْ هُمُوْمُهَا

وفي هـٰذا لطيفتانِ :

المجنـون يخـرج فـي طلب الميرة

حاصلُ الأُولىٰ : أَنَّ المجنونَ خرجَ في أَصحابهِ ليمتَارُوا من وادي القُرىٰ ، فمرُّوا بجبَلَي نَعمانَ ، فقالوا لهُ : هـٰذانِ جَبَلا نعمانَ ، وقد كانَت لَيلىٰ تنزِلُهما ، قالَ : فأَيُّ ريحٍ تجرِي من نحوِ أَرضِها إِلىٰ هـٰذا المكانِ ؟ قالوا : الصَّبَا ، قالَ : واللهِ لا أَبرحُ حتَّىٰ تهبَّ ، فأَقامَ في ناحيةٍ ، وذَهبَ أَصحابُهُ فأمْتَاروا لَهُم ولهُ ، ثُمَّ رَجعوا إِليهِ ، فحبَسَهم بعدَ رجوعِهم ثلاثةَ أَيَّامٍ ، حتَّىٰ هبَّت ، فرحلَ معَهُم وقالَ البيتينِ ، وبعدَهُما [من الطَّويلِ] :

وَيَا رِيحُ مُرِّيْ بِٱلدِّيَارِ فَخَبِّرِيْ أَبَاقِيَةٌ أَمْ قَدْ تَعَفَّتْ رُسُوْمُهَا ؟

أَلاَ إِنَّ أَدْوَائِـيْ بِلَيْلَـىٰ قَـدِيْمَـةٌ وَأَقْتَـلُ أَدْوَاءِ ٱلـرِّجَـالِ قَـدِيْمُهَـا

ابن الجوزي الواعظ وزوجته نسيم

وأمّا الثانيةُ : فهيَ أنَّ ٱبنَ الجوزيِّ[1] الواعظَ الشهيرَ ، كانتْ لهُ ٱمرأةٌ يقالُ لها (نسيمُ) فحصلَ منها حالٌ أَمَضَّهُ ، فطلَّقها ، ثم تبعتْها نَفسهُ ، وكانت تحضرُ مجلسَ وعظِهِ ، فرآها من بينِ ٱمرأتينِ كبيرتينِ ، فجعل يتخلَّلُ بكلامِهِ ، ويهدرُ في مقالِهِ ، ويخِبُّ[2] في مجالِهِ ، حتَّىٰ ٱنتهىٰ إلىٰ موضوعٍ يحسنُ أنْ يتمثَّلَ عندهُ بهما ، فأنشدَهما ـ وهُوَ إيَّاها يعني وبها ينوه ـ فعرفتِ ٱلإشارةَ ، وٱنسلَّتْ مِنْ بينِ الناسِ .

الشعراء ورياح الأحباب

ويدخلُ في المعنىٰ قولُ الصمَّةِ بنِ عبيدِ اللهِ [في « ديوانهِ » ٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا أَتَتْنَا ٱلرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ ... أَتَتْنَا بِرَيَّاكُمْ فَطَابَ هُبُوبُهَا[3]

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا هَبَّ عُلْوِيُّ ٱلرِّيَاحِ وَجَدْتُنِي ... كَأَنِّي لِعُلْوِيِّ ٱلرِّيَاحِ نَسِيبُ

وقالَ كلابُ بنُ عقبةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

بِنَفْسِيْ وَأَهلِيْ مَنْ تَجَنَّبْتُ دَارَهُ ... وَمَن لاَ أَرَىٰ لِيْ مِنْ زِيَارَتِهِ بُدَّا

وَمَنْ رَدَّنِيْ إِذْ جِئْتُ زَائِرَ بَيْتِهِ ... وَلَو زَارَ بَيْتِي مَا أُهِيْنَ وَلاَ رُدَّا

وَمَنْ لاَ تَهُبُّ ٱلرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ ... فَتَبْلُغُنِـي إِلاَّ وَجَـدْتُ لَهَـا بَـرْدَا

---

(١) هو عبد الرحمن بن علي ، أبو الفرج ، جمال الدين ، الحافظ ، صاحب المؤلفات الكثيرة النافعة في الفقه والتفسير والحديث والأخبار والوعظ والتاريخ والطب ، توفي سنة : (٥٩٧ هـ) .

(٢) يخِبُّ : يضطرِبُ .

(٣) ريًّا كُلِّ شيءٍ : طيبُ رائحتهِ .

وقالَ عليٌّ بنُ علقمةَ ، أَو مجنونُ عامرٍ [في « ديوانِهِ » ١١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلرِّيحُ مِنْ نَحْوِ ٱلْحَبِيبِ تَنَسَّمَتْ   وَجَدْتُ لِمَسْرَاهَا عَلَىٰ كَبِدِيْ بَرْدَا
عَلَىٰ كَبِدٍ قَدْ كَادَ يُبْدِيْ بِهَا ٱلْجَوَىٰ   نُدُوْبَاً وَبَعْضُ ٱلْقَوْمِ يَحْسِبُنِيْ جَلْدَا

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ قيسِ الرقيَّاتِ [في « ديوانهِ » ١٨٢ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

هَبَّتْ رِيَاحٌ مِنْ جَانِبِ ٱلسَّنَدِ   فَقُلْتُ : يَا بَرْدَهَا عَلَىٰ كَبِدِيْ[1]
جَاءَتْ بِرَيَّا ٱلْحَبِيبِ تَحْمِلُهَا   مِنْ بَلَدٍ نَازِحٍ إِلَىٰ بَلَدِ

وقالَ أُسَيدُ بنُ الحارثِ [مِنَ الطَّويلِ] :

حَسِبْتُ ٱلْغَضَا يَشْفِيْ هُيَامِيْ فَلَمْ أَجِدْ   شَمِيْمَ ٱلْغَضَا يَشْفِيْ غَلِيْلَ فُؤَادِيَا[2]
بَلَىٰ لَوْ أَتَيْتُ ٱلرِّيحَ تَدْرُجُ مَوْهِنَاً   بِرِيْحِ ٱلْخُزَامَىٰ كَانَ أَشْفَىٰ لِمَا بِيَا[3]

---

(١) السَّنَدُ : ما قابلكَ مِنَ الجبلِ .

(٢) الغضا : شجرٌ صلب ينبتُ في الصحراءِ ، وحطبه مِن أَجودِ الوقودِ عندَ العربِ .
الهُيامُ : أَشدُّ العطشِ . شميمُ الغضا : شديد اجتذاب رائحة تلك الأشجار .
الغليلُ : حرارةُ العطشِ .

(٣) تَدرُجُ : تمرُّ مرّاً ليسَ بٱلقويِّ ولا الضَّعيفِ . مَوْهِناً : الوقتُ المتأَخِّرُ مِنَ اللَّيلِ . الخُزامىٰ : شجرٌ طَيِّبُ الريحِ .

والمعنىٰ : يقولُ الشَّاعِرُ مغالِطاً نفسَهُ في ٱلبيتِ ٱلأَوَّلِ : ظننتُ أَنَّ شمِّيَ للرِّياحِ ٱلقادمةِ مِنْ عندِ ٱلمحبوبةِ تشفي ما بيَ مِنَ ٱلحُبِّ وٱلوَجدِ ، فإذا بتلكَ الرِّياحِ لَمْ تشفِ ولَمْ تُداوِ مَا بقلبي ، ثمَّ يقولُ في ٱلبيتِ ٱلآخرِ : بلىٰ ، إنَّ الشِّفاءَ حاصلٌ مِنْ تلكَ الرِّياحِ ، فيقولُ لنفسِهِ : لو أَتتْ تلكَ الرِّياحُ الَّتي تَهُبُّ هُبوباً ضعيفاً في نصفِ اللَّيلِ وَشممتُ تلكَ الرِّياحَ العطِرةَ الَّتي تَهُبُّ مِنْ أَنفاسِ ٱلحبيبةِ . لكانَ الشِّفاءُ حاصَلاً ، والدَّواءُ موجوداً بإذنِ ٱللهِ . وٱللهُ أَعلمُ .

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي لأَسْتَشْفِي بِكُلِّ غَمَامَةٍ ... يَهُبُّ بِهَا مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمُ رِيحُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا نَسِيمَ الصُّبْحِ مَا لَكَ كُلَّمَا ... تَقَرَّبْتَ مِنَّا فَاحَ نَشْرُكَ طِيبَا ؟
كَأَنَّ سُلَيْمَىٰ نُبِّئَتْ بِسِقَامِنَا ... فَأَعْطَتْكَ رَيَّاهَا فَجِئْتَ طَبِيبَا

وقالَ أَبو عُبادةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

يُذَكِّرُنَا رَيَّا الأَحِبَّةِ كُلَّمَا ... تَنَفَّسَ فِي جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ بَارِدِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمُغْتَرِبٍ بِالْمَرْجِ يَبْكِي لِشَجْوِهِ ... وَقَدْ غَابَ عَنْهُ الْمُسْعِدُونَ عَلَى الْحُبِّ
إِذَا مَا أَتَاهُ الرَّكْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ ... تَنَفَّسَ يَسْتَشْفِي بِرَائِحَةِ الرَّكْبِ

وقد قالَ امرؤُ القيسِ قبلَ ذلكَ [في « معلقته » مِنَ الطَّويلِ] :

نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرَنْفُلِ

القول الحق هو قوله تعالىٰ

وخيرٌ من الجميعِ قولُهُ جلَّ ذِكرُهُ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٤-٩٦] .

وجاءَ في بعضِ طرقِ حديثِ إبراهيمَ الطويلِ : أَنَّ إسماعيلَ لما عادَ منْ قنصهِ . . اشتمَّ رائحةَ أَبيهِ .

أمية بن الأشكر يطالب الفاروق برد ولده كلاب

وكانَ أُميةُ بنُ الأَشكرِ من فضلاءِ الصحابةِ ومن خيارِ المسلمينَ ، وكانَ لهُ ولدٌ مِن أَبطالِ العربِ يُدعىٰ كِلاباً ، فسيَّرهُ عمرُ إِلىٰ

(الشام) ، وكانَ برّاً بوالدِهِ ، وكانَ أبوهُ قد عميَ وَعَيِيَ ، فأشتدَّ عليهِ بُعدُهُ ، وأخذَ يطالبُ عمرَ بردِّه ، فلم يجبهُ ؛ لِما كانَ مِنْ غناءِ[1] كلابٍ في فتوحِ (الشامِ) ، فما كانَ منهُ إلا أنِ أستقبلَهُ في المسجدِ بأبياتٍ يتشوَّقُ بها إلىٰ ولدِهِ ، ويخرُجُ فيها إلىٰ عُمرَ يُعاتبهُ وهيَ [مِنَ الوافرِ] :

أَمَا وأَبِيْكَ مَا بَالَيْتُ وَجْدِيْ ... وَلاَ شَغَفِيْ عَلَيْكَ وَلاَ ٱحْتِرَاقِيْ

وَإِبْقَائِيْ عَلَيْكَ إِذَا شَتَوْنَا ... وَضَمَّكَ تَحْتَ صَدْرِيْ وَٱعْتِنَاقِيْ

فَلَوْ فَلَقَ ٱلْفُؤَادَ شَدِيْدُ وَجْدٍ ... لَهَمَّ سَوَادُ قَلْبِيْ بِٱنْفِلاَقِ

سَأَسْتَعْدِيْ عَلَىٰ ٱلْفَارُوْقِ رَبّاً ... لَهُ دَفْعُ ٱلْحَجِيْجِ إِلَىٰ بِسَاقِ[2]

وَأَدْعُو ٱللهَ مُجْتَهِداً عَلَيْهِ ... بِبَطْنِ ٱلأَخْشَبَيْنِ إِلَىٰ دُفَاقِ[3]

إِنِ ٱلْفَارُوْقُ لَمْ يَرْدُدْ كِلاَبَا ... عَلَىٰ شَيْخَيْنِ هَامُهُمَا زَوَاقِيْ[4]

أمية يشم رائحة ولده

فأستكانَ لها عمرُ ، ودمعَتْ عيناهُ ، وأستقدمَ كِلاباً علىٰ البريدِ ، ولمَّا حضرَ . . خبَأَهُ ، وأستدعىٰ أباهُ ـ وكانَ أمَرَهُ أنْ يحلبَ ناقةً فحلبَها ـ وقدَّم إليهِ اللَّبَنَ عمرُ ، فقالَ : إني لأجدُ منهُ ريحَ كلابٍ ، وأختنقتهُ العبرةُ ، فقلنَ لهُ نسوةٌ كنَّ هناكَ : لقد كبرتَ ، وخرفتَ ، وذهبَ عقلكَ ، كلابٌ بظهرِ (الشامِ) وتزعمُ أنَّكَ تجدُ ريحَه ، فقالَ : واللهِ إنِّي لأجدُ ريحهُ مِن هٰذا اللبنِ ، وإنْ لم تردَّهُ عليَّ يا عمرُ . . لأُجاثينَّكَ بينَ يدي اللهِ ، وأعادَ الأبياتَ السابقةَ ، فأشارَ

---

(١) الغناءُ : النفع .
(٢) البِسَاقُ : جبلٌ بـ(عرفات) .
(٣) دُفاقُ : موضعٌ قربَ (مكّةَ) .
(٤) هامُهُما : رأساهما . زَواقي : مِن قولِهم : أزقيتُ هامةَ فلانٍ إذا قتلتُهُ .

ٱبنُ الخطَّابِ بعدَ ذلكَ على كِلابٍ أن يخرجَ فخرجَ ، وحصلَ بينهُ وبينَ أبيهِ ما يُبكي الطيرَ ، ويذيبُ الحجارةَ[1] .

حسان بن ثابت يشتم رائحة آل جفنة وقصة جبلة بن الأيهم

وقد جاءَ [في « الأغاني » ١٥/١٦٣] : أَنَّ حسَّانَ بنَ ثابتٍ ٱشتمَّ رائحةَ آلِ جفنةَ لمَّا جاءَ إلىٰ عمرَ ـ وعندهُ رسولُ الرومِ ـ وكانَ لاقىٰ جَبَلَةَ بنَ الأيهمِ هناكَ ، وتحمَّلَ عنهُ هديَّةً لحسَّانَ ، فأنشأَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٤٣٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

إِنَّ ٱبْـنَ جَفْنَـةَ مِـنْ بَقِيَّـةِ مَعْشَـرٍ لَـمْ يَغْـذُهُـمْ آبَاؤُهُـمْ بِـٱللُّـؤْمِ
لَمْ يَنْسَنِيْ بِٱلشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا كَـلاَّ وَلاَ مُتَنَصِّـراً بِـٱلـرُّوْمِ

في خبرٍ طويلٍ وحكايةٍ مشهورةٍ ، أنكرَ بعضَها ٱبنُ الشجريِّ ، وذكرَها المؤرِّخونَ[2] .

---

(١) انظر القصة في « الإصابة » (١/١٣٧) .

(٢) وكانَ مِن قصةِ الأبياتِ : أَنَّ جبلةَ بنَ الأيهمِ كانَ مَلِكاً علىٰ غسَّانَ ، فقدمَ في جماعةٍ مِن أصحابهِ علىٰ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ مسلمينَ ، فتلقَّاهُ المسلمونَ ، ودخلَ في زيٍّ حسنٍ ، وبينَ يديهِ جنائِبُ مُقَادَةٌ ، وعلىٰ أصحابهِ الديباجُ ، حتَّىٰ تطاوَلَتِ النساءُ مِن خدورهِنَّ لرؤيتِهِ ، وأكرمَ سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطَّابِ وِفادَتَهُ ، وأحسنَ نزلَهُ ، وأقلَّه بأرفعِ رُتَبِ المهاجرينَ .
ثمَّ خرجَ سيِّدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ للحجِّ ، فحجَّ معهُ جبلةُ ، فبينَما جَبَلَةُ يطوفُ بالبيتِ . . إذ وَطِىءَ رجلٌ مِن فزارة فَضْلَ إزارِهِ ، فسقط الإزار ، وبانت عورته ، فلطمَهُ جَبَلَةُ فَهَشَّمَ أَنْفَهُ ، فأقبلَ الفزاريُّ إلى سيدِنا عمرَ ، وشكاهُ ، فأحضرَهُ سيِّدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وقالَ لهُ : افتدِ نفسَكَ ، وإلاَّ أمرتُهُ بلطمِكَ ، فقالَ جَبَلَةُ : كنتُ أظنُّ أنِّي بالإسلام أعزُّ منِّي في الجاهليَّةِ ، فقالَ سيِّدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : دَع عنكَ هَذا ، فقالَ جَبَلَةُ : إنِّي أتنصَّرُ ، فقالَ سيِّدُنا عمرُ : إن تنصَّرْتَ . . ضربتُ عُنُقَكَ ، فقالَ لهُ : أنظرني ليلَتي هذِه ، فأَنْظَرَهُ ، فلمَّا جاءَ الليلُ . . سارَ جَبَلَةُ بخيلِهِ وَرَجْلِهِ إلىٰ (الشام) ، ثمَّ منها إلىٰ (القسطنطينيَّة) ، وتبعهُ خمسُ مئةِ رجلٍ من قومه ، فتنصَّروا عَن آخرِهم ، =

= وفرحَ هرقلُ بهِ ، وأكرمَهُ ، ثمَّ ندمَ جَبَلَةُ علىٰ فعلتِهِ تلكَ ، وقالَ [من الطويل] :

تَنَصَّرَتِ ٱلأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ ... وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرْ
تَكَنَّفَنِي فِيهَا لَجَاجٌ وَنَخْوَةٌ ... وَبِعْتُ لَهَا ٱلْعَيْنَ ٱلصَّحِيحَةَ بِٱلْعَوَرْ
فَيَا لَيتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي ... رَجَعْتُ إِلَىٰ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِي قَالَ لِيْ عُمَرْ
وَيَا لَيْتَنِي أَرْعَىٰ ٱلمَخَاضَ بِقَفْرَةٍ ... وَكُنْتُ أَسِيْراً فِي رَبِيْعَةَ أَوْ مُضَرْ
وَيَا لَيتَ لِي بِٱلشَّامِ أَدْنَىٰ مَعِيْشَةٍ ... أُجَالِسُ قَوْمِي ذَاهِبَ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرْ
أَدِيْنُ بِمَا دَانُوْا بِهِ مِنْ شَرِيْعَةٍ ... وَقَدْ يُحْبَسُ ٱلْعَيْرُ ٱلدَّجُوْنُ عَلَىٰ ٱلدَّبَرْ

ثُمَّ بدا لسيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ أن يكتبَ إلىٰ هرقلَ يدعوهُ إلىٰ اللهِ ـ جلَّ وعزَّ ـ وإلىٰ الإسلامِ ، ووجَّه إليهِ رجلاً مِن أصحابهِ ـ وهوَ جثامَةُ بنُ ساحقٍ الكنانيُّ ـ فلمَّا أنتهىٰ إليهِ الرجلُ بكتابِ سيِّدنا عمرَ . . أجابَ إلىٰ كُلِّ شيءٍ سوىٰ الإسلامِ ، فلمَّا أرادَ الرسولُ الانصرافَ . . قالَ لهُ هرقلُ : هلْ رأيتَ أبنَ عمِّكَ هذا الذي جاءَنا راغباً في دِيننا ؟

قالَ : لا ، قال : فألقَهُ .

قالَ الرجلُ فتوجَّهتُ إليهِ ، فلمَّا أنتهيتُ إلىٰ بابهِ . . رأيتُ مِنَ البهجةِ والحسنِ والسرورِ ما لم أرَ ببابِ هرقلَ مثلَهُ ، فلمَّا أُدْخِلْتُ عليهِ . . إذا هوَ في بهوٍ عظيمٍ ، وفيهِ مِنَ التصاويرِ مَا لا أُحْسِنُ وصفَهُ ، وإذا هوَ جالسٌ علىٰ سريرٍ مِن قواريرَ ، قوائمُهُ أربعةُ أُسْدٍ مِن ذهبٍ . . . فلمَّا سلَّمتُ . . ردَّ السلامَ ، ورحَّبَ بي ، وألطفني ، ولامني علىٰ تركِ النزولِ عندهُ ، ثمَّ أقعدني علىٰ شيءٍ لَمْ أثبتْهُ ، فإذا هوَ كرسيٌّ مِن ذهبٍ ، فانحدرتُ عنهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ فقلتُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نهىٰ عَن هذا . فقالَ جَبَلَةُ أيضاً : مثلَ قَولي فِي النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ حينَ ذكرتُهُ ، وصلَّىٰ عليهِ .

ثمَّ قالَ : يا هذا . . إنَّكَ إذا طَهَّرتَ قلبكَ . . لَم يضرَّكَ ما لبستَهُ ولا ما جلستَ عليهِ ، ثمَّ سألَني عَنِ الناسِ ، وألحفَ في السؤالِ عَن عمرَ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ ثمَّ جعلَ يفكِّرُ ، حتَّىٰ رأيتُ الحزنَ في وجهِهِ ، فقلتُ : ما يمنعكَ مِنَ الرجوعِ إلىٰ قومِكَ والإسلامِ ؟ فقالَ : أبعدَ الذي قد كانَ ؟ قلتُ : قدِ أرتدَّ الأشعثُ بنُ قيسٍ ، ومنعهمُ الزكاةُ ، وضربهم بالسيفِ ، ثمَّ رجعَ إلىٰ

. . . .

= الإسلامِ ، فتحدَّثنا مليّاً ، ثمَّ أوماً إلىٰ غلامٍ لهُ ، فولَّىٰ يحضرُ ، فما كانَ إلاَّ هنيهةً . . حتَّىٰ أقبلتِ الأخونَةُ ، يحملُها الرجالُ ، فوُضِعتْ ، وجيءَ بخوانٍ مِن ذهبٍ فوضعَ أمامي ، فاستعفيتُ منهُ ، فوضعَ أمامي خوانُ خلنجٍ ، وجاماتُ قواريرَ ، وأديرتِ الخمرُ ، فاستعفيتُ مِنها ، فلمَّا فرغنا . . دَعا بكأسٍ مِن ذهبٍ ، فشربَ بهِ خمساً عدداً .

ثمَّ أوماً إلىٰ غلامٍ ، فولَّىٰ يَحضرُ ، فما شعرتُ إلاَّ بعشرِ جوارٍ يتكسَّرنَ فِي الحُليِّ ، فقعدَ خمسٌ عَن يمينهِ ، وخمسٌ عَن شمالِهِ ، ثمَّ سمعتُ وَسوسةً مِن ورائي . . فإذا أنا بعشرٍ أفضلَ مِن الأوَلِ ، عليهِنَّ الوشيُ والحُليُّ ، فقعدَ خمسٌ عن يمينهِ ، وخمسٌ عن شمالِهِ ، وأقبلتْ جاريةٌ علىٰ رأسِها طائرٌ أبيضُ كأنَّهُ لؤلؤةٌ ، وفي يدِها اليمنىٰ جامٌ فيهِ مِسْكٌ وعَنْبَرٌ . قد خُلِطا ، وأُنعِمَ سحقُهما ، وفي اليسرىٰ جامٌ ، وفيهِ ماءُ وردٍ ، فألقتِ الطائرَ في ماءِ الوردِ ، فتمعَّكَ بينَ جناحيهِ وظهرِهِ وبطنهِ ، ثمَّ أخرجتهُ ، فألقَتْهُ في جامِ المسكِ والعنبرِ ، فتمعَّكَ فيها حتَّىٰ لَمْ يَدَعَ فيها شيئاً ، ثمَّ نفَّرتْهُ ، فسقطَ علىٰ تاجِ جَبَلَةَ ، ثُمَّ رَفرَفَ ونفضَ ريشَهُ ، فما بقيَ عليهِ شيءٌ إلاَّ سقطَ علىٰ رأسِ جَبَلَةَ ، ثمَّ قالَ للجواري : أطربنَنِيْ ، فاندفعنَ يغنِّينَ بأبياتٍ ، فقالَ لي : هذا شعرُ حسَّانَ بنِ ثابتٍ ، شاعرِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

فقلتُ : أما إنَّه مضرورُ ٱلبصرِ ، كبيرُ السنِّ .

قالَ : يا جاريةُ هاتي ، فأتَتْهُ بخمسِ مئةِ دينارٍ ، وخَمْسةِ أثوابٍ مِن الديباجِ ، فقالَ ادفعْ هذا إلىٰ حسَّانَ ، وأقرئْهُ مِنِّي السلامَ ، ثمَّ سلمتُ عليهِ ، وٱنصرفتُ ، فلمَّا قدمتُ علىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ سألَني عَن هرقلَ وَجَبَلَةَ ، فَقصَصْتُ عليهِ القصَّةَ مِن أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، فقالَ : أوَرأيْتَ جَبَلَةَ يشربُ الخمرَ ؟ قلتُ : نَعَم .

قالَ : أبعدَهُ اللهُ ، تعجَّلَ فانيةً ٱشتراها بباقيةٍ ، فما ربِحتْ تجارتُهُ ، فهل سرَّحَ معكَ شيئاً ؟ قلتُ : سرَّحَ إلىٰ حسَّانَ خمسَ مئةِ دينارٍ ، وخمسةَ أثوابِ ديباجٍ .

فقالَ : هاتِها . وبعثَ إلىٰ حسَّانَ ، فأقبلَ يقودُهُ قائدُهُ ، حتَّىٰ دَنا فسلَّمَ ،

وأشارَ إليهَا المعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٢٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

بَنُـوْ أَمْـلاَكِ جِفْنَـةَ قَـرَّبَتْهُـمْ إِلَىٰ ٱلرُّوْمِ ٱللَّجَاجَةُ وَٱلْعِنَادُ(١)
أَرَادَتْ أَنْ تُقِيْـدَهُـمُ قُـرَيْـشٌ وَكَـانُـوْا لاَ يُنَـالُ لَهُـمْ قِيَـادُ(٢)

القبر يدل على المقبور

وعرفَ قيسُ بنُ ذريحٍ قبرَ لُبنىٰ ، وكانُوا عمُّوهُ عليهِ كما في روايةٍ ، فما زالَ يتشمَّمُ ٱلقبورَ حتَّىٰ ٱهتدىٰ إليهِ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادُوا لِيُخْفُوْا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا وَلَـٰكِنَّ طِيْبَ ٱلْقَبْرِ دَلَّ عَلَىٰ ٱلْقَبْرِ

قبور العاشقين

وعرفَ بعضهمُ قبرَ ٱبنِ الفارضِ بطيبهِ ، وآثارِ الذلِّ الغراميُّ عليهِ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُوْرُهُمْ عَلَيْهَا تُرَابُ ٱلذُّلِّ بَيْنَ ٱلْمَقَابِرِ(٣)

= وقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ إنِّي لأجدُ أرواحَ آلِ جفنةَ ، فقالَ سيِّدُنا عمرُ : قد نزعَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ لكَ منهُ علىٰ رغمِ أنفهِ ، وأتاكَ بمعونةٍ .

فانصرفَ وهو يقولُ :

إِنَّ ٱبْـنَ جَفْنَـةَ مِـنْ بَقِيَّـةِ مَعْشَـرٍ لَـمْ يَغْـذُهُـمْ آبَـاؤُهُـمْ بِـٱللُّـوْمِ

.... الأبياتِ .

والقصَّةُ في « الأغاني » (١٥/ ١٦٣) و« الاستقصا لأخبار دُوَلِ المغرب الأقصىٰ » (١/ ٨٤) و« البداية والنهاية » (٨/ ٦٦) .

(١) اللجاجةُ : التمادي في العنادِ .
(٢) تُقِيدهُم : تقتصُّ منهُم .
(٣) جاءَ في « مصارعِ العشَّاقِ » (١/ ١٣٠) :

وجدتُ في مجموعٍ سمَّاهُ جامعهُ « زهرُ الربيعِ » قالَ : أَنشدتُ عبدَ اللهِ بنَ المعتزِّ :

مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُوْرُهُمْ عَلَيْهَا تُرَابُ ٱلذُّلِّ بَيْنَ ٱلْمَقَابِرِ

فقالَ لي : لعنَ اللهُ صاحبَ هذا الشِّعرِ ، لاَ واللهِ ما أَذَلَّ اللهُ ترابَ قبرِ عاشقٍ =

كل ما يتصل بالحبيب حبيب

وممَّا يتَّصلُ بمعنىٰ البيتِ الذي نتكلَّم عليهِ . . قولُ قيسِ بنِ ذريحٍ أَوِ ٱلمجنونِ ، فقد عُزيَ إلىٰ كلٍّ منهما ، أَو هِيَ أَبياتٌ لَهُما ، تداخلَت في بعضِها فكانَتْ من أَرقِّ النسيبِ ، وَهِيَ [في « ديوانِ المجنونِ » ٥٢ـ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

جَرىٰ ٱلسَّيْلُ فَٱسْتَبْكَانِيَ ٱلسَّيْلُ إِذْ جَرىٰ ... وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتَيَّ غُرُوْبُ[1]

وَمَا ذَاكَ إِلاَّ حِيْنَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ ... يَكُوْنُ بِوَادٍ أَنْتِ مِنْهُ قَرِيْبُ

يَكُوْنُ أُجَاجاً دُوْنَكُمْ فَإِذَا ٱنْتَهىٰ ... إِلَيْكُمْ تَلَقَّىٰ طِيْبَكُمْ فَيَطِيْبُ

فَيَا سَاكِنِيْ أَكْنَافِ نَخْلَةَ كُلُّكُمْ ... إِلَىٰ ٱلْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَبِيْبِ حَبِيْبُ

أَظَلُّ غَرِيْبَ ٱلدَّارِ فِيْ أَرْضِ عَامِرٍ ... إِلَىٰ كُلِّ مَهْجُوْرٍ هُنَاكَ غَرِيْبُ

ويشبِهُهَا قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/٩٦ـ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كَانَ شَمُّ ٱلرِّيْحِ أَدْنىٰ إِلَيْكُمُ ... فَلاَ بَرِحَتْنِيْ رَوْضَةٌ وَقَبُوْلُ

وَمَا شَرَقِيْ بِٱلْمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً ... لِمَاءٍ بِهِ أَهْلُ ٱلْحَبِيْبِ نُزُوْلُ[2]

الخلاف في مسألة القناعة في الحب

وكأنِّي بِمَن ينكرُ تباينَ ما سقْنَا مِنَ ٱلشواهدِ لذكرِ الروائحِ والنسائمِ مِنْ حيثُ إِنَّ بعضَهم يتعلَّلُ بها ويتسلَّى ، ويحصلُ لداءِ

= قطُّ ، بَل أَجلَّهُ وشرَّفهُ ونضَّرَهُ وحسَّنَهُ .

قالَ ٱبنُ المعتزِّ : وَلي في هذا المعنىٰ أَملحُ مِن قولِ هذا البارد وأَنشدني لنفسهِ :

مَرَرْتُ بِقَبْرٍ مُشْرِقٍ وَسْطَ رَوْضَةٍ ... عَلَيْهِ مِنَ ٱلأَنْوَارِ مِثْلُ ٱلشَّقَائِقِ

فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ لِيَ ٱلثَّرىٰ ... تَرَحَّمْ عَلَيْهِ إِنَّهُ قَبْرُ عَاشِقِ

(١) الغُروبُ ـ جمعُ غربٍ ـ : وهوَ الدلوُ العظيمةُ .

(٢) الشَّرَقُ : الاختناق بالماءِ أَو الريقِ أَو النَّفَسِ .

غرامِهِ بعضُ الشفا ، وتزيدُ آخرينَ وجداً وغراماً وتَبَلاً[1] وٱضطراماً ، ونقولُ لاَ مُشَاحَّةَ ما دامَتْ نوعاً مِنَ ٱلوصالِ المختَلَفِ فيهِ أَيضاً ؛ إِذْ لا يقتنعُ بعضُهم حَتَّىٰ تمتزجَ الأَرواحُ ـ كما سيأْتِي في غيرِ هٰذا الموضعِ ـ ويقتنعُ بعضُهم بأَدنىٰ شيءٍ ، كما سبقَ في المجلسِ الثاني حيثُ ذكرْنا قولَ ٱبنِ الدُّمينةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَضِيتُ بِسَعْيِ ٱلْوَهْمِ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبُ

وقولُ كُثيِّرٍ [في « وفيات الأعيان » ١/٣٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَرْضَىٰ مِنْكِ يَا عَزُّ بِٱلَّذِيْ ... لَوَ ٱبْصَرَهُ ٱلْوَاشِيْ لَقَرَّتْ بَلاَبِلُهْ

. . . الأَبيات .

وقولُ جحدرٍ [في « البداية والنهاية » ٩/١٢٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلَيْسَ ٱللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو ... وَإِيَّانَا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِيْ

والذي بعدهُ .

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ فيما يشبهُ قولَ جحدرٍ [في « ديوانهِ » ٦٠ـ٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَيْسَتْ لُبَيْنَىٰ تَحْتَ سَقْفٍ يُكِنُّهَا ... وَإِيَّايَ ؟ هَٰذَا إِنْ نَأَتْ لِيَ نَافِعُ[2]

وَيَلْبَسُنَا ٱللَّيْلُ ٱلْبَهِيمُ إِذَا دَجَا ... وَنُبْصِرُ ضَوْءَ ٱلصُّبْحِ وَٱلْفَجْرُ سَاطِعُ

تَطَا تَحْتَ رِجْلَيْهَا بِسَاطاً وَبَعْضَهُ ... أَطَأْهُ بِرِجْلِيْ لَيْسَ يَطْوِيهِ مَانِعُ[3]

---

(١) تَبَلَ ٱلحبُّ الإِنسانَ : أَسقمهُ وأَفسدَهُ وذهبَ بعقلِهِ .
(٢) الكِنُّ : وقاءُ كلِّ شيءٍ وسترهُ .
(٣) تطا : أي تطأُ ، وهذا ما يُسمَّىٰ تسهيل الفعل المهموز .

وقالَ [في «ديوانهِ» ١٤٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَقَـرُّ عَيْنِـي وَهْـيَ نَـازِحَـةٌ ... مَـا لاَ يَقَـرُّ بِعَيْـنِ ذِيْ ٱلْحُلُـمِ

أَنِّـــيْ أَرَىٰ وَأَظُنُّهَـــا سَتَـــرَىٰ ... وَضَـحَ ٱلنَّهَـارِ وَعَـالِـيَ ٱلنُّجُـمِ

ذكـر زيـارة الطيـف والمام الشعراء به

وكثيرٌ مَن يتمتعُ بالخيالِ ، ويتعلَّلُ بالآمالِ ، وأَوَّلُ مَن ذكرَ زيارةَ الطيفِ ـ فيما يُروى ـ جرانُ العودِ في قولِهِ [في «ديوانهِ» ٥٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

سَقْيـاً لِـزَوْرِكَ مِـنْ زُوْرٍ أَتَـاكَ بِـهِ ... حَدِيْثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهْوَ مَشْغُولُ[1]

ثُمَّ ٱقتفاهُ العبَّاسُ بنُ الأحنفِ ، وتلقَّاهُ أبو تمَّامٍ ، وأَكْثَرَ التصرُّفَ فيهِ أَبو عُبادةَ ، ومِن أَحسنِ ما لَهُ فيهِ قولُهُ [في «ديوانهِ» ٣/ ١٥٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَكَمْ غُلَّةٍ لِلشَّوْقِ أَطْفَأْتُ حَرَّهَا ... بِطَيْفٍ مَتَىٰ مَا يَطْرُقِ ٱللَّيْلُ يَطْرُقِ

وقولُهُ [في «ديوانهِ» ٢/ ١٠٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ فِيْ ٱلدُّجَا مِنْ فَرْحَةٍ بِلِقَائِهَا ... وَمِنْ تَرْحَةٍ بِٱلْبَيْنِ مِنْهَا لَدَىٰ ٱلْفَجْرِ

إِذَا ٱللَّيْلُ أَعْطَانَا مِنَ ٱلْوَصْلِ بُلْغَةً ... ثَنَتْنَا تَبَاشِيْرُ ٱلنَّهَارِ إِلَىٰ ٱلْهَجْرِ

وَلَمْ أَنْسَ إِسْعَافَ ٱلْكَرَىٰ بِدُنُوِّهَا ... وَزَوْرَتِهَا بَعْدَ ٱلْهُدُوِّ وَمَا تَدْرِيْ[2]

وَأَخْذِيْ بِعِطْفَيْهَا وَقَدْ مَالَ رِدْفُهَا ... بِطَيِّعَةِ ٱلْعِطْفَيْنِ مَهْضُوْمَةِ ٱلْخَصْرِ[3]

عِنَاقٌ يُرَوِّيْ غُلَّتِيْ وَهْوَ بَاطِلٌ ... وَلَوْ أَنَّهُ حَقٌّ شَفَىٰ لَوْعَةَ ٱلصَّدْرِ

وقولُهُ [في «ديوانهِ» ٣/ ١٤٧٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَلَرُبَّمَا كَانَ ٱلْكَرَىٰ سَبَبَاً لَنَا ... بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ إِلَىٰ ٱللِّقَاءِ فَنَلْتَقِيْ

---

(١) الزَّورُ : الزائِرُ . والزُّورُ : الكذبُ .

(٢) الكرى : النومُ .

(٣) عطفيها : جانبيها .

مَتَذَاكِرَانِ عَلَىٰ ٱلْبِعَادِ فَمَا يَنِيْ ... يُهْدِيْ ٱلْغَرَامَ مُغَرِّبٌ لِمُشَرِّقِ(1)

وقولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَـلاَ وَصْـلَ إِلاَّ أَنْ يَطِيْـفَ خَيَـالُهَـا ... بِنَا تَحْتَ جُؤْشُوْشٍ مِنَ ٱللَّيْلِ أَسْفَعِ(2)

أَلَمَّتْ بِنَا بَعْدَ ٱلْهُدُوِّ وَسَامَحَتْ ... بِوَصْلٍ مَتَىٰ نَطْلُبْهُ فِيْ ٱلْجِدِّ تَمْنَعِ

وقولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٩٨٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَهْـلاً بِـزَائِـرِهِ ٱلْمُلِـمِّ لَـوَ أَنَّـهُ ... عَرَفَ ٱلَّذِيْ يَعْتَادُ مِنْ إِلْمَامِهِ(3)

جَذْلاَنَ يَسْمَحُ فِيْ ٱلْكَرَىٰ بِعِنَاقِهِ ... وَيَضِنُّ فِيْ غَيْرِ ٱلْكَرَىٰ بِسَلاَمِهِ

وقولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٦٠٧ـ١٦٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْلَةَ هَوَّمْنَا عَلَىٰ ٱلْعِيْسِ أَرْسَلَتْ ... بِطَيْفِ خَيَالٍ يُشْبِهُ ٱلْحَقَّ بَاطِلُهْ

فَلَوْلاَ بَيَاضُ ٱلصُّبْحِ طَالَ تَشَبُّثِيْ ... بِعِطْفَيْ غَزَالٍ بِتُّ وَهْنَاً أُغَازِلُهْ(4)

وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلَّيْلِ عِنْدِيْ حَمِيْدَةٍ ... وَلِلصُّبْحِ مِنْ خَطْبٍ تُذَمُّ غَوَائِلُهْ(5)

وقدْ أغارَ الناظمُ علىٰ الأخيرِ في قولِهِ [في «العكبري» ١/ ١٦١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَزُوْرُهُـمْ وَسَـوَادُ ٱللَّيْـلِ يَشْفَـعُ لِـيْ ... [وَأَنْثَنِيْ وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِيْ بِيْ]

وقولِهِ [في «العُكبَريِّ» ١/ ١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ لِظَلاَمِ ٱللَّيْلِ عِنْدِيَ مِنْ يَدٍ ... تُحَدِّثُ أَنَّ ٱلْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ(6)

---

(١) يني : يتوانىٰ . المغرِّبُ : الذي يسكنُ في الغربِ . والمشرِّقُ : الذي يسكنُ في الشرقِ .

(٢) الجُؤْشُوْشُ : الصدرُ . أَسفَعُ : السُّفعة ، السوادُ المشرَّب بالحمرة .

(٣) يعتاد : ينتابُ . إلمامُ الطيفِ : زيارتُهُ .

(٤) الوهن : حين إدبارِ الليلِ .

(٥) غوائلُهُ : عواقبُهُ .

(٦) المانويَّةُ : قومٌ يُنْسبون إلىٰ (ماني) ، وهوَ رجلٌ يقولُ : الخيرُ مِن النهارِ ، والشرُّ مِنَ=

وقالَ الحُطيئةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِـيْ كُـلِّ مُمْسَـىٰ لَيْلَـةٍ وَمُعَـرَّسٍ خَيَالٌ يُوَافِيْ ٱلرَّكْبَ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ[1]

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في « ديوانِهِ » ١٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي لأَهْوَىٰ ٱلنَّوْمَ مِنْ غَيْرِ نَعْسَةٍ لَعَـلَّ لِقَـاءً فِـيْ ٱلْمَنَـامِ يَكُـوْنُ
تُخَبِّـرُنِـيْ ٱلأَحْـلامُ أَنِّـيْ أَرَاكُـمُ فَيَـا لَيْـتَ أَحْـلامَ ٱلْمَنَـامِ يَقِيْـنُ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانِهِ » ٢٩٩ـ٣٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَسْتَغْشِيْ وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكِ يَلْقَىٰ خَيَالِيَا[2]
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوْتِ لَعَلَّنِيْ أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ بِٱلسِّرِّ خَالِيَا

وقالَ عمرُو بنُ قميئةَ [في « الأغاني » ١٨/ ١٤١ مِنَ المتقاربِ] :

نَـأَتْـكَ أُمَـامَـةُ إِلاَّ سُـؤَالاَ وَإِلاَّ خَيَـالاً يُـوَافِـيْ خَيَـالاَ
يُـوَافِـيْ مَـعَ ٱللَّيْـلِ مِيْعَـادُهَـا وَيَـأْبَـىٰ مَـعَ ٱلصُّبْـحِ إِلاَّ زِيَـالاَ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ الأَسديُّ [مِنَ الكاملِ] :

سَقْياً لِطَيْفِكِ مِنْ خَيَالٍ طَارِقٍ وَلَّىٰ وَحُسْنُ حَدِيْثِهِ لَمْ يُسْأَمِ
أَنَّـىٰ ٱهْتَـدَيْـتِ وَأَنْـتِ غَيْـرُ خَبِيْـرَةٍ لِمَبِيْـتِ شُعْـثٍ كَـالأَسِنَّـةِ سُهَّـمِ[3]

= الليلِ ، وأنتحلَ هـٰذا المذهبَ ، فردَّ عليهِ المتنبي بقولِهِ هذا ، وقالَ : ليسَ الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ ؛ لأَنَّهُ كم هناكَ مِن نِعمةٍ لليلِ عندي ، فتبيَّنَ كذبُ هؤلاءِ الذينَ ينسبونَ الشرَّ إلىٰ الظلمةِ والليلِ .

(١) المعرَّسُ : آخرُ الليلِ .

(٢) غِشَاءُ كلِّ شيْءٍ : غطاؤُهُ .

(٣) الأَشعثُ : المغبرُّ الرأسِ . الأَسنَّةُ : الرماحُ . سُهَّمٌ : ضامرٌ ، متغيِّرُ اللونِ ، ذابلُ الشفتينِ ، عابسٌ مِن شدَّةِ الهَمِّ .

وقالَ النظّارُ الفقعسيُّ [في «الأغاني» ١٩/ ٢٤٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَنَّىٰ ٱهْتَدَتْ لِمُنَاخِنَا جُمْلُ ... وَمِنَ ٱلْكَرَىٰ لِعُيُونِنَا كُحْلُ
طَرَقَتْ أَخَا سَفَرٍ وَنَاجِيَةً ... خَرْقَاءَ يُعْرِقُ نَيَّهَا ٱلرَّحْلُ[1]
فِيْ مَهْمَهٍ هَجَعَ ٱلدَّلِيْلُ بِهِ ... وَتَعَلَّلَتْ بِصَرِيْفِهَا ٱلْبُزْلُ[2]

وقالَ قيسُ بنُ الأَسلتِ أَو قيسُ بنُ الخطيمِ [بل لقيسِ بنِ الخَطيمِ كما في «ديوانهِ» ١٦٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَا تَمْنَعِيْ يَقْظَىٰ فَقَدْ تُؤْتِيْنَهُ ... فِيْ ٱلنَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوْبِ[3]

الخلاف في اسم أول من وصف الطيف

وقدِ ٱختُلِفَ في جرانِ العودِ الذي قيلَ : إنهُ أَوَّلُ من وصفَ الطيفَ ، فقيلَ : إِنَّهُ جاهليٌّ ، ولا إِشكالَ حينئذٍ ، وقيلَ : إِنَّهُ إِسلاميٌّ وبهِ وجهٌ مِنَ ٱلنظرِ ، لما مرَّ بكَ من شعرِ الجاهليِّينَ فيهِ ، وقيلَ : إِنَّهما ٱثنانِ .

ليس الغنم بالغرم

وكثيرٌ مِن أَهلِ الأَدبِ من يخافُ أَنْ يحميَ معشوقَهُ المنامَ ، كما يأتي في شرحِ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ١/٣١٩ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِيْ بِوِصَالٍ ... لَمْ تَرُعْنِيْ ثَلاَثَةً بِصُدُوْدِ

---

(١) الخرقاءُ : هيَ الدابَّةُ التي في أُذُنها ثُقبٌ . يُعرِقُ : مِنَ التعرُّقِ . نيَّها : شحمَها .

(٢) تعلَّلَت : أَي شربَتْ المرةَ بعدَ الأُخرىٰ . الصريفُ : الحليبُ حينَ يحلبُ . البُزْلُ : أَي النوقُ .

(٣) مُصَرَّدٌ : مقلَّلٌ . محسوبٌ : قال الشريف المرتضىٰ : تحتمل في البيت معنيين : أحدهما : من الحساب وهو العدُّ ؛ لأن الشيء القليل يوصف بأنَّهُ معدود ومحسوب ، والثاني : أن يكون «محسوب» من الحُسبانِ وهو أنه غير متوقَّع .

التناوم من أجل رؤيا خيال الحبيب

ومنهم : مَن يتطلَّبُ الإغفاءَ لِكَي يصطادَ بهِ الخيالَ ، كما سيأْتِيْ مِن قولِ مِهْيَارٍ [في « ديوانه » ٣/ ٣٢٨ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَٱبْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِيْ فِيْ ٱلْكَرَىٰ ... إِنْ أَذِنْتُمْ لِجُفُوْنِيْ أَنْ تَنَامَا

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانهِ » ١٥٧ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَوْ مُرِ ٱلْغُمْضَ أَنْ يَمُرَّ بِجَفْنِيْ ... فكأَنِّيْ بِهِ مُطِيْعاً عَطَاكَا

زيادة النار حطباً

أَمَّا قولُ نديمِ المتوكِّلِ عليِّ بنِ النجمِ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣٧٤ مِنَ ٱلمديدِ] :

زَارَنِيْ طَيْفُ ٱلْحَبِيْبِ فَمَا ... زَادَ أَنْ أَغْرَىٰ بِيَ ٱلأَرَقَا

فليسَ بأَغربَ مِمَّا يأْتِيْ عَن أَهلِ المحبةِ الصادقةِ أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٦٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

عَلَّ ٱلأَمِيْرَ يرَىٰ ضَعْفِيْ فَيَشْفَعَ لِيْ   إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

الـذل فـي الهـوىٰ والشفاعة فيه

يقولُ : علَّ الأَميرَ الممدوحَ يطَّلِعُ علىٰ ذُلِّي وضَعفي في ٱلهوىٰ ، فيشفعَ لي إِلىٰ التي تركتْني مضربَ المثلِ في الغرامِ ، لتواصِلَني بشفاعتِهِ ، وهُوَ من قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَشْكُوْ إِلَىٰ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ   هَـوَاهَـا لَعَـلَّ ٱلْفَضْـلَ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا

وقـولُ أَبي نُـوَاسٍ أَحسـنُ ؛ لأَنَّ الجمـعَ قـد يكـونُ بـأَن يعطيـهِ ما يتوصَّلُ بهِ إِلىٰ المحبوبةِ ، وأَمَّا الشفاعةُ فباللسانِ وذلِكَ نوعٌ مِنَ ٱلقيادةِ ، كذا قالَ الشارحُ .

تعصـب الفضـل بـن يحيى على أبي نواس

ولم يكنِ ٱلسببُ في الزرايةِ علىٰ هـٰذا إِلاَّ أَنَّ الفضلَ بنَ يحيىٰ كانَ متعصِّباً علىٰ أَبي نُوَاسٍ ، يفضِّل عليهِ مسلمَ بنَ الوليدِ ، حتَّىٰ لقد ٱستؤْذنَ لهُ يوماً فأَعظمهُ ، وأَكرمهُ ، وٱستنشدهُ ، وخلعَ عليهِ ، وأَجازهُ ، فما ٱنصرفَ حتَّىٰ جاءَ أَبو نُوَاسٍ ، فٱمتنعَ مِنَ الإِذنِ لهُ ، حتَّىٰ سأَله بعضُ مَن حضرَ أنْ يأْذَنَ لَهُ ، ففعلَ على تَكرُّهٍ منهُ ، فلمَّا دخلَ . . سلَّم ، قالَ الراوي : فما علمتُ أَنَّهُ ردَّ عليهِ ولاَ أَمرهُ بالجلوسِ ، ولاَ رفعَ إِليهِ رأْسهُ ، فلمَّا طالَ عليهِ الوقوفُ . . قالَ معيَ أَبياتٌ أَفَأُنْشِدُها ؟ قالَ : نَعَم ، فقالَ [في « ديوانه » ٥٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

طَرَحْتُمْ عَلَىٰ ٱلتَّرْحَالِ أَمْرَاً فَغَمَّنَا   وَلَوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَّحَ ٱلْمَوْتُ بَعْضَنَا

حتَّىٰ بلغَ قولَهُ : (سَأَشْكُوْ إِلَىٰ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ) . .

البيتَ ، فقطَّبَ وجهُ ٱلفضلِ ، وقالَ لأَبي نُوَاسٍ : أَمسِكْ ، عليكَ لعنةُ ٱللهِ ، وأَمرَ بإخراجِهِ محروماً ، وٱلتفتَ ٱلفضلُ إِلىٰ أَنسِ ٱبنِ أَبي شيخٍ وقالَ : ما رأيتُ مثلَ هٰذا الرَّجلِ ، ولا أَقلَّ تمييزاً في كلامِهِ ، قالَ أَنسٌ : إِنَّ ٱسمَهُ كبيرٌ ، فقالَ : عندَ مَنْ ؟ ويلكَ ! ليسَ إلاَّ عندَ مَنْ يُشاكِلُهُ مِنَ ٱلسُّقَّاطِ ، قالَ أَنسٌ : وأَينَ هوَ مِنْ مُسلمٍ ، فقالَ ٱلفضلُ : وٱللهِ لأَحجبنَّكَ ثلاثاً ، ولا كلَّمتُكَ سبعاً ؛ إذ كانَ هٰذا مبلغَ علمكَ ، ونهايةَ تمييزكَ ، وٱللهِ إِنَّ مُسلماً ليفضُلُ عندي الطَّبقةَ ٱلمتقدِّمةَ .

ليست الشفاعة من باب القيادة

وٱلحقُّ : أَن لا غضاضةَ في شيءٍ ممَّا فعلَهُ ٱلمتنبِّي وأَبو نُوَاسٍ ؛ إذ للسَّلفِ مِنْ مثلِهِ ٱلكثيرُ الطَّيِّبُ .

شفاعته ﷺ لمغيث عند بريرة

وهٰذا رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يشفَعُ لمغيثٍ عندَ بريرةَ أَن تستديمَ نكاحَه بعد أن عَتَقَت ، فلَم تقبلْ[1] ، فهلْ مِن غضاضةٍ في رجوعِ مغيثٍ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وتشفُّعِهِ بهِ إِلىٰ بريرةَ ؟ لا وٱللهِ .

ابن أبي عتيق يسعى في طلاق لبنى لتعود إلى قيس

وهٰذا ٱبنُ أَبي عَتيقٍ يَسعىٰ في طلاقِ لُبنىٰ مِنْ زوجِها ؛ لِتَرجعَ إِلىٰ قيسٍ ، وفيهِ يقولُ [في « ديوانهِ » ٨٥ مِنَ ٱلوافِرِ] :

جَزَىٰ ٱلرَّحْمَـٰنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِيْ ... عَلَىٰ ٱلإِحْسَانِ خَيْراً مِنْ صَدِيْقِ

---

(١) وذلك لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٥٢٨٣) في الطلاق أَنَّ زوجَ بريرةَ كانَ عبداً ، يقالُ لهُ : مغيثٌ ، كأَنِّي أَنظرُ إِليهِ يطوفُ خلفَها يبكي ، ودموعُهُ تسيلُ علىٰ لحيتهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعبَّاسٍ : « يَا عَبَّاسُ أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيْثٍ بَرِيْرَةَ ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيْرَةَ مُغِيْثاً ؟ » فقالَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ « لَوْ رَاجَعْتِهِ » قالَتْ : يا رسولَ اللهِ . . أَتأمرُني ؟ قالَ : « إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » ، قالت : لا حاجةَ لِي فيهِ .

فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِيْ جَمِيْعاً   فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنِ أَبِيْ عَتِيْقِ
سَعَىٰ فِيْ جَمْعِ شَمْلِيْ بَعْدَ صَدْعٍ   وَرَأْيٍ حِدْتُ فِيْهِ عَنِ الطَّرِيْقِ[1]
وَأَطْفَأَ لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِيْ   أَغَصَّتْنِيْ حَرَارَتُهَا بِرِيْقِيْ[2]

قصة ابن ذريح ولبنىٰ

وقيسٌ هٰذا : هوَ ٱبنُ ذُريحٍ مِنْ بني عُذرةَ ، وكانَ رضيعَ ٱلحُسينِ بنِ عليٍّ ـ رضيَ ٱللهُ عنهُما ـ أَرضعَتْهُما أُمُّ قيسٍ ، وكانَ خرجَ لبعضِ حاجتهِ ، فمرَّ بخيامِ بني كعبِ بنِ خزاعةَ ، والحيُّ خُلوفٌ[3] ، فوقفَ يَستسقي ببابِ خيمةٍ ، فخرجَتْ إليهِ لُبنىٰ بنتُ ٱلْحُبابِ ٱلكعبيَّةُ ، وكانتِ ٱمرأةً مديدةَ ٱلقامةِ ، شهلاءَ[4] ، حلوةَ ٱلمَنظرةِ وٱلكلامِ ، فوقعَتْ في نفسِهِ ، وعرضَتْ عليهِ ٱلقِرىٰ ، فنزلَ وأَكرمَهُ أَبوها ، ثُمَّ ٱنصرفَ وفي قلبه حرٌّ لا يُطْفَىٰ ، فجعلَ ينطقُ بالشعرِ فيهَا ، حَتَّىٰ شاعَ ورواهُ الناسُ ، ثُمَّ أَتاها يوماً آخرَ وقدِ ٱشتدَّ وجدهُ بها فسلَّم ، فظهرتْ لهُ وردَّتْ سلامَهُ ، فشَكا إِليها ما يجدُ من حبِّها ، فبَكَت وشَكَت إِليهِ مثلَ ذلكَ ، وعرفَ كلٌّ منهُما ما لصاحبِهِ عندَ الآخرِ .

وٱنصرفَ إِلىٰ أَبيهِ وسأَلهُ أَنْ يخطِبَها لهُ ، فأَبىٰ عليهِ ، وقالَ لَه : بناتُ عمِّكَ أَحقُّ بكَ ، وكانَ موسراً كثيرَ المالِ ، فكرهَ أَنْ يخرجَ ٱبنهُ إِلىٰ الغريبةِ ، فشكا إِلىٰ أُمِّهِ ما لقيَ من والدهِ ، وٱستعانَ بِهَا علىٰ أَبيهِ ، فلَمْ يجدْ عندَهَا الذي يحبُّ ، فأَتىٰ الحسينَ بنَ عليٍّ

---

(١) صَدْعٌ : تفرُّقٌ .
(٢) أنظر « خزانةَ الأدبِ » (١/ ٣٣٢) .
(٣) أي : والحيُّ خالٍ مِنَ النَّاسِ ، قد ذهبوا يَستقونَ ، وخلَّفوا أَثقالَهُم ، ويُقالُ : هُم خُلوفٌ ، أَي : غُيَّبٌ .
(٤) الشَّهلاءُ : هيَ ٱلمرأَةُ ٱلَّتي في عينها زُرقَةٌ .

ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُما ـ وشكَا إِليهِ ما بهِ ، وما ردَّ عليهِ أَبوهُ ، فقالَ : أَنا أَكفيكَ ، ومشىٰ معهُ إِلىٰ وَالدِ لُبنى ، فلمَّا بصُرَ بهِ . . أَعظمهُ ، ووثبَ إِليهِ ، وقالَ : يا ٱبنَ رسولِ اللهِ ما جاءَ بكَ ؟ أَلاَ بعثتَ إِليَّ فآتيكَ ، قالَ : إِنَّ الذي جئتُ فيهِ يوجِبُ قصدَكَ ، جِئْتُكَ أَخطبُ ٱبنتكَ لبنىٰ لقيسِ بنِ ذريحِ ، فقالَ : يا ٱبنَ رسولِ اللهِ ، ما كنَّا لنعصيَ لكَ أَمراً ، وما بنا رغبةٌ عَنِ ٱلفتىٰ ، وأَحبُّ الأَمرِ إِلينا أَنْ يُشْرِكَ أَبوهُ في الخطبةِ ؛ لِئَلاَّ يكونَ عاراً وسُبَّةً علينَا ، فأَتىٰ الحسينُ ذُريحاً وهُوَ في قومهِ ، فقاموا إِليهِ إِعظاماً لهُ ، فقالَ لِذريحِ : أَقسمتُ عليكَ إِلاَّ خطبتَ لُبنىٰ علىٰ قيسٍ ، قالَ : السمعُ والطاعةُ لأَمركَ ، فخرجَ معهُ في وجوهِ قومهِ حتَّىٰ أَتوا حيَّ لبنىٰ ، فخطبَها ذريحٌ علىٰ ٱبنهِ إِلىٰ أَبيهَا ، وبَنَى عليَها ، وأَقامَ معَها مدَّةً ، فمرضَ ، فقالَتْ أُمُّهُ لأَبيهِ : لقد خشيتُ أَنْ يموتَ قيسٌ ولا يتركَ خَلفاً ، وقد حُرِمَ الولدَ من هٰذي المرأَةِ ، وأَنتَ ذو مالٍ فيصيرَ مالكَ إِلىٰ الكلالةِ ، فزوِّجه بغيرِها ، علَّ اللهَ أَن يرزقَه الولدَ ، وأَلحَّتْ عليهِ في ذلكَ ، فعرضَ عليهِ ذلكَ ذريحٌ ، فقالَ : لستُ متزوِّجاً بغيرِها أَبداً ، قالَ : فتَسرَّ بالإِمَاءِ ، قالَ : وَلاَ أَسوؤُهَا بِشيءٍ أَبداً ، قالَ : فإِني أُقسمُ عليكَ إِلاَّ ما طلَّقْتَها ، فأَبىٰ ، وقالَ : الموتُ أَسهلُ عندي مِن فراقِها ، قالَ : لاَ أَرضىٰ أَوْ تطلِّقَها ، وحلفَ أَنَّهُ لاَ يكنُّه سقفٌ أَبداً أو يطلِّقَ قيسٌ لبنى ، فكانَ يقفُ في حرِّ الشمسِ ، فيجيءُ قيسٌ إِلىٰ جانبِهِ يظلُّهُ بردائِهِ ، ويَصْلَىٰ هُوَ بحرِّها حَتَّىٰ يفيءَ الفيءُ فينصرفَ عنهُ إِلىٰ لُبنى ، ويعانقُها ويَبكِي وتبكي معهُ ، وتقولُ لهُ : لاَ تطعْ أَباكَ ؛ فتهلكَ وتهلكَني معكَ ، فقالَ : ما كنتُ لأُطيعَ فيكِ أَحداً أَبداً ، فيقالُ : إِنَّهُ مكثَ سنةً كذلكَ ؛ ثُمَّ طلَّقها ، فلمَّا بانتْ منهُ . . ٱستطيرَ عقلُهُ ،

وذهبَ لبُّهُ ، وخالَطَهُ مِثلُ ٱلجنونِ ، وقالَ في ذلِكَ أَشعاراً كثيرةً ، منها قولُهُ [في « ديوانِهِ » ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُـلُّ مُصِيبَـاتِ ٱلـزَّمَـانِ وَجَـدْتُهَـا ... سِوَىٰ فُرْقَةِ ٱلأَحْبَابِ هَيِّنَةَ ٱلْخَطْبِ[1]

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٨٣ـ٨٤ من الطَّويلِ] :

وَدِدْتُ ـ وَبَيْتِ ٱللهِ ـ أَنِّيْ عَصَيْتُهُمْ ... وَحُمِّلْتُ فِيْ رِضْوَانِهَا كُلَّ مُوْبِقِ

كَأَنِّيْ أَرَىٰ ٱلنَّاسَ ٱلْمُحِبِّيْنَ بَعْدَهَا ... عُصَـارَةَ مَـاءِ ٱلْحَنْظَـلِ ٱلْمُتَفَلِّـقِ[2]

فَتُنْكِرُ عَيْنِيْ بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظَرٍ ... وَيَكْرَهُ سَمْعِيْ بَعْدَهَا كُلَّ مَنْطِقِ

وقولُهُ لمَّا تحمَّلتْ [في « ديوانِهِ » ٧٩ـ٨٠ مِنَ البسيطِ] :

قَدْ كُنْتُ أَحْلِفُ جُهْدِيْ لاَ أُفَارِقُهَا ... أُفٍّ لِكَثْـرَةِ زَيْـفِ ٱلْقَـوْلِ وَٱلْحَلِـفِ

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ أَمْسَتْ مُجَاوِرَةً ... أَهْلَ ٱلْعَقِيْقِ وَأَمْسَيْنَا عَلَىٰ سَرِفِ[3]

حَـيٌّ يَمَـانُـوْنَ وَٱلْبَطْحَـاءُ مَنْـزِلُنَـا ... هَـٰذَا لَعَمْـرُكَ شَمْـلٌ غَيْـرُ مُـؤْتَلِـفِ

وَعن عمروِ بنِ دينارٍ قالَ [في « الأغاني » ٩/٢١٥] : قالَ الحسنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لذُريحٍ : أَحَلَّ لكَ أَنْ تفرِّقَ بينَ قيسٍ ولبنىٰ ، وقد قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ : ما أُبالي أَفرَّقتُ بينَ الرجلِ وٱمرأَتِهِ ، أَم مشيتُ إِليهما بالسيفِ !

---

(١) أنظر « الأغاني » (٩/ ٢١٢ـ٢١٤) .

(٢) الفَلَقةُ : شجرةٌ مرَّةٌ بـ(الحجاز) و(تهامةَ) ، والحبشةُ تسُمُّ بها السلاحَ فيقتلُ من أَصابهُ .

(٣) سَـرِفٌ : اسـم مـوضـعٍ يبعـدُ ستَّـةَ أميـالٍ عـن (مكَّـةَ) . والعقيـقُ : وادٍ بـ(اليمامة) . ومكان آخر بجوار (المدينة المنورة) .

لا عيب في الحبيب في نظر العاشق

ويروىٰ [في «الأغاني» ٩/٢٢٦] : أَنَّ أُمَّهُ أو الطبيبَ أَرسَلوا لهُ من يعيبُ لبنىٰ ، وقالوا : لاَ ينفعُهُ إِلاَّ ذكرُ مساوئها ، فقالَ [في «ديوانه» ٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا ٱلْبَدْرَ طَالِعًا وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ لَهَا شَبَهُ ٱلْبَدْرِ
لَقَدْ فُضِّلَتْ لُبْنَىٰ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ مِثْلَمَا عَلَىٰ ٱلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ

زواج لبنىٰ

ثُمَّ إِنَّ لُبنىٰ تزوَّجَتْ بـ(المدينةِ) ، فقصدَها قيسٌ ومعهُ إِبلٌ ، باعَ ناقةً منها لرجلٍ لا يعرفهُ ، فقالَ لهُ : وافني بالثمنِ غداً إِلىٰ دارِ كثيرِ بنِ الصَّلتِ ، فجاءَ وطرقَ البابَ ، فأدخلهُ وقد صنعَ له طعاماً ، وقام لبعضِ شأنهِ ، فقالتِ ٱلمرأَةُ لخادِمتها : سليهِ ما لوجهِهِ متغيِّراً شاحباً ؟

حال من فارق الأحباب

فتنفَّسَ الصُّعَداءَ ، وقالَ : هٰكذا حالُ من فارق الأَحبَّةَ ، فقالَت : ٱستخبريهِ عن أَمرهِ ؟ فشرعَ يحكي لها ، فرفعتِ الحجابَ ، وقالتْ : حَسبكَ ، قد عرفناكَ ، فبهتَ ساعةً لا ينطقُ ، ثُمَّ خرجَ علىٰ وجههِ ، فٱعترضهُ ٱلرجلُ ، فلم يكلِّمهُ ، فعرفَ أَنَّه قيسٌ[1] .

شفاعة ابن أبي عتيق لقيس

ولمَّا ٱشتدَّ بهِ الأَمرُ . قصدَ ٱبنَ أَبي عتيقٍ في ذلكَ ، وَكانَ من أَكثرِ أَهلِ زمانِهِ مروءَةً ، فجاءَ ٱبنُ أَبي عتيقٍ إِلىٰ الحسَنَيْنِ وقالَ لَهما : لي إِليكُما حاجةٌ ، قالاَ : ما هِيَ ؟ قالَ تسعداني علىٰ فلانٍ ـ لزوج لُبنىٰ ـ في حاجةٍ لي عندهُ ، فمَضَوا إِليهِ ، وكلَّموه ، فقالَ : سَلوا ما شِئتُم ، قالَ ٱبنُ أَبي عتيقٍ : ما كانَ بِلا ٱستثناءٍ ، قالَ : نعم ، قالَ : نُريدُ أَن تطلِّق لبنىٰ ولكَ ما شئْتَ عندِي ، قالَ :

(١) انظر «الأغاني» (٩/٢٣٧) .

أُشهدُكم أَنها طالقٌ ثلاثاً ، فٱستحيَوا منهُ ، وعوَّضَهُ الحسنُ مئَةَ أَلفِ درهمٍ ، وقالَ : لو علمتُ الحاجةَ ما جئتُ ، وٱنتقلَتْ لُبنىٰ إِلىٰ العِدَّةِ ، ثم ٱختلفَ الرواةُ :

الأقوال في عودة لبنىٰ لقيس

فمِن قائلٍ : أَنَّها أَكملت عدَّتها وأَنَّ قيساً تزوَّجَها وأَقامَتْ معهُ إِلىٰ الموتِ .

ومِنْ قائلٍ : أَنَّها ماتَتْ في العِدَّةِ ، وأَنَّهُ أَكبَّ علىٰ قبرها يبكي حَتَّىٰ أُغميَ عليهِ ، فرفعهُ أَهلهُ وهُوَ لا يعقلُ ، فلم يزلْ عليلاً لاَ يفيقُ ولا يجيبُ مكلِّماً حَتَّىٰ ماتَ بعدَ ثلاثٍ .

ومِنْ قائلٍ : أَنَّهم أَخفَوا عنهُ قبرَها فعرفهُ برائِحتهِ ، كما سبقَ ذكرُ ذلكَ[1] .

المعروف من ابن أبي عتيق الظرف

فإِنْ قيلَ : قد صحَّ أَنَّ ٱبنَ أَبي عتيقٍ قالَ لقيسٍ [كما في « المثل السائر » ٢٥٩/٢] : كفَّ عنْ بعضِ شكركَ لي علىٰ هـٰذا الصنيعِ ؛ لئَلاَّ يظنَّ مَنْ سمعَهُ أَنِّيْ قوَّادٌ[2] . وهـٰذا ينافي ما سبقَ منكَ في تبريرِ الناظمِ وأَبي نُوَاسٍ ، ودفعِ المعرَّةِ عمَّا زعمَ بعضهُمْ لصوقَها بهِ من كلامِهِم . . فالجوابُ ما عرفَ من حالِ ٱبنِ أَبي عتيقٍ وظرفهِ ونادرَته ولينِ جانبهِ ودماثةِ أَخلاقهِ ، فأَخرجها مخرجَ التندُّرِ والتمليحِ ، لا يريدُ بها حقيقةً ، ولا يخشى منها لوماً ، علىٰ أَنَّهُ يحتملُ أَنْ يريدَ منها هضمَ ٱلنفسِ ، وتلطيفَ الصنيعةِ ، فإِنَّها صالحةٌ لِذلكَ ، والصنيعةُ عظيمةٌ ، وهُوَ من ساداتِ التواضعِ ، وإِلاَّ فقد فعلَ ما هُوَ أَدنىٰ إِلىٰ اللَّومِ مِنْ ذلك ، ولم يبالِ :

---

(١) انظر « الأغاني » (٩/ ٢٥٢ـ٢٥٤) .

(٢) القوَّادُ : سمْسَارُ النساءِ .

من رسولي إلى الثريا؟

فإنَّه لمَّا سمعَ قولَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ [في « ديوانه » ١/ ١٠٦ مِنَ الخفيفِ] :

مَـنْ رَسُـوْلِـيْ إِلَـىٰ ٱلثُّـرَيَّـا فَـإِنِّـيْ ضِقْتُ ذَرْعَاً بِهَجْرِهَا، وَٱلْكِتَابِ[1]

. . قالَ إِيَّايَ عَنىٰ ، وبِيْ نوَّهَ ، وما حلاوةُ الحياةِ إِذا تكدَّرَ ما بينَ الثريَّا وَعمرَ ؟ وَشَخَصَ مِنْ فورِهِ إِلىٰ (مكَّةَ) و(الطائفِ) ، وأَصلحَ بينهُما ، ولم يخلطْ عملَه ذلكَ بنسكٍ قطُّ[2] .

طلحة الطلحات

ويذكرُ [كما في « النهاية » ٣/ ١٣١] : أَنَّ طلحةَ الطَّلَحَاتِ إِنَّما أُطلقَ عليهِ ذلِكَ اللقبُ ؛ لأَنَّهُ جمعَ بينَ مئَةِ عربيٍّ ومئةِ عربيَّةٍ بأَكملِ ٱلجهازِ وٱلصَّدَاقِ ، ووُلدَ لكلٍّ ولَدٌ سمَّاهُ طلحةَ .

أمنية الفاروق

ويرویٰ [كما في « مصارع العشاق » ١/ ٣٢٠] : أَنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ قالَ : لو أَدركتُ عروةَ وعفراءَ . . لَجمعْتُ بينَهما .

وبعضُ ما ذكرَ في هٰذهِ الأَخبارِ لا يساعدُ عليهِ التاريخُ ، والعهدةُ علىٰ الرواةِ ، ولاَ حاجةَ إِلىٰ البحثِ ؛ لانتخالِ الصحةِ ؛ لأَنَّها غيرُ مقصودَةٍ بالذَّاتِ .

الحسين يتزوج امرأة ليعيدها إلى زوجها

وقد فعلَ الحسينُ بنُ عليٍّ عليهما السلامُ ما لا يخرجُ عَنْ هٰذا الموضوعِ ؛ إِذْ تزوَّج علىٰ زينبَ[3] ـ أَرادَ زينبَ بنتَ إِسحاقَ ، مطلَّقةَ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ ـ وقالَ : ما أَردتُ إِلاَّ أَنْ أُحَلِّلها له ، كما في روايةٍ عنهُ بذلكَ .

ثواب من جمع بين اثنين

وفي الحديثِ « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . . كُنْتُ أَنَا وَإِيَّاهُ فِيْ ٱلْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ، وأَشارَ إِلىٰ أُصْبُعَيْهِ ٱلْوُسْطَىٰ وَٱلسَّبَّابَةِ »[4] .

---

(١) أي : أُقسِمُ بالكتابِ .

(٢) في « الأغاني » (١/ ٢٢٣) .

(٣) في بعض المصادر «أرينب».

(٤) لم نقف له على أصل فيما بين أيدينا من مصادر .

شفاعة زبيدة زوجة الرشيد لعاشقين في حجها وافتخارها بذلك

وقد أخذتْ بهٰذا زبيدةُ ٱبنةُ جعفرٍ زوجِ الرشيدِ في حديثِها المشهورِ ، وهُوَ : أنَّها رأت علىٰ حائطٍ في طريقِ (مكَّة) هٰذينِ البيتينِ [مِنَ الطويلِ] :

أَمَا فِيْ عِبَادِ اللهِ أَوْ فِيْ إِمَائِهِ ... كَرِيْمٌ يُجَلِّيْ ٱلْهَمَّ عَنْ ذَاهِبِ ٱلْعَقْلِ

لَهُ مُقْلَةٌ ، أَمَّا ٱلْمَآقِيْ فَقَرْحَةٌ ... وَأَمَّا ٱلْحَشَا فَٱلنَّارُ فِيْ طَيِّهَا تَغْلِيْ

فنذرتْ أَنْ تَجِدَّ في طلبِ قائِلهما ؛ حتَّىٰ تسرِّيَ عنهُ فإنَّها لَبِـ(المزدلفةِ) إذ سمعتْ مَن ينشدُهما ، فٱستدعتْ بهِ ، فزعمَ أَنَّ لهُ بنتَ عمٍّ يهواها ، وقد حلفَ أَهلهُ علىٰ أَنْ لاَ يزوِّجُوهُ مِنها ، فوجَّهَت إليهم ، وأَرغَبَتْهم بالمالِ ، حَتَّىٰ أَطلبوه ، وإِذا المرأَةُ أَعشقُ مِنَ ٱلرَّجلِ لهِ ، فكانتْ زبيدةُ تعدُّ ذلكَ مِنْ أَعظَمِ حسناتِها ، وتقولُ : ما سررتُ بشيءٍ من نفسي في حَجِّي ، سروري بِٱلْجَمْعِ بينَ الفتىٰ والفتاةِ .

من أفضل الشفاعات

وبعدَ هَـٰذَا تذكَّرتُ أَنَّ السيوطيَّ أَخرجَ في « جامعِهِ » مرفوعاً : « **إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ ٱلشَّفَاعَاتِ . . أَنْ تَشْفَعَ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ فِيْ نِكَاحٍ ، حَتَّىٰ تَجْمَعَ بَيْنَهُمَا** »[1] .

لكل مقام مقال

ثُمَّ للقرائنِ الحاليَّةِ حكمُها في تخصيصِ ٱلأَحكام ، كما هُوَ مقرَّرٌ في مواضعِهِ مِنَ ٱلأُصولِ والبيانِ ، ولَولا ٱعتبارُ ذلكَ . . لفسدَ الكلامُ ، وشملَ الملامُ ، فلا أُشنوعةَ فيما قالهُ الناظمُ ، ولاَ فيما قالهُ أَبُو نُوَاسٍ ، معَ بياضِ أَعراضِ الممدوحينَ ، أَمَّا لو كانَ أَحدُهم مَغْموصاً عليهِ ، أو متَّهماً بشيءٍ مِنَ ٱلقَاذوراتِ . . فإِنَّهُ يلحقُ القائِلَ

---

(١) أخرجه أبو بكر ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٥/ ٩٦) .

في ذلكَ مِنَ ٱلعيبِ ما لصقَ بأَبي النجمِ في قولِهِ لهشامٍ [في « خزانة الأدب » ١/٢١ مِنَ الرَّجز] :

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ كَأَنَّهَا فِيْ ٱلأُفْقِ عَيْنُ ٱلأَحْوَلِ

فلمْ ينلهُ الملامُ إلاَّ من سوءِ تحفُّظِهِ في مخاطبةِ الأَحولِ ، بما يقتضي ٱلتعريضَ بهِ ، فٱستحقَّ الحرمانَ من هٰذهِ الجهةِ ، لا من جهةِ قوَّة التشبيهِ وغرابتهِ ، فإِنَّهُ بديعٌ .

الخطأ في التقدير قد لا يحرم الثواب

ويروىٰ : أَنَّ بعضَ الشعراءِ تقدَّمَ إِلىٰ زبيدةَ زوجِ الرشيدِ فقالَ [مِن مجزوءِ الكاملِ] :

أَزُبَيْــــدَةُ ٱبْنَــــةَ جَعْفَــــرٍ طُــوبَــىٰ لِــزَائِــرِكِ ٱلْمُثَــابْ
تُعْطِيْــنَ مِــنْ رِجْلَيْــكِ مَــا تُعْطِــيْ ٱلأَكُــفُّ مِــنَ ٱلــرِّغَــابْ

فتبادرهُ العبيدُ ليوقعوا بهِ ، فقالتْ زبيدةُ : كفُّوا عنهُ ، فلمْ يردْ إلاَّ خيراً ، وإِنَّما سمعَ قولَهم : قفاكَ أحسنُ من وجهِ غيرِكَ ، وَشِمالكَ أندىٰ منْ يمينِ سِواكَ .

فقدَّر أَنَّ هٰذا مثلُه ، فأَعطُوهُ ما أَمِل ، وعرِّفوهُ ما جهلَ ، وما قالتْ ذاكَ ؛ إِلاَّ لبراءَةِ ذيلِها مِنَ ٱلتُّهَمِ ، ولو علِقتْ بها ريبةٌ . . لما تأَخَّرتْ عن إِراقةِ دمِهِ .

امسُكَ أَيمنُ من يومِه

وأَصلهُ : من قولِ النابغةِ للنعمانِ بنِ المنذرِ : أَيفاخرُك ذرٌّ فائشٌ ـ وأَنتَ سائسُ العَربِ ، وعروةُ الحسبِ والأَدبِ ؟ لأَمْسُكَ أَيمنُ من يومِهِ ، وعبدُكَ أَكرمُ من قومِهِ ، وقفاكَ أَحسنُ من وجههِ ، ويسارُكَ أَندىٰ من يمينهِ ، وظنُّك أَصدقُ من يقينهِ ، ووعدكَ أَثلجُ من رِفدهِ ، وخالُكَ أَشرفُ من جدِّهِ ، ونفسكَ أَمنعُ مِنْ جندِهِ ، ويومكَ أَزهرُ من دهرِهِ ، وفِتْرُكَ أَبسطُ من شبرِه .

وقولِ حسَّانَ لعمرِو بنِ ٱلحارثِ بنِ أَبي شمرٍ الغسَّانيِّ [في « جمهرة خطب العرب » ١/ ٣٢] : أَيفاخرك ٱبنُ المنذرِ اللَّخميُّ ، وقفاكَ خيرٌ من وجهِهِ ، وشمالُكَ خيرٌ من يمينهِ ، وأُمُّكَ خيرٌ من أَبيهِ ، ولطمتكَ خيرٌ من كلامِهِ ؟ في خطبةٍ طويلةٍ قالَ في آخرِها [في « الأغاني » ١٥/ ١٥٨ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

قفاك خير من وجهه

قَـذَالُـكَ أَحْسَـنُ مِـنْ وَجْهِـهِ وَأُمُّـكَ خَيْـرٌ مِـنَ ٱلْمُنْـذِرِ[1]

وَيُسْـرَىٰ يَـدَيْـكَ إِذَا أَعْسَـرَتْ كَيُمْنَـىٰ يَـدَيْـهِ فَـلاَ تَمْتَـرِي

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

الشعراء وهذا المعنى

بِـأَبِـي أَنْـتَ مِـنْ غَـزَالٍ غَـرِيْـرٍ بَذَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوْهِ حُسْنُ قَفَاكَا[2]

ولا شكَّ أَنَّ فيهِ ضميراً مستتراً ، يُعرَفُ مِمَّا ٱشتهرَ بهِ أَبو نُوَاسٍ .

وقال الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٥٣ـ١٥٤ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

فَـأَجْـوَدُ مِـنْ جُـوْدِهِـمْ بُخْلُـهُ وَأَحْمَـدُ مِـنْ حَمْـدِهِـمْ ذَمُّـهُ

وَأَشْـرَفُ مِـنْ عَيْشِهِـمْ مَـوْتُـهُ وَأَنفَـعُ مِـنْ وُجْـدِهُـمْ عُـدْمُـهُ

وها هنا فائدةٌ : وهيَ أَنَّ ٱبنَ الأَثيرِ ٱنتقدَ قولَ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

ابن الأثير ينتقد أبا نواس

أَصْبَحْتَ يَا ٱبْنَ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرٍ أَمَـلاً لِعَقْـدِ حِبَـالِـهِ ٱسْتِحْكَـامُ

وقولُهُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَيْـسَ كَجَـدَّتَيْـهِ أُمُّ مُـوْسَـىٰ إِذَا نُسِبَـتْ وَلاَ كَـٱلْخَيْـزُرَانِ

---

(١) القَذَالُ : جِماعُ مؤخَّرِ الرَّأْسِ .
(٢) بَذَّ : فاقَ .

ذكـر الأم فـي الشعـر القبيح

وقالَ : إِنَّ ذكرَ الأُمِّ هنا قبيحٌ ، وما أَوقعهُ في تلكَ العثرةِ إلاَّ قولُ جريرٍ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَتَبْنِي ٱلْمَجْدَ يَا عُمَرَ ٱبْنَ لَيْلَىٰ وَتَكْفِي ٱلْمُمْحِلَ ٱلسَّنَةَ ٱلْجَمَادَا

وأَمَّا قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « بَشِّرْ قَاتِلَ ٱبْنِ صَفِيَّةَ بِٱلنَّارِ »[1] . . فإِنَّما نسبهُ إِليها رفعاً بقدرهِ في قربِ نسبهِ .

رد المؤلف على ابن الأثير وميزان المسألة عنده

وأَقولُ : إِنَّ الأَمرَ ٱختلطَ عليهِ ، وكثيراً ما كانَ يخلطُ الحابلَ بالنابلِ ، ولو تدبَّرَ . . لعرفَ أَنَّ المدارَ علىٰ براءَةِ العرضِ ، وشرَفِ الحسَبِ ، فمَتَىٰ كانتْ شريفةً عفيفةً . . لم يقبحْ ذكرُها ، وقد قالَ هارونُ عليهِ السلامُ : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه : ٩٤] .

وكثيراً ما ينسُبُه مُدَّاحُهُ ـ عليهِ الصلاة والسلامُ ـ إِلىٰ آمنةَ ، مع أَنَّها ليسَت كعبدِ اللهِ في الشرفِ ، ولٰكنَّ الميزانَ ما ذكرنا ، ثُمَّ لم يكتفِ مُدَّاحهُ بنَسْبهِ إِلىٰ ٱمرأَةٍ واحدةٍ حَتَّىٰ نسبوهُ إِلىٰ عدَّةِ نساءٍ ، فقالوا : يا ٱبنَ العواتِكِ ، وما زالَ آلُ إِلياسَ فاخرينَ بالانتسابِ إِلىٰ خندفَ ، وأَولادُ فاطمةَ بهِ إِليها ، وكذلكَ الأَنصارُ بهِ إِلىٰ قَيْلَةَ ، وقال سَلْمٌ الخاسرُ يمدحُ الأَمينَ في حفلِ الرشيدِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

قَدْ بَايَعَ ٱلثَّقَلَانِ مَهْدِيَّ ٱلْهُدَىٰ لِمُحَمَّدِ ٱبْنِ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرِ

---

(١) أخرجه من قول علي المرتضى أحمد في « المسند » (٦٨١) بإسناد حسن ، وابن سعد (٣/١٠٥) ، وابن أبي شيبة (١٢/٩٣) وابن أبي عاصم في « السنة » (١٣٨٨) . وأورده ابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/٣١) .
وابن صفية : هو الزبير بن العوام ابن عمته ﷺ .
وفي الباب : نحوه عن عبد الله بن عمرو عند ابن عساكر في « التاريخ » كما في « كنز العمال » (٣٣٥٥٧) بلفظ : « قاتل ابن سمية في النار » .

وَلَّيْتَـهُ عَهْـدَ ٱلأَنَـامِ وَأَمْـرَهُـمْ   فَدَمَغْتَ بِٱلْمَعْرُوْفِ رَأْسَ ٱلْمُنْكَرِ

فٱستحقَّ بذلكَ مئةَ ألفِ درهمٍ .

وقالَ أشجع يمدح الأمينَ أيضاً [في « ديوانه » ١٩٦ مِنَ الكاملِ] :

مَلِـكٌ أَبُـوْهُ وَأُمُّـهُ مِـنْ نَبْعَـةٍ   فِيْهَـا سِـرَاجُ ٱلأُمَّـةِ ٱلْـوَهَّـاجُ

شَرِبَتْ بِمَكَّةَ فِيْ رُبَىٰ بَطْحَائِهَا   مَـاءَ ٱلنُّبُـوَّةِ لَيْـسَ فِيْـهِ مِـزَاجُ

فٱستحقَّ مثلَ سَلْمٍ .

فلا معابةَ في ذكرِ الأُمِّ علىٰ ما شرطناهُ مِنَ ٱلطهارةِ[1] ، إنما يكرهُ

---

(١) ليسَ الأمرُ كما ذكرَ الشيخُ المؤلِّفُ ـ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ـ بلِ الأمرُ كما قاله الشيخُ ابنُ الأثيرِ ـ رحمهُ اللهُ ـ ويؤيِّدُ ذلكَ ما قالهُ أبو الفتحِ الموصليُّ في كتابهِ « المثلُ السائرُ » :

وممَّا أُخِذَ علىٰ أبي نواسٍ قولُهُ :

أَصْبَحْتَ يَا ٱبْنَ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرٍ   أَمَـلاً لِعَقْـدِ حِبَالِـهِ ٱسْتِحْكَـامُ

فإنَّ ذكرَ ٱسمِ أُمِّ الخليفةِ في مثلِ هذا الموضعِ قبيحٌ ، وهذا لغوٌ مِنَ الحديثِ لا فائدةَ فيهِ ، فإنَّ شرفَ الأنسابِ إنَّما هوَ إلىٰ الرجالِ لا إلىٰ النساءِ . ويا ليتَ شعري ، أَما سمعَ أبو نواسٍ قولَ قتيلةَ بنتِ النضرِ في النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ :

أَمُحَمَّـدٌ وَلأَنْـتَ نَجْـلُ كَـرِيْمَـةٍ   مِنْ قَوْمِهَا وَٱلْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

فإنَّها ذكرتِ الأُمَّ بغيرِ ٱسمِ الأُمِّ وأبرزتْ هذا الكرمَ في هذا اللباسِ الأنيقِ .

وكذلكَ فليكنِ المادحُ إذا مدحَ وأبو نواسٍ معَ لطافةِ طبعهِ وذكائهِ وما كانَ يوصفُ بهِ مِنَ الفطنةِ ـ قد ذهبَ عليهِ مثلُ هذا الموضعِ معَ ظهورهِ ـ .

وليسَ لقائلٍ أن يعترضَ علىٰ ما ذكرتُهُ بقولهِ تعالىٰ : حكايةً عَن موسىٰ وأخيهِ هارونَ عليهما السلامُ : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ [طه : ٩٤] فإنَّ الفرقَ بينَ الموضعينِ ظاهرٌ ؛ لأنَّ المنكرَ علىٰ أبي نواسٍ إنَّما هوَ التلفُّظُ =

أَنْ ينسبَ إِلىٰ أُمِّه مَنْ كانَ علىٰ مثلِ حالِ زيادٍ[1] .

حتَّىٰ لقد أَرادتْ عائِشةُ ـ حبيبةُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ

= باسمِ الأُمِّ وهيَ زبيدةُ ، وكذلكَ أسمِ الجدَّةِ وهيَ الخيزرانُ ، وليسَ كذلكَ ما وردَ في الآيةِ .

فإن قيلَ : قد ورد في القرآنِ الكريمِ ما يسوِّغُ لأَبي نواسٍ مقالتَهُ ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١١٠] فناداهُ بأَسمِ أُمِّهِ . . قلتُ : الجوابُ عَن ذلكَ مِن وجهينِ :

أَحدِهِما : أَنَّ سيِّدَنَا عيسىٰ عليهِ السلامُ لم يكنْ لهُ أَبٌ ، فنوديَ بأسمِ أُمِّهِ ضرورةً ؛ إِذْ لو كانَ لهُ أَبٌ . . لنوديَ بأسمِ أَبيهِ .

الوجهُ الآخرُ : أَنَّ هذا النداءَ مِنَ الأَعلىٰ إِلىٰ الأَدنىٰ ؛ إِذِ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ هوَ الربُّ ، وعيسىٰ عليهِ السلامُ عبدُهُ ، وهذا لا يكونُ تفريطاً ؛ لأَنَّهُ لم يعبِّرْ عنْهُ بما هوَ دونَ منزلتِهِ .

ثمَّ أَلا ترىٰ أَنَّ العربَ كان يعيِّرُ بعضُها بعضاً بنسبةِ الإنسانِ إِلىٰ أُمِّهِ دونَ أَبيهِ ، أَلا ترىٰ أَنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يقالُ لهُ : أبنُ حَنْتَمَةَ ، وإِنَّما كانَ يقولُ ذلكَ مَن يَغُضُّ مِنْهُ .

وأَمَّا قولُ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ للزبيرِ أبن صفيَّةَ : « بَشِّرْ قَاتِلَ ٱبْنِ صَفِيَّةَ بِٱلنَّارِ » . فَإِنَّ صفيَّةَ كانت عمَّةَ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وإِنَّما نسبَهُ إِليها رفعاً لقدرِهِ في قربِ نسبهِ منهُ ، وأَنَّهُ أبنُ عمَّتِهِ ، وليسَ هذا كالأَوَّلِ في الغَضِّ مِن سيِّدِنا عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ في نَسَبِهِ إِلىٰ أُمِّهِ .

وأَمَّا في نسبتِهِم النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إِلىٰ أُمِّه أَو عمَّاتِهِ فللبيانِ ليسَ غيرُ . ويؤيدُ ذلكَ استشكالُ المؤلفِ بعدَ سطورٍ على الفرزدق . والله أعلم .

(١) زياد : يعرف بـ : ابن أبيه أمير من الدهاة والقادة الفاتحين من أهل (الطائف) والدته سمية جارية الحارث بن كلدة ، واختلفوا في أبيه ، فقيل : عبيد الثقفي ، وقيل : أبو سفيان ، وأدرك النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ولم يره ، توفي سنة : (٥٣ هـ) .

وسلَّمَ ورضيَ عنها ـ أَنْ تكتبَ إِليهِ في غرضٍ عَنَّ لها ، فلم تدرِ ما تقولُ ، وتحيَّرَتْ في ذلكَ زماناً ، حَتَّىٰ آنحطَّ رَأْيُهَا علىٰ أَنْ تقولَ [في « الكامل » ٣/ ٣٠٢] : مِنْ أُمِّ المؤمنينَ إِلىٰ آبنِها زيادٍ ، فلمَّا وردهُ الكتابُ . . قالَ : لقد لاقَتْ أُمُّ المؤمنينَ عناءً مِن هـٰذا العنوانِ .

وأَنا في إِشكالٍ بعدُ مِنْ إِضرابِ الفرزدقِ عن رثاءِ زوجِهِ ، حَتَّىٰ آضطرُّوا لِرَائِيَّةِ جرير في آمرأَتِهِ ، وهِيَ المستهلَّةُ بقولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ٨٦٢ مِنَ الكاملِ] :

لَوْلاَ ٱلْحَيَاءُ لَهَاجَنِي ٱسْتِعْبَارُ وَلَـزُرْتُ قَبْـرَكِ وَٱلْحَبِيْـبُ يُـزَارُ

ثُمَّ إِنْ علَّلتَهُ بالتجلُّدِ وإِظهارِ الشدَّةِ . . فإِنَّما يكونُ عذراً عمَّا لا يحسنُ ، كالجزعِ في ٱلمَلأ ، بخلافِ الشِّعرِ الذي يجوزُ ويحسنُ فيهِ ما لا يجوزُ ولا يحسنُ في غيرِهِ ـ حسبَما قرَّرناهُ أَوائِلَ المجلسِ ـ وإِنْ علَّلناهُ بالقسوةِ كَمَا أَسلَفنا القولَ فيهِ ثَمَّ عندَ إِيرادِ قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَفْنِ سِلاَحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَدَيْهِ ٱلْبَوَاكِيَا

. . فكثيراً ما يختلفُ حالُ الأَزواجِ ، بقرينةِ أَنَّهُ بعثَ هُنا البواكيَ ، ولا يصحُّ أَنْ نعلِّلَهُ بالغَيْرةِ علىٰ آسمِهَا لمناقضَتهِ بمثلِ قولِهِ [مِنَ الوافرِ] :

نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ ٱلْكُسَعِـيِّ لَمَّـا غَـدَتْ مِنِّـي مَطَلَّقَـةً نُـوَارُ
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَـآدَمَ حِيْـنَ أَخْـرَجَـهُ ٱلضِّـرَارُ

معَ أَنَّ الحنينَ في إِثرِ المطلَّقةِ أَلْوَمُ ، وأَدلُّ منهُ علىٰ الضعفِ في إِثرِ القاضيَةِ .

وهلْ مِن مانعٍ أَنْ نعلِّلَ سكوتَه بفرطِ الوجدِ ؟ فكثيراً ما يتصعَّدُ معهُ الكلامُ ، وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبريِّ » ٤/ ١٩٥ مِنَ الكاملِ] :

ٱلْحُبُّ مَا مَنَعَ ٱلْكَلَامَ ٱلأَلْسُنَا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [مِنَ الكاملِ] :

عَشِيَّةَ مَا لِيْ حِيلَةٌ غَيْرَ أَنَّنِيْ ... بِلَقْطِ ٱلْحَصَىٰ وَٱلْخَطِّ فِيْ ٱلتُّرْبِ مُوْلَعُ

ومنهُ البيتُ الآتي أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، عندَ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ ... فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

الحزن يخرس الألسنة

ولكَمْ أَخرسَ ٱلحُزنُ مِنْ مَقاولَ ، منهمُ ٱبنُ الزُّبيرِ يومَ نعىٰ إِلىٰ النَّاسِ ٱلمُصعبَ .

الثناء على جرير

أَمَّا ٱبنُ ٱلمَراغةِ[1] : فقد أَخذَ بأَطرافِ ٱلكمالِ في قولِهِ : (لَوْلاَ ٱلْحَيَاءُ . .) ؛ إِذْ لَمْ يمنعهُ ٱلحياءُ عَنْ مُجرَّدِ إِرسالِ الدُّموعِ ، وإِنَّما منعَهُ عَنِ ٱلاختناقِ بٱلعَبَراتِ .

وٱلكلامُ في ٱلموضوعِ يطولُ ، فإِلىٰ آونةٍ أُخرىٰ .

المراد من هذا البحث نفي مذمة الشفاعة عند العاشقين

وبعدُ : فإِنِّي لاَ أُريدُ بشيءٍ مِمَّا أَطلتُ فيهِ الثَّناءَ علىٰ بيتِ النَّاظمِ الَّذي بينَ أَيدينا ، فإِنَّني أَعترفُ بأَنَّهُ كلاحِقِهِ مِنْ أَتفهِ الشِّعرِ وأَرذَلِهِ ، ولٰكنَّني أُحاولُ دفعَ ما زعموهُ مِنْ مذمَّةِ الشَّفاعةِ في مِثْلِهِ ، لأَنَّهُ باللازمِ غضٌّ مِنْ هديِ سيِّدِ ٱلمُرسلينَ ، وأَقدسِ الطَّاهرينَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ،

(١) ٱبنُ المَراغةِ : جريرٌ الشَّاعرُ ، والمَراغةُ : لقبٌ لقَّبَ ٱلفرزدقُ بهِ أُمَّ جريرٍ ؛ لأَنَّها وُلِدَتْ في مَراغة ، والمراغةُ هيَ المكانُ الَّذي تتمرَّغُ ـ ترعىٰ ـ فيه الإِبلُ .

السجال بين ابن حجر والإمام العيني

ولا تَعَلُّ[1] مِنْ ذلكَ تحمىٰ ٱلأنوفُ ، وترعَفُ ٱلأقلامُ والسُّيوفُ .

وقد أفتىٰ شيخُ ٱلإسلامِ ٱلحافِظُ ٱبنُ حَجَرٍ ٱلعسقلانيُّ بتعيُّنِ مُؤاخذةِ ٱلإمامِ ٱلعَينيِّ مؤاخذةً عظيمةً لِمَا هوَ أدنىٰ بكثيرٍ منهُ .

ولا بأسَ بٱقتصاصِهِ ، وهوَ : أنَّ ٱلمَلِكَ ٱلمؤيَّدَ بنىٰ جامعاً بـ(مصرَ) ، وأعلىٰ منارتَهُ ، فسقطَتْ ، فقالَ ٱلحافِظُ مُعرِّضاً بٱلعَينيِّ : لِما بينَهُ وبينَهُ ممَّا يكونُ بينَ ٱلمُتعاصِرينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِجَامِعِ مَوْلاَنَا ٱلْمُؤَيَّدِ رَوْنَقٌ ... مَنَارَتُهُ تَزْهُوْ مِنَ ٱللُّطْفِ وَٱلزَّيْنِ
تَقُوْلُ وَقَدْ مَالَتْ عَلَيْنَا: تَعَجَّبُوْا ... فَلَيْسَ عَلَىٰ حُسْنِيْ أَضَرُّ مِنَ ٱلْعَيْنِ

قالَ ٱبنُ حجَّةَ : ولَمْ يكُنِ ٱلعَينيُّ يُحسِنُ النَّظمَ ، فدفعَ للنواجيِّ دراهمَ ، فنظَمَ لَهُ هـٰذينِ ٱلبيتينِ [مِنَ البسيطِ] :

مَنَارَةٌ كَعَرُوْسِ ٱلْحُسْنِ إِذْ جُلِيَتْ ... وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ ٱللهِ وَٱلْقَدَرِ
قَالُوْا: أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ، قُلْتُ : ذَا خَطَأٌ ... مَا آفَةُ ٱلْهَدْمِ إِلاَّ خِسَّةُ ٱلْحَجَرِ

فتقدَّمَ ٱلحافِظُ بفتواهُ ، وقالَ : إنَّهُ أنكرَ ما أثبتَهُ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « إِنَّ ٱلْعَيْنَ حَقٌّ »[2] .

والحالُ أنَّ ٱلعَينيَّ لَمْ يُرِدْ إنكارَ أحقيَّةِ ٱلعينِ ، وإنَّما أنكرَ خصوصَ ٱنهدامِ ٱلمَنارةِ بها ، ولا حرجَ في ذلكَ .

ليس الإفراط من الدين

وأكبرُ مِنْ ذلكَ ما ٱدَّعاهُ أبو بكرٍ ٱبنُ ٱلعربيِّ مِنْ إفتائِهِ بقتلِ رجلٍ

---

(1) تعَلُّ : تبقىٰ وتظلُّ .

(2) القصةُ بنحوها في « شذرات الذهبِ » (٤/ ١٤٥) ، والحديثُ أخرجَهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه ٱلبخاريُّ (٥٧٤٠) في الطب .

كَرِهَ الأَحمرَ ، وقالَ : لأَنَّهُ كَرِهَ لبسةً لبسَها رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ[1] ، وذُكِرَ أَنَّهُ قُتِلَ بفتواهُ ، مع أَنَّ في ٱلمسأَلةِ تفصيلاً ، ولا يُحصىٰ كثرةُ مَنْ قالَ بكراهةِ ٱلأَحمرِ ٱلبحتِ ، وحَمَلوا حمرةَ حُلَّتهِ ـ عليهِ السَّلامُ ـ علىٰ التَّخطيطِ .

نعوذُ بٱللهِ مِنَ ٱلإفراطِ وٱلتَّفريطِ .

إلمـــام المتنبـــي بالموضوع

والحاصِلُ : أَنْ لا ٱعتراضَ مِنْ حيثُ المعنىٰ علىٰ النَّاظمِ ، ولئِنْ أَغثَّ وأَخلَّ بٱلبلاغةِ في هـٰذا البيتِ . . فقد أَجادَ في بعضِ المعنىٰ ؛ إذ يقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أُحِبُّ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُوْ إِلَىٰ مَنْ لاَ يُصَابُ لَهُ شَكْلُ[2]

وهـٰذا هُوَ الَّذي يشبهُ بيتَ أَبي نُوَاسٍ السَّابقَ ، وكانَ مِن واجبِ الشَّارحِ التَّنبيهُ عليهِ ، ففاته .

من غرائب المتنبي

ومِن غرائِبِ الناظمِ في تناقضهِ ، أَنَّهُ بينَا هُوَ يطلبُ الشَّفاعةَ إِلىٰ المحبوبِ . . إِذِ ٱنقلبَ عليهِ الموضوعُ ، فصارَ شافعاً ، ونَصَّبَ ممدوحَهُ للريبةِ ، وسلكَ مسلكَ القيادةِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٠٢ـ٣٠٣ مِنَ الكاملِ] :

لَــوْ أَنَّ فَنَّــاخُسْــرَ صَبَّحَكُــمْ ... وَبَرَزْتِ وَحْدَكِ عَاقَهُ ٱلْغَزَلُ[3]

---

(١) لحديث البراء بن عازب عند البخاري (٥٠٩١) في اللباس ، قال : (ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ) والترمذي في « الشمائل » (٦٥) ، والنسائي (٥٠٦٠) في الزينة .

(٢) الشَّكْلُ : الشبيهُ والنظيرُ .

(٣) فَنَّاخُسْرَ : من أَسماءِ الديلمِ ، وهوَ ٱسمُ عضُدِ الدولةِ .

وَتَفَـرَّقَـتْ عَنْـهُ كَتَـائِبُـهُ   إِنَّ ٱلْمِـلاَحَ خَـوَادِعٌ قُتُـلُ(1)
مَـا كُنْـتِ فَـاعِلَـةً وَضَيْفُكُـمُ   مَلِكُ ٱلْمُلُوْكِ وَشَأْنُكِ ٱلْبَخَلُ
أَفَتَمْنَعِيْـنَ قِـرَىً فَتَفْتَضِحِـيْ   أَمْ تَبْـذُلِيْـنَ لَـهُ ٱلَّـذِي يَسَـلُ
بَـلْ لاَ يَحُـلُّ بِحَيْـثُ حَـلَّ بِـهِ   بُخْـلٌ وَلاَ جَـوْرٌ وَلاَ وَجَـلُ

فهوَ إِذاً علىٰ عكسِ قولِ المجنونِ [في « ديوانه » ١٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَضَىٰ زَمَنٌ وَٱلنَّاسُ يَسْتَشْفِعُوْنَ بِيْ   فَهَلْ لِيْ إِلَىٰ لَيْلَىٰ ٱلْغَدَاةَ شَفِيْعُ ؟

* * *

(1) في « العكبري » : (عَنْكُمْ) بدل (عَنْهُ) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٦ مِنَ البسيطِ] :

أَيْقَنْتُ أَنَّ سَعِيْداً طَالِبٌ بِدَمِيْ   لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلا[1]

إن سفكت الحبيبة دم العاشق أُخِذ له بثأره

نقلَ الشارحُ عنِ ٱلواحديِّ أَنَّهُ مِنْ قولِ المؤَمَّلِ [في « الأغاني » ٢٢/ ٢٥٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمَّا رَمَتْ مُهْجَتِيْ قَالَتْ لِجَارَتِهَا   إِنِّيْ قَتَلْتُ قَتِيْلاً مَا لَهُ خَطَرُ[2]

قَتَلْتُ شَاعِرَ هَـٰذَا ٱلْحَيِّ مِنْ مُضَرٍ   وَٱللهِ وَٱللهِ مَا تَرْضَىٰ بِذَا مُضَرُ

أَقولُ : وشتَّانَ ما بينَهما ، فإِنَّهما وإِنْ ٱتفقا في جنسِ ٱلمعنىٰ . . فقدِ ٱختلفا في نوعهِ ، ومِن هنا جاءَ تفاوتُ ٱلقيمةِ ؛ إِذِ ٱلمؤَمَّلُ يدَّعي أَنَّها قالَتْ ذلكَ ، وهُوَ جميلٌ ، والناظمُ يقولُ ذلكَ من قِبلِ نفسهِ ، وهِيَ حطَّةٌ وقلَّةُ أَدبٍ ، غيرَ أَنَّها لاَ تنكرُ معَ مثلِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤١ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

أَيَـا خَـدَّدَ ٱللهُ وَرْدَ ٱلْخُـدُوْدِ   وَقَدَّ قُدُوْدَ ٱلْحِسَانِ ٱلْقُدُوْدِ[3]

وقد أَنكروا علىٰ الفرزدقِ قولَهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٧٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

يَا أُخْتَ نَاجِيَةَ بْنِ سَامَةَ إِنَّنِيْ   أَخْشَىٰ عَلَيْكِ بَنِيَّ إِنْ طَلَبُوْا دَمِيْ

---

(١) الاعتقالُ : هوَ أَن يحملَ الرجلُ رمحهُ بينَ ساقهِ وركابهِ .

(٢) الخطرُ : الدِّيةُ والعِوَض .

(٣) خدَّدَ : شقَّقَ . قدَّ : قطع . القدودُ ـ جمعُ قدٍّ ـ : وهوَ القامةُ . والمعنىٰ : أَنَّهُ دعا علىٰ وردِ الخدودِ أَن يشقِّقَهُ اللهُ ويزيلَ حسنَهُ ، وأَن يقطِّعَ قدودَ الحسانِ ، وهوَ دعاءٌ علىٰ التعجُّبِ والاستحسانِ ، كقولِ جميلٍ الآتي :

رَمَىٰ اللهُ فِيْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِـالْقَـذَىٰ   وَفِيْ الْغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِالْقَوَادِحِ

وقولَ الآخرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِيَ فَاطْلُبَا ... دَمِيْ مِنْ سُلَيْمَىٰ وَٱطْلُبَا بِجَمِيْلِ

وقولَ قيسِ بنِ ذريحٍ [في « ديوانه » ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

خُذُوْا بِدَمِيْ إِنْ مِتُّ كُلَّ خَرِيْدَةٍ ... مَرِيْضَةِ جَفْنِ ٱلْعَيْنِ وَٱلطَّرْفُ فَاتِرُ[١]

وقولَ جميلٍ [في « ديوانه » ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَىٰ اللهُ فِيْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِٱلقَذَىٰ ... وَفِيْ ٱلغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِٱلْقَوَادِحِ[٢]

قتيلنا لا يودىٰ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ جندبٍ : خرجتُ مرةً فرأَيتُ جماعةً بينهم فتاةٌ ، كأَنَّها منحوتةٌ من فضَّةٍ ، فتمثلتُ بقولِ قيسِ بنِ ذُريحٍ : (خُذوا بِدَمِيْ إِن مِتُّ). . . البيتِ ، فقالتِ ٱلمرأَةُ يا ٱبنَ جندبٍ : إِنَّ قَتِيلَنا لاَ يُودىٰ ، وأَميرَنا لا يُفدىٰ .

قتيل الهوىٰ هَدَر

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ : (قتيلُ ٱلهوىٰ هَدَرٌ ، لاَ عقلَ ولاَ قَوَدَ)[٣] .

ما هي دية قتيل العشق عند الشعراء؟!

قال أبو حيَّةَ النُّميريُّ [في « ديوانه » ٨٦-٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَيْنَ فَأَقْصَدْنَ ٱلْقُلُوْبَ وَمَا نَرَىٰ ... دَماً مَائِراً إِلاَّ جَوَىً فِيْ ٱلْحَيَازِمِ[٤]

وَلَٰكِـنْ لَعَمْـرُ ٱللهِ مَـا طَـلَّ مُسْلِمـاً ... كَغُرِّ ٱلثَّنَايَا وَاضِحَاتِ ٱلْمَلاَغِمِ[٥]

---

(١) الخريدَةُ : البكرُ الحييَّةُ ، الطويلَةُ السكوتِ . والطرفُ الفاترُ : الذي ليسَ بحادِّ النظرِ .

(٢) الغُرُّ : البيضُ . الأنيابُ : الأسنانُ . القوادحُ : السوادُ الذي يظهرُ في الأسنانِ أَو آفاتُ الأَسنانِ .

(٣) لم أقف عليه . هدَرٌ : مباحٌ . العقلُ : الديةُ . القودُ : القصاصُ .

(٤) المائرُ : السائلُ .

(٥) الملاغِمُ من كُلِّ شيءٍ : الأَنفُ والفمُ والأَشداقُ .

وَإِنَّ دَماً لَو تَعْلَمِيْنَ جَنَيْتِهِ   عَلَىٰ ٱلْحُرِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمِ

وقالَ جميلٌ [في « ديوانه » ٦٢-٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قُلْتُ : مَا بِيْ يَا بُثَيْنَةُ قَاتِلِيْ   مِنَ ٱلْحُبِّ قَالَتْ : ثَابِتٌ وَيَزِيْدُ

وَإِنْ قُلْتُ : رُدِّيْ بَعْضَ عَقْلِيْ أَعِشْ بِهِ   مَعَ ٱلنَّاسِ قَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيْدُ

جَزَتْكِ ٱلْجَوَازِيْ يَا بُثَيْنُ سَلاَمَةً   إِذَا مَا خَلِيْلٌ بَانَ وَهْوَ حَمِيْدُ

يَقُوْلُوْنَ : جَاهِدْ يَا جَمِيْلُ بِغَزْوَةٍ   وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيْدُ

لِكُلِّ حَدِيْثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ   وَكُلُّ قَتِيْلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيْدُ

ولقد أَحسنَ مسلمُ بنُ ٱلوليدِ في قولِهِ [في « مصارع العشاق » ١/٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَدِيْرَا عَلَيَّ ٱلْكَأْسَ لاَ تَشْرَبَا قَبْلِيْ   وَلاَ تَطْلُبَا مِنْ عِنْدِ قَاتِلَتِيْ ذَحْلِيْ[1]

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ وَاحِدٍ   تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ ٱلْمُقَيَّدِ فِيْ ٱلْوَحْلِ[2]

وقالَ الحسينُ بنُ الضحاكِ [مِنَ الوافرِ] :

غَزالٌ مَا ٱجْتَلاَهُ ٱلطَّرْفُ إِلاَّ   تَحَيَّرَ فِيْ مَلاحَةِ وَجْنَتَيْهِ

خُذُوْا بِدَمِيْ مَحَاسِنَهُ وَخُصُّوْا   مُقَبَّلَهُ وَبَرْدَ ثَنِيَّتَيْهِ[3]

عذاب الحب للعشاق عذب

وممَّا يشبهُ هٰذا النوعَ ـ وليسَ بهِ ـ قولُ أَحمدَ بنِ يوسفَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱلْمَوْتِ لِيْ مِنْ لَوْعَةِ ٱلْحُبِّ رَاحَةٌ   وَلَـٰكِنَّنِيْ أَخْشَىٰ نَدَامَتَهَا بَعْدِيْ

---

(١) الذَّحلُ : الثأرُ .

(٢) الذُّؤابةُ من كلِّ شيءٍ : أعلاهُ .

(٣) الثنايا : الأسنان .

وقالَ المجنونُ [في «ديوانه» ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُولُوْنَ: لَيْلَىٰ عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا ... أَلاَ حَبَّذَا ذَاكَ ٱلْحَبِيبُ ٱلْمُعَذِّبُ

وقالَ [في «ديوانه» ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

تَشَكَّىٰ ٱلْمُحِبُّوْنَ ٱلْغَرَامَ وَلَيْتَنِيْ ... تَحَمَّلْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِيْ

فَكَانَتْ لِنَفْسِيْ لَذَّةُ ٱلْحُبِّ كُلُّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِيْ مُحِبٌّ وَلاَ بَعْدِيْ

وقالَ إبراهيمُ بنُ العبَّاسِ [مِنَ الوافرِ] :

بِنَفْسِيْ مَنْ إِسَاءَتُهُ ٱعْتِمَادُ ... وَمَنْ إِحْسَانُهُ مِنْ غَيْرِ عَمْدِ

وَمَنْ أَصْفَيْتُهُ فِيْ ٱلْوُدِّ جُهْدِيْ ... فَعَارَضَ فِيْ ٱلْجَفَاءِ بِمِثْلِ جُهْدِيْ

وقالَ أبو العتاهيَةِ [في «ديوانه» ٤٩٩ مِنَ البسيطِ] :

وَلِيْ فُؤَادٌ إِذَا طَالَ ٱلْعَذَابُ بِهِ ... هَامَ ٱشْتِيَاقاً إِلَىٰ لُقْيَا مُعَذِّبِهِ

وقالَ ٱبنُ وَكيعٍ [مِنَ المُجْتَثِّ] :

إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِيْ ... وَأَنْتَ بِيْ لاَ تُبَالِيْ

فَصَارَ قَلْبُكَ قَلْبِيْ ... وَصِرْتَ فِيْ مِثْلِ حَالِيْ

بَلْ عِشْتَ فِيْ طِيْبِ عَيْشٍ ... تَفْدِيْكَ نَفْسِيْ وَمَالِيْ

دَعَوْتُ إِذْ ضَاقَ صَدْرِيْ ... عَلَيْكَ ثُمَّ بَدَا لِيْ

وقالَ آخرُ [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

أَيُّهَا ٱلْمُعْرِضُ صَفْحاً ... عَنْ خِطَابِيْ وَجَوَابِيْ

لاَ أَرَانِيْ ٱللهُ مَوْتِيْ ... أَوْ يُرِيْنِيْ بِكَ مَا بِيْ

رَبِّ فَٱجْعَلْهُ دُعَاءً ... خَائِباً غَيْرَ مُجَابِ

رَقَّ قَلْبِيْ أَنْ يَرَىٰ قَلْـ ... ـبَكَ فِيْ مِثْلِ عَذَابِيْ

وَقال الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣ مِنَ الطَّويلِ] :

سُهَادٌ أَتَانَا مِنكَ فِي ٱلْعَيْنِ عِنْدَنَا رُقَادٌ ، وَقُلاَّمٌ رَعَىٰ سِرْبُكُمْ نَدُّ[1]

وقال [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَنىً فِيْ ٱلْهَوَىٰ كَٱلسُّمِّ فِي ٱلشَّهْدِ كَامِناً لَذِذْتُ بِهِ جَهْلاً وَفِيْ لَذَّتِيْ حَتْفُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَٱلْعِشْقُ كَٱلْمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ لِلْمُبْتَلَىٰ وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ[2]

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٤ مِنَ البسيطِ] :

مَا بَيْنَ مُعْتَرَكِ ٱلأَحْدَاقِ وَٱلْمُهَجِ أَنَـا ٱلْقَتِيْـلُ بِـلاَ إِثْـمٍ وَلاَ حَـرَجِ

أقسام الناس في الثأر

وحاصلُ ما سقناهُ منَ ٱلأشعارِ ، أَنَّ الناسَ أَقسامٌ :

١ـ قسم يطلبون

منهُم : من ضلَّ وغوىٰ ، وطلبَ الثأرَ في الهوىٰ ، وفي مقدِّمتِهم النَّاظمُ وشاعرُ (المعرَّةِ) في قولِهِ [في « سقطِ الزند » ٢٥٦ـ٢٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسَـرْتِ أَخَـانَـا بِـالْخِـدَاعِ وَإِنَّـهُ يُعَـدُّ إِذَا ٱشْتَـدَّ ٱلْـوَغَـىٰ بِقَبِيْـلِ
فَإِنْ تُطْلِقِيْهِ تَمْلِكِيْ شُكْرَ قَوْمِهِ وَإِنْ تَقْتُلِيْـهِ تُـؤْخَـذِيْ بِقَتِيْـلِ

٢ـ قسم رضي بالمقام الذي هو فيه

ومِنهُم : مَن عرفَ رقَّهُ ، ووفَّىٰ الأَدَبَ حقَّهُ ، وٱعترفَ أَنَّ جنايتَهُ جُبارٌ[3] ، ورضيَ لدمِهِ بالإِهدارِ ، لأَنَّهُ بالحقيقةِ إِنَّما جنىٰ علىٰ نفسِهِ بطرفِهِ ، وقطعَ مارنَ أَنفهِ بكفِّهِ .

---

(١) القُلاَّمُ : نبتٌ خبيثُ الرائحةِ . النَّدُّ : عودٌ طيِّبُ الرائحة يُتَبَخَّرُ بهِ . والمعنىٰ : السهادُ إذا كان لأجلِكم . . رقادٌ عندنا ، والقُلاّمُ على خُبث ريحِهِ إذا رعتْه إبلُكم . . صار كالندِّ عندنا ، وروايةُ « الديوانِ » (ورد) .

(٢) الحوباءُ : النفسُ .

(٣) جُبارٌ : هَدَرٌ ، ومنه حديث : « جرح العجماء جبار » . العجماء : الدابة .

القتيل القاتل!!

ولله درُّ الناظمِ في قولهِ [« العُكبَريّ » ٣/ ٢٥٠ مِنَ الكاملِ] :

وأنَا ٱلَّذِيْ ٱجْتَلَبَ ٱلْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ   فَمَنِ ٱلْمُطَالِبُ وَٱلْقَتِيْلُ ٱلْقَاتِلُ ؟!

٣ـ قسم يطالب ثم يعفو

ومنهُم : مَن جاشَتْ نفسهُ فأنَّت، ثُمَّ رجعت إلىٰ معروفِها فاطمأنَّتْ .

٤ـ قسم يستعذب العذاب

ومنهُم : مَنِ ٱستعذَبَ العذابَ ، وتحمَّلَ الكَلَفَ حَتَّىٰ ٱنذاب ، وهـٰؤلاءِ هُمُ ٱلْجَمَّاءُ الغفيرُ[1] كما سبقَ ، ويأْتي منهُ الطيِّبُ الكثيرُ .

أحوال سلطان العاشقين

أَمَّا سلطانُ العاشقينَ : فتارةً يستعذبُ غيرَ البعدِ ، كما في قولهِ [في « ديوانهِ » ١٤٥ مِنَ البسيطِ] :

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ ٱلْبُعْدِ عَنْكَ تَرَىٰ   أَوْفَىٰ مُحِبٍّ بِمَا يُرْضِيْكَ مُبْتَهِجِ

وأُخرىٰ يستلينُ ما سوىٰ القِلىٰ والبغضِ ، فيقولُ [في « ديوانهِ » ١٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلصَّدُّ إلاَّ ٱلْوُدُّ مَا لَمْ يَكُنْ قِلىً   وَأَصْعَبُ شَيءٍ غَيْرُ إِعْرَاضِكُمْ سَهْلُ

وقد تتلاشىٰ الأَغراضُ ، فيسهلُ عندَهُ حَتَّىٰ الإِعراضُ ، كما في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَكُلُّ ٱلَّذِي تَرْضَاهُ وَٱلْمَوتُ دُونَهُ   بِهِ أَنَا رَاضٍ وَٱلصَّبَابَةُ أَرْضَتِ

ذو النون المصري يقدم العراق ليأخذ بثأر أحد تلاميذه

وممَّا يتَّصلُ بحديثِ البيتِ ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكَان [في « وفيات الأعيان » ١/ ٣١٦ـ٣١٧] : أَنَّ أَحدَ تلاميذِ ذي النونِ المصريِّ[2] جاءَ إِلىٰ (بغدادَ) ، وحضرَ بها سماعاً طابَ فيهِ القومُ ، فدارَ ذلكَ التلميذُ ،

---

(١) الجماء الغفير : مجتمعين كثيرين .

(٢) واسمه : ثوبان بن إبراهيم الإخميمي أبو الفياض ، أحد الزهاد والعباد المشهورين بـ(مصر) توفي سنة : (٢٤٥ هـ) . ويقال : إن قبره في باب الصغير بـ(دمشق) .

ثُمَّ صرخَ صرخةً فاضتْ فيها نفسُهُ ، فأرتفعَ للشيخِ خبرُهُ ، فقدِمَ (العراقَ) في أصحابِهِ وأستدعىٰ ذلِكَ الحادِي ، وأستفسرَهُ عنِ ٱلقصَّةِ فساقَها ، فلم يزدْ علىٰ التبريكِ ، ثُمَّ شرعَ هُوَ وأَصحابُهُ في السماعِ ، ولمَّا رقَّ وراقَ ، وهاجَتِ ٱلأشواقُ . . صاحَ الشيخُ في وجهِ الحادي الأوَّلِ فوقعَ ميْتاً ، فقالَ : قد أَخذنا ثأْرَ صاحِبنَا ، وتجهَّزَ مِنْ فورِهِ للرجوعِ .

الحب طريق مسلوك

وقد سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ حديثُ ٱلمرأَةِ معَ الأَكوعِ ، والشوطُ بطينٌ ، وللهِ في خلقهِ شؤونٌ ، وكم في الإنسانِ منَ العجائِبِ ، ولو أَنَّ الناظمَ ومَن علىٰ شاكلتِهِ أنبرَوا للثَّأْرِ بالوجدِ المُثارِ . . لأَمِنوا العِثَارَ ، لأَنَّها طريقٌ مسلوكٌ ، لا هوادةَ فيهِ للسُّوقَةِ ولا الملوكِ .

المالك الظالم

ويعجبني قولُ ديكِ الجنِّ بعدَ أَنْ فعلَ فعلتَهُ التي فعلَ ـ وهُوَ مِنَ ٱلكافرينَ ـ [في « ديوانه » ١٨٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَيْفَ ٱلدُّعَاءُ عَلَىٰ مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا   وَمَالِكِيْ ظَالِمٌ فِيْ كُلِّ مَا حَكَمَا
لاَ آخَذَ ٱللهُ مَنْ أَهْوَىٰ بِجَفْوَتِهِ   عَنِّي وَلاَ ٱقْتَصَّ لِيْ منْهُ وَلاَ أَثِمَا

الحسنات يذهبن السيئات

وقولُ المازنيِّ [في « النجوم الزاهرة » ٣/ ١٢٩ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّما ٱلشَّمْسُ مِنْ أَعْطَافِهِ لَمَعَتْ   حُسْناً أَوِ ٱلبَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا
مُسْتَقْبَلٌ بِٱلَّذِيْ يَهْوَىٰ وإِنْ كَثُرَتْ   مِنْهُ ٱلذُّنُوبُ وَمَعْذُوْرٌ بِمَا صَنَعَا
فِيْ وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ   مِنَ ٱلقُلُوْبِ وَجِيْهٌ حَيْثُمَا شَفَعَا

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٦ مِنَ البسيطِ] :

قَيْلٌ بِمَنْبِجَ مَثْوَاهُ ، وَنَائِلُهُ	فِي الأُفْقِ يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلا

الجود يسأل عن طلابه ممن يطلبون من غير صاحبه

يقولُ : إنَّهُ مقيمٌ بـ (منبجَ) مِن أرضِ (الشام) ، ونائِلُهُ يطوفُ في الآفاقِ ، يسألُ عَنِ العُفاةِ[1] الذينَ يسألونَ غيرَهُ .

والقصدُ أنَّهُ اشتهرَ بالجودِ حَتَّىٰ صرفَ العافينَ عن سائرِ الناسِ إليهِ ، و(القَيلُ) ـ بلغةِ حِميرٍ ـ : المَلِكُ العظيمُ ، كذا قالهُ الشارحُ ، وأشكلَ عليَّ قولهُ : (العظيمِ) علىٰ حينِ لم يحضرْنا شيءٌ من معاجمِ اللُّغةِ . ومنشأُ الإشكالِ من حُجْرِ بنِ وائلٍ الحضرميِّ ، فقدْ كانَ قَيْلاً مِن أقيالِ (اليمنِ) .

بيان كذب المتنبي في هذا البيت

وجرىٰ لهُ مع ذلِكَ ما لا يليقُ بأدنىٰ رياسةٍ ـ فَضلاً عَنِ العَظَمةِ ـ وذلِكَ أنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أمرَ معاويةَ أنْ ينطلقَ بهِ إلىٰ رجُلٍ مِنَ الأنصارِ ينزلُهُ عليهِ ، قالَ : فانطلقتُ معهُ ، وهُوَ علىٰ ناقتِهِ ، وأنا أمشي في يومٍ صائفٍ ، فقلتُ : احمِلْني ، قالَ : لستَ مِن أردافِ الملوكِ ، قلتُ : أنا ابنُ أبي سفيانَ ، قالَ : قد سمعتُ رسولَ اللهِ يقولُ ذلكَ ، قلتُ : فألقِ إليَّ نعلكَ ، قالَ : لا تُقِلُّهُما قَدَماك ، ولٰكنْ امشِ في ظلِّ ناقتي ، وكفاكَ شرفاً بذلِكَ ، ثُمَّ لم يوزعْ أنْ قَدِمَ علىٰ معاويةَ في سلطانِهِ . . فأكرمَ وفادَتهُ ، وقضىٰ حوائِجَهُ[2] .

---

(١) العُفاة ـ جمع عافٍ ـ : وهو طالب المعروف .

(٢) أنظر القصَّة بنحوها في « سير أعلام النُّبلاء » (٢/ ٥٧٤) ، والصَّحابيُّ هوَ : وائلُ بنُ حُجْرٍ وليسَ حُجْرُ بنُ وائلٍ .

وبَعيدٌ ما يروىٰ مِن تنزُّهِهِ عن قَبولِ جائِزتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ كانَ من أَصحابِ عليٍّ ففارقَهُ ورضيَ بعدُ أن يكونَ شرطيّاً لزيادٍ ، فقد بعثَهُ بحجر بنِ عديٍّ ورفاقِهِ إِلىٰ معاويةَ في أَحدَ عشرَ راكِباً ، فمِنْ أَينَ تأتي العظمةُ لمن هٰذا وصفُهُ ؟

متى يقال: (ملك) ومتى يقال: (سلطان)؟

وقد يستنتجُ منهُ متأَهِّلُ الحضارمةِ في الأَلقابِ وإِطلاقِ الإِمارةِ ، أو ما هوَ أَكبرُ منها علىٰ مَن لا يستحقُّ مِمَّنْ لا طَوْلَ لهُ ولا حولَ .

وقد قالَ ٱبنُ السبكيِّ في ترجمةِ السلطانِ محمودِ بنِ سُبكتكينَ [كما في «الطبقات» ٥/٣١٤] : ولا أَستطيعُ أَن أُسمِّيَ نورَ الدينِ الشهيدَ سلطاناً ؛ لأَنَّهُ لم يسمَّ بذلِك ، وسببُهُ أَنَّ مصطلحَ الدول أَنَّ السلطانَ مَنْ ملكَ إِقليمينِ فصاعداً ، فإِن كانَ لا يملكُ إِلاَّ إِقليماً واحداً . . سميَ بالملكِ ، وإِنِ ٱقتصرَ علىٰ مدينةٍ واحدةٍ . . لم يسمَّ بالملكِ ولا بالسلطانِ بل بأَميرِ البلدِ وصاحبِها ، ومِنْ ثَمَّ تعرفُ خطأَ كُتَّابِ زمانِنَا حيثُ يسمُّونَ صاحبَ (حماة) سلطاناً ، ولا ينبغي أن يسمَّىٰ سلطاناً ولا ملكاً ؛ لأَنَّ حكمهُ لا يعدوها . انتهىٰ .

المتنبي وسريان جود الممدوح إلى محتاجه

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ فمنهُ قولهُ [في «العُكبَريِّ» ٢/٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَنْفُسُهُـمْ مَبْـذُوْلَـةٌ لِـوُفُـوْدِهِـمْ وَأَمْوَالُهُمْ فِيْ دَارِ مَنْ لَمْ يَفِدْ وَفْدُ(١)

وقولهُ [في «العُكبَريِّ» ٤/١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

سَرَىٰ ٱلنَّوْمُ عَنِّي فِيْ سَرَايَ إِلَىٰ ٱلَّذِيْ مَـوَاهِبُـهُ تَسْـرِيْ إِلَـىٰ كُـلِّ نَـائِـمِ

---

(١) الوفودُ ـ جمع وفدٍ ـ : وهم الذين يقدمونَ على الملوكِ .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ١٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ فَرَّ مِنْ إِحْسَانِهِ حَسَداً لَهُ ... تَلَقَّاهُ مِنْهُ حَيْثُمَا سَارَ نَائِلُ

أصل بيت المتنبي

وأَصلُهُ مِن قولِ أَبي جويريةَ العبديِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيُدْلِجُ فِيْ حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمُ ... وَيُوْرِي كَرِيْمَاتِ ٱلنَّدَىٰ حِيْنَ يَقْدَحُ

سريان الجود والشعراء

وقد تمثَّل بهِ أبو تمَّامٍ لبعضِ الأُمراءِ فاستجادَهُ ـ كما سنقتصُّ خبرَهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ـ ولمَّا رآهُ ٱستحسنهُ أَكثرَ منهُ فقالَ [في «ديوانه» ٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَضْحَتْ عَطَايَاهُ نَوَازِعَ شُرَّدَا ... تُسَائِلُ فِيْ ٱلآفَاقِ عَنْ كُلِّ سَائِلِ[1]

وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

وَفَدَتْ إِلَىٰ ٱلأَقْطَارِ مِنْ مَعْرُوفِهِ ... نِعَمٌ تُسَائِلُ عَنْ ذَوِيْ ٱلإِقْتَارِ

وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ لَمْ يَفِدْ يَوْماً إِلَيْهِنَّ طَالِبٌ ... وَفَدْنَ إِلَىٰ كُلِّ ٱمْرِىءٍ غَيْرِ طَالِبِ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في «ديوانه» ٦٤٨ مِنَ المتقاربِ] :

وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَبْغِ مَعْرُوْفَهُ ... فَمَعْرُوفُهُ أَبَداً يَبْتَغِيْنَا

الإمام الهمام والجود الساري

وقالَ أَميرُ المؤمنينَ كرَّمَ اللهُ وجههُ [في «شرح النهج» ١٩/ ٩٩] : يا كُميلُ مُر أَهلكَ بالمكارمِ ، ويفِدوا في قضاءِ حاجَةِ من هوَ نائمٌ ، فوالذي وسعَ سمعُهُ الأَصواتَ ، ما مِن أَحدٍ يودعُ قلباً سروراً . . إلاَّ وخلقَ اللهُ مِنْ ذلكَ السرورِ لُطفاً ، حتَّىٰ إذا نزلَتْ بالمحسنِ نازلةٌ ، أو جاءَتْهُ جائحةٌ . . كانَ ذلكَ السرورُ أَسرعَ إِليها مِنَ ٱلماءِ إِلىٰ

---

(١) نوازعُ : من نَزعَ إِليهِ إذا ٱشتاقَ لهُ .

أنحدارِهِ ، حتّىٰ يطرُدَها كما تُطْرَدُ الغريبةُ مِنَ الإبلِ عَنِ الحوضِ . أَو ما هَـٰذا معناهُ .

عودة إلى الشعراء

وقالَ مروانُ ابنُ أَبي حفصةَ يمدحُ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ ، وقد وافاهُ نائِلُهُ علىٰ البعدِ [في « ديوانهِ » ١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيْ لَنِعْمَ ٱلْغَيْثُ غَيْثٌ أَصَابَنَا ... بِبَغْدَادَ مِنْ أَرْضِ ٱلْجَزِيْرَةِ وَابِلُهْ
فَكُنَّا كَحَيٍّ صَبَّحَ ٱلْغَيْثُ أَهْلَهُ ... وَلَمْ تَرْتَحِلْ أَظْعَانُهُ وَرَوَاحِلُهْ[1]

وقالَ أَبو عبادةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَـزَىٰ اللهُ خَيْـراً وَٱلْجَـزَاءُ بِكَفِّـهِ ... بَنِيْ ٱلسِّمْطِ أَخْدَانَ ٱلسَّمَاحَةِ وَٱلْمَجْدِ
هُـمُ وَصَلُـوْنِـي وَٱلْمَهَـامِـهُ بَيْنَنَـا ... كَمَا ٱرْفَضَّ غَيْثٌ مِنْ تِهَامَةَ فِيْ نَجْدِ

وفيْ ٱلتلميحِ إِلىٰ هـٰذا يقولُ المعَريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

شَكَـرْتُهُـمُ شُكْـرَ ٱلْـوَلِيْـدِ بِفَـارِسٍ ... رِجَالاً بِحِمْصٍ كَانَ جَدُّهُمُ ٱلسِّمْطُ[2]

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ الكاملِ] :

يَسْرِيْ ٱلسَّحَابُ إِلَىٰ ٱلْبَعِيْدِ بِغَيْثِهِ ... فَيَظَـلُّ مِنْـهُ وَادِعـاً وَيُجَـادُ[3]
وَلأَنْتَ أَوْلَىٰ أَنْ تَجُوْدَ لِمُجْدِبٍ ... عَفْـواً وَلَـمْ تُشْـدَدْ لَـهُ أَقْتَـادُ[4]

---

(١) الأظعانُ والرواحلُ : المطايا .
(٢) شكرُ الوليدِ : أَرادَ بالوليدِ البُحتريَّ . السمطُ : جماعةٌ مِن آلِ حمصَ كانَ البُحتريُّ يمتدحُهم ويشكرُ نعمَهُم .
(٣) وادعاً : ساكناً . يُجادُ : منَ الجودِ .
(٤) عفواً : ابتداءً مِن غيرِ طلبٍ . الأَقتادُ : خشباتُ الرحلِ ، والمعنىٰ : أنّكَ كريمٌ تعطي الإنسانَ مِن قبلِ أَن يأتيَ إليك ويطلب منكَ .

ولا يبعدُ عنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٣٠ مِنَ الكاملِ] :

كَٱلشَّمْسِ فِيْ كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا يَغْشَىٰ ٱلْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَلْفِظُ لِلْقَرِيْبِ جَوَاهِراً جُوْداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيْدِ سَحَائِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ ٱلَّذِيْ يَتَّبَّعُ ٱلْوَبْلَ دَائِماً كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ ٱلْوَبْلِ(١)

وما أَحسَنَ قولَهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٣٢ مِنَ الكاملِ] :

وَعَطَاءُ مَالٍ لَوْ عَدَاهُ طَالِبٌ أَنْفَقْتَهُ فِي أَنْ تُلَاقِيَ طَالِبَا

وقالَ بعضُ شُعراءِ « اليتيمَةِ » [كما نقله في « وفيات الأعيان » ٥/ ٤١٨ مِنَ المنسرحِ] :

وَلِيْ صَدِيْقٌ مَا مَسَّنِيْ عُدْمٌ مُذْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَىٰ عُدُمِيْ
أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ وَمَا يُكَلِّفُنِيْ تَقْبِيْلَ كَفٍّ لَهُ وَلَا قَدَمِ
قَامَ بِأَمْرِيْ لَمَّا قَعَدْتُ بِهِ وَنِمْتُ عَنْ حَاجَتِيْ وَلَمْ يَنَمِ

وهو ناظرٌ إلىٰ البيتِ الذي أَنفذَهُ سيفُ الدولةِ للناظمِ ليُجيزَهُ ، وكانَ مِنْ شعرِ الصوليِّ إبراهيمَ شَكَرَ بهِ عمرو بنَ سعدةَ عَن صنيعةٍ أَسداها إِليه ، وهوَ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

المسارعة في قضاء الحاجة

رَأَىٰ خَلَّتِيْ مِنْ حَيْثُ يَخْفَىٰ مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَىٰ عَيْنَيْهِ حَتَّىٰ تَجَلَّتِ(٢)

---

(١) الرائدُ : الذي ترسلهُ القومُ فيطلبُ لهمُ الكلأَ .
(٢) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفقرُ . فكانت قذىٰ عينيهِ : أي لَم يصبرْ عنها كما لا يصبرُ الرَّجلُ علىٰ قذىٰ عينيهِ .

تقسيم المعطين في العطاء

والناسُ علىٰ مراتبَ :

١ـ قسم سبق ذكرهم

فمنهُم : مَنْ سبقَ وصفُهم .

٢ـ قسم يكتفون بالسلام عن السؤال

ومنهم : مَن يستغني عَنِ السؤالِ بالسلامِ .

قالَ أُميَّةُ [في « ديوانهِ » ٣٣٣ـ٣٣٤ مِنَ الوافرِ] :

أَأَذْكُرُ حَاجَتِيْ أَمْ قَدْ كَفَانِيْ ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَىٰ عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْماً ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/٥٣٩ مِنَ الكاملِ] :

يَامَنْ إِذَا التَّعْرِيْضُ صَافَحَ نَفْسَهُ ... أَغْنَىٰ الْعُفَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيْحِ

وقالَ آخرُ [في « روضة العقلاء » ١/٢٥١ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيْمٍ حَاجَةً ... فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيْكَ وَالتَّسْلِيْمُ

وَإِذَا رَآكَ مُسَلِّماً عَرَفَ الَّذِيْ ... حَمَّلْتَهُ وَكَأَنَّهُ مَلْزُوْمُ

وقالَ الرياشِيُّ [مِنَ الوافرِ] :

وَحَسْبُكَ مِنْ تَقَاضِيْ الْمَرْءِ يَوْماً ... لِحَاجَتِكَ ، الزِّيَارَةُ وَالْحَدِيْثُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ١/١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أُخِفُّ سَلاَمِيْ حُبَّ مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ ... وَأَسْكُتُ كَيْمَا لاَ يَكُوْنَ جَوَابُ

وفِيْ النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وخِطَابُ

٣ـ قسم يحتاج إلى إعادة السؤال

ومنَ الناسِ : مَنْ يحتاجُ إِلىٰ إِعادةِ السؤالِ ، قالَ أَبو تَمَّامٍ [في « ديوانه » ١/١٢٢ مِنَ الخفيفِ] :

لَوْ رَأَيْنَا التَّأْكِيْدَ خُطَّةَ عَجْزٍ ... مَا شَفَعْنَا الأَذَانَ بِالتَّثْوِيْبِ[1]

---

(١) التثويبُ : الدعاءُ الثاني ، إذ أَنَّ المؤذِّن بعد أن يفرغَ مِنَ الأَذانِ ينادي : الصلاةَ=

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/٢٢٨ مِنَ الطَّويلِ] :

هَـزَزْتُـكَ لاَ أَنِّـي وَجَـدْتُـكَ نَـاسِيَـا لأَمْرِيْ وَلاَ أَنِّيْ أَرَدْتُ ٱلتَّقَاضِيَا[1]

وَلَـكِنْ رَأَيْتُ ٱلسَّيْفَ مِنْ بَعْدِ سَلِّهِ إِلَىٰ ٱلْهَزِّ مُحْتَاجاً وَإِنْ كَانَ مَاضِيَا

٤- وشرهم من لا يستفتح إلا بالإلحاح

وشرُّهم مَن لا يستَفتِحُ إلاَّ بالإلْحاحِ ؛ ولهـٰذا قالَ أَشجعُ [في « ديوانِه » ١٩٧ مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

لَيْـسَ لِلْحَـاجَـاتِ إِلاَّ مَـنْ لَـهُ وَجْـهٌ وَقَـاحُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِه » ٢/٣٤١ مِنَ الوافرِ] :

وَخُذْهُمْ بِٱلرُّقَىٰ إِنَّ ٱلْمَهَارِيْ يُهَيِّجُهَا عَلَىٰ ٱلسَّيْرِ ٱلْحُدَاءُ[2]

ما يلحق بالقسم الثاني

ويلتحقُ بالقسمِ الثاني قولُ ٱبنِ الروميِّ [مِنَ ٱلوافرِ] :

نُـذَكِّـرُ بِـٱلـرِّقَـاعِ إِذَا نَسِيْنَـا وَنَـذْكُـرُ حِيْـنَ تَمْطُلُنَـا ٱلْكِـرَامُ

فَـإِنَّ ٱلأُمَّ لَـمْ تُـرْضِـعْ صَبِيّـاً مَعَ ٱلإِشْفَاقِ لَوْ سَكَتَ ٱلْغُلاَمُ

وقولُ الناظمُ :(يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلاَ) يشبهُ في الجوهرِ ـ وإِنْ خالفَ العرَضَ ـ قولَ الأَعشىٰ [في « ديوانِه » ٣٠٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

ومن البلية أن تحب ومن تحب يحب غيرك

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلاً غَيْرِيْ وَعُلِّقَ أُخْرَىٰ ذَلِكَ ٱلرَّجُلُ

= رحمكم اللهُ ، وينادي : الصَّلاةُ خيرٌ مِنَ النَّومِ .

(١) التقاضي : طلبُ قضاءِ الدينِ .

(٢) الرُّقىٰ : جمع رُقْيَة ـ وهيَ العُوذةُ ، والمقصودُ : أُتلُ عليهم مِنْ أشعارِكَ الَّتي تعملُ فيهِم عملَ التَّعاويذِ والسِّحرِ ؛ حيثُ إِنَّ كلامَكَ عليهِم يؤثِّرُ فيهِم ما لا تؤثِّرُهُ تلكَ الرُّقىٰ ، ثُمَّ يأتِي بدليلٍ حِسِّيٍّ مشاهَدٍ ، وهوَ : أَنَّ الإبلَ إذا سمعَتِ الأَشعارَ . . طَرِبَتْ وأَسرعَتْ في مشيِها .
. المهاريُّ : الإبلُ المنسوبةُ إِلى مهرةَ بنِ حيدانَ .

وما أنشدَهُ الأصمعيُّ لِبعضِ العربِ [في « معجم البلدان » ٥/ ٢٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

قَتَلَتْكَ أُختُ بَنِي لُؤَيٍّ إِذْ رَمَتْ وَأَصَابَ نَبْلُكَ إِذْ رَمَيْتَ سِوَاهَا

وَأَعَارَهَا ٱلْحَدَثَانِ مِنْكَ مَوَدَّةً وَأَعَارَ غَيْرَكَ وُدَّهَا وَهَوَاهَا

وخيرٌ مِنَ الجميعِ قولُ الآخرِ [في « البداية والنهاية » ٨/ ٣١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

جُنِنَّا بِلَيْلَىٰ وَهِيَ جُنَّتْ بِغَيْرِنَا وَأُخْرَىٰ بِنَا مَجْنُونَةٌ لاَ نُرِيْدُهَا

فالعافي في بيتِ الناظمِ سَأَلَ غيرَ الممدوحِ ، ولم يأْتِهِ النائِلُ إلاَّ مِن جهتهِ ، وحاصلُ الأُخرَياتِ : أَنَّه عشقَ ٱمرأَةً ، فعشقَت غيرَهُ ، وزِدْنَ عليهِ بأَنَّ أُخرىٰ عشقَته فلم يلتفتْ إِليها ، فالجامعُ بينها ظاهرٌ وإِنِ ٱختلفَ الوجهُ .

السعي في حاجات النيام والشعراء

وعلىٰ ذكرِ السعي في حاجةِ النيامِ . . ذكرتُ قولَ بعضِ الشعراءِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَظَلُّ يَحْفَظُنَا وَنَحْنُ بِغَفْلَةٍ وَيَبِيْتُ يَكْلَؤُنَا وَنَحْنُ نِيَامُ

وكذبَ واللهِ ، إِنَّما ذلكَ الملكُ الجبَّارُ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٤/ ٢٢٥٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ تَكْرَ عَنْ قَاصِيْ ٱلرَّعِيَّةِ عَيْنُهُ فَتَنَامَ عَنْ وِتْرِ ٱلْقَرِيْبِ ٱلدَّانِي[1]

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٧١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

طَرْفٌ مُطِلٌّ عَلَىٰ ٱلآفَاقِ يَكْلَؤُهَا بِنَاظِرٍ لَمْ يَنَمْ عَنْهَا وَلَمْ يُنِمِ

---

(١) الوِترُ : الثأرُ والظلمُ فيهِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٥٤٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

يَسْتَقْصِرُ ٱللَّيْلَ ٱلتَّمَامَ إِذَا ٱنْتَحَىٰ ... بِـٱلْخَيْـلِ نَـاحِيَـةَ ٱلعَـدُوِّ ٱلأَبْعَـدِ
لاَ نَاهِلُ ٱلأَجْفَانِ إِنْ كَانَ ٱلكَرَىٰ ... خِمْسَاً لِصَادِيَةِ ٱلعُيُوْنِ ٱلوُرَّدِ[١]

وقالَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَٱلقَلْبُ يَكْلَؤُهُ ... وَإِنْ تَنَمْ عَيْنُهُ فَٱلقَلْبُ يَقْظَانُ

وكذَبَ أَبو عُبادةَ ؛ إِنَّما ذاكَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؛ (تنامُ عينهُ ، ولا ينامُ قلبُهُ)[٢] .

وقالَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصةَ [في « ديوانهِ » ٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَكُـوْنُ غِـرَاراً نَـوْمُـهُ مِـنْ حِـذَارِهِ ... عَلَىٰ بَيْضَةِ ٱلإِسْلاَمِ وَٱلْخَلْقُ رَاقِدُ[٣]

وهوَ مِن كلمةٍ لهُ مختارةٍ ، يقولُ فيها للمهديِّ [في « ديوانهِ » ٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَيْـكَ أَمِيْـرَ ٱلْمُـؤْمِنِيْـنَ تَجَـاذَبَـتْ ... بِنَا ٱلْبِيْدَ خُوْصٌ كَٱلقِسِيِّ شَوَارِدُ[٤]

---

(١) ناهلٌ : شاربٌ . الكرىٰ : النومُ . خِمْساً : مِن إظماءِ الإبلِ ، وهوَ أَن ترعىٰ ثلاثةَ أَيّامٍ ، وترِدَ الرابعَ علىٰ الماءِ . الصادي : الشديدُ العطشِ .

وفي البيتِ : مجازٌ شبَّهَ الشاعرُ فيهِ النومَ بالماءِ ، والاستسلامَ لهُ بعدَ التعبِ بالإخماسِ الذي هوَ للإبلِ . وشدَّةَ حصولِ النَّعَسِ والحاجةَ إلىٰ النومِ بذلكَ الإنسانِ الشديدِ العطشِ الذي ٱشتدَّتْ حرارتُهُ عندَهُ حتَّىٰ ألهبت صدرَهُ .

والمعنىٰ : أَنَّ ممدوحَهُ هـٰذا إنسانٌ عظيمٌ ، يقومُ الليلَ عندما يكونُ غيرُهُ مستسلماً استسلاماً شديداً للنومِ . واللهُ أعلم .

(٢) أخرجه عن عائشة البخاري (١١٤٧) في التهجد ، ومسلم (٧٣٨) (١٢٥) في صلاة المسافرين ولفظه : « يا عائشة إن عَيْنَيَّ تنامان ولا ينام قلبي » .

(٣) الغِرارُ : النومُ القليلُ .

(٤) تجاذبَتْ : أَسرعت وٱندفعت . الخوصُ : النوقُ الضامرَةُ . الشواردُ ـ جمعُ =

إلىٰ مَلِكٍ تَنْدَىٰ إذا يَبِسَ ٱلثَّرَىٰ   بِنَائِلِ كَفَّيْهِ ٱلأَكُفُّ ٱلجَوَامِدُ
أَيَادِيْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بِيْضٌ سَوَابِغٌ   عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ بَادِيَاتٌ عَوَائِدُ
وَهُمْ يَعْدِلُوْنَ ٱلسَّمْكَ مِنْ قُبَّةِ ٱلْهُدَىٰ   كَمَا تَعْدِلُ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ٱلْقَوَاعِدُ[1]
سَوَاعِدُ عِزِّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَإِنَّمَا   تَنُوْءُ بِصَوْلاتِ ٱلأَكُفِّ ٱلسَّوَاعِدُ
يَكُوْنُ غِرَاراً نَوْمُهُ مِنْ حِذَارِهِ   عَلَىٰ بَيْضَةِ ٱلإِسْلاَمِ وَٱلْخَلْقُ رَاقِدُ
كَأَنَّ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ مُحَمَّدَا   لِرَأْفَتِهِ بِٱلنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ

المتنبي والإسراع في حاجات النيام

وتلاعبَ بالمعنىٰ الناظمُ فقالَ [في «العُكبريّ» ٤/ ٢٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

نَفَتْ رُقَادَ عَلِيٍّ عَنْ مَحَاجِرِهِ   نَفْسٌ يُفَرِّجُ نَفْساً غَيْرَهَا ٱلْحُلُمُ

وقالَ [في «العُكبريّ» ٤/ ٢١٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

غَضُّ ٱلشَّبَابِ بَعِيْدٌ فَجْرُ لَيْلَتِهِ   مُجَانِبُ ٱلْعَيْنِ لِلْفَحْشَاءِ وَٱلْوَسَنِ

وقالَ [في «العُكبريّ» ١/ ٢٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَنَا مَلِكٌ لاَ يَطْعَمُ ٱلنَّوْمَ ، هَمُّهُ   مَمَاتٌ لِحَيٍّ أَوْ حَيَاةٌ لِمَيِّتِ

وقالَ [في «العُكبريّ» ٢/ ١٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

كَثِيْرُ سُهَادِ ٱلْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ   يُؤَرِّقُهُ فِيْمَا يُشَرِّفُهُ ٱلذِّكْرُ[2]

وقالَ [في «العُكبريّ» ٢/ ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

قَلِيْلُ ٱلْكَرَىٰ لَوْ كَانَتِ ٱلْبِيْضُ وَٱلْقَنَا   كَآرَائِهِ مَا أَغْنَتِ ٱلْبِيْضُ وَٱلزَّغْفُ[3]

= شرودٍ ـ : وهي الناقةُ النافرةُ المستعصيةُ الذاهبةُ على وجهها .

(١) السَّمْكُ : السقفُ .

(٢) السهادُ : هوَ السهرُ ، ولكن لا يستعملُ إلا في الساهرِ في الشِّدَّةِ .

(٣) الزغفُ : الدروعُ اللينةُ .

وقالَ [في « العُكبريّ » ١/ ١٠٤ مِنَ المتقاربِ] :

وَأَنْـتَ مَـعَ ٱللهِ فِـيْ جَـانِـبٍ   قَلِيْـلُ ٱلـرُّقَـادِ كَثِيْـرُ ٱلتَّعَـبْ

مدح العرب للساري في حاجات النيام

وما زالتِ العربُ تَمادحُ بذلكَ ، فمنهُ قولُ بعضِهم [مِنَ الطَّويلِ] :

كَمِيْشُ إِزَارٍ يَجْعَلُ ٱللَّيْلَ إِثْمِداً   وَيَغْدُوْ عَلَيْنَا مُشْرِقاً غَيْرَ وَاجِمِ

وقالَ تأَبَّطَ شَرّاً [في « ديوانهِ » ٢٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

قَلِيْلُ غِـرَارِ ٱلْعَيْـنِ أَكْبَـرُ هَمِّـهِ   دَمُ ٱلثَّأْرِ أَوْ يَلْقَىٰ كَمِيّاً مُدَجَّجَا

وقالَ أَبو كَبيرٍ يمدحُهُ [كما في « ديوان الهُذليِّينَ » ٢/ ٩٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

فَأَتَتْ بِهِ حُوْشَ ٱلْفُؤَادِ مُبَطَّناً   سُهُداً إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ ٱلْهَوْجَلِ(١)

سيدنا الفاروق والعجوز

ويُروىٰ : أَنَّ عجوزاً أَضلَّت ناقةً علىٰ عهدِ ٱبنِ الخطَّاب ، فجاءَتْ تسأَلُهُ عنها ؟ فقالَ : وهل كنتُ عندَها ؟ قالَت : ما ظننتُ أَنَّ شاةً تضيعُ علىٰ جانبِ الفراتِ إِلاَّ أَنتَ عنها مسؤولٌ ؟ ولِمَ تكونُ أَميرَ المؤمنينَ إِذَنْ ؟

إسراؤه في الرعية

فساقَتْ حفاظَهُ ؛ لِمَا بهِ الحرصُ عليهِ مِن حياطةِ المسلمينَ ، وتفقُّدِ أَحوالهم ، فكانَ علمُهُ بِمَن نأَىٰ مِنْ رعيَّتِهِ وأُمرائِهِ . كعلمِهِ بِمَن باتَ معهُ علىٰ فراشٍ واحدٍ . وكانتِ الأَخبارُ تردُهُ في كلِّ مَمْسىً

مِنَ المقتدين به

وَمَصْبَحٍ . وتَسَمَّتَهُ(٢) معاويَةُ في ذلكَ فٱنتظمَ أَمرُهُ .

أنا أعرَفُ بك منك!

وجَرىٰ في آثارِهم زيادُ ٱبنُ سميَّةَ(٣) ، فبثَّ الأَرصادَ والعُيونَ في

---

(١) حوشُ الفؤادِ : ذكيُّ الفؤادِ . المبطَّنُ : الخميصُ البطنِ . السُّهُدُ : السَّهرُ . الهوجلُ : الثقيلُ الكسلانُ .

(٢) تسمَّتَهُ : سارَ على سَمْتِهِ وطريقهِ .

(٣) هو زيادُ ابنُ أبيه .

كلِّ ناحيةٍ ، واستطلعَ أحوالَ الناسِ واستظهرَ أخبارَهم . . حتَّىٰ إنَّ رجلاً استعرَفَ إليهِ وقالَ له : أنا فلانُ بنُ فلانٍ فتبسَّمَ ، وقالَ تتعرَّفُ إليَّ وأنا أعْرَف بكَ مِنْك ، واللهِ إنِّي لأعرِف أباكَ وجدَّك ، وأُمَّك وجدَّتَك ، وأهلَ بيتك ، وهٰذا البردَ الذي عليكَ ، وهُو لفلانٍ . . فبهتَ الرجلُ حتَّىٰ كادَ أنْ يُغْشىٰ عليهِ[1] .

وهِيَ سياسةُ أَزدَشِير[2] بنِ بَابكَ مِن ملوكِ الأعاجمِ ، وأخذَ بها جماعةٌ مِنَ الأُمراءِ فكانوا من أحوالِ الناسِ علىٰ بصيرةٍ .

متى تكون سياسة بث الأرصاد والعيون ناجحة؟

وإنَّما تكونُ وسيلةً للنجاحِ عندَ كرمِ الطباعِ وغلبةِ الصدقِ ، وإلاَّ فقد تَدَسَّسَ منها في الأخطاءِ الفاحشةِ جملةٌ مِنَ الْمُلوكِ ، منهُم : السلطانُ عبدُ الحميدِ ؛ إذ سلكَها معَ انتشارِ اللؤمِ ، وغلبةِ الكذبِ ، وفيوضِ الغشِّ ، فكانتِ الجواسيسُ تبيعُ الضمائِرَ ، وتفسدُ ما بينَهُ وبينَ رجالاتِ الأعمالِ ، حتَّىٰ آلَ الأمرُ إلىٰ ما لم تحمدْ عقباهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ .

المهلب ابن أبي صفرة والحجاج

ولَمَّا قدمَ الْمُهلَّبُ ابنُ أَبي صُفْرَةَ بعدَ فراغهِ مِنَ الأَزارقةِ علىٰ الحَجَّاجِ . . أكرمهُ وأظهر برَّه ، وأجلسهُ إلىٰ جانبهِ ، وقالَ : يا أهلَ (العراقِ) ، لقد طوَّقكم المُهلَّبُ مِنَ الفَضلِ ما جعلَكم بهِ عبيدَ قنٍّ لهُ ، أنتَم واللهِ كما قالَ لقيطٌ [في « ديوانهِ » ٨٥ـ٨٦ مِنَ البسيطِ] :

فَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ للهِ دَرُّكُمُ رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الحَرْبِ مُطَّلِعَا

---

(١) في « المستطرف » (٢/٢٠٨) .

(٢) أزدشيرُ : اسمٌ أطلقهُ العربُ علىٰ ملوكِ الفرسِ مِنَ الأسرةِ الساسانيَّةِ . والمقصودُ بها هنا : واحدٌ منهم .

لاَ يَطْعَمُ ٱلنَّوْمَ إِلاَّ رَيْثَ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يَكَادُ حَشَاهُ يَقْصِبُ ٱلضِّلَعَا[1]
لاَ مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءُ ٱلْعَيْشِ سَاعَدَهُ ... وَلاَ إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
مَا زَالَ يَحْلُبُ هَـٰذَا ٱلدَّهْرَ أَشْطُرَهُ ... يَكُونُ مُتَّبِعاً طَوْراً وَمُتَّبَعَا[2]
حَتَّىٰ ٱسْتَمَرَّتْ عَلَىٰ شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ ... مُسْتَحْكِمَ ٱلرَّأْيِ لاَ قَحْماً وَلاَ ضَرَعَا[3]

من هو الفتىٰ؟

وجاءَ جماعةٌ إلىٰ حسَّانَ فقالوا مَنِ الفتىٰ ؟ فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْفَتَىٰ لَفَتَىٰ ٱلْهَوَاجِرِ وَٱلسُّرَىٰ ... وَفَتَىٰ ٱلطِّعَانِ وَمِدْرَهُ ٱلْحَدَثَانِ[4]
ذَاكَ ٱلْفَتَىٰ إِنْ كَانَ كَهْلاً أَوْ فَتَىٰ ... لَيْسَ ٱلْفَتَىٰ بِمُنَعَّمِ ٱلشُّبَّانِ

المتنبي الشجاع

ومِن خيرِ ما في الموضوعِ قولُ الناظمِ [في « العكبَريّ » ٣/٣٦٩ مِنَ البسيطِ] :

ٱلْخَيْلُ وَٱللَّيْلُ وَٱلْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ وَٱلْقِرْطَاسُ وَٱلْقَلَمُ[5]

مدح الكرام وذم اللئام

وفي عكسِ ذلكَ يقولُ بعض المتأَخِّرينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا قَطَعْتُمْ لَيْلَكُمْ بِمُدَامِكُمْ ... وَأَفْنَيْتُمُ أَيَّامَكُمْ بِمَنَامِ
فَمَنْ [ذَا] ٱلَّذِي يَرْجُوكُمُ فِي مُلِمَّةٍ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَغْشَاكُمُ بِسَلاَمِ

---

(١) الريثُ : المقدارُ .
(٢) حَلَبَ فلانٌ الدهرَ أشطرَهُ : مرَّت عليهِ ضروبٌ من خيرهِ وشرِّهِ حتى صار ذا خِبْرةٍ ومعرفة .
(٣) الشزرُ : فتلُ الحبلِ مما يلي اليسارَ ، وهو أشدُّ لفتلهِ . مريرته : طاقةُ الحَبْل . القحمُ : الشيخ النكِدُ الكبيرُ . الضَّرَعُ : الغمرُ الضعيفُ مِنَ الرجالِ . والقصة بنحوها عند ابن الأثير في « الكامل » (٤/ ١٨٣) .
(٤) المِدْرَهُ : السَّيدُ الشَّريفُ ، والمقدَّمُ في اللسانِ واليدِ عند الخصومةِ والقتالِ .
(٥) في « العكبري » : (وَٱلضَّرْبُ وَٱلطَّعْنُ) بدل (وَٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ) .

رَضِيتُمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةٍ ... بِشُرْبِ مُدَامٍ أَوْ بِلَثْمِ غُلاَمِ
وَلَمْ تَعْلَمُوْا أَنَّ ٱللِّسَانَ مُوَكَّلٌ ... بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لِئَامِ
وِلَٰكِنَّ رَأْسَ ٱلشَّرِّ تَلْبِيسُ قَادَةٍ ... يَغُرُّوْنَكُمْ زُوْراً بِبَيْعِ ذِمَامِ

العيش والموت السَّواء

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتَ لاَ تُرْجَىٰ لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ ... وَلَم يَكُ فِيْ ٱلْمَعْرُوْفِ عِنْدَكَ مَطْمَعُ
وَلاَ أَنْتَ مِمَّنْ يُسْتَعَانُ بِجَاهِهِ ... وَلاَ أَنْتَ يَوْمَ ٱلْحَشْرِ مِمَّنْ يُشَفَّعُ
فَعَيْشُكَ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَمَوْتُكَ وَاحِدٌ ... وَعُوْدُ خِلاَلٍ مِنْ وِصَالِكَ أَنْفَعُ(١)

وتعرَّضَتْ للمنصورِ ٱمرأَةٌ فلم يعطِها شيئاً ، فقالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا لَم يَكُنْ فِيكُنَّ ظِلٌّ وَلاَ جَنَىٰ ... فَأَبْعَدَكُنَّ ٱللهُ مِنْ شَجَرَاتِ

* * *

(١) عُودُ الخِلال : هوَ العودُ الذي يُتَخلَّلُ بهِ ؛ أَي : يزيلُ الإنسانُ بهِ ما علقَ مِنَ الطعامِ بينَ الأَسنانِ . والمقصودُ بهِ هنا : الشيءُ التافهُ الذي لا قيمةَ لهُ .

المجلس الثامن

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٦٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَلُوحُ بَدْرُ ٱلدُّجىٰ فِيْ صَحْنِ غُرَّتِهِ	وَيَحْمِلُ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلا[1]

المـمـدوح الجميـل الشجاع

يقولُ : إنَّ وجهَهُ مشرقٌ كبدرِ الدُّجىٰ ، وإذا حملَ علىٰ أعدائِهِ . . حملَ إليهمُ الموتَ الزُّؤَامَ[2] ، ولفظةُ (الدُّجىٰ) ليسَت مِنَ ٱلْحشوِ المردودِ ، وإن كانَ ٱلقمرُ لا يُسمَّىٰ بدراً إلاَّ في الدُّجىٰ ؛ لأَنَّ المرادَ منها التأكيدُ .

ثمَّ إنَّهُ لا مناسبةَ بينَ ٱلإضاءَةِ والشَّجاعةِ إلاَّ بتأويلِ أَنَّ ٱلحربَ كانَ ليلاً ، وادَّعىٰ إشراق وجهِ الممدوحِ ، أَو أَنَّ اليومَ أَظلمَ مِنَ ٱرْتفاعِ الغبارِ فٱستضاءَ الناسُ بمحيَّاهُ ، ويحتملُ أَن يكونَ لبيانِ الواقعِ ، فلا تثريبَ .

كثرة التشبيه بالشمس والقمر

وقد أَشرنا في أَولِ المجلسِ الخامسِ لكثرةِ ما يشبِّهُ النَّاسُ الوجوهَ

---

(١) الغرَّةُ : هيَ غرَّةُ الوجهِ ، وأصلها البياضُ الذي يكونُ في وجهِ الفرسِ .

(٢) هـٰذا هوَ المعنىٰ الَّذي رآهُ ٱلمؤلِّفُ ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ وهوَ لا يكونُ إلاَّ بنصبِ كلمةِ (الموتَ) ، أَمَّا ٱلعُكبريُّ : فيقولُ عندَ شرحِ البيتِ : « وإذا لقيَ ٱلأَعداءَ . . فإنَّ ٱلموتَ يحملُ معهُ ، ويصولُ عليهِم فيقتلُهُم ، فالموتُ مِن أَعوانهِ » وهـٰذا يكونُ برفعِ (الموتُ) .

بالأقمارِ والشموسِ ، بتفاوتٍ بينَ مقاديرِ الكلامِ ، فمِن قويٍّ ورثٍّ ، وسمينٍ وغثٍّ ، وقالَ بعضُ كِنْدَةَ يمدحُ عمرَو بنَ هندٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلشَّمْسُ لَاحَتْ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ ⁂ عَلَىٰ كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فأخذَهُ النابغةُ وقالَ [في « ديوانِهِ » ٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ⁂ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقَالوا : إنَّ فيهِ ٱعتذاراً عن رجوعهِ إلىٰ غيرهِ أيَّامَ هجرهِ ، وهوَ معَ حسنِهِ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ[١] .

وقالَ مهلهلُ بنُ ربيعةَ عَنْ أخيهِ كليبٍ [مِنَ السَّريعِ] :

تَنْفَرِجُ ٱلظَّلْمَاءُ عَنْ وَجْهِهِ ⁂ كَٱللَّيْلِ وَلَّىٰ عَنْ صَدِيعٍ أَنِيقِ

وقالَ بعضُ ٱلعربِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَوْ عَارَضَ ٱلشَّمْسَ أَلْفَىٰ ٱلشَّمْسَ مُظْلِمَةً ⁂ أَوْ زَاحَمَ ٱلصُّمَّ أَلْجَأَهَا إِلَىٰ ٱلْمَيَلِ

وقالَ حاتمٌ الطَّائيُّ يصفُ زوجتَهُ ماويَّةَ [في « ديوانِهِ » ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

يُضِيءُ لَهَا ٱلْبَيْتُ ٱلظَّلِيلُ خِصَاصَهُ ⁂ إِذَا هِيَ يَوْماً حَاوَلَتْ أَنْ تَبَسَّمَا[٢]

وقالَ أبو جويريةَ ٱلعبديُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱعْتَمَّ بِٱلْبُرْدِ ٱلْيَمَانِيِّ خِلْتَهُ ⁂ هِلَالاً بَدَا مِنْ جَانِبِ ٱلْأُفْقِ يُلْمَحُ

---

(١) اقتبس المؤلف رحمه الله هذا من حديث ورد في « الإحياء » (١/١٢٨) في الإيمان والإسلام : « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا » قال العراقي : رواه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في « الضعفاء » من حديث أبي بكر ، ولأحمد والطبراني نحوه عن أبي موسى .

(٢) الخِصاصُ : الفُرَجُ في البناءِ وغيرِه .

أمَّا قولُ الآخرِ [وهو الفرزدق في « الأغاني » ١٠/ ٣٢٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

تَرَىٰ ٱلْغُرَّ ٱلْجَحَاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ إِذَا مَا ٱلأَمْرُ فِيْ ٱلْحَدَثَانِ عَالاَ[١]
قِيَاماً يَنْظُرُوْنَ إِلَىٰ سَعِيْدٍ كَأَنَّهُمُ يَرَوْنَ بِهِ هِلاَلاَ

.. فقد جمعَ فيهِ إلىٰ ٱلوسامةِ ٱهتمامَ النَّاسِ بالنَّظرِ إليهِ ؛ لتعويلِهم عليهِ ، وٱعتدادِهم بهِ في ٱلمهمَّاتِ ، فهوَ قريبٌ مِنْ قولِ ٱلبُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٧٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

الافتتان في المديح

وَٱفْتَنَّ فِيْكَ ٱلنَّاظِرُوْنَ فَإِصْبَعٌ يُوْمِيْ إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ

وقولِ النَّاظمِ [في « ٱلعُكبَريّ » ٢/ ٥ مِنَ الطَّويلِ] :

بِمَنْ تَشْخَصُ ٱلأَبْصَارُ يَوْمَ رُكُوْبِهِ وَيُخْرَقُ مِنْ زَحْمٍ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلْبُرْدُ
وَتُلْقِيْ وَمَا تَدْرِيْ ٱلأَكُفُّ سِلاَحَهَا لِكَثْرَةِ إِيْمَاءٍ إِلَيْهِ إِذَا يَبْدُوْ

ومِنْ أحسنِ ما جاءَ في إِضاءَةِ ٱلوجوهِ . . قولُ أبي الطَّمحانِ ٱلقينيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إضاءة الوجوه والشعراء

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُم وَوُجُوْهُهُمْ دُجَىٰ ٱللَّيْلِ حَتَّىٰ نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ[٢]

وقد ألمَّ بهِ النَّاظمُ إذ يقولُ [في « ٱلعُكبَريّ » ٤/ ٦٦ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ كَأَنَّهَا فِيْ نُفُوْسِهِمْ شِيَمُ[٣]

---

(١) الجَحاجِحُ : الأسيادُ ، جمع جَحجاحٍ . عالَ : شقَّ على الرجالِ إتيانُهُ .
(٢) الجَزْع : ضرب من العقيق .
(٣) عِرضُ الرجُلِ : هو موضعُ الذمِّ والمدحِ منهُ .

وقالَ ٱبنُ أَبي السِّمطِ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لاَ يُبَالِيْ ٱلْمُدْلِجُوْنَ بِنُوْرِهِ   إِلَىٰ بَابِهِ أَنْ لاَ تُضِيْءَ ٱلْكَوَاكِبُ[1]

وقالَ ٱلقاسمُ بنُ حنبلٍ [في « ديوان ٱلحماسة » ٢/ ٣٠٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

مِنَ ٱلْبِيضِ ٱلْوُجُوْهِ بَنِيْ سِنَانٍ   لَوَ ٱنَّكَ تَسْتَضِيْءُ بِهِمْ أَضَاؤُوْا

وقالَ ٱلحُطيئَةُ [في « الأغاني » ٢/ ١٥١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

نَمْشِيْ عَلَىٰ ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لَنَا   مَا ضَوَّأَتْ لَيْلَةُ ٱلْقَمْرَاءِ لِلسَّارِيْ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَرَيْنَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَمُذْ بَدَا   مُحَيَّاكَ أَخْفَىٰ ضَوْؤُهُ كُلَّ شَارِقِ[2]

وقالَ أَشْجَعُ [في « ديوانهِ » ٢٦٢ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] :

مَلِكٌ بِحُسْنِ جَبِيْنِهِ   نَسْرِيْ وَبَحْرُ ٱللَّيْلِ طَامِيْ[3]

وقالَ مسلمٌ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكِ هَلْ تَدْرِيْنَ إِنْ بِتُّ لَيْلَةً   كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُوْنِكِ يُنْشَرُ
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّىٰ تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ   كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ حِيْنَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

وقالَ ٱلعُقَيليُّ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وُجُوْهٌ لَوَ ٱنَّ ٱلمُدْلِجِيْنَ ٱعْتَشَوْا بِهَا   صَدَعْنَ ٱلدُّجَىٰ حَتَّىٰ تَرَىٰ ٱللَّيْلَ يَنْجَلِيْ[4]

---

(١) المدلج : الذي يسيرُ مِنَ الليلِ .
(٢) المحيا : الوجهُ .
(٣) بحرٌ طامٍ : أي ممتلئٌ .
(٤) أعتشوا : ساروا وقتَ العشاءِ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وُجُوهٌ لَوَ انَّ ٱلأَرْضَ فِيهَا كَوَاكِبٌ   تَـوَقَّدُ لِلسَّـارِيْ لَكَـانُـوْا كَـوَاكِبَا

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانه » ٢/ ٧٢٢ مِنَ الكاملِ] :

نَجْلُـوْ بِغُـرَّتِـهِ ٱلـدُّجَـىٰ فَكَـأَنَّنَـا   نَسْرِيْ بِبَدْرٍ فِيْ ٱللَّيَالِيْ ٱلسُّوَّدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٩٨ مِنَ الكاملِ] :

وَرَأَوْكَ وَضَّاحَ ٱلْجَبِيْنِ كَمَا يُرَىٰ   قَمَرُ ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّعْدُ لَيْلَةَ يَكْمُلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٥٠ مِنَ الكاملِ] :

اَلْيَوْمَ أُطْلِعَ لِلْخِلاَفَةِ سَعْدُهَا   وَأَضَـاءَ فِيْهَـا بَـدْرُهَـا ٱلْمُتَهَلِّـلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَسْفَرَ وَجْهُ ٱلشَّرْقِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا   تَبَلَّجَ فِيْهِ ٱلْبَدْرُ بَعْدَ أُفُوْلِهِ[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

بِوَجْهٍ هُوَ ٱلْبَدْرُ ٱلْمُنِيْرُ نَفَى ٱلدُّجَىٰ   سَنَاهُ وَأَخْلاَقٍ هِيَ ٱلأَنْجُمُ ٱلزُّهْرُ

أَضَاءَ لَنَا أُفْقَ ٱلْبِلاَدِ وَكَشَّفَتْ   مَشَـاهِـدُهُ مَـا لاَ يُكَشِّفُـهُ ٱلْفَجْـرُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٢٩ مِنَ الوافرِ] :

يُضَـاهِـيْ جُـوْدُهُ جُـوْدَ ٱلثُّـرَيَّـا   وَيَحْكِـيْ وَجْهُـهُ بَـدْرَ ٱلتَّمَـامِ

وقالَ العرجيُّ يتغزَّلُ [مِنَ البسيطِ] :   أجمل ما في الموضوع

مَحْجُوْبَةٌ سَمِعَتْ صَوْتِيْ فَأَرَّقَهَا   مِنْ أَوَّلِ ٱللَّيْلِ حَتَّىٰ بَلَّهَا ٱلسَّحَرُ

---

(١) أسفرَ : أضاءَ . بلجَ الصبحُ : أَضاءَ .

تُدْنِي عَلَىٰ جِيدِهَا ثِنْيَيْ مُعَصْفَرَةٍ ... وَلِلْحُلِيِّ عَلَىٰ لَبَّاتِهَا خَصَرُ[1]
فِيْ لَيْلَةِ ٱلنِّصْفِ لاَ يَدْرِيْ مُضَاجِعُهَا ... أَوَجْهُهَـا عِنْـدَهُ أَبْهَـىٰ أَمِ ٱلقَمَـرُ

وقالَ عمروُ بنُ شَأْسٍ ـ ولَهُ صحبةٌ ـ [في « ديوانِهِ » ١٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا نَحْنُ أَدْلَجْنا وَأَنْتِ أَمَامَنَا ... كَفَىٰ لِمَطَايَانَا بِوَجْهِكِ هَادِيَا

وقالَ النَّاظمُ [في « ٱلعُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْلٍ دَجُوجِيٍّ كَأَنَّا جَلَتْ لَنَا ... مُحَيَّاكَ فِيْهِ فَٱهْتَدَيْنَا ٱلسَّمَالِقَ[2]

إشراقة وجهه الشريف ﷺ

وقد جاءَ في نعتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّم [كما في « الجامع » لمَعْمَر بن راشد ١/ ٢٥٩] : (أَنَّ ضوءَه يتلألأُ في الجُدُرَاتِ إذا مشىٰ بينَها في ٱلظلامِ)[3]

فأغارَ عليهِ صاحبُنا ، وكانَ كما قلتُ ـ غيرَ مرَّةٍ ـ : لا يدعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاَّ نظمَها في أَسلاكِ شِعرِهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العكبَريِّ » ٢/ ٨١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

شَمْسٌ إِذَا ٱلشَّمْسُ لاَقَتْهُ عَلَىٰ فَرَسٍ ... تَـرَدَّدَ ٱلنُّـوْرُ فِيْهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ

وقبْلَ هـٰذا في ديوانِهِ بيتٌ ٱضطرَبَ الشارحُ في تفسيرِهِ ، وتخبَّطَ في معناهُ ، ونصُّهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٨٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

ذَمَّ ٱلـزَّمَـانُ إِلَيْـهِ مِـنْ أَحِبَّتِـهِ ... مَا ذَمَّ مِنْ بَدْرِهِ فِيْ حَمْدِ أَحْمَدِهِ

---

(١) اللبَّةُ : المنحرُ . الخَصَرُ : البَرْدُ .

(٢) دجوجيٌّ : مظلمٌ . جَلَتْ : كشفت وأظهرت . المحيَّا : الوجهُ . السَّمالِقُ ـ جمعُ سَمْلَقٍ ـ : وهيَ الأرض البعيدةُ ، وهوَ مرفوعٌ علىٰ الفاعليَّةِ لـ : (جلت) .

(٣) والمعنى : أنَّ نور وجهه الشَّريف صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ـ يشرق إشراقاً يصل إلى الجدران المقابلة له كما يكون ذلك من الشمس والقمر .

والذي أَراهُ : أَنَّ المعنىٰ ظاهرٌ ، وإِنَّما ضربَ الشارحُ عريضةً في تأْويلهِ ، وحاصلُ ما فهمتُه منهُ : أَنَّ الضميرَ في (إِليهِ) وفي (أَحبَّتهِ) عائِدٌ إِلىٰ الشخصِ الذي جرَّدهُ من نفسهِ ، فكأَنَّه يقولُ : وجوهُ أَحبَّتي أَقمارٌ ، ولـٰكنَّ الزمانَ ذمَّ إِليَّ من أَنوارِها بالنسبةِ إِلىٰ نورِ (أَحمدَ) ٱلممدوحِ وثنائهِ ، كما أَنَّ الزمانَ ذمَّ أَيضاً مِنَ ٱلقمرِ الطَّالعِ بالنِّسبةِ لإِشراقِ (أَحمدَ) ٱلممدوحِ وحمدهِ . واللهُ أَعلمُ .

وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ

ويُروىٰ عن عائشةَ رضي الله عنها [كما في « الاستيعاب » ١/ ٣٤١] : أَنَّها وصفَتْ رسولَ الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فقالَتْ : كانَ واللهِ كما قالَ شاعرُهُ حسَّانُ [في « ديوانه » ١/ ٤٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَىٰ يَبْدُ فِيْ ٱلدَّاجِيْ ٱلْبَهِيْمِ جَبِيْنُهُ   يَلُحْ مِثْلَ مِصْبَاحِ ٱلدُّجَىٰ ٱلْمُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَو مَنْ قَدْ يَكُوْنُ كَأَحْمَدٍ   نِظَـامٌ لِحَـقٍّ أَوْ نَكَـالٌ لِمُلْحِـدِ ؟!

ويُحكىٰ أَنَّها قالَتْ : أَدخلتُ الخيطَ في الإِبرةِ علىٰ ضوءِ جبينهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وأَنَّها تمثَّلَت عندَ ذلكَ بقولِ أَبي كبيرٍ [في « ديوان الهُذَليِّين » ٢/ ٩٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَإِذَا نَظَـرْتَ إِلـىٰ أَسِـرَّةِ وَجْهِـهِ   لَمَعَتْ كَبَرْقِ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَهَلِّلِ(١)

---

(١) أسرَّتُهُ : طرائقهُ . العارضُ : هو الذي يجيءُ معارضاً في السماءِ . المتهلِّلُ : الممطِرُ . والحديثُ أخرجهُ عن عائشةَ رضي الله عنها البيهقيُّ في « الكبرىٰ » (٧/ ٤٢٢) بغير هذهِ الصيغةِ ولفظةُ عندهُ :

قالت : كنتُ قاعدةً أَغزلُ ، والنبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يخصِفُ نعلَهُ ، فجعلَ جبينُهُ يعرَقُ ، وجعلَ عرقُهُ يتولَّدُ نوراً . . فبُهِتُّ ، فنظرَ إِليَّ رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ بُهِتِّ ؟! » قلتُ : جعلَ جبينُكَ يعرقُ ، وجعلَ العرقُ يتولَّدُ نوراً ، ولو رآكَ أَبو كبيرٍ =

تابط شراً وزوج أمه

وهوَ مِن قصيدةٍ لأَبي كبيرٍ الهُذليِّ ، وكانَ مِن حديثِها [في « ديوان الحماسة » ١/ ٢٠] : أَنّه كانَ ناكِحاً أُمَّ تأبَّطَ شرّاً ، فلمَّا بلغَ مبلغَ الرجالِ . . ساءَهُ دخولُه علىٰ أُمِّهِ ، فقالَ لَها : إِنّي لأَعرفُ الشرَّ في عينِ الغلامِ مِنْ دخولي عليكِ ، فقالَتْ : عرِّضهُ للقتلِ حتّىٰ نستريحَ ، فغَزا بهِ ، ولمَّا قاربَ حيَّ عدوِّهِ . . أَمرهُ أَنْ يقتبسَ منهم ناراً ، وتأَبَّطَ شرّاً لا يدري أَنَّ لَهم وِتراً عندَ أَبيهِ يطلبونَه بثأرِه ، فلمَّا رأَوهُ . . ٱسْتَلُّوا لقتلِهِ ، فسبقَهم وأَردىٰ منهم ٱثنينِ ، وعادَ إِلىٰ أَبي كبيرٍ رابطَ الجأشِ هادِىءَ البالِ كأَنَّما صادَ عصفوراً ، وأَخبرهُ الخبرَ ، فٱشتدَّ خوفُ أَبي كبيرٍ ، فتملَّقه ومدَحهُ بقصيدةٍ سائرةٍ ـ منْها هٰذا البيتُ ـ وفارقَ أُمَّهُ خوفاً مِنْ شرِّهِ .

ابن الزبير يطلق أمه من زوجها

وبهِ ذكرتُ ما رُويَ [كما في « البداية والنهاية » ٨/ ٣٤٦] : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ طلَعَ علىٰ أَبيهِ وفي يدهِ ٱلحسامُ صلْتاً ، وقالَ لهُ : مِثْلِي لا توطَأُ أُمُّهُ ، فطلِّقْها ، وإِلاَّ فهوَ علىٰ رأْسِكَ ، فما كانَ مِنَ الزُّبيرِ غيرُ ٱلامتثالِ .

مكاتبة عمرو بن مسعدة لأحد الملوك وقد تزوجت أمه

وذكرَ غيرُ واحدٍ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٤٧٦] : أَنَّ بعضَ الرؤَساءِ تزوَّجَتْ أُمُّهُ ، ومِن عاداتِهم التراسلُ فيما يشبهُ ذلكَ مِنَ الحوادثِ ،

= الهُذَليُّ . . لعلمَ أَنَّكَ أَحقُّ بشعرِهِ . قالَ : « وَمَا يَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ ؟ » قالت : قلت : يقولُ :

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ
فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ ٱلعَارِضِ ٱلمُتَهَلِّلِ

قالت : فقامَ إِليَّ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقبَّلَ بينَ عينيَّ ، وقالَ : « جَزَاكِ ٱللهُ يَا عَائِشَةُ عَنِّي خَيْرَاً ، مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ » .

فحارَتِ المُلوكُ فيما تكتبُ إِليهِ ، وتصعَّدَها الكلامُ ، حتَّىٰ فرَّجَ عنهم عمرُو بنُ مسعدةَ ـ كاتبُ المأمونِ ، أَو أَبو الفضلِ ٱبنُ العميدِ ـ وكتبَ ما معناهُ :

الحمدُ للهِ أَنقذَ مِنَ الحَيرةِ ، وجدَعَ بالدِّينِ أَنفَ الغَيرةِ ، ومنعَ من عضلِ الأُمهاتِ[1] ، كما منعَ من وَأْدِ البناتِ ؛ ٱستنزالاً للنفوسِ ٱلأَبيَّةِ عن حميَّةِ الجاهليَّةِ ، ثمَّ ٱسترسلَ فيما يليقُ بٱلمقامِ ، وٱقتفىٰ ٱلكُتَّابُ أَثرَهُ ، ووطِئوا عقبَه [من الكامل] :

وَٱلـذِّيـبُ يَعْسِـلُ فِـيْ طَـرِيـقِ ٱلضَّيْغَـمِ

الإمام زين العابدين ونور وجهه

ورأَيتُ في مطالَعتي مِن زمانٍ بعيدٍ ، أَنَّ بعضَهم جاءَ في الحرمِ عشاءً إِلىٰ مقربةٍ مِن سيِّدِنا عليِّ بنِ الحسينِ ، وأَخذَ يتأَمَّلُ في شيءٍ معهُ ، فسُئِلَ عَن شأنِهِ ؟ فذكرَ أَنَّ عندَه كتاباً ٱستغلقَت عليهِ قراءَتُه في ضوءِ السراجِ ، فجاءَ يقرؤُه علىٰ غرَّةِ زينِ العابدينَ ـ الذي ٱجتمعَ في أَساريرهِ الجمالُ الفارسيُّ ، والشهامةُ الهاشميَّةُ ، والوقارُ الإِلـٰهيُّ ، وٱلأَشعَّةُ النَّبويَّةُ ، ولا أَذكرُ ٱسمَ الكتابِ الذي بقيَ بذِهْني منهُ هـٰذا ، ولا غروَ ؛ فقد تواترَ [كما في « الأغاني » ١٠/ ٣٨٠] : أَنَّه لمَّا حجَّ . .

هشام بن عبد الملك والإمام زين العابدين في الطواف

ٱستجْهَرَ الناسَ بجمالِهِ حتَّىٰ أَفرجوا لَهُ عَنِ الحجرِ ، عندَما عجزَ عَنِ الوصولِ إِليهِ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ ـ وهُوَ وليُّ العهدِ يومَئِذٍ ـ فقالَ الناسُ : مَن هـٰذا ؟ فقالَ هشامٌ : لا أَعرفُهُ ، فقالَ الفرزدقُ : ولـٰكنِّي أَعرفهُ ، فقالوا : مَنْ هُوَ يَا أَبا فراسٍ ؟ فقالَ [في « ديوانه » ١٧٨ـ١٧٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

---

(١) عضلُ الأُمَّهات : منعُها منَ الزواجِ .

هَـٰذَا ٱبْـنُ خَيْـرِ عِبَـادِ ٱللهِ كُلِّهِـمُ ... هَـٰذَا ٱلتَّقِيُّ ٱلنَّقِيُّ ٱلطَّاهِرُ ٱلْعَلَمُ[1]

هَـٰذَا ٱلَّذِي تَعرِفُ ٱلْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَٱلْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَٱلْحِلُّ وَٱلْحَرَمُ[2]

وَلَيْسَ قَوْلُكَ : مَنْ هَـٰذَا؟.. بِضَائِرِهِ ... ٱلْعُرْبُ تَعرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَٱلْعَجَمُ

إذا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ.. قَالَ قَائِلُهَا ... إِلَىٰ مَكَارِمِ هَـٰذَا يَنْتَهِيْ ٱلْكَرَمُ

يُغْضِيْ حَيَاءً وَيُغْضَىٰ مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَـا يُكَلَّـمُ إِلاَّ حِيْـنَ يَبْتَسِـمُ[3]

في قصَّةٍ معروفةٍ لا حاجةَ بنا إلىٰ سردِها ـ معَ شُهرتِها ـ وهيَ مِن أَكبرِ الأدلَّةِ علىٰ شهامةِ الفرزدقِ ، وقوَّةِ نفسهِ ، وصحَّةِ دينِهِ ، وقد تداخَلَتْ في القصيدةِ أَبياتٌ يرويها بعضُهُم للحزينِ الكنانيِّ ، ويرويها آخرونَ للحزينِ الليثيِّ .

هل إثبات العقل للجماد ومعرفته للمدوح جائز؟!

وقولُه : وَٱلْبَيْتُ يَعْرِفُهُ ، وقولُه [في « ديوانه » ١٧٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَكَـادُ يُمْسِكُـهُ عِـرْفَـانَ راحَتِـهِ ... رُكْنُ ٱلْحَطِيْمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

يشبهُ قولَ عُروةَ بنِ أُذَيْنَةَ [في « ديوانِهِ » ٨٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَلَهُـنَّ بِـٱلْبَيْـتِ ٱلْعَتِيْـقِ لُبَـانَـةٌ ... وَٱلْبَيْتُ يَعْرِفُهُنَّ لَوْ يَتَكَلَّمُ[4]

لَـوْ كَـانَ حَيًّـا قَبْلَهُـنَّ ظَعَـائِنـاً ... حَيَّ ٱلْحَطِيْمُ وُجُوهَهُنَّ وَزَمْزَمُ[5]

اشتياق البقاع إلى أحبابها

ثمَّ تلاعبَ بهِ المتأخِّرونَ ، فقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/١٧٩ مِنَ ٱلخفيفِ] :

لَـوْ سَعَـتْ بُقْعَـةٌ لإِعْظَـامِ حَيٍّ ... لَسَعَىٰ نَحوَهَا ٱلْمَكَانُ ٱلْجَدِيْبُ

---

(١) العَلَمُ : سيِّدُ القومِ .

(٢) البطحاءُ : مسيل واسع فيه دقاق الحصى، ويطلق على الأرض المحيطة بـ (مكَّة).

(٣) يغضي : يخفضُ بصرَهُ من الحياءِ .

(٤) اللُّبانةُ : الحاجة التي يهمُّ الشخصَ قضاؤها .

(٥) الظعائنُ : النساءُ في الهوادجِ . الحطيم : حجر إسماعيل .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٧٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

فَلَوَ انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا ... فِيْ وُسْعِهِ لَمَشَىٰ إِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وٱفْتَنَّ فيهِ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٠٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

افتنان المتنبي في الموضوع

لَوْ تَعْقِلُ ٱلشَّجَرُ ٱلَّتِيْ قَابَلْتِهَا ... مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إِلَيْكِ ٱلأَغْصُنَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٨٤ مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَإِذَا لَمْ تَسِرْ إِلَىٰ ٱلدَّارِ فِيْ وَقْـ ... ـتِكَ ذَا.. خِفْتُ أَنْ تَسِيْرَ إِلَيْكَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٢٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَضُمُّهُ ٱلْمِسْكُ ضَمَّ ٱلْمُسْتَهَامِ بِهِ ... حَتَّىٰ يَصِيْرَ عَلَىٰ ٱلأَعْكَانِ أَعْكَانَا[1]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٣٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَعْجَبْتَهَا شَرَفَاً فَطَالَ وُقُوْفُهَا ... لِتَأَمُّلِ ٱلأَعْضَاءِ لاَ لأَذَاتِهَا[2]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٤٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لاَ حِسَّ يَرْدَعُهُ ؟ ... إِنِّيْ لأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا عَجَبَا!

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَلَوْ قَدَرَ ٱلسِّنَانُ عَلَىٰ لِسَانٍ ... لَقَالَ لَكَ ٱلسِّنَانُ كَمَا أَقُوْلُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٩٨ مِنَ ٱلخفيفِ] :

طَالَ غِشْيَانُكَ ٱلْمَكَارِهَ حَتَّىٰ ... قَالَ فِيْكَ ٱلَّذِيْ أَقُوْلُ ٱلْحُسَامُ

---

(١) الأعكانُ ـ جمع عكنة ـ : وهو ما يتكسَّرُ أسفل البطنِ من الشحمِ .

(٢) الضميرُ في (أعجبتها) عائدٌ على (الحُمَّىٰ) في البيت قبلهُ .

من أكبر مفاخر قريش.. معرفة البطاح

ومعرفةُ ٱلبطاحِ مِنْ أكبرِ مفاخرِ قريشٍ ؛ لأنَّه لا يتديَّرها إذ ذاكَ إلاَّ صَميمُها ، وأمَّا لهازِمُها . . فبالظَّواهرِ .

وما أَحسنَ ما قالَ بعضُ ٱلعلويِّينَ [مِنَ الكاملِ] :

وَحَلَلْتُ مُعْتَلِجَ ٱلْبِطَاحِ إِذَا غَدَا غَيْرِيْ وَرَاحَ عَلَىٰ مُتُوْنِ ظَوَاهِرِ[1]

كَجِبَالِهَا شَرَفِيْ ، وَمِثْلُ سُهُوْلِهَا خُلُقِيْ ، وَمِثْلُ ظِبَائِهِنَّ مَجَاوِرِيْ

وقالَ ٱلكُمَيْتُ يمدحُ هشامَ بنَ عبدَ ٱلملكِ [في « ديوانِهِ » ١/ ١٧٣ مِنَ ٱلخفيفِ] :

لَـمْ تَجَهَّـمْ لَـهُ ٱلْبِطَـاحُ وَلٰكِـنْ وَجَـدَتْهَـا لَـهُ مَعَـانـاً وَدُوْرَا[2]

وقالَ لهُ أَيضاً [في « ديوانهِ » ١/ ١٨٩ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] :

وَحَلَلْـتَ مُعْتَلِـجَ ٱلْبِطَـاحِ وَحَـلَّ غَيْـرُكَ بِـٱلظَّـوَاهِـرْ

ولم ينسَ حظَّهُ ٱلقطبُ ٱلحدَّادُ بل أَخذَ بمجامعِ ٱلفخرِ في قولهِ [مخمِّساً في « ديوانه » ٥١٣ مِنَ ٱلمديدِ] :

نَعْـرِفُ ٱلْبَطْحَـا وَتَعْـرِفُنَـا وَٱلصَّفَـا وَٱلْبَيْـتُ يَـأْلَفُنَـا

وَلَنَـا ٱلْمَعْـلا وَخَيْـفُ مِنَـىٰ فَـٱعْلَمَـنْ مَـا قُلْـتُ وَٱسْتَكِـنِ

ويعجبني قولُ بعضِهم في مراعاةِ ٱلنَّظيرِ يمدحُ أَهلَ ٱلبيتِ [في « خزانةِ ٱلأدبِ » ١/ ٢٩٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَنْتُمْ بَنُو طٰهَ وَنُوْنٍ وَٱلضُّحَىٰ وَبَنُوْ تَبَارَكَ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُحْكَمِ

---

(١) الأرضُ المعتلجةُ : هي التي ٱستأسدَ نباتُها وٱلتفَّ وكثُرَ . ومعْتَلجُ البطاحِ : بطنُ (مكَّةَ) .

(٢) تَجَهَّمُ : تنكرُ . المَعانُ : المحلُّ .

وَبَنُو ٱلأَبَاطِحِ وَٱلْمَشَاعِرِ وَٱلصَّفَا وَٱلرُّكْنِ وَٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيْقِ وَزَمْزَمِ

علي الرضا ودخوله خراسان

وعلىٰ ذكرِ ٱلوضاءَةِ.. نلمُّ بحديثِ عليٍّ الرِّضَا ، فقد دخلَ (خراسانَ) وعليهِ غشاءٌ.. فتلقَّاهُ الناسُ ، وفي مقدِّمتِهم الحافظانِ أَبو زرعَةَ ومحمدُ بنُ أَسلمَ الطُّوسيُّ ، فتوسَّلا إِليهِ أَنْ يكشفَ لَهُم عَن وَجهِهِ ، وأَنْ يَرويَ حديثاً عَنْ آبائِهِ ، فَحَسَرَ اللثامَ عَن وجهٍ كالبدرِ ٱنكشفَ عنهُ الغمامُ ، فمن صارخٍ وباكٍ وممرِّغٍ خدَّهُ بالأَرضِ ، وآخذٍ من ترابِ حافرِ بغلَتِهِ ، وقالَ : حدَّثني أَبي ، موسىٰ الكاظِمُ ، عن أَبيهِ جعفرٍ الصَّادقِ ، عن أَبيهِ محمدٍ ٱلباقرِ ، عنْ أَبيهِ عليٍّ زينِ ٱلعابدينَ ، عن أَبيهِ ـ شهيدِ كَربلاءَ ـ حسينِ بنِ عليٍّ وٱبنِ فاطمةَ ، عَن أَبيهِ عليٍّ ٱبنِ أَبي طالبٍ ، عَن رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، عَنْ جبرائِيلَ ، عَنْ رَبِّ العزَّةِ ، قالَ : « **لا إِلـٰهَ إلا اللهُ حِصْني ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْني .. أَمِنَ مِنْ عَذَابي** »[1] فٱبتدرَتْهُ الأَقلامُ ـ وكانتْ أَكْثَرَ مِنِ ٱثْنَيْ عشرَ أَلفاً ـ وصاروا يكتبونَ ذلكَ ٱلإِسنادَ للمرضىٰ ، فيعاجِلُهم اللهُ بالشِّفاءِ ، وكيفَ لا ؟! وهُم كما قيلَ [مِنَ السَّريعِ] :

سَبْعَةُ آبَاءٍ هُمُ مَنْ هُمُ أَفْضَلُ مَنْ يَشْرَبُ صَوْبَ ٱلْغَمَامِ

ابن معايا يمدح الخليفة الأندلسي

ولقد أَذكرَني توسُّلُ ٱلحافظَينِ إِلىٰ الرِّضا بأَنْ يُسَرِّيَ عَنْ وَجْهِهِ اللِّثامَ.. بقولِ ٱبنِ مَعايا يمدحُ إِدريسَ بنَ حمُّودٍ ٱلخليفةَ بـ (ٱلأَندلسِ) [كما في « نَفْحِ الطِّيبِ » ١/ ٢١٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

---

(١) حديث قدسي أورده عن ابن عساكر من حديث علي في « كنز العمال » (١٥٨) و(١٧٦٩) ، وابن النجار (٢٣٥) . وفي الباب نحوه عن أنس عند ابن النجار من حديث أنس كما في « كنز العمال » (١٦٨) و(٢٣٥) .

أَنْظِـرُونَـا نَقْتَبِـسْ مِـنْ نُـوْرِكُـمْ   إِنَّهُ مِنْ نُوْرِ رَبِّ ٱلْعَالَمِيْنْ[1]

خرق الخليفة للأستار وبروزه للشاعر

وكانَ مِنْ وَرَاءِ سبعةِ أَستارٍ حالَ الإِنشادِ ، فلمَّا بلغَ هٰذا البيتَ : أَمرَ برفعِها حتَّىٰ نظرَ إِليهِ ، وكانتِ ٱلعادَةُ عندَ خلفاءِ (ٱلمغربِ) أَنْ لا يسمَعوا ٱلإِنشادَ إِلاَّ مِن وراءِ ٱلحِجَابِ .

ورود كلمة (أذين) في اللغة

ورأَيتُ بعضَهم ينتقدُ لفظةَ (الأَذِينِ) مِنْ قولِهِ في هٰذهِ القصيدةِ [كما في « نَفْحِ الطِّيبِ » ١/ ٢١٤ مِنَ الرمل] :

وَٱسْقِنِيهَــا قَبْــلَ تَكْبِيْــرِ ٱلأَذِيْــنْ

وقالَ : إِنَّها لا توجدُ في كتبِ ٱللُّغةِ ولا في أَشعارِ ٱلعربِ ، ولا يحضُرُنا شيءٌ منهَا الآنَ ، ولا أَراهُ إِلاَّ وَهِماً في ٱنتقادِهِ ؛ فقدِ ٱستعمَلَها المولَّدونَ بكثرةٍ ، ومنهُم أَبو العلاءِ المعريُّ في قولِهِ [في «سقط الزند» ٢٧٥ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَلَيْتَ أَذِيْنَ يَوْمِ ٱلْحَشْرِ نَادَىٰ   فَأَجْهَشَتِ ٱلرِّمَامُ إِلىٰ ٱلرِّمَامِ[2]

تلثُّم الجميل يدرأ من إتلاف المهج

وأَمَّا تلثُّمُ ٱلرِّضا . . فذكرتُ عندَه قولَ الناظمِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٣٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ   فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيْ ٱلْخُدُوْرِ ٱلْعَوَاتِقُ[3]

---

(١) في البيت اقتباس جميل من « كتاب الله تعالى » من سورة الحديد الآية : (١٣) . القبس : النار أو الشعلة منها .

(٢) أجهشَ : خاف أو هرب . الرِّمامُ : البالي .

(٣) البرقعُ : نقابٌ للعربِ ، يغطَّى به الوجه والجبين ، ولا يكونُ فيهِ إلاّ ثقبانِ للعينين تنظرانِ منهما . والعواتقُ : الجواري اللاتي قاربنَ الحلمَ . والخدورُ ـ جمع خِدرٍ ـ : وهوَ الكِنُّ ، والبيتُ الذي يسترُ فيه العواتقُ .

وإنَّه وَاللهِ لأكبرُ مِنْ ذلكَ ، وما كانَ أحقَّه بأَنْ يُقالَ فيهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِي ٱلصُّدُوْرِ ٱلْخَوَافِقُ

جَلاَلٌ إِلَىٰ فَرْطِ ٱلْجَمَالِ عَلَيْهِمَا مِنَ ٱللهِ نُوْرٌ فِي ٱلدُّجُنَّةِ شَارِقُ(1)

وما أحسنَ قولَ بعضِهم [كما في « البيان والتبيين » ١/٤٣٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا لَبِسُوْا عِمَائِمَهُمْ طَوَوْهَا عَلَىٰ كَرَمٍ وَإِنْ سَفَرُوْا أَنَارُوْا

الابتسام في ساحات القتال والشعراء

ثمَّ يَحتمِلُ أَنَّ في ٱلبيتِ إشارةً إلىٰ أَنَّ ٱلممدوحَ لا يَشينُهُ ٱلعبوسُ . إذا شبَّتِ ٱلحربُ الضَّروسُ ، وهُوَ مِثْلُ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/٣٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمُرُّ بِكَ ٱلأَبْطَالُ كَلْمَىٰ هَزِيْمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ(2)

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨١ مِنَ المنسرحِ] :

مُبْتَسِمٌ وَٱلْوُجُوْهُ عَابِسَةٌ سِلْمُ ٱلْعِدَا عِنْدَهُ كَهَيْجَاهَا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٩ مِنَ الوافرِ] :

فَلاَ تَسْتَنْكِرَنَّ لَهُ ٱبْتِسَاماً إِذَا فَهِقَ ٱلْمَكَرُّ دَماً وَضَاقَا(3)

وقولِ ٱلأعشىٰ [مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّهُ ـ بَعْدَ صِدْقِ ٱلْقَوْمِ أَنْفُسَهُمْ بِٱلْيَأْسِ ـ تَلْمَعُ مِنْ قُدَّامِهِ ٱلْبَشَرُ(4)

---

(١) ٱلدُّجُنَّةُ : الظلمةُ . الشارِقُ : القمرُ .

(٢) كلمىٰ : جرحىٰ . هزيمةٌ : مهزومةٌ .

(٣) فَهِقَ : ٱمتلأَ . المَكَرُّ : مجالُ الضربِ وساحةُ القتالِ .

(٤) لمعانُ الجسدِ : بريقُ لونهِ . البَشَرُ : ظاهر الجلد .

وقولِ المعكبَرِ الضبيِّ [في « ديوانِ الحماسةِ » ٢/ ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

كَـأَنَّ دنَـانِيْـراً عَلَـىٰ قَسَمَـاتِهِـمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ شَفَّ الْوُجُوْهَ لِقَاءُ[(١)]

وقولِ دريدِ بنِ الصِّمَّةِ يمدحُ ربيعةَ بنَ مكدمٍ ، وكان أَرْدىٰ عليهِ ثلاثةَ فوارسَ يومَ الظَّعينَةِ [في « ديوانهِ » ٩٥ مِنَ الكاملِ] :

أَرْدَىٰ فَوَارِسَ لَمْ يَكُوْنُوْا نُهْزَةً ثُمَّ اسْتَمَرَّ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلِ[(٢)]
مُتَهَلِّـلاً تَبْـدُوْ أَسِـرَّةُ وَجْهِـهِ مِثْلَ الْحُسَامِ جَلَتْهُ كَفُّ الصَّيْقَلِ[(٣)]

وقولِ الفرزدقِ في رثاءِ وكيعِ ابنِ أَبي الأَسودِ الغدانيِّ [في «ديوانهِ» ١/ ٤٠٩ مِنَ الطَّويلِ]:

إِذَا الْتَقَتِ الأَبْطَالُ أَبْصَرْتَ وَجْهَهُ مُضِيْئاً وَأَعْنَاقُ الْكُمَاةِ خُضُوْعُ

وقولِ مروانَ ابنِ أَبي حفصةَ يمدحُ مَعْناً [في « ديوانهِ » ١٠٦ مِنَ الكاملِ] :

يُمْضِـيْ أَسِنَّتَـهُ وَيُسْفِـرُ وَجْهُـهُ فِـي الـرَّوْعِ عِنْدَ تَغَيُّرِ الأَلْـوَانِ
جَلَبَ الْجِيَادَ مِنَ الْعِرَاقِ عَوَابِسَاً قُبَّ الْبُطُوْنِ يُقَدْنَ بِالأَرْسَانِ[(٤)]
حَتَّىٰ أَغَرْنَ بِحَضْرَمَوْتَ شَوَازِبَاً مُقْـوَرَّةً كَكَـوَاسِـرِ الْعُقْبَـانِ[(٥)]

---

(١) القَسماتُ : مجاري الدموعِ . شفَّ : أَهزلَ مِن شدَّةِ الهمِّ .
(٢) النُّهزَةُ : الشيءُ المعرَّضُ لكَ كالغنيمةِ .
(٣) الصَّيقَلُ : شحّاذُ السيوفِ وجلاَّؤُها الذي يزيلُ عنها الصَّداَ .
(٤) العوابسُ : الشديدةُ الجادَّةُ . قُبُّ البطونِ : ضوامرُها .
(٥) الشوازبُ ـ جمعُ شازبٍ ـ : وهوَ الضامرُ . المُقْوَرَّةُ : الضامرةُ . الكاسرُ من العقبانِ : هيَ التي تكسرُ جناحيها وتضمُّها إِذا أَرادتِ السقوطَ ، وهي من أَقوى العقبان .

وقولِ مسلمٍ [في « الأغاني » ١٢/ ١١٨ مِنَ البسيطِ] :

يَفْتَرُّ عِنْدَ ٱفْتِرَارِ ٱلْحَرْبِ مُبْتَسِماً إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ ٱلفَارِسِ ٱلْبَطَلِ(١)

وقولِ أبي عُبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٤٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَحُوْكٌ إِلَىٰ ٱلأَبْطَالِ وَهْوَ يَرُوْعُهُمْ وَلِلسَّيْفِ حَدٌّ حِيْنَ يَسْطُو وَرَوْنَقُ

وفي عكسِ ذلكَ يقولُ عنترةُ [في « ديوانه » ١٥٢ مِنَ البسيطِ] :

لاَ أَبْعَدَ ٱللهُ عَنْ عَيْنِيْ غَطَارِفَةً إِنْساً إِذَا نَزَلُوْا جِنّاً إِذَا رَكِبُوْا(٢)

ويقولُ ٱبنُ مَيَّادةَ [في « ديوانه » ٦٠ مِنَ البسيطِ] :

ٱلطَّيِّبُــوْنَ إِذَا طَــابَــتْ نُفُــوْسُهُــمُ شُوْسُ ٱلحَوَاجِبِ وَٱلأَبْصَارِ إِنْ غَضِبُوْا(٣)

ويقولُ الفرزدقُ [في « طبقات فحولِ الشُّعراءِ » ٢/ ٣٦٣ مِنَ الكاملِ] :

أَحْـلاَمُنَـا تَـزِنُ ٱلْجِبَـالَ رَكَـانَـةً وَتَخَالُنَا جِنّاً إِذَا مَا نَغْضَبُ(٤)

ويقولُ نصيبٌ [مِنَ الكاملِ] :

يَحْيَــوْنَ بَسَّــامِيْــنَ طَـوْراً وَتَـارَةً يَحْيَوْنَ عَبَّاسِيْنَ شُوْسَ ٱلْحَوَاجِبِ

ويقولُ بكرُ بنُ النطَّاحِ [مِنَ الخفيفِ] :

يَتَلَقَّـىٰ ٱلنَّـدَىٰ بِـوَجْـهٍ حَيِـيٍّ وَصُـدُوْرَ ٱلْقَنَـا بِـوَجْـهٍ وَقَـاحِ

---

(١) فتَرَ : سكنَ بعد حِدَّةٍ ، ولانَ بعدَ شدَّةٍ .

(٢) الغطارفةُ ـ جمع غطريفٍ ـ : وهو السيِّدُ الشريفُ السخيُّ .

(٣) الشَّوَسُ : النظرُ بمؤخَّرةِ العينِ تكبُّراً وتغيُّظاً .

(٤) الأحلامُ : العقولُ . الرَّكَانَةُ : الثِّقَلُ . والمعنىٰ : نحنُ قومٌ عقلاءُ ، تُماثِلُ عقولُنا الجبالَ في ثباتِها ، فلا يستفزُّنا الغضبُ ، وإذا جهِلَ وسَفِهَ علينا أحدٌ . . أريناهُ مِنَ الجهلِ ما يُضعِفُ قوَّتهُ ، ويُخرسُ لسانَهُ .

المتنبي وعدم المبالاة بملاقاة الأعداء

وقد أغارَ عليهِ صاحبُنا ؛ لأنَّه يتلقَّفُ[1] كلَّ ما صنَعوا . . فقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

نُصَــرِّعُهُـــمْ بِــأَعْيُنِنَــا حَيَــاءً   وَتَنْبُـوْ عَـنْ وُجُـوْهِهِـمُ ٱلسِّهَـامُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

حَيِيُّـوْنَ إلاَّ أَنَّهُـمْ فِـيْ نِـزَالِهِـمْ   أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ ٱلصَّوَارِمِ[2]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ حَيَاءُ ٱلْوَجْهِ لِلذِّئْبِ شِيْمَةً   وَلَـٰكِنَّهُ مِنْ شِيْمَةِ ٱلأَسَدِ ٱلْوَرْدِ

وهوَ مِن قولِ أَبي تمَّامٍ [بل البحتري في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْكَلْبُ مَحْمُوْماً وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ   وَلَـٰكِنَّمَا ٱلْحُمَّىٰ عَلَىٰ ٱلأَسَدِ ٱلْوَرْدِ

غيرَ أَنَّه حرَّفَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ ؛ لِيَسترَ ٱختلاسَهُ عَنِ العيونِ .

حياء وشجاعة النبي ﷺ

(وقد كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم أَشدَّ حياءً مِنَ العَذْراءِ في خدرِها)[3] ، وهوَ أَشجعُ الناسِ بِالاتِّفاقِ .

الشجاعة والحياء

وقد قالتْ لَيلىٰ الأَخيَلِيَّةُ [في « ديوانها » ٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتَىً كَانَ أَحْيَىٰ مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ   وَأَجْرَأَ مِنْ لَيْثٍ بِخِفَّانَ خَادِرِ[4]

ولَئِن لم يكُن في الأَمثلةِ الأَخيرةِ تصريحٌ بالتَّبَسُّمِ في حالِ القتالِ

---

(١) لقف : تناول بسرعة أو ابتلع .

(٢) الشفارُ : جمع شفرةٍ . الصوارمُ ـ جمعُ صارمٍ ـ : وهوَ السَّيفُ ٱلقاطعُ .

(٣) أخرجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه البخاري (٣٥٦٢) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل .

(٤) الخِفَّانُ : مأسدةٌ قربَ الكوفةِ . الخادِرُ : المقيمُ في عَرينِهِ .

الذي نتكلَّمُ فيهِ . . فإنَّه موجودٌ فيها باللازِمِ ؛ إذِ الحياءُ مِن لازمهِ الابتسامُ ، والأَسَدُ من طبيعتهِ الاقتِحامُ ، فلم نخرجْ عَن موضعِ الكلامِ .

احذر من تبسم الليث

ومِمَّا يتردَّدُ بينَ القسمينِ ـ معَ القربِ من الثاني ـ قولُ عنترةَ [في «ديوانهِ» ٦٤ مِنَ الكاملِ] :

لَمَّـا رَآنِـيْ قَـدْ نَـزَلْـتُ أُرِيْـدُهُ   أَبْـدَىٰ نَـوَاجِـذَهُ لِغَيْـرِ تَبَسُّـمِ

وتَسوَّرَ[1] عليهِ أَبو تَمَّامٍ فقالَ [في «ديوانهِ» ٢/ ٨٥ مِنَ البسيطِ] :

قَـدْ قَلَّصَـتْ شَفَتَـاهُ مِـنْ حَفِيْظَتِـهِ   فَخِيْلَ مِنْ شِدَّةِ ٱلتَّعْبِيْسِ مُبْتَسِمَا[2]

وأَجادَ ـ واللهِ ـ الناظمُ في قولهِ [في «العُكبَرِيّ» ٣/ ٣٦٨ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا رَأَيْـتَ نُيُـوْبَ ٱللَّيْـثِ بَـارِزَةً   فَـلاَ تَظُنَّـنَّ أَنَّ ٱللَّيْـثَ يَبْتَسِـمُ

* * *

---

(١) تسوَّرَ : تسلَّقَ جداره .

(٢) الحفيظةُ : الغضبُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ]

كَمْ مَهْمَهٍ قُذُفٍ قَلْبُ ٱلدَّلِيْلِ بِهِ   قَلْبُ ٱلْمُحِبِّ، قَضَانِيْ بَعْدَ مَا مَطَلا

شجاعة المتنبي وثبات جاشه

(المَهْمَهُ) الفلاةُ الواسعةُ و(القُذُفُ) البعيدةُ ؛ كأنَّها تتقاذفُ بمن يسلُكُها ، يقولُ : كم من فلاةٍ بعيدةٍ يَدُلُّني فيها رجلٌ خائفٌ قلبُهُ كقلبِ المحبِّ في الاضطرابِ.. قطعتُها بعدَ طولِ السيرِ فيها ، وهـٰذا هُوَ المرادُ من قولِهِ : (قَضَانِيْ بَعْدَ مَا مَطَلاَ) وهي ٱستعارةٌ مليحةٌ ؛ لأنَّ الْمَهْمَهَ بطولِهِ.. كالغريمِ المماطلِ بالقضاءِ .

وفي البيتِ نكتةٌ لا أَظنُّ أَحداً تعرَّضَ لَها ، وهيَ : أَنَّه كثيراً ما يمتدحُ بالجراَةِ وقوَّةِ القلبِ ، والاستغناءُ بذلكَ عَنِ الأَدِلَّةِ ، وهُوَ محلُّ ذلكَ غيرُ مُنازَعٍ ؛ ولهـٰذا أَبىٰ أَنْ يسيرَ في خفارةٍ[1] غيرِ سيفِهِ ، ولم يأخذْهُ في ذلكَ لومٌ ولا تفنيدٌ ، وقالَ : أَنا والجرازُ[2] في عنقي لا أَخافُ إِلاَّ اللهَ ، فهوَ ثابتُ الجأْشِ في تلكَ المهامِهِ ، وإِنَّما وَصَفَ الدليلَ بالضعفِ والجبنِ ، وٱضطرابِ القلبِ ، وإِذا كانَ الدليلُ بهـٰذهِ المثابةِ.. فكأَنَّه لا شيءَ ، فلم تنخرقْ عادتُهُ ، ولم تنخرمْ شهامتُهُ ، ولم يخالف قولَه [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٤٢ـ١٤٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

مَلُوْمُكُمَا يَجِلُّ عَنِ ٱلْمَلاَمِ   وَوَقْعُ فِعَالِهِ فَوْقَ ٱلْكَلاَمِ
ذَرَانِيْ وَٱلْفَلاَةَ بِلاَ دَلِيْلٍ   وَوَجْهِيْ وَٱلْهَجِيْرَ بِلاَ لِثَامِ

(١) الخِفارةُ : العهدُ والذمّةُ أو الجِوارُ .
(٢) الجُرازُ : السيفُ القاطعُ .

فَـإِنِّـي أَسْتَـرِيْـحُ بِـذَا وَهَـٰـذَا وَأَتْعَـبُ بِـالإِنَـاخَـةِ وَالْمُقَـامِ
فَقَـدْ أَرِدُ الْمِيَـاهَ بِغَيْـرِ هَـادٍ سِوَىٰ عَدِّيْ لَهَا بَرْقَ الْغَمَامِ[1]
يُـذِمُّ لِمُهْجَتِـيْ رَبِّـيْ وَسَيْفِـيْ إِذَا احْتَاجَ الْوَحِيدُ إِلَىٰ الذِّمَامِ[2]

* * *

(١) قال ابن السكِّيتِ : إذا عدَّتِ العربُ للسحابِ مِئَةَ برقةٍ . . لم تشكَّ بأنَّها ماطرةٌ قد سقت ، فتتبعُها على الثقةِ بالمطرِ .

(٢) يُذِمُّ : أي يعطيني الذمامَ ، وهوَ العهد والخِفَارَةُ .

[قالَ أَبو الطَّيب ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ]

عَقَدْتُ بِٱلنَّجْمِ طَرْفِيْ فِيْ مَفاوِزِهِ   وَحُرَّ وَجْهِيْ بِحَرِّ ٱلشَّمْسِ إِذْ أَفَلاَ

لماذا سميت الصحراء مفازة؟

(المَفاوزُ) الفلواتُ المهلكةُ ، وسمَّوها كذلكَ تفاؤُلاً ، مِن مجازِ الضدِّ ، كما قالوا : للأعمىٰ (البصيرِ) ، و(الطرفُ) العينُ ، و(حُرُّ الوجهِ) أَشرفُ مكانٍ منهُ ، و(أَفلَ) غابَ .

من الممادح كثرة ركوب الليل، واجتياز الصحراء، وحرق الوجه من حر الشمس

يقولُ : إِنَّه يسيرُ لَيلاً ونهاراً ، ففيْ الليلِ يعقدُ طرفَهُ بالنجمِ ، وإِذا جاءَ النهارُ . . نصَّبَ وجهَهُ للشمسِ ، يهْتَدي نهاراً كما يهْتَدي بالنجومِ ليلاً ، وما زالتِ الْعَرَبُ تَمدحُ بركوبِ الليلِ وكثرةِ الأَسفارِ ، قالَ الأَعشىٰ في رثاءِ الْمُنْتَشِرِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مُهَفْهَفٌ أَهْضَمُ ٱلْكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ   عَنْهُ ٱلْقَمِيْصُ ، لِسَيْرِ ٱللَّيْلِ مُحْتَقِرُ[1]

وما أَثنىٰ عليهِ بأنخراقِ القميصِ . . إِلاَّ لطولِ أَسفارِهِ حتَّىٰ تَشقَّقَتْ ثيابُهُ .

وقالَ ذو الرُّمَّةِ يصفُ مسافِراً أَغفىٰ إِغفاءَةً ثمَّ ٱنتبهَ سريعاً [في « ديوانه » ٣/ ١٦٩١-١٦٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

طَوَىٰ طَيَّةً فَوْقَ ٱلْكَرَىٰ جَفْنَ عَيْنِهِ   عَلَىٰ رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَانِ ٱلْمَحَاذِرِ
قَلِيْلاً كَتَحْلِيْلِ ٱلأُلَىٰ ثُمَّ قَلَّصَتْ   بِهِ شِيْمَةٌ رَوْعَاءُ تقْلِيْصَ طَائِرِ[2]

---

(١) المهفهَفُ : الدقيقُ الخصرِ . الأَهضمُ الكشحينِ : لطيفُهُما .

(٢) الأُلى - جمع أَليَّةٍ - : وهي اليمينُ . قلَّصت بهِ شيمةٌ : أَي أَشخصتهُ طبيعةٌ روعاءُ عنِ المقامِ . روعاءُ : أَي رائعةٌ .

وقالَ مضرِّسُ بنُ ربعيٍّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَومٍ مِنَ ٱلشِّعْرَىٰ كَأَنَّ ظِبَاءَهُ ... كَوَاعِبُ مَقْصُورٌ عَلَيْهَا سُتُورُهَا[1]

تَدَلَّتْ عَلَيْهَا ٱلشَّمْسُ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلْحَرِّ يَرْمِي بِٱلسَّكِينَةِ نُورُهَا

نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَكُلِّفْتُ حَمْيَهُ ... أَفَانِينَ حُرْجُوجٍ بَطِيْءٌ فُتُورُهَا[2]

وَلَيْلٍ يَقُولُ ٱلْقَوْمُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ ... سَوَاءٌ بَصِيرَاتُ ٱلْعُيُونِ وَعُورُهَا

كَأَنَّ لَنَا مِنْهُ بُيُوتاً حَصِينَةً ... مُسُوحٌ أَعَالِيهَا وَسَاجٌ كُسُورُهَا[3]

تَجَاوَزْتُهُ فِي لَيْلَةٍ مُدْلَهِمَّةٍ ... يُنَادِي صَدَاهَا نَاقَتِي يَسْتَجِيرُهَا

وقالَ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَفِتْيَانٍ بَنَيْتُ لَهَا خِبَاءً ... عَلَىٰ قَوْسَيْنِ خَفَّاقاً مَرُوحَا

كَأَنَّا رَابِطُونَ بِهِ فُلُوّاً ... شَدِيدَ ٱلنَّزْوِ قَمَّاصاً رَمُوحَا[4]

نُقَوِّمُهُ وَتَهْتِكُهُ عَلَيْنَا ... سُهُومٌ تَسْفَعُ ٱلْوَجْهَ ٱلْوَضُوحَا[5]

وقالتْ جنوبُ ٱبنةُ العجلانِ ؛ ترثي أخاها عَمراً ذا الْكَلبِ [في «خزانة الأدب» ٢/٣٠٣ مِنَ المتقاربِ] :

وَخَرْقٍ تَجَاوَزْتَ مَجْهُولَةٍ ... بِوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشَكَّىٰ ٱلْكَلاَلاَ[6]

فَكُنْتَ ٱلنَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُ ... وَكُنْتَ دُجَىٰ ٱللَّيْلِ فِيهِ ٱلْهِلاَلاَ

---

(١) الأبيات للأعشى في «ديوانه» (١٧٠/ ١٧١). الشِّعرىٰ : كوكبٌ نيِّرٌ يطلعُ في شدَّةِ الحرِّ .

(٢) الحُرجُوجُ : الريحُ الباردةُ .

(٣) السَّاج : ضرب عظيم من الشجر . الكسر : جانب البيت .

(٤) الفُلوُّ : المهرُ . الرمَّاحُ : الذي يضربُ الحصى برجلِهِ .

(٥) تسفَعُ : تلفحُ وتغيِّرُ لون بشرته .

(٦) الخَرقُ : الأرض القفراء الواسعة . الوجناءُ : الضخمة . الحَرْفُ من الإبل : النجيبةُ الماضيةُ التي أمضتها الأسفارُ . الكَلالُ : الإعياءُ .

وَخَيْـلٍ سَمَـتْ لـكَ فُـرْسَـانُهَـا ... فَـوَلَّـوْا وَلَـمْ يَسْتَقِلُّـوْا قِبَـالاَ
وَكُـلُّ قَبِيْـلٍ وَإِنْ لَـمْ تَكُـنْ ... أَرَدْتَهُـمْ مِنْـكَ بَـاتُـوْا وِجَـالاَ[1]

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ البسيطِ] :

وَسَمْحَةِ ٱلْمَشْيِ شِمْلاَلٍ، قَطَعْتُ بِهَا ... أَرْضاً يَحَارُ بِهَا ٱلْهَادُوْنَ دَيْمُوْمَا
مَهَـامِهـاً وَحُـزُوْنـاً لاَ أَنِيْـسَ بِهَـا ... إِلاَّ ٱلصَّوَائِحَ وَٱلأَصْدَاءَ وَٱلْبُوْمَا[2]

وقالَ الفرزدقُ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٩١-٢٩٢ مِنَ الوافرِ] :

وَغَيَّـرَ لَـوْنَ رَاحِلَتِـيْ وَلَـوْنِـيْ ... تَـرَدِّيَّ ٱلْهَـوَاجِـرَ وَٱعْتِمَـامِـيْ
أَقُوْلُ لَهَا إِذَا ضَجَّتْ وَعَضَّتْ ... بِمَوْرِكَةِ ٱلْوِرَاكِ مَعَ ٱلزِّمَامِ[3]
عَـلاَمَ تَلَفَّتِيْـنَ وَأَنْـتِ تَحْتِـيْ ؟ ... وَخَيْـرُ ٱلنَّـاسِ كُلِّهِـمُ أَمَـامِـيْ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢١٣ مِنَ البسيطِ] :

مُسْتَقْبِلِيْـنَ رِيَـاحَ ٱلشَّـامِ تَضْـرِبُنَـا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيْفِ ٱلْقُطْنِ مَنْثُوْرِ[4]
عَلَـىٰ عَمَـائِمِنَـا تُلْقَـىٰ وَأَرْحُلِنَـا ... عَلَىٰ زَوَاحِفَ نُزْجِيْهَا مَحَاسِيْرِ[5]

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٦-٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

بَدَأْنَا بِهَا مِنْ سِيْفِ رَمْلٍ كُهَيْلَةٍ ... وَفِيْهَا نَشَاطٌ مِنْ مِرَاحٍ وَعَجْرَفُ[6]

---

(١) الوَجَلُ : الخوفُ .
(٢) الحزون : التلالُ المرتفعةُ .
(٣) المَورِكَةُ : المرفقةُ التي تكونُ عندَ قادمَةِ الرحلِ ، يضعُ الراكبُ رجلَهُ عليها ؛ ليستريحَ من وضعِ رِجلهِ في الركابِ . والوِراكُ : ثوبٌ يُزيَّنُ بهِ المَورِكُ .
(٤) الحاصبُ : الريحُ الشديدةُ تحملُ الحصباءَ .
(٥) الزواحفُ : النياقُ المعييَّةُ . نُزجيها : نسوقُها . محاسيرُ ـ جمعُ محسورٍ ـ : وهوَ الكليلُ .
(٦) السِّيفُ : الساحلُ . كُهَيلةُ : موضعٌ . مِراحٌ وعجرَفٌ : الأشر والاختيال .

فَمَا بَلَغَتْ حَتَّىٰ تَقَارَبَ خَطْوُهَا وَبَادَتْ ذُرَاهَا وَٱلْمَنَاسِمُ رُعَّفُ[1]

وَحَتَّىٰ قَتَلْنَا ٱلْجَهْلَ عَنْهَا وَغُوْدِرَتْ إِذَا مَا أُنِيْخَتْ وَٱلْمَدَامِعُ ذُرَّفُ

وَحَتىٰ مَشَىٰ ٱلْحَادِيْ ٱلْبَطِيْءُ يَسُوْقُهَا لَهَا بَخَصٌ دَامٍ وَدَأْيٌ مُجَلَّفُ[2]

وَحَتَّىٰ بَعَثْنَاهَا وَمَا فِيْ يَدٍ لَهَا إِذَا حُلَّ عَنْهَا رُمَّةٌ وَهْيَ رُسَّفُ[3]

من قصيدةٍ طويلةٍ أَغارَ علىٰ كثيرٍ مِن مَعانيها مروانُ بنُ أَبي حفصةَ إِذْ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٦ـ١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ وَاحِدِ ٱلدُّنْيَا تَخَطَّتْ رِكَابُنَا تَنَائِفَ فِيْمَا بَيْنَهَا ٱلرِّيْحُ تَلْغَبُ[4]

كَأَنَّ دَلِيْلَ ٱلْقَوْمِ بَيْنَ سُهُوْبِهَا طَرِيْدُ دَمٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ يَهْرُبُ

بَدَأْنَا عَلَيْهَا وَهْيَ ذَاتُ عَجَارِفٍ تَقَاذَفُ كِبْرَاً فِيْ ٱلْبُرَىٰ حِيْنَ تُجْذَبُ[5]

فَمَا بَلَغَتْ صَنْعَاءَ حَتَّىٰ تَبَدَّلَتْ حُلُوْماً وَقَدْ كَانَتْ مِنَ ٱلْجَهْلِ تَشْغَبُ

إِلَىٰ بَابِ مَعْنٍ يَنْتَهِيْ كُلُّ رَاغِبٍ يُرَجِّيْ ٱلنَّدَىٰ أَوْ خَائِفٍ يَتَرَقَّبُ

جَرَىٰ سَابِقاً مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِيْ بِهِ يَفْخَرُ ٱلْحَيَّانِ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ

مُحَالِفُ صَوْلاتٍ تُمِيْتُ وَنَائِلٍ يَرِيْشُ فَمَا يَنْفَكُّ يُرْجَىٰ وَيُرْهَبُ[6]

وإِنَّما ٱستوفيتُها لعذوبتِها وإِنْ خرجَ بعضُها عنِ الموضوعِ ،

---

(١) ذُراها : أَعالي أَسنمَتِها . المناسمُ ـ جمعُ منسِمٍ ـ : وهوَ خفُّ البعيرِ . رُعَّفُ : ترعفُ دماً .

(٢) البَخَصُ : لحمُ الخفِّ . الدأْيُ : فقارُ الظهرِ . مُجلَّفٌ : مُقشَّرٌ .

(٣) الرُّمةُ : القطعةُ من الحَبْلِ . رُسَّفُ : مشيةُ المقيَّدِ .

(٤) تَلْغَبُ : تتعبُ .

(٥) العجارفُ ـ جمعُ عجرَفةٍ ـ : وهي السرعةُ في المشيِ . البُرى ـ جمعُ بَرَّيَةٍ ـ : وهيَ الصحراءُ .

(٦) رَاشَ : أَعطى .

وقولُه : ـ (كَأَنَّ دَلِيْلَ ٱلْقَوْمِ) إِلىٰ آخرِ البيتِ ـ يناسبُ بيتَ الناظمِ الذي قبلَ هٰذا .

وقالَ لبيدٌ [في « ديوانِهِ » ٧٦ مِنَ الوافرِ] :

عُـذَافِـرَةٌ تَقَمَّـصُ بِـالـرُّدَافِـيْ تَخَوَّنَهَا نُزُوْلِيْ وَٱرْتِحَالِيْ[١]

وقالَ المؤَمَّلُ بنُ أُمَيْلٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٣٢ مِنَ الكاملِ] :

كَانَتْ تُقَيَّدُ حِيْنَ تَنْزِلُ مَنْزِلاً فَٱلْيَوْمَ صَارَ لَهَا ٱلكَلاَلُ قُيُوْدَا

وَٱلْقَوْمُ كَٱلْعِيْدَانِ يَفْضُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً كَذَاكَ يَفُوْقُ عُوْدٌ عُوْدَا

وقالَ الأَخطلُ [في « ديوانه » ٢٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا زَالَ عَنْهَا ٱلسَّيْرُ حَتَّىٰ تَوَاضَعَتْ عَـرَائِكُهَـا مِمَّـا تَحُـلُّ وَتُـرْحَـلُ[٢]

وقالَ جريرٌ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

ظَلَلْنَـا بِمُسْتَـنِّ ٱلْحَـرُوْرِ كَـأَنَّنَـا لَدَىٰ فَرَسٍ مُسْتَقْبِلِ ٱلرِّيْحِ صَائِمِ[٣]

أَغَـرُّ مِـنَ البُلْـقِ الْعِتَـاقِ يَشُفُّـهُ أَذَىٰ ٱلْبَقِّ إِلاَّ مَا ٱحْتَمَىٰ بِٱلْقَوَائِمِ[٤]

وَظَلَّـتْ قَـرَاقِيْـرُ ٱلْفَلاَةِ مُنَـاخَـةً بِأَكْوَارِهَا مَعْكُوْسَةً بِٱلْخَزَائِمِ

أَنَخْـنَ لِتَغْـوِيْـرٍ وَقَـدْ وَقَـدَ ٱلْحَصَـىٰ وَذَابَ لُعَابُ ٱلشَّمْسِ فَوْقَ ٱلْجَمَاجِمِ

---

(١) **العُذافِرَةُ** : الضخمةُ القويَّةُ . **تَقَمَّصُ** : تنزو بهِ . **الرُّدافي** : راكبها الذي يرتدفُ خلفَ الراكبِ ، وإنَّما ذلكَ مِن نشاطها ومَرَحِها . **تخوَّنَها** : تنقَّصَها وذهبَ بلحمِها .

(٢) **عرائِكُها** ـ جمعُ عريكةٍ ـ : وهوَ السنامُ .

(٣) **مستنُّ الحرورِ** : مشتدُّ حرِّها . **صائمٌ** : أي قائمٌ على قوائمهِ الأربعِ من غير أن يطعَمَ شيئاً .

(٤) **البَلَقُ** : السوادُ في البياضِ .

وقالَ الطَّائِيُّ [أبو تمام في « ديوانهِ » مِنَ الكاملِ] :

سَفَعَ ٱلدُّؤُوْبُ وُجُوْهَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ ... وَأَبُـوْهُـمُ سَـامٌ أَبُـوْهُـمْ حَـامُ[1]

وقالَ [في « ديوانه » مِنَ الكاملِ] :

مَا ٱبْيَضَّ وَجْهُ ٱلْمَرْءِ فِيْ طَلَبِ ٱلْعُلاَ ... حَتَّـىٰ يُسَـوِّدَ وَجْهَـهُ فِـيْ ٱلْبِيْـدِ

وقالَ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

سَلِيْ هَلْ عَمَرْتُ ٱلْقَفْرَ وَهْوَ سَبَاسِبٌ ... وَغَادَرْتُ رَبْعِيْ مِنْ رِكَابِيْ سَبَاسِبَا[2]

وَغَرَّبْتُ حَتَّىٰ لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ ... وَشَرَّقْتُ حَتَّىٰ قَدْ نَسِيْتُ ٱلْمَغَارِبَا

فأَغارَ عليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/١٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَشَرَّقَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ ... وَغَرَّبَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ

وقالَ الأَخطلُ يمدحُ بِشْرَ بنَ مروانَ [في « ديوانهِ » ٢٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمُسْتَقْبِلٍ لَفْحَ ٱلْحَرُوْرِ بِحَاجَةٍ ... إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهْ

الشجاع لا يثني عزمه عن الخروج النساء الجميلات

وقالَ الحُطَيئَةُ فيما لا يخرجُ عنهُ يمدحُ سعيدَ بنَ العاصِ [في « ديوانه » ٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا هَمَّ بِٱلأَعْدَاءِ لَمْ يُثْنِ عَزْمَهُ ... كَعَابٌ عَلَيْهَا لُؤْلُؤٌ وَشُنُوْفُ[3]

---

(١) سفعت الشمسُ وجهَهُ : لفحتْهُ لفحاً شديداً وَغيَّرتْ لونَ بشرتِهِ وسوَّدتهُ. الدؤوبُ : المبالغةُ في السيرِ . سامٌ وحامٌ : ابنا سيِّدِنا نوح عليه السلام ، اللذانِ تفرَّعَ مِن نسلِهما البشرُ ، فتفرَّعَ مِنَ حامٍ العرقُ الأَسودُ ، ومِن سامٍ العرقُ الأَبيضُ .

(٢) السَّبسَبُ : القفرُ والمفازةُ .

(٣) الكَعَاب ـ جمع كاعِبٍ ـ : وهيَ التي بدا نهدُها . الشنوف ـ جمع شَنْفٍ ـ : وهو القُرْطُ .

حَصَانٌ لَهَا فِيْ ٱلْبَيْتِ زِيٌّ وَبَهْجَةٌ   وَمَشْيٌ كَمَا تَمْشِيْ ٱلْقَطَاةُ قُطُوْفُ[1]
وَلَوْ شَاءَ وَارَىٰ ٱلشَّمْسَ مِنْ دُوْنِ وَجْهِهِ   حِجَابٌ وَمَطْوِيُّ ٱلسَّرَاةِ مَنِيْفُ[2]

مناشدة عاتكة بنت يزيد لعبد الملك بن مروان في عدم الخروج لمصعب بن الزبير

ولمَّا ٱعتزمَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لقتالِ مصعبِ بنِ الزبيرِ.. ناشدتْهُ عاتِكَةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاويةَ ـ وكانَتْ زوجَه ـ أَنْ لا يخرجَ بنفسِهِ ، وأَمسَكَتْ بثوبِهِ فلمْ يُجِبْ ، فبكَتْ عندَ ذلكَ ، وبكَتْ حشَمُها وخدمُها لبكائِها ، فقالَ : قاتلَ اللهُ ٱبنَ أَبي جمعةَ ، فلكأَنَّما نظرَ إِلينا في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا مَا أَرَادَ ٱلْغَزْوَ لَمْ تَثْنِ هَمَّهُ   حَصَانٌ عَلَيْهَا عِقْدُ دُرٍّ يَزِيْنُهَا[3]
نَهَتْهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ ٱلنَّهْيَ عَاقَهُ   بَكَتْ فَبَكَىٰ مِمَّا شَجَاهَا قَطِيْنُهَا

غيرَ أَنَّه يؤخذُ عليهِ ما أُخذَ علىٰ قيسِ بنِ الخَطيمِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجِيْدٍ كَجِيْدِ ٱلرِّئْمِ صَافٍ يَزِيْنُهُ   تَوَقُّدُ يَاقُوْتٍ وَفَضْلُ زُمُرُّدِ[4]
كَأَنَّ ٱلثُّرَيَّا فَوْقَ ثُغْرَةِ نَحْرِهَا   تَـوَقَّـدُ فِـيْ ٱلظَّلْمَـاءِ أَيَّ تَـوَقُّـدِ

مَن يُزَيِّنُ مَن؟!

وإِنَّما الأَليقُ بالمقامِ ما كانَ من نوعِ ما تمثَّلَ بهِ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ العنبريُّ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لمَّا وَليَ الخلافةَ ، وهوَ قولُ الشاعرِ [في « البيان والتبيين » ١/ ١١٢ مِنَ الخفيفِ] :

وَإِذَا ٱلـدُّرُّ زَانَ حُسْـنَ وُجُـوْهٍ   كَانَ لِلْدُرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زِيْنَا

---

(١) الحصانُ : الشريفةُ العفيفةُ . القُطوفُ : البُطء في المشي .
(٢) مطويُّ السَّراةِ : مدمَّجُ الأَعلىٰ .
(٣) القصة في « طبقات فحول الشعراء » (٢/ ٥٤٣) .
(٤) الرئْمُ : ظبيٌ خالصُ البياضِ .

وقد يُتأوَّلُ لهما بأنَّ الحليَّ كما يزدانُ بالجمالِ ، كذلكَ يزينهُ ، وقد قالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٨٢ مِنَ الخفيفِ] :

أَنْتِ زِنْتِ ٱلْقَلَائِدَ ٱلزُّهْرَ قِدْمًا ... ضِعْفَ مَا زَانَتِ ٱلْقَلَائِدُ جِيْدَكْ

وبهِ ينتفي المقالُ ، وينحلُّ الإشكالُ .

الرباب بنت مصعب بن الزبير تفضح اللؤلؤ بجمالها

ويُذكرُ [في « المنتظم » (حتى سنة ٢٥٧) ٧/ ١٧٦] : أنَّ سكينةَ ٱبنةَ الحسينِ كانتْ لَها ٱبنةٌ مِنْ مصعبِ بنِ الزبير ، قد سمَّتْها علىٰ ٱسمِ أُمِّها بالرَّبابِ ، وكانَتْ تلبسُها اللؤلُؤَ وتقولُ : إنَّما أُلبسُها إيَّاهُ لتفضَحَه بجمالِهَا .

من الثناء بالضرب في الأرض: إيلاف قريش

ويدخلُ في الثناءِ بالضربِ في الأَرضِ إيلافُ قريشٍ ، فقد أَهلكَ اللهُ أَصحابَ الفيلِ ؛ لينتظمَ لقريشٍ إيلافُهم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ ، وليزيدَ ٱحترامُهم وتهيُّبُهم في نفوسِ العرب ، فيمتارونَ في رِحْلَتيهِم آمنينَ مطمئِنِّينَ ، بينَما غيرُهم يُتخَطَّفونَ ، ويُغارُ عَليهم وهم آمنون ، ولا سيَّما بعدَ مَهلِكِ أَصحابِ الفيلِ ، وفي هٰذهِ السورةِ مِنَ الشَّرفِ لآلِ عبدِ مَنَافٍ ما ينحدرُ عنهُ السيلُ ، ولا يرتقي إليهِ الطيرُ ؛ وذلكَ أَنَّهم هُمُ الذين أَخذوا العَصْمَ مِنَ الملوكِ لِتَسهيلِ السبيلِ ، فٱلإيلافُ إيلافُهم علىٰ الخصوصِ ، لا إيلافُ قريشٍ إلاَّ بطريقِ التبعيَّةِ ، ولكنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ شرَّفَ قدرَهم فجعلَهُم الكلَّ ، وسائِرُ قريشٍ ضمائِمُ إليهم ، علىٰ حدِّ قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « ٱلحَجُّ عَرَفَةُ »[١] .

---

(١) أخرجه عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٣٠٤٤) ، وابن ماجه (٣٠١٥) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٣٥) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٤/ ٢٥٧) ، =

وبيتُ الناظمِ الذي نخوضُ فيهِ ناظرٌ إلىٰ قولِ حُميدٍ [مِنَ البسيطِ] :

تَيْهَاءُ لا يَتَخَطَّاهَا ٱلدَّلِيْلُ بِهَا ... إلاَّ وَنَـاظِـرُهُ بِـٱلنَّجْـمِ مَعْقُـوْدُ

المتنبي وكثرة مدحه في الضرب في الأرض

وما أكثرَ ما يذكرُ الناظمُ الرحلةَ والتجوُّلَ في البلادِ ، ويمدحُ بهِ ، فلا نقدرُ أَنْ نحصيَ ما له في ذلكَ ، ولٰكنْ نذكرُ بعضَهُ ، فمنهُ قولُهُ يمدحُ سيفَ الدولةِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٤٤ مِنَ الخفيفِ] :

كُـلَّ يَـوْمٍ لَـكَ ٱحْتِمَـالٌ جَـدِيْـدٌ ... وَمَسِيْـرٌ لِلْمَجْـدِ فِيْـهِ مُقَـامُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ لِيْ: مَا أَنْتَ؟ فِيْ كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَمَا تَبْتَغِيْ؟ مَا أَبْتَغِيْ جَلَّ أَنْ يُسْمَىٰ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٩٧ مِنَ الكاملِ] :

وَقَطَعْتُ فِيْ ٱلدُّنْيَا ٱلْفَلاَ وَرَكَائِبِيْ ... فِيْهَا وَوَقْتَيَّ ٱلضُّحَىٰ وَٱلْمَوْهِنَا[1]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٤٢ مِنَ الوافرِ] :

أُعَرِّضُ لِلرِّمَاحِ ٱلصُّمِّ نَحْرِيْ ... وَأَنْصِـبُ حُـرَّ وَجْهِـيْ لِلْهَجِيْـرِ
وَأَسْرِيْ فِيْ ظَلاَمِ ٱللَّيْلِ وَحْدِيْ ... كَـأَنِّـيْ مِنْـهُ فِـيْ قَمَـرٍ مُنِيْـرِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٥١ مِنَ الخفيفِ] :

صَحِبَتْنِـيْ عَلَـىٰ ٱلْفَـلاَةِ فَتَـاةٌ ... عَادَةُ ٱللَّوْنِ عِنْدَهَا ٱلتَّبْدِيْلُ[2]

= والبيهقي (٥/ ١٥٢) بألفاظ متقاربة قال النواوي في « المجموع » (٨/ ٩٩) : صحيح .

(١) الموهِنُ : آخرُ الليلِ .

(٢) الفتاةُ : الشمسُ ، وجعلَها فتاة ؛ لأنَّ الزمانَ لا يؤثِّرُ فيها .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/ ٣٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـوَهَّـمَـهُ ٱلأَعْـدَاءُ سَـوْرَةَ مُتْـرَفٍ ... تُذَكِّرُهُ ٱلْبَيْدَاءُ ظِلَّ ٱلسُّرَادِقِ(١)

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ١/ ١٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

بِـأَيِّ بِـلاَدٍ لَـمْ أَجُـرَّ ذَوَائِبِـيْ ... وَأَيُّ مَكَـانٍ لَـمْ تَطَـأْهُ رَكَـائِبِـيْ

إِلَيَّ لَعَمْرِيْ قَصْدُ كُلِّ عَجِيْبَةٍ ... كَأَنِّيْ عَجِيْبٌ فِيْ عُيُوْنِ ٱلْعَجَائِبِ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ١/ ١٩٢ و ٢٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَغَيْـرُ فُـؤَادِيْ لِلْغَـوَانِـيْ رَمِيَّـةٌ ... وَغَيْرُ بَنَانِيْ لِلزُّجَاجِ رِكَابُ(٢)

وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ أَنْتِ إِلاَّ مُهَاجِراً ... لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ بَلْـدَةٌ وَصِحَـابُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/ ٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

يُكَلِّفُنِيْ ٱلتَّهْجِيْرَ فِيْ كُلِّ مَهْمَهٍ ... عَلِيْقِيْ مَرَاعِيْهِ وَزَادِيَ رُبْدُهُ(٣)

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٥١ـ٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بَرَانِيْ ٱلسُّرَىٰ بَرْيَ ٱلْمُدَىٰ فَرَدَدْنَنِيْ ... أَخَفَّ عَلَىٰ ٱلْمَرْكُوْبِ مِنْ نَفَسِيْ جِرْمِيْ(٤)

وَأَبْصَـرَ مِـنْ زَرْقَـاءِ جَـوٍّ لأَنَّنِـيْ ... إِذَا نَظَرَتْ عَيْنَايَ شَاءَهُمَا عِلْمِيْ(٥)

---

(١) السَّورةُ : الوثبةُ . المترفُ : المتنعِّمُ . السرادقُ : ما يكونُ حولَ الفسطاطِ .

(٢) رميَّةٌ : هي الطريدَةُ التي تُرمىٰ . والمعنىٰ : أني لستُ غزلاً زِيراً ، ولا أُحبُّ الخمرَ . فبَناني لا يركبُها الزجاجُ ؛ لأنّي لا أحملُ كأسَ الخمرِ بيدي .

(٣) الربْدُ : النعامُ التي خالط سوادَها بياضٌ . والمعنىٰ : أنَّ قلبي يكلِّفُني السيرَ في كلِّ هاجرةٍ ، وفي كلِّ فلاةٍ بعيدةٍ ، لا لفرسي عَليقٌ إلاَّ نبتُها ولا زادَ لي إلاَّ النعامُ أَصيدُها فآكلُها .

(٤) المُدى ـ جمع مديةٍ ـ : وهيَ السكينُ . جِرْمي : جسمي .

(٥) جوّ : قصبةُ اليمامةِ . زرقاءُ : آسمُ آمرأةٍ من أَهلِ جوٍّ ، حديدَةُ البصرِ ، كانت تدركُ ببصرِها الشيءَ البعيدَ ، فضربت العربُ بها المثلَ .

كَأَنِّي دَحَوْتُ ٱلأَرْضَ مِنْ خُبْرَةٍ بِهَا ... كَأَنِّي بَنَىٰ ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي[1]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ١٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

سَجِيَّـةُ نَفْـسٍ لاَ تَـزَالُ مُلِيْحَـةً ... عَنِ ٱلضَّيْمِ مَرْمِيّاً بِهَا كُلُّ مَخْرِمِ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٦٩ و ٣٧٢ مِنَ البسيطِ] :

صَحِبْتُ فِيْ ٱلْفَلَوَاتِ ٱلْوَحْشَ مُنْفَرِداً ... حَتَّىٰ تَعَجَّبَ مِنِّيْ ٱلْقُورُ وَٱلأَكَمُ[3]

فَـٱلْخَيْـلُ وَٱللَّيْـلُ وَٱلْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـيْ ... وَٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ وَٱلْقِرْطَاسُ وَٱلْقَلَمُ

أَرَىٰ ٱلنَّوَىٰ يَقْتَضِيْنِيْ كُلَّ مَرْحَلَةٍ ... لاَ تَسْتَقِلُّ بِهَا ٱلْوَخَّادَةُ ٱلرُّسُمُ[4]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٢٢٤ـ٢٢٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلِفْتُ تَرَحُّلِيْ وَجَعَلْتُ أَرْضِيْ ... قُتُـوْدِيْ وَٱلْغُـرَيْـرِيَّ ٱلْجِـلاَلاَ[5]

فَلاَ حَاوَلْتُ فِيْ أَرْضٍ مُقَاماً ... وَلاَ أَزْمَعْـتُ عَـنْ أَرْضٍ زَوَالاَ

عَلَـىٰ قَلَـقٍ كَـأَنَّ ٱلـرِّيْـحَ تَحْتِـيْ ... أُوَجِّهُهَـا جَنُـوْبَـاً أَوْ شَمَـالاَ

وقولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِـيْ كَبِـدٌ مِـنْ رأْيِ حِمَّتِهَـا ٱلنَّـوَىٰ ... فَتُرْكِبُنِيْ مِنْ عَزْمِهَا ٱلْمَرْكَبَ ٱلْوَعْرَا

---

(١) دَحوتُ : بسطتُ . الإسكندرُ : هو ذو القرنينِ .

(٢) المَليحَةُ : المشفقةُ من أن تُضامَ ، والتي أصابها الخوفُ . المَخرمُ : الطريق في الجبلِ .

(٣) القورُ ـ جمعُ قارَةٍ ـ : وهيَ الأكمَةُ .

(٤) النوى : البعدُ . الوخدُ والرَّسمُ : ضربانِ من السيرِ .

(٥) قُتودي ـ جمع قَتَدٍ ـ : وهو خشبُ الرحلِ . والغريريُّ : فحلٌ كانَ في الجاهليّةِ تنسبُ إليهِ كرامُ الإبلِ . والجِلالُ : ما يوضعُ علىٰ الدابَّةِ . والمعنىٰ : أنا كثيرُ الأسفارِ ، ومِن شدَّةِ ما أُسافرُ فكأنَّ الأرضَ بالنسبةِ لي خشباتُ الرَّحلِ ، وكأنَّ فرسي غطاءُ ذلكَ الرحلِ . والله أعلم .

أَخُـو هِمَـمٍ رَحَّـالَـةٌ لاَ تَـزَالُ بِـيْ   نَوَىً تَقْطَعُ ٱلْبَيْدَاءَ أَوْ أَقْطَعُ ٱلْعُمْرَا

وَمَنْ كَانَ عَزْمِيْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ   وَخُيِّلَ طُوْلُ الأَرْضِ فِيْ عَيْنِهِ شِبْرَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٥٥ـ١٥٦ مِنَ البسيطِ] :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِيْ ٱلنَّجْمَ فِيْ ٱلظُّلَمِ   وَمَـا سُـرَاهُ عَلَـىٰ خُـفٍّ وَلاَ قَـدَمِ

تُسَوِّدُ ٱلشَّمْسُ مِنَّا بِيْضَ أَوْجُهِنَا   وَلاَ تُسَوِّدُ بِيْضَ ٱلْعُذْرِ وَٱللِّمَمِ[1]

طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيْهَا بِأَرْجُلِهَا   حَتَّىٰ مَرَقْنَ بِنَا مِنْ جَوْشَ وَٱلْعَلَمِ[2]

تُبْـرِيْ لَهُـنَّ نَعَـامُ ٱلـدَّوِّ مُسْـرَجَـةً   يُعَارِضُ ٱلْجُدُلَ ٱلْمُرْخَاةَ بِٱللُّجُمِ[3]

المفاضلة بين بيت للمتنبي وبيت للطغرائي

وقد سُئِلتُ مرَّةً عَنِ البيتِ الأخيرِ ، وعَنْ قولِ الطغرائِيِّ [وهو من قصيدته المعروفة بلامية العجم ، في « وفيات الأعيان » ٢/ ١٨٧ مِنَ البسيطِ] :

فَأَدْرَأْ بِهَا فِيْ نُحُوْرِ ٱلْبِيْدِ جَافِلَةً   مُعَارِضَاتٍ مَثَانِيْ ٱللُّجْمِ بِٱلْجُدُلِ

وقيلَ لي : أَيُّهما أفضلُ ؟ فقلتُ : شَبَّه الناظمُ خيلَه بنعامِ الدَّوِّ ، وزعمَ أَنَّها أنبرَت تعارضُ أَزِمَّةَ الإِبلِ بأَعِنَّتِها ، و(الجُدُلُ) في البيتينِ جمعُ (جَدِيلٍ) وهو الزِّمامُ .

والطغرائيُّ جعلَ الإِبلَ معارضةً وجرَّدَ من نفسِهِ شخصاً قالَ لَه : أَدْرَأْ بها ـ يعني العيسَ المعلومةَ مِنَ المقامِ ، بقطعِ النظرِ عمَّا قبلَ

---

(١) العُذْرُ ـ جمع عذارٍ ـ والأصلُ عُذُرٌ وسكَّن الذالَ ضرورةً . واللِمَمُ ـ جمع لِمَّةٍ ـ : وهيَ الشَّعرُ الذي يلمُّ بالمنكبِ .

(٢) جوشُ والعلَمُ : موضعانِ ، وهما جبلانِ . ومرقنَ : شبَّهها بالسهم ؛ لسرعةِ سيرِها فاستعارَ لها المروقَ .

(٣) تُبْرِي : تعارضُ . الدَّوُّ : الفلاةُ المستويَةُ . وأراد بنعامِ الدوِّ الخيلَ ، شبَّهها بالنعامِ لسرعتِها وطولِ أَعناقِها .

البيتِ فإنِّي لا أَذكرُهُ[1] ـ وهيَ جافلةٌ في نحورِ البيدِ ، ودَعْها تعارضُ بأَزِمَّتِها مَثانِيَ لُجُمِ الخيلِ فَهما سواءٌ في أَصلِ المعنىٰ .

وكلٌّ مِنَ الخيلِ والإِبلِ يصلُحُ لأَن يكونَ الأَصلَ في وصفِ السيرِ بالسرعةِ والجدِّ ؛ لأَنَّ الخيلَ معروفةٌ بشدَّةِ عَدوها ، والإِبلَ معروفةٌ بأَنَّها أَصبرُ مِنها علىٰ قطعِ المسافاتِ البعيدةِ ، فكلَّما أَردتُ أَنْ أَخُصَّ كلامَ أَحدِهما بنوعٍ مِنَ القلبِ ، والخروجِ عَنْ مقتضىٰ الظاهرِ . . رَدَّني الآخَرُ إِليهِ ، غيرَ أَنَّ في بيتِ الناظمِ علىٰ التشبيهِ البليغِ للخيلِ بالنعامِ ثلاثةُ أَشياءَ :

أَحدُها : أَنَّ المباراةَ والمعارضَةَ شيءٌ واحدٌ .

ثانيها : أَنَّ لفظةَ (المرخاةِ) لا تَخلو عَنِ الرخاوةِ .

ثالثها : أَنَّ البيتَ متعلِّقٌ بما قبلَه غيرُ مستقلٍّ بنفسِهِ ، ولفظةُ (لَهُنَّ) فيه لا تُعرفُ مِنَ المَقامِ ، فلَيستْ مثلَ لفظةِ (بِها) في بيتِ الطُّغرائيِّ ، كما قرَّرناه .

ويمتازُ بيتُ الطُّغرائيِّ بأُمورٍ :

أَحدُها : قيامُه بذاتِه .

ثانيها : التجريدُ وهُوَ حَسَنٌ .

---

(١) والأبياتُ التي قبله ، كَما في « وفياتِ الأعيانِ » (٢/ ١٨٧) :

حُبُّ ٱلسَّلاَمَةِ يَثْنِيْ هَمَّ صَاحِبِهِ ... عَنِ ٱلْمَعَالِيْ وَيُغْرِيْ ٱلْمَرْءَ بِٱلْكَسَلِ

فَـإِنْ جَنَحْـتَ إِلَيْـهِ فَـٱتَّخِـذْ نَفَقـاً ... فِيْ ٱلأَرْضِ أَوْ سُلَّمَاً فِيْ ٱلْجَوِّ وَٱعْتَزِلِ

وَدَعْ غِمَـارَ ٱلْعُـلاَ لِلْمُقْـدِمِيْـنَ عَلَـىٰ ... رُكُـوْبِهَـا وَٱقْتَنِـعْ مِنْهُـنَّ بِـٱلْبَلَـلِ

رِضَىٰ ٱلذَّلِيْلِ بِخَفْضِ ٱلْعَيْشِ مَسْكَنَةٌ ... وَٱلْعِزُّ تَحْتَ رَسِيْمِ ٱلأَيْنُقِ ٱلذُّلُلِ

وإنما ذكرناها لعذوبتها والفائدة التي فيها .

ثالثُها : (نُحورُ البيدِ) فإِنَّه بديع .

رابعُها : (المثاني) فإِنَّها من فرائِدِ الأَلفاظِ .

خامِسُها : ما يحتملُ مِنَ الاستعارةِ البليغةِ في لفظةِ (ٱدْرَأْ) ؛ إذ لا مانعَ أَنْ يستعارَ فيها مَسيلُ الأَرضِ البعيدةِ للعيسِ المتراميةِ في المرامي السحيقةِ ، وعلىٰ كُلِّ حالٍ . . فكِلا البيتينِ تركيبُهُ جَزْلٌ ، ومعناهُ ضخمٌ ، غيرَ أَنَّ بيتَ الطُّغرائيِّ أَبلغُ وأَفْخَمُ وأَملأُ للفمِ ، وللناظمِ فضيلةُ السبق ، واللهُ أَعلمُ .

وأَمَّا قولُهُ : (تُسَوِّدُ الشمسُ منَّا بيضَ أَوجُهِنا . . . إِلىٰ آخرِهِ) فقدْ عَكَسَ فيهِ بعضَ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٧٥٩ مِنَ البسيطِ] :

رَدَّ ٱلْهَجِيْـرُ لِحَـاهُـمْ بَعْـدَ شُعْلَتِهَـا   سُوْداً فَعَادُوْا شَبَاباً بَعْدَ مَا ٱكْتَهَلُوْا

أفضل مراكب العرب الإبل وسبب ذلك

وعلىٰ ذكرِ الإِبلِ نقولُ : إِنَّها أَفضلُ مراكبِ العرب ، وإِنَّما ٱختاروها لِكثرتِها ، وصبرِها علىٰ التعبِ والعطشِ ، ومنهُ قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم « مَعَهَا سِقَاؤُهَا »[1] ، ولِهدايتِها إِلىٰ الطريقِ ، ولأَن عُنُقَها سُلَّمٌ إِليها ، ولِكمالِ ٱنقيادِها ، وحسنِ تسخيرِها ، حتَّىٰ إِنَّ الصبيَّ الصغيرَ يأْخذُ بزِمامِها ، فيذهبُ بِها حيثُ شاءَ فتتبعُهُ ، قالَ الحطيئَةُ [في « ديوانِهِ » ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَتَشْرَبُ بِٱلْقَعْبِ ٱلصَّغِيْرِ وإِنْ تُقَدْ   بِمِشْفَرِهَا يَوْماً إِلىٰ ٱلرَّحْلِ تَنْقَدِ[2]

وصف ابنة الخُس للإبل

قالتِ ٱبنةُ الخُسِّ [في « المستطرف » ٢/ ٢١٤] : ما خلقَ اللهُ خيراً مِنَ

---

(١) أخرجه عن زيد بن خالد الجهني البخاري (٩١) في العلم ، ومسلم (١٧٢٢) ، وأبو داوود (١٧٠٤) في اللقطة .

(٢) القَعْبُ : القدَح . المشفرُ : شفةُ البعير الغليظة .

الإبـلِ ، إنْ حملَـتْ أثقلَـتْ ، وإنْ سـارَتْ أبعـدَتْ ، وإنْ حُلِبَـتْ أَروَتْ ، وإنْ نُحِرَتْ أَشْبَعَتْ .

من عجائب الإبل

ومِنْ عجائِبِها : التأَثُّرُ بالحُدَاءِ ، إلىٰ حدٍّ أَنَّها تُهلِكُ نفسَها بطيِّ المهَامِهِ الشاسعَةِ ، في المدَّةِ القريبةِ ، بالأَحمالِ الثقيلَةِ .

عجيبـة أخـرى فـي هدايتها الطريق

ومِنْ هدايتِها : ما حكاهُ الإمامُ الرازيُّ قالَ [في «تفسيره» ٣١/١٥٧] :

كنتُ معَ جماعةٍ فضلَلْنَا الطريقَ ، فقدَّموا جملاً وتبعوهُ ، فكانَ ذلكَ الجملُ ينعطفُ مِنْ تلٍّ إلىٰ تلٍّ ، ومِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ ، حتَّىٰ وصلَ بنا إلىٰ الطريقِ بعدَ زمانٍ طويلٍ ، وقد كِدْنا نَهلكُ لولاهُ ، فتعجَّبنا مِن قوَّةِ تخيُّلِهِ وٱنحفاظِ الطريقِ لهُ مِنْ مرَّةٍ ، بما فيها مِنَ المعاطفِ .

ذكرها في القرآن الكريم وعند العرب

ومِنْ أَوبارِها تُتَّخذُ الأَكسيةُ الفاخرةُ ، وحسبُكَ ما أَشارَ إليهِ اللهُ مِنْ عجائبِها في مثلِ قولِهِ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ١٧ـ٢٠] ولولا كثرةُ عجائبِها . لَمَا قرنَها اللهُ جلَّ شأْنهُ بهٰذهِ المخلوقاتِ العظيمةِ ، فوَجهُ التناسبِ بينَ هـٰذهِ المعْطوفاتِ . . كثرةُ الآياتِ ، إلىٰ ما للعَربِ بها مِن دوامِ الملابساتِ ؛ إذِ العربيُّ لا يزالُ في سَفرٍ ، أَوِ ٱنتجاعِ مطرٍ ، وحينَئِذٍ لا يرَىٰ إلاَّ جَملَهُ ، والسماءَ مِنْ فوقِهِ ، والأَرضَ مِن تحتِهِ ، والجبالَ حواليْهِ ، وفي كلٍّ مِنْهَا الآياتُ الواضحةُ ، والبراهينُ الراجحَةُ ، وكَم للعربِ فيها من أَشعارٍ .

وحسبُكَ أَنَّ كعبَ بنَ زهيرٍ ٱستغْرَقَ طائفةً من قصيدَتِهِ ـ التي أدركَ بها خيرَ الدارينِ ـ في وَصفِ ناقتِهِ ، فلا أَحبَّ إليهِم مِنْها ، ولذا كانَتْ أَذْكَرَ مِنَ الخيلِ في أَخبارِهِم ـ معَ كثرةِ الخيلِ لَديهِم أَيضاً ، وٱعتنائِهِم

بها ومعرفَتِهِم بأَحوالِهَا ـ وقد أُفردَ جميعُ ذلكَ بالتأْليفِ ، وسبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ تناقضُ الناظمِ ، وٱدِّعاؤُهُ الفروسيَّةَ بكثرةٍ ، وٱعترافُهُ بالرجلةِ ذات المرّاتِ ، وبالبيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ذكرتُ قولَ البوصيريِّ [مِنَ الخفيفِ] :

يَتَّقِي حَرُّ وَجْهِيَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْبَرْ ... دَ وَقَدْ عَزَّ مِنْ لَظَىٰ ٱلِاتِّقَاءُ

تعرض النبي ﷺ للشمس يوم عرفة

وأَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : تعرَّضَ للشمسِ بـ(عرفةَ) ، عامَ حجةِ الوداعِ ، ولم يثبُت أَنَّه ٱستظلَّ بِها معَ شدَّةِ الحرِّ ، وطولِ الوقْتِ .

وقد حجَّ بعضُهم فأَرادَ أَنْ يتعرَّضَ للشمسِ ـ علىٰ ضعفِهِ وكِبَرِ سِنِّهِ ـ فقالَ لهُ أَصحابُهُ : لو أَخذتَ بالتَّوسِعَةِ . . فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

ضَحَيْتُ لَهُ كَيْ أَسْتَظِلَّ بِظِلِّهِ ... إِذَا الظِّلُّ أَضْحَىٰ فِيْ ٱلقِيَامَةِ قَالِصَا[1]

فَوَا أَسَفَا إِنْ كَانَ سَعْيُكَ بَاطِلاً ... وَوَاحَسْرَتَا إِنْ كَانَ حَجُّكَ نَاقِصَا

* * *

(١) ضحىٰ : خرجَ للشمسِ وبرزَ لها . قلَصَ الظِّلُّ : ٱنقبضَ ونقصَ .

[قالَ أَبو الطَّيب المتنبي في « العُكبريّ » ٣/ ١٧١ مِنَ البسيطِ] :

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ   تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلاَ

شرح المطلع

(أَنْكَحْتُ) كنايةٌ عَن شدَّةِ الإيطاءِ كما تنكحُ المرأَةُ . (الصُّمُّ) الصِّلاَبُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، والضميرُ في (حَصَاهَا) عائدٌ إِلىٰ المفازةِ . (تَغَشْمَرَتْ) تعسَّفَتْ ، يقولُ : أَوْطَأْتُ خُفَّ يَعْمُلَتِي ـ أَيْ : ناقَتي القويَّةِ ـ حَصا تلكَ المفازةِ ، وتقحَّمَتْ بي ناقَتي إِليكَ الحَزنَ والسهْلَ .

من عادة العرب ذكر ما يلاقون في أسفارهم لممدوحيهم

ومِنْ عادةِ العربِ أَنْ يَذْكروا في أَشعارِهم ما يلاقونَ من وعثاءِ السفرِ ، ونَكَدِ الطريقِ ، ليجبَ حقُّهُم علىٰ الممدوحينَ وتعظمَ مِنَّتُهم عليهِم ، فقد أَخرجَ ٱبنُ سعدٍ [في « طبقاته » ١/ ٣٥٠] : عَنْ هشامِ بنِ محمَّدٍ عَن عمروِ بنِ مهاجرِ الكنديِّ قالَ : قدمَ من (حضرموتَ) علىٰ النبيِّ ـ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ كُلَيْبُ بنُ أَسَدٍ فقالَ حينَ لاقاهُ [مِنَ البسيطِ] :

مِنْ وَشْزِ بَرْهُوْتَ تَهْوِيْ بِيْ عُذَافِرَةٌ   إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ[1]

شَهْرَيْنِ أَعْمَلْتُهَا نَصّاً عَلَىٰ وَجَلٍ   أَرْجُوْ بِذَاكَ ثَوَابَ ٱللهِ يَا رَجُلُ

وَقَالَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصةَ للمهديِّ [في « ديوانه » ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

قَصَرْنَا إِلَيْكَ ٱلنِّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا   مَسِيْرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهْ

---

(١) الوَشزُ : ما علا وٱرتفعَ مِنَ الأَرضِ . برهوتُ : ٱسمُ بئرٍ في (حضرموتَ) . العذافِرةُ : الناقةُ العظيمةُ الشديدةُ ، الوثيقةُ الخطوِ .

ولا يُحصىٰ كَثرةً ما في كلامِهِم مِن مثلِهِ ، فهوَ أَظهرُ مِن أَنْ يُستظهَرَ عليهِ بالشواهدِ والأَمثالِ ؛ لأَنَّهُ كلُّه من هـٰذا القبيلِ .

ورود ابن نباتة على ابن العميد

وقالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٠٥ـ١٠٦] : وَرَدَ ٱبنُ نباتَةَ السعديُّ علىٰ ٱبنِ العميدِ في (الريِّ) ، فمدحَهُ بقصيدةٍ يقولُ فيها [مِن مجزوءِ ٱلكاملِ] :

بَـــرَحُ ٱشْتِيَـــاقِـــيْ وَٱدِّكَـــارِ وَلَهِيْـــبُ أَنْفَـــاسٍ حِـــرَارِ
وَمَـــدَامِـــعٌ عَبَـــرَاتُهَـــا تَـــرْفَـــضُّ عَـــنْ نَـــومٍ مُطَـــارِ[1]
للهِ قَلْبِـــيْ مَـــا يُجِـــنُّ مِـــنَ ٱلْهُمُـــوْمِ وَمَـــا يُـــوَارِيْ
لَقَـــدِ ٱنْقَضَـــىٰ سُكْـــرُ ٱلشَّبَـــا بِ وَمَا ٱنْقَضَىٰ وَصَبُ ٱلْخُمَارِ[2]
وَكَبِـرْتُ عَـنْ وَصْـلِ ٱلصِّغَـارِ وَمَـــا سَلَـــوْتُ عَـــنِ ٱلصِّغَـــارِ
سَقْيَـــاً لِتَغْلِيْسِـــيْ إِلَـــىٰ بَـــابِ ٱلـــرُّصَـــافَـــةِ وَٱبْتِكَـــارِيْ
أَيَّـــامَ أَخْطِـــرُ فِـــيْ ٱلصِّبَـــا نَشْـــوَانَ مَسْحُـــوبَ ٱلإِزَارِ
حَجِّـــيْ إِلَـــىٰ حَجَـــرِ ٱلصَّـــرَا ةِ وَفِـيْ حَـدَائِقِهَـا ٱعْتِمَـارِيْ[3]
وَمَـــوَاطِـــنُ اللَّـــذَّاتِ أَوْ طَـــانِـــيْ وَدَارُ ٱللَّهْـــوِ دَارِيْ

منْهَا :

وَإِذا ٱسْتَهَـــلَّ ٱبْـــنُ ٱلْعَمِيْـــدِ تَضَـاءَلَـتْ دِيَـمُ ٱلْقِطَـارِ[4]

---

(١) ٱرفضَّ الدمعُ : سالَ وتتابعَ سيلانُهُ . مُطارٌ : منفيٌّ .
(٢) الوصبُ : الوجعُ والمرضُ . الخُمار : ألم الخمر وصداعها وأذاها .
(٣) الصَّراةُ : نهرٌ بـ(العراقِ) .
(٤) استهلَّ : تبيَّنَ . دِيَمٌ ـ جمعُ ديمةٍ ـ : وهيَ المطرُ الذي ليسَ فيهِ رعدٌ ولا برقٌ ، وأقلُّهُ ثُلُثُ النهارِ ، أَو ثُلُثُ الليلِ . القِطارُ : المطرُ .

خَـــرِقٌ صَفَــتْ أَخْــلاَقُــهُ صَفْـوَ ٱلسَّبِيْـكِ مِـنَ ٱلنُّضَـارِ[1]

وَكَــأَنَّ نَشْــرَ حَــدِيْثِــهِ نَشْـرَ ٱلْخُـزَامَـىٰ وَٱلْعَـرَارِ[2]

تأخر الصلة عن ابن نباتة وتبيينه لوجوب حقه على ابن العميد والسجال بينهما

فتأَخَّرتْ صلَتُهُ عنهُ ، فشفعَ القصيدةَ بأُخرىٰ ، وأَتبعَها برقعَةٍ ، فلَم يزدهُ ٱبنُ العميدِ إِلاَّ إِهمالاً وٱطِّراحاً ، فتوسَّلَ إِلىٰ أَنْ دَخلَ عليهِ في مجلسٍ حفلَ بأَربابِ الدَّولةِ ، وأَعيانِ الديوانِ ، فوقفَ وقالَ :

إِنِّي لزمتكَ لُزومَ الظلِّ ، وذللتُ لكَ ذُلَّ النعلِ ، وأَكلتُ النوىٰ المحرَّقَ ؛ ٱنتظاراً لصلتكَ ، وما بي مِنَ الحرمانِ ، ولـٰكنْ شماتَة الأَعداءِ ، وهم قومٌ نَصَحوني فأَغْشَشْتُهم ، وصَدَقوني فٱتَّهَمتُهُم ، فبأَيِّ وجهٍ أَلقاهُم ؟ ولم أَحصلْ مِن مديحٍ ، بعدَ مديحٍ ، ونثرٍ بعدَ نظمٍ إِلاَّ علىٰ الندَمِ المؤلمِ ، والبأسِ المسقمِ !!

فحارَ رُشْدُ ٱبنِ العميدِ ، ولم يدرِ ما يقولُ ، ثمَّ رفعَ رأْسَهُ وقالَ : إِنَّ الوقتَ يضيقُ عنكَ في الاستزادةِ ، وعَني في الإِطالةِ المعذرةُ ، وإِذا تواهَبْنا ما دَفَعنا إِليهِ . ٱستأنفنا ما نتحامدُ عليهِ .

فقالَ ٱبنُ نباتَةَ : هـٰذهِ نفثةُ مصدورٍ مِن زمانٍ ، وفضلةُ لسانٍ خَرِسَ منذُ دهرٍ ، والمطلُ لُؤْمٌ .

فٱستشاطَ ٱبنُ العميدِ وقالَ : واللهِ ما أَستوجبُ هـٰذا العتبَ من أَحدٍ ، ولستَ وليَّ نِعمتي فأَحْتَمِلَك ، ولا صَنيعتي فأُغفيَ عَنك ، وبعضُ ما قرَّرْتَه في مَسامِعي ينغِّصُ مرَّةَ الحليمِ ، ويبدِّدُ صبرَ الوقورِ ، هـٰذا : وما ٱستقدَمتُك بكتابٍ ، ولا ٱستدعيتُكَ برسولٍ ، ولا سأَلتُكَ مدحي ، ولا كلَّفتكَ تقريظي .

---

(1) السبيكُ بمعنىٰ المسبوكِ ، وهوَ المصبوبُ مِنَ الذهبِ . النُّضارُ : الذهبُ .

(2) الخُزامىٰ والعَرارُ : نبتانِ طَيِّبَا الرَّائِحةِ .

فقالَ ٱبنُ نباتَةَ : صدقتَ ، ولٰكنَّكَ جلستَ في صدرِ ديوانِكَ بأُبَّهتكَ ، وقلتَ : لا ينازِعُني خَلْقٌ في السياسَةِ ، ولا يخاطِبُني أَحدٌ إلاَّ بالرئاسةِ ، فإنِّي زَعيمُ الحضرةِ ، وكاتبُ رُكْنِ الدولةِ ، فكأَنَّكَ دعوتَني بلسانِ الحالِ ، فثارَ ٱبنُ العميدِ مغضَباً ، وتقوَّضَ المجلسُ ، وماجَ الناسُ .

وخرجَ ٱبنُ نباتَةَ يقولُ : واللهِ لَسَفُّ الترابِ ، والمشيُ على الجمرِ ، أَهونُ مِن هٰذا ، فلعنَ اللهُ الأدبَ ، إذا كانَ بائِعُهُ مَهيناً ، ومُشْتَرِيهِ مُمَاكِساً ، ولَمَّا سَكَنَ غَيظُ ٱبنِ العميدِ ، وثابَ إليهِ حِلْمُهُ . . ٱلتَمَسَهُ مِنَ الغدِ ليكرِمَه ، فكأَنَّما غاصَ بينَ سمعِ الأَرضِ وبَصرِها ، فكانَتْ حَسْرةً في قلبِ ٱبنِ العميدِ ، حتَّىٰ ماتَ .

قالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٠٧] : ثمَّ وجدتُ صورةَ المجلسِ لغيرِ ٱبنِ نباتَةَ ، وكشفتُ « ديوانَهُ » فما وجدْتُ القصيدةَ ، وإنَّما وجدتُها بعدُ في كتابٍ لأَبي حيَّانَ التوحيديِّ معزوَّةً لأَبي محمَّدٍ عبدِ الرزاقِ بنِ الحسنِ ، المعروفِ بٱبنِ السبابِ البغداديِّ اللغويِّ المنطقيِّ الشاعرِ ، ووجدتُ هٰذهِ المخاطبةَ لشاعرٍ من أَهلِ الكرخِ يعرفُ بمَمْويه ، وإلىٰ هُنا ٱنتهىٰ كلامُ ٱبنِ خَلِّكانَ بنوعٍ مِنَ الاخْتصارِ .

قدوم بشار على خالد بن برمك

وبمناسبةِ قولِ ٱبنِ العميدِ : ما ٱستقدمتُكَ بكتابٍ . . إلخ ذكرتُ [ما رُوي في « الأغاني » ٣/١٩٩] : أَنَّ بشَّارَ بنَ بُرْدٍ قدمَ علىٰ خالدِ بنِ برمكَ بفارسَ ، فأَنشدهُ قولَهُ [في « ديوانهِ » ٤٧-٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَالِدُ لَم أَهْبِطْ عَلَيْكَ بِذِمَّةٍ سِوَىٰ أَنَّنِيْ عَافٍ وأَنْتَ جَوَادُ[1]

---

(١) العافي : طالبُ المعروفِ والرزقِ .

أَخَالِدُ إِنَّ ٱلأَجْرَ وَٱلْحَمْدَ حَاجَتِيْ فَـأَيُّهُمَـا تَـأْتِـيْ فَـأَنْـتَ عِمَـادُ
فَإِنْ تُعْطِنِيْ أُفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِيْ وَإِنْ تَأْبَ لَمْ تُضْرَبْ عَلَيَّ سِدَادُ[1]
رِكَابِيْ عَلَىٰ حَرْفٍ وَقَلْبِيْ مُشَيَّعٌ وَمَالِيْ بِأَرْضِ ٱلْبَاخِلِيْنَ بِلَادُ[2]
إِذا أَنْكَـرَتْنِـيْ بَلْـدَةٌ أَوْ نَكِـرْتُهَـا خَرَجْتُ مَعَ ٱلْبَازِيْ عَلَيَّ سَوَادُ[3]

إكرام خالد لبشار

فدعا خالدٌ بأَربعةِ آلافٍ ، في أَربعةِ أَكياسٍ : ووضعَ واحداً عَنْ يمينِهِ ، وآخرَ عن شمالِهِ ، والثالثَ بينَ يديهِ ، والرابعَ مِن خلفِهِ ، وقالَ : هلِ ٱستقلَّ العمادُ يا أَبا معاذٍ ؟ قالَ : إِي واللهِ .

ابن زريق البغدادي يقصد بعض الملوك طالباً معروفه

وذَكرَ غيرُ واحدٍ [منهم ابن السبكي في « طبقاته » ١/ ٣١١] : أَنَّ ٱبنَ زُرَيقٍ البغداديَّ الكاتبَ أَقشع[4] بهِ وطنهُ ، وحدَّثتهُ نفسهُ ، وناجتهُ آمالهُ ، فٱنتجع[5] بعضَ الملوكِ في أَرضٍ نائيةٍ ، ولمَّا وردهُ . . ٱمتدحهُ بقصيدةٍ ، فأَعطاهُ شيئاً يسيراً ؛ ليتعلَّلَ بهِ ريثما يتفرَّغُ لإِكرامهِ ومكافأَتِهِ ، فظنَّهُ آخر سهامِ الكنانةِ ، فٱنكسرتْ نفسهُ وقالَ :

خيبة أمله وموته كمداً

تكبَّدْتُ المشاقَّ ، وقطعتُ الصعابَ ، وخضتُ البحارَ ، وترامتْ بيَ القفارُ إِلىٰ هٰذا الأَميرِ ، ثمَّ لم يعطِني إِلاَّ هٰذا النزرَ الحقيرَ ، ولزمتهُ العلَّةُ حتَّىٰ ماتَ ، فٱنتبهُ الأَميرُ لشأْنِهِ ، وٱستدعاهُ فوجَدوا بابَ بيتِهِ مغلقاً مِنْ داخلٍ ، فٱقتحموهُ . . فأَلفوهُ ميْتاً وتحتَ

---

(١) السدادُ : ما يُسدُّ به فمُ القارورة .
(٢) الحرفُ : الناقة الضامرةُ . مشيَّعٌ : شجاعٌ .
(٣) البازي : الصقرُ ، وهو أَبكرُ الطيورِ خروجاً . السوادُ : المقصود به سوادُ الليلِ .
(٤) القشعُ : يبوسُ الجلدِ ، والمرادُ بهِ الفاقةُ التي أَصابتهُ في وطنهِ .
(٥) ٱنتجعَ : أَتى إِنساناً يطلبُ معروفَهُ .

رأسِهِ القصيدةُ المستهلَّةُ بقولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ تعْـذُلِيْـهِ فَـإِنَّ ٱلْعَـذْلَ يُـوْلِعُـهُ   قَدْ قُلْتِ حَقّاً وَلَـٰكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

فتحرَّكَ لها الأَميرُ ، وٱهتزَّ ، وفاضتْ عَبرتُهُ ، وقالَ : وددتُ أَنْ لو كانَ حيّاً . . فأُشاطِرَهُ مُلكي ، ثمَّ طالعَ أَهلَهُ بحالِهِ ، وبعثَ لَهم بأَربعةِ آلافِ دينارٍ[1] .

سكينة بنت الحسين
تفاضل بين الشعراء

وقَدمَ الفرزدقُ علىٰ سُكَينةَ بنتِ الحسينِ رضوانُ اللهِ عليهِم ، فقالتْ لهُ [كما في « المنتظم (حتى سنة ٢٥٧) » ٧/١٧٦] : مَن أَشعرُ الناسِ ؟ قالَ : أَنا ، قالت : كذبتَ ، أَشعرُ مِنكَ الذي يقولُ [جرير في « ديوانه » مِنَ الوافرِ] :

بِنَفْسِـيْ مَـنْ تَجَنُّبُـهُ عَـزِيْـزٌ   عَلَـيَّ وَمَـنْ زِيَـارَتُـهُ لِمَـامُ[2]

وَمَـنْ أَمْسَـىٰ وَأَصْبَـحَ لاَ أَرَاهُ   وَيَطْـرُقُنِـيْ إِذَا هَجَـعَ ٱلنِّيَـامُ

ثمَّ عادَ مِن الغدِ ، فقالتْ : مَن أَشعرُ الناس ؟ قالَ : أَنا ، قالتْ : كذبتَ ، أَشعرُ منكَ الذي يقولُ [الأحوص في « وفيات الأعيان » ٢/٢٩٧ مِنَ الكاملِ] :

يَـا دَارَ عَـاتِكَـةَ ٱلَّتِـي أَتعَـزَّلُ   حَذَرَ ٱلْعِدَا وَبِهِ ٱلْفُؤَادُ مُوَكَّلُ

فقالَ : يا ٱبنةَ رسولِ اللهِ . . إِنَّ لي حقّاً بإِقبالي عليكِ مِن (مكَّةَ) ، فلمْ تسمعي شِعْري ، ولمْ تزيدِيني علىٰ التكذيبِ ، معَ أَنّي لأَخافُ لما أَصابني أَن أَموتَ ، فإِذا مِتُّ . . فَحاجتي إِليكِ . .

---

(١) ولكن في « الطبقات » خمسة آلاف .

(٢) لِمامٌ : أي في الأحايينِ .

تُكَفِّنِيني في هٰذهِ الثيابِ ـ وأَشارَ إلىٰ جاريةٍ لَها[1] ـ فقالت : هيَ لكَ ، وضمَّتْ إليها كسوةً وجائِزةً .

وموضعُ الشاهدِ مِنْ هٰذا . . قولُهُ : إنَّ لي حقّاً عليكِ إلىٰ آخرهِ ، وصدقَ في ذلكَ ، فإنَّ مَن علَّقَ رجَاءَهُ بإنسانٍ ، وقطعَ إليهِ السهوبَ ، واجتازَ المهالِكَ يختبطُ الدُّجىٰ ، ويعتلجُ صدرَهُ اليأسُ والرجاءُ . . لجديرٌ أن تعجَّلَ أوبتُهُ ، وتُجْزَلَ مثوبتُهُ .

قبول النبي ﷺ الشعر والأئمة الأعلام

ومِنْ هديهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : قَبولُ الشِّعرِ ، وإجزالُ الثوابِ عليهِ ، وحديثُهُ معَ كعبٍ مشهورٌ ، فلقد حقنَ دمهُ ، وكساهُ بردتَهُ ، وأكرمَهُ ـ كما في روايةٍ ـ بمئةٍ مِن الإبلِ ، واقتفاهُ الخلفاءُ ، والأُمراءُ ، وآلُ البيتِ ، وغيرهُم مِنَ الناسِ .

الفاروق يمنع الحطيئة من قول الشعر

غيرَ أَنَّ ابنَ الخطَّابِ منعَ الهجاءَ ، فاضطرَّ الحُطيئةُ أَنْ يقولَ [مِنَ الكاملِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِيْ أَمسَتْ لَهُ ... بُصْرَىٰ وَغَزَّةُ سَهْلُهَا وَٱلأَجْرَعُ[2]

وَمَلِيكُهَا فَجُبَاتُهَا عَنْ أَمْرِهِ ... تُعْطِيْ ٱلنَّوَالَ لِمَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ

أَشْكُوْ إِلَيْكَ بَلِيَّتِيْ مِنْ صِبْيَةٍ ... لاَ يَشْبَعُوْنَ وَأُمُّهُمْ لاَ تَشْبَعُ

وَبُعِثْتَ لِلْشُّعَرَاءِ مَبْعَثَ دَاحِسٍ ... أَوْ كَٱلْبَسُوْسِ بِرَدْعِهَا تَتَكَوَّعُ[3]

وَمَنَعْتَنِيْ شَتْمَ ٱلْبَخِيْلِ فَلَمْ يَخَفْ ... ضُرِّيْ وَأَصْبَحَ آمِناً لاَ يَفْزَعُ

---

(١) أرادَ منها أَنْ تضعَهُ في أَعطافِ هذهِ الجاريةِ ، وَأَنْ تُدخِلَهُ فِي حِرِهَا ، كما يوضعُ الميْتُ في القبرِ .

(٢) الأرضُ الجَرعةُ : هيَ الأرضُ الطيبةُ المنبتِ لا وعوثةَ فيها .

(٣) الردعُ : تلطيخُ الدمِ . تتكوَّعُ : تمشي على كوعها من شدَّةِ الحرِّ وهي مشيَةُ الكلبِ ، والكوعُ طرَفُ الزندِ ممَّا يلي الرسغَ .

عمر بن عبد العزيز والأحوص

ولمَّا توقَّفَ ٱبنُ عبدِ العزيزِ عَن إعطاءِ الشعراءِ.. ذكَّرهُ الأحوصُ، وأشارَ إلىٰ ما سبقَ من روايةٍ أنَّهُ عليهِ السلامُ أعطىٰ كعباً مئةَ ناقةٍ، بقولِهِ [في «المنتظم» ٧/٤١ مِنَ الطَّويلِ]:

وَقَبْلَكَ مَا أَعْطَىٰ هُنَيْدَةَ جُلَّةً عَلَىٰ ٱلشِّعْرِ كَعْباً مِنْ سَدِيْسٍ وَبَازِلِ[1]
رَسُوْلُ ٱلإِلَـٰهِ ٱلْمُسْتَضَاءُ بِنُوْرِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِٱلضُّحَىٰ وَٱلأَصَائِلِ

وهـٰذهِ قد تغايرُ ما سبقَ مِن ثَواءِ الأحوصِ بالسجنِ طيلةَ خلافةِ ٱبنِ عبدِ العزيزِ.

سبب اتصال مروان بن أبي حفصة بالعباسيين

وسببُ ٱتصالِ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ بخلفاءِ بني العباسِ.. أنَّ المنصورَ سمعَ شعراً لهُ في بعضِ الرؤساءِ يذكرُ فيهِ وراثةَ بني العباسِ، فٱستحضرهُ، فوافاهُ في علَّةِ الموتِ، فقالَ لهُ الربيعُ: ٱلحَقْ بالمهديِّ، فقدمَ عليهِ، وقد مدحهُ بأربعِ قصائدَ: مطلعُ الأُولىٰ [في «ديوانهِ» ٩٤ مِنَ الطَّويلِ]:

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَٱسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِيْنَ أَقْصَرَ بَاطِلُهْ

والثانيةِ [في «ديوانهِ» ١٠٤ مِنَ الكاملِ]:

طَافَ ٱلْخَيَالُ فَحَيِّهِ بِسَلَامِ أَنَّىٰ أَلَمَّ وَلَيْسَ حِيْنَ لِمَامِ[2]

والثالثةِ [في «ديوانهِ» ٧٠ مِنَ الكاملِ]:

اِعْصِ ٱلْهَوَىٰ وَتَعَزَّ عَنْ سُعْدَاكَا فَلَمِثْلُ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نَهَاكَا

---

(١) السديسُ مِنَ الإبلِ: ما دخلَ في الثامنةِ، والبازلُ: ما دخلَ في التاسعةِ وبعدَها.
(٢) طافَ: زارَ.

والرابعةِ [في « ديوانه » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

مَرَىٰ ٱلْعَيْنَ شَوْقٌ حَالَ دُوْنَ ٱلتَّجَلُّدِ فَفَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ ٱلدَّمْعِ حُشَّدِ[١]

فأعطاهُ ثَلاثينَ ألفَ درهمٍ ، فانصرفَ إلىٰ (اليمامةِ) ، ثمَّ عادَ بعدَ مدَّةٍ واتصلَ بيعقوبَ بنِ داوودَ ، فاتفقَ أَنْ غضِبَ المهديُّ علىٰ يعقوبَ ، واعتقلَهُ ، فتوسَّلَ مروانُ بالحسنِ الحاجبِ ، فتحمَّلَ عنه قصيدتينِ ، في إحداهُما استعطافٌ للمهديِّ ، وفي الأُخرىٰ هجاءٌ ليعقوبَ ، ووضعَهما في يدِ المهديِّ ، فاستَحسَنَهما وضربَ لهُ موعداً يومَ الخميسِ ، فجاءَ . . فإذا وجوهُ بني العبَّاسِ يدخلونَ ، فلما تتامَّ المجلسُ . . دُعيَ ، فدخلَ فسلَّمَ ، فردَّ السلامَ ، وقالَ : إنَّما حبسكَ عن الدخولِ انقطاعكَ إلىٰ الفاسقِ ابنِ داوودَ ، فافتتحَ النشيدَ بما قالَ في يعقوبَ : ثمَّ أنشدهُ قولَهُ فيهِ [مِنَ الكاملِ] :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا

فاهتزَّ المهديُّ ، وتحرَّكَ ، وقالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقالَ مروانُ : اشهَدوا ، هٰذا واللهِ الشرفُ ، يقول لي أَمير المؤمنينَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، ثمَّ أنشدَهُ قصيدتَه التي يقولُ في أوَّلها [مِنَ الطَّويلِ] :

أَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ ٱلأَحِبَّةِ عَائِدُ

وقد سبقَتْ طائفةٌ مِنها في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وهي من مختارِ الكلامِ ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ قولِهِ مِنها [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ مُحَمَّداً لِرَأْفَتِهِ بِٱلنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ

---

(١) مرىٰ : استدرَّ . حُشَّدٌ : غزيرةٌ .

عَلَىٰ أَنَّ مَنْ قَدْ خَالَفَ ٱلْحَقَّ مِنهُمُ ... سَقَتْهُ بِهِ ٱلْمَوْتَ ٱلْحُتُوْفُ ٱلرَّوَاصِدُ
يَزِيْنُ بَنِيْ سَاقِيْ ٱلْحَجِيْجِ خَلِيْفَةٌ ... عَلَىٰ وَجْهِهِ نُوْرٌ مِن ٱلْحَقِّ شَاهِدُ

.. أَشارَ عليهِ فأَمسكَ ، فقالَ المهديُّ : يا بَني العبَّاسِ ، هٰذا شاعركُم المنقطعُ إِليكُم ، المعاديْ فيكُم ، ففرضَ لهُ أَهلُ بيتِهِ أَربعينَ أَلفَ درهمٍ في كلِّ سنةٍ ، سِوىٰ صِلاتهِ هُوَ وبرِّهِ .

امتداح المؤمل للمهدي وإجازة المهدي له

وأَقولُ : إِنَّ اللهَ غارَ لمروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ في وفاةِ المنصورِ قبلَ ٱجتماعهِ بهِ ، وإِلاَّ .. لَحرمَهُ أَوْ قلَّلَ عطاءَهُ ، فكانتْ سُنَّةً مِن بعدِهِ .

فقد شخصَ المؤَمَّلُ [كما في « الأغاني » ٢٢/٢٤٨] : إِلىٰ المهديِّ بـ(الريِّ) فٱمتدحهُ ، فأَمرَ لهُ بعشرينَ أَلفِ درهمٍ فرُفعَ الخبرُ إِلى المنصور فاستقدمه فقالَ : أَتيتَ غلاماً غرّاً فخدعتَهُ ، فقالَ المؤمَّلُ : بل غلاماً كريماً ، مدحتهُ فأكرَمني ، فقالَ : ما قلتَ فيهِ ؟ فأَنشدهُ [مِنَ الوافرِ] :

هُــوَ ٱلْمَهْــدِيُّ إِلاَّ أَنَّ فِيْــهِ ... مَشَـابِـهَ صُـوْرَةِ ٱلْقَمَـرِ ٱلْمُنِيْـرِ
تَشَـابَـهَ ذَا وذَا فَهُمَـا إِذَا مَـا ... أَنَـارَا يُشْكِـلاَنِ عَلَـىٰ ٱلْبَصِيْـرِ
فَهَـٰذَا فِيْ ٱلظَّلاَمِ سِـرَاجُ لَيْـلٍ ... وَهَـٰـذَا بِـٱلنَّهَـارِ سِـرَاجُ نُـوْرِ
وَلَـٰكِنْ فَضَّلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ هَـٰذَا ... عَلَـىٰ ذَا بِـٱلْمَنَـابِـرِ وَٱلسَّرِيْـرِ
لَقَدْ مَلَكَ ٱلْمُلُوْكَ أَبُوْكَ حَتَّىٰ ... تَـرَاهُـمْ بَيْـنَ كَـابٍ أَوْ أَسِيْـرِ[1]
وَجِئْـتَ وَرَاءَهُ تَجْـرِيْ حَثِيْثـاً ... لِغَـايَـاتِ ٱلْكَمَـالِ بِـلاَ فُتُـوْرِ
فَقَـالَ ٱلنَّـاسُ : مَـا هَـٰذَانِ إِلاَّ ... بِمَنْـزِلَـةِ ٱلْخَلِيْـقِ مِـنَ ٱلْجَـدِيْـرِ
وإِنْ بَلَـغَ ٱلصَّغِيْـرُ مَـدَىٰ كَبِيْـرٍ ... فَقَدْ خُلِقَ ٱلصَّغِيْرُ مِنَ ٱلْكَبِيْرِ

---

(١) الكابي : من الكبوةِ وهيَ العثرَةُ ، ورجلٌ كابي اللونِ : عليهِ غبرةٌ ، وفرسٌ كابي : الذي إذا أَعيا قامَ فلم يتحرَّك من الإعياءِ .

استكثار المنصور للإجازة وتنقيصه منها

فقالَ المنصورُ : ما أَحسنَ ما قلتَ! إلاَّ أنَّه لا يساوي ما أَخذتَ ، فخُذ منهُ يا ربيعُ ستَّةَ عشرَ ألفاً ، وسوِّغهُ الباقي ، فلمَّا ماتَ المنصورُ وٱستخلفَ المهديُّ . . رفعَ المؤمَّل قصَّتَهُ إلىٰ والي المظالمِ ، فعرضَها علىٰ المهديِّ ، فضحكَ حتَّىٰ ٱستلقىٰ ، وقالَ : هٰذهِ مظلمتهُ ؟! ردُّوا عليهِ مالَه ، وزيدوهُ عشرينَ ألفاً .

وقدْ عرفتَ مِن فريضةِ المهديِّ لمروانَ ورسمِهِ بردِّ ما رزأَهُ أبوهُ علىٰ المؤمَّلِ . . أنَّهم يرونَ ذلكَ حقّاً لازماً ، ودَيناً ثابتاً .

الجود يعدي

ويروىٰ [في « ديوان الحماسة » ٢/٢٨٨] : أنَّ ٱبنَ الخيَّاطِ دخلَ علىٰ المهديِّ فمدحَه ، فأَمرَ لهُ بخمسينَ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا قبضَها . . فرَّقها علىٰ الناسِ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَمَسْتُ بِكَفِّيْ كَفَّهُ أَبْتَغِيْ ٱلْغِنَىٰ ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُوْدَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِيْ

فَلاَ أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ أُولُوْا ٱلْغِنَىٰ ... أَفَدْتُ وَأَعْدَانِيْ فَفَرَّقْتُ مَا عِنْدِيْ[1]

فأَغارَ عليهِ البُحتريُّ إلاَّ أنَّه أَحسنَ الاتباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانِهِ » ٤/٢٢٢٧ مِنَ الكاملِ] :

مَلأَتْ يَدَاهُ يَدِيْ وشَرَّدَ جُوْدُهُ ... بُخْلِيْ فَأَفْقَرَنِيْ كَمَا أَغْنَانِيْ

وكذلك الحلم

وقد سبقهُ أَبو تمَّامٍ إلىٰ أَخذِهِ ، غيرَ أنَّه غيَّرَ الموضوعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٢٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ يَزَعْنِيْ عَنْكَ غَيْرُكَ وَازِعٌ ... لأَعْدَيْتَنِيْ بِالْحِلْمِ إِنَّ ٱلْعُلاَ تُعْدِيْ[2]

---

(١) أفادَ : ٱستفاد .

(٢) يزعني : يكفني .

وأَصلُ المعنىٰ قولهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «الْمَرْءُ مِنْ جَلِيْسِهِ»[1]. اصل المعنى

وقد يدخلُ فيهِ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا لَـمْ تُنِـطْ بِـيْ ضَيْعَـةً أَوْ وِلاَيَـةً فَجُوْدُكَ يَكْسُوْنِيْ وَعَذْوَاكَ تَسْلِبُ[2]

إِنْ كانتِ الروايةُ (وَعَذْوَاكَ) كما ذكرتُ ، أَو ما يشبِهُها وإِلاَّ خرجَ عنهُ .

فطانة شاعر مع المهدي

ويروىٰ : أَنَّه دخلَ علىٰ المهديِّ بـ(المدينةِ) أَربعةٌ ، وهُم : المغيرةُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ المخزوميُّ ، وٱبنُ أُختِ الأَحوصِ ، وأَبو السائِبِ ، وٱبنُ لُؤلُؤٍ الرَّطبُ ، وكلهم أَنشدهُ شعراً ـ لا أَذكرُ منهُ شيئاً ـ فأَجازَ الثلاثةَ الأُولَ : بعشرةِ آلافِ دينارٍ ووعدَ الرابعَ ، فسايرهُ . . حتَّىٰ مرَّا بدارٍ ، فقالَ : لِمَنْ هـٰذهِ الدارُ ؟ قالَ : للأَحوصِ الذي يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٢ مِنَ الكاملِ] :

يَـا دَارَ عَـاتِكَـةَ الَّتِـيْ أَتعَـزَّلُ حَذَرَ الْعِدَا وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُوْلُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُوْلُ مَا لاَ يَفْعَلُ

فقالَ لهَ : لا جَرَمَ ، لأُعجلنَّ جائِزتَكَ ، فقدْ أَبلغتَ ، ودفع لهُ عشرةَ آلافِ دينارٍ ، وأَمرَ الربيعَ أَن يدفعَ له مثلَها ، فقبضَها في يومٍ واحدٍ .

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ وهو بمعنى ما أخرجه عن أبي هريرةَ الهنديُّ في « كنز العمال » (٢٤٧٣٣) ونسبه لمالك وأحمد وابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » والحاكم : « المرء على دين خليله . . . » ونحو قول طرفة بن العبد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

(٢) في « العكبري » : (وَشُغْلُكَ) بدل (وَعَذْوَاكَ) .

الأثبت أن القصة لأبي بكر الهذلي مع المنصور

والأثبتُ أَنَّ الذي تمثَّلَ بهٰذا البيتِ . . إِنَّما هو أَبو بكرٍ الهذليُّ للمنصورِ ، وكانَ أَمرَ الربيعَ أَنْ يوجِّهَ إِليهِ بجاريةٍ لَها أَدبٌ وظرفٌ وهيئةٌ ومعرفةٌ ، تسلِّيهِ عَنِ ٱمرأَةٍ لهُ ماتَتْ ، وكانتْ أُمَّ ولدهِ والقيِّمةَ علىٰ أَمرهِ ، فوجِدَ عَليها ، ولمَّا تأَخَّرتْ وحَجَّ معهُ . . تَمَثَّلَ بهِ ، فقالَ المنصورُ : وفي الدنيا من يعدُ ولا ينجزُ ، ويقولُ ولا يفعلُ ، قال : نعم ، قالَ أميرُ المؤمنين للربيع : أعطه ما وعدناه ، وضاعف له ما وعدته بهِ .

وقدِ ٱختلفتِ الرواياتُ في حديثِ هٰذا البيتِ ٱختلافاً كثيراً ، ورويَ علىٰ أَلوانٍ شتَّىٰ ، ولا مانعَ من تعدُّدِ الوقائعِ .

جود معن بن زائدة

وذكرَ الخطيبُ في « تاريخهِ » [١٣/٢٣٦] : عن حاجبِ معنِ بنِ زائِدةَ قالَ : بينَما أَنا علىٰ رأسِهِ . . إِذا هُوَ براكبٍ يوضعُ ، فقالَ معنٌ : ما أَحسبُ الرجلَ يريدُ غيري ، فلا تحجبوهُ ، فلمَّا مَثُلَ بينَ يديهِ . . أَنشدَ [مِنَ المنسرحِ] :

أَصْلحَكَ ٱللهُ قَلَّ مَا بِيَدِيْ ... فَمَا أُطِيْقُ ٱلْعِيَالَ إِذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ رَمَىٰ بِكَلْكَلِهِ ... فَأَرسَلُونِيْ إِلَيْكَ وَٱنْتَظَرُوْا[١]

فقالَ معنٌ ـ وأَخذتْهُ الأَريحيَّةُ ـ : أَما واللهِ لأَعجلنَّ أَوبتَكَ ، ثمَّ قالَ : يا غلامُ ، ناقتي الفلانيَّةُ وأَلفُ دينارٍ ، فدفعَها إِليهِ وهوَ لا يعرفُهُ .

لا نعلم مركوباً غير هذا

وقدمَ عليهِ مرَّةً أَعرابيٌّ ، فقالَ له [في « قرى الضيف » ٣/٢٢٨] : قصدتُكَ مِن بعيدٍ ، فٱحملني أَيُّها الأَميرُ ، فأَمرَ لَه بناقةٍ وفرسٍ وبغلٍ

---

(١) كَلْكَلَ : ذهبَ وتركَ أَهلهُ بمضيعةٍ .

وحمارٍ وجاريةٍ ، وقالَ : لو علمتُ مركوباً غيرَها . . لَحملتُكَ عَليهِ .

وكذلك لا نعلم لباساً غير هذا

ونظيرُها [في « قرى الضيف » ٣/٢٢٨] : أَنَّ الزعفرانيَّ ٱستكْسىٰ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ بقولِهِ [مِنَ المتقارب] :

أَيَا مَنْ عَطَايَاهُ تُهْدِيْ ٱلْغِنَىٰ ... إِلَىٰ رَاحَتَيْ مَنْ نَأَىٰ أَوْ دَنَا

كَسَوْتَ ٱلْمُقِيْمِيْنَ وَٱلزَّائِرِيْنَ ... بِمَا لَمْ يُخَلْ مِثْلُهُ مُمْكِنَا

وَحَاشِيَةُ ٱلدَّارِ يَمْشُوْنَ فِيْ ... ضُرُوْبٍ مِنَ ٱلْخَزِّ إِلاَّ أَنَا

فأَمرَ لهُ مِن الخزِّ بجبَّةٍ ودُرَّاعةٍ[1] وقميصٍ وسراويلَ وعمامةٍ ومنديلٍ ومِطْرَفٍ[2] ورداءٍ وجوربٍ ، وقالَ : لو علمتُ لباساً آخرَ يتخذُ مِنَ الخزِّ . . لأَعطيتُكَهُ .

احطط رحالك وقوِّ آمالك

ودخلَ رجلٌ علىٰ معاويةَ ، فقالَ لَه : هَزَزْتُ ذَوائِبَ الرحالِ إليكَ ؛ إذ لا معوَّلَ إلاَّ عليكَ ، أَمتطي إليكَ الليلَ والنهارَ ، وأَسِمُ في طريقي إليكَ المجاهِلَ بالآثارِ ، يَقودُني نحوَكَ رجاءٌ ، ويسوقُني إليكَ بَلاءٌ ، والنفسُ مستعجلةٌ ، والاجتهادُ عاذِرٌ إذ بلغتُكَ ، فقالَ لَه معاويةُ : ٱحطُطْ رِحَالَكَ ، وقوِّ آمالَكَ ، وكُن علىٰ ثقةٍ مِنَ الإنصافِ والإِسعافِ .

الحذاقة في كلام بني تيم

وقدِمَ وفدُ بني تَيْمٍ علىٰ عبدِ الملكِ ، وفيهم عمروُ بنُ عتبةَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، نحنُ من تعرفُ ، وحقُّنا لا ينكرُ ، جئناكَ من بعيدٍ ، نمتُّ إليكَ بالقريبِ ، وما تُعطينا من خيرٍ . . فنحنُ أَهلُه ،

---

(١) دُرَّاعةٌ : جبَّةٌ مشقوقةٌ من قدامٍ .

(٢) المِطرفُ : ثوبٌ مربَّعٌ من خزٍّ له علمانِ في طرفيهِ .

وما ترىٰ من جميلٍ . . فأنتَ أصلهُ ، فضحكَ عبدُ الملكِ وقالَ : يا أهلَ الشامِ ، هٰؤلاءِ قومي ، وهٰذا كلامُهم .

رجل يقصد أبان بن الوليد

ودخلَ رجلٌ علىٰ أبَانَ بنِ الوليدِ فقالَ : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، أحفيتُ إليكَ الرِّكابَ ، وقطعتُ العُقابَ[1] ، وأخلقتُ الثيابَ ، فقالَ أبَانُ : ما دعاكَ إلىٰ ذلكَ ؟ أقرابةٌ ، أمْ جِوَارٌ ، أمْ عشرةٌ متقدِّمةٌ ، أم وُصلةٌ متأكِّدَةٌ ؟ فقالَ : لَم يكُن شيءٌ من ذلكَ ، ولٰكِنِّي سمعتُ الناسَ ينشدونَ لكَ بيتاً ، قالَ : ما هُوَ ؟ قالَ : قولك [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا شِيْمَ لِيْ بَرْقٌ وَإِنْ كَانَ نَازِحاً ... فَيُخْلِفُ إِذْ بَعْضُ ٱلْبَوَارِقِ خُلَّبُ

العَود أحمد

هٰذا يشبه ما سبقَ مِن حديثِ ٱبنِ العميدِ معَ صاحبهِ وما بعدَهُ ، وقريبٌ منهُ ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٨٥] : أنَّ رجلاً قدمَ علىٰ مخلدِ بنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ فقالَ لَه : ألم تكُن أتيتَنا فأجَزْناكَ ؟ فقالَ : بلىٰ ، قالَ : فما الذي ردَّكَ إلينا ؟ قالَ قول الكميتِ فيكَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٤١ من الوافر] :

فأَعْطَىٰ ثُمَّ أَعْطَىٰ ثُمَّ عُدْنَا ... فَأَعْطَىٰ ثُمَّ عُدْتُ لَـهُ فَعَادَا

مِـرَاراً مَـا أَعُـوْدُ إِلَيْـهِ إِلاَّ ... تَبَسَّمَ ضَاحِكاً وَثَنَىٰ ٱلْوِسَادَا

فأضعف للرجلِ ما كانَ أعطاهُ .

ابن نباتة يضمن لأحد الشعراء لأنه غشه بقول له في فخر الدولة

وٱمتدحَ فخرَ الملكِ بنَ عضدِ الدولةِ بنِ بويهِ أحدُ الشعراءِ ، فلم يُرضِهِ ، فعمدَ إلىٰ عبدِ العزيزِ بنِ نباتةَ وقالَ لهُ : أنتَ الذي

(١) العُقابُ : المرقىٰ في عُرض الجبلِ .

غَشَشْتَنِي بقولِكَ فيهِ [مِنَ الوافرِ] :

لِكُلِّ فَتىً قَرِيْنٌ حِيْنَ يَسْمُو ... وَفَخْرُ ٱلْمُلْكِ لَيْسَ لَهُ قَرِيْنُ
أَنِخْ بِجَنَابِهِ وَٱحْكُمْ عَلَيْهِ ... بِمَا أَمَّلْتَهُ وَأَنَا ٱلضَّمِيْنُ

فأَرضاهُ ٱبنُ نباتةَ مِن عندِهِ ، ثمَّ ٱنتهىٰ الخبرُ إِلىٰ فخرِ الملكِ . . فسيَّرَ لابنِ نباتةَ العطايا الطائِلةَ ، وأَوَّلُ بَيتَيهِ مسروقٌ مِنْ قولِ الشمَّاخِ السائرِ في عرابةَ[1] .

يا يزيد بن مزيد

ومِنْ هٰذا النوعِ ، ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٦/٣٣٧] : أَيضاً عَن بعضِهم قالَ : كنتُ بالليلِ معَ يزيدَ بنِ مزيَدٍ ، فإِذا صائِحٌ يهتفُ بٱسمهِ ، فقالَ : عليَّ بهِ ، فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ . . قالَ : ما حملكَ علىٰ ما فعلتَ ؟ قالَ : نقعتُ[2] دابَّتي ، ونفِدَتْ نفقتي ، وسمعتُ قولَ الشاعرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قِيْلَ مَنْ لِلْمَجْدِ وَٱلْجُوْدِ وَٱلنَّدَىٰ ... فَنَادِ بِصَوْتٍ يَا يَزِيْدُ بْنَ مَزْيَدِ

فهشَّ لكلامهِ فأَجزلَ عطيَّتَهُ .

الثقة بالعطاء من الممدوح عند الشعراء

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ يمدحُ بلالَ بنَ أَبي بردةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٣٤ مِنَ الوافرِ] :

سِمِعْتُ ٱلنَّاسَ يَنْتَجِعُوْنَ غَيْثاً ... فَقُلْتُ لَصَيْدَحَ ٱنْتَجِعِيْ بِلاَلاَ[3]

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَقُوْلُ ٱلَّتِيْ مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَحْمَلِيْ ... عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيْرُ

---

(١) « وفيات الأعيان » (٥/ ١٢٤).
(٢) نقعت : نحرت . والنقيعةُ من الإبلِ : ما يصنع منهُ الطعامُ للقادمِ من السفَرِ .
(٣) انتجعنا فلاناً : إذا أتيناهُ نطلبُ معروفَهُ . الصيدحُ : اسم ناقته؛ سميت بذلك لشدة صوتها .

أَمَا دُوْنَ مِصْرٍ لِلْغِنَىٰ مُتَطَلَّبٌ بَلَىٰ إِنَّ أَسْبَابَ ٱلْغِنَىٰ لَكَثِيْرُ
دَعِيْنِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيْكِ بِرِحْلَةٍ إِلَىٰ بَلَدٍ فِيْهِ ٱلْخَصِيْبُ أَمِيْرُ(١)

وقالَ المازنيُّ [في « وفيات الأعيان » ١/ ٢٨٥] : أَشخصَني الواثقُ ، فلمَّا دخلتُ عليهِ سألَني عنِ اسمي ، فأخبرتُهُ ، فقالَ : هلْ لكَ من ولدٍ ؟ قلتُ : نَعم ، بُنَيَّةٌ ، قالَ : فما قالَتْ لكَ حينَ فارقْتَها ؟ قلتُ : أنشدَتني قولَ الأَعشىٰ [في « ديوانه » ٤١٠ مِنَ المتقاربِ] :

فَيَا أَبَتَا لاَ تَرِمْ عِنْدَنَا فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرِمْ(٢)
أَرَانَا إِذَا أَضْمَرَتْكَ ٱلْبِلاَدُ نُجْفَىٰ وَيُقْطَعُ مِنَّا ٱلرَّحِمْ(٣)

قالَ : فبِمَ أَجبتَها ؟ قلتُ : بقولِ جريرٍ [مِنَ الوافرِ] :

ثِقِيْ بِٱللهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ وَمِنْ عِنْدِ ٱلْخَلِيْفَةِ بِٱلنَّجَاحِ(٤)

ويعجبني قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٧ـ٢٩٨ مِنَ الوافرِ] :

تَرَكْنَا مِنْ وَرَاءِ ٱلْعِيْسِ نَجْداً وَنَكَّبْنَا ٱلسَّمَاوَةَ وَٱلْعِرَاقَا(٥)
فَمَا زَالَتْ تَرَىٰ وَٱللَّيْلُ دَاجٍ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمَلِكِ ٱئْتِلاَقَا(٦)
وَلَوْ سِرْنَا إِلَيْهِ فِيْ طَرِيْقٍ مِنَ ٱلنِّيْرَانِ لَمْ نَخَفِ ٱحْتِرَاقَا

---

(١) الخصيبُ : اسمُ الممدوحِ .
(٢) رِمتَ : برحت وزلتَ ، وأكثرُ ما يستعمل في النفي .
(٣) أضمرتهُ البلادُ : غيَّبتهُ إما بموتٍ وإما بسفرٍ .
(٤) فقالَ لهُ الواثقُ : علىٰ النجاحِ ، وأَمرَ لهُ بأَلفِ دينارٍ ، وردَّهُ إلىٰ أَهلهِ مكرَّماً .
(٥) العيسُ : الإبلُ البيضاءُ . السماوَةُ : فلاةٌ بين (الشام) و(العراقِ) .
(٦) الداجي : المظلمُ . الائتلاقُ : البريقُ واللمعانُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٦٤ و١٦٩ و١٧٠ مِنَ الكاملِ] :

أُمِّي أَبَا ٱلْفَضْلِ ٱلْمُبِرَّ أَلِيَّتِي ... لأُيَمِّمَنَّ أَجَلَّ بَحْرٍ جَوْهَرَا[1]

أَرَأَيْتَ هِمَّةَ نَاقَتِي فِي نَاقَةٍ ... نَقَلَتْ يَداً سُرُحاً وَخُفّاً مُجْمَرَا[2]

تَرَكَتْ دُخَانَ ٱلرِّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا ... طَلَباً لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ ٱلْعَنْبَرَا[3]

وَتَكَرَّمَتْ رُكُبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكٍ ... تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكاً أَذْفَرَا[4]

فَأَتَتْكَ دَامِيَةَ ٱلأَظَلِّ كَأَنَّمَا ... حُذِيَتْ قَوَائِمُهَا ٱلْعَقِيقَ ٱلأَحْمَرَا[5]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٣٦ مِنَ الكاملِ] :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ تَسِرْ إِلَيْكَ رِكَابُنَا ... فَٱلأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ ٱلأَوْحَدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَثِقْنَا بِأَنْ تُعْطِيْ فَلَوْ لَمْ تَجُدْ لَنَا ... لَخِلْنَاكَ قَدْ أَعْطَيْتَ مِنْ قُوَّةِ ٱلْوَهْمِ[6]

المجاعة في عهد هشام بن عبد الملك

ويروى [كما في « المستطرف » ١٠٨] : أنَّها أصابتِ الناسَ مجاعةٌ في أيَّامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فوفدتْ عليهِ أحياءُ العربِ مِن كلِّ ناحيةٍ ، فدخلَ عليهِ وجوهُهُم ، وفيهم درواسُ بنُ حبيبٍ الفجليُّ ، فكأنَّه

---

(١) أُمِّي : أقصدي . والمعنى : يقول : لما حلفتُ أني أقصِدُ أجلَّ بحرٍ . . برَّت يميني بقصدِهِ ؛ لأنَّهُ أجلُّ مَن يُقصدُ .

(٢) السرُحُ : السهلةُ السيرِ . الخفُّ المجمرُ : الشديدُ الصلبُ .

(٣) الرمثُ : نبتٌ يوقدُ به ، وهوَ مِن مراعي الإبلِ ، وهو من الحمضِ .

(٤) رُكباتُها : جمع ركبة . الأذفرُ : الشديدُ الرائحةِ .

(٥) الأَظَلُّ : باطنُ الخفِّ الذي يلي الأرضَ . حُذِيَت : جعل لها حذاءً ، وهوَ النعلُ .

(٦) الوهمُ : الظنُّ .

ٱزدراهُ ؛ لِشَمْلَتِهِ وسملِ عباءَتِهِ[1] ، فٱستنكفَ مِن دخولِهِ عليهِ ، وأَحسَّ بذلكَ درواسٌ ، فقالَ : إنَّ دُخولي عليكَ شرَّفَ من قَدري ، ولم يَضَعْ من شأْنِكَ ، وقدْ رأَيتُ الناسَ دَخَلوا لأَمرٍ فسكَتوا عنهُ ، فإِنْ أَذِنْتَ . . تكلَّمتُ قالَ : هاتِ ما عندَكَ ، فما أَرىٰ لَهم غيرَكَ .

فطانة درواس بن حبيب في الطلب

قالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، تتابعتْ علىٰ الناسِ سنونَ ، أَمَّا الأُولىٰ : فأَذابتِ الشحمَ ، وأَمَّا الثانيةُ : فأَكلتِ اللَّحمَ ، وأَمَّا الثالثةُ : فأَنقتِ المخَّ ومصَّتِ العظمَ ، وفي أَيديكُم ـ وللهِ الحمدُ ـ فضولُ الأَموالِ ، فإِنْ تَكنْ للهِ . . فأَعطِفوا بها علىٰ عبادِهِ ، وإِن كانَتْ لَهم . . فعلامَ تحبسونَها عَنهُم بعدَ الحاجةِ ؟ وإِنْ كانَتْ لَكم . . فتصدَّقوا بِها علَيهِم ؛ فإِنَّ اللهَ يَجزيْ المتصَدِّقينَ .

عطاء هشام

فقالَ هشامٌ : للهِ أَبوكَ ما تركتَ لَنا في واحدةٍ من الثلاثِ ، وأَمرَ بمئةِ أَلفِ [دينار] ، فقسمتْ في الناسِ ، وأَمرَ لدرواسٍ بمئةِ أَلفِ [درهمٍ] ، فأَبىٰ إلاَّ أَن يكونَ مثلَ الناسِ وردَّها ، فأَعادها إِليهِ ، فقسمَ تسعينَ أَلفاً في تسعةٍ مِن أَحياءِ العربِ ، وٱحتبَس لنفسهِ مِنْها عشرةَ آلافٍ فقط ، فبلغَ ذلكَ هشاماً ، فقالَ : للهِ درُّهُ ، إنَّ صنيعَ مثلهِ ليبعثُ علىٰ الاصطناعِ .

رحم الله من تصدق

ونظيرُها في بديعِ التقسيمِ . . ما رويَ [في « المثل السائر » ٢/٢٨٩] عَن أَعرابيٍّ وقفَ علىٰ حلقةِ الحسنِ البصريِّ فقالَ : رحمَ اللهُ من تصدَّقَ من فضلٍ ، أَو واسىٰ مِن كفافٍ ، أَو آثرَ مِن قُوتٍ ، فقالَ الحسنُ : لم يتركِ البدويُّ أَحداً إلاَّ وقد سأَله ، وأَوجبَ عليهِ .

---

(١) الشَّمْلَةُ : كساءٌ من صوف يُتَلَفَّفُ به . سملَ الثوبُ : إذا صارَ خَلَقاً بالياً .

ما الذي يناله ابن آدم من الدنيا

وخيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّهِ في البابِ . . قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم **« وهَلْ لكَ يَا ٱبْنَ آدمَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ »**[1] .

وبعدُ : فقدِ ٱسترسلَ ٱلكلامُ ؛ إذ أَلقيْنا حبلَه علىٰ غاربِهِ ـ حَسَبَما يليقُ بالأَمالي ـ ومعَ ذلكَ فلَم يخرجْ عَنِ العطاءِ والاستِعطاءِ ، والرِّفْدِ والاسترفادِ ، والوِفادَةِ والانتجاعِ .

العرب تصف أحوالها ولكنها تميل إلى المبالغة

والعربُ ـ كما قرَّرنا ـ تصفُ شُؤُونَها ، وتشْرحُ خبرَها ، وتقتصُّ وقائِعَ أَحوالها ، غيرَ أَنَّها قد تميلُ إِلىٰ المبالغَةِ أَحياناً بما ٱقتضتْهُ ضمائِرُها مِنَ البلاغةِ ، وساقَتها إِليهِ غرائِزُها مِنَ البيانِ ، وكذلكَ الناظمُ فيما يصفُ من ٱقتحامِ العِقَابِ الكأْداءِ وٱفتراعِ الْجبالِ الشَّمَّاءِ ، والسهوبِ الفيحاءِ [كما في « العُكبَرِيّ » ١/١٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَعُقَـابُ لُبْنَـانٍ وَكَيْـفَ بِقَطْعِهَـا ... وَهُوَ ٱلشِّتَاءُ ، وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ

. . فإِنَّهُ في ذلكَ بارٌّ راشدٌ ، إِنَّما ٱلعجبُ مِمَّن يذكُرُ ٱلعيسَ وٱلمهاريَ ، وٱلبيدَ والصَّحاريَ ولَعلَّه لَمْ يركَبِ ٱلجَمَلَ ، ولَمْ يعرِفِ ٱلفلاةَ ، فذلكَ عنوانُ ٱلعجزِ ، وبرهانُ ٱلضَّعفِ ، ودليلُ التَّبلُّدِ ، وشهيدُ التَّكلُّفِ .

تلميذ المؤلف يهديه قصيدة فيردها عليه

ومنهُ قولُ بعضِ الدَّرَسَةِ ـ مِنْ قصيدةٍ تقدَّمَ بها إِليَّ علىٰ قُربِ ٱلجوارِ ، وتلاصُقِ الدِّيارِ ؛ إِذ لَمْ يكُن بيني وبينَهُ إِلاَّ رَميةٌ بحجَرٍ وهوَ [مِنَ ٱلكاملِ] ـ :

---

(١) أخرجه عن أبي مطرف مسلم (٢٩٥٨) في الزهد والرقائق ، والترمذي (٢٣٤٢) ، والنسائي (٦/٢٣٨) ، وأحمد (٤/ ٢٤) .

وَلَقَدْ أُرَحِّلُ فِيْ ظَلَامِ ٱللَّيْلِ أَنْـ ـضَاءَ ٱلْمُطِيِّ بِهَا أَجُوْبُ ٱلسَّبْسَبَا[1]
فَيَقُوْلُ أَصْحَابِيْ وَقَدْ مَلُّوْا ٱلسُّرَىٰ: مَـاذَا تَـؤُمُّ أَمَشْـرِقـاً أَمْ مَغْـرِبَـا ؟
فَأَقُوْلُ : كَلاَّ ، إِنَّما أَزْجَيْتُهَا كَيْمَـا تُبَلِّغَنَـا ٱلْفِنَـاءَ ٱلأَرْحَبَا[2]

فما أَبغضَهُ وما أَثقلَهُ ، ولا سيَّما في قولِهِ : (أَمَشرِقاً) أَمْ (مَغربا) ؛ إِذْ لا يمكنُ أَنْ تخفىٰ علىٰ أَصحابِهِ ٱلجهةُ بعدَ الشُّروعِ في السَّيرِ ، فَضْلاً عَنِ ٱلإِمعانِ فيهِ ، حتَّىٰ ولو كانوا في بَلادةِ ٱلحميرِ[3] .

وما أَراهُ إِلاَّ سمعَ بقولِ مُسلمِ بنِ ٱلوليدِ الَّذي سَرَقَهُ أَبو تمَّامٍ[4] . . فأَحبَّ أَنْ يكونَ لَهُ مثلُهُ وهوَ قولُهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٨٤ من البسيط] :

أَمَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ تَبْغِيْ أَنْ تَؤُمَّ بِنَا؟ فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَلَـٰكِنْ مَطْلِعَ ٱلْجُوْدِ

---

(١) السبسبُ : المفازةُ والأَرضُ المستويَةُ .

(٢) أزجيتها : سقتُها .

(٣) رحمَ اللهُ الشيخَ المؤلِّفَ ؛ فقد قسا علىٰ تلميذِهِ ، والأَمرُ أَبسطُ مِن ذلكَ بكثيرٍ ؛ إذ أَرادَ التلميذُ ما يحصلُ معَ أَيِّ رجلٍ مِنَّا عندَما يريدُ الذهابَ إِلىٰ إنسانٍ عظيمٍ أَو محبوبٍ كبيرٍ ، فيعمىٰ قلبُهُ ، ولا يدري مِن أَينَ يذهبُ ، فهوَ يصفُ حالَهُ هذهِ إِذ أَرادَ الذهابَ إِليهِ وهوَ محبوبٌ لهُ فٱرتبكَ الطالبُ ، ولَمْ يعدْ يدرِ مِن أَينَ يذهبُ ، فضجَّ رفاقُهُ وقالوا لهُ ـ حينما لَمْ يكُن عندَهُم مِنَ الحبِّ للشيخِ ما عندَهُ ـ : لقدْ أَضجرتَنا وأَتعبتَنا فاخترْ طريقاً نذهبُ بِها ، وٱعتمدْ علىٰ رأيٍ ، وكفاكَ ٱرتباكاً . فيقولُ لهم ـ مبرِّراً لنفسِهِ ـ : لا تلوموني ؛ لأَنَّ القصدَ الذي أَقصدُهُ عظيمٌ ، والبحرَ الذي أَتيَمَّمُهُ كبيرٌ ، إِنَّهُ الشيخُ عبدُ الرحمنِ ، إنه الشيخ عبد الرحمن .

(٤) وهوَ حَسَبَما قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ في « وفيات الأَعيانِ » (٣/ ٨٤) :

يَقُوْلُ صَحْبِيْ وَقَدْ جَدُّوْا عَلَىٰ عَجَلٍ وَٱلْخَيْلُ تَسْتَنُّ بِالرُّكْبَانِ فِيْ ٱللُّجُمِ
أَمَطْلَعَ ٱلشَّمْسِ تَبْغِيْ أَنْ تَؤُمَّ بِنَا؟ فَقُلْتُ : كَلاَّ ، وَلَكِنْ مَطْلِعَ ٱلْكَرَمِ

غيرَ أنَّا نبسُطُ لَهُ مِنَ ٱلعُذرِ ما بَسَطَتْهُ زُبيدةُ ، بما سقناهُ عنها في شرحِ قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٥ مِنَ البسيطِ] :

عَلَّ ٱلأَمِيْرَ يَرَىٰ ذُلِّيْ فَيَشْفَعَ لِيْ ··· إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

فليَسَعْ صاحبَنا ما وسعَ صاحبَها .

بعض قصص الخائبين

وإذ ذكَرنا بعضَ مَنْ نجحَ طَلَبُهُ ، وأَثمرَ تعبُهُ ، وأُكرِمَتْ وِفادتُهُ ، وأُجزلَتْ رِفادتُهُ . . فلا بأْسَ أَنْ نذكُرَ شيئاً ممَّا يتعلَّقَ بنقيضِهِ ، علاوَةً علىٰ ما سبقَ مِنَ ٱلإِشارةِ إِلىٰ بعضِهِ في صنيعِ ٱلمنصورِ معَ ٱلمؤمِّلِ .

ثمَّ نحنُ بٱلخيارِ ، إِنِ ٱتسعَ ٱلوقتُ . . توسَّعْنا ببعضِ أَخبارِ ٱلبخلاءِ ونوادِرِهم ، وإلاَّ . . أَخَّرناها لموضعٍ آخرَ . فنقولُ :

حسن الظن بهذا لا يقع إلا بخذلان الله ، والطمع فيه بسوء التوكل على الله

كتبَ بعضُهم إِلىٰ صاحبٍ لَهُ يستشيرهُ في ٱلقدومِ علىٰ ذِي ثروةٍ ، فكتبَ إِليهِ في ٱلجوابِ : لا تفعَلْ ، فإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بهِ لا يقعُ إِلاَّ بخذلانِ ٱللهِ ، والطَّمعَ فيهِ لا يخطرُ إِلاَّ بسوءِ التوكُّلِ علىٰ اللهِ ، والرجاءَ لما في يدِهِ لا ينبغي إِلاَّ بعدَ اليأْسِ مِن رحمةِ اللهِ ، فإِنَّه يرىٰ أَنَّ التقتيرَ هو التبذيرُ ، وأَنَّ الاقتصادَ هُوَ السرفُ ، وأَنَّ بني إِسرائيلَ لم يستبدِلوا البصلَ بالسلْوىٰ إِلاَّ لفضلِ أَحلامِهم ، ويرىٰ أَنَّ الصنيعةَ مرفوعةٌ ، والصلةَ موضوعةٌ ، والسخاءَ مِن همزاتِ الشياطينِ ، وأَنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يغفرُ أَنْ يؤثِرَ المرءُ علىٰ نفسهِ ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ، وكأَنَّهُ لم يسمعْ بالمعروفِ إِلاَّ في الذينَ قطعَ اللهُ أَدبارَهم ، ونهىٰ عنِ ٱتباعِ آثارِهم ، فهوَ يَرجو الثوابَ في الإِقتارِ ، ويَخشىٰ العقابَ في إِقالةِ العثارِ ، فأَقِم رحمكَ اللهُ بمكانِكَ ، وٱصبرْ علىٰ عسركَ ، علَّ اللهَ أَن يبدِلَنا وإِيَّاكَ خيراً منهُ ، وأَقربَ رُحْماً ! ! ! .

يحب ان يحمد بما لم يفعل

وفي قريبٍ منهُ ـ وما أَلْيَقَهُ بمن أَحبَّ أَنْ يُحمدَ بما لَم يَفعلْ من أَهلِ زمانِنا ـ يقولُ بعضُهم [مِنَ البسيط] :

إِنِّيْ لأَعْجَبُ مِنْ قَوْلٍ غُرِرْتُ بِهِ　　حُلْوٍ يَلَذُّ إِلَيْهِ ٱلسَّمْعُ وَٱلْبَصَرُ

لَوْ تَسْمَعُ ٱلْعُصْمُ فِيْ صُمِّ ٱلْجِبَالِ بِهِ　　ظَلَّتْ مِنَ ٱلرَّاسِيَاتِ ٱلْعُصْمُ تَنْحَدِرُ

كَٱلْخَمْرِ وَٱلشَّهْدِ يَجْرِيْ فَوْقَ ظَاهِرِهِ　　وَمَـا لِبَـاطِنِـهِ طَعْـمٌ وَلاَ خَبَـرُ

وَكَٱلسَّرَابِ شَبِيْهاً بِٱلْغَدِيْرِ وَإِنْ　　تَأْتِيْ ٱلسَّرَابَ فَلاَ عَيْنٌ وَلاَ أَثَرُ

أعطوه بدرة يدخلها

وقدمَ علىٰ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ أعرابيٌّ ، فألحفَ وأَبرمَ ، فقالَ خالدٌ : أَعطُوهُ بَدْرَةً[1] يُدخِلُها في حِرِ[2] أُمِّهِ ، فقالَ الأَعرابيُّ : وأُخرىٰ لاستِها يا سيِّدي ، لا تبقىٰ فارغةً ، فضحكَ ، وقالَ : وأُخرىٰ لاستِها .

لقد أسمعت لو ناديت حياً

وٱجتمعَ بشَّارٌ ويحيىٰ بنُ زيادٍ وحمَّادُ عجردٍ علىٰ الطعامِ ، فوقفَ سائِلٌ بالبابِ ، وقالَ : يا مسلمينَ ، فقالَ يحيىٰ : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] فقالَ : ٱرحموني ، فقالَ حمَّادٌ : قد رحمناكَ ، فقالَ : ٱسمعوا قَولي : قالَ بشَّارٌ [مِنَ الوافرِ] :

لَقَـدْ أَسْمَعْـتَ لَـوْ نَـادَيْـتَ حَيّـاً　　وَلَـٰكِـنْ لاَ حَيَـاةَ لِمَـنْ تُنَـادِيْ

أفلاطون والرجل البخيل

وكتبَ أَفلاطونُ إِلىٰ رجلٍ في رجلٍ ليواسيَهُ بشيءٍ ، فٱعتلَّ ولم يعطِهِ شيئاً ، فكتبَ إِليهِ ثانيةً يقولُ لهُ : إِنْ كنتَ أَردتَ أَن تعطيَهُ فلم تقدرْ . . فمعذورٌ ، وإِن كنتَ قدرتَ فلمْ تفعلْ . . فسيأْتيكَ يومٌ تريدُ فيهِ فلا تقدرُ .

---

(١) البدرةُ : عشرةُ آلافِ درهمٍ .

(٢) حِرُ المرأَةِ : فرجُها .

وقدمَ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ جماعةٌ ـ فيهم معنُ بنُ أَوسٍ ـ فلم يُحسِنْ قِراهُم فقالَ معنٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

ارفق يا حبيبي بتيسك

نَـزَلْنَـا بِمُسْتَـنِّ ٱلـرِّيَـاحِ غُـدَيَّـةً ... إِلىٰ أَنْ تَعَالَىٰ ٱلْيَوْمُ فِيْ شَرِّ مَحْضَرِ

لَدَىٰ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ جَالِسِيْنَ بِمَنْزِلٍ ... مِنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلإِحْسَانِ وَٱلْبِرِّ مُقْفِرِ

رَمَانَا أَبُـوْ بَكْـرٍ وَقَـدْ طَالَ مُكْثُنَا ... بِتَيْسٍ مِنَ ٱلشَّاءِ ٱلْحِجَازِيِّ أَعْفَرِ[1]

فَقَالَ : ٱطْعَمُوْا مِنْهُ وَنَحْنُ ثَلاَثَةٌ ... وَسِتُّوْنَ إِنْسَاناً فَيَا لَوْمَ مُخْبِرِ[2]

فَقُلْنَـا : ٱبْتَعِـدْ عَنَّـا فَـإِنَّ أَمَـامَنَـا ... جِفَانُ ٱبْنِ عَبَّاسِ ٱلْعُلاَ وَٱبْنِ جَعْفَرِ

وَكُـنْ آمِنـاً وَٱرْفُـقْ بِتَيْسِـكَ إِنَّـهُ ... لَهُ أَعْنُزٌ يَنْزُوْ عَلَيْهَا وَأَيْسِرِ[3]

وقدمَ عليهِ آخرُ فلم يُرضِهِ ، فقالَ : لعنَ اللهُ ناقةً حملَتْني إِليكَ ، قالَ ٱبنُ الزبيرِ : إِنَّ ، وَرَاكِبَها[4] . و(إِنَّ) هٰذهِ بمعنىٰ نَعَم .

لعن الله ناقة حملتني إليك

وقد قالَ بعضُهم : بمثلهِ في قولهِ تعالىٰ : ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه : ٦٣] .

وأُعجِبَ بهِ إِسحاقُ ، كما قاله صاحبُ « الكشافِ » .

(فَساحرانِ) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، و(اللامُ) داخلةٌ علىٰ الجملةِ ، تقديرُهُ : (لَهُمَا ساحرانِ) وفيهِ تكلُّفٌ لا يخفىٰ ، وقعوا فيهِ إِذ بعُدوا باللامِ فقدَّروا لَها مبتدأً محذوفاً ، والأَولىٰ أَن يبقىٰ (ساحرانِ) علىٰ أَصلِ ما كانَ عليهِ من الخبريَّةِ ، وإِنَّما دخلتْ عليهِ

---

(١) الأعفرُ : الذي يشبه لونه لون التراب .

(٢) في « الأغاني » : ثلاثة وسبعون .

(٣) « الأغاني » (١٢/ ٧٤) .

(٤) « مجمع الأمثال » (١/ ١١٣) .

اللامُ لِشَبَهِ إنْ التي قبلَ المبتدإ بالمؤكِّدَةِ ، وهو ظاهرٌ ، ونظائرُهُ موجودةٌ .

اضربوا أهل الصفة

وكانَ زيادُ بنُ عبدِ اللهِ الحارثيُّ والياً علىٰ (المدينةِ) ـ وفيهِ بخلٌ ـ فأُهديَ لهُ طعامٌ وكانَ قد تغدَّىٰ ، فغضبَ ، وقالَ : علامَ يبعثُ أَحدُهم الشيءَ في غيرِ وقتِهِ ؟ ودعا لَهُ أَهلَ الصُّفَّةِ ، فلمَّا حضَروا . . كشفَ عن سلالِ الطعامِ . . فإذا فيها ما لا يظُنُّه مِن أَخبصَةٍ وحلوٍ وفراخٍ وجداءٍ ، فقالَ : ٱرفعوها ، وٱضربوا كلَّ واحدٍ من أَهلِ الصفَّةِ عشرةَ أَسواطٍ ، فإنَّه بلغَني أَنَّهم يَفسُونَ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

بخلاء العرب أربعة:

وكانَ يقالُ [كما في « الأغاني » ٢/١٥٥] : بخلاءُ العربِ أَربعةٌ : الحطيئةُ ، وحميدٌ الأَرقطُ ، وخالدُ بنُ صفوانَ ، وأَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ .

١ ـ الحطيئة

أَمَّا الحُطيئَةُ : فقد مرَّ بهِ بعضُهم فقالَ لهُ [كما في « الأغاني » ٢/١٦٣] : السلامُ عليكُم ، قالَ : قلتَ ما لا يُنكَر ، فقالَ : إنِّي خرجْتُ مِن أَهْلي بغيرِ زادٍ ، قالَ : لَم أَضمنْ لأَهلكِ قراكَ ، فقالَ : أَفتأْذَنُ لي أَنْ أَستظلَّ بفَيءِ بيتكِ ؟ قالَ : فيءُ الجبلِ أَوسعُ ، قالَ : أَنا ٱبنُ ٱلحمامةِ ، قالَ : ٱنصرِفْ وكُن أَيَّ طائرٍ تريدُ ، وٱعترضَه رجلٌ وهُوَ يرعىٰ غَنمهُ وبيدِهِ عَصا فرفعَها ، فقالَ الرجلُ : إنَّما أَنا ضيفٌ ، قالَ : لِلضِّيفانِ أَعدَدْتُها .

٢ ـ حميد الأرقط

وأَمَّا حميدٌ الأَرقطُ : فكانَ [كما في « المستطرف » ١/٣٧٧] هجَّاءً للضيفانِ ، وكانَ لا يُقيلُهم[1] إلاَّ حيثُ لَم يَجِدْ بُدّاً مِنهم ، وهُوَ القائِلُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

---

(١) **لا يُقِيْلُهم** : لا يسقيهمُ اللبن في منتصفِ النهارِ .

لاَ مَرْحَباً بِوُجُوهِ ٱلْقَوْمِ إِذْ نَزَلُوا كَأَنَّهُمْ إِذْ أَنَاخُوهَا ٱلشَّيَاطِيْنُ
فَأَصْبَحُوا وَٱلنَّوَىٰ عَالِي مُعَرَّسِهِمْ وَلَيْسَ كُلَّ ٱلنَّوَىٰ تُلْقِي ٱلْمَسَاكِيْنُ

٣ـ خالد بن صفوان

وأَمَّا **خالدُ بنُ صفوانَ** : فكانَ إذا أخذَ جائزتَهُ . . قالَ للدرهَمِ : بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، كم أَرضٍ قطعتَ ، وكيسٍ خرقْتَ ، وخامِلٍ رفعْتَ ، ورفيعٍ أخملْتَ ، لكَ عندي أَنْ تَعرىٰ ولاَ تَضحىٰ ، لأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ ، وَأُدِيمَنَّ لُبْثَكَ .

٤ـ أبو الأسود الدؤلي

وأَمَّا **أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ** : فقدْ بلغَ بهِ الشحُّ أَنَّ أَعرابياً وقفَ عليهِ وهو يأكلُ ، فلم يَعْرِضْ عليهِ الأَكلَ ، فقالَ الأَعرابيُّ : أَما إِنِّي مررتُ بأَهلكَ ، قالَ : كانَ ذاكَ طريقَكَ ، قالَ : وهُم صالحونَ ، قالَ : كذلكَ تركتُهُم ، قالَ : وامرأَتُكَ حبلىٰ ، قالَ : كذلكَ عَهْدي بِها ، قالَ : ولَدَت ، قالَ : ما كانَ لَها بدٌّ مِنَ الوِلادةِ ، قالَ : غلامينِ ، قالَ : كذلكَ كانَتْ أُمُّها ، قالَ : ماتَ أَحدُهما ، قالَ : ما كانَتْ تقوىٰ علىٰ إِرضاعِ ٱثنينِ ، قالَ : ثُمَّ ماتَ الآخرُ ، قالَ : ما كان ليبقىٰ بعد أَخيهِ ، قالَ : ثُمَّ ماتَتْ الأُمُّ ، قالَ : حُزناً علىٰ وَلدَيها ، وواللهِ لا ذُقْتَ مِن طَعَامي شيئاً ! !

هل لك علم بكلبنا نفاع؟!

ونظيرُها : أَنَّ الحجَّاجَ بعثَ بأَحدِ رجالِهِ إِلىٰ أَرضٍ بعيدةٍ ليعملَ فيها ، فجاءَهُ إِنسانٌ من بلادِهِ بعدَ مدَّةٍ طويلةٍ ، ٱنقطعَتْ فيها عنهُ أَخبارُ أَهلِهِ ، فسأَلَهُ عنهُم ، وقالَ : هَلْ لكَ عِلْمٌ بِكَلْبِنا (نَفَّاعٌ) ؟ قالَ : قد ملأَ الْحيَّ نباحاً ، قالَ : وما فعلَ ولَدي عميرٌ ؟ قالَ : قد ملأَ الْحَيَّ أَولاداً ، قالَ : فأُمُّ عميرٍ ؟ قالَ : لا تدخلُ مِنَ الباب إِلاَّ منحرفةً ، قالَ : وجَمَلُنا (زريقٌ) قالَ : ما أَعظمَ سَنامهُ ، وأَكثرَ منفعتهُ ، قالَ : وما حالُ الدارِ ؟ قالَ : عامرةٌ بأَهلِها ، ثمَّ قامَ عنهُ

وأَكلَ ، ولم يَدْعُهُ ، ولما فرغَ من أَكلِهِ . . أَقبلَ عليهِ ، وقالَ : أَعدْ عليَّ خبرَكَ يا مبارَكَ الناصيةِ ، وقد مرَّ كلبٌ ، فقالَ : أَين كلبُنا (نفَّاعٌ) مِن هٰذا ؟ قالَ : وأَينَكَ من (نفاع) ؟ قالَ : أَلم تقُل لي : إِنَّه ملأَ الحيَّ نباحاً ؟ فقالَ : كلاَّ ، ولٰكنَّه قد ماتَ ، قالَ : وما سببُ موتهِ ؟ قالَ : ٱختنقَ بعظمٍ من عظامِ زريقٍ ، قالَ : وماتَ زريقٌ ؟! قالَ : نَعَم ؛ مِنْ كثرةِ ما يحملونَ عليهِ الماءَ إِلىٰ قبرِ أُمِّ عميرٍ ، قالَ : وماتَتْ أُمُّ عميرٍ ؟! قالَ : نَعَم ؛ حزناً علىٰ ولدِها عميرٍ ، قالَ : وماتَ عميرٌ ؟! قالَ : نعم ؛ سقطت عليهِ الدارُ .

العجب من بخل ابي الأسود

وإِنِّي لأَتعجَّبُ كثيراً مما يصفون بهِ أَبا الأَسودِ مِن البخلِ ، مع طولِ صحبتِهِ لأَميرِ المؤمنينَ ، والمرءُ مِن جليسِهِ ، وذاكَ مَن لا تزنُ عندهُ الدنيا ورقةً خضراءَ في فمِ جرادةٍ تقضمُها ، وهُوَ الذي يقولُ فيهِ معاويةُ : أَما واللهِ لو كانَ لهُ بيتٌ مِن تبنٍ وبيتٌ مِن ذهبٍ . . لنفدَ بيت ذهبِهِ قبلَ أَن ينفدَ بيتُ تِبْنِهِ ، غيرَ أَنَّ الطبيعةَ أَغلبُ ، والأَحوالَ تختلفُ ، والعادَةَ تنخرقُ ، والمسبَّبَاتِ كثيراً ما تتخلفُ ، فضلاً عن هٰذا .

ولقدْ أَرادَ بعضُهم أَن يتصدَّقَ ، فغلَبَهُ طبعُهُ ، فلم يقدرْ ، مَعَ حَزْوَةٍ[1] علىٰ نفسِهِ .

مثل البخيل والمنفق من الحديث النبوي

وفي « الصحيح » : « مَثَلُ ٱلْبَخِيْلِ وَٱلْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيْدٍ مِنْ ثُدُيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيْهِمَا ، فَأَمَّا ٱلْمُنْفِقُ : فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَقَتْ عَلَىٰ جِلْدِهِ ، حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وتَعفُوَ أَثَرَهُ ، وَأَمَّا ٱلْبَخِيْلُ : فَلاَ

(١) الحَزْوةُ : حرقةٌ في الحلقِ والصدرِ والرأسِ مِنَ الوجعِ والغيظِ .

يُرِيْدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوْسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ »[1] .

مثل المنفق

وللهِ دَرُّ ٱبنِ الروميِّ إذ يقولُ في معنىٰ الشقِّ الأوَّلِ [في « ديوانهِ » ١/٣٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

سَجَايَا إِذَا هَمَّتْ بِخَيْرٍ تَسَرَّعَتْ إِلَيْـهِ وَإِنْ هَمَّـتْ بِشَـرٍّ تَنَـاءَتِ

مثل البخيل

وفي معنىٰ الشقِّ الثاني يقولُ الآخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

يُعَـالِـجُ نَفْسـاً بَيْـنَ جَنْبَيْـهِ كَـزَّةً إِذَا هَمَّ بِٱلْمَعْرُوْفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاَ[2]

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَدُوْنَ ٱلنَّـدَىٰ فِـيْ كُـلِّ قَلْـبٍ ثَنِيَّـةٌ لَهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلُ[3]

وجوب إكرام الوافد

وَمِمَّا يَتعلَّقُ بوجوبِ إكرامِ الوافدِ ، ولزومِ حقِّهِ علىٰ من قصدَهُ . . ما بلغنا أَنَّ بعضَ طلبةِ الحديثِ سافر إلىٰ بلدٍ بعيدٍ للسماعِ عنْ بعضِ المشايخِ ، فلمَّا قدمَ عليهِ . . تشاغلَ عنهُ بإلقاءِ الخبزِ لكلبٍ كان عندَهُ ، فوقعَ في نفسِهِ ، فلمَّا فرغَ من إطعامِ الكلبِ ، أَقبلَ عليهِ وقالَ لهُ : ما منَعَني أن ٱلتفتَ إليكَ قبلُ ، إلاَّ أَنَّ هـٰذا الكلبَ علَّقَ أَملَه بي ، فكرهتُ أَن أَقطعَهُ ، ورَوىٰ لهُ بسندِهِ حديثَ : « مَنْ قَطَعَ رجَاءَ مَنِ ٱرْتَجَاهُ . . قَطَعَ ٱللهُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ رَجَاءَهُ »[4] .

---

(١) أخرجهُ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنهُ بنحوهِ البخاريُّ (٥٧٩٧) في اللباس ، ومسلمٌ (١٠٢١) في الزكاةِ .

(٢) كزَّةٌ : صلبةٌ .

(٣) الثنيَّةُ : العَقَبَةُ .

(٤) ذكره الإمامُ العجلونيُّ في « كشفِ الخفاءِ » (٢٥٧٣) وقالَ : عزاهُ بعضُهم =

جوده ﷺ

والله أعلمُ بحالِ هٰذا الحديثِ ، ولٰكنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يكرمُ الوفودَ ، ويقولُ : « أَجِيزُوْا ٱلْوَفْدَ بِمِثْلِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُ »[1] .

تأثير الأخفاف والحوافر فـي الحصـى عنـد الشعراء

أَمَّا ما يذكرُهُ الشعراءُ من تأثيرِ الأَخفافِ والحوافرِ بالحصىٰ . . فإِنَّه لاَ يُحصىٰ كثرةً ، ومنهُ قولُ ٱمرىءِ ٱلقيسِ [في « ديوانهِ » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ ٱلْحَصَىٰ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا ... إِذَا نَجلَتْهُ رِجْلُهَا خَذْفُ أَعْسَرَا[2]

كَأَنَّ صَلِيْلَ ٱلْمَرْوِ حِيْنَ تُشِذُّهُ ... صَلِيْلُ زُيُوْفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرَا[3]

وقولُ عنترةَ [في « ديوانهِ » ٥٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

خَطَّـارَةٌ غِـبَّ ٱلسُّـرَىٰ زَيَّـافَـةٌ ... تَطِسُ ٱلإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيْثَمِ[4]

وقولُ الحُطيئَةِ [في « ديوانهِ » ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَتَرْمِيْ يَدَاهَا بِٱلْحَصَىٰ خَلْفَ رِجْلِهَا ... وَتَرْمِيْ بِهِ ٱلرِّجْلاَنِ دَابِرَةَ ٱلْيَدِ[5]

= للإمامِ أحمدَ عن أبي هريرةَ مرفوعاً ، لكن قالَ السخاويُّ : هوَ مختلقٌ علىٰ الإمامِ أحمدَ .

(١) أورده المباركفوري في « تحفة الأحوذي » (٦/٢٥٨) .

(٢) نَجلَتْهُ : رمَتهُ بمناسِمِها . الخَذفُ : الرمي . الأَعسرُ : الذي يعملُ بيدهِ اليسرى .

(٣) صليلُ المروِ : صوتُ الحجارةِ . تُشِذُّهُ : تطيِّرُهُ . الزيوفُ : الدراهمُ الزائفةُ التي لا فضَّةَ فيها . عبقرٌ : وادٍ زعموا أنَّهُ كثيرُ الجنِّ ، وإليه تنسبُ نفائِسُ الأَشياءِ وبدائعُ الفكرِ ، فيقالُ : هٰذا بساطٌ عبقريٌّ ، وهذا رأيٌ عبقريٌّ .

(٤) خطارةٌ : تخطِرُ بذنبها وتحرِّكُهُ وترفُصُهُ . زيَّافةٌ : سريعةٌ . الوَطْسُ : الضربُ الشديدُ . ميثَمٌ : عدَّاءٌ .

(٥) دابرُ اليدِ : موضعُ الحافرِ منَ اليدِ .

وقولُ شريحِ بنِ الحارثِ يمدحُ حبيبَ بنَ مسلمةَ الفهريَّ صاحبَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ورضيَ اللهُ عنهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ كُلُّ مَنْ يُدْعَىٰ حَبِيباً وَلَوْ بَدَتْ مُرُوْءَتُهُ يَفْدِيْ حَبِيْبَ بَنِيْ فِهْرِ

هُمَامٌ يَقُـوْدُ ٱلْخَيْـلَ حَتَّـىٰ كَـأَنَّمَـا يَطَأْنَ بِرَضْرَاضِ ٱلْحَصَىٰ حَاجِمَ ٱلْجَمْرِ[1]

وقولُ أَبي حَزْرَةَ [مِنَ ٱلكاملِ] :

يَـدَعُ ٱلـرَّضِيْـمَ إِذَا جَـرَىٰ فِلَقـاً بِتَـوَائِـمٍ كَمَـوَاسِـمٍ سُمُـرِ[2]

وقولُ طفيلٍ ٱلغنويِّ [في « ديوانهِ » ٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَضْنَ ٱلْحَصَىٰ حَتَّىٰ كَأَنَّ رُضَاضَهُ ذُرَىٰ بَـرَدٍ مِـنْ وَابِـلٍ مُتَحَلِّـبِ[3]

وقولُ ٱلفرزدقِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٥٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

تَنْفِي يَدَاهَا ٱلْحَصَىٰ فِيْ كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْـيَ ٱلـدَّرَاهِيـمِ تَنْقَـادُ ٱلصَّيَـارِيْـفِ

وقولُ أَبي الطَّمحانِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَرُضُّ حَصَىٰ مَعْزَاءَ جَوْشٍ وَأَكْمَةٍ بِأَخْفَافِها رَضَّ ٱلنَّوَىٰ بِٱلْمَرَاضِحِ[4]

وقولُ أَبي الشِّيصِ [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ ٱلكامِلِ] :

وَعِصَابَةٍ صَرَفَتْ إِلَيْكَ وُجُوْهَهَا نَكَبَـاتُ دَهْـرٍ لِلْعُـلاَ عَضَّـاضِ

شَدُّوْا بِأَعْوَادِ ٱلرِّحَالِ مَطِيَّهُمْ مِنْ كُلِّ أَهْوَجَ لِلْحَصَىٰ رَضَّاضِ

---

(١) الرَّضراضُ : الحصىٰ الصغيرُ .

(٢) الرضيمُ : الصخورُ العِظامُ . السمُرُ : شجرُ الطلحِ .

(٣) الوهضُ : شدَّةُ الوطءِ . رضاضُهُ : ما ٱنكسرَ منهُ . ذُرىٰ بَرَدٍ : أَعاليهِ .

(٤) المراضحُ ـ جمع مِرضاحٍ ـ : وهوَ الحجرُ الذي يُرضَحُ ـ أي يكسرُ ـ به النوىٰ .
معزاءُ : أَرضٌ معزاء ؛ أَي : شديدةٌ صلبةٌ .

يَـزِمِيْـنَ بِـٱلْمَـرْوِ ٱلطَّـرِيْـقَ وَتَـارَةً يَخْذِفْنَ وَجْهَ ٱلأَرْضِ بِٱلرَّضْرَاضِ

وقولُ ٱبنِ دريدٍ [مِنَ الرَّجزِ] :

يَرُضُّ بِٱلْبِيْدِ ٱلْحَصَا فَإِنْ رَقَىٰ إِلَىٰ ٱلرُّبَىٰ أَوْرَىٰ بِهَا نَارَ ٱلْحِبَا

وقولُ ٱبنِ ٱلمعتزِّ [مِنَ الكامِلِ] :

وَكَأَنَّمَا نَقَشَتْ حَوَافِرُ طِرْفِهِ لِلنَّاظِرِيْنَ أَهِلَّةً فِيْ ٱلْجَلْمَدِ[1]

وقولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٦٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَلَـوْ تَـرَاهُ مُشِيْحـاً وَٱلْحَصَـىٰ فِلَـقٌ تَحْتَ ٱلسَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَىٰ وَوُحْدَانِ[2]

تأثيرها عند المتنبي

وقد تكرَّرَ ٱلمعنىٰ وما يقاربهُ في « ديوانِ ٱلنَّاظمِ » ، فمنهُ قولُهُ [في « ٱلعُكبَريِّ » ١/ ٢٦٦ مِنَ المنسرحِ] :

أَوَّلَ حَـرْفٍ مِـنِ ٱسْمِـهِ كَتَبَـتْ سَنَابِكُ ٱلْخَيْلِ فِيْ ٱلْجَلاَمِيْدِ[3]

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٧٦ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

إِذَا ٱللَّيْـلُ وَارَانَـا أَرَتْنَـا خِفَـافُهَـا بِقَدْحِ ٱلْحَصَىٰ مَا لاَ تُرِيْنَا ٱلْمَشَاعِلُ

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٧ مِنَ ٱلوافِرِ] :

مَشَـىٰ ٱلأُمَـرَاءُ حَـوْلَيْهَـا حُفَـاةً كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ[4]

---

(١) الطِّرْفُ : بكسر الطاء : الكريمُ مِنَ الخيلِ . الجَلْمَدُ : الصخرُ .

(٢) السنابك ـ مفردُهُ سنبكٌ ـ : طرفُ الحافرِ . المشيحُ : أشاحَ بوجههِ أعرضَ متكرِّهاً .

(٣) الجلاميدُ : الصخورُ والحِجارُ .

(٤) المروُ : حجارةٌ برَّاقةٌ ، يكونُ فيها النارُ . الزِّفُّ : صغار الريشِ . الرئالُ ـ جمعُ رَأْلٍ ـ : وهوَ ولدُ النعامِ .

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَريّ » ٤/ ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَاشَىٰ بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَافَتِ ٱلصَّفَا ... نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ ٱلْبُزَاةِ حَوَافِيَا(١)

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَريّ » ٣/ ٢٢٩ مِنَ ٱلوافِرِ] :

إِذَا وَطِئَتْ بِأَيْدِيهَا صُخُوراً ... يَفِئْنَ لِوَطْءِ أَرْجُلِهَا رِمَالاَ(٢)

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَريّ » ٢/ ٢٥٩ مِنَ ٱلكامِلِ] :

أَرَكَائِبَ ٱلأَحْبَابِ إِنَّ ٱلأَدْمُعَا ... تَطِسُ ٱلْخُدُودَ كَمَا تَطِسْنَ ٱلْيَرْمَعَا(٣)

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَريّ » ٢/ ٣٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ ... يَصِيحُ ٱلْحَصَىٰ فِيهَا صِيَاحَ ٱللَّقَالِقِ(٤)

القول في تأثير أقدامه ﷺ في الصخر

وإذا ٱنتهىٰ ٱلكلامُ إلىٰ هنا في ٱلموضوعِ . . فقدْ يُسأَلُ عمَّا يأْتي ذِكرُهُ في ٱلمدائحِ ٱلنَّبويَّةِ بكثرةٍ ، مِنْ لينِ ٱلصَّخرِ لأَقدامِهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، وتأْثيرِها فيهِ إذا مشىٰ عليهِ ، وأَرجو أَنْ لا يُعَدَّ مِنْ سوءِ ٱلأَدبِ علىٰ حضرتِهِ ٱلشَّريفةِ ومقامِهِ ٱلكريمِ . . قرنُهُ إلىٰ ما سبقَ ، لاختلافِ ٱلأَلوانِ وٱلجهاتِ ، ولأَنَّ ٱلقصدَ ٱلفائدةُ لَيسَ غيرُ ، فنقولُ في ٱلجوابِ عنهُ : ما قالهُ السُّيوطيُّ : مِنْ أَنَّهُ لَمْ يقفْ لَهُ علىٰ أَصلٍ ولا سَنَدٍ، ولا رأَىٰ مَنْ خرَّجَهُ في شيءٍ مِنْ كتبِ ٱلحديثِ .

---

(١) الصفا : الصخرُ . البُزاةُ : جمعُ بازٍ . حوافياً : جمعُ حافٍ .

(٢) يَفِئْنَ : يعدنَ .

(٣) تطِسُ : تدقُّ . اليرمَعُ : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رِخوةٌ .

(٤) الملمومةُ : الكتيبةُ المجتمعةُ . سيفيَّةٌ : منسوبة إلى سيف الدولة . ربَعيَّةٌ : منسوبةٌ إلىٰ ربيعةَ ، وهيَ قبيلةُ سيفِ الدولةِ . اللقالقُ ـ جمع لقلقٍ ـ : وهو طائرٌ كبيرٌ ، يسكنُ العمرانَ في أَرضِ (العراقِ) .

أثر قدمَي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الحجر

وأَمَّا أَثَرُ قَدَمَي إِبْراهيمَ [عليه الصلاة والسلام] في ٱلحَجَرِ الَّذي كانَ يبني عليهِ ٱلبيتَ ، وأَنَّه ٱلمَقامُ : فقدْ وردَ ذلكَ ، أَخرجهُ ٱلأَزرقيُّ في « تاريخِ مكَّةَ » مِنْ طريقِ أَبي سعيدِ ٱلخُدريِّ ، عَنْ عبدِ ٱللهِ بنِ سلامٍ ـ رضيَ ٱللهُ عنهُما ـ موقوفاً عليهِ بسندٍ صحيحٍ .

وأَخرجَهُ عبدُ بنُ حُميدٍ في « تفسيرِهِ » عَنْ قَتادةَ . وأَخرجهُ أَيضاً عَنْ عِكرمةَ ، وقد أَفضْتُ ٱلقولَ فيما يتعلَّقُ بهِ في « حاشِيَتي على الشمائِلِ » ، وبما أَنَّ ما بقيَ مِنْ أَوراقِها عَنِ ٱلأَرَضَةِ[1] . . مُبَعْثَراً ، فٱستئنافُ النَّظرِ فيها يُكلِّفُ تعَباً ، ويستغرِقُ وقتاً ، وفيما ذكرناهُ ٱلكفايةُ .

* * *

(١) الأَرَضَةُ : نوعٌ مِنَ الدُّودِ الصغارِ تأْكلُ الأَشياءَ .

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ إِنَّ هَارِبَهُمْ	إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاَ

الدفاع عن المتنبي

أكثرُ الناسِ علىٰ ٱستهجانِ هٰذا البيتِ ، وما يكثرونَ بهِ في ٱنتقادِهِ ليسَ عندي بالمقبولِ ، ووجهُ الأخذِ عليهِ أَنَّ غيرَ الشيءِ معدومٌ ، والمعدومُ ليسَ بشيءٍ ، وهُوَ أَخذٌ يسيرٌ ، يمكنُ دفعهُ :

أولاً : بأَنَّ طائفةً من المعتزلَةِ والفلاسفةِ . . ذَهبوا إِلىٰ أَنَّ المعدومَ شيءٌ بمعنىٰ أَنَّهُ حقيقةٌ متقرِّرَةٌ في الخارجِ بحجتينِ : بقولِهِ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وَبِأَنَّ المعدومَ معلومٌ متميِّزٌ ، وكلُّ متميزٍ ثابتٌ ، فالمعدومُ ثابتٌ .

وثانياً : بأَنَّ المرادَ مِن الرؤيةِ التوهُّمُ ، فكثيراً ما تتراءَىٰ للخائِفِ وغيرِهِ أَشباحٌ من غيرِ حقيقةٍ ، وذلكَ الذي يريده أَبو الطيِّبِ ، وقد أَلَمَّ فيهِ بقولِ جريرٍ [مِنَ الكاملِ] :

مَا زَالَ يَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ	خَيْـلاً تَكُـرُّ عَلَيْهِـمُ وَرِجَـالاَ

الخوف يقطع الجوف

وهوَ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] كذا قلتُهُ ـ واللهِ ـ من أَوَّلِ وهلةٍ عندَ ٱقتراءِ البيتِ ، ثمَّ رأَيْتُ الشارحَ ذكرَ مثلَهُ عَنِ الأخطلِ ، فَسَرَّني مِنْ نَفْسي ، وقد تكرَّرَ ما يشبهُهُ في « ديوانِهِ » منهُ قولُه [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٤ مِنَ المتقاربِ] :

يَرَوْنَ مِنَ ٱلذُّعْرِ صَوْتَ ٱلرِّيَاحْ	صَهِيـلَ ٱلْجِيَـادِ وَخَفْـقَ ٱلْبُنُـوْدْ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤١٩ مِنَ البسيطِ] :

حَيْرَانَ يَحْسَبُ سَجْفَ النَّقْعِ مِنْ دَهَشٍ طَوْداً يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقَضَّ أَوْ جُرُفَا[١]

وقالَ يصفُ جباناً [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٢ مِنَ البسيطِ] :

مُــوَكَّــلٌ بِيَفَــاعِ الأَرْضِ يَشْــرُفُهَــا مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لاَ مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ[٢]

وقالَ الآخَرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ خِفتُ حَتَّىٰ لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ : عَدُوٌّ أَوْ طَلِيْعَةُ مَعْشَرِ

وقالَ لَبيدٌ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

كَــأَنَّ بِــلاَدَ اللهِ وَهْــيَ عَــرِيْضَــةٌ علَىٰ الْخَائِفِ الْمَطْلُوْبِ كِفَّةُ حَابِلِ[٣]

قصة المنزوف ضرطاً

وكانَ مِن حديث المنزوفِ ضرطاً [كما في « مجمع الأمثال » ١/ ١٨٠] : أنَّ امرأَةً مِنَ العربِ تزوَّجَتْ برجلٍ ينامُ إِلىٰ الضُّحىٰ ، فكانت تأتيهِ معَ صواحبَ لهُ بصبوحِهِ[٤] فتقولُ لهُ : قُم فاصطَبِحْ ، فيقولُ : لو لعاديَةٍ تنبِّهيني ، فنبَّهَتْهُ مرَّةً وقالَتْ لَهُ : هٰذهِ نَواصي الخيلِ ، فجعلَ يقولُ : (الخيلُ الخيلُ) ويَضْرِطُ حتَّىٰ ماتَ فَرَقاً ، فضربَ بهِ المثلُ .

رواية أخرى للقصة

وقيلَ [كما في « مجمع الأمثال » ١/ ١٨٠] : إِنَّما هيَ دخْتَنوس بِنْتُ لقيط بنِ زرارَةَ كانَتْ تحتَ عمرِو بنِ عمرٍو وهُوَ شيخٌ أَبرصُ ، نامَ

---

(١) سجفُ النقعِ : سترُ الغبارِ . الطودُ : الجبلُ . الدَّهَشُ : الخوفُ . الجُرُفُ : ما تجرفهُ السيولُ وتأكلُهُ مِنَ الأرضِ .

(٢) اليفاعُ : ما ارتفعَ من الأرضِ . يشرفهُ : يعلوهُ .

(٣) الكِفَّةُ : حبالةُ الصائِدِ . الحابلُ : الذي يصيدُ بالحبال .

(٤) الصَّبوحُ : اللبنُ الذي يُحلبُ بالغداةِ .

يوماً في حجرِها ، فجخفَ[1] ، وسالَ لعابُهُ ، فرفعَ رأسَهُ وهيَ تُؤَفِّفُ ، فقالَ : تحبينَ أَن أُطلقَكِ ؟ قالَتْ : نعم ، فنكحها رجلٌ جسيمٌ جميلٌ ، وأسمه عميرُ بنُ عمارةَ بنِ معبدِ بنِ زرارةَ ، وبعقبِ ذلكَ أغارَتْ بكرٌ علىٰ بني دارمٍ ، وكانَ زوجُها نائماً فنبهتهُ تظُنُّ بهِ خيراً ، فلمْ يزلْ يحبِقُ[2] حتَّىٰ مات خوفاً ، وأُخِذَتْ دختنوس فركبَ في أثرِها عمرُو بنُ عمرٍو ولحقَ بالقومِ ، وأثخنَ فيهِم ، قتلَ أَربعةَ أَو ثلاثةَ ، وأسترجَعَها مِنهُم ، وقالَ لَها :

أَيَّ خَلِيْلَيْـكِ وَجَـدْتِ خَيْـراً   أَأَلْعَظِيْـمُ فَيْشَـةً[3] وَأَيْـراً

أَمِ الَّـذِيْ يَـأْتِـيْ الْعَـدُوَّ سَيْـراً ؟!!

القتال في النوم

وقالَ الحجَّاجُ لحميدِ الأَرقطِ ـ وقد أَنشدَ قصيدةً يصفُ فيها الحربَ ـ : يا حميدُ ، هل قاتلتَ قطُّ ؟ قالَ : نعم ، مرَّةً في النومِ ، قالَ : وكيفَ كانَتْ وَقعَتُكَ ؟ قالَ : أنتبهتُ وأَنا منهزمٌ .

أسرع من الغزال في الفرار

وقالَ بعضُهم [مِنَ الوافرِ] :

وَفِيْ الْهَيجَاءِ مَا جَرَّبْتُ نَفْسِيْ   وَلَـكِنْ فِيْ الْهَزِيْمَةِ كَالْغَزَالِ

وكفىٰ بذلكَ تجربةً ، إِذ كيفَ يصبرُ للهيجاءِ مَن كانَ بتلكَ المثابةِ من فراغِ الجوفِ .

العطب مقرون بالشجاعة

وقالَ أَبو الغمرِ [مِنَ البسيطِ] :

بَاتَتْ تُشَجِّعُنِيْ عِرْسِيْ وَقَدْ عَلِمَتْ   أَنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُوْنٌ بِهَا الْعَطَبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ   إِذَا دَعَتْهُم إِلَىٰ مَكْرُوْهِهَا وَثَبُوْا

وَلَسْتُ مِنْهُـمْ وَلاَ أَهْـوَىٰ فِعَـالَهُـمْ   لاَ الْجِدُّ يُعْجِبُنِيْ مِنْهُمْ وَلاَ اللَّعِبُ

(١) الجخيفُ : صوتٌ يخرجُ من الجوفِ ، أَشدُّ منَ الغطيطِ .

(٢) حَبقَ : أخرجَ ريحَ الحدَث مع صوتٍ .

(٣) الفَيشَةُ : رأسُ الذكرِ .

قتلة واحدة خير

وأُتِيَ الحجَّاجُ برجلٍ من أَصحاب ٱبنِ الأَشعثِ فقالَ لهُ : أَسأَلُكَ أَن تقْتُلَنِي وتخلِّصَني ، فقالَ لَهُ الحجَّاجُ : لِمَ ؟ فقالَ : إِنِّي أَرَىٰ كلَّ ليلةٍ في المنامِ أَنَّك تقتلُني ، وقَتلةٌ واحدةٌ خيرٌ ، فضحِكَ وخلَّىٰ لَهُ سبيلَهُ .

الغضب في الحياة خير من الرضا في الممات

وقيلَ لأَسلمَ بنِ زرعةَ : إنِ ٱنهزمتَ من أَصحاب مِرداسٍ . . غَضِبَ عليكَ عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ ، قالَ : لأَن يغضبَ عليَّ وأَنا حيٌّ ، خيرٌ من أَنْ يرضىٰ عَنِّي وأَنا ميْتٌ .

ليس لي غير رأسي

قالَ بعضُهُم [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٩٤ مِنَ الوافرِ] :

يَقُـوْلُ لِـيَ ٱلأَمِيْـرُ بِغَيْـرِ نُصْـحٍ ... تَقَدَّمْ حِيْنَ جَدَّ بِنَا ٱلمِرَاسُ[١]

وَمَـا لِـيْ إِنْ أَطَعْتُـكَ مِـنْ حَيَـاةٍ ... وَمَا لِيْ بَعْدَ هَـٰذا ٱلرَّأْسِ رَاسُ

روح بن عدي يأمر أبا دلامة للخروج في القتال

وآلىٰ المنصورُ ليُخرجنَّ أَبا دُلامةَ للحربِ ، وأَلحقهُ برَوْحِ بنِ عديِّ بنِ حاتمٍ المهلبيِّ لقتالِ الشُّراةِ[٢] ، فلمَّا ٱلتقىٰ الجمعانِ . .

---

(١) المِراسُ : الشِّدَّةُ في القتالِ .

(٢) الشُّراةُ : ويقالُ الشُّرىٰ ٱسمٌ ٱتَّصلَ بالخوارجِ عَبرَ مراحِلِ التاريخِ ، وهوَ عندَهم لقبُ جماعةٍ تتأَلَّفُ مِن أَربَعينَ رَجلاً أَو أَكثرَ تكونُ إِلىٰ جانبِ الأَئِمَّةِ ؛ مهمَّتُها باديءَ الأَمرِ ٱمتحانُ الأَئِمَّةِ بما يستدِلُّونَ بهِ علىٰ سرائِرِهِم وخفاياهم ، فيُرَجِّحونَ للإِمامةِ مَنْ هوَ أَهلٌ لَها ، وبعدَ البَيعةِ يفرضونَ علىٰ الإِمامِ رقابتَهم ، ويُسْدُون له النصيحةَ ، ويُشيرونَ عليهِ باتخاذِ ما يرونَهُ مناسباً مِنَ القَراراتِ ، فَهُم أَهلُ حَلٍّ وعقدٍ . وهم أَيضاً أَصحابُ شورىٰ .

وٱشتقَّ ٱسمهم مِن قولهِ تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] باعتبارِهم ٱشترَوا الآخرةَ بالدنيا ، وعاهدوا اللهَ علىٰ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، دونَ مبالاةٍ ولا خوفٍ مِنَ الموتِ ، ولو أَدّىٰ ذلكَ إِلىٰ القتلِ ، وَعلىٰ أَقوالِهم وأَفعالِهم يكونُ مدارُ أَقوالِ الناسِ بالأَئِمَّةِ .

خرجَ واحدٌ من صفِّ الشُّراةِ يطلبُ ٱلبرازَ ، فقالَ لهُ رَوحٌ [كما في « وفيات الأعيان » ٢/ ٣٢٣] : ٱخرجْ إليهِ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

إِنِّـي أَعُـوذُ بِـرَوْحٍ أَنْ يُقَـدِّمَنِـي ... إِلَىٰ ٱلْقِتَالِ فَتَخْزَىٰ بِيْ بَنُوْ أَسَدِ
إِنَّ ٱلْبِـرَازَ إِلـىٰ ٱلأَقْـرَانِ أَعْلَمُـهُ ... مِمَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ ٱلرُّوْحِ وَٱلْجَسَدِ
إِنَّ ٱلْمُهَلَّـبَ حُـبَّ ٱلْمَـوْتِ أَوْرَثَكُـمْ ... وَمَا وَرِثْتُ ٱخْتِيَارَ ٱلْمَوْتِ عَنْ أَحَدِ
لَوْ أَنَّ لِيْ مُهْجَةً أُخْرَىٰ لَجُدْتُ بِهَا ... لَـكِنَّهَـا خُلِقَـتْ فَـرْداً فَلَـمْ أَجُـدِ

فضحكَ وأعفاهُ . وفي القصَّةِ طولٌ ونادرةٌ مشهورةٌ[1] .

---

(١) والقصَّةُ كما ذكرهَا ٱبنُ خلِّكانَ (٢/ ٣٢٣) :

أَنَّ روحَ بنَ حاتمٍ كانَ والياً علىٰ (البصرةِ) . . فخرجَ إلىٰ حربِ الجيوشِ الخراسانيَّةِ ، ومعَهُ أبو دُلامةَ ، فخرجَ مِن منتصفِ العدوِّ مبارزٌ ، فخرجَ إليهِ جماعةٌ فقتلَهم ، فتقدَّمَ روحٌ إلىٰ أبي دُلامةَ بمبارَزَتِهِ ، فامتنعَ ، فألزمَهُ ، فاستعفاهُ ، فلَم يُعفِهِ ، فأنشدَ أبو دُلامةَ الأبياتَ : إِنِّيْ أَعُوْذُ بِرَوْحٍ . . .

فأقسمَ عليهِ ليخرجَنَّ ، وقالَ : لماذا تأخذُ رزقَ السلطانِ ؟ قالَ : لأُقاتِلَ عنهُ .

قالَ : فما لكَ لا تبرزُ إلىٰ عدوِّ اللهِ ؟ فقالَ : أيُّها الأميرُ ، إنْ خرجتُ إليهِ . . لحقتُ بمن مضىٰ ، وما الشرطُ أنْ أُقتَلَ عَنِ السلطانِ ، بَل أُقاتلَ عنهُ ، فحلفَ رَوْحٌ لتخرجنَّ إليهِ فتقتلَهُ ، أَو تأسرَهُ ، أَو تُقْتَلَ دونَ ذلكَ .

فلَمَّا رأىٰ أبو دُلامةَ الجِدَّ مِنهُ . . قالَ :

أيُّها الأميرُ ، تعلَمُ أنَّ هذا هوَ أَوَّلُ يوم مِنْ أيَّامِ الآخرةِ ، ولا بدَّ فيهِ مِنَ الزوَّادَةِ ، فأمَرَ لهُ بذلكَ ، فأخذَ رَغيفاً مطويًّا علىٰ دجاجةٍ ولحمٍ ، وشيئاً مِنَ الشرابِ وشهرَ سيفاً ، وحَمَلَ ، وكانَ تحتهُ فرسٌ جوادٌ ، فأقبلَ يجولُ ، ويلعبُ بالرُّمحِ ، وكانَ مليحاً في الميدانِ ، والفارسُ يلاحظُهُ ، ويطلبُ منهُ غِرَّةً ؛ حتَّىٰ إذا وجدَها . . حملَ عليهِ ، والغبارُ كالليلِ .

فـأغمـدَ أبـو دُلامـةَ سيفَـهُ ، وقـالَ للرجـلِ : لا تعجـل ، واسمـعْ مِنِّـي =

. . . .

= ـ عافاكَ اللهُ ـ كلماتٍ أُلقيهنَّ إليكَ ؛ فإنَّما أتيتُكَ في مهمٍّ ، فوقفَ قبالَهُ ، وقالَ : ما المهمُّ ؟ قالَ : أتعرفني ؟ قالَ : لا . قالَ : أنا أبو دُلامةَ . قالَ : قد سمعتُ بكَ ـ حيَّاكَ اللهُ ـ فكيفَ برزتَ إليَّ ، وطمعتَ فِيَّ ، بَعدَ مَن قتلتُ مِن أصحابكَ ؟ قالَ : ما خرجتُ لأقتلَكَ ، ولا لأقاتلَكَ ، ولكني رأيتُ لبَاقتَكَ ، وشهامتَكَ ، فاشتهيتُ أن تكونَ لي صديقاً ، وإنِّي لأدلُّكَ علىٰ ما هوَ أحسنُ مِن قتالِنَا . قالَ : قُل علىٰ بركةِ اللهِ تعالىٰ .

قالَ : أراكَ قد تعبتَ ، وأنتَ بغيرِ شكٍّ سغبانُ ـ جائعٌ ـ ظمآنُ ، قالَ : كذلكَ هوَ . قالَ : فما علينا مِن (خراسانَ) و(العراقِ) ، إنَّ معيَ خُبزاً ولَحماً وشراباً كما يتمنَّىٰ المتمنِّيْ ، وهذا غديرُ ماءٍ نميرٍ بالقربِ مِنَّا ، فهلمَّ بِنا إليهِ نصطبحُ ، وأترَنَّمُ لكَ بشيءٍ مِن حداءِ الأعرابِ .

فقالَ : هذا غايةُ أملي . فقالَ : ها أنا أستطردُ لكَ فاتبعني حتَّىٰ نخرجَ مِن حلقِ الطعانِ ، ففعلا ، ورَوْحٌ يتطلَّبُ أبا دُلامةَ فلا يجدهُ ، والخراسانيَّةُ تطلُبُ فارسَها فلا تجدهُ .

فلمَّا طابتْ نفسُ الخراسانيِّ . . قالَ لهُ أبو دُلامةَ : إنَّ رَوحاً ـ كما علمتَ ـ مِن أبناءِ الكرامِ ، وحسبكَ بابن المهلَّبِ جَواداً ، وإنَّهُ يبذلُ لكَ خلعةً فاخرةً ، وفرساً جَواداً ، ومَركباً ، وسيفاً محلّىً ، ورُمحاً طويلاً ، وجاريةً بربريَّةً ، وينزلكَ في أكثرِ العطاءِ ، وهذا خاتمهُ معي بذلكَ لكَ ، قالَ : ويحكَ ، ما أصنعُ بأهلي وعيالي ؟ قالَ : أستخرِ اللهَ ، وسِرْ معي ، ودَعْ أهلكَ ، فالكلُّ يُخلَفُ عليكَ . فقالَ : سِر بنا علىٰ بركةِ اللهِ .

فسارا . . حتَّىٰ قدِما مِن وراءِ العسكَرِ ، فهجما علىٰ روحٍ ، فقالَ : يا أبا دُلامَةَ . . أينَ كنتَ ؟

قالَ : في حاجتِكَ ، أمَّا قتلُ الرجلِ : فما أطقتُهُ ، وأمَّا سفكُ دمي : فما طِبْتُ بهِ نفساً ، وأمَّا الرجوعُ خائِباً : فلَم أُقدِمْ عليهِ ، وقد تلطَّفْتُ ، وأتيتُكَ بهِ أَسيرَ كرمِكَ ، وقد بذلتُ لهُ عنكَ كيتَ وكيتَ .

فقالَ : ممضيٌّ إذا وُثِّقَ لي ، قالَ : بماذا ؟ قالَ : بنقلِ أهلهِ .

قالَ الرجلُ : أهلي علىٰ بعدٍ ، ولا يمكنُني نقلُهم الآنَ ، ولكنِ امدُدْ يدكَ =

وقالَ زفرُ بنُ الحارثِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إياك أن تفرِّط بالغالي

أَلاَ لاَ تَلُومَانِي عَلَى ٱلْجُبْنِ إِنَّنِي ... أَخَافُ عَلَى فَخَّارَتِي أَنْ تَحَطَّمَا
وَلَوْ أَنَّنِي أَبْتَاعُ فِي ٱلسُّوقِ مِثْلَهَا ... إِذا شِئْتُ مَا بَالَيْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَا

وقالَ معاويةُ يوماً : لقد علمَ الناسُ أَنَّ الخيلَ لا تجري بمِثْلي ، فكيفَ قالَ النجاشيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

ليس الإقدام شجاعة في كل حين

وَنَجَّى ٱبْنَ حَرْبٍ سَابِحٌ ذُو عُلاَلَةٍ ... أَجَشُّ هَزِيمٌ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِي[1]

فقالَ لهُ ٱبنُ العاصِ : أَعياني ، شجاعٌ أَنتَ أَم جَبَانٌ ؟ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

شُجَاعٌ إِذا مَا أَمْكَنَتْنِي فُرْصَةٌ ... فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِيْ فُرْصَةٌ فَجَبَانُ

ومِن بلاغةِ العربِ : أَنْ حَسَّنوا كلَّ شيءٍ ، حتَّى الفرارَ ، ومهَّدوا عنهُ الاعتذارَ ، وفي « بلابلِ التغريدِ » جملةٌ صالحةٌ منهُ ، ٱستطردْنا بها في حديثِ بدءِ الوحيِ ، بمناسبةِ سؤَالِ ٱلحارثِ بنِ هشامٍ عن كيفيَّتِهِ .

من بلاغة العرب تحسينهم كل شيء حتى الفرار

= أُصافحكَ ، وأَحلفُ لكَ متبرِّعاً بطلاقِ الزوجةِ . . أَنّي لا أَخونُكَ ، فإِن لَم أَفِ إذا حلفتُ بطلاقِها . . لَم ينفعكَ نقلُها ، قالَ : صدقتَ ، فحلفَ لهُ ، وعاهَدهُ ، ووفَّى لهُ بما ضمنَهُ أَبو دُلامَةَ ، وزادَ عليهِ ، وٱنقلبَ معهُمُ الخراسانيُّ يقاتِلُ الخراسانيَّةَ ، ويُنكي فيهِم أَشدَّ نكايةٍ ، وكانَ أَكبرَ أَسبابِ ظَفَرِ رَوْحٍ . والله أعلم .

(١) السابحُ : الفرسُ الشديدُ العَدوِ . العُلالَةُ : بقيَّةُ سيرِ الفرسِ ، وهيَ أَشدُّ ما يكونُ مِن عَدْوِهِ . الأجشُّ : الغليظُ الصَّهيلِ ، وهوَ مِمَّا يُحمدُ في الخيلِ . الهَزيمُ : الشديدُ الصَّوتِ .

وقالَ نعيمٌ التميميُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فـإنْ يـكُ عـاراً يـوْمَ فَلْـجٍ أتيْتُـهُ   فِرَارِي فَذَاكَ الْجَيْشُ قَدْ فَرَّ أجْمَعُ[1]

وقالَ ثعلبةُ الباهليُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ تَعْذُلاَنِي فِي الْفِرَارِ فَإِنَّمَا   فَرَرْتُ لِمَا قَدْ فَرَّ قَبْلِي عَامِرُ

فَإِنْ لَمْ أُعَوِّدْ نَفْسِيَ الْكَرَّ بَعْدَهَا   فَلاَ وَأَلَتْ نَفْسٌ عَلَيْهَا أُحَاذِرُ[2]

صور عن الذين فروا

وقولُهُ : (قد فرَّ قَبلي) يعني بهِ : عامرَ بنَ الطفيلِ ، فقد فرَّ عن أخيهِ يومَ الرقمِ .

كما هربَ عُيينةُ والسيوفُ تنوشُ أباهُ يومَ السَّنابِرِ .

وتولَّىٰ بسطامُ بنُ قيسٍ عن قومِهِ وقد أثخنتْهُم الحربُ يومَ العَطالىٰ .

ولم ينجُ عتيبةُ بنُ الحارثِ بنِ شهابٍ يومَ ثَبْرَةَ إلاَّ بجُرَيعَةِ الذَّقَنِ ، وكانَ قد هربَ عن ابنهِ حزرةَ ـ وهوَ بِكْرُهُ ـ فقتلتهُ بنو تغلبَ .

وما من شجاعٍ إلاَّ ذُكِرَتْ لهُ فرَّةٌ ، وأُحصيَتْ عليهِ هفوةٌ ، لا أستثْني أحداً بعدَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . إلاَّ عليَّ ابنَ أبي طالبٍ رضوانُ اللهِ عليهِ .

عوانة بن زيد يراود جارية عن نفسها، ولكنها تربطه بوتر قوسه

وخرجَ عوانةُ بنُ زيدٍ يوماً يتصيَّدُ علىٰ فرسِهِ ، فعرضَتْ لَهُ جاريةٌ تحملُ وَطْباً[3] من لَبَنٍ ، فهَمَّ بِها ، ودَنا منْها ، وقالَ : تُمَكِّني طائعةً أو مُكرهةً ، قالَتْ : لا يكونُ شيءٌ مِن ذلكَ ، فلمَّا رأتْ منهُ الجِدَّ . .

---

(١) فلجٌ : اسم موضع بـ(اليمنِ) من مساكن عاد .

(٢) وألَتْ : لجأَتْ وطلبتِ النجاةَ .

(٣) الوطْبُ : سقاءُ اللبنِ ، وهو جلد الجَذَعِ فما فوقَه .

أَخذَتْ ساعدَيهِ تعصرُهُما ، لا يدفعُ عن نفسِهِ ، حتَّىٰ تركتْهُ لا يستَطيعُ أَنْ يحرِّكَهُما ، ثمَّ كَتَّفَتْهُ بوترِ قوسِهِ ، وشدَّتْ حَبْلَ الفرسِ في جيدِهِ ، وأَقبلَتْ بهِ تقودُهُ ، حتَّىٰ شارفَ الحيَّ ، فبَصُر بجندب بنِ العنبرِ ـ وهوَ لهُ منافسٌ ـ فناداهُ : أَيُّها المرءُ . . أُنصر أَخاكَ ظالماً أَو مظلوماً ، فأَطلقَهُ معَها ، وقالَ لها : ٱذهبي لِطيَّتِكِ[1] ، في حديثٍ طويلٍ ٱستوفاهُ الميدانيُّ [في « مجمع الأمثال » ٢/ ٣٣٤] في الكلامِ علىٰ قولِهِ (أُنصُرْ أَخَاكَ) إلىٰ آخرِهِ .

حنين امرأة إلى زوجها الأول ورجولته

ويُذكرُ : أَنَّ بعضَ العربِ تزوَّجَ ٱمرأَةً ، فبَيْنا هوَ مَعَها في ذلكَ العَمَلِ مِنْ بَطْنِ وادٍ ، إِذْ عَنَّ لَهم فأْرٌ أَزعجَهُ ، وٱندهشَ لَهُ ، ثمَّ قامَ يطاردُهُ حتَّىٰ أَعياهُ ، ولَم يقدِرْ عليهِ ، ثمَّ عادَ إِلىٰ المرأَةِ فلم ينتفع بنفسِهِ ، فتأَوَّهَتْ حتَّىٰ كادتْ تنقدُّ أَضلاعُها ، كما عَناها ذو الرُّمَّةِ بقولِهِ [في « ديوانه » ١/ ٣٨١ مِنَ البسيطِ] :

يَعْتَادُنِي زَفَرَاتٌ حِيْنَ أَذْكُرُهَا تَكَـادُ تَنْقَـدُّ مِنْهُـنَّ ٱلْحَيَـازِيْـمُ

فسأَلَها عَنْ ذلكَ فلم تخبرهُ ، حتَّىٰ أَلحَّ عليها ، فقالَتْ : كُنتُ معَ زَوجي الأَوَّلِ علىٰ مثلِ ما كنتُ معكَ عليهِ قبلُ ، إِذ طلعَ أَسدٌ ، فنهضَ لَهُ وقدَّهُ نصفينِ ، ثمَّ عادَ لعمَلِهِ ، وأَتمَّ وطرَهُ ، كأَنْ لم يزعجْهُ شيءٌ .

ماءٌ ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان

ويُروىٰ [بنحوه في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ٢٠١] : أَنَّ أَعرابيَّةً نزلَتْ معَ زوجِها في ظلِّ سرحةٍ من بطنِ وادٍ ، فتأَوَّهت ، فقالَ : مَهيم[2] ؟ قالَتْ : كنتُ مع سابقِكَ هُنا ، فإِذا ليثٌ يزأَرُ قد كشَّرَ عَن

---

(١) الطيَّةُ : الوطنُ والمنزلُ .

(٢) مَهْيَمْ : كلمةٌ تُقالُ في الاستفهامِ ، وتعني : ما حالُكَ وما شأنُكَ .

أَنيابِهِ ، فما زالَ يصاوِلهُ حتَّىٰ أَرداهُ ، ثمَّ عادَ وشمَّني شمَّةً ، وضمَّني ضمَّةً ، فيا ليَتني كُنْتُ مِتُّ ثَمَّ ، فما كادَتْ تُتِمُّ كلامَها . . حتَّىٰ أَقبلَ الأَسدُ ، فنهضَ لَه ، وصنعَ بهِ مثلَ ما صنعَ الأَوَّلُ ، علىٰ حدِّ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

حَمَلْتَ عَلَيْهِ ٱلسَّيْفَ لاَ عَزْمُكَ ٱنْثَنَىٰ وَلاَ يَـدُكَ ٱرْتَـدَّتْ وَلاَ حَـدُّهُ نَبَـا

ثمَّ عادَ وشمَّها وضمَّها ، وقالَ لَها : أَينَ هـٰذهِ مِن تلكَ ؟ فقالَت : ماءٌ ولا كَصدَّاء[١] ، ومَرعىً وَلا كالسَّعدانِ[٢] ، فطلَّقَها .

* * *

---

(١) صدَّاءُ : آسم بئرٍ من أَعذبِ الآبارِ ، وقولها هذا أضحى مثلاً للإنسانِ الذي يُحمَدُ أمرُهُ أَوَّلاً ثُمَّ تنطفىءُ بعدَ ذلكَ شموعُهُ . ذكره الميداني في « الأمثال » (٣٨٤٢) .

(٢) السعدانُ : نبتٌ من أَفضلِ مراعي الإبلِ ، وهو مثل أيضاً عن العبدري في « تمثال الأمثال » (٢/ ٥٥٩) ، و« المستقصىٰ » (١٢٥٩) . وفي مضربه أقوال وجمع بينهما أبو علي البصير حيث مدح عُبيد الله بن يحيى بن خاقان وآله [من المجتث] :

يـــا وزراء السلطـــــان أنتـــم آل خـــاقـــانْ
كبعــض مــا قــد روينــا فــي ســالــف الأزمــانْ
مـــاءٌ ولا كَصُـــدَّىٰ مَــرعــىً ولا كــالسَّعــدانْ

المجلس التاسع

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٣ مِنَ الخفيف] :

كَمْ قَتِيلٍ - كَمَا قُتِلْتُ - شَهِيدِ ... بِبَيَاضِ ٱلطُّلَىٰ وَحُمْرِ ٱلْخُدُودِ

الميت عشقاً شهيد

يقولُ : كمْ قتيلٍ مِثْلي ببياضِ الأَعناقِ وتورُّدِ الخدودِ . . كانَ قتلهُ شهادةً ، و(الطُّلىٰ) : الأَعناقُ ، قالَ الواحديُّ : وجَعْلُ قتيلِ العشقِ شهيداً . . من قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « مَنْ عَشِقَ ، وَعَفَّ ، وَكَتَمَ . . كَانَ شَهِيْداً » ، وقد سبقَ - في المجلسِ الثاني - بعضُ ما يتعلَّقُ بهٰذا الحديثِ في شرحِ قولِ الناظمِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٩٨ مِنَ المنسرحِ] :

يَا عَاذِلَ ٱلْعَاشِقِيْنَ دَعْ فِئَةً ... أَضَلَّهَا ٱللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا

ونزيدُ هُنا ، أَنَّ الحافظَ علاءَ الدينِ أَبا عبدِ اللهِ مغلطايَ قالَ : هٰذا حديثٌ إِسنادُهُ صحيحٌ ، وإِنْ كانَ جماعةٌ مِنَ العلماءِ أَعلُّوهُ بما ليسَ بِعلَّةٍ يُرَدُّ بِها .

الاختلاف في قتيل العشق عند الفقهاء

وقدِ ٱختلفَ كلامُ الفقهاءِ في شهيدِ العشقِ :

فمِنهُم : من أَطلقَ الشهادةَ عليهِ مِنْ غيرِ قيدٍ .

ومِنهُم : مَن ٱشترطَ ما في الحديث ، وما دامَ مستندَهُم

الحديثُ : فالمطلقُ منهُم محمولٌ علىٰ المقيَّدِ ، وعبارةُ « التحفَةِ » : وميتٌ عشقاً لِمَنْ يَحلُّ نكاحُها ، بشرطِ العِفَّةِ والكتْمِ ، كَما في الخبرِ ، ولا يبعُدُ في عاشقِ غيرِها اضطِراراً أنَّهُ شهيدٌ أيضاً ، بل واختياراً أيضاً إذا عفَّ وكتَمَ . انتهىٰ .

لا ينافي الكتم ما ينفث به الشاعر من شكوى الصدود

ثمَّ إنَّهُ لا يُنافي الكتْمَ ما ينفثُ بِهِ الشاعِرُ مِنْ شَكوىٰ الصُّدودِ وما أَشبهَهُ ، ولا سيَّما إذا خرجَ الأَمرُ عنِ اختيارِهِ ، ما لمْ يعيِّنْ ، قالَ في « التحفَةِ » : ما لم يعرِّضْ بِامرأةٍ معيَّنَةٍ ، بأَنْ يذكرَ صِفاتِها من نحوِ طولٍ وحُسْنٍ وَصُدغٍ[١] . . فيحرُمُ ؛ لِما فيهِ مِنَ الإيذاءِ ، وهَتْكِ السترِ ، إذا وصفَ الأَعضاءَ الباطنةَ . وَمحلُّهُ في غيرِ حليلتِهِ ، أمَّا هِيَ : فإنْ ذكرَ مِنها ما حقُّهُ الإخفاءُ . . حرُم كما في « شرح مسلم » ، لٰكنْ جزَما بكراهتِهِ ، وإلاَّ . . فلا ؛ فقد شبَّب كعبٌ بزوجِهِ ، ولَم ينكِرْ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم[٢] .

ويقعُ لبعضِ فَسقَةِ الشعراءِ نصبُ قرائِنَ تدلُّ علىٰ التعيينِ ، وهٰذا لا شكَّ أنَّهُ معيَّنٌ . انتهىٰ ما أَردْتُ مِنْ الكلامِ باختصارٍ ، وفيهِ شبهُ تناقضٍ ، إذ أَوَّلهُ قاضٍ بحرمةِ التشبيبِ بالمعيَّنَةِ مطلقاً ، سواءٌ وصفَ الأَعضاءَ الباطنةَ أَم اقتصرَ علىٰ الظاهرَةِ ، من نحوِ ما مثَّلَ بهِ مِنَ الطولِ والحسنِ والصُّدغِ ، وقولُهُ بعدَ ذلكَ : إذا وصف الأَعضاءَ الباطنةَ . . قد يخصِّصُ الحرمةَ بحالَتِئذٍ . إلاَّ أَنْ يُقالَ : إنَّ تحريمَ

---

(١) الصُّدغُ : هوَ الشَّعرُ المتدلِّي علىٰ ما بينَ العينِ والأُذُنِ .

(٢) وذلكَ في قصيدتهِ المشهورةِ :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي ٱلْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ إذْ رَحَلُوا ... إلاَّ أَغَنُّ غَضِيضُ ٱلطَّرْفِ مَكْحُولُ

التشبيبِ بالمعيَّنَةِ إِنْ كانَ بالأَوصافِ الظاهرةِ . . فَلِعِلَّةِ الإِيذاءِ فقط ، وإِنْ كانَ بالأَوصافِ الباطنةِ . . فلعلَّةِ الإِيذاءِ وهَتكِ السترِ .

القتلى الشهداء عند الشعراء

وقد قالَ أَبو الوليدِ الباجيُّ [كما في «تلخيص الحبير» ٢ / ١٤٢مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَاتَ ٱلْمُحِبُّ جَوًى وَعِشْقَا فَتِلْكَ شَهَادَةٌ يَا صَاحِ حَقَّا

رَوَاهُ لَنَا ثِقَاتٌ عَنْ ثِقَاتٍ إِلَىٰ ٱلْحَبْرِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ تَرَقَّىٰ

وقالَ الحسنُ بنُ هانىءٍ [أبو نواس مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَهْ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبْ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ

قَالَ مَنْ مَاتَ مُحِبّاً كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّهَادَهْ

ويعجبني قولُ بعضِهم [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لاَمُوا عَلَيْكَ وَمَا دَرَوْا أَنَّ ٱلْهَوَىٰ سَبَبُ ٱلسَّعَادَهْ

إِنْ كَانَ وَصْلٌ فَٱلْمُنَىٰ أَوْ كَانَ هَجْرٌ فَٱلشَّهَادَهْ

أصل بيت المتنبي من قول جميل

وبيتُ الناظمِ مأْخوذٌ مِن قولِ جميلٍ [في « ديوانهِ » ٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

وهُوَ البيتُ الذي فضَّلَتْهُ بهِ سُكَينةُ بنتُ الحسينِ علىٰ أَقرانِهِ ، في الحكايةِ المشهورةِ[١] .

---

(١) والقصَّةُ كما في « الأغاني » (١٦/ ١٧٠) :

أَنَّهُ اجتمعَ في ضيافةِ سُكينَةَ بنتِ الحسينِ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ : جريرٌ والفرزدق وكثيِّرٌ وجميلٌ ونصيبٌ ، فَمَكثوا أَيَّاماً ، ثمَّ أَذِنت لهم . . فدَخلوا عليها ، فقعدت حيثُ تراهُم ولا يرونَها ، وتسمعُ كلامَهم ، ثمَّ أَخرجَت وصيفةً لها وضيئَةً ، وقد رَوتِ الأَشعارَ والأَحاديثَ ، فقالت : أَيُّكُمُ الفرزدقُ ؟

. . . .

= فقالَ : ها أنذا .

قالت : أنتَ القائِلُ :

هُمَـا دَلَّتَـانِيْ مِـنْ ثَمَـانِيْـنَ قَـامَـةً   كَمَا انْحَطَّ بَازٍ أقْتَمِ الرِّيْشِ كَاسِرُهْ
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلاَيَ بِالأرْضِ قَالَتَا :   أحَـيٌّ يُـرَجَّـى أمْ قَتِيْـلٌ نُحَـاذِرُهْ ؟!
فَقُلْتُ : ارْفَعُوا الأمْرَاسَ لاَ يَشْعُرُوْا بِنَا   وَأقْبَلْـتُ فِـيْ أعْجَـازِ لَيْـلٍ أُبَـادِرُهْ
أُبَــادِرُ بَــوَّابَيْــنِ قَــدْ وُكِّــلاَ بِنَــا   وَأحْمَـرَ مِـنْ سَـاجٍ تَبِـصُّ مَسَـامِـرُهْ

قالَ : نَعم . قالَت : فَما دعاكَ إلىٰ إفشاءِ سرِّها وسرِّكَ ، هلاَّ سترتَها وسترتَ نفسَكَ ؟! خُذْ هذهِ الألفَ والحق بأهلِكَ .

ثمَّ دخلَت علىٰ مولاتِها . . وخرجَت ، فقالَت : أيُّكم جريرٌ ؟

فقالَ : ها أنذا .

قالَت أنتَ القائِلُ :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوْبِ وَلَيْسَ ذَا   حِيْـنَ الـزِّيَـارَةِ فَـارْجِعِـيْ بِسَـلاَمِ
تُجْـرِيْ السِّـوَاكَ عَلَـىٰ أغَـرَّ كَـأنَّـهُ   بَـرَدٌ تَحَـدَّرَ مِـنْ مُتُـوْنِ غَمَـامِ
لَـوْ كَـانَ عَهْـدُكِ كَـالَّـذِيْ حَـدَّثْتِنَـا   لَـوَصَلْـتِ ذَاكَ فَكَـانَ غَيْـرَ رِمَـامِ
إنِّـيْ أُوَاصِـلُ مَـنْ أرَدْتِ وِصَـالَـهُ   بِحِبَـالِ لاَ صَلِـفٍ وَلاَ لَـوَّامِ

قالَ : نَعم . قالت : أفَلا أخذْتَ بيدِها ، وقلتَ لَها ما يُقالُ لمثلِها ، أنتَ عَفيفٌ ، وفيكَ ضَعفٌ ، خُذْ هذِه الألفَ ، والحقْ بأهلِكَ .

ثمَّ دخلَت علىٰ مولاتِها . . وخرجَت ، وقالَت : أيُّكُم كُثَيِّرٌ ؟

فقالَ : هَا أنَذا .

فقالَت : أنْتَ القائِلُ :

وَأعْجَبَنِـيْ يَـا عَـزُّ مِنْـكِ خَـلاَئِـقٌ   كِـرَامٌ إذَا عُـدَّ الْخَـلاَئِـقُ أرْبَـعُ
دُنُـوُّكِ حَتَّـىٰ يَطْمَـعَ الطَّـالِبُ الصِّبَا   وَدَفْعُكِ أسْبَابَ الْهَوَىٰ حِيْنَ يَطْمَعُ
وَقَطْعُكِ أسْبَابَ الْكَرِيْمِ وَوَصْلُكِ الـ   ـلَّئِيْـمَ وَخَـلاَّتُ الْمَكَـارِمِ تَـرْفَـعُ
فَـوَاللهِ مَـا يَـدْرِيْ كَـرِيْـمٌ مُمَـاطَـلٌ   أيَنْسَـاكِ إذْ بَـاعَـدْتِ أوْ يَتَضَـرَّعُ

وقد تكرَّرَ معناهُ في « ديوانِ » الناظم ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٢ مِنَ المتقاربِ] :

وَكَمْ لِلْهَوَىٰ مِنْ فَتَىً مُدْنَفٍ ... وَكَمْ لِلنَّوَىٰ مِنْ قَتِيْلٍ شَهِيْدِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْقَتِيْلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوْعِهِ ... مِثْلُ ٱلْقَتِيْلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ

= قالَ : نَعم . قالَت : مَلَحتَ ، وَشَكَّلْتَ ، خُذْ هذِه الثلاثةَ آلافٍ ، والْحقْ بأهلِكَ .

ثمَّ دخلَت إلىٰ مولاتِها . . وخرجَت ، فقالَت : أيُّكُمْ نصيبٌ ؟

قالَ : هَا أنذا .

قالَت : أَنتَ القائِلُ :

وَلَـولاَ أَنْ يُقَـالَ صِبَـا نُصَيْـبٍ ... لَقُلْـتُ بِنَفْسِـيَ ٱلنَّشَـأُ ٱلصِّغَـارُ

بِنَفْسِـيْ كُـلُّ مَهْضُـومٍ حَشَـاهَـا ... إِذَا ظُلِمَـتْ فَلَيْـسَ لَهَـا ٱنْتِصَـارُ

قالَ : نَعم . قالَت : رَبَّيْتَنا صِغاراً ، وَمَدَحْتَنا كِبَاراً ، خُذْ هذِهِ الأَربعةَ آلافٍ ، والْحقْ بأَهلِكَ .

ثمَّ دخلتَ علىٰ مَوْلاتِها . . وخرجَت فقالَت :

يا جميلُ . . مولاتي تقرِئُكَ السَّلامَ وتقولُ لكَ : واللهِ ما زلتُ مشتاقةً لرُؤْيتِكَ . . منذُ سمعتُ قولَكَ :

أَلاَ لَيْـتَ شِعْـرِيْ هَـلْ أَبِيْتَـنَّ لَيْلَـةً ... بِـوَادِيْ ٱلْقُـرَىٰ إِنِّـيْ إِذاً لَسَعِيْـدُ

لِكُـلِّ حَـدِيْـثٍ بَيْنَهُـنَّ بَشَـاشَـةٌ ... وَكُـلُّ قَتِيْـلٍ عِنْـدَهُـنَّ شَهِيْـدُ

جَعَلْتَ حديثَنا بشاشةً ، وقتلانا شهداءَ ، خُذْ هذِهِ الأَربعةَ آلافِ دينارٍ ، والْحقْ بأَهلِكَ .

(١) المدنفُ : الذي لازمهُ المرضُ .

الكلام على ديوان ابن الفارض

أَمَّا « ديوانُ ٱبنِ الفارِضِ » : فَمِنْ فاتحتِهِ إِلىٰ خاتِمَتِهِ يدورُ علىٰ هٰذا المِحْوَرِ ، ويُدَنْدِنُ حَولَ هٰذا المقصودِ .

من فوائد الحب

وأَدنىٰ ما يكونُ مِن فوائِدِ الحُبِّ : أَنهُ يُلَطِّفُ ويُنَظِّفُ ويُظَرِّفُ ، ومتىٰ رَقَّتْ طبيعةُ الإِنسانِ . . ٱستعدَّ لقَبولِ المواعظِ الحسَنةِ ، ومتىٰ قبلَها . . تدَرَّجَ في معارِجِ السعادةِ إِلىٰ أَنْ ينتهيَ إِلىٰ الغايَةِ التي لا أَمَدَ وراءَها . . وهِيَ : محبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، كَما أَشرْنا إِلىٰ ذلكَ في غيرِ موضعٍ .

العشق محمود

فالعشقُ بأَنواعِهِ محمودُ العاقبةِ ، ما لم يقترِنْ بمحظورٍ شرعيٍّ .

درء المفاسد مقدم على جلب المصالح

علىٰ أَنَّ بعضَ الفقهاءِ أَفتىٰ بأَنَّه يجوزُ للعاشِقِ أَنْ يَنالَ ما دونَ الفرجِ إِذا تعيَّنَ طريقاً لِشفائِهِ ؛ فقد سُئِلَ الرمليُّ عمَّنْ عشِقَ أَجنبيَّةً ، لَو لَم يقبِّلْها . . أَدَّىٰ إِلىٰ هلاكِهِ ، فهلْ يجوزُ لهُ تقبيلُهَا ؟ ويجبُ عَلَيها تمكينُهُ ؟ وهلِ الأَمردُ كذلكَ ؟

فأَجابَ بأَنَّه : يجوزُ تقبيلُها ، بَلْ يجبُ عليهِ حيثُ قَدَرَ ؛ إِبقاءً لمهجَتِهِ ، كما يجبُ علىٰ مَنْ غصَّ بلقمةٍ ، إِساغَتُها بالخمرِ إِذا لَم يجِدْ غيرَها ، وكما يجبُ علىٰ مَنِ ٱنتهىٰ بهِ العطشُ إِلىٰ الهلاكِ . . شربُها حيثُ لم يجدْ غيرَها ، وكَما يجبُ علىٰ المضْطَرِّ أَكلُ الميتَةِ .

وقد قالَ ٱبنُ عبدِ السلامِ : أَجمعوا علىٰ دَفعِ أَعظمِ المفسدَتَينِ بٱرتكابِ أَدوَنِهِما ، ويجبُ عَلَيها تمكينُهُ ، وحكمُ الأَمردِ كذلكَ ، ٱنتهىٰ كلامُهُ بٱختصارٍ .

وهُوَ ظاهرٌ إِلاَّ في وجوبِ ٱلمساعدَةِ علىٰ ٱلمعشوقِ ، فإِنَّه محلُّ نظرٍ ؛ لِما في ٱلأَمرِ مِنَ ٱلخطَرِ ، وٱلرُّخْصَةُ بٱليقينِ منوطَةٌ ، وبٱلشَّهادةِ من ٱلأَطبَّاءِ مشروطَةٌ ، وإِلاَّ في تقييدِهِ . . ٱلإِباحةَ بخشيةِ

الهلاكِ ، ولعلَّهُ بالنسبةِ لِما هو أكبرُ من ٱلقبلةِ مما دونَ ٱلفرجِ ، وإلاَّ . . فإنَّه ليسَ بأكبرَ من نظرِ ٱلطَّبيبِ إلىٰ بدنِ ٱلمريضةِ وجَسِّهِ .

وقد قالَ ٱبنُ حجرٍ في « تحفتِهِ » : يعتبرُ في الوجهِ والكفِّ أدنىٰ حاجةٍ ، وفيما عداها مبيحُ تيممٍ ، إلاَّ الفرجَ وقريبَهُ . . فيعتبرُ زيادةً علىٰ ذلكَ ، وهيَ أَنْ تشتدَّ الضرورةُ ، حتَّىٰ لا يعدَّ الكشفُ لذلكَ هتكاً للمروءَةِ . ٱنتهىٰ .

سلوا المفتي المكي

وذكرَ ٱبنُ خَلِّكَانَ أَو غيرُهُ[1] : أَنَّ سائِلاً سأَلَ عطاءَ ٱبنَ أَبي رباحٍ عن مثلِه ، فأَجابَ بنحوِهِ ، فقالَ الشاعرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَلُوْا ٱلْمُفْتِيَ ٱلْمَكِّيَّ هَلْ فِيْ تَزَاوُرٍ ... وَضَمَّـةِ مُشْتَـاقِ ٱلْفُـؤَادِ جُنَـاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ يُذْهِبَ ٱلتُّقَىٰ ... تَـلاَصُـقُ أَكْبَـادٍ بِهِـنَّ جِـرَاحُ

إحياء عبد من الناس واجب

وقالَ إِسحاقُ بنُ معاذٍ المعريُّ [في « روضة المحبين » ١٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

سأَلْتُ إِمَامَ ٱلنَّاسِ نَجْلَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ ... عَنِ ٱلضَّمِّ وَٱلتَّقْبِيْلِ هَلْ فِيْهِ مِنْ بَاسِ
فَقَالَ : إِذا جَلَّ ٱلْعَزَاءُ فَوَاجِبٌ ... لأَنَّكَ قَدْ أَحْيَيْتَ عَبْداً مِنَ ٱلنَّاسِ

هل في وصلهن حرام

وذكرَ الحاكمُ في « مناقبِ الشافعيِّ » ، عَنْ محمَّدِ بنِ الجهمِ ، أَنَّه قالَ : سمعتُ الربيعَ يقولُ : حضرتُ الشافعيَّ بـ(مكَّةَ) ، وقد دُفعَ إِليهِ رُقعةٌ فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِمُفْتِيْ خَيْفِ مَكَّـةَ وَٱلصَّفَـا ... لَكَ ٱلْخَيْرُ هَلْ فِيْ وَصْلِهِنَّ حَرَامُ ؟
وَهَلْ فِيْ صَمُوْتِ ٱلْحَجْلِ مَهْضُوْمَةِ ٱلْحَشَا ... عِـذَابِ ٱلثَّنَـايَـا إِنْ لَثَمْـتُ حَـرَامُ[2] ؟

---

(١) ذكر ذلك ٱبن قيِّم الجوزية في كتابه « روضة المحبين » (١٠٧) ، ولم نجدها عند ابن خلِّكانَ .

(٢) الحَجْل : الخلخال . صَموتُ الحَجْلِ : لا يسمعُ لخلخالِها صوتٌ لامتلاءِ ساقِها .

فوقَّعَ عليها [مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَالَ لِيَ ٱلْمُفْتِيْ وَفاضَتْ دُمُوْعُهُ　　عَلَىٰ ٱلْخَدِّ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهْيَ تُؤَامُ[1]

أَلاَ لَيْتَنِـي قَبَّلْـتُ تِلْـكَ عَشِيَّـةً　　بِبَطْنِ مِنَـىً وَٱلْمُحْـرِمُـوْنَ قِيَـامُ

سؤال ابن نباتة لأبي الفتح السبكي

وفي « طبقاتِ ٱبنِ السبكيِّ » [٩/١٨٦] : أَنَّ ٱبنَ نباتةَ سأَلَ أَبا الفتحِ السبكيَّ عمَّا يشبهُهُ ، فأَجابهُ بقريبٍ مِمَّا رويَ عمَّن سبقَ[2] .

---

(١) تُؤَامٌ : متشابكةٌ .

(٢) كتبَ ٱبنُ نباتةَ إِلىٰ الشيخِ أَبي الفتحِ ـ رحمهُ اللهُ ـ ٱستفتاءً صورتُهُ :

يَـا إِمَـامَـاً قَـالَ ٱلْمُقَلِّـدُ وَٱلْعـا　　لِـمُ فِيْـهِ بِـوَاجِـبِ ٱلتَّفْضِيْـلِ

مَا عَلَىٰ عَاشِقٍ يَقُوْلُ عَلَىٰ حُكْـ　　ـمِ ٱلتَّـدَاوِيْ بِـٱلضَّـمِّ وَٱلتَّقْبِيْـلِ

وَافِـرِ ٱلـدِّيْـنِ مَـعْ بَسِيْـطِ ٱقْتِـدَارٍ　　حَـذِرٍ مِـنْ عِقَـابِ يَـوْمٍ طَـوِيْـلِ

لا كَمَـنْ يَنْتَحِي بِمَعْشُـوقِـهِ ٱلنَّحْـ　　ـوَ فَمِـنْ فَـاعِـلٍ وَمِـنْ مَفْعُـوْلِ

فَأَجابَهُ :

يَـا مَلِيَّـاً بِكُـلِّ فَضْـلٍ جَـزِيْـلٍ　　وَعَلِيَّـاً بِكُـلِّ وَصْـفٍ جَمِيْـلِ

وَجَمَـالاً تَجَمَّـلَ ٱلعِلْـمُ مِنْـهُ　　بِصِفَـاتٍ زَيْـنٍ بِمَجْـدٍ أَثِيْـلِ

جَـاءَنِـيْ درُّكَ ٱلَّـذِيْ قَلَّـدَ ٱلنَّحْـــرَ بِعِقْـدٍ مُنَضَّـدِ ٱلتَّكْلِيْـلِ

فَتَعَجَّبْـتُ ثُـمَّ قُلْـتُ : وَمَـنْ يَقْـ　　ـذِفُ بِـٱلـدُّرِّ غَيْـرَ بَحْـرٍ أَصِيْـلِ

جَـاءَ فِيْ صورَةِ ٱلسُّؤَالِ فَقُلْ فِيْ　　سَـائِـلٍ فَضْلُـهُ عَلَـىٰ ٱلْمَسْـؤُوْلِ

فَتَنَسَّمْـتُ مِنْـهُ رِيْـحَ شِمَـالٍ　　وَتَـرَشَّفْـتُ مِنْـهُ طَعْـمَ ٱلشَّمُـوْلِ

وَأَتَـانِـيْ وَقَـدْ فَـرَغْـتُ عَـنِ ٱلآ　　دَابِ وَٱلْحُـبِّ مِـنْ زَمَـانٍ طَـوِيْـلِ

فَتَـوَقَّفْـتُ عَـنْ جَـوَابٍ وَلَكِـنْ　　أَمْـرُ مَـوْلاَيَ وَاجِـبٌ بِـٱلـدَّلِيْـلِ

وَجَوَابُ ٱلْهَوَىٰ ٱلتَّسَامُحُ فِيْ ٱلأَمْـ　　ـرِ فَقُـلْ إِنْ أَحْبَبْـتَ بِـٱلتَّسْهِيْـلِ

إِنَّ مَـنْ يَـدَّعِـيْ ٱلْغَـرَامَ بِظَبْـيٍ　　صَـادَ أَهْـلَ ٱلْهَـوَىٰ بِطَـرْفٍ كَحِيْـلِ

قَـدْ أَسَـالَ ٱلـدُّمُـوْعَ مِنْـهُ عِـذَارٌ　　سَـائِـلٌ فِـيْ رِيَـاضِ خَـدٍّ أَسِيْـلِ=

فيمَ بقاء المعشوق بعد العاشق

وقالَ الجاحظُ : بلغَني أنَّ عاشقاً ماتَ عشقاً بالهندِ ، فلمْ يكنْ مِنَ المَلكِ إلاَّ أنْ بعثَ إلىٰ المعشوقِ . . فقتلَهُ .

هل من سبيل إلى خمر؟ والفاروق ونصر بن الحجاج

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ ليلةً يعسُّ بـ(المدينةِ) [كما في « مصارع العشاق » ٢٦٦/٢] . . فسمعَ ٱمرأةً ـ هِيَ الفارعةُ أُمُّ الحجَّاجِ ، وكانتْ إذْ ذاكَ تحتَ المغيرةِ بنِ شعبةَ ـ تُغَنِّي وتقولُ [مِنَ البسيطِ] :

هَلْ مِنْ سَبِيْلٍ إِلىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيْلٌ إِلىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ ؟

فقالَ : أمَّا وعمرُ حيٌّ . . فَلا ، فلمَّا أَصبحَ . . بعثَ إلىٰ نصرِ بنِ حجَّاجٍ ، فإذا رَجلٌ جميلٌ ، فحَلَقَ رأْسَهُ ، فظهرَ لهُ وجهٌ كأنَّهُ فلقةُ قمرٍ .

وللهِ درُّ القائلِ [مِنَ الخفيفِ] :

حَلَقُـوْا رَأْسَـهُ لِيَكْسُـوهُ قُبْحَـا خِيفَـةً مِنْهُـمُ عَلَيْـهِ وَشُحَّـا
كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ لَيْلاً وَصُبْحَا فَمَحَـوْا لَيْلَـهُ وَأَبْقَـوهُ صُبْحَـا

فقالَ عمرُ لهُ : ٱخرجْ ، لا تُساكِنِّي بـ(المدينةِ) ، فخرجَ إلىٰ (البصرَةِ) .

= كَـامِـلٌ قَـدُّهُ بِشَعْـرٍ مَـدِيْـدٍ وَافِـرٌ رِدْفُـهُ بِخَصْـرٍ نَحِيْـلِ
لَجَـدِيْـرٌ بِكُـلِّ عُـذْرٍ بَسِيْـطٍ فِـيْ ٱلتَّـدَاوِيْ بِـٱلضَّـمِّ وَٱلتَّقْبِيْـلِ
مَـالِنَـارِ ٱلْهَـوَىٰ . . سِـوَىٰ بَـرْدِ رِيْـقٍ مِـنْ لَمَـاهُ فِيْـهِ شِفَـاءُ ٱلْغَلِيْـلِ
وَلِقَلْـبٍ يَعْتَـادُهُ خَفَقَـانٌ غَيْـرُ ضَـمٍّ بِـهِ دَوَاءُ ٱلْعَلِيْـلِ
غُصَّـةُ ٱلْحُـبِّ لا تُقَـاسُ بِشَـيْءٍ فَلْيُـزِلْهَـا مِـنْ رِيْقِـهِ بِشُمُـوْلِ
ذَا جَـوَابُ ٱلْغَـرَامِ حَقّـاً وَعِنْـدِيْ مَـا لَـهُ غَيْـرُ صَبْـرِهِ مِـنْ دَلِيْـلِ

تعلق امرأة مجاشع بن مسعـود بنصـر بـن الحجاج وتعلقه بها

وكانَ يدخُلُ علىٰ مجاشع بنِ مسعودٍ [كما في « مصارع العشاق » ٢٧٩/١] ، وكانَتْ لهُ امرأَةٌ جميلةٌ ، فأَعجبَهَا نصرٌ ، وأَحبَّتْهُ وأَحبَّها ، فبينَما هُم جالسونَ . . كتبَ نصرٌ في الأَرضِ ، فقالتِ المرأَةُ : وأَنا ، فعلمَ مُجاشعٌ أَنَّها جوابُ كلام ، وكانَ لا يكتبُ ، فكفأَ عليها إناءً ، ودَعا كاتباً ، فإذا هُوَ : إنِّي لأُحبُّكِ حبّاً ؛ لو كانَ فوقَك . . لأَظلَّكِ ، ولَـو كـانَ تحتَـكِ . . لأَقلَّـكِ ، وبلـغَ نصـراً مـا فعـلَ مجـاشـعٌ ، فـاستحيَـىٰ ، ولـزمَ البيـتَ ، واعتـلَّ ، وضنـيَ جسمُـهُ حتَّـىٰ صـارَ كالفرخِ ، فقالَ مجاشعٌ لامرأَتِهِ : اذهبي إليهِ ، فأَسنديهِ إلىٰ صدرِكِ ، وأَطعميهِ الطعامَ بيدِكِ ، فأَبَتْ ، فعزمَ عليها ، فأَتَتْهُ ، وأَسندتْهُ إلىٰ صدرِها ، وأَطعمتْهُ بيدِها ، فدبَّ البُرءُ فيهِ من وقتِهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : قاتلَ اللهُ الأَعشىٰ إذْ يقولُ [في « ديوانه » ١٥٢ مِنَ السَّريع] :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلىٰ صَدْرِهَا عَـاشَ وَلَـمْ يُنْقَـلْ إِلَـىٰ قَـابِـرِ

ثمَّ اختلفتِ الروايةُ ، فقيلَ : إنَّهُ تماثلَ وخرجَ مِنَ (البصرةِ) ، وقيلَ : إنَّهُ عاودهُ المرضُ بعدَ انصرافِها ، ولمْ يزلْ لما بهِ حتَّىٰ ماتَ ، وفي الخبرِ طولٌ ، وموضعُ الشاهدِ منهُ : هُوَ أَنَّه يباحُ مثلُ ما فعلَهُ [مُجاشعُ] بنُ مسعودٍ عندَ الضرورةِ ، إذا تعيَّنَ طريقاً للدواءِ ، كما مرَّ .

بعض أهل الأدب والإمام مالك

وجاءَ بعضُ أَهلِ الأَدبِ إلىٰ إمامِ دارِ الهجرةِ ، فقالَ لهُ : اجعلني في حلٍّ مِنْ أَبياتٍ قلتُها وذكرتُكَ فيها ، فتغيَّرَ وجهُ الإمامِ وظنَّ أَنَّه هجاهُ ، وأَحلَّهُ معَ ذلكَ ، ثمَّ استنشدَهُ الأَبياتَ ، فإذا هيَ تشبهُ ما سبقَ عنِ الشافعيِّ لفظاً ومعنىً ، فسُرِّيَ عنه[1] .

---

(١) الرجلُ الذي أَتىٰ الإمامَ مالكاً ـ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ـ هوَ : ابنُ سرحونَ السُّلَميُّ ، والأَبياتُ هيَ : =

حكم الإحلال من الغيبة قبل العلم بتفصيلها

وفي الإِحلالِ مِن الغِيبَةِ ، قبلَ العلمِ بتفصيلِها . . خلافٌ ، وعبارةُ « التُّحْفَةِ » : ولا أثَرَ لتحليلِ وارثٍ ، ولا معَ جهلِ المُغْتَابِ بما تحلَّلَ منهُ ، كما في « الأذكارِ » . أنتهىٰ .

ثمَّ رأَيتُ ٱبنَ السبكيِّ ـ بعدَ أَنِ ٱستوفىٰ القصةَ وذكرَ الأَبياتَ في الكلامِ علىٰ ٱبنِ الفِركاحِ[1] ـ يقولُ [كما في « الطَّبقات » ٩/٣٢٧] : وفي هـٰذا مِنْ مالكٍ دليلٌ علىٰ جوازِ الإِبراءِ عَنِ الكلامِ في العرضِ ، وإِنْ كانَ مجهولاً ، وأَنَّه كانَ يرىٰ التحليلَ مِن هـٰذا أَولىٰ مِن عدمِهِ .

ونقلَ أَبو الوليدِ ٱبنُ رُشدٍ[2] أَنَّ مذهبَ الشافعيِّ . . أَنَّ تركَ التحليلِ مِنَ الظلاماتِ والتبعاتِ أَولىٰ ؛ لأَنَّ صاحبَها يستوفيها يومَ القيامةِ بحسناتِ من هيَ عندَهُ ، وبوضعِ سيِّئَاتِهِ علىٰ مَن هيَ عندَهُ ، كما شهدَ بهِ الحديثُ ، وهوَ لا يدري هَلْ يكونُ أَجرهُ علىٰ التحليلِ موازياً ما لَهُ مِنَ الحسناتِ في الظلاماتِ ، أَو يزيدُ أَو ينقصُ ، وهُوَ محتاجٌ إِلىٰ زيادةِ حسناتِهِ ونقصانِ سيِّئَاتِهِ ؟

قالَ : ومذهبُ غيرِه : أَنَّ التحليلَ أَفضلُ مطلقاً ، قالَ : ومذهبُ مالكٍ التفرقةُ بينَ الظلاماتِ فلا يُحلِّلُ منها ، والتبعاتِ فيحلِّلُ مِنْها ؛ عقوبةً لفاعلِ الظلاماتِ ، وهُوَ تفصيلٌ عجيبٌ . أنتهىٰ .

= سَلُوْا مَالِكَ ٱلْمُفْتِيْ عَنِ ٱللَّهْوِ وَٱلصِّبَا ... وَحُبِّ ٱلْحِسَانِ ٱلْمُعْجَبَاتِ ٱلْفَوَارِكِ
يُنَبِّئْكُمُ أَنِّـيْ مُصِيْبٌ وَإِنَّمَا ... أُسَلِّيْ هُمُوْمَ ٱلنَّفْسِ عَنِّيْ بِذَلِكِ
فَهَلْ فِيْ مُحِبٍّ يَكْتُمُ ٱلْحُبَّ وَٱلْهَوَىٰ ... أَثَامٌ وَهَلْ فِـيْ ضَمَّةِ ٱلْمُتَهَالِكِ

(١) ابن الفركاح : هو عبد الرحمن بن إبراهيم ، مؤرخ من علماء الشافعية ، توفي سنة : (٦٩٠ هـ) .

(٢) ابن رشد : هو محمد بن أحمد ، قاضي الجماعة بـ (قرطبة) ، من أعيان المالكية ، الحافظ الناقد ، توفي سنة : (٥٢٠ هـ) .

وفي أَواخِرِ الغِيبَةِ مِن كتابِ آفاتِ اللسانِ من « الإِحياءِ » [٣/ ١٥٠] و« شرحِهِ ».. ما يتعلَّقُ بذلكَ ، فليرْجعْ إِليهِ مَن لمْ يكتفِ بهٰذا .

الفضيل بن عياض يتمنى الدعاء للعشاق

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ : لَو أَنَّ لي دعوةً مجابةً.. لدعوتُ اللهَ أَنْ يغفرَ للعشَّاقِ ؛ لأَنَّ حركاتِهم ٱضطراريَّةٌ لا ٱختياريةٌ .

الدعاء للعشاق أفضل من عمرة

ورُئِيَ أَبو السائبِ المخزوميُّ متعلِّقاً بأَستارِ الكعبةِ ، وهُوَ يقولُ [كما في « روضة المحبين » ١٣٤] : اللّٰهم ، ٱرحمِ العاشقينَ ، وقوِّ قلوبَهم ، وعطِّفْ علَيهم قلوبَ المعشوقينَ ، فقيلَ لَهُ في ذلكَ : فقالَ : واللهِ لَلدُّعاءُ لَهم.. أَفضلُ مِنْ عُمرةٍ مِنَ (الجعرانَةِ)[1] ، ثمَّ أَنشدَ [من الكامل] :

يَا هَجْرُ كُفَّ عَنِ ٱلْهَوَىٰ وَدَعِ ٱلْهَوَىٰ ... لِلْعَاشِقِيْنَ يَطِيْبُ يَا هَجْرُ
مَاذَا تُرِيْدُ مِنَ ٱلَّذِيْنَ جُفُوْنُهُمْ ... قَرْحَىٰ وَحَشْوُ قُلُوْبِهِمْ جَمْرُ ؟
مُتَذَلِّلِيْنَ مِنَ ٱلْهَوَىٰ أَلْوَانُهُمْ ... مِمَّا تَجِنُّ قُلُوْبُهُمْ صُفْرُ
وَسَوَابِقُ ٱلْعَبَرَاتِ فَوْقَ خُدُوْدِهِمْ ... دُرَرٌ تَفِيْضُ كَأَنَّهَا قَطْرُ

تفسير: لا تحملنا ما لا طاقة لنا به

وقالَ بعضُهم [كما في « روضة المحبين » ١٣٥] : في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] : إِنَّه العشق .

تفسير: خلق الإنسان ضعيفاً

وقالَ عُبيدُ بنُ طاووسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] : يَعني : أَنَّهُ لا يصبرُ أَنْ ينظرَ إِلىٰ النساءِ .

حكم النظر إلى الأجنبيات

وفي مجرَّدِ النظرِ.. كلامٌ يطولُ ، وفَّيناهُ حقَّهُ منَ التحقيقِ في كتابِنا « بلابلُ التغريدِ » حينَما تكلَّمنا علىٰ ما جرىٰ للفضلِ بنِ العباسِ

---

(١) الجعرانة : موضعٌ بينَ (مكَّةَ) و(الطائفِ) علىٰ سبعةِ أَميالٍ مِن (مكَّةَ) .

مع الخثعميةِ ، وهو رديفُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم[1] .

ومنهُ قولُ الإمامِ الرافعيِّ : النظرُ إلىٰ وجهِ الأجنبيَّةِ وكفَّيها حرامٌ معَ خوفِ الفتنةِ ، وإلاَّ . . فوجهانِ :

[الأوَّلُ] : قالَ أكثر الأصحابِ ـ لا سيَّما المتقدِّمون ـ : يحلُّ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣١] وهوَ مُفَسَّرٌ بالوجْهِ والكفَّينِ ، لكنْ يكرهُ ، قالهُ الشيخُ أبو حامدٍ .

والثاني : يحرمُ ، قالهُ الإصطخريُّ وأبو عليٍّ الطبريُّ ، واختارَهُ الشيخُ أبو محمَّدٍ ، وبهِ قطعَ صاحبُ « المهذَّبِ » .

الجمع بين العاشقين

ويُروىٰ : أنَّ معاويةَ ابنَ أبي سفيانَ اشترىٰ جاريةً مِنَ (البحرينِ) ، فأُعجبَ بِها إعجاباً شديداً ، ثمَّ سمعَها يوماً تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَزُّ فِيْ الثَّرَىٰ ... طَرِيْراً وَسِيْمَاً بَعْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ[2]

فسألَها مَنْ هوَ ؟ فقالتْ : ابنُ عمٍّ لي ، فردَّها إليهِ ، وفي قلبهِ منها حرُّ النارِ .

---

(١) أخرجه عن جابرِ بن عبدِ اللهِ أحمدُ في « المسند » (٣/ ٢١٧) ، والبخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨) ، والنسائي (٥/ ٢٠٢) وفيه : (وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مرت به ظُعُنٌ يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن . . .) .

وعند الترمذي (٨٨٥) عن علي قال صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٢) الطريرُ : ذو الهيئَةِ الحسنةِ .

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم ـ [البُحتريُّ في « ديوانه » ٣/ ١٧٦٢ مِنَ الخفيفِ]
وسيعادُ عندَ ذكرِ الآثارِ من المجلسِ الحادي عشرَ ؛ لأَنَّه بها أَنسبُ ـ
وهُوَ :

قِفْ مَشُوْقَاً أَوْ مُسْعِدَاً أَوْ حَزِيْنَاً   أَوْ مُعِيْنَاً أَوْ عَاذِرَاً أَوْ عَذُوْلاً[1]

ويروىٰ : أَن زبيدةَ ٱستمعتْ في حجِّها لِصَبٌ يترنَّمُ بأَبياتٍ ،
فجمعتْ بينَهُ وبينَ عشيقَتِهِ ، وٱعتدَّتْ ذلكَ من أَفضلِ أَعمالِها ، كما
سبقَ ذلكَ في المجلسِ السابعِ .

العفة تنجي

أَمَّا ما يتعلَّقُ بالعفافِ : فمِنْ خيرِ ما فيهِ حديثُ الشيخينِ ، في
الثلاثةِ الذينَ ٱنطبقَ علَيهم الغارُ[2] .

---

(١) المُسعِدُ : المعينُ ، وقيلَ : المعينُ علىٰ البكاءِ .

(٢) أخرجه عَنِ ٱبنِ عُمَرَ رضيَ ٱللهُ عنهما البخاريُّ (٢٢٧٢) و(٣٤٦٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) وهو أَنَّ رسولَ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ :

« بيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنَ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُوْنَ ، إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ ، فَأَوَوْا إِلَىٰ غَارٍ ، فَٱنْطَبَقَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهُ وَٱللهِ ـ يَا هَؤُلاَءِ ـ لاَ يُنْجِيْكُمْ إِلاَّ ٱلصِّدْقُ ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيْهِ .

فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : ٱللَّهُمَّ . . إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِيْ أَجِيْرٌ عَمِلَ لِيْ عَلَىٰ فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ ، وَإِنِّيْ عَمَدْتُ إِلىٰ ذَلِكَ ٱلْفَرَقِ . . فَزَرَعْتُهُ ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّيْ ٱشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَراً ، وَأَنَّهُ أَتَانِيْ يَطْلُبُ أَجْرَهُ ، فَقُلْتُ : ٱعْمِدْ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْبَقَرِ فَسُقْهَا ، فَقَالَ لِي : إِنَّمَا لِيْ عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ ، فَقُلْتُ لَهُ : ٱعْمِدْ إِلىٰ تِلْكَ ٱلْبَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ ٱلْفَرَقِ ، فَسَاقَهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّيْ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ . . فَفَرِّجْ عَنَّا ، فَٱنْسَاحَتْ عَنْهُمُ ٱلصَّخْرَةُ .

فَقَالَ ٱلآخَرُ : ٱللَّهُمَّ . . إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِيْ أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيْرَانِ ، فَكُنْتُ آتِيْهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِيْ ، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً ، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا ، وَأَهْلِيْ وَعِيَالِيْ يَتَضَاغَوْنَ مِنَ ٱلْجُوْعِ ، فَكُنْتُ لاَ أَسْقِيْهِمْ حَتَّىٰ يَشْرَبَ أَبَوَايَ ، =

بشر الأسدي وهند الجهنية وموتهما

وحديثُ بِشْرِ الأَسديِّ وهندِ الجهنيَّةَ ، وكانَتْ بـ(المدينةِ) علىٰ ممرِّ بِشرٍ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فعَلِقَتْهُ وتعرَّضَت لَهُ ، فلمْ يُجبْها إِلىٰ ما تريدُ ، ولمَّا رأَىٰ إِلحاحَها . . تركَ تلكَ الطريقَ وعادَ يأْتي إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم من غيرِهِ ، فاْشتملَ علَيها الفراشُ ، وهمَّ زوجُها أَن يتطبَّبَ لها ، فقالتْ لهُ : لا تفعلْ ، وأَنا أَعرَفُ بعلَّتي ، واْحتالتْ علىٰ زوجِها حتَّىٰ اْنتقلَ بِها إِلىٰ موضعٍ يشرفُ علىٰ الطريقِ التي يمرُّ فِيها بِشْرٌ ، فكانَتْ تنظرُ إِليهِ كلَّما اْجتازَ ، فتماثَلَتْ ، ثمَّ أَفضَتْ بشأْنِها إِلىٰ عجوزٍ ، فوعدَتْها أَن تجمعَها بهِ ، ثمَّ تعرَّضَتْ لهُ وقالَتْ : إِنَّ مَعي كتاباً أُريدُ أَنْ تقرأَهُ لي ، فقرأَهُ لَها ، وهنْدٌ تسمعُ كلامَهُ ، ثمَّ ما زالَتِ العجوزُ تتحيَّنُ الفرصَ . . حتَّىٰ خرجَ زوجُ المرأَةِ لبعضِ شأْنِهِ ، فاْحتالَتْ علىٰ بِشْرٍ حتَّىٰ جاءَتْ بهِ إِلىٰ عندِ الجهنيَّةِ ، وأَغلقتْ عليهِمُ البابَ ، فجاءَ زوجُ المرأَةِ وطلَّقَها بمجردِ ما رأَىٰ الواقعَ ، ثمَّ رُفعَ الرجلُ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم وقالَ لَهُ : سلهُ لِمَ دخلَ داري بلا اْستئذانٍ . ؟ فقالَ بشرٌ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ، ما كفرتُ منذُ

= فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّىٰ طَلَعَ ٱلْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَٰلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ . . فَفَرِّجْ عَنَّا ، فَانْسَاحَتِ ٱلصَّخْرَةُ ، حَتَّىٰ نَظَرُوا إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ .

فَقَالَ ٱلآخَرُ : اَللَّهُمَّ . . إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَتْ لِيَ ٱبْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَأَبَتْ إِلاَّ أَنْ آتِيَهَا بِمِئَةِ دِينَارٍ ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّىٰ قَدَرْتُ ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا ، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا . . قَالَتْ : ٱتَّقِ ٱللهَ ، وَلاَ تَفُضَّ ٱلْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ ، وَتَرَكْتُ ٱلْمِئَةَ دِينَارٍ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَٰلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ . . فَفَرِّجْ عَنَّا .

فَفَرَّجَ ٱللهُ عَنْهُمْ ، فَخَرَجُوا » .

أَسلمتُ ، وَلا زنيتُ مذ عرفتُكَ ، ولٰكنَّ الحالَ كَذا ، وبقَرَ له الحديث. . فأَدَّبَ العجوزَ ، وقالَ لَها : أَنتِ أَصلُ البليَّةِ ، وٱنصَرَفوا ، ولم يلبثْ بِشرٌ أَن ٱبتُليَ بمحبَّةِ هِنْدٍ ، وراسلها فٱمتنعَتْ ، فلمْ يزلْ حتَّىٰ ماتَ ، فجاءَتْ لتَشهَدَ جنازتَهُ ، وعندما رأَتْها . . سقطَتْ مَيْتَةً ، ودُفِنا معاً ، فجاءَتِ العجوزُ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم تعتذرُ إِليه ، وتُخلِصُ في التوبةِ ، هٰذا حاصلُ الخبرِ وفيهِ طولٌ ، وهُوَ مشهورٌ ، ذكرهُ غيرُ واحدٍ ، ولا مخالفةَ في أَخذِ هٰذا بالعزيمةِ لشيءٍ ممَّا سبقَ .

في النساء صباحة وفي الفتيان عفة

وقالَ سعيدُ بنُ عقبةَ لأَعرابيٍّ [كما في « مصارع العشاق » ٢/١٨٦] : مَنْ أَنتَ ؟ قالَ : من قومٍ إِذا عشِقُوا . . ماتُوا ، قالَ : عذريٌّ وربِّ الكعبةِ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأَنَّ في نسائِنا صباحةً ، وفي فتيانِنَا عفَّةً .

مرضى ليس لهم داء إلا الحب

وقالَ رجلٌ لعروةَ بنِ حزامٍ : أَصحيحٌ ما يُقالُ : إِنَّكم أَرقُّ الناسِ قلوباً ؟ قالَ : نعم ، ولقد تركْتُ في الحيِّ ثلاثينَ شاباً خامَرَهُ الموتُ ، وما لَهم داءٌ غيرُ الحبِّ .

لو رأيتم النواظر الدعج

وقالَ رجلٌ مِن فزارةَ لرجلٍ من عذرةَ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٠٤] : إِنَّكم تعدُّونَ الموتَ بالحبِّ مزيَّةً وفضيلةً ، وإِنَّما هُوَ ضعفٌ وخورٌ في طباعِكُم ، فقالَ لَه : أَمَا واللهِ لَو رأَيتمُ النواظرَ الدُّعْجَ[١] ، فوقَها الحواجبُ الزجُّ ، تحتَها المباسِمُ الفلُجُ ، والشفاهُ السُّمْرُ . . لاتَّخذْتُموها اللاَّتَ والعزَّىٰ ، ثمَّ أَنشدَ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) النواظرُ : العيونُ . الدُّعجُ : سوادُ العينينِ مع سعتهما .

تَتَبَّعْتُ مَرْمَىٰ ٱلْوَحْشِ حَتَّىٰ رَمَيْنَنِي ... مِنَ ٱلنَّبْلِ لاَ بِٱلطَّائِشَاتِ ٱلْخَوَاطِفِ[1]
ضَعَائِفُ يَقْتُلْنَ ٱلرِّجَالَ بِلاَدَمٍ ... فَيَا عَجَباً لِلْقَاتِلاَتِ ٱلضَّعَائِفِ

عفة الرشيد

وعشقَ الرشيدُ جاريةً ، فلمَّا رَاودَها عن نفسِها . . قالتْ لهُ : إنَّ أَباكَ قد أَلمَّ بي ، فكفَّ عَنْها حتَّىٰ كادَتْ تتلفُ نفسُهُ ، فقالَ [في « ديوانِهِ » ٣٠ مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ مَـاءً وَبِـيْ عَطَـشٌ شَـدِيْـدٌ ... وَلَـٰكِـنْ لاَ سَبِيْـلَ إِلَـىٰ ٱلْـوُرُوْدِ

فقالَ لهُ بعضُ القضاةِ : أَوَ كُلَّما قالتْ جاريةٌ شيئاً صدَّقتَها ؟!

قالَ بعضُهم : فتعجَّبْ مِن ورعِ الجاريةِ ، وعفَّةِ الرَّشيدِ ، وسوءِ نيَّةِ القاضي ، وسقوطِ نفسِهِ .

المتنبي والعفاف

وما زالتِ العربُ تفتخرُ بالعفافِ ، ومن أَحسنِ ما فيهِ **قولُ الناظمِ** [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَفِيْفٌ تَرُوْقُ ٱلشَّمْسَ صُوْرَةُ وَجْهِهِ ... فَلَوْ نَزَلَتْ يَوْماً لَحَادَ إِلَىٰ ٱلظِّلِّ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

ومَا كُلُّ مَنْ يَهْوَىٰ يَعِفُّ إِذَا خَلاَ ... عَفَافِيْ وَيُرْضِيْ ٱلْحِبَّ وَٱلْخَيْلُ تَلْتَقِيْ[3]

---

(١) **السهمُ الطائِشُ** : الذي يَحيدُ عَنِ الهدفِ . **الخواطِفُ** : السهامُ التي تقعُ علىٰ الأَرضِ .
(٢) **تروقُ** : تعجبُ .
(٣) **يقولُ** : ليسَ كلُّ عاشقٍ شجاعاً مثلي ، يعني : **أَنَّهُ** يَشْجُعُ في الوغى ، ويعفُّ عندَ الهوىٰ .
والمرأة العربية تحب من صاحبها أن يكون شجاعاً عند الحرب .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهَـا وَهْـوَ قَـادِرٌ ... وَيعْصِيْ ٱلْهَوَىٰ فِيْ طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٢٧ـ٢٢٦ مِنَ الكاملِ] :

وَتَـرَىٰ ٱلْفُتُـوَّةَ وَٱلْمُـرُوَّةَ وَٱلأُبُـ ... ـوَّةَ فِـيَّ كُـلُّ مَلِيْحَـةٍ ضَـرَّاتِهَـا

إِنِّيْ عَلَىٰ شَغَفِيْ بِمَا فِيْ خُمْرِهَا ... لأَعِفُّ عَمَّا فِيْ سَرَابِيْلاَتِهَا[1]

ومرَّ بعضُ ما يشبهُ ذلكَ في أَوائِلِ المجلسِ الثاني .

المرأة المتعرضة لطاووس

وتعرَّضَتْ لطاووسٍ ٱمرأَةٌ ، فواعدَها المسجدَ ، فلمَّا حضرتْ إِليهِ والرحبةُ ملآنةٌ . . قالَ : هاهنا ، قالَتْ : أَلا ترىٰ الناسَ ؟ قالَ : إِنَّ مولاهُم يَرانا حيثُما كنَّا ، فٱقشعرَّتِ المرأَةُ ، وتابَتْ وٱنزجَرَتْ .

لا يرانا إلا الكواكب

وقالَ أَعرابيٌّ : خرجتُ في لَيلةٍ حالكَةٍ ، فإِذا بجاريةٍ كأَنَّها عَلَمٌ . . فراودْتُها ، فقالَتْ : أَما لَكَ زاجرٌ مِن عقلٍ إِنْ لَم يكُنْ لكَ ناهٍ مِن دينٍ ؟ فقلتُ : إِنَّه لا يَرانا إِلاَّ الكواكبُ ، قالَتْ : وأَينَكَ عَنْ مُكَوْكِبِهَا ؟!

يجب أن تكون عالماً بالمساحة

وٱجتمعَ بعضُ الأَعرابِ بٱمرأَةٍ ، فلمَّا قعدَ مِنْها مقعدَ الرجلِ مِنَ المرأَةِ . . ذكرَ الآخرةَ فٱستعصمَ وقامَ عَنها ، وقالَ : إِنَّ مَن باعَ جَنَّةً عـرضُهـا السمـاواتُ والأَرضُ بمقـدارِ أَربعـةِ أَصـابـعَ لقليـلُ العلـمِ بالمِساحةِ .

---

(١) خُمرِها ـ جمعُ خمارٍ ـ : وهوَ ما تغطي به المرأة رأسَها . . . والسرابيلاتُ ـ جمع السربال ـ : وهو القميص ، والمعنىٰ : أني مع حُبِّي لوجوهِهِنَّ أَعِفُّ عن أبدانِهِنَّ .

تساوي النساء في البضاعة

وانقطعَ بعضُ أولادِ الملوكِ عن أصحابِهِ ، ودخَلَ منزلَ امرأةٍ أعجبتْهُ فراودَها ، فقالَتْ : حتَّىٰ تتغدَّىٰ ، وقدَّمَتْ لَهُ خُواناً[1] عليهِ عشرونَ سُكُرُّجةً[2] كلُّها بطعْمٍ واحدٍ ، ففطِنَ إلىٰ أنَّها تشيرُ إلىٰ تساوي النساءِ ، وأنَّ الذي معهَا مثلُ الذي معَ زوجَتِهِ فانكفَّ عَنْها .

وفي « الصحيحِ » : ما معناهُ : « أيُّما رَجُلٍ أعجبتْهُ امرأةٌ . . فلْيَذْهَبْ إلىٰ امْرَأَتِهِ ؛ فَإِنَّ مَعَها مِثْلَ الَّذِي مَعَها »[3] .

الخلوة والعفة

وقالَ بعضُهم [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلَوْتُ بِهَا لَيْلاً وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً ... وَلَسْتُ عَلَىٰ ذَاكَ الْعَفَافِ بِنَادِمِ

وسمعتِ امرأةٌ رَجُلاً ينشدُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّهَا غَيْرَ آثِمٍ ... بِمَهْضُومَةِ الْكَشْحَيْنِ رَيَّانَةِ الْقَلْبِ

فقالَتْ لهُ : أخزاكَ اللهُ ، ألا أكرمْتَ مَثْواها ، وجبرْتَ خاطِرَها ، لَمَا وقعْتَ فيهِ مِنَ الإثمِ . . شَرٌّ مِمَّا تركتَهُ .

هذا مهري فاخطبني

وافتتنَتِ امرأةٌ مِنَ العربِ بفتىً ، فدَعاها يوماً . . فأجابَتْهُ ، فغنَّىٰ مغنٍّ عندَهما بهٰذا [مِنَ الوافرِ] :

---

(1) الخُوانُ : ما يُؤكَلُ عليهِ .

(2) السُّكُرُّجة : إناءٌ صغير يؤكل فيه الشيءُ القليلُ من الأُدُم .

(3) أخرجهُ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ابنُ حِبَّانَ في « الإحسان » (٥٥٧٢) ولفظه :
أنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ رأىٰ امرأةً ، فدخلَ علىٰ زينبَ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، وقالَ : « إنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ . . أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَعْجَبَتْهُ . . فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا » . بإسناد صحيح ، وبنحوه عند مسلم (١٤٠٣) ، وأبي داوود (٢١٥١) ، والترمذي (١١٥٨) .

مِنَ ٱلْخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَخَاهَا   وَلَمْ تَرْفَعْ لِوَالِدِهَا شَنَارَا[1]

فقالَتْ : معاذَ اللهِ أَنْ أتدنَّسَ بِما يجلُبُ المذمَّةَ بعْدَ هٰذا ، ثمَّ بعثَتْ للفتىٰ بألفِ دينارٍ ، وقالَتْ : هٰذا مَهري ، فإنْ أَرَدْتَني . . فٱخطُبني مِن أَهْلي .

شهادة عمر ابن أبي ربيعة على نفسه عند وفاته

ولمَّا ٱشتدَّ المرضُ بعمرَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ . . بكىٰ أَخوهُ ، فرفعَ إِليهِ طرفَهُ ، وقالَ : لعلَّكَ تُشْفِقُ عليَّ ممَّا تظنُّ ؛ بسبَبِ ما تَسمعُ مِن شِعْري ، قالَ : نعم ، قالَ : ما أَملكُ عُتُقٌ إِنْ كنتُ وطئْتُ ٱمرأَةً حراماً قطُّ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، لَقَدْ هوَّنْتَ عليَّ الأَمرَ .

العفة في العشق

وقالَ أَبو زيدٍ : كانَ الرجلُ إِذا عشقَ ٱمرأَةً ، فراسلَها سَنَةً . . رضيَ بأَنْ تمضغَ عِلكاً فتبعثَهُ إِليهِ .

الأحوص يشبب بأم جعفر وهو لا يعرفها

ولمَّا أَكثرَ الأَحوصُ التشبيبَ بأُمِّ جعفرٍ الخطميَّةِ . . ٱنتقبَتْ وجاءَتْهُ ، وهُوَ في نَادي قومِهِ ، فقالَتِ : ٱدفعْ ثَمنَ الأَغنامِ التي ٱبتعتَ مِنِّي ، قالَ : ما ٱبتعتُ منكِ شيئاً ، فقالَتْ لقومِهِ : قولُوا لَهُ : لا يجحدُ الحقَّ ، فقالوا لَهُ : إِنْ كانَ حقّاً ما تقولُ . . فلا ينبغي الجحودُ ، قالَ : واللهِ ما عرفْتُها قطُّ ، فٱرتفعَ الشِّجارُ ، وٱشتدَّ الخصامُ ، وكشفَتْ عَن وجهِهَا ، وقالَتْ : لعلَّهُ لَم يَستَثْبِتْنِي ، فلينعمِ النظرَ ، فقالَ : واللهِ ما عرفْتُها ولا رأَيْتُها منذُ خَلَقَني اللهُ تعالىٰ ، فقالَتْ : ما بالُكَ تشبِّبُ بي وتفضحُني ؟! فخجلَ وٱنزجرَ ، وكذَّبتْهُ عشيرتُهُ .

وقد ذكرنا في « بلابلِ التغريدِ » جملةً صالحةً مِن أَشعارِ العربِ

---

(١) الشنارُ : الفضيحةُ والعارُ .

في العفافِ ، لا بأسَ إنْ أعَدْنا مِنها ما يقتضيهِ الاستطرادُ في مجلسٍ آخرَ .

يعجبني قولُ الرضيِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٥٠ مِنَ البسيطِ] :

دُوْنَ ٱلْقِبَابِ عَفَافٌ مِنْ خَلاَئِقِهَا   وَٱلصَّوْنُ يَحْفَظُ مَا لاَ تَحْفَظُ ٱلْخِيَمُ

العاشقون في الطواف والعاشق المأجور

وسمعَ بعضُ النُّسَّاكِ ٱمرأَةً في المطافِ تقولُ لأُختِها [كما في « مصارع العشاق » (٢/ ٢١٧) مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْ مَعْشُوْقَةٍ عَمَلاً   يَوْماً وَعَاشِقُهَا غَضْبَانُ مَهْجُورُ

فقالَتِ الأُخرىٰ [مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْسَ يَأْجُرُهَا فِيْ قَتْلِ عَاشِقِهَا   لَـٰكِنَّ عَاشِقَهَا فِيْ ذَاكَ مَأْجُورُ

فقالَ لهنَّ : في مثلِ هـٰذا الموطنِ تقلنَ هـٰذا ؟ فقالَتْ لهُ إحداهُنَّ : إليكَ عنَّا ، فإنَّه الحبُّ ، قالَ : وما هُوَ ؟ قالتْ ـ كما سبقَ في المجلسِ الأوَّلِ ـ : جلَّ عَنْ أنْ يخفىٰ ، وخفِيَ عن أنْ يُرىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأحشاءِ كمونَ النارِ في الزنادِ ، إنْ قدحْتَهُ وَرىٰ ، وإنْ تركتَهُ توارىٰ ، ثمَّ أنشدَتْ قولَ جريرٍ ـ السابقَ معَ ما يناسبُهُ أوائِلَ المجلسِ الثاني ـ وهُوَ [في « ديوانِ بشَّارٍ » ٤/ ١٩٢ مِنَ الكاملِ] :

حُوْرٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيْبَةٍ   كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُـنَّ حَـرامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِيْنِ ٱلْحَدِيْثِ زَوَانِياً   وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ ٱلْخَنَا ٱلإِسْلاَمُ

اللهم لا تعذب هـذه الوجوه المليحة بالنار

ويروىٰ [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٩/ ٤١٣٣] : أَنَّ ٱبنَ أَبي حازمٍ سمعَ ٱمرأتينِ ترفثانِ في المطافِ ، وكانتَا علىٰ غايةٍ منَ الجمالِ ، ولمَّا عاتبَهُما . . قالَتْ لَهُ إحداهُنَّ : دَعْنا عنكَ ، فإنَّا مِمَّن قيلَ فيهنَّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَاطَتْ رِدَاءَ ٱلْخَزِّ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا وَأَلْقَتْ عَلَىٰ ٱلْمَتْنَيْنِ بُرْداً مُهَلْهَلاً[1]
هُنَ ٱللاَّءِ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ قُرْبَةً وَلَـٰكِنْ لِيَقْتُلْنَ ٱلْبَرِيْءَ ٱلْمُغَفَّلاَ

فلمْ يكنْ منهُ إلاَّ أَنْ رفعَ يديهِ إِلىٰ السماءِ ، وقالَ : اللَّهمَّ لا تعذبْ هـٰذهِ الوجوهَ المليحةَ بالنارِ ، فأنتهىٰ الخبرُ إِلىٰ الشعبيِّ ، فقالَ : ما أَرقَّ نسيمَ أَهلِ الحجازِ ، أَما لَو كانَ أَحدُنا مكانَهُ . . قالَ لهُنَّ : أخزينَ يا عدوَّاتِ أَنفسِهنَّ ، عليكُنَّ كَذا وكَذا .

* * *

(١) ثوبٌ مهلهلٌ : سخيفُ النسجِ .

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٥ مِنَ الخفيفِ] :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ	هُنَّ فِيْهِ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلتَّوْحِيْدِ

الأقوال والتأويلات في شرح المطلع

قالَ بعضُهم : (التوحيدُ) نوعٌ منَ التمرِ ، وهُوَ المرادُ ، وهٰذا كلامٌ باردٌ ، لا يقولهُ إلاَّ ثقيلٌ ، ولا يقبلُهُ إلاَّ أثقلُ منهُ ، وقيلَ : إنَّ المرادَ مِنَ التوحيدِ الإفرادُ ، ومعناهُ أَنَّ الرشَفَاتِ المتعدِّداتِ . . أَحلىٰ من الواحدةِ ، وهٰذا أَبردُ وأَثقلُ وأَقبحُ ، والصحيحُ : أَنَّ المرادَ بالتوحيدِ كلمتُهُ ، فإنْ قالوا هٰذا إفراطٌ . . قُلنا : لا ـ وإن كانَ المتنبِّي لا يبالي بالإفراطِ ـ ولٰكنَّ هٰذا ليسَ منهُ ، والجوابُ مِن وجوهٍ :

أَحدُها : أَنَّ أَفعلَ التفضيلِ هُنا للمقاربةِ في التشبيهِ ، لا للتفضيلِ ، وهُوَ ما ذكرهُ الشارحُ .

ثانيها : أَنَّه أَخبرَ بحالِهِ ، وأَنَّ الشهواتِ عندَهُ أَحلىٰ مِنَ العباداتِ ، وهيَ حالُ الجمَّاءِ الغفيرِ مِنَ الناسِ ، ولَولاهُ لَمَا شُرِعَ التثويبُ في أَذانِ الصبْحِ ، وهوَ أَمرٌ طبيعيٌّ ، لا يؤَاخذُ بهِ المكلَّفُ . ومتىٰ جعلَ المتنبِّي كلمةَ التوحيدِ مضربَ المثلِ في الحلاوةِ ؟! إلاَّ أَنَّ الرشَفاتِ عندَهُ أَحلىٰ مِنْها ، فخلاه ذَمٌّ ؛ وإِنَّ ذلكَ لَكَثيرٌ منهُ .

وقد قالَ السبكيُّ : ليسَ مِنَ التنقيصِ قولُ مَنْ سُئِلَ عَن شيءٍ ، لَو جاءَني جبريلُ أو النبيُّ . . ما فعلتُهُ ؛ لأَنَّ هٰذهِ العبارةَ تدلُّ علىٰ تعظيمِهِ عندَهُ .

وما أرىٰ الناظمَ يريدُ هٰذا المعنىٰ ؛ لأنَّه لا يناسبُ حالَهُ ، وإنَّما أرادَ أنَّ الرشَفَاتِ عندَهُ . . أحلىٰ من كلمةِ التوحيدِ عندَ العارفينَ ، ومعَ ذلكَ فأيُّ واعظٍ لا يقولُ : ما لِلشهواتِ أحبُّ إليكُمْ مِنَ الصلواتِ ؟ وقد شملتكُمُ القساوةُ حتَّىٰ صارَ ٱللهوُ عندكُم ألَذَّ مِنَ التلاوةِ ، واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

ولَو كانَ الناظمُ مِمَّن يجدُ للتوحيدِ أدنىٰ حلاوةٍ . . لنفعَهُ ذلكَ ، فقد أخرجَ أحمدُ [في « مسنده » ٢/٤٤٧] : بسندٍ جيِّدٍ عَن أبي هُريرةَ ، أنَّ رجلاً قالَ للنبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً يُصلِّي ، فإذا كانَ من آخرِ الليلِ . . سرقَ ، فقالَ لَه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَمَا إنَّهُ سَيَنْهَاهُ ما تقولُ » أَو ما هٰذا معناهُ .

ليس التسبيح مشابهاً لحالك

وذكرتُ بهِ ما رويَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ ، مرَّ بٱمرأةٍ مُزيَّنَةٍ مطيَّبَةٍ ، جالسةٍ علىٰ بابِ دارِها ، تسبِّحُ اللهَ وتذكرُهُ ، فقالَ لَها : ما التسبيحُ بمُشابِهٍ لِحالِكِ ، فأنشدَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَللهِ عِنْدِيْ جَانِبٌ لاَ أُضِيْعُهُ   وَلِلَّهْوِ مِنِّيْ وَٱلْبَطَالَةِ جَانِبُ

لا يجوز الاستهتار بالدين

وإنَّما يَنْصَبُّ ٱللَّومُ مِنْ كُلِّ ناحيَةٍ . . علىٰ مِثلِ قولِ أبي عبادةَ [في « ديوانه » ٤/ ٢٢٥٠ مِنَ البسيطِ] :

إنِّـي أَعُـدُّكُـمُ رَهْطِـيْ وأَجْعَلُكُـمْ   أَحَقَّ بِٱلصَّوْنِ مِنْ عِرْضِيْ وَمِنْ دِيْنِيْ

العفو عن حديث النفس

فإنَّ ما يجدُهُ الإنسانُ مِنْ نفسِهِ ، مِنِ ٱستمراءِ الشهواتِ أكثرُ مِنَ العباداتِ . . فغيرُ ملومٍ فيهِ متىٰ جاهدَ نفسَهُ ، وٱحترمَ دينَهُ .

صور من تناقض المتنبي

ثمَّ إنَّ الناظمَ كثيرُ التناقضِ ـ كما قرَّرْناهُ غيرَ مرَّةٍ ـ ومِن تناقضِهِ قولُهُ هُنا : (يَتَرَشَّفْنَ) وفحواهُ : أَنَّهُ لا يترشَّفُ هُوَ مِنهُنَّ ؛ لِتعاظُمِهِ

في نفسِهِ ، وأنَّه معشوقٌ لا عاشِقٌ ، ومطلوبٌ لاَ طالبٌ ، وما هِيَ سبيلُ الكرامِ ، ولا سجيَّةُ أُولي الأَذواقِ السليمَةِ ، كما سنفيضُ فيهِ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ   فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ[١]

ويزعمُ مرَّةً أُخرىٰ ، أنَّه لا يُمَكِّنُهُنَّ مِن رَشْفِ ثَغرِهِ ، كَما في قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَشْنَبَ مَعْسُوْلِ ٱلثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ   حَمَيْتُ فَمِي عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرِقِي[٢]

وفي مواضِعَ يَظهرُ بأَلوانٍ أُخرىٰ ، فيقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٧ مِنَ الكاملِ] :

وَلَطَالَمَا أَفْنَيْتُ رِيْقَ كَعَابِهَا   فِيْهَا ، وأَفْنَتْ بِالْعِتَابِ كَلاَمِي[٣]

ويقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٧٠-٢٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

وَقَبَّلَتْ نَاظِرِيْ تُغَالِطُنِيْ   وَإِنَّمَا قَبَّلَتْ بِهِ فَاهَا[٤]

حَيْثُ ٱلتَقَىٰ خَدُّهَا وَتُفَّاحُ لُبْـ   ـنَانَ وَثَغْرِيْ عَلَىٰ حُمَيَّاهَا[٥]

---

(١) في « العكبري » : (تَذَلَّلْ لَهَا وَٱخْضَعْ) بدل (تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ) .

(٢) الأشنبُ : الثغرُ البرّاقُ . المعسولُ : الذي كأنَّ فيهِ عسلاً .

(٣) الكَعابُ : الكاعبُ ، وهيَ الجاريةُ التي كعَبَ نهدُها . والهاء في قوله : كعابها : عائدة إلى الدِّمَنِ في البيت الذي قبله .

(٤) الناظرُ : موضعُ البصرِ من العينِ ، كالمرآةِ إذا قابلهُ شيءٌ أدّىٰ صورتَهُ ؛ أي : أوهمتني أنها قبَّلت عيني ، وإنما قبَّلت فاها الذي رأته في ناظري . ويؤيدّهُ قولهُ في البيت الذي قبل هذا البيت من قصيدته :

تُبْصِرُ فِيْ نَاظِرِيْ مُحَيَّاهَا

(٥) لُبنانُ : جبلٌ معروف في (الشام) ، من جبالِ (بعلبكَّ) ، وهو كثير الجنانِ =

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٤/٣٧ مِنَ البسيطِ] :

قَبَّلْتُهَا وَدُمُوعِي مَزجُ أَدْمُعِهَا وَقَبَّلَتْنِي عَلَىٰ خَوْفٍ فَماً لِفَمِ

لا يكون التعارض إلا باتحاد الزمان والمكان

وقد سبقَ في غيرِ هذا المجلسِ ما يعرفُ منهُ أَنَّ التعارضَ لا يتحقّقُ إلاَّ بأتحادِ الزمانِ والمكانِ ؛ لأَنَّ الأَوقاتَ تختلفُ ، والأَحوالَ تضطَرِبُ ، وظروفَ الوقائعِ تتلوَّنُ ، غيرَ أَنَّ الإفراطَ والتفريطَ اللَّذينِ لا يزالُ الناظمُ يَتَكَسَّعُ[1] بينَهُما ، مِمَّا لا سبيلَ إلىٰ الاعتذارِ عنهُ ، وإِنْ شئتَ . . فقارِنْ بينَ تعاظُمِهِ وترفُّعِهِ عن مغازلةِ العقائِلِ في كثيرٍ مِن أَشعارِهِ ، وبينَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٨ مِنَ الكاملِ] :

لَيْتَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلنَّوَىٰ جَعَلَ ٱلْحَصَىٰ لِخِفَافِهِنَّ مَفَاصِلِي وَعِظَامِي

ثمَّ أنظرْ إلىٰ تفديتهِ المطايا بالغَواني في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/٣٦ مِنَ المتقاربِ] :

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ ٱلْخَيْزَلَىٰ فِدَا كُلِّ مَاشِيَةِ ٱلْهَيْدَبَىٰ[2]

تجدِ ٱلشأْوَ بعيداً ، والفرقَ كبيراً ، والجمعَ مُحالاً ، والتأْليفَ مُتعذراً ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] .

= والمياهِ . الحميَّا : الخمرُ .

(١) يتكَسَّعُ : يذهب في ضلالِهِ .

(٢) الخيزلىٰ : مشيةٌ فيها استرخاءٌ ، من مشيةِ النساءِ . الهيدبىٰ : مشيةٌ فيها سرعةٌ ، من مشيِ الإبلِ ، والمعنى : فدت كلُّ أمرأَةٍ تمشي الخيزلىٰ كلَّ ناقةٍ تمشيْ الهيدبىٰ ، يريدُ أَنَّهُ ليسَ من أهلِ الغزلِ . ولا يميلُ إلى النساءِ ، وإنَّما هوَ من أَهلِ السفرِ يحبُّ مشيَ الجمالِ .

الإنكار على جميل

وقد أنكروا علىٰ جميلٍ قولَهُ [في « ديوانهِ » ٢١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِقَائِلٍ لَهَا بَعْدَ صَرْمٍ : يَا بُثَيْنُ صِلِينِي[(١)]

أنحىٰ ٱبْنُ أَبي عتيقٍ علىٰ عمرَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ في قولِهِ [في «ديوانهِ» ١٥١ مِنَ الرَّمَلِ] :

بَيْنَمَــا يَنعَتْنَنِــيْ أَبْصَــرْنَنِــيْ مِثْلَ قَيْدِ ٱلْمِيْلِ يَعْدُوْ بِيْ ٱلأَغَرّ[(٢)]
قَالَتِ ٱلْكُبْرَىٰ: أَتَعْرِفْنَ ٱلْفَتَىٰ؟ قَالَتِ ٱلْوُسْطَىٰ: نَعَمْ هَـٰذَا عُمَرْ
قَالَتِ ٱلصُّغْرَىٰ وَقَدْ تَيَّمْتُهَا: قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهلْ يَخْفَىٰ ٱلْقَمَرْ

تذلل لمن تهوى

وقالَ لهُ : إِنَّما نسبتَ بنفسِكَ ، وكانَ نولَكَ أَنْ تقولَ : قلنَ لي : ضعْ خدَّكَ بالأَرضِ ، فوضعتُهُ ، فوطِئْنَ عليهِ .

ويَأْتِي في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ما كانَ مِن ٱبنِ المعتزِّ ، ثمَّ مِن سلطانِ العاشقينَ في ترسُّمِ ما ذكرهُ ٱبنُ أَبي عتيقٍ .

القاتلة المتجبرة

وما أَرَقَّ نسيمَ أَبي فراسٍ في مراجعتِهِ التي يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تُسَائِلُنِيْ مَن أَنتَ ؟ وَهِيَ عَلِيْمَةٌ وَهلْ بِفَتَىً مِثْلِيْ عَلَىٰ حَالِهِ نُكْرُ ؟!
فَقُلْتُ: كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا ٱلْهَوَىٰ قَتِيْلُكِ، قَالَتْ : أَيُّهُمْ ؟ فَهُمُ كُثْرُ
فَقُلْتُ لَهَا : لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِيْ وَلَمْ تَسْأَلِيْ عَنِّيْ وَعِنْدَكِ بِيْ خُبْرُ

انتقاد كثير على عمر ابن أبي ربيعة

وٱنتقدَ كُثيرٌ علىٰ عمرَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ ـ أَيضاً ـ قولَهُ [في « ديوانهِ » ١٤٥ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

قَـالَـتْ لَهَـا أُخْتُهَـا تُعَـاتِبُهَـا : لاَ تُفْسِـدِنَّ ٱلطَّـوَافَ فِـيْ عُمَـرِ

---

(١) الصرمُ : الهجرُ والقطيعةُ .

(٢) الأَغرُّ : أَراد به فرسهُ الذي في جبهتِهِ بياضٌ .

قُومِي تَصَدَّيْ لَهُ لأُبْصِرَهُ ثُمَّ ٱغْمِزِيْهِ يَا أُخْتُ فِيْ خَفَرِ(١)

قَالَتْ لَهَا : قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَىٰ ثُمَّ ٱسْبَطَرَّتْ تَشْتَدُّ فِيْ أَثَرِيْ(٢)

وقالَ لهُ : أَهٰكذا يقالُ للمرأَةِ ؟ إنَّما توصفُ بأَنَّها مطلوبةٌ متمنعةٌ . كما هيَ عادةُ العربِ ؛ نتيجةَ غيرتِهم عليهِنَّ .

وممَّا يُعَابُ مِن هٰذا القبيلِ عليهِ ـ أَيضاً ـ قولُهُ [في « ديوانه » ٤٨٨ مِنَ الكاملِ] :

فَتَنَاوَلَتْ رَأْسِيْ لِتَعْلَمَ مَسَّهُ بِمُخَضَّبِ ٱلأَطْرَافِ غَيْرِ مُشَنَّجِ(٣)

المرأة الأديبة عاشقة عمر ابن أبي ربيعة التي ترسل جاريتها في طلبه

وهٰذا مِنْ قطعةٍ لهُ فيها قصَّةٌ عجيبةٌ ، حاصلُها كمَا أَخرجَها الأَصفهانيُّ بسندِهِ [في « الأغاني » ١/١٩٧] : أَنَّ ٱبنَ أَبي ربيعةَ كانَ جالساً ليلةً بمنىً في مضربِهِ ، وحولَهُ غلمانُهُ ، إِذْ أَقبلتْ ٱمرأَةٌ برزةٌ(٤) ، عليها أَثرُ النعمةِ ، فسلَّمَتْ ، وقالَتْ : أَينَ عمرُ ؟ قالَ : ها أَنا هُوَ ، قالَتْ : هَل لَكَ في محادَثَةِ أَحسنِ النساءِ وجهاً ، وأَتمِّهِنَّ خَلقاً ، وأَكمَلِهِنَّ أَدباً ، قالَ : ما أَحبَّ ذلكَ إِليَّ ، قالَتْ : علىٰ شرطٍ ، قالَ : ٱشترطي ما شئتِ ، قالَتْ : تُمَكِّنُنِي مِن عينيْكَ حتَّىٰ أَشدَّهُما ، وأَقودُكَ ، حتَّىٰ إذا وصلْتَ الموضعَ الذي أَعني . حللْتُ الشدَّ ، ثُمَّ أَفعلُ بكَ ذلكَ عندَ عودكَ ، قالَ : شأْنَكِ ، ففعلَتْ ، قالَ : فلمَّا ٱنتهيتُ إِلىٰ المضربِ الذي أَرادت ، وحصَّلَتْني في

---

(١) الخفرُ : شدَّةُ الحياءِ .

(٢) ٱسبطرَّت : أَسرعت .

(٣) المخضَّبُ : المصبوغ بالحنّاء . الأَطرافُ : رؤوسُ الأَصابعِ . المشنَّجُ : المتجَعِّدُ .

(٤) برزَةٌ : بارزةُ المحاسنِ ، تبرزُ للقومِ يجلسونَ إليها ويتحدَّثونَ وهي عفيفةٌ .

داخِلِهِ . . كشفَتْ عَنْ وَجْهِي ، فإذا بامرأةٍ علىٰ كرسيٍّ ، لم أرَ مثلَها جَمالاً وكَمالاً ، فسلَّمتُ وجلَسْتُ ، فقالتْ : أَنتَ عُمَرُ ابنُ أَبي ربيعة ، قلتُ : نعم ، قالَتْ : أَنتَ فاضحُ الحرائِرِ . قلتُ : وما ذاكَ جعلَني اللهُ فداكِ ؟ قالَتْ : أَلستَ القائِلَ [في « ديوانه » ٤٨٨ مِن الكاملِ] :

قَالَت: وَعَيْشِ أَبِيْ وَعِدَّةِ إِخْوَتِيْ ... لأُنَبِّهَـنَّ ٱلْحَـيَّ إِنْ لَـمْ تَخْـرُجِ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِيْنِهَا فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْـتُ أَنَّ يَمِيْنَهَـا لَـمْ تَحْـرَجِ
فَتَنَـاوَلَـتْ رَأْسِـيْ لِتَعْلَـمَ مَسَّـهُ ... بِمُخَضَّبِ ٱلأَطْرَافِ غَيْرِ مُشَنَّجِ
فَلَثَمْـتُ فَـاهَـا آخِـذاً بِقُـرُوْنِهَـا ... شُرْبَ ٱلنَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ ٱلْحَشْرَجِ

قمْ فاخرجْ ، ثمَّ قامَتْ ، وجاءَتِ المرأةُ ، فشدَّت عَيني ، وأَخرجتْني ، حتَّىٰ انتهَتْ بي إِلىٰ مَضْرِبي ، وانصرفتْ ، فحلَلْتُ عَيني ، وقد دَخلَني مِن الحزنِ والكآبَةِ ما بهِ اللهُ أَعلمُ منِّي ، وبتُّ لَيلَتي ، فلَمَّا كانَتْ الليلةُ الثانيةُ . . إِذا أَنا بِها ، فقالتْ : هَلْ لَكَ في العودِ علىٰ مِثْلِ ذلكَ الحالِ ؟ فقلتُ : نعم ، ففعلَتْ مَعي كما فعلَتْ في الليلةِ الماضيَةِ ، وإِذا بتلكَ الفتاةِ علىٰ كرسيٍّ ، فقالَتْ : إِيْهاً يا كاشفَ الأَستار ، ومبيحَ الأَسرارِ ، أَلستَ القائِلَ [في « ديوانه » ٤٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وناهِدَةِ ٱلثَّدْيَيْنِ قُلْتُ لَهَا : ٱتَّكِيْ ... عَلَىٰ ٱلرَّمْلِ مِنْ جَبَّانَةٍ لَمْ تَوَسَّدِ
فَقَالَتْ: عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ ... وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كُلِّفْتُ مَا لَمْ أُعَوَّدِ
فَلَمَّا دَنَا ٱلإِصْبَاحُ قَالَتْ: فَضَحْتَنِيْ ... فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُوْدٍ وَإِنْ شِئْتَ فَٱزْدَدِ

قُمْ فاخرجْ عنِّي ، فخرجْتُ ، ثمَّ رُدِدْتُ ، فقالَتْ : لَولا وشكُ الرحيلِ ، وخوفُ الفوتِ ، وحبِّي لِمُناجاتِكَ ، والاستكثارُ مِن محادثَتِكَ . . لأَقصيتُكَ ، هاتِ الآنَ حدِّثني وأَنشدْني ، فكلَّمتُ آدَبَ

النـاسِ وأَعلَمَهـم بكـلِّ شـيءٍ ، ثـمَّ نهضـتُ ، فـإذا بتـورٍ[1] فيـهِ خلوقٌ[2] ، فأَدخلْتُ يدي فيهِ ، ثُمَّ خبأْتُها في رِدْني ، ثُمَّ جاءَتِ العجوزُ ، فشدَّتْ عَينيَّ ، ونهضَتْ بي تقودُني ، حتَّىٰ إذا صرتُ علىٰ بابِ المضربِ . . أَخرجتُ يَدي ، فضربْتُ بِها عليهِ من خارجٍ ، ثمَّ دعوتُ غِلْماني ، وقلتُ لَهم : أَيُّكم يَقِفُني علىٰ بابِ مَضربٍ عليهِ خلوقٌ كأَنَّهُ أَثرُ كفٍّ . . فَهُوَ حرٌّ ، ولهُ خمسُ مئةِ درهمٍ فلم أَلبثْ حتَّىٰ جاء بعضُهم ، فقالَ : قُمْ ، فنهضْتُ فإذا أَثرُ يَدي في مضربِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ تتأَهَّبُ للرحيلِ ، ولمَّا نفرتْ . . نفرتُ معَها ، ولمَّا عرفَتْ مَكَاني . . أَرسلَتْ تناشدُني الرَّحِمَ أَنْ لا أَتبعَها ، وقالَتْ : لا تفضَحْني وتشيطَ بدمِكَ ، فأَبيتُ أَوْ تُوجِّهَ إِليَّ بقميصِها الذي يَلي جلدَها فوجهَّتْ بهِ ، فزادَني ذلكَ شغفاً وهُياماً ، ولم أَزلْ أَتبعُها . . حتَّىٰ إذا صاروا علىٰ أَميالٍ مِن (دمشقَ) . . ٱنصرفتُ ، وقلتُ في ذلكَ [في « ديوانهِ » ١٥٣ مِنَ الكاملِ] :

ضَاقَ ٱلْغَدَاةَ بِحَاجَتِيْ صَدْرِيْ ... وَيَئِسْـتُ بَعْـدَ تَقَـارُبِ ٱلأَمْـرِ

وَذَكَـرْتُ فَـاطِمَـةَ ٱلَّتِيْ عُلِّقْتُهَـا ... عَـرَضـاً فَيَـا لَحَـوَادِثِ ٱلـدَّهْـرِ

فَكَـأَنَّ فَـاهَـا بَعْـدَ مَـا رَقَـدَتْ ... تَجْرِيْ عَلَيْهِ سُلاَفَةُ ٱلْخَمْرِ[3]

لَمَّـا رَأَيْـتُ مُطِيَّهَـا حِـزَقـاً ... خَفَقَ ٱلْفُؤَادُ وَكُنْتُ ذَا صَبْرِ[4]

فَتَبَـادَرَتْ عَيْنَـايَ بَعْـدَهُـمُ ... وَٱنهَـلَّ مَـدْمَعُهَـا عَلَىٰ ٱلصَّـدْرِ

---

(١) التَّورُ : الإناءُ الذي يشربُ بهِ .
(٢) الخلوقُ : ضربٌ من الطيب ، تغلبُ عليهِ الحمرةُ والصفرةُ .
(٣) سُلافةُ الخمرِ : أَفضلها وأَحسنُها يتحلَّبُ من غيرِ عصرٍ .
(٤) الحَزْقُ : شدَّةُ الربطِ .

وَلَقَدْ عَصَيْتُ أُوْلِيْ قَرَابَتِهَا طُرّاً وَأَهْلَ ٱلْوِدِّ وَٱلصِّهْرِ
حَتَّىٰ إِذَا قَالُوْا وَمَا كَذَبُوْا أَجُنِنْتَ أَمْ بِكَ نَفْثَةُ ٱلسِّحْرِ

وتروىٰ علىٰ غيرِ هٰذا النحوِ ، وأبعدُ شيءٍ مِن هٰذهِ الروايةِ . . اتّباعُهُ لهم إلىٰ أميالٍ مِن (دمشقَ) .

إشكال وحله في بيت المطلع

ثمَّ إنَّ قولَ الناظمِ : (هُنَّ فِيْهِ أَحْلَىٰ . . . إلىٰ آخرهِ) ـ والحالُ أنَّ الضميرَ في فيهِ عائدٌ إلىٰ فيهِ ـ لا يخلو مِنَ الإشكالِ ؛ إذ كيفَ يذوقُ الحلاوةَ إذَن ، وهُنَّ المترشفاتُ دونَهُ ، والجوابُ عَن ذٰلكَ مِن وجهينِ :

الأوَّلُ : أنَّه كانَ يجدُ لترشُّفِهنَّ من فيهِ برداً علىٰ كبدهِ ، وسروراً علىٰ صدرهِ ، وحلاوةً علىٰ لسانهِ ، فهوَ من جنسِ قولِ الوأواءِ الدمشقيِّ [في « ديوانه » ٢٦٦ـ٢٦٧ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِيْ وَمَضَىٰ بِٱللهِ صِفْهُ وَلاَ تَنْقُصْ وَلاَ تَزِدِ
فَقَالَ: خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَقُلْتِ: قِفْ عَنْ وُرُوْدِ ٱلْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ : صَدَقْتَ ٱلْوَفَا بِٱلْعَهْدِ شِيْمَتُهُ يَا بَرْدَ ذاكَ ٱلَّذِيْ قَالَتْ عَلَىٰ كَبِدِيْ

والثاني : يحتملُ أنْ يكونَ أرادَ يترشَّفنَ مِن فَمي ، وأترشَّفُ مِن أفواهِهِنَّ رَشَفَاتٍ ، هُنَّ أحلىٰ في فَمِي مِن التوحيدِ ، ويندفعُ حينئذٍ بعضُ ما دَلَّلْنا بهِ علىٰ تعاظمِهِ ، قبلَ نفيهِ إيجازَ الاختزالِ ، وهُوَ نوعٌ قريبٌ مِن الاحتباكِ والاكتفاءِ ، وليسَ بواحدٍ منهُما ؛ لأنَّ الاحتباكَ هُو : أنْ تُذكَرَ جملتانِ في كلٍّ منهُما متقابلانِ ، فيحذفُ مِن كلٍّ واحدٍ منهُما ضدُّ ما يذكرُ في الأخرىٰ ، ومثَّلُوا لهُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : ١٣] وتقديرُهُ : فئةٌ مؤمنةٌ

تقاتِلُ في سبيلِ اللهِ ، وأُخرىٰ كافرةٌ تقاتلُ في سبيلِ الشيطانِ ، ولا تضادَّ هُنا في بيتِ الناظمِ . . حتَّىٰ ينطبقَ عليهِ ما ذكروهُ في حدِّ الاحتباكِ المذكورِ ، غيرَ أَنَّ التغايرَ وهُوَ أخوهُ غذَتْهُ أُمُّهُ بِلبانِهِ . . موجودٌ في البيتِ ، وأمَّا قربهُ مِنَ الاكتفاءِ : فواضحٌ أيضاً ؛ لأنَّه ذكرَ ترشُّفَهُنَّ من ريقِهِ ، وسكتَ عَنِ التعريفِ بمقدارِ ٱلْتِذاذِهِنَّ بهِ ، إمَّا لأَنَّهُ لا يعلمُ ما عندهُنَّ لهُ ، وإمَّا ٱكتفاءً بما يعرفُ من قولِهِ : (هُنَّ فِيْهِ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلتَّوحِيْدِ) ؛ لأَنَّ عندهُنَّ لهُ مثلَ الذي عندَهُ لَهنَّ ، كما قالَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ١٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّـا تَـلاَقَيْنَـا وَجَـدْتُ ٱلَّـذِيْ بِهَـا كَمِثْلِ ٱلَّذِيْ بِيْ حَذْوُكَ ٱلنَّعْلَ بِٱلنَّعْلِ

وحذفَ ذِكْرَ ترشُّفِهِ من أفواهِهِنَّ ، ٱكتفاءً بما نصبَهُ علامةً عليهِ مِن مبلغِ لذَّتهِ عندَهُ ، ومثَّلوا للاكتفاءِ بقولهِ جلَّ ذكرهُ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] :

وقولِ أَبي ذُؤَيبٍ [في « ديوانهِ » ٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

عَصَيْتُ إِلَيْهَا ٱلنَّاسَ إِنِّيْ لأَمْرِهَا مُطِيْعٌ وَمَا أَدْرِيْ أَرُشْدٌ طِلاَبُهَا

استعذاب ريق المحبوب عند الشعراء

أمَّا ٱستعذابُ ريقِ المحبوبِ : فما أَكثرَهُ فِي أَشعارِهِم ، قالَ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ٩٦ مِنَ المتقاربِ] :

كَـأَنَّ ٱلْمُـدَامَ وَصَـوْبَ ٱلْغَمَـامِ وَنَشْرَ ٱلْخُزَامَىٰ وَرِيْحَ ٱلْعَطِرْ[1]

يُعَـلُّ بِـهِ بَـرْدُ أَنْيَـابِهَـا إِذا غَـرَّدَ ٱلطَّـائِرُ ٱلْمُسْتَحِـرْ[2]

---

(١) المُدامُ : الخمرُ . صوبُ الغمامِ : ماءُ السحابِ . الخُزامىٰ : نباتٌ طيبُ الرائحةِ . نشرُ الخُزامىٰ : ما يصدرُ من طيبِ رائحتِهِ .

(٢) الطائرُ المستحرُ : الذي يغرّدُ وقتَ السحرِ .

ويعزىٰ إليهِ ـ واللهُ أعلمُ بصحَّةِ ذلكَ ـ أنَّه قالَ [مِنَ المتقاربِ] :

وَثَغْـرٍ لَهَـا طَيِّـبٍ وَاضِـحٍ ... لَـذِيْـذِ ٱلْمُقَبَّـلِ وَٱلْمُبْتَسَـمْ
وَمَـا ذُقْتُـهُ غَيْـرَ ظَنِّـيْ بِـهِ ... وَبِٱلظَّنِّ يُقْضَىٰ عَلَىٰ مَا ٱكْتَتَمْ

وقالَ النابغةُ [الذُّبيانيُّ في « ديوانهِ » ٣٧ مِنَ الكاملِ] :

زَعَـمَ ٱلْهُمَـامُ وَلَـمْ أَذُقْـهُ بِـأَنَّـهُ ... عَذْبٌ مُقَبَّلُهَا شَهِيُّ ٱلْمَوْرِدِ[١]

وقالَ أيضاً [في « ديوانهِ » ٢٣٥ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ مَشْمُـوْلَـةً صِـرْفـاً بِـرِيْقَتِهَـا ... مِنْ بَعْدِ رَقْدَتِهَا أَوْ شَهْدَ مُشْتَارِ[٢]

وقالَ عنترةُ [في « ديوانهِ » ٥٥ مِنَ الكاملِ] :

إِذْ تَسْتَبِيْكَ بِذِيْ غُرُوْبٍ وَاضِحٍ ... عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيْذُ ٱلْمَطْعَمِ[٣]
وَكَـأَنَّ فَـارَةَ تَـاجِـرٍ بِقَسِيمَـةٍ ... سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْفَمِ[٤]

وقالَ عُبيدُ بنُ الأبرصِ [في « ديوانهِ » ٣٤ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ رِيقَتَهَـا بَعْـدَ ٱلْكَـرَىٰ ٱغْتُبِقَـتْ ... مِنْ مَاءِ أَدْكَنَ فِيْ ٱلْحَانُوْتِ فَضَّاحِ
أَوْ مِنْ مُشَعْشَعَةٍ كَٱلْمِسْكِ نَشْرَتُهَا ... أَوْ مِـنْ أَنَـابِيْـبِ رُمَّـانٍ وَتُفَّـاحِ

---

(١) الهُمامُ: الملك وهو السيِّدُ، وإنما سمِّيَ بذلك؛ لأنَّهُ إذا همَّ بأمرٍ أمضاهُ، ويقالُ : لبعدِ همَّتهِ.

(٢) المشمولَةُ : الخمرُ الباردَةُ .

(٣) تستبيك : تذهبُ بعقلكَ . ثغرٌ ذو غروبٍ : ذو أسنان واضحةٍ بيضاءَ .

(٤) الفارةُ : أرادَ بها فارةَ المسكِ ، وهيَ ما تفورُ منهُ رائحةُ المسك . التاجرُ : العطَّارُ .

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٢٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا قَرْقَفٌ مِنْ أَذْرِعَاتٍ كَأَنَّهَا ... إِذا سُكِبَتْ مِنْ دَنِّهَا مَاءُ مَفْصِلِ[(١)]

يُصَبُّ عَلَىٰ نَاجُوْدِهَا مَاءُ بَارِقٍ ... وَعَاهُ صَفاً فِيْ رَأْسِ عَنْقَاءَ عَيْطَلِ[(٢)]

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيْهَا لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ ... وَقَدْ لاحَ ضَوْءُ ٱلنَّجْمِ أَوْ كَادَ يَنْجَلِيْ

إلاَّ أنَّ المؤاخذةَ ظاهرةٌ عليهِ في قولهِ : (لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ) مَا لَم يَعْنِ صاحبَها[(٣)] فقطْ ، كما سبقَ عَنِ النابغةِ .

المجنون وزوج ليلى

ومن أَخبارِ المجنونِ : أنَّه مرَّ بزوجِ ليلىٰ في حيٍّ بني عامرٍ عندَ صاحبٍ لهُ يصطَلِيْ ، فقامَ علىٰ رأسِهِ ، وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨٦ مِنَ الوافرِ] :

بِربِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَىٰ ... قُبَيْلَ ٱلصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا

وَهلْ زُفَّتْ عَلَيْكَ قُرُوْنُ لَيْلَىٰ ... زَفِيْفَ ٱلأُقْحُوَانَةِ فِيْ نَدَاهَا[(٤)]

فقالَ [كما في « ديوان المجنون » ٢٨٦] : أَمَّا إِذ حلَّفتَني . . فنعم ، فصاحَ المجنونُ ، وأَمسكَ الجمرَ بِكلتا يديهِ ، ثمَّ سقطَ مغشيّاً عليهِ .

---

(١) قرقفٌ : الخمرُ . أذرعاتُ : بلدٌ بديارِ الشامِ ، يضربُ المثلُ بجودةِ خمرِها . مفصلُ : الشقُّ بين صخرتينِ من الجبلِ ، وماءُ المفاصلِ يكونُ في غايةِ الصفاءِ . وفي المخطوط : سُلِبَتْ .

(٢) الناجودُ : زقُّ الخمرِ . العنقاء : الهضبةُ المرتفعةُ الطويلةُ . العيطلُ : الطويلةُ السامقةُ .

(٣) صاحبها : أي زوجَها ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ـ٣٦] .

(٤) الزفيفُ : تحريك الريحِ .

وقالَ سليكُ بنُ سُلَكَةَ [في « ديوانهِ » ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

تَبَسَّمُ عَنْ أَلْمَىٰ اللِّثَاتِ مُفَلَّجٍ   خَلِيْقِ الثَّنَايَا بِالْعُذُوْبَةِ وَالْبَرْدِ[١]
وَمَـا ذُقْتُـهُ إِلاَّ بِعَيْنِـي تفـرُّسـاً   كَمَا شِيْمَ مَاءٌ فِيْ السَّحَابَةِ مِنْ بُعْدِ

وقالَ نصيبٌ ، أَو قيسُ بنُ الملوَّحِ [في « ديوانِ قيسٍ » ٢٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ عَلَىٰ أَنْيَابِهَا الْخمْرَ شَجَّهَا   بِمَاءِ النَّدَىٰ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ غَابِقُ
وَمَـا ذُقْتُـهُ إِلاَّ بِعَيْنِـي تفـرُّسـاً   كَمَا شِيْمَ فِيْ أَعَلَىٰ السَّحَابَةِ بَارِقُ

وقالَ النميريُّ [في « ديوانهِ » ٥٠ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ رِيْقَتَهَـا وَاللَّيْـلُ مُعْتَكِـرٌ   بَعْدَ الرُّقَادِ وَقَدْ مَالَتْ بِهَا الْوُسُدُ
صَهْبَاءُ صَافِيَةٌ أَغْلَىٰ التِّجَارُ بِهَا   مِنْ خَمْرِ عَانَةَ يَطْفُوْ فَوْقَهَا الزَّبَدُ[٢]

وقالَ سُحيمٌ [في « ديوانهِ » ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ عَلَىٰ أَنْيَابِهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ   مِنَ اللَّيْلِ نَامَتْهَا سُلاَفاً مُبَرَّداً

وقالَ أَبو صعترةَ البولانيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تَقَاذَفَتْ   بِهِ جَنْبَتَا الْجُوْدِيِّ وَاللَّيْلُ دَامِسُ
فَلَمَّـا أَقَـرَّتْـهُ اللِّصَـابُ تنفَّسَـتْ   شِمَالٌ بِأَعلَىٰ مَائِهِ فَهْوَ قَارِسُ[٣]
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيْهَا ومَا ذُقْتُ طَعْمَهُ   وَلَـٰكِنَّنِي فِيْمَا تَرَىٰ الْعَيْنُ فَارِسُ

---

(١) اللَّمَىٰ : سُمرةٌ في الشفة تُستحسنُ عند العربِ . مُفَلَّجٌ : مُنفرِجُ ما بينَ الأسنانِ . الخَليقُ من الأَسنانِ : الأَمْلَسُ .

(٢) الصهباءُ : الخمرُ ، وسميت بذلك للونها ، والصُّهبة : الصفرةُ . عانةٌ : بلدٌ مشهورةٌ بين (الرقةِ) و(هيت) ، وتنسبُ العربُ إليهِ الخمرَ .

(٣) اللصابُ : الشِّعبُ الصغيرُ في الجبلِ . أَضيقُ من اللِّهبِ وأَوسعُ من الشِّعبِ .

وقالَ بشَّارٌ [مِنَ البسيطِ] :

يَا أَطْيَبَ ٱلنَّاسِ رِيقاً غَيْرَ مُخْتَبَرٍ ... إِلاَّ شَهَادَةُ أَطْرَافِ ٱلْمَسَاوِيكِ

وقالَ ٱبنُ الروميُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَبَّلْتُ أَفْوَاهاً عِذَاباً كَأَنَّهَا ... يَنَابِيعُ خَمْرٍ حُصِّبَتْ لُؤْلُؤَ ٱلْبَحْرِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٩٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا سِرُّ عِيدَانِ ٱلأَرَاكِ بِرِيقِهَا ... تَنَاوُحُهَا فِيْ أَيْكِهَا تَتَهَصَّرُ[(١)]

لَئِنْ عَدِمَتْ سُقْيَا ٱلثَّرَىٰ إِنَّ رِيقَهَا ... لأَعْذَبُ مِنْ هَاتِيْكَ سُقْيَاً وَأَخْصَرُ

وَمَا ذُقْتُهُ إِلاَّ بِشَيْمِ ٱبْتِسَامِهَا ... وَكَمْ مَخْبَرٍ يُبْدِيهِ لِلْعَيْنِ مَنْظَرُ[(٢)]

بَدَا لِيْ وَمِيْضٌ شَاهِدٌ أَنَّ صَوْبَهُ ... غَرِيْضٌ وَمَا عِنْدِيْ سِوَىٰ ذَاكَ مُخْبِرُ[(٣)]

وقالَ المتوكِّلُ الليثيُّ [في « ديوانهِ » ٢٧٠ـ٢٧١ مِنَ الكاملِ] :

كَأَنَّ مُدَامَةَ صَهْبَاءَ صِرْفاً ... تُصَفَّقُ بَيْنَ رَاوُوقٍ وَدَنٍّ[(٤)]

تَعَلُّ بِهَا ثَنَايَا أُمِّ سَلْمَىٰ ... فِرَاسَةُ مُقْلَتِيْ وَصَحِيْحُ ظَنِّيْ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٠١ مِنَ الكاملِ] :

مَا أَسْأَرَتْ فِيْ ٱلْقَعْبِ مِنْ لَبَنٍ ... تَرَكَتْهُ وَهُوَ ٱلشَّهْدُ وَٱلْعَسَلُ[(٥)]

هٰذا بعضُ ما قيلَ في ٱستعذابِ الرِّيقِ ، وقدِ ٱمتزجَ علينا فيهِ

---

(١) الهصرُ : التكسُّرُ .

(٢) المخبَرُ : خلافُ المنظرِ .

(٣) الغريضُ : ماءُ المطرِ .

(٤) الرَّاوُوْقُ : المصفاةُ .

(٥) أسأرَت : أبقتْ ، والسؤر : ما يتركهُ الشاربُ لغيرهِ .

الكلامُ ، بينَ مَن تحدَّثَ عنْ ذوقٍ ، وبينَ مَن تحدَّثَ عَن شَيْمٍ صادقٍ ، ولا حرجَ ؛ إذِ الظنُّ المؤكَّدُ . . لهُ حكمُ اليقينِ ، حتَّىٰ في الأحكامِ الشرعيَّةِ ، أمَّا ما جاءَ في الشواهدِ مِن طيبِ النكهةِ . . فإنَّما هُوَ ضَميمةٌ إليهِ ؛ لأنَّ لَها بخصوصها ، وللطيبِ بعمومِهِ مواضعَ غيرُ هُنا ، ولنذكُر بعضَ ما قالَ فقهاؤُنا فيما يتَّصِلُ بالبحثِ : فنقولُ :

أقوال الفقهاء في الريق وحكمه

صرَّحوا بحرمةِ تناولِ البصاقِ[1] ، قالَ ٱبنُ حجرٍ في الأَطعمةِ : وهُوَ مَا يرمىٰ مِنَ الفمِ ، بخلافِ الريقِ ، وهُو : ما فيهِ ، فَلا يحرمُ ؛ لأنَّه غيرَ مستقذَرٍ ما دامَ فيهِ ، ومِن ثَمَّ : (كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يمصُّ لسانَ عائِشةَ)[2] .

وصحَّ في الحديثِ : « هَلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ ، مَالَكَ وَلُعَابُهَا »[3] ـ بضمِّ اللامِ ـ فالإغراءُ علىٰ ريقِها صريحٌ في حلِّ تناوُلِهِ ، ٱنتهىٰ .

وقالَ في الصِّيامِ : ولا يفطرُ ببلع ريقِهِ مِن معدنهِ ، فلوِ ٱبتلعَ ريقَ غيرِهِ . . أفطرَ جَزماً ، وما جاءَ : (أنَّه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم كانَ يمصُّ لِسانَ عائِشةَ وهُوَ صائِمٌ) واقِعةُ حالٍ فعليَّةٌ محتمِلَةٌ أنَّه يمصُّه ثمَّ

---

(١) كالنخامة لقذارتها ؛ لأن المحرمات من المطعومات ، يتناولها أحد أمور : إما لضررها ، أو قذارتها ، أو حرمتها ، أو نجاستها .

(٢) أورده عن عائشةَ رضي الله عنها الهنديُّ في « كنز العمال » (١٨٣٤٨) وعزاه إلى الترقفي في « جزئه » .

(٣) طرف حديث أخرجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٥١٠) ، والبخاري (٥٠٨٠) في النكاح ، ومسلم (١٤٦٦) م (٥٧) في الرضاع ، وأبو داوود (٢٠٤٨) ، والترمذي (١١٠٠) ، والنسائي (٣٢١٩) ، وابن ماجه (١٨٦٠) في النكاح .

يمجُّهُ ، أَو يمصُّهُ ولا ريقَ فيهِ ، ٱنتهىٰ .

ومنهُ تعرفُ قبحَ ما يتعاطاهُ المترسمونَ منَ النفثِ بالريقِ في الماءِ ؛ ليتبرَّكَ بهِ الناسُ ، وحقَّ ما صرَّحوا بهِ مِن حرمةِ إِعادةِ ماءِ المضمضَةِ إِلىٰ الخوابي ؛ لأَنَّه يقذِّرُها .

لا تعذليني يا أخيّة

وعذلَتْ[1] عائِشةُ أَخاً لَها في ٱشتغالِهِ بإِحدىٰ حَظَاياهُ[2] عَن باقي أَزواجِهِ ، فقالَ لَها : لا تعذُليني يا أُخيَّةُ ، فواللهِ لكأَنَّما أَترشَّفُ برُضابِها[3] حبَّ الرمَّانِ .

رقية النبي ﷺ

ولا ننسىٰ ما جاءَ في « الصحيحينِ » : أَنَّه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كانَ يقولُ في الرقيةِ : « بِسْمِ اللهِ تُربَةُ أَرْضِنَا ، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا ، يُشْفَىٰ سَقِيْمُنَا ، بِإِذْنِ رَبِّنَا »[4] ومعناهُ : أَنَّه يأخذُ من ريقِ نفسِهِ علىٰ إِصبعِهِ السبَّابَةِ ، ثمَّ يضعُها بالترابِ ، فيعلقُ بِها منهُ ما يعلقُ ، ثمَّ يمسحُ بهِ علىٰ موضعِ الوجعِ مِن المريضِ ، وقدِ ٱختلفَ في قولِهِ : (تربةُ أَرضِنا) هلِ المرادُ أَرضُ (المدينةِ) خاصةً ، أَو سائِرُ الأَرضِ ؟ والأَكثرُ علىٰ الثاني ، وفيهِ كلامٌ طويلٌ لا يليقُ بالموضوعِ ٱستقصاؤُهُ .

---

(١) عذل : لام وعتب .

(٢) إحدى حظاياهُ : أي إحدى نسائِهِ التي تحظى بمنزلةٍ أَسمىٰ مِن غيرها عند زوجها .

(٣) الرُّضابُ : الريقُ المرشوفُ . قال ابن الفارض :

عليكَ بِها صِرْفاً وإِنْ شِئْتَ مَزْجَها　　فعَدْلُكَ عَنْ ظَلْمِ الحبيب هو الظُّلْمُ

والظَّلْم : الريق .

(٤) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٧٤٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٤) في السلام ، وأبو داوود (٣٨٩٥) وغيرهم .

وفيهما أيضاً عَن عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها : أَنَّ النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (كَانَ يَنْفُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِيْ ٱلْمَرَضِ ٱلَّذِيْ مَاتَ فِيْهِ بِٱلْمُعَوِّذَاتِ ، فَلَمَّا ثَقُلَ . . كُنْتُ أَنْفُثُ عَنْهُ بِهِنَّ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ ؛ لِبَرَكَتِهَا)(١) .

كيفية النفث الوارد في الحديث

قالَ معمرٌ : فسألْتُ الزهريَّ ، كيفَ ينفثُ ؟ قالَ : كانَ ينفثُ علىٰ يديهِ ، ثمَّ يمسحُ بِهِما وجهَهُ .

وفي « الصحيح » عَن عائشَةَ قالَتْ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إذ أَوىٰ إلىٰ فراشِهِ نفثَ في كفَّيهِ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبالمعوِّذتينِ جميعاً ، ثمَّ يمسحُ بهما وجهَهُ ، وما بلغَتْ يداهُ مِن جسدهِ ، قالَتْ : فلمَّا ٱشتكىٰ . . كانَ يأمُرُني أَنْ أَفعلَ ذلكَ بهِ)(٢) .

ما هو النفث المراد بالحديث؟

وقدِ ٱختلفوا في النفثِ ، فقالَ بعضُهُم : إنَّه لا ريقَ فيهِ البتةَ ، وصوَّبَ الحافظُ ٱبنُ حَجَرٍ ، أَنَّ فيهِ ريقاً خفيفاً .

الحكمة الطبيَّة من النفث والريق

وقالَ البيضاويُّ كما نقلهُ عنهُ في « الفتح » [١٠/٢٠٨] : قد شهدَتِ المباحِثُ الطبيَّةُ علىٰ أَنَّ للريقِ مدخَلاً في النضْجِ ، وتعديلِ المِزاجِ(٣) ، وترابُ الوطنِ لَه تأْثيرٌ في حفظِ المزاجِ ، ودفعِ الضَررِ ،

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٦) في فضائل القرآن و(٥٧٣٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) (٥١) في السلام .

(٢) أخرجه عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٧) في فضائل القرآن و(٥٧٤٨) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) في السلام .

(٣) ولا سيما تراب (المدينة المنورة) لما جاء في فضل تربتها ، فمن ذلك ما رواه أبو نعيم في « الطب » عن ثابت بن قيس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « غبار المدينة شفاء من الجذام » كما في=

فقد ذَكَروا أَنَّهُ يَنْبَغي للمسافرِ أَنْ يستصحبَ ترابَ أَرضِهِ إِنْ عَجزَ عَنِ اَستصحاب مائِهَا ، إِذا وَرَدَ المياهَ المختلفةَ . . جَعلَ منْهُ شيئاً في سقائِهِ ؛ لِيَأْمَنَ مِن المضرَّةِ ، ثمَّ إِنَّ الرقىٰ والعزائمِ لَها آثارٌ عجيبةٌ ، تتقاعَدُ العقولُ عن الوصولِ إِلىٰ كنهِهَا ، اَنتهىٰ .

وَمَتَىٰ صَحَّ فِيْ ٱلْحَدِيْثِ بِأَنَّ ٱلـ ـــرِّيْـقَ لِلْمُـذْنِفِيْـنَ فِيْـهِ دَوَاءُ
فَرضَابُ ٱلْحَبِيْبِ أَوْلَىٰ بِصَبٍّ تَتَـرَامَـىٰ بِقَلْبِـهِ ٱلأَهْـوَاءُ[1]

* * *

= « كنز العمال » (٣٤٨٢٨) وفي الباب : عن أبي بكر ومحمد بن سالم مرسلاً عند ابن السني ، وأبو نعيم في « الطب » معاً كما في « كنز العمال » (٣٤٨٢٩) بلفظ : « غبار المدينة يبرىء الجذام » .

وعن الزبير بن بكار في « أخبار المدينة » عن إبراهيم بلاغاً كما في « كنز العمال » (٣٤٨٣٠) بلفظ : « غبار المدينة يطفىء الجذام » .

(١) البيتان من الخفيف .

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبّي في « العُكبَريّ »١/ ٣١٧ مِنَ الخفيفِ] :

هَـٰذِهِ مُهْجَتِـيْ لَـدَيْـكِ لِحَيْنِـيْ	فَانْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ

شرح المطلع

(المُهْجَةُ) : دمُ القلبِ ، ويرادُ بِها الروحُ ، و(الْحَيْنُ) : الموتُ ، يقولُ : هـٰذهِ روحِي بينَ يديكِ لِهلاكي ، فأنقصي إِنْ شئْتِ مِن عذابِها ، وَزيدي فيهِ . . إِنْ شئْتِ .

ملاحظات على البيت

وفيهِ أشياءُ :

مِنْها : أنَّ البيتَ بدونِ لفظَةِ (لِحَيْنِي) أَجْمَلُ مِنه معَ وجودِها ؛ إِذ لا فائدةَ مِنْها ، فهيَ بالحشوِ أشبهُ ، ما لم يدَّعِ مُدَّعٍ أَنَّ المعنىٰ : هـٰذه مهجتي لَديكِ لهلاكي بالعشقِ ، وفيهِ ما فيهِ .

ومِنْها : أَنَّ الأنسبَ بقولِهِ : (هـٰذِهِ مهجَتي لَديكِ) أَنْ يقولَ : فتقبَّليها بسلامٍ ، أَو ردِّيها بلا ملامٍ .

الاستسلام للحبيب الأعظم

وما أَجملَ قولَهُ صلّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في دعائِهِ عندَ المنامِ : « اللَّهُمَّ إِنْ أَمسَكْتَ نفسِيْ . . فَارْحَمْهَا ، وإِنْ أَرْسَلْتَهَا . . فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِيْنَ »[1] .

الاستسلام للمحبوب سجية الكرام

وما زالَ الاستسلامُ لِلمحبوبِ سجيَّةَ الكرامِ ، ويدخلُ فيهِ كُلُّ ما سبقَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٩٨ مِنَ المنسرحِ] :

يَـا عَـاذِلَ الْعَـاشِقِيْـنَ دَعْ فِئَـةً أَضَلَّهَـا اللهُ كَيْـفَ تُـرْشِـدُهَـا

---

(١) أخرجه عن أبي هريرةَ رضي الله عنه البخاريُّ (٦٣٢٠) في الدعوات ، ومسلم (٢٧١٤) .

وما ٱستطرَدنا إليهِ قبيلَ المجلسِ السابعِ ، وفي شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

إلاَّ يَشِبُّ فَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ ... شَيْباً إِذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلاَ[١]

إعجاب المؤلف بأبيات لأبي النواس

ويعجبُني قولُ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ١٤٠ مِنَ البسيطِ] :

ظَبْـيٌ كَـأَنَّ ٱلثُّـرَيَّـا دُوْنَ مَفْـرِقِـهِ ... وَٱلْمُشْتَرِيْ وَضِيَاءَ ٱلشَّمْسِ وَٱلسُّرُجَا

مُحَكَّمُ ٱلطَّرْفِ يُدْمِيْ لَحْظُ نَاظِرِهِ ... إِذَا ٱنْتَضَاهُ لِفَتْكٍ قَالَ : لاَ حَرَجَا

لاَ فَرَّجَ ٱللهُ عَنِّيْ إِنْ مَدَدْتُ يَدِيْ ... إِلَيْـهِ أَسْـأَلُـهُ مِـنْ حُبِّـهِ فَـرَجَـا

وموضعُ الإعجابِ : الأَخيرُ علىٰ ما فيهِ من مخالفَةِ الهدي النبويِّ ، كما سيأْتي ، وكَما في قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّم : « لاَ تَتَمَنَّوْا لِقاءَ ٱلْعَدُوِّ ، وَسَلُوْا ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ »[٢] .

أَمَّا الأَوَّلُ . . ففيهِ ما فيهِ ، ولَو لَم يَكنْ إلاَّ ذكرهُ السرجَ بعدَ ضياءِ الشمسِ .

أعاصير الحب وبراكينه وامتحاناته

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَنَّتْ سُلَيْمَىٰ أَنْ أَمُوْتَ صَبَابَةً ... وَأَهْوَنُ شَيْءٍ عِنْدَنَا مَا تَمَنَّتِ

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ١٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ سَأَلَتْ مِنِّيْ حَيَاتِيْ بَذَلْتُهَا ... وَجُدْتُ بِهَا إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِيْ

---

(١) النصولُ : ذهابُ الخضابِ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٩٦٦) في الجهاد ، ومسلم (١٧٤٢) .

وقالَتْ بثينةُ [كما في «مصارع العشاق» ٢/ ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيْلُ بْنُ مَعْمَرٍ إذا مِتَّ بَأْسَاءُ ٱلْحَيَاةِ وَلِيْنُهَا

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [مِنَ الطَّويلِ] :

نُسِبْتُ إِلَىٰ ذَنْبٍ وَلَمْ أَكُ مُذْنِباً وَحَمَّلْتِنِي فِيْ ٱلْحُبِّ مَا لاَ أُطِيْقُهُ
وَمَا طَلَبِيْ لِلْوَصْلِ حِرْصاً عَلَىٰ ٱلْبَقَا وَلَٰكِنَّهُ أَجْرٌ إِلَيْكِ أَسُوْقُهُ

وقالَتْ عُلَيَّةُ بنتُ المهديِّ [في «ديوانها» ٧٢-٧٣ مِنَ الرملِ] :

جُبِلَ ٱلْحُبُّ عَلَىٰ ٱلْجَوْرِ فَلَوْ أُنْصِفَ ٱلْمَحْبُوْبُ فِيْهِ لَسَمُجْ[1]
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فِيْ شَرْعِ ٱلْهَوَىٰ عَاشِقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيْفَ ٱلْحُجَجْ

وقالَتْ هِيَ أَيضاً ، أَوِ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ ، فقد ٱختلفَتِ الروايةُ [كما في «ديوانِ» العبَّاسِ بنِ الأحنفِ ٦٢-٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحْسَنُ أَيَّامِ ٱلْهَوَىٰ يَوْمُكَ ٱلَّذِيْ تُرَوَّعُ بِٱلْهِجْرَانِ فِيْهِ وَبِٱلْعَتْبِ
إذا لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلْحُبِّ سُخْطٌ وَلاَ رِضَا فَأَيْنَ حَلاَوَاتُ ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْكُتْبِ ؟

وقالَ جميلٌ [في «ديوانه» ١١٩ مِنَ البسيطِ] :

لاَ خَيْرَ فِيْ ٱلْحُبِّ وَقْفاً لاَ تُحَرِّكُهُ عَوَارِضُ ٱلْيَأْسِ أَوْ يَرْتَاحُهُ ٱلطَّمَعُ
لَوْ كَانَ لِيْ صَبْرُهَا أَوْ عِنْدَهَا جَزَعِيْ لَكُنْتُ أَمْلِكُ مَا آتِيَ وَمَا أَدَعُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

رَاحَتِيْ فِيْ مَقَالَةِ ٱلْعُذَّالِ وَشِفَائِيْ فِيْ قَوْلِهِمْ : لاَ يُبَالِيْ
لاَ يَطِيْبُ ٱلْهَوَىٰ وَلاَ يَحْسُنُ ٱلْحُـ ـبُّ لِصَبٍّ إِلاَّ بِخَمْسِ خِصَالِ

---

(١) سَمُجَ : قَبُحَ .

بسَمَاعِ ٱلأَذَىٰ وَعَذْلِ نَصِيحِ   وَعِتَابِ وَكَاشِحِ وَمِطَالِ[1]

وقالَ ٱبنُ النبيهِ [في « ديوانه » ١٤٩ مِنَ الكامل] :

مَنْ لَمْ يَذُقْ ظُلْمَ ٱلْحَبِيْبِ كَظَلْمِهِ   حُلْواً. فَقَدْ جَهِلَ ٱلْمَحَبَّةَ وٱدَّعَىٰ[2]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

زِيْدِيْ أَذَىٰ مُهْجَتِيْ أَزِدْكِ هَوىً   فَأَجْهَلُ ٱلنَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدْ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَحْلَىٰ ٱلْهَوَىٰ مَا شَكَّ فِيْ ٱلْوَصْلِ رَبُّهُ   وَفِيْ ٱلْهَجْرِ فَهْوَ ٱلدَّهْرَ يَخْشَىٰ وَيَتَّقِيْ[3]

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

شَرْطُ ٱلْمَحَبَّةِ عِنْدَ أَرْبَابِ ٱلْهَوَىٰ   أَنَّ ٱلْمَلِيْحَ عَلَىٰ ٱلتَّجَنِّيْ يُعْشَقُ

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٥٦ مِنَ الخفيفِ] :

وَبِمَا شِئْتَ فِيْ هَوَاكَ ٱخْتَبِرْنِيْ   فَٱخْتِيَارِيْ مَا كَانَ فِيْهِ رِضَاكَا

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وإِنْ هُدِّدُوا بِٱلْهَجْرِ مَاتُوا مَخَافَةً   وَإِنْ أُوْعِدُوْا بِٱلْقَتْلِ حَنُّوا إِلَىٰ ٱلْقَتْلِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَهَا أَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكَ وَمَا بِهِ   رِضَاكَ وَلاَ أَخْتَارُ تأْخِيرَ مُدَّتِيْ

---

(١) الكاشحُ : الذي يضمِرُ لكَ الأذىٰ . المِطالُ : التسويفُ والمدافعةُ بالعِدَةِ .
(٢) الظَّلْمُ : الريقُ .
(٣) في « العكبري » : (يَرْجُوْ) بدل (يَخْشَىٰ) .

وقالَ بعضُ الأعراب [مِنَ الطَّويلِ] :

شَكَوْتُ فقَالَتْ: كُلُّ هَـٰذَا تَبَرُّماً ... بِحُبِّيْ. . أَرَاحَ ٱللهُ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّيْ

وَلَمَّا كَتَمْتُ ٱلْحُبَّ قَالَتْ: لَشَدَّ مَا ... صَبَرْتَ وَمَا هَـٰذَا بِفِعْلِ شَجٍ صَبِّ

وَأَدْنُـوْا فَتُقْصِيْنِـيْ فَـأَبْعُـدُ طَـالِبـاً ... رِضَـاهَـا فَتَعْتَـدُّ ٱلتَّبَاعُـدَ مِـنْ ذَنْبِـيْ

فَشَكْوَايَ تُؤْذِيْهَا وَصَبْرِيْ يَسُوْؤُهَا ... وَتَغْضَبُ مِنْ بُعْدِيْ وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِيْ

وقالَ ٱبنُ الدُّمَينةِ [في « ديوانه » ١٣ـ١٥ـ١٦ـ١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفِيْ قَبْلَ وَشْكِ ٱلْبَيْنِ يَا ٱبْنَةَ مَالِكِ ... وَلاَ تَحْـرِمِيْنَـا نَظْـرَةً مِـنْ جَمَـالِـكِ

قِفِيْ يَـا أُمَيْـمَ ٱلقَلْـبِ نَقْـضِ لُبَـانَـةً ... وَنَشْكُوْا ٱلْهَوَىٰ ثُمَّ ٱفْعَلِيْ مَا بَدَا لَكِ

تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَىٰ وَمَا بِكِ عِلَّةٌ ... تُـرِيْـدِيْـنَ قَتْلِـيْ قَـدْ ظَفِـرْتِ بِـذَلِـكِ

وَقَـوْلُـكِ لِلْعُـوَّادِ : كَيْـفَ تَـرَوْنَـهُ ؟ ... فَقَالُوْا : قَتِيْلاً قُلْتِ : أَيْسَرُ هَالِكِ

لَئِـنْ سَـاءَنِـيْ أَنْ نِلْتِنِـيْ بِمَسَـاءَةٍ ... فَقَـدْ سَـرَّنِـيْ أَنِّـيْ خَطَـرْتُ بِبَـالِـكِ

لِيَهْنِكِ إِمْسَاكِيْ بِكَفِّيْ عَلَىٰ ٱلْحَشَا ... وَرَقْـرَاقُ دَمْعِـيْ رَهْبَـةً مِـنْ مِطَـالِـكِ

فَلَوْ قُلْتِ : طَأْ فِيْ ٱلنَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ ... رِضاً لَكِ أَوْ مُدْنٍ لَنَا مِنْ وِصَالِكِ

لَقَدَّمْـتُ رِجْلِـيْ نَحْـوَهَـا فَـوَطِئْتُهَـا ... هُدَىً مِنْكِ لِيْ أَو ضَلَّةً مِنْ ضَلاَلِكِ

أَبِيْنِيْ أَفِيْ يُمْنَىٰ يَدَيْكِ جَعَلْتِنِيْ ... فَأَفْرَحَ أَمْ صَيَّرْتِنِيْ فِيْ شِمَالِكِ

وقالَ بكرُ بنُ النطَّاحِ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنَ ٱلْمُنَىٰ ... لِتَرْضَىٰ، فَقَالَتْ: قُمْ فَجِئْنِيْ بِكَوْكَبِ

فَقُلْتُ لَهَا : مَاذَا ٱلتَّعَنُّتُ كُلُّهُ ؟ ... فَلاَ تَذْهَبِيْ يَا هِنْدُ بِيْ كُلَّ مَذْهَبِ

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَمَّلْ عَظِيْمَ ٱلذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ ... وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوْماً فَقُلْ : أَنَا ظَالِمُ

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ ٱلذَّنْبَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ: لَيْلَىٰ عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا ... أَلاَ حَبَّذَا ذَاكَ ٱلْحَبِيْبُ ٱلْمُعَذِّبُ

وممَّا ينسبُ إِلىٰ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسَاءَ فَزَادَتْهُ ٱلإِسَاءَةُ حُظْوَةً ... حَبِيْبٌ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ حَبِيْبُ

يَعُدُّ لِيَ ٱلْوَاشُوْنَ فِيْهِ ذُنُوْبَهُ ... وَمِنْ أَيْنَ لِلْوَجْهِ ٱلْمَلِيْحِ ذُنُوْبُ ؟!

وقالَ الطُّغرَّائِيُّ [في « ديوانهِ » ٣٠٥ مِنَ البسيطِ] :

لاَ أَكْرَهُ ٱلطَّعْنَةَ ٱلنَّجْلاَءَ قَدْ شُفِعَتْ ... بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبَالِ ٱلأَعْيُنِ ٱلنُّجُلِ

وصدقَ في ذلكَ ؛ إِذ برهنَ بفعالِهِ علىٰ صحَّةِ ما ٱدَّعىٰ في مقالِهِ .

الطغرائي يهوى غلاماً فيقتله ذلك الغلام

وذلكَ : أَنَّهُ أَحَبَّ مملوكاً لِمُؤَيَّدِ الدينِ ، كانَ يهواهُ أَيضاً ، فحينَ بلغَهُ . . نقمَ علىٰ الطُّغرَّائيِّ ، فأَرادَ قتلَهُ ، وتحيَّنَ لهُ الفرصَ ، وتطلَّب لهُ العثراتِ ؛ كراهيةَ أَنْ يشتهرَ خبرُ الغلامِ ، فلم يجدْ حيلةً في غيرِ ٱتِّهامِهِ بالإِلحادِ ، فشدَّهُ إِلىٰ شجرَةٍ ، وأَمرَ بتفويقِ السهامِ إِليهِ ، وكان الغلامُ مِمَّنْ حضَرَ فيهِم ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٩ـ٢٥٠ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ أَقُوْلُ لِمَنْ يُسَدِّدُ سَهْمَهُ ... نَحْوِيْ وَأَطْرَافُ ٱلْمَنِيَّةِ شُرَّعُ

وَٱلْمَوْتُ فِيْ لَحَظَاتِ أَحْوَرَ طَرْفُهُ ... دُوْنِيْ وَقَلْبِيْ دُوْنَهُ يَتَقَطَّعُ

بِٱللهِ فَتِّشْ فِيْ فُؤَادِيْ هَلْ يُرَىٰ ... فِيْهِ لِغَيْرِ هَوَىٰ ٱلأَحِبَّةِ مَوْضِعُ ؟

أَهْوِنْ بِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْ طَيِّهِ ... عَهْدُ ٱلْحَبِيْبِ وَسِرُّهُ ٱلْمُسْتَوْدَعُ

وفيهِ يقولُ قبلَ ذلكَ [في « ديوانهِ » ١٤١ مِنَ الكاملِ] :

إنِّي لأَذْكُرُكُمْ وَقَدْ بَلَغَ ٱلظَّمَا ... مِنِّيْ فَأَشْرَقُ بِٱلزُّلَالِ ٱلْبَارِدِ[1]

وأَقُوْلُ : لَيْتَ أَحِبَّتِيْ عَايَنْتُهُمْ ... قَبْلَ ٱلْمَمَاتِ وَلَوْ بِيَوْمٍ وَاحِدِ

وقد أَلَمَّ في الأَوَّلِ ، بما مضىٰ في غيرِ هٰذا المجلس مِنْ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا شَرَقِيْ بِٱلْمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً ... لِمَـاءٍ بِـهِ أَهْـلُ ٱلْحَبِيْـبِ نُـزُوْلُ

وقالَ آخَرُ [مِنَ البسيطِ] :

لَقَدْ صَبَرْتُ عَلَىٰ ٱلْمَكْرُوْهِ أَسْمَعُهُ ... مِنْ مَعْشَرٍ فِيْكَ لَوْلاَ أَنْتَ مَا نَطَقُوْا

وَفِيْكَ دَارَيْتُ قَوْماً لاَ خَلاَقَ لَهُمْ ... لَوْلاَكَ مَا كُنْتُ أَدْرِيْ أَنَّهُمْ خُلِقُوْا

الصدق في الرضا عند الصوفية

وللسَّادَةِ الصوفيَّةِ الكثيرُ الطَّيِّبُ مِن مثلِ ذلكَ ، حتَّىٰ لقد زعمَ بعضُهم ـ كما ذكرهُ القشيريُّ في « الرسالةِ » [١٥٢] ـ : أَنْ بلغَ بهِ صدقُ الرِّضا ، إلىٰ حدٍّ أَنَّه ٱستوىٰ لديهِ الأَمرُ بدخولِ الجنَّةِ والنارِ ؛ لأَنَّ كلَّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبٌ .

وقدِ ٱستعظَمَها بعضُهُم ، فقالَ ٱبنُ تيميَّةَ : وهلْ قالَ ذاكَ وهُوَ يساقُ إِلىٰ جهنَّمَ ؟! كلاَّ ، وإنَّما هِيَ عزيمةٌ قَوِيَتْ في حالةٍ شريفةٍ ، سرعانَ ما تنفسخُ في حالِ الضيقِ .

فليتـك تحلـو والحيـاة مريرة

وقالَ أَبو فراسٍ [في « ديوانهِ » ٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

فلَيْتَـكَ تَحْلُـوْ وَٱلْحَيَـاةُ مَـرِيْـرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَٱلأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ ٱلَّذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱلْعَالَمِيْنَ خَرَابُ

---

(١) الشَّرَقُ : الاختناقُ بالماءِ أو الريقِ أو بالنفسِ .

ولقد أَوفىٰ علىٰ الإجادةِ ، غيرَ أَنَّه أَساءَ الأَدبَ ؛ إِذ لا يليقُ هـٰذا إِلاَّ بخطابِ الباري عزَّ وجلَّ ، ومِن ثمَّ ٱستعملَها في مناجاتِهِ جلَّةٌ من العلماءِ ، منهُم سلطان الدينِ ٱبنُ عبدِ السلامِ . . لمّا ٱشتدَّ الأَمرُ بينَهُ وبينَ الجراكِسَةِ[1] .

ودخلْتُ مرَّةً علىٰ شيخِنا أَبي بكرِ بنِ شهابٍ في منزلِهِ الخاصِّ بهِ ، فإِذا هُوَ يناجِي ربَّهُ بهـٰذينِ البيتينِ ، وكانَ ذلكَ بعدَ صلاةِ المغربِ .

وبعضُهُم يزيدُ فيها بيتاً لَيسَ مِنْها ، وإِنَّما هُوَ للنَّاظمِ فيما أَعرفُ ، وهُوَ هـٰذا [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ ٱلْوُدَّ فَٱلْمَالُ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ ٱلَّذِيْ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ تُرَابُ

ثمَّ إِنَّ هـٰذا البيتَ . . لا يشبهُ بظاهرِهِ ما عُرِفَ مِن جَشَعِ النَّاظمِ ، وشدَّةِ حرصِهِ ، وهوَ ٱلقائِلُ في ٱلقصيدةِ الَّتي بينَ أَيدينا [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٠ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَيْنَ فَضْلِيْ إِذَا قَنِعْتُ مِن ٱلدَّهْـ ... ـرِ بِعَيْـشٍ مُعَجَّـلِ ٱلتَّنْكِيْـدِ

ضَاقَ صَدْرِيْ وَطَالَ فِي طَلَبِ ٱلرِّزْ ... قِ قِيَـامِـيْ وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـوْدِيْ

أَبَـدَاً أَقْطَـعُ ٱلْبِـلاَدَ وَنَجْمِـيْ ... فِيْ نُحُوْسٍ وَهِمَّتِيْ فِيْ سُعُوْدِ

فَلَعَلِّـيْ مُـؤَمِّـلٌ بَعْـضَ مَـا أَبْـ ... ـلُغُ بِٱللُّطْفِ مِنْ عَزِيْزٍ حَمِيْدِ

---

(١) الجراكِسةُ : اسمٌ أطلقَه العربُ على سكانِ إقليمِ القوقازِ المعروفينَ باسمِ : ديغة ، وهم من البطونِ التركيةِ وكان لطبيعةِ البلادِ القوقازيةِ أثر كبير في تاريخهم السياسي والاجتماعي ، بدأ دخولهم في الإسلامِ في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . وفي بعض المصادر : شراكس .

طلب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام السجن

وذكرَ القرطبيُّ [في «تفسيره» ٩/١٦١] : أَنَّ يوسُفَ عليهِ السلامُ لمَّا قالَ : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] أَوحىٰ اللهُ إليهِ : يا يوسفُ أَنتَ جنيتَ علىٰ نفسِكَ ، ولَو قلتَ : ربِّ العافيةُ أَحبُّ إِليَّ . . لَعوفيتَ ؛ ولذلكَ رَدَّ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم علىٰ مَن كانَ يسأَلُ الصَّبر ، فقد أَخرجَ التِّرمذيُّ [في «سننِهِ» (٣٥٢٤)] : عن معاذِ بنِ جبلٍ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، أَنَّه سمعَ رجلاً يقولُ : اللَّهمَّ ، إِنِّي أَسأَلُكَ الصَّبْرَ ، فَقَالَ لَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « سَأَلْتَ اللهَ تَعَالىٰ الْبَلاَءَ ، فَسَلْهُ الْعَافِيَةَ » .

طلب سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام للبلاء

وأَخرجَ الحاكمُ وصحَّحَه [كما في «المستدرك» ٢/٦٤١] : وأَقرَّهُ الذهبيُّ « أَنَّ أَيُّوْبَ قالَ : يا ربِّ ، إِنَّ الخيرَ كلَّهُ قد ذهبَ بهِ آبائي الذينَ كانوا من قَبْلِي ، فأَعْطِنِي مِثْلَ ما أَعطيتَهُم ، وافعل بي مثلَ ما فعلتَ بهِم ، فأَوحىٰ اللهُ إِليهِ : إِنَّ آباءَكَ ابتُلوا ببلايا لَم تُبتَلَ بِها أَنتَ ، ابْتُلِيَ إِبراهيمُ بذبحِ ابنهِ ، وابْتُلِيَ إِسحاقُ بذهابِ بصرِهِ ، وابْتُلِيَ يعقوبُ بحزنِهِ علىٰ يوسفَ ، وإِنَّكَ لم تُبْتَلَ بِشَيءٍ من ذلكَ ، قالَ : يا ربِّ ابتَلِني بمثلِ ما ابتليتَهم بهِ ، وأَعطني مثلَ ما أَعطيتَهم ، قالَ : فأَوحىٰ اللهُ إِليهِ ، إِنَّكَ مبتلىً ، فاحترسْ . . . » وذكرَ حديثاً طويلاً .

مدة ابتلائه

وفي آخَرَ : أَنَّ مدَّةَ ابتلائِهِ كانَتْ خمسةَ عشرَ سنةً ، أَوْ ثمانيةَ عشرَ سنةً .

حوار بين فرعون وامرأته

وأَخرجَ الحاكمُ ـ أَيضاً ـ وصحَّحَهُ [كما في «المستدرك» ٢/٦٢٨] ، ولم يوافقْهُ الذهبيُّ علىٰ تصحيحِهِ ، قصَّةً طويلةً : يذكرُ فيها أَنَّ امرأَةَ فرعونَ لمَّا قالَتْ لَهُ : عَسىٰ أَنْ ينفعَنا ، قالَ لَها : عَسىٰ أَنْ يَنفعَكِ

أَنتِ ، فأَمَّا أنَا . . فلا أُريدُ نفعَهُ ، قالَ وهْبٌ : قالَ ٱبنُ عبَّاسٍ : لو أَنَّ عدوَّ اللهِ قالَ في موسىٰ : كما قالَتِ ٱمرأَتُه : عسىٰ أَنْ ينفعَنا . . لنفعَهُ اللهُ بهِ ، ولٰكنَّهُ أَبىٰ ؛ للشقاءِ الذي كتبَ اللهُ عليهِ .

دعاء سيدنا أبي بن كعب على نفسه

وصَحَّ أَنَّ أُبَيَّ بنَ كعبٍ دَعا علىٰ نفسِهِ أَنْ لا يفارِقَهُ الوعَكُ ، حتَّىٰ يموتَ ، بعدَ أَنْ لا يشغَلَهُ عَن حجٍّ ، ولا جهادٍ في سبيلِ اللهِ ، ولا صلاةٍ مكتوبةٍ في جماعَةٍ ، فما مسَّ رجلٌ جلدَهُ بعدَها . . إلا وَجدَ حرَّهُ ، حتَّىٰ ماتَ ، وذلكَ لمَّا سمعَ مِن رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **إنَّ الأَمْرَاضَ كفَّارَاتٌ ، وإنْ قَلَّتْ ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا** »[1] .

هدي النبي محمد ﷺ

ولٰكنَّ هديَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . غيرُ ذلكَ ، فقدْ صحَّ عنهُ : « **لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ ٱلْعَدُوِّ ، وَسَلُوْا ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ** »[2] . وصحَّ أَنَّهُ قالَ لعمِّهِ : « **أَكْثِرِ ٱلدُّعَاءَ بِٱلْعَافِيَةِ** »[3] .

وإِنَّ أَبا بكرٍ أَرادَ أَنْ يخطُبَ . . فخنقَتْهُ العبرَةُ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، علىٰ هٰذا المنبرِ يقولُ عامَ

---

(١) أخرجه عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه النسائيُّ في « الكبرى » (٧٤٨٩) في الطب ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٨/٤) وصححه ، وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٢٨) بإسناد صحيح بلفظ : أن رجلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ، أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ماذا لنا منها ؟ فقال : « كفارات » ، فقال : أي رسول الله . . وإن قلَّت ؟ قال : « وإن شوكة فما فوقها » قال ابن حبان : والذي دعا على نفسه هو أُبَي بنُ كعب .

(٢) مرَّ تخريجه .

(٣) أي العباس ، أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥٠٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٧١١/١) ، قال الترمذي : حسن صحيح .

أوَّلَ : « سَلُوْا ٱللهَ ٱلعفوَ وٱلعَافِيَةَ ، وٱليَقِيْنَ فِيْ ٱلأُوْلَىٰ وَٱلآخِرَةِ ، فإِنَّهُ مَا أُوْتِيَ ٱلعَبْدُ بَعْدَ ٱلْيَقِيْنِ خَيْراً مِنَ ٱلْعَافِيَةِ »[1] .

حسن العشرة مع الأهل من هدي النبي ﷺ وشدة احتماله لأزواجه

ويتَّصلُ بموضوعِ البيتِ الذي نحنُ بطريقهِ حسنُ العشرةِ معَ الأَهلِ ، وقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « خَيْرُكُم خَيْرُكُمْ لأَهلِهِ وأَنَا خَيْرُكُم لأَهْلِيْ »[2] .

وفي « الصحيحِ » : فواللهِ إِنَّ أَزاوجَ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . ليراجعنَهُ ، وإِنَّ إِحداهُنَّ لتهجُرُهُ اليومَ إِلىٰ الليلِ[3] ، وهٰذا كافٍ في ٱحتمالِهِ عليهِ السلامُ لتجنِّيْ أَزواجِهِ ، وهو ما نتحدَّثُ فيهِ .

ومنهُ : أَنَّه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خرجَ ذاتَ ليلةٍ من عندِ ميمونَةَ ، فأَغلقَتْ دونَهُ البابَ ، فجاءَ يستفتحُ فأَبَتْ أَنْ تفتحَ لهُ ، حتَّىٰ أَقسمَ عَليها ، فقالَتْ : لِمَ تذهَبُ إِلىٰ بعضِ أَزواجِكَ في لَيلَتي ؟ فقالَ : « مَا فَعَلْتُ ، وَلَـٰكِنِّيْ وَجَدْتُ حُقْناً مِنْ بَوْلٍ »[4] .

ومنهُ : أَنَّه لمَّا نزلَتْ براءَةُ عائِشَةَ . . قالَتْ لَها أُمُّها : قومي إِليهِ ، قالَتْ : واللهِ لا أَقومُ إِليهِ ، وَلا أَحمدُ إِلاَّ اللهَ[5] .

---

(١) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (١/ ١٥٧) .

(٢) أخرجه عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ابنُ حبان في « الإحسان » (٤١٨٦) بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه عن ابن عباسٍ البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٤٧٩) (٣٤) في الطلاق ، والترمذي (٣٣١٥) ، والنسائي (٤/ ١٣٧) .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٤) .

(٥) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٢٦٦١) من حديث الإفك في الشهادات وغيره .

ومنهُ : ما ذكرَ غيرُ واحدٍ ، أنَّه لما أُتِيَ بالجونيَّةِ[1] . . دخلَتْ عَليها عائِشَةُ وحفصَةُ أَوَّلَ ما قدمَتْ ، فمشطَتَاها وخَضبَتَاها ، وقالَتْ لَها إِحداهُما : إِنَّ النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يعجبُهُ من المرأَةِ إِذا دخلَ عَليها أَنْ تقولَ : أَعوذُ باللهِ مِنكَ ، وذُكرَ ذلكَ لِرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : فتحمَّلَهُ ولَم يَزِدْ علىٰ قولِهِ : « **إِنَّهُنَّ صَوَاحِبُ يُوْسُفَ ، وَكَيْدُهُنَّ** »[2] .

وإِلاَّ . . فَما أَعظمَها من جنايةٍ ، لَو لَم تُحِطْ بِها العنايةُ ، قد حَرمْنَ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ زوجَهُ ، وأَعدنَهُ علىٰ أَدراجِهِ ، وكانَ جاءَ ماشياً علىٰ قدميهِ ، فأَحبطْنَ مسعاهُ ، وأَكبرُ مِن ذلكَ الكذبُ عليهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وحِرمانُ الجونيَّةِ مِن سعادةِ الدنيا والآخرةِ في قربِهِ ، والاتِّصالِ بهِ ، فأَيُّ قلبٍ يَتحمَّل هٰذهِ المشقَّاتِ العُظْمَىٰ ؟ لَولا أَخذُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بمجامعِ الفضائِلِ ، وحلولُ الصدِّيقَةِ رضوانُ اللهِ عَليها بالمحلِّ الأَقصىٰ من محبَّتِهِ ، فالأَمرُ كما قيلَ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِيْ   فَتَفْعَلُـهُ فَيَحْسُـنُ مِنْـكَ ذَاكَـا

تمنع ودلال عائشة بنت طلحة على ابن الزبير

وبلغَ من تمنُّعِ عائِشةَ بنتِ طلحةَ علىٰ مصعبِ بنِ الزبيرِ . . أَنَّه وجدَها نائِمةً ضحوةً ، فأَنبهَها بعقدٍ رَماها بهِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ ، ٱشتراهُ

---

(١) واسمها : أميمة بنت النعمان بن شراحيل ، وقيل : فاطمة بنت الضحاك كما في « المعارف » لابن قتيبة (ص/ ١٤٠) وغيره .

(٢) طرف حديث ورد عنه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عند وفاته كما في البخاري (٣٣٨٤) في الأنبياء ، والترمذي (٣٦٧٣) في المناقب ، وابن ماجه (١٢٣٢) في إقامة الصلاة .

بعشرينَ أَلفِ دينارٍ ، فقالَتْ لهُ : لَقد كانَتْ نومَتي أَحبَّ إِليَّ مِن هٰذا .

المعلم الجاهل

وقالَ بعضُهم [مِنَ الطَّويلِ] :

وعَلَّمْتَنِـيْ كَيْـفَ ٱلْهَـوَىٰ وَجَهِلْتَـهُ ... وَعَلَّمَكُمْ صَبْرِيْ عَلَىٰ ظُلْمِكُمْ ظُلْمِيْ

وأَعْلَـمُ مَـا لِـيْ عِنْـدَكُـمْ فَيَـرُدُّنِـيْ ... هَوَايَ إِلىٰ جَهْلِيْ فَأَرْجِعَ عَنْ عِلْمِيْ

وهو معنىً عجيبٌ ، وأُسلوبٌ مليحٌ غريبٌ .

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [مِنَ البسيطِ] :

كَمْ قَدْ تَجرَّعْتُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ ... إِذا تَجَـدَّدَ حُـزْنٌ هَـوَّنَ ٱلْمَـاضِـيْ

وَكَمْ سَخِطْتُ وَمَا بَالَيْتُمُ سَخَطِيْ ... حَتَّىٰ رَجَعْتُ بِقَلْبٍ سَاخِطٍ رَاضِيْ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلدِّمَاءِ حَرَامٌ	شُرْبُهُ مَا خَلاَ دَمَ ٱلْعُنْقُوْدِ

شرح المطلع

المرادُ مِنْ (دَمِ العُنْقُوْدِ) : الخمرُ ، وحقيقتُها : المسكرُ مِن عصيرِ العنبِ ، وإِن لَم يقذفْ بالزَّبَدِ .

ملاحظات على المطلع

وفي البيتِ أشياءُ :

١ـ حكم الخمر

أَحدُها : إِنَّ الخمرَ حرامٌ بالإِجماعِ ، إِلاَّ أَنْ يرادَ بِها المطبوخَ ، فقد رويَ عن ٱبنِ الخطَّابِ أَنَّه كتبَ إِلىٰ عبدِ اللهِ بنِ يزيدَ الحطميِّ :

أَمَّا بعدُ : فاْطبُخُوا شرابَكم حتَّىٰ يذهبَ مِنْهُ نصيبُ الشيطانِ .

ورويَ : أَنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، كتبَ لبعضِ عمَّالِهِ : أَنْ لا تشرَبوا الطلاءَ حتَّىٰ يذهبَ ثلثاهُ ، ويبقىٰ ثلثُهُ ، وكُلُّ مسكرٍ حرامٌ .

وقدْ علمتَ أَنَّ ما لا يُسْكرُ من ماءِ العناقيدِ لطبخٍ أَو غيرِهِ ، لا يسمَّىٰ خمراً ؛ إِذ لا ينطبقُ عليهِ الحدُّ السابقُ ، وفي « الصحيحينِ » : « كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ . . فَهُوَ حَرَامٌ »[١] . وصحَّ خبرُ « أَنْهَاكُمْ عَنْ قَلِيْلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيْرُهُ »[٢] ، وخبرُ : « ما أَسْكَرَ كَثِيْرُهُ . .

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٥٨٥) ، ومسلم (٢٠٠١) في الأشربة .

(٢) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٣/ ١٨٣) ، ونحوه عن عائشة : « ما أسكر منه الفَرَق فملء الكف منه حرام » رواه أحمد (٦/ ٧٢) ، وأبو داوود (٣٦٨٧) ، والترمذي (١٨٦٧) وحسنه .

قَلِيْلُهُ حَرَامٌ »[1] ، لكنْ لا يكفرُ مستحلُّ المسكرِ مِن عصيرِ غيرِ العنبِ ؛ للخلافِ فيهِ ، أَيْ : مِن حيثُ الجنسُ ؛ لحلِّ قليلهِ على قولِ جماعةٍ .

أَمَّا المسكرُ بالفعلِ : فإنَّه حرامٌ إجماعاً ، كما حكاهُ الحنفيَّةُ فضلاً عن غيرِهِم ، وهـٰذا كلُّه بمعناهُ مِن « التحفةِ » للهيتميِّ .

ولقد ظرفَ أَبو نُوَاسٍ أَو ٱبنُ الروميِّ ـ قاتلَهُ اللهُ ـ في قولِهِ [من الطويل] :

من حكم الخمر عند أبي نواس

أَحَـلَّ ٱلْعِـرَاقِـيُّ ٱلنَّبِيْـذَ وَشُـرْبَـهُ وَقَالَ : ٱلحَرَامَانِ ٱلْمُدَامَةُ وَٱلسُّكْرُ
وَقَالَ ٱلْحِجَازِيُّ: ٱلشَّرَابَانِ وَاحِدٌ فَحَلَّتْ لَنَا بَيْنَ ٱخْتِلاَفِهِمَا ٱلْخَمْرُ
سَآخُذُ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا وَأَشْرَبُهَا حِلاًّ وَلِلْوَازِرِ ٱلوِزْرُ

أَرادَ : أَنَّه سيأْخُذُ مِنْ قولِ أَبي حنيفةَ ، قولَهُ : النبيذُ حلالٌ ، ويتركُ قولَهُ : إِنَّ الخمرَ والسُّكرَ حرامٌ ، ويأْخُذُ من قولِ الشافعيِّ : النبيذُ والخمرُ سواءٌ ، ويتركُ قولَهُ في الحرمةِ ، وكذبَ في قولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

مَن ذَا يُحَرِّمُ مَاءَ ٱلْمُزْنِ خَالَطَهُ فِيْ بَطْنِ خَابِيَةٍ مَاءُ ٱلْعَنَاقِيْدِ
إِنِّي لأَكْرَهُ تَشْدِيْدَ ٱلرُّوَاةِ لَنَا فِيْهَا، وَيُعْجِبُنِيْ قَوْلُ ٱبْنِ مَسْعُوْدِ

وجاوزَ الغايةَ في التهتُّكِ وخلعِ العذارِ حيثُ يقول [أبو نواس في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) أخرجه عن جابر رضي الله عنه أبو داوود (٣٦٨١) ، والترمذي (١٨٦٦) وحسنه ، وابن ماجه (٣٣٩٣) ، وابن حبان في « الإحسان » (٥٣٨٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤١٣ و٤٦٦) .

أَلاَ فَاسْقِنِي خَمْراً وَقُلْ لِيْ: هِيَ ٱلْخَمْرُ   وَلاَ تَسْقِنِـيْ سِـرّاً إِذَا أَمْكَـنَ ٱلْجَهْـرُ

وقالَ بعضُهم في معناهُ : إِنَّ الغرضَ مِن قولِهِ : (وَقُلْ لِيْ : هِيَ ٱلْخَمْرُ) ٱلتذاذ سمعِهِ بذكرِها .

وقالَ آخرونَ : إِنَّهُ تأويلٌ باردٌ ثقيلٌ ، وإِنَّما عمدَ إِلىٰ المجاهرَةِ والاستعلانِ وقلَّةِ الحياءِ ، حتَّىٰ لَقَد عابَ المَأمونُ وهوَ علىٰ المنبرِ علىٰ أَخيهِ ، وقالَ : إِنَّهُ صحبَ مُدْمِناً سكِّيراً ، بلغَ من ٱستهتارِهِ أَنْ يقولَ : وذكرَ البيتَ .

وعندي : إِنَّه أَرادَ ـ معَ قصدِهِ الاستعلانَ ـ أَنْ يكونَ الحديثُ كلُّهُ في الخمرِ ، كما يفسِّرُهُ قولُهُ مِنَ الأُخرىٰ [في « ديوانه » ٣٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا جَلَسْتَ إِلَىٰ ٱلْمُدَامِ وَشُرْبِهَا   فَٱجْعَلْ حَدِيْثَكَ كُلَّهُ فِيْ ٱلْكَاسِ

عيينة بن حصن وعمرو بن معد يكرب ومنادمتهما

وكان عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ يحدِّثُ : أَنَّ عيينةَ بنَ حصنٍ الفزاريَّ قدمَ (الكوفةَ) ، فأَقامَ بِها أَيَّاماً ، ثمَّ قالَ لغلامِهِ : أَسرجْ لي ، فقدَّمَ لهُ فرساً ، فقالَ : ويحكَ ، أَعَلِمْتَني ركِبتُ أُنثىٰ في الجاهلِيَّةِ ، فأَركبُها في الإِسلامِ ؟ فأَسرجَ لَه حصاناً أَقبلَ عليهِ إِلىٰ محلَّةِ بني زبيدٍ ، فسأَلَ عن مكانِ عمرِو بنِ معدِ يكربَ ، فأُرشدَ إِليهِ ، فوقفَ ببابهِ ونادىٰ : أَيْ أَبا ثورٍ ، ٱخرجْ إِلينا ، فخرجَ مُؤْتزراً ، كأَنَّما كُسِرَ ثمَّ جُبِرَ ، وقالَ : أَنعِم صباحاً أَبا مالكٍ ، قالَ عيينةُ : أَوَ ليسَ اللهُ قد أَبدَلَنا بهٰذا ، قالَ : دَعْنا ممَّا لا نعرفُ ، ٱنزلْ ، فإِنَّ عندي كبشاً ساحًّا[1] ، فنزلَ ، فعمدَ إِلىٰ الكبشِ فذبحَهُ ، ثمَّ كشطَ جلدَهُ عنهُ

(١) ساحٌّ : نادرٌ ، سمينٌ .

وعضَّاهُ[١] ، وألقاهُ في قدرِ جماعٍ ، وطبخَهُ ، حتَّىٰ إذا أدركَ . . جاءَ بجفنَةٍ عظيمَةٍ ، فثرد فيها ، ثمَّ ألقىٰ عَلَيها القدرَ بما فيهِ ، وقَعَدا فأكلاهُ ، ثمَّ قالَ لَه : أيُّ الشرابِ أحبُّ إليكَ ، اللَّبنُ أم ما كنَّا نتنادمُ عليهِ في الجاهليَّةِ ؟

قالَ : أوَ ليسَ قد حرَّمَها اللهُ عزَّ وجلَّ علينا في الإسلامِ . ؟ قالَ : أنتَ أكبرُ سنًّا أم أنا ؟ قالَ : أنتَ ، قالَ : فأنتَ أقدمُ إسلاماً أم أنا ؟ قالَ : أنتَ ، قالَ : فإنِّي قد قرأتُ ما بينَ دفَّتي المصحفِ ، فواللهِ ما وجدْتُ لَها تحريماً ، إلاَّ أنَّهُ قالَ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] قُلنا : لا ، فسكتَ عنَّا وسكتْنا عنهُ .

فجاء بها ، وجَلسا يتنادمانِ ويشربانِ[٢] ، ويذكرانِ أيَّامَ الجاهليَّةِ ، حتَّىٰ أمسَيَا ، فلما أرادَ عُيينةُ الانصراف . . قالَ عمرٌو : لئِن انصرفَ أبو مالكٍ بغيرِ حباءٍ[٣] . . إنَّها لوصمةٌ عليَّ ، فأمرَ بناقةٍ له أرحبيَّةٍ[٤] ، كأنَّها جبيرةُ لُجينٍ ، فحملَهُ عَلَيها ، ثمَّ قالَ : يا غلامُ ، هاتِ المزوَدَ ، فإذا فيهِ أربعةُ آلافِ دِرْهمٍ ، فوضعَها بينَ يديهِ ، فقالَ : أمَّا المالُ فواللهِ لا قبلتُهُ ، قالَ : إنَّه لَمِنْ حِباءِ عمرَ بنِ الخطَّاب ، فلم يقبلْهُ ، وانصرفَ وهُوَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

جُزِيتَ أبَا ثَوْرٍ جَزَاءَ كَرَامَةٍ فَنِعْمَ الْفَتَىٰ الْمُزْدَارُ وَالْمُتَضَيَّفُ

---

(١) عضَّاهُ : فرَّقهُ .

(٢) القصة غير ثابتة ، والمؤلف نفسه في آخرها تشكك في صحتها .

(٣) الحباءُ : العطاءُ .

(٤) أرحبيَّةٌ : منسوبةٌ إلى أرحبَ ، وهوَ اسمُ قبيلةٍ تنسبُ إليها النجائبُ الأرحبيَّاتُ .

قَرَيْتَ فَأَجْزَلْتَ ٱلْقِرَىٰ وَأَفَدْتَنَا ... خَبِيئَةَ عِلْمٍ لَمْ تَكُنْ قَطُّ تُعْرَفُ

وَقُلْتَ : حَلاَلاً أَنْ نُدِيرَ مُدَامَةً ... كَلَوْنِ ٱنْبِعَاقِ ٱلْبَرْقِ وَٱللَّيْلُ مُسْدِفُ

وَقَدَّمْتَ فِيهَا حُجَّةً عَرَبِيَّةً ... تَرُدُّ إِلَىٰ ٱلإِنْصَافِ مَنْ كَانَ يُنْصِفُ

وَأَنْتَ لَنَا وَٱللهِ ذِي ٱلْعَرْشِ قُدْوَةٌ ... إِذَا صَدَّنَا عَنْ شُرْبِهَا ٱلْمُتَكَلِّفُ

نَقُوْلُ : أَبُوْ ثَوْرٍ أَحَلَّ حَرَامَهَا ... وَقَوْلُ أَبِي ثَوْرٍ أَسَدُّ وَأَعْرَفُ

تعليق المؤلف على الخبر

وفي هٰذا الخبرِ غضٌّ مِن إِيمانِ عمرِو بنِ معدِ يكربَ ، ولا سيَّما في إِنكارِهِ تحيَّةَ الإِسلامِ ، واللهُ أَعلمُ بالحقيقةِ .

نقل السيوطي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب

وقالَ السيوطيُّ في « الإِتقانِ » [٨٨/١] : وحكيَ عن عثمانَ بنِ مظعونٍ وعمرِو بنِ معدِيكربَ أَنَّهُما كانا يقولانِ : الخمرُ مباحةٌ ، ويحتجَّانِ بقولِهِ تعالَىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية [المائدة : ٩٣] ، ولو عَلِما سببَ نُزولِها . . لَم يَقولاَ ذلكَ ، وهُوَ : أَنَّ ناساً لمَّا حُرِّمَتِ الخمْرُ . . قالوا : كيفَ بِمن قتلَ في سبيلِ اللهِ ، وكانوا يشربونَ الخمرَ وهيَ رجسٌ ؟! فنزلَتْ . أَخرجَهُ أَحمدُ [٤/٤٤١] والنسائِيُّ [في «الكبرىٰ» (١١١٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن] وغيرُهما . اهـ كلامه .

تعليق المؤلف على السيوطي

وأَخطأَ في ذلكَ أبو بكر [السيوطي] ؛ إذ إنَّ الذي مرَّ عن عمرِو بن معد يكرب إنما يدلُّ علىٰ ٱحتجاجِهِ بغيرِ هٰذهِ الآية .

والأَشبهُ أَنْ يكونَ الثاني قُدامةُ بنُ مظعونٍ لا عثمانَ بنَ مظعونٍ كما يعرفُ مِمَّا يأْتي ، وأَيضاً فإِنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ توفِّيَ قبلَ تحريمِ الخمرِ ؛ لأَنَّهُ ماتَ بعقبِ واقعةِ بدرٍ بأَشهرٍ ، وهِيَ كانَتْ فِي السنةِ الثانيةِ للهجرَةِ ، ولم تحرَّمْ الخَمْرُ إِلاَّ فِي شهرِ ربيعِ الأَوَّلِ من السنةِ

الرابعةِ للهجرَةِ ، وأولُ ما نزلَ فيها بـ(مكةَ) : ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ [النحل : ٦٧] .

مراحل تحريم الخمر

فكانَتِ ٱلصَّحابةُ تشربُها وهِيَ حلٌّ لَهم ، ثمَّ نزلَ فيها بـ(ٱلمدينةِ) قولُه تعالىٰ : ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] فتركَها قومٌ للإِثمِ ، وشربَها آخرونَ للمنافعِ . . إلىٰ أَنْ صنعَ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ عوفٍ طعاماً ، ودَعا ناساً مِن أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وأتاهم بخمْرٍ فَسَكِروا ، وحضَرَتِ ٱلصَّلاةُ ، فقدَّمُوا واحداً ليصليَ بِهم ، فقرأَ : قلْ يا أَيُّها ٱلكافرونَ أَعبدُ ما تعبدونَ ، بحذفِ (لا) فأَنزلَ اللهُ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء : ٤٣] فقالَ ٱبنُ الخطَّابِ : إِنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ . . تقاربَ في ٱلنَّهي عَنِ ٱلخمرِ ، وما أَراهُ إلاَّ سيُحرِّمُها ، ثمَّ نزلَتْ آيةُ ٱلتَّحريمِ ٱلبتِّ ، بٱلتَّاريخِ ٱلسَّابقِ ، وهِيَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩١] .

رواية أخرى في نزول آية تحريم الخمر

ويُروىٰ : أَنَّ هـٰذهِ الآيَةَ نزلَت في شأْنِ حمزةَ بنِ عبدِ ٱلمطَّلبِ[1] ، وكانَ مِن خبرِهِ ، ما ٱستوفاهُ الشيخانِ في

(١) قال في « الفتح » (٨/ ٢٧٩) : والوقت الذي وقع فيه ذلك زعم الواحدي : أنه عقب قول حمزة رضي الله عنه : إنما أنتم عبيد لأبي ، وحديث جابر يرد عليه ، والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان . .

« الصَّحيحَين » ، وقد علمتَ ما قالهُ أَبو ثورٍ في قولِهِ تعالَىٰ : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩١] .

سؤال عن الخمر وحكمها والإجابة على ذلك من القرآن والحديث

ويُذكَرُ : أَنَّ حامِدَ بنَ ٱلعبَّاسِ سأَلَ عليَّ بنَ عيسىٰ بمشهدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ عن دواءِ ٱلخُمَارِ ؟ فأَعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما لي ولهٰذهِ ٱلمسأَلةِ ، فخجلَ حامدٌ ، وٱلتفتَ إِلىٰ قاضي ٱلقضاةِ أَبي عمرٍو ٱلمالكيِّ ، وأَعادَ عليهِ ٱلسُّؤَالَ ، فتنحنحَ ليصلحَ مِن صوتِهِ وقالَ :

أَمَّا مِن كتابِ ٱللهِ: فقولهُ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وأَمَّا مِنَ ٱلسُّنَّةِ : فقولهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَعِينُوا عَلَىٰ كُلِّ صَنْعَةٍ بِصَالِحِيْ أَهْلِهَا »[1] ، وٱلمشهورُ بهٰذا في ٱلجَاهليَّةِ ٱلأَعشىٰ وهُوَ ٱلقائِلُ [كما في « ديوانه » ٣٤ مِنَ ٱلمتقارب] :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ   وَأُخْرَىٰ تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وفي ٱلإِسلامِ أَبو نُوَاسٍ ، وهوَ ٱلَّذي يقولُ [في « ديوانه » ٢٧ مِنَ البسيطِ] :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِيْ فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ   وَدَاوِنِيْ بِٱلَّتِيْ كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

فأَسفرَ وجهُ حامدٍ ، وقالَ لعليِّ بنِ عيسىٰ : ما ضرَّكَ أَن تجيبَ ببعضِ ما أَجابَ بهِ قاضي ٱلقضاةِ ، وقدِ ٱستظهرَ في ٱلجوابِ بكتابِ ٱللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؟ فكانَ خجلُ

---

(١) لم أقف عليه، وأورده العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٤٠) ونقل عن الأصل للسخاوي ، قد يستأنس له بقوله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ما كان من أمر دنياكم فإليكم » .

عليٍّ بنِ عيسىٰ وٱنكسارُهُ مِن هـٰذا ٱلكلامِ . . أَكثرَ مِن خجلِ حامدٍ حينَ ٱبتدأَهُ بٱلسُّؤَالِ ، كَذا رُوِيَتِ ٱلقصَّةُ عن غيرِ واحدٍ .

لا ينبغي الانكسار في الحق

وما كانَ لعليِّ بنِ عيسىٰ أَنْ ينكسِرَ لَو تعمَّدَ الحقَّ ، وٱستظْهَرَ بالصدْقِ ، إِنَّما المؤَاخذةُ علىٰ أَبي عمرٍو في تنفُّقِهِ بالباطِلِ ، والتيسيرِ في معاقَرَةِ العُقَارِ ، ولعلَّهُ إِنَّما أَخرجَ ذلكَ الكلامَ مخرجَ التظرُّفِ والتندُّرِ ، وإِلاَّ . . كانَ من المخطئينَ ، ومقامُ أَبي عمرٍو أَجلُّ مِن ذلكَ ، والشيطانُ يَجْري مِنِ ٱبنِ آدمَ مجرىٰ الدمِ ، وحبُّ الزلفىٰ لدىٰ الكبراءِ داءٌ عُضَالٌ .

وحامدُ بنُ العباسِ هـٰذا ، هُوَ وزيرُ المقتدرِ ، وهُوَ الذي أَراقَ دمَ الحلاَّجِ بفتوىٰ القاضي أَبي عمرٍو المذكورِ سنةَ : (٣٠٩ هـ) .

غناء تصغي له الوحوش

وببيتِ الأَعشىٰ السابقِ ، وهُوَ : (وَكَأْسٍ شَرِبتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ) إِلخ . . ذكرتُ ما رواهُ غيرُ واحدٍ : من أَنَّ الأَمينَ كانَ لا يشربُ وهُوَ مخمورٌ ، حتَّىٰ غَنَّاهُ إِبراهيمُ بنُ المهديِّ بهـٰذا ، فشربَ ، وإِبراهيمُ يغنِّي ، حتَّىٰ أَصغتْ إِليهِ الوحشُ ومدَّتْ أَعناقَها ، ولَم تزلْ تَدْنُو منهُ حتَّىٰ وضعَتْ رُؤُوسَها علىٰ الدكَّانِ الذي كانوا عليهِ ، والأَمينُ يتعجَّبُ مِن ذلكَ .

كيفية تداوي شارب الخمر

وغابَ عَنِ القاضي أَبي عمرٍو أَنَّ المجنونَ يقولُ فيما بينَ الأَعشىٰ وأَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ١٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَىٰ بِلَيْلَىٰ مِنَ ٱلْهوَىٰ   كَمَا يَتَدَاوَىٰ شَارِبُ ٱلْخَمْرِ بِٱلْخَمْرِ

قياس في الخمر

وفي نظيرِ ما سبقَ مِن قياسِ ٱبنِ الروميِّ ، أَو أَبي نُوَاسٍ ، يقولُ بعضُهُم : إِنَّ أَهلَ الحرمينِ حرَّمُوا النبيذَ وأَحلُّوا الغناءَ ، وأَهلَ

(العراقِ) حرَّموا الغناءَ وأَباحُوا النبيذَ ، فأَوجَدونا السبيلَ إِلىٰ الرخصَةِ فيهِمَا عندَ ٱختلافِهِما إِلىٰ أَنْ يقعَ ٱلاتِّفاقُ ، وقالَ في ذلكَ بعضُ ٱلشُّعراءِ [مِنَ الخفيفِ] :

رَأْيُهُ فِيْ ٱلسَّمَاعِ رَأْيُ حِجَازِيٍّ ۝ وَفِيْ ٱلشُّرْبِ رَأْيُ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ الخفيفِ] :

أَنَا أَهْوَىٰ ذَاتَ ٱلْخِمَارِ عَلَىٰ الجَيْـ ۝ ـبِ وَذَاتَ ٱلْوِشَاحِ وَٱلدُّمْلُجَيْنِ[1]

وَأَرَىٰ فِـيْ ٱلنَّبِيْـذِ رَأْيَ صَـوَابٍ ۝ لِشُيُـوخِ ٱلْعِـرَاقِ بِـٱلْكُـوفَتَيْـنِ

وَإِذا مَا ٱلْغِنَاءُ خَاضَ ذَوُوْ ٱلأَلْـ ۝ ـبَابِ فِيْهِ ٱعْتَصَمْتُ بِٱلْحَرَمَيْنِ

كُلَّمَـا جَـاءَتِ ٱلـرَّخَـائِصُ فِيْـهِ ۝ كَـانَ أَخْـذِيْ لَـهُ بِكِلْتَـا ٱلْيَـدَيْـنِ

الإمام النعمان يقطع كلام ابن أبي ليلى

وقالَ ٱبنُ أَبي ليلىٰ لأَبي حنيفةَ : أَيحلُّ النبيذُ ، وشراؤُهُ ، وبيعُهُ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أَفيسرُّكَ أَنَّ أُمَّكَ نبَّاذةٌ ؟ فقالَ أَبو حنيفةَ : أَيحِلُّ الغناءُ وسماعُهُ ، قالَ : نعم ، قالَ : أَفيَسُرُّكَ أَنَّ أُمَّكَ مغنِّيَةٌ ؟

جواب لإياس بن معاوية عن الخمر

وقيلَ لإِياسِ بنِ معاويةَ : ما تقولُ في التمرِ والعنبِ والماءِ ، حلالٌ هِيَ ، أَم حَرامٌ ؟ فقالَ : حلالٌ ، فقيلَ لَهُ : ولِمَ يُحَرَّمُ الخمرُ ، وإِنَّما هُوَ مِن ذلكَ ؟ فقالَ : أَرأَيتَ لَو أَصابكَ ماءٌ أَو ترابٌ أَو تِبنٌ أَكانَ يوجعُكَ ؟ قالَ : لاَ ، قالَ : فَلو جمعَ ذلكَ كلَّهُ وجعلَ لَبِنةً ، ثُمَّ سقطَ علىٰ رأسِكَ ، أَما كانَ يوجعُكَ ؟

---

(١) الجيبُ : جيبُ القميصِ ، ومنهُ قولهُ تعالى : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] . الوِشاحُ : من حُليِّ المرأَةِ ، من جوهرٍ ولؤلؤٍ منظومانِ ، مخالفٌ بينهما ، معطوفٌ أَحدهما على الآخرِ . الدملُجُ : المعضدُ من الحليِّ .

من الذين شربوا الخمر قدامة بن مظعون واستدلاله على ذلك ورد ابن عباس عليه

ويروىٰ [بنحوه في « سير أعلام النبلاء » ١/١٦١] : أَنَّ قدامةَ بنَ مظعونٍ سكرَ ، وكانَ عامِلَ عمرَ علىٰ (البحرينِ) ، فقالَ لَهُ : إِنِّي جالدُكَ ، فقالَ : كيفَ تجلدُني ، وبيني وبينكَ كتابُ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : وأَيَّهُ تريدُ ؟ قالَ : إنَّه يقولُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة : ٩٣] وقد شهدْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم بدراً وأُحداً والخندقَ والمشاهدَ ، فأَكثِر بذلكَ عملاً صالِحاً ، فقالَ عمرُ : أَلا تردُّونَ عليهِ قولَهُ ؟ فقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ : إنَّ هٰؤلاءِ الآياتِ أُنزلْنَ عذراً للماضينَ قبلَ تحريمِ الخمرِ ، وحجَّةً علىٰ الباقينَ ، فعُذرُ الماضينَ أنَّهم لَقُوا اللهَ قبلَ أَنْ تحرَّمَ ، وحجَّةٌ علىٰ الباقينَ ؛ لأنَّه تعالىٰ يقولُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . ﴾ [المائدة : ٩٠] ثمَّ ٱقترأَ الآيةَ إِلىٰ آخرِها ، وقالَ : إِنْ كانَ مِن الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ ، ثمَّ ٱتقَوا وآمَنوا ، ثمَّ ٱتقوا وأَحسَنوا . . فإِنَّ اللهَ قد نهىٰ أَنْ تُشْرَبَ الْخَمْرُ ، فقالَ عمرُ : صدقتَ .

٢ـ وجود بعض الدماء الحلال

والثاني : مِن الأَشياءِ التي ذكرناها في البيتِ ، تسويرُهُ القضيَّةَ في حرمةِ الدماءِ بـ(كلُّ) ، والحالُ أَنَّ اللهَ قد أَحلَّ لَنا دَمَيْنِ ، هُما : الكبدُ والطحالُ ، بنصِّ الحديثِ[1] ، إلاَّ أَنْ يُجابَ بأَنَّ كلامهُ مفروضٌ في الدَّمِ المسفوحِ .

---

(١) أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عبد بن حميد (٨٢٠) ، وابن ماجه (٣٢١٨) و(٣٣١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١/ ٢٥٤) والدراقطني (٤/ ٢٧٢) .

٣ـ أيهما أشد حرمة الخمر أم الدم؟

والثالثُ : أَنَّ حرمَةَ الخمرِ أَشدُّ مِن حرمةِ الدَّمِ ؛ ولهٰذا فُرِضَ فيها الحدُّ ولَم يفرض فيهِ ، وقد حدَّ ٱبنُ الخطَّابِ قدامَةَ بنَ مظعونٍ [كما في « السِّيَر » ١/١٦١] ، وكانَ تحتَهُ صفيَّةُ بنتُ الخطَّابِ أُختُ عمرَ ، وكانَ خالَ حفصةَ وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وهوَ ممَّن شهدَ بدراً .

النعيمان من الذين شربوها

وفي « الصحيحِ » : (أَنَّ النعيمانَ كانَ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقد شهدَ بدراً ، وكانَ يشربُ الخمرَ ، فيؤْتىٰ بهِ فيضربُ بالنِّعالِ والجريدِ ، ولمَّا قالَ بعضُ أصحابهِ عليه السلامُ : لعنَهُ اللهُ ، ما أكثرَ ما يؤْتىٰ بهِ . . نهاهُ عَنْ ذلكَ)[١] .

ومنهم: أبو محجن الثقفي

وكانَ أَبو مِحْجَنٍ الثقفيُّ شرِّيباً[٢] ، حدَّهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ فيها مِراراً ، وحدَّهُ سعدُ ٱبنُ أَبي وقَّاصٍ فيها غيرَ مرَّةٍ ، وكانَ يومَ القادسيَّةِ في سجنِ سعدٍ ، فأَطلَقَتْهُ ٱمرأَةُ سعدٍ وكانَتْ لَه فاركاً[٣] ، وأَعطتْهُ فرسَهُ ، فأَبلىٰ بلاءً حسناً ، ظهرَتْ فيهِ علىٰ يدِهِ آثارُ الفتوحِ ، ولَهُ في حديثِهِ أَشعارٌ ، نترُكُها صيانةً لمنصبِ سعدٍ ، فقد أَقذعَ لَهُ في بعضِها .

توبته عن شربها

ويرویٰ [كما في « الإصابة » ٤/ ١٧٤] : أَنَّ ٱبنَ الخطَّابِ رفعَ الحدَّ عنهُ بعدَ ذلكَ ، فحلفَ أَنْ لا يشربَها بعدُ ، وقالَ [في « ديوانهِ » ٤١ـ٤٢ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) أخرجه عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه البخاري (٢٣١٦) في الوكالة . بلفظ : (جيء بالنعيمان شارباً ، فأمر رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ من كان في البيت أن يضربوه ، قال : فكنت أنا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد) وينظر طرفاه : (٦٧٧٤) و(٦٧٧٥) .

(٢) كما في « الإصابة » (٤/ ١٧٣) .

(٣) المرأةُ الفاركُ : المبغضةُ لزوجها .

إنْ كانَتِ ٱلْخَمْرُ قدْ عزَّتْ وقدْ مُنِعَتْ ... وَحَالَ مِنْ دُوْنِهَا ٱلإِسْلامُ وَٱلْحَرَجُ
فَقَدْ أُبَاكِرُهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً ... طَوْراً فَأَشْرَبُهَا صِرْفاً وَأَمْتَزِجُ
وَقَدْ تَقُوْمُ عَلَىٰ رَأْسِيْ مُغَنِّيَةٌ ... فِيْهَا إِذَا رَفَعَتْ مِنْ صَوْتِهَا غَنَجُ
تَخْفِضُ ٱلصَّوْتَ أَحْيَاناً وَتَرْفَعُهُ ... كَمَا يَطِنُّ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْهَزِجُ(١)

إذا مت فادفنوني إلى جنب كرمة

وأنشدَ رجلٌ بحضرةِ عبدِ اللهِ بنِ مسلمِ بنِ قتيبةَ قولَ أَبي محجنٍ [في « ديوانه » ٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّيْ عِظَامِيْ فِيْ ٱلتُّرَابِ عُرُوْقُهَا
وَلاَ تَدْفِنُوْنِيْ فِيْ ٱلْفَلاَةِ فَإِنَّنِيْ ... أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لاَ أَذُوْقَهَا

فقالَ : حدَّثني مَن رأَىٰ قبرهُ بـ(أَرمينيَّةَ) بينَ شجراتِ كرمٍ يخرجُ إِليهِ الفتيانُ ، ويشربونَ عندَهُ ، ويتناشدونَ الأَشعارَ ، ويَروونَ شِعْرَهُ ، وإِذا جاءَتْ كَأْسُهُ . . صَبُّوها عليهِ ، وهٰذا لا يناقضُ ما سلفَ من توبتهِ ؛ لاحتمالِ أَنَّه قالَ هٰذينِ البيتينِ قبلَها .

وقد ٱستطردنا لتمهيدِ عذرِ التائبينَ عَنِ ٱلطِّلا ، في الحنينِ إِلىٰ أَيَّامِها ، بما فيهِ مقْنعٌ في الفائدةِ (٢٤) مِن « بلابلِ التغريدِ » .

ومن الذين حُدُّوا فيها الوليد بن عقبة

ومِمَّن حُدَّ فِيها [كما في « الأغاني » ٥/ ١٣٤] : الوليدُ بنُ عقبةَ ٱبنِ أَبي مُعَيطٍ ، وكانَ أَخا عثمانَ بنِ عفَّانَ لأُمِّهِ ، شهدَ عليهِ أَهلُ (الكوفةِ) أَنَّه صلَّىٰ بهمُ الصبحَ ثلاثَ ركعاتٍ(٢) ، وهُوَ سكرانُ ، ثُمَّ ٱلتفت إِليهِم ، وقالَ : إِنْ شئتُم . . زِدْتُكم ، فجلدَهُ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ بينَ يَدي عثمانَ وعليٌّ حاضرٌ ، وفيه يقولُ الحُطيئةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) الهَزِجُ : صوتُ الرعد ، وضرب من الأغاني ، وفيه ترنُّمٌ .
(٢) في « الأغاني » أربع ركعات .

شَهِدَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ ... أَنَّ ٱلْوَلِيْدَ أَحَقُّ بِٱلْعُذْرِ
نَادَىٰ وَقَدْ تَمَّتْ صَلاَتُهُمُ ... لِيَزِيْدَهُمْ خَيْراً وَلاَ يَدْرِي
كَبَحُوْا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ ... تَرَكُوْا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

وكادَ عثمانُ أَن يدرأَ الحدَّ عن أَخيهِ ، ولٰكنَّ عائِشةَ نادَتْ والناسُ مجتمعونَ لصلاةِ العصرِ : أَلا إِنَّ عثمانَ عطَّلَ الحدودَ ، وتهدَّدَ الشهودَ ، فلم يسعْهُ بعدَ ذلكَ . . إِلاَّ أَنِ ٱستقدَمَهُ ، ثُمَّ أَقامَ عليهِ الحدَّ ـ كما مرَّ .

ومنهم: عبيد الله بن عمر بن الخطاب

ومن المحدودينَ فِيها ـ أَيضاً ـ : عبيدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، شربَ بـ(مِصرَ) ، فحدَّهُ عمرُو بنُ العاصِ سرّاً ، فٱستقدمَهُ عمرُ علىٰ قَتَبٍ[1] ، وأَقامَ عليهِ الحدَّ ثانياً علانيةً .

ومنهم: عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب

ومِنهم : عبدُ الرحمٰنِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ويُعرفُ بأَبي شحمةَ ، حدَّهُ أَبوهُ في الخمرِ وفي الزِّنا . . حتَّىٰ ماتَ ، كَما رواهُ الطبرانيُّ .

ومنهم: عاصم بن عمر بن الخطاب

ومِنهم [كما في « العقد الفريد » ٦/ ٣٤٩] : عاصمُ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وحدَّهُ بعضُ ولاةِ (المدينةِ) .

ومنهم: العباس بن عبد الله بن عباس

ومِنْهم : العبَّاسُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُم ، وكانَ مِمَّنِ ٱشتهرَ بالشَّرابِ ، وحُدَّ فيهِ ، وكانَ ينادِمُ الأَخطلَ ، وفيهِ يقولُ [في « ديوانه » ٣٢٨ مِنَ الكاملِ] :

لِبَّاسُ أَرْدِيَةِ ٱلْمُلُوْكِ يَرُوْقُهُ ... مِنْ كُلِّ مُرتقَبٍ عُيُوْنُ ٱلرَّبْرَبِ[2]

---

(١) القتَبُ : الربطُ والشدُّ .
(٢) الربرَبُ : النساءُ .

ومنهم: عبد الله بن عروة بن الزبير

ومِنْهُم : عبدُ اللهِ بنُ عروةَ بنِ الزبيرِ ، وحدَّهُ هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ .

وممن كان يشربها: يزيد بن معاوية

ومِمَّن كانَ يَشربُها : يزيدُ بنُ معاويةَ ، فعابَهُ المِسْوَرُ بنُ مخرمَةَ ، فأمرَ بضربِهِ حدَّها ، فقالَ مِسْوَرٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَشْرَبُهَا صِرْفاً بِطِيْنِ دِنَانِهَا ... أَبُوْ خَالِدٍ وَٱلْحَدَّ يُضْرَبُ مِسْوَرُ

تهديد الحسن بن زيد لابن هرمة إن شرب الخمر

ولمَّا وليَ الحسنُ بنُ زيدٍ (المدينةَ) . . قالَ لابنِ هرمَةَ : لستُ كَمن باعَ دينَهُ رَجاءَ مدحِكَ ، أَو خوفاً مِن ذمِّكَ ، فقد رزَقَني اللهُ بولادَةِ نبيِّهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ المَمادحَ ، وجَنَّبَني المَقابِحَ ، وإِنَّ مِن حَقِّهِ عليَّ أَن لاَ أُغضِيَ علىٰ تقصيرٍ في حقِّ اللهِ ، وأَنا أُقسِمُ : لَئِن أُتِيتُ بِكَ سكراناً . . لأَضربَنَّ : للسُّكرِ ، ولأَزيدنَّكَ لموضِعِ حرمتِكَ بي ، فليكُن تركُكَ إِيَّاها للهِ تعالىٰ . . تُعَنْ عليهِ ، وَلا تدعْها للنَّاسِ . . فتُوكَلَ إِلَيهِم ، فقالَ ٱبنُ هَرِمةَ [في « ديوانه » ١٥١ـ١٥٢ مِنَ الوافرِ] :

نَهَانِيْ ٱبْنُ ٱلرَّسُولِ عَنِ ٱلْمُدَامِ ... وَأَدَّبَنِــــيْ بِــــآدَابِ ٱلْكِــــرَامِ
وَقَالَ لِيَ ٱصْطَبِرْ عَنْهَا وَدَعْهَا ... لِخَـوْفِ ٱللهِ لاَ خَـوْفِ ٱلأَنَـامِ
وَكَيْـفَ تَصَبُّـرِيْ عَنْهَـا وَحُبِّـيْ ... لَهَا حُبٌّ تَمَكَّنَ فِيْ عِظَامِيْ ؟!

قدوم ابن هرمة على المهدي

فضاقَ ذرعُهُ ، وشخَصَ إِلىٰ المهديِّ ، وٱمتدحَهُ بشعرِهِ الذي يقولُ فيهِ [في « ديوانه » ١٦٧ـ١٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

لَه لَحَظَاتٌ فِيْ حَفَافَيْ سَرِيْرِهِ ... يُقَلِّبُهَـا فِيْهَـا عِقَـابٌ وَنَـائِـلُ[1]
لَهُمْ طِيْنَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... إِذَا ٱسْوَدَّ مِنْ لُؤْمِ ٱلتُّرَابِ ٱلْقَبَائِلُ

---

(١) حَفافُ الشيءِ : جانبُهُ .

إِذَا مَا أَتَىٰ شَيْئاً مَضَىٰ كَالَّذِيْ أَتَىٰ   وَإِنْ قالَ : إِنِّيْ فَاعِلٌ فَهُوَ فَاعِلُ

طلبه من المهدي أن يكتب له كتاباً إلى الحسن أن لا يقيم الحد عليه وحيلة المهدي في ذلك

فَٱهتزَّ المهديُّ لِشعرِهِ ، وقالَ [في « الأغاني » ٤/٣٦٩] : سلْ حاجتَكَ ، قالَ : تأمُرُ لي بكتابٍ إِلىٰ عاملِ (المدينةِ) أَنْ لا يحدَّني علىٰ شرابٍ ، فقالَ لهُ : ويلَكَ ، كيفَ نأمرُ بذلكَ ؟! ثمَّ قالَ لوزرائِهِ : ما عندَكم مِن التلطُّفِ في حاجةِ ٱبنِ هرمةَ ؟ قالوا : إِنَّه يطلبُ ما لا سبيلَ إِليهِ مِن تعطيلِ الحدودِ ، قالَ المهديُّ : إِنَّ عِنْدي حيلةً إِذا أَعيتْكُم حيلتُهُ . . ٱكتبُوا إِلىٰ عاملِ (المدينَةِ) ، مَنْ أَتاكَ بِٱبنِ هرمَةَ سكرانَ . . فَٱضرِبِ ٱبنَ هرمةَ ثمانينَ ، وٱضربِ الذي يأْتيكَ بهِ مئةً ، فكانَ ٱبنُ هرمَةَ بعدَ ذلكَ يمشي في أَزقَّةِ (المدينةِ) ، ويقولُ : مَن يشتري مئةً بثمانينَ .

غيرَ أَنَّه لا يليقُ الإِغضاءُ عليهِ بالحَسنِ إِنِ ٱستمرَّ في ولايتِهِ ، معَ ما سبقَ من تصلُّبِهِ في دينِ اللهِ ، فما عَدا مِمَّا بَدا .

عتاب لزياد في حارثة بن بدر الغداني

وكانَ حارثةُ بنُ بدرٍ الغدانيُّ مِن المشهورينَ بالشرابِ ، وكان غالباً علىٰ زيادٍ ، فعوتِبَ فيهِ ، فقالَ : كيفَ لي بٱطِّراحِ رجُلٍ يسايرُني مُذ دخلتُ (العراقَ) ، ولم تصطكَّ رِكَابُهُ بِرِكابي ، وَلا تَقَدَّمَني . . فنظرتُ إِلىٰ قفاهُ ، ولا تأَخَّرَ عَني . . فلويتُ عُنُقي لهُ ، ولا أَخذَ عليَّ الشمسَ في الشتاءِ ، ولا الظلَّ في الصيفِ ، ولا سأَلْتُهُ عن علمٍ إِلاَّ ظننتُهُ لا يحسنُ غيرَهُ ؟

جفاء ابن زياد لحارثة وطلبه منه ترك الخمر

فلمَّا ماتَ زيادٌ . . جفاهُ ٱبنهُ عبيدُ اللهِ ، فقالَ لهُ : ما هٰذا الجفاءُ أَيُّها الأَميرُ ، وقد عرفتَ مَكاني من أَبي المغيرَةِ ؟ فقالَ : أَمَّا أَبي . . فقد برعَ بروعاً لم يلحقْهُ معهُ عيبٌ ، وأَمَّا أَنا . . فحَدَثٌ ، ولا آمنُ أَنْ أُتَّهَمَ بمُجالَسَتك ، فٱتركِ الخمرةَ ، وكُنْ أَوَّلَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ .

فقالَ : أَفأَترُكُها لَكَ ، ولَم أَترُكْها لِمَن يملِكُ ضَرِّي ونَفْعي ؟ قالَ : فٱختَر ما شئتَ من أَعمالي ، قالَ : فإِنِّي أَختارُ (سُرَّقَ)[1] ، فقد وُصِفَت لي بِها الكرومُ ، فولاَّهُ إِيَّاها ، فودَّعَهُ إِياسُ بنُ إِياسٍ بأَبياتِهِ المشهورةِ ٱلَّتي يقولُ لهُ فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

الصدق في الترك أن يكون لله

أَحَارِ بْنَ بَدْرٍ قَدْ وَلِيتَ وِلاَيَةً ... فَكُنْ جُرَذاً فِيهَا تَخُوْنُ وَتَسْرِقُ

وَلاَ تَحْقِرَنْ يَا حَارِ شَيْئاً تَخُوْنُهُ ... فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ ٱلْعِرَاقَيْنِ سُرَّقُ

وَبَاهِ تَمِيْماً بِٱلْغِنَىٰ إِنَّ لِلْغِنَىٰ ... لِسَاناً بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْهَيُوْبَةُ يَنْطِقُ

فَإِنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ ... يَقُوْلُ بِمَا يهْوَىٰ وَإِمَّا مُصَدِّقُ

يَقُوْلُوْنَ أَقْوَالاً وَلاَ يَفْهَمُوْنَهَا ... وَلَوْ قِيْلَ: هَاتُوْا حَقِّقُوْا لَمْ يُحَقِّقُوْا

فقالَ لهُ : لا بَعُدَ عنكَ الرُّشْدُ . وقيلَ : إِنَّه إِنَّما ٱستقبلَه بها في محلِّ عملِهِ ، وقيلَ : إِنَّ الأَبياتَ لأَبي الأَسودِ الدؤَليِّ يخاطِبُهُ بها[2] .

ومِن شعرِ حارثةَ وقد عذلَهُ مخارِقُ ٱبنُ صخرٍ قولُهُ [في « الأغاني » ٨/ ٤٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

غَدَا نَاصِحاً لَمْ يَأْلُ جُهْداً مُخَارِقٌ ... يَلُوْمُ عَلَىٰ شُرْبِ ٱلسُّلاَفِ ٱلْمُعَتَّقِ

فَقُلْتُ : أَبَا صَخْرٍ دَعِ ٱلنَّاسَ يَجْهَلُوْا ... وَدُوْنَكَهَا صَهْبَاءَ ذَاتَ تَأَلُّقِ

تَرَاهَا إِذَا مَا ٱلْمَاءُ خَالَطَ جِسْمَهَا ... تَخَايَلُ فِيْ كَفِّ ٱلْوَصِيْفِ ٱلْمُمَنْطَقِ

لَهَا أَرَجٌ كَٱلْمِسْكِ يُذْهِبُ رِيْحُهَا ... عَمَايَةَ حَاسِيْهَا بِحُسْنِ تَرَفُّقِ

---

(١) سُرَّقُ : نهرٌ من كورِ الأهواز .

(٢) في « ديوانهِ » (١٧٧) . والقصة في « معجم البلدان » (٣/ ٢١٤) .

وَكَمْ لائِمٍ فِيهَا بَصِيرٍ بِفَضْلِهَا ... رَمَتْهُ بِسَهْمٍ صَائِبٍ مُتَزَلِّقِ
يَعِيبُ عَلَيَّ ٱلشُّرْبَ وَٱلشُّرْبُ هَمُّهُ ... لِيُحْسَبَ ذَا رَأْيٍ أَصِيلٍ مُوَفَّقِ

وقولُهُ [في «الأغاني» ٨/ ٤٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

يَعِيبُ عَلَيَّ ٱلرَّاحَ مَنْ لَوْ يَذُوقُهَا ... لَجُنَّ بِهَا حَتَّىٰ يُغَيَّبَ فِيْ ٱلْقَبْرِ
فَدَعْهَا أَوِ ٱمْدَحْهَا فَإِنَّا نُحِبُّهَا ... صَرَاحَاً كَمَا أَغْرَاكَ رَبُّكَ بِٱلْهَجْرِ
عَلامَ تَذُمُّ ٱلرَّاحَ وَٱلرَّاحُ كَاسْمِهَا ... تُرِيْحُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ هَمِّهِ آخِرَ ٱلدَّهْرِ
فَلُمْنِيْ فَإِنَّ ٱللَّوْمَ فِيْهَا يَزِيْدُنِيْ ... غَرَامَاً بِهَا إِنَّ ٱلْمَلامَةَ قَدْ تُغْرِيْ
وَبِٱللهِ أُولِيْ صَادِقَاً لَوْ شَرِبْتَهَا ... لأَقْصَرْتَ عَنْ عَذْلِيْ وَمِلْتَ إِلَىٰ عُذْرِيْ
وَإِنْ شِئْتَ جَرِّبْهَا وَذُقْهَا عَتِيقَةً ... لَهَا أَرَجٌ كَٱلْمِسكِ مَحْمُوْدَةَ ٱلْخُبْرِ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَخْلَعْ عِذَارَكَ فَٱلْحَنِيْ ... وَقُلْ لِيْ لَحَاكَ ٱللهُ مِنْ عَاجِزٍ غُمْرِ[1]
وَقَبْلَكَ مَا قَدْ لامَنِيْ فِيْ ٱصْطِبَاحِهَا ... وَفِيْ شُرْبِهَا بَدْرٌ فَأَعْرَضْتُ عَن بَدْرِ

وهُنا فوائدُ :

قوة الإيمان حتى عند الفساق

الأُولىٰ : تعرفُ ما عليهِ القومُ حتَّىٰ فُسَّاقُهُم مِن قوَّةِ الإيمانِ ، والبُعدِ عَنِ التصنُّعِ والرِّياءِ والملقِ ، وحسبكَ دليلاً عليهِ . . ما سبق مِن قولِ حارثةَ بنِ بدرٍ : لو شئتُ أَن أَتركَها . . لَتَركتُها لمالكِ ضَرِّي ونَفْعي ، ومِن قولِ أَبي نُوَاسٍ [في «ديوانه» ٣٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا جَلَستَ إِلَىٰ ٱلْمُدَامِ وَشُرْبِهَا ... فَٱجْعَلْ حَدِيْثَكَ كُلَّهُ فِيْ ٱلْكَاسِ
وَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ ٱلْغِوَايَةِ فَلْيَكُنْ ... للهِ ذَاكَ ٱلنَّزْعُ لاَ لِلنَّاسِ

---

(١) فَٱلحني : لُمني . لحاكَ اللهُ : قبَّحكَ اللهُ .

وأدلُّ مِن ذلكَ علىٰ قوّةِ دينِهِ قولُهُ [في « ديوانه » ٥٢١ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ ٱلْغُوَانِ بِدَلْوِهِمْ ... وَأَسَمْتُ سَرْحَ ٱللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا[١]

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ ٱمْرُؤٌ بِشَبَابِهِ ... فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ[٢]

الثانيةُ : كنتُ أتوهَّمُ أنَّ أبا نُواسٍ هُوَ السابقُ إلىٰ قولِهِ [في « ديوانه » ٢٧ مِنَ البسيطِ] :

دع عنك لومي

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ ... وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

.. حتّىٰ سمعتُ ما سبقَ مِن قولِ حارثةَ : (فَلُمْنِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ فِيْهَا يَزِيْدُنِي) . . . إلىٰ آخرِهِ .

رد المؤلف على من يطنب في وصف أبيات لابن الرومي

الثالثةُ : مَا زالوا يتواصفونَ مَعَ الإطنابِ قولَ ٱبنَ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/ ٥٥٣ مِنَ الكاملِ] :

تَاللهِ مَا أَدْرِي بِأَيَّةِ عِلَّةٍ ... يَدْعُوْنَ هَـٰذَا ٱلرَّاحَ بِٱسْمِ ٱلرَّاحِ

أَلِرِيحِهَا وَلِرَوْحِهَا تَحْتَ ٱلْحَشَا ... أَمْ لِارْتِيَاحِ نَدِيمِهَا ٱلْمُرْتَاحِ

وإذا عادَ الإنسانُ إلىٰ نفسِهِ ، وأنعمَ النظر . . وجدَ فيها مِن الغثاثةِ ما لا تساوي معَهُ حبلاً مِن شَعْرٍ ، وَلا سيَّما مَا كانَ مِن قافيةِ البيتِ الثاني ، وأينَها مِن قولِ حارثةَ السابقِ : ؟ (عَلاَمَ تَذُمُّ ٱلرَّاحَ وَٱلرَّاحُ كَٱسْمِهَا) . . . البيتُ ؟

أجمل ما قيل في رقة الخمر ورقة كؤوسها

الرابعةُ : لَم يعجبني شَيءٌ في وصفِ رِقَّتِها ورقَّةِ كُؤُوْسِهَا . . مثلُ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/ ٧ مِنَ الكاملِ] :

يُخْفِي ٱلزُّجَاجَةَ لَوْنُهَا فَكَأَنَّهَا ... فِي ٱلْكَأْسِ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إِنَاءِ

---

(١) نهزت بدلوهم : ضربتُ بها لتمتلىءَ . السرحُ : المالُ السائِمُ .

(٢) الأثامُ : الإثمُ والخطيئةُ .

وقولِ الناجمِ [مِنَ البسيطِ] :

وَقَهْوَةٍ كَشُعَاعِ ٱلشَّمْسِ صَافِيَةٍ   مِثْلَ ٱلسَّرَابِ تُرَىٰ مِنْ رِقَّةٍ شَبَحَا
إِذَا تَعَاطَيْتَهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ لُطُفٍ   رَاحاً بِلاَ قَدَحٍ أُعْطِيْتَ أَمْ قَدَحَا

وقولِ الصاحبِ [في « ديوانهِ » ٧٦ مِنَ الكاملِ] :

رَقَّ ٱلزُّجَاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ   وَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ ٱلأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ   وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

وقولِ ٱبنِ الفَارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

يقُوْلُوْنَ لِيْ: صِفْهَا فَأَنتَ بِوَصْفِهَا   خَبِيْرٌ أَجَلْ عِنْدِيْ بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلاَ هَوَىٰ   وَنُوْرٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوْحٌ وَلاَ جِسْمُ

ولع يزيد بن عبد الملك بقينتيه وتخلفه عن الجمعة بسبب حبهما

ولمَّا ٱستهترَ يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ بقَيْنتيهِ[1] ، وتخلَّفَ عن الجمعةِ . . عذَلهُ أخوهُ مسلمةُ فارعوىٰ ، فبعثَتْ سلاَّمَةُ إلىٰ الأَحوصِ ليضعَ شعراً تغنِّي فيهِ ، فقالَ [الأَحوصُ في « ديوانهِ » ٥٣ـ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْعَيْشُ إِلاَّ مَا تَلَذُّ وَتَشْتَهِيْ   وَإِنْ لاَمَ فِيْهِ ذُوْ إِخَاءٍ وَفَنَّدَا
بَكَيْتُ ٱلصِّبَا جُهْدِيْ فَمَنْ شَاءَ لاَمَنِيْ   وَمَنْ شَاءَ آسَىٰ فِيْ ٱلْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا
وَإِنِّيْ لأَهْوَاهَا وَأَهْوَىٰ لِقَاءَهَا   كَمَا يشْتَهِيْ ٱلصَّادِيْ ٱلشَّرَابَ ٱلْمُبَرَّدَا
عَلاَمَةُ حُبٍّ لَجَّ فِيْ سَنَنِ ٱلصِّبَا   فَأَبْلَىٰ وَمَا يَزْدَادُ إِلاَّ تَجَدُّدَا

فلمَّا غنَّتْهُ بهِ . . طربَ ، وفحصَ برِجْلِهِ الأَرضَ ، وقالَ : صدقْتِ ، صدقْتِ ، فقبَّحَ اللهُ مسلمةَ وما جاء بهِ ، وعادَ إلىٰ غيِّهِ[2] .

---

(١) وهما : حبابة وسلاَّمَةُ .
(٢) « الأغاني » (١٥/ ١٢٩ـ١٣٢) .

إنكار ابن خلدون ما ينسب إلى الرشيد من معاقرة العقار

وأنكرَ ٱبنُ خلدونَ [كما في «مقدمته» ١٧] : ما ينسبُ إلىٰ الرشيدِ مِن مُعَاقَرَةِ العُقَارِ[1] .

وأَمَّا المأمونُ . . فإِنَّه مِنَ المشهورينَ بِها ، ولهُ فِيها أَخبارٌ .

المأمون من المشهورين بها وأخباره فيها

مِن ذلكَ : أَنَّهُ أَشارَ إِلىٰ رَجُلٍ بِٱلكأْسِ ، فقالَ ٱلرَّجلُ : يَا أَميرَ المؤمنينَ ، لم أَشربْها ناشئاً ، فلاَ تسقِنيها شيخاً ، فردَّهُ إِلىٰ عمرِو بنِ مسعدةَ ، وقالَ : لقد آليتُ في جوفِ الكعبةِ أَن لا أَشربَها ، ففكَّرَ المأْمونُ طويلاً ثمَّ قالَ [كما في «ديوانِ أبي نواسِ» ١٨٢ مِنَ الكاملِ] :

رُدَّا عَلَـيَّ ٱلْكَـأْسَ إِنَّكُمَـا ... لاَ تَعْلَمَـانِ ٱلْكَأْسُ مَـا تُجْـدِيْ
لَوْ ذُقْتُمَا مَا ذُقْتُ مَا مُزِجَتْ ... إِلاَّ بِـدَمْعِكُمَـا مِـنَ ٱلْـوَجْـدِ
مَـا مِثْـلُ نَعْمَـاهَـا إِذَا ٱشْتَمَلَـتْ ... إِلاَّ ٱشْتِمَـالَ فَـمٍ عَلَـىٰ خَـدِّ
خَـوَّفْتُمَـانِـيْ ٱللهَ رَبَّكُمَـا ... وَكَخِيْفَتَيْـهِ رَجَـاؤُهُ عِنْـدِيْ
إِنْ كُنْتُمَـا لاَ تَشْـرَبَـانِ مَعِـيْ ... خَوْفَ ٱلْعِقَابِ شَرِبْتُهَا وَحْدِيْ

ومِنْها : أَنَّه شرِبَ ومعَهُ القاضي يحيىٰ بنُ أَكثَمَ وعبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ ، فتواطَؤُوا علىٰ القاضي . . حتَّىٰ أَسكروهُ ، وعندَهُم رِزَمٌ مِن الوَرْدِ والريحَانِ دَفنُوهُ فيها ، وعملَ المأمونُ بيتَينِ ، ودَعا قَيْنَةً تُغَنِّي بِهما علىٰ رأْسِ يحيىٰ وهُمَا [مِنَ ٱلبسيطِ] :

دَعَـوْتُـهُ وَهْـوَ حَـيٌّ لاَ حَيَاةَ بِـهِ ... مُكَفَّناً فِيْ ثِيَابٍ مِنْ رَيَاحِيْنِ
فَقُلْتُ: قُمْ، قَالَ: رِجْلِيْ لاَ تُطَاوِعُنِيْ ... فَقُلْتُ: خُذْ، قَالَ : كَفِّيْ لاَ تُوَاتِيْنِيْ

---

(١) العُقارُ : الخمرُ ، وسُمِّيت بذلكَ لأَنَّها عقرتِ العقلَ ، والمعاقرَةُ : إدمانُ الشربِ من الخمرِ .

فأنتبهَ يحيىٰ لصوتِها ولرنَّةِ العودِ ، وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

يَـا سَيِّـدِيْ وَإِمَـامَ ٱلنَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... قَدْ جَارَ فِيْ حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِيْنِيْ
لَقَدْ غَفَلْتُ عَنِ ٱلسَّاقِيْ فَصَيَّرَنِيْ ... كَمَا تَرَانِيْ سَلِيْبَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّيْنِ
فَٱنْظُرْ لِنَفْسِكَ قَاضٍ إِنَّنِيْ رَجُلٌ ... اَلرَّاحُ تَقْتُلُنِيْ وَٱلرَّوحُ يُحْيِيْنِيْ

والسياقُ يقتضي : أَنَّ يحيىٰ لا يتناولُ إلاَّ القدْرُ الذي لا يسكرُ ، وهُوَ موضِعُ الخِلافِ ، وإنَّما غَفَلَ تلكَ المرَّةِ . . حتَّىٰ وقعَ فيما وقعَ فيهِ ، فلاَ يَحُطُّ مِن قَدْرِهِ عَلىٰ جلالتِهِ .

الخلاف في يحيى بن أكثم

وقدِ ٱختُلِفَ فيهِ[1] ، فأَخرجَ لَهُ الترمذيُّ والبخاريُّ - في غيرِ « الصحيحِ » - وذُكِرَ لأَحمدَ ما يرميهِ بهِ الناسُ ، فقالَ [كما في « الأعلام » ١٣٨/٨] : سبحانَ اللهِ ، مَنْ يَقولُ هـٰذا ؟ وأَنكرَهُ إِنكاراً شديداً ، وذكرَ : أَنَّهُ كانَ يُحسَدُ حَسداً شديداً ، وذُكِرَ عندَ القاضي إِسماعيلَ بنِ إِسحاقَ فَعظَّمَهُ ، وقالَ : كانَ لهُ يومٌ في الإِسلامِ لم يَكُنْ لأَحدٍ مثلُهُ ، وذكرَ هـٰذا اليومَ ، وهُوَ الذي عارضَ المأمونَ فيهِ ؛ إِذ نادىٰ بتحليلِ المتعةِ ، وما زالَ بهِ حتَّىٰ أَقنعَهُ بحرمتِها ، فذكرَ رجلٌ ما يقالُ فيهِ ، فقالَ إِسماعيلُ : معاذَ اللهِ أَنْ تزولَ عدالَتُهُ بتكْذيبِ باغٍ وحاسدٍ .

قول يحيى عن نفسه

وكانَ يحيىٰ يقولُ : كنتُ قاضياً وأَميراً ووَزيراً ، وما ولجَ سَمْعي أَحلىٰ مِن قولِ المستمليِّ : رضيَ اللهُ عنك .

---

(١) أي : في يحيى بن أكثم القاضي ، فقيه صدوق إلا أنه رمي بسرقة الحديث ، ولم يقع ذلك له ، وإنما كان يرى الرواية بالإجازة والوجادة ، مات سنة : (٢٤٣ هـ) وله ثلاث وثمانون سنة ، ولم يذكر في « التقريب » روايته عند البخاري .

وحرَّمَ الخمرَ علىٰ نفسِهِ كثيرٌ مِن أَهلِ الجاهليَّةِ ؛ محافظةً علىٰ شرفِ العقلِ :

تحريم بعض أهل الجاهلية الخمر على أنفسهم

مِنهم : عبدُ المطلِّبِ بنُ هاشمٍ ، وعبدُ اللهِ بنُ جدعانَ ، وقيسُ بنُ عاصمٍ ، وعامرُ بنُ الظِّربِ العدوانيُّ ، وورقةُ بنُ نوفلَ ، والوليدُ بنُ المغيرةَ ، وصفوانُ بنُ أُميَّةَ بنِ محرثٍ الكتانيُّ ، وعفيفُ بنُ معدِ يكربَ الكِنديُّ ، والأَسلومُ بنُ نامي الهمذانيُّ ، ومقيسُ بنُ عديٍّ السهْمِيُّ ، وخلقٌ سواهُم .

التقرب إلى السلطان بالعقل

وحضرَ نصيبٌ عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ . . فدعاهُ إِلىٰ الشرابِ فقالَ : إِنِّي لَم أَصِلْ إِليكَ بِنَفْسي وَلا بحسنِ صورَتي ، وإِنَّما قَرُبْتُ مِنكَ بِعَقْلِي ، فإِنْ رأَىٰ أَميرُ المؤمنينَ أَنْ لا يحولَ بيني وبينَهُ . . فَعَلَ .

الوليد و الحجاج

وقالَ الوليدُ لِلْحجَّاجِ : هَلْ لَكَ في الشرابِ ؟ قالَ : يا أَميرَ المؤمنين ، ليسَ بحرامٍ ما أَحلَلْتَهُ ، ولـٰكنِّي أَمنعُ أَهلَ عَمَلي مِنْهُ ، وأَخافُ أَن أُخالِفَ قولَ العبدِ الصالحِ : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود : ٨٨] فأَعفاهُ .

أيشرب نساؤكم هـٰذا؟!!

ومَرَّتْ أَعرابيَّةٌ بقومٍ يشربونَ نبيذاً ، فسقَوها ، فلمَّا شرِبَتْ أَقداحاً أَخذَتْها هزَّةٌ . . فقالَتْ : أَيشرَبُ نساؤُكم هـٰذا ؟ قالوا : نَعم ، قالَتْ : إِذاً يزنِينَ ، فوَاللهِ ما يَدري أَحدُكم مَنْ أَبوهُ .

اعتراف المتنبي على نفسه بشربها

أَمَّا الناظمُ . . فقدِ اعترفَ علىٰ نفسِهِ بشربِها فِي عدَّةِ مواضعَ مِن « ديوانِهِ » ، ولا مؤاخذَةَ عليهِ بما جرىٰ فيهِ علىٰ طريقِ الشعراءِ مِن مدحِها ، كَما في البيتِ الذي بينَ أَيدينا ، وإِنَّما نُؤَاخذُهُ بما قالَهُ مِن صريحِ الإِقرارِ ، كقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٥١ مِنَ الوافرِ] :

سَقَانِيَ ٱلْخَمْرَ قَوْلُكَ لِيْ بِحَقِّيْ ... وَوُدٌّ لَـمْ تَشُبْـهُ لِـيْ بِمَـذْقِ[1]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٥٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَقَـدْ مُـتُّ أَمْـسِ بِهَـا مَـوْتَـةً ... ومَـا يَشْتَهِيْ ٱلْمَـوْتَ مَـنْ ذَاقَهُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٤٦ ـ ٤٧ مِنَ الكاملِ] :

وَأَخٍ لنَـا بَعَـثَ ٱلطَّـلاَقَ أَلِيَّـةً ... لأُعَلِّلَـنَّ بِهَـٰـذِهِ ٱلْخُـرْطُـوْمِ[2]

فَجَعَلْـتُ رَدِّيْ عِـرْسَـهُ كَفَّـارَةً ... عَنْ شُرْبِهَا وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَثِيْمِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١١٨ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذا طَلَبْتُ رِضَىٰ ٱلأَمِيْرِ بِشُرْبِهَا ... وَأَخَذْتُهَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ ٱلأَحْرَمَا

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٢ مِن مخلَّعِ البسيطِ] :

مَـالَ عَلَـيَّ ٱلشَّـرَابُ جِـدّاً ... وَأَنْـتَ بِـٱلْمَكْـرُمَـاتِ أَهْـدَىٰ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

شَرِبْتُ عَلَىٰ ٱسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِيْنِهِ ... وَزَهْـرٍ تَـرَىٰ لِلْمَـاءِ فِيْـهِ خَـرِيْـرَا

وكثيراً ما ترَّفَ بِشُربِها مَمْدوحيهِ ، مِن ذلكَ **قولُهُ** عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ أَذِّنْ فَمَـا أَذْكَـرْتَ نَـاسِـيْ ... وَلاَ لَيَّنْـتَ قَلْبـاً وَهْـوَ قَـاسِـيْ

وَلاَ شُغِلَ ٱلأَمِيْرُ عَنِ ٱلْمَعَالِيْ ... ولاَ عَـنْ ذِكْـرِ خَـالِقِـهِ بِكَـاسِ

---

(١) **بمذق** : أي بود غير خالص ، وأصل المذق : المزج .

(٢) **الخرطومُ** : من أسماءِ الخمرِ . **الأليّةُ** : القَسَمُ . **العللُ** : السقيُ مرّةً بعدَ أُخرىٰ .

وقولُهُ ـ أيضاً عنهُ ـ [في «العُكبَريّ» ٢/ ٣٠١ مِنَ الوافرِ] :

تَعَجَّبَتِ ٱلْمُدَامُ وَقَدْ حَسَاهَا   فَلَمْ يَسْكَرْ وَجَادَ فَمَا أَفَاقَا

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمَّارٍ [في «العُكبَريّ» ٢/ ١٤٠ مِنَ الكاملِ] :

فَخَرَ ٱلزُّجَاجُ بِأَنْ شَرِبْتَ بِهِ   وَزَرَتْ عَلَىٰ مَنْ عَافَهَا ٱلْخَمْرُ

وقولُهُ عَن عضدِ الدولَةِ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٢٧٦ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ تَجِدُ ٱلْخَمْرُ فِيْ مَكَارِمِهِ   إِذا ٱنْتَشَىٰ خَلَّةً تَلاَفَاهَا

أبو نواس والخمر

أَمَّا قولُ أَبي نُواسٍ [في «ديوانهِ» ٢٩٧ مِنَ الكاملِ] :

فِيْ مَجْلِسٍ ضَحِكَ ٱلسُّرُورُ بِهِ   عَنْ نَاجِذَيْهِ وَحَلَّتِ ٱلْخَمْرُ

.. فيمكنُ أَن يكونَ جرىٰ فيهِ علىٰ خُبثِ مذهَبِهِ مِنِ ٱنتهاكِ الحرمَةِ ، وقلَّةِ المبالاةِ ، كما في قولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ تَسْقِنِيْ ٱلدَّهْرَ أَمَّا كُنْتِ لِي سَكَناً   إِلاَّ ٱلَّتِيْ نَصَّ بِٱلتَّحْرِيْمِ جِبْرِيْلُ

إِنْ كَانَ حَرَّمَهَا ٱلْفُرْقَانُ بَعْدُ فَقَدْ   أَحَلَّهَا قَبْلُ تَوْرَاةٌ وَإِنْجِيلُ

تحريم العرب الخمر على أنفسها حتى تأخذ بثأرها

ويُمكنُ أَنْ يكونَ جَرىٰ فيهِ علىٰ سُنَّةِ العربِ مِن تحريمِ الخمرِ علىٰ أَنفسِها إِذا وَتِرت حتَّىٰ تأخذَ بثأرِها ، قالَ شاعرُهم [مِنَ الكاملِ] :

ٱلْيَوْمَ حَلَّ لِيَ ٱلشَّرَابُ وَمَا   كَانَ ٱلشَّرَابُ يَحِلُّ لِيْ قَبْلُ

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في «ديوانه» ٤٤ـ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنَّا ٱلَّذِيْ آلَىٰ ثَلاَثِيْنَ حِجَّةً   عَنِ ٱلْخَمْرِ حَتَّىٰ زَارَكُمْ بِٱلْكَتَائِبِ

وَلَمَّا هَبَطْنَا ٱلسَّهْلَ قَالَ أَمِيْرُنَا   حَرَامٌ عَلَيْنَا ٱلْخَمْرُ مَا لَمْ نُضَارِبِ

وقالَ البُحْتريُّ [في « ديوانه » ٢/١٠٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

حَـرامٌ عَلَـيَّ ٱلـرَّاحُ بَعْـدَكَ أَوْ أَرَىٰ   دَماً بِدَمٍ يَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مَائِرُهْ[1]

تحريم إدارة القهوة على نحو ما تدار الخمر

وأَفتىٰ ٱبنُ حجرِ الهيتميُّ : تَبعاً لجماعَةٍ مِن علماءِ (اليمنِ) ، بحرمَةِ إِدارَةِ القهوةِ علىٰ نحوِ ما تدارُ الخمرُ بينَ الشَّرَبَةِ .

غيرَ أَنَّهُ قالَ بعدُ : لَم يتحرَّرْ عندَنا في تلكَ العادَةِ المخصوصةِ بِهِم ما يقتَضي التشابُهَ بينَها وبينَ ما يفعَلُهُ الناسُ في القهوَةِ ، ويأْتي بعضُ ما يتعلَّقُ بالشاي في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/١٨٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلاَ وَقَفْـتُ بِجِسْـمٍ مُسْـيَ ثَـالِثَـةٍ   ذِيْ أَرْسُمٍ دُرُسٍ فِيْ ٱلأَرْبَعِ ٱلدُّرُسِ[2]

* * *

---

(١) مَارَ : جرىٰ .

(٢) المسيُ : هوَ المساءُ . الرسْمُ : الأثرُ . الدرُسُ : جمعُ دارسٍ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

شَيْبُ رَأْسِيْ وَذِلَّتِيْ وَنُحُوْلِيْ	وَدُمُوْعِيْ عَلَىٰ هَوَاكَ شُهُوْدِيْ ؟!

شهود الحب كُثُر

هُوَ مِن قولِ أَبي عُبادةَ [في « ديوانِه » ٤/ ٢٢٥٢ مِنَ الكامِلِ] :

أَوَمَا كَفَاكَ بِدَمْعِ عَيْنِيْ شَاهِداً ... بِصَبَابَتِيْ ومُخَبِّراً عَنْ شَانِيْ ؟!

وقولِهِ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٥٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْثَثْتُهَا شَكْوَىٰ أَبَانَتْ عَنِ ٱلْجَوَىٰ ... وَدَمْعاً مَتَىٰ يَشْهَدْ بِبَثٍّ يُصَدَّقِ

وقولِهِ [في « ديوانه » ١/ ٧٢ مِنَ الكاملِ] :

سَأُعِدُّ مَا أَلْقَىٰ فَإِنْ كَذَّبْتِنِيْ ... فَسَلِيْ ٱلدُّمُوْعَ فَإِنَّهَا لاَ تَكْذِبُ

وقالَ أَبو تمَّام [مِن مخلَّعِ البسيطِ] :

أَلَيْسَ دَمْعِيْ وَفَرْطُ شَوْقِيْ ... وَطُوْلُ سُقْمِيْ شُهُوْدَ حُبِّيْ ؟

هل تقبل شهادة الدموع؟

ثمَّ كيفَ تُقبَلُ شهادَةُ الدمعِ معَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] ؟!

وأَخرجَ ٱبنُ المنذِرِ عنِ الشعبيِّ قالَ : جاءَتِ ٱمرأَةٌ إِلىٰ شُرَيحٍ تخاصِمُ في شيءٍ ، فجعَلَت تبْكِي ، فقَالوا : يَا أَبا أُميَّةَ ، أَما تَراها تبْكي ؟ قالَ : قَد جاءَ إِخوَةُ يوسفَ أَباهُم عشاءً يبكونَ .

وقالَ الأَعمشُ : لا يصدَّقُ باكٍ بعدَ إِخوانِ يوسفَ .

وقد يجابُ بأَنَّ بُكاءَهُم كانَ ليلاً مِن غيرِ دمعٍ ، ولَو جاؤُوا

بالعَشِيِّ . . لافتُضِحوا ، وإنَّما ٱعتمدوا الليلَ لِيُمَوِّهوا علىٰ أبيهِم بِتِلكَ الحيلَةِ التي لم تنطلِ عليهِ ، ولم يصدِّقْهُم فيها .

وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٩٤ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا ٱشْتَبَكَتْ دُمُوْعٌ فِيْ خُدُوْدٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَىٰ مِمَّنْ تَبَاكَىٰ

غيرَ أنَّهُ يأتي إشكالٌ آخرُ بِما جاءَ في الأثَرِ ـ أوِ الخَبَرِ ـ مِن أنَّهُ : « إذا تَمَّ فُجُوْرُ ٱلْمَرْءِ . . بَدَرَتْ دمْعَتُهُ »[1] .

التعنت في الحب

وقد قالَ سِبطُ ٱبنِ التعاويذيِّ يمدَحُ الوزير عونَ الدينِ يحيىٰ بنَ هبيرةَ [في « ديوانه » ٣٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قُلْتُ : قَدْ أَنْحَلْتِ جِسْمِيْ صَبَابَةً تَقُوْلُ: وَهَلْ حُبٌّ بِغَيْرِ نُحُوْلِ

وَإِنْ قُلْتُ: دَمْعِي بِٱلأَسَىٰ فِيْكَ شاهِدٌ تَقُوْلُ: شُهُوْدُ ٱلدَّمْعِ غَيْرُ عُدُوْلِ

ارحم شبابك من عدو . . ترحم

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٢٥ مِنَ الكاملِ] :

لاَ يَخْدَعَنَّكَ مِنْ عَدُوٍّ دَمْعُهُ وَٱرْحَمْ شَبَابَكَ مِنْ عَدُوٍّ تُرْحَمِ

تعليق المؤلف على الحديث

ويُجابُ أَوَّلاً : بأَنْ لاَ أَصْلَ لِلخَبَرِ ، كَما في « فتاوىٰ الجمالِ الرمْليِّ » .

تعليقه على المتنبي

وثانياً : بأَنَّ الناظمَ لَمْ يكتفِ بالدمعِ وحدَهُ حتَّىٰ ضمَّهُ إِلىٰ الذِّلَّةِ والنحولِ ، وفي ٱجتماعِها ما يكفِي لِلْحُجَّةِ ، وقد قالوا : لا يُحتَجُّ بِمَراسيلِ كبارِ التابعينَ . . حتَّىٰ تنعَضِدَ بضعيفٍ ، أو قياسٍ ، أو

(١) أورده في « كنز العمال » (٨٤٧) عن عقبة بن عامر بلفظ : « إذا تم فجور العبد . . ملك عينيه ، فبكىٰ منهما متىٰ شاء » . وعزاه لابن عدي في « الكامل » .

عملٍ ، أَوْ مرسَلٍ ، فيكونُ المجموعُ حُجَّةً عندَ الشافعيِّ ، لا مجرَّدُ المرسَلِ ، وَلا العاضِدِ ، وهٰذا نظيرُهُ .

ومِنْ لَطيفِ شعرِ أَبي الشِّيصِ الخزاعيِّ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٥ مِنَ الوافرِ] :

وَقَائِلَةٍ وَقَدْ بَصُرَتْ بِدَمْعٍ ... عَلَىٰ ٱلْخَدَّيْنِ مُنْحَدِرٍ سَكُوْبِ

أَتَكْذِبُ فِيْ ٱلْبُكَاءِ وَأَنْتَ خِلْوٌ؟! ... قَدِيماً مَا جَسَرْتَ عَلَىٰ ٱلذُّنُوْبِ

قَمِيصُكَ وَٱلدُّمُوْعُ تَجُوْلُ فِيْهِ ... وَقَلْبُكَ لَيْسَ بِٱلْقَلْبِ ٱلْكَئِيْبِ

نَظِيْرُ قَمِيصِ يُوْسُفَ حِيْنَ جَاؤُوْا ... عَلَىٰ لَبَّاتِهِ بِدَمٍ كَذُوْبِ[1]

فَقُلْتُ لَهَا : فِدَاكِ أَبِيْ وَأُمِّيْ ... رَجَمْتِ بِسُوْءِ ظَنِّكِ فِيْ ٱلْغُيُوْبِ

أَمَا وَٱللهِ لَوْ فَتَّشْتِ قَلْبِيْ ... لَسَرَّكِ بِٱلْعَوِيْلِ وَبِٱلنَّحِيْبِ

دُمُوْعُ ٱلْعَاشِقِيْنَ إِذَا تَلاَقَوْا ... بِظَهْرِ ٱلْغَيْبِ أَلْسِنَةُ ٱلْقُلُوْبِ

وقالَ جميلُ بنُ مَعْمَرٍ [في « ديوانه » ٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ مَا أُخْفِيْ مِنَ ٱلْوَجْدِ بَاطِنٌ ... وَدَمْعِي بِمَا قُلْتُ ٱلْغَدَاةَ شَهِيْدُ

وقالَ قيسُ ٱبنُ ٱلملوَّحِ [في « ديوانهِ » ٧٩ـ٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَشاهِدُ وَجْدِيْ دَمْعُ عَيْنِيْ وَحُبُّهَا ... بَرَىٰ ٱللَّحْمَ عَنْ أَحْنَاءِ عَظْمِيْ وَمَنْكِبِيْ[2]

أَلاَ إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... صَدَىً أَيْنَمَا تَذْهَبْ بِهِ ٱلرِّيْحُ يَذْهَبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنَّ ٱلَّذِيْ أَمَّلْتُ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ ... أَشَابَ قَذَالِيْ وَٱسْتَهَامَ فُؤَادِيَا[3]

---

(١) اللَّبَّةُ : موضعُ المَنْحَرِ .

(٢) أَحناءُ الجسمِ : أَطرافُهُ ونواحيهِ .

(٣) القذالُ : جماعُ مؤَخَّرِ الرأسِ .

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إذَا مَا شَكَوْتُ ٱلْحُبَّ قَالَتْ: كَذَبْتَنِي فَمَا لِيَ أَرَىٰ ٱلأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا
فَلاَ حُبَّ حَتَّىٰ يَلْصَقَ ٱلْجِلْدُ بِٱلْحَشَا وَتَخْرَسَ حَتَّىٰ لاَ تُجِيْبَ ٱلْمُنَادِيَا

وقالَ ديكُ الجِنِّ [في « ديوانِهِ » ١٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

زَعَمْتُمْ بِأَنِّيْ قَدْ سَلَوْتُ وِصَالَكُمْ فَلِمْ ذَرَفَتْ عَيْنِيْ؟ وَلِمْ شَابَ مَفْرِقِيْ؟

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٧٩٣ مِنَ الكاملِ] :

سِمَةُ ٱلصَّبَابَةِ زَفْرَةٌ أَوْ عَبْرَةٌ مُتَكَفِّلٌ بِهِمَا حَشاً وَشُؤُوْنُ[1]

وقالَ خالدٌ ٱلكاتبُ [مِنَ البسيطِ] :

مَا زِلْتُ أُنْكِرُ مَا أَلْقَىٰ وَأَجْحَدُهُ فَٱسْتَشْهَدَ ٱلْعَاذِلُوْنَ ٱلدَّمْعَ وَٱلنَّفَسَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

لِيْ فِيْ مَحَبَّتِهِ شُهُوْدٌ أَرْبَعٌ وَشُهُوْدُ كُلِّ قَضِيَّةٍ إِثْنَانِ
خَفَقَانُ قَلْبٍ وَٱضْطِرَابُ جَوَارِحٍ وَنُحُوْلُ جِسْمٍ وَٱعْتِقَالُ لِسَانِ

وقالَ ٱبنُ جابرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادَتْ عَلَىٰ دَعْوَىٰ ٱلْمَحَبَّةِ شَاهِداً فَقُلْتُ لَهَا : هَـٰذِيْ دُمُوْعِيَ فَٱسْأَلِيْ

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانه » ٤٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِدَمْعِ ٱلْعَيْنِ أَمْعِنْ لأَنَّهُ بِمَا لاَ يَرَىٰ مِنْ غَائِبِ ٱلْحُزْنِ يَشْهَدُ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

خَبَرِيْ خُذُوْهُ عَنِ ٱلضَّنَا وَعَنِ ٱلأَسَىٰ لَيْسَ ٱللِّسَانُ وَإِنْ تَلِفْتُ بِمُخْبِرِ

---

(١) الشؤونُ : مجرى الدمع .

قلة الدمع.. من شدة الوله وجور الصبابة

وجاءَ : أَنَّ قِلَّةَ الدمعِ قد تكونُ من شدَّةِ الوَلَهِ وجَورِ الصبابةِ ، ولا يبعدُ أَن يكونَ منهُ قولُ عائِشةَ [كما في حديث الإفك عند « البخاري » ٢٦٦١] : فقَلَصَ دمْعي حتَّىٰ ما أُحِسُّ منهُ قطرةً .

ومنهُ ما يعزىٰ إلىٰ يزيدَ [في « ديوانهِ » ٥٧ مِنَ البسيطِ] :

لا تَرْحَلَنَّ فَمَا أَبْقَيْتَ مِنْ جَلَدِيْ ... مَا أَسْتَطِيْعُ بِهِ تَوْدِيْعَ مُرْتَحِلِ
وَلاَ مِنَ ٱلنَّوْمِ مَا أَلْقَىٰ ٱلْخَيَالَ بِهِ ... وَلاَ مِنَ ٱلدَّمعِ مَا أَبْكِيْ عَلَىٰ ٱلطَّلَلِ

وقولُ بعضِهِم [في « ديوانِ أَبي حيَّةَ النميريِّ » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ مُقْلَتِيْ مِنْ غَابِرِ ٱلْمَاءِ تَنْجَلِيْ ... وَلاَ دَمْعَتِيْ مِنْ مَكْمَدِ ٱلْوَجْدِ تَقْطُرُ

وهـٰذا البيتُ ، ثالثُ بيتينِ لأَبي حيَّةَ النميريِّ مِن خالصِ القولِ ، وهما [في « ديوانهِ » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

نَظَرْت كَأَنِّيْ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ ... إِلَىٰ ٱلدَّارِ مِنْ فَرْطِ ٱلصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
بِعَيْنَيْنِ طَوْراً يَغْرَقَانِ مِنَ ٱلْبُكَا ... فَأَعْشَىٰ وَطَوْراً يُحْسَرَانِ فَأُبْصِرُ

وهو مثلُ قولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْسَانُ عَيْنِيْ يَحْسِرُ ٱلْمَاءَ تَارَةً ... فَيَبْدُوْ وَأَحْيَاناً يَجُمُّ فَيَغْرَقُ[1]

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ١١٦ مِنَ الكاملِ] :

نَزَفَ ٱلْبُكَاءُ دُمُوْعَ عَيْنِكَ فَٱسْتَعِرْ ... عَيْنَـاً لِغَيْـرِكَ دمْعُهَـا مِـدْرَارُ

وقالَ الأَبلَهُ [مِنَ الكاملِ] :

قَـدْ كُنْـتُ ذَا دَمْـعٍ وَذَا جَلَـدٍ ... فَبَقِيْـتُ لاَ جَلَـداً وَلاَ دَمْعَـا

---

(١) يجمُّ : يكثرُ ويجتمعُ .

وقالَ ٱبنُ الفارِضِ [مِنَ الرَّمَلِ] :

ذَابَتِ ٱلرُّوحُ ٱشْتياقاً فَهِيَ بَعْـ ـدَ نَفَادِ ٱلدَّمعِ أَجْرَىٰ عَبرَتَيْ
فَهَبُـوْ عَيْنَـيَّ مَـا أَجْـدَىٰ ٱلْبُكَـا عَيْـنَ مَـاءٍ فهِـيَ إِحْـدَىٰ مُنْيَتَـيْ

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

الإشارات والكناية في الحب

وَقَـائِلَـةٍ : مَـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَخْضَـراً فَقُلْتُ لَهَا : هَلْ تَفْهَمِيْنَ إِشَارَتِيْ ؟
أَلَمْ تَعْلَمِيْ أَنَّ ٱلدُّمُوْعَ تَجفَّفَتْ فَأَجْرَيْتُهَا يَا مُنْيَتِيْ مِنْ مَرَارَتِيْ

وَلا يخفىٰ ما في هـٰذينِ مِنَ ٱلانحطاطِ، ولـٰكنْ قد يقبلُ قولُ الآخَرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَائِلَةٍ : مَا بَالُ دَمْعِكَ أَسْوَداً وَقَدْ كَانَ مُحْمَرّاً وَأَنْتَ نَحِيْلُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ ٱلدُّمُوْعَ تَصَرَّمَتْ وَهـٰذَا سَوَادُ ٱلْعَيْنِ فَهُوَ يَسِيْلُ

اجمل ما قيل في الدموع

وأَمَّا ٱلَّذي تُعقَدُ الخَناصِرُ عَلَيهِ . . فإِنَّما هُوَ قولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـائِلَـةٍ : مـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَبْيَضـاً؟ فَقُلتُ لَهَا : يَا عُلْوُ هـٰذَا ٱلَّذِيْ بَقِيْ
أَلَـمْ تَعْلَمِـيْ أَنَّ ٱلْبُكَـا طَـالَ عُمْـرُهُ فَشَابَتْ دُمُوْعِيْ مِثْلَ مَا شَابَ مَفْرِقِيْ
وَعَمَّا قَلِيْلٍ لاَ دُمُوْعِيْ وَلاَ دَمِيْ تَرَيْنَ وَلَـٰكِنْ لَوْعَتِيْ وَتَحَرُّقِيْ

وقولُ ٱبنِ الخيَّاطِ [في « ديوانهِ » ٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ إِذا مَا ٱشْتَقْتُ عَوَّلْتُ فِيْ ٱلْبُكَا عَلَـىٰ لُجَّـةٍ إِنسَـانُ عَيْنِـيْ غَـرِيْقُهَـا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَا ٱلدَّمعِ إِلاَّ نَشِيْجُهُ وَمِنْ كَبِدِ ٱلْمُشْتَاقِ إِلاَّ خُفُوْقُهَا
فَيَا لَيْتَنِيْ أَبْقَىٰ لِيَ ٱلدَّهْرُ عَبْرَةً فَأَقْضِيْ بِهَا حَقَّ ٱلنَّوَىٰ وأُرِيْقُهَا

وقالَ ٱبنُ ٱللَّبَّانَةِ [في « نفح الطيب » ٤/٢٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بَكَيْتُكِ حَتَّىٰ لَمْ يُخَلِّ لِيَ ٱلأَسَىٰ دُمُوْعاً بِهَا أَبْكِيْ عَلَيْكِ وَلاَ دَمَا

ومِن محاسِنِ ٱلبارودِيِّ [في « ديوانه » ٤٩ مِنَ الوافر] :

فَزِعْتُ إِلىٰ ٱلدُّمُوْعِ فَلَمْ تُجِبْنِي ... وَفَقْدُ ٱلدَّمْعِ عِنْدَ ٱلْحُزْنِ دَاءُ
وَمَا قَصَّرْتُ فِي جَزَعٍ وَلٰكِنْ ... إِذا غَلَبَ ٱلأَسَىٰ ذَهَبَ ٱلْبُكَاءُ

ويأْتي عند ذكرِ بكاءِ الحمامِ بعضُ ما يتَّصِلُ بهِ .

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٥٤ مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَرُبَّ كَئِيْبٍ لَيسَ تَنْدَىٰ جُفُوْنُهُ ... وَرُبَّ كَثِيْرِ ٱلدَّمْعِ غَيْرُ كَئِيْبِ

وقالَ القطبُ الحدَّادُ [في «ديوانه» (١٥٦) مِنَ الطَّوِيلِ] :

أَجُوْدُ بِدَمْعِي وَٱلدُّمُوعُ عَلَىٰ ٱلْخَدِّ ... شُهُوْدٌ عَلَىٰ ٱلأَشْوَاقِ وَٱلْحُزْنِ وَٱلْوَجْدِ

اجود بدمعي والدموع على الخد

أُحِسُّ بِقَلْبِي حَسْرَةً وَكَآبَةً ... لِمَا نَالَنِيْ مِنْ وَحْشَةِ ٱلْبَيْنِ وَٱلصَّدِّ
إِذَا رُمْتُ مِنْ نَجْدٍ دُنُوّاً تَرَاحَمَتْ ... عَلَيَّ أُمُوْرٌ تَقْتَضِيْ ٱلْبُعْدَ عَنْ نَجْدِ
وَعَنْ جِيْرَةِ ٱلْحَيِّ ٱلأُولَىٰ حَلَّ حُبُّهُمْ ... فُؤَادِيْ فَأَلْهَانِي عَنِ ٱلْقَبْلِ وَٱلْبَعْدِ
مَحَبَّتُهُمْ دِيْنِي وَفَرْضِي وَسُنَّتِي ... وَعُرْوَتِيَ ٱلْوُثْقَىٰ وَأَفْضَلُ مَا عِنْدِيْ
وَمَهْمَا سَرَتْ لِيْ نَسْمَةٌ مِنْ رُبُوعِهِمْ ... يُخَالِطُهَا عَرْفُ ٱلْبَشَامَاتِ وَٱلرَّنْدِ(1)
وَرِيحُ ٱلْخُزَامَىٰ وَٱلأَرَاكِ يُهِيجُ لِيْ ... شُجُوْنِيَ حَتَّىٰ لاَ أُعِيْدُ وَلاَ أُبْدِيْ
فَمَا حِيْلَتِيْ وَٱلْعُمْرُ وَلَّىٰ وَلَمْ أَنَلْ ... لِقَاهُمْ وَمَا لِلْعُمْرِ إِنْ فَاتَ مِنْ رَدِّ
وَإِنِّي مُقِيْمٌ فِيْ مَوَاطِنِ غُرْبَةٍ ... عَلَىٰ كَثْرَةِ ٱلأُلاَّفِ فِيْ جَانِبٍ وَحْدِيْ
قَرِيبٌ بَعِيْدٌ بَائِنٌ غَيْرُ بَائِنٍ ... وَحِيْدٌ فَرِيْدٌ فِيْ طَرِيْقِيْ وَفِيْ قَصْدِيْ
أُمُوْرٌ وَأَحْوَالٌ تَعِنُّ وَلَمْ أَجِدْ ... عَلَيْهَا مُعِيْناً وَهْيَ تَقْعُدُ بِٱلْفَرْدِ

---

(١) البشاماتُ : شجرٌ عَطِرُ الرائحةِ ، وَرَقُهُ يسوِّدُ الشَّعرَ ، ويُستاكُ بقضُبهِ . الرَّندُ : عودٌ لطيفٌ ، طيِّبُ الرائحةِ .

وهـٰذهِ الأبياتُ وإن لَم تتَّصِلْ كُلُّها بِالموضوعِ.. فإنَّ رقَّتَها وٱنسجامَهَا، ووخزها للأكبادِ، وتحريكَها للأشجانِ، وصدورَها عَن قلبٍ وامِقٍ، وحبٍّ صادِقٍ، كلُّ ذلكَ.. هزَّ البنانَ، وأطلقَ العنانَ، ويعجبني فيما يتَّصِلُ بِالموضوعِ قولُه ـ أيضاً ـ [في «ديوانه» (٣٩٩) مِنَ الطَّويلِ]:

سَأَبْكِيْ عَلَيْهِمْ مَا حَيِيْتُ بِعَبْرَةٍ لَهَا مَدْمَعٌ فِيْ ٱلْخَدِّ تَشْهَدُ بِٱلثُّكْلِ

وقد سبقَ قبيلَ شرحِ قولِهِ: (فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدِ).

وفي شرحِ قولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٣/ ١٦٣ من البسيط]:

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا يَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَداً وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاَ

البكاء من خشية الله مطلوب

.. بعضُ ما يتعلَّقُ بالبُكاءِ، وهو مِن خشيةِ اللهِ مطلوبٌ، وما لا يتجاوزُ الدمعَ غيرُ محظورٍ مطلقاً، ولـٰكنْ قالَ ٱبنُ الفارضِ [مِنَ الطَّويلِ]:

وَيَحْسُـنُ إِظْهَـارُ ٱلتَّجَلُّـدِ لِلْعِـدَا وَيَقْبُحُ غَيْرُ ٱلْعَجْزِ عِنْدَ الأَحِبَّةِ

وقالَ الناظمُ [في «العُكبَرِيِّ» ٢/ ٢٦٨ـ٢٦٩ مِنَ الكاملِ]:

اَلْحُـزْنُ يُقْلِـقُ وَٱلتَّجَمُّـلُ يَـرْدَعُ وَٱلـدَّمْـعُ بَيْنَهُمَـا عَصِـيٌّ طَيِّـعُ
إِنِّـيْ لأَجْبُـنُ مِـنْ فِـرَاقِ أَحِبَّتِـيْ وَتُحِسُّ نَفْسِيْ بِٱلْحِمَامِ فَأَشْجُعُ
وَيَزِيْدُنِيْ غَضَبُ ٱلأَعَادِيْ قَسْوَةً وَيُلِمُّ بِيْ عَتْبُ ٱلصَّدِيْقِ فَأَجْزَعُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في «ديوانه» ١/ ٢٩٠ مِنَ الطَّويلِ]:

جَلِيْدٌ عَلَىٰ عَتْبِ ٱلْخُطُوْبِ إِذا عَرَتْ وَلَسْتُ عَلَىٰ عَتْبِ ٱلأَخِلاَّءِ بِٱلْجَلْدِ

ثمَّ إِنَّ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ . . إشارةً إِلىٰ أَنَّ الذي شَيَّبهُ هُو الهوىٰ ، ومثلُهُ لاَ يُحصىٰ كثرةً في أَشعارِ الناسِ .

أسباب الشيب كثيرة

أَمَّا سيِّدُ البشَرِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فقد قالَ : « شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا »[1] .

وأَمَّا عبدُ الملكِ بنُ مروانَ فقالَ [في « الكامل » ٤/٢٣٩] : شيَّبَني ٱرْتقاءُ المنابرِ ، واتِّقاءُ ٱللَّحْنِ .

وأَمَّا البُحتريُّ : فقد أَهانَ نفسَهُ ؛ إِذِ ٱعترفَ بأَنَّ شيبَهُ مِن كثرةِ السؤَالِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٤/٢٠٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَشَيَّبَنِـي أَنْ لاَ أَزَالُ مُجَـدِّداً سَـرَابِيْـلَ تَسْـآلٍ كَثِيْـرَ ٱلْمَغَـارِمِ

وكلٌّ ذلكَ داخلٌ تحتَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/١٢٤ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلْهَمُّ يَخْتَرِمُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

وزعمَ بعضُ الأَقدمينَ : أَنَّ الذي شيَّبَهُ ٱلطِّيْبُ فقالَ :

إِنَّمَـا شَيَّبَنِـي ٱلطِّيْـ ـبُ وَأَنْفَـاسُ ٱلْغَـوَانِـيْ
وَٱهْتِمَـامِـيْ بِنَـزِيْـلٍ أَوْ بِضَيْـفٍ أَوْ بِعَـانِ[2]
قَصُـرَتْ عَـنْ جَـانِـبِ ٱلْحَـ ـقِّ لَـهُ مِنِّـيْ ٱلْيَـدَانِ

(١) أخرجه عن عقبة بن عامر الطبراني في « المعجم الكبير » (٦/١٤٨) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رواه الترمذي (٣٢٩٣) في التفسير ، وقال : غريب . وأورده العجلوني في « كشف الخفاء » (١٥٧٢) وسرد أقوال أهل العلم فيه .

(٢) العاني : الأسيرُ .

وقالَ الآخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَلاَ ٱلْأَذْفَرُ ٱلْأَحْوَىٰ مِنَ ٱلطِّيْبِ فَرْقَهُ ... وَطِيْبِ ٱلدِّهَانِ رَأْسَهُ فَهْوَ أَنْزَعُ[1]

أكثـر العـرب علـى أن الشيب من الوقائع

وأَكثرُ العَربِ . . تزعُمُ الشيبَ مِنَ الأَهوالِ والوقائعِ ، وقالَ شاعرُهُم [كما في « شذرات الذهب » ١١٨/١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا شَابَ رَأْسِيْ مِنْ سِنِيْنَ تَتَابَعَتْ ... عَلَـيَّ وَلَـٰكِـنْ شَيَّبَتْنِـيْ ٱلْـوَقَـائِـعُ

وقالَ الرضيُّ [في « ديوانه » ٩٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا شِبْتُ مِنْ طُوْلِ ٱلسِّنِيْنِ وَإِنَّمَا ... غُبَارُ حُرُوْبِ ٱلدَّهْرِ غَطَّىٰ سَوَادِيَا

وقد قالَ عزَّ ٱسمُهُ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمّل : ١٧ـ١٨] . ولِلشَّيبِ وما يتعلَّقُ بهِ غيرُ هـٰذا المكانِ .

* * *

(١) الأذفَرُ : النتنُ الرائِحةِ . الأحوى : الأسود . النزعَةُ : الموضعُ من رأسِ الأنزعِ ، وهما نزعتان ترتفعان في جانبي الناصية .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٩ مِنَ الخفيفِ] :

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِيْ بِوِصَالٍ   لَمْ تَرُعْنِيْ ثَلاَثَةً بِصُدُوْدِ ؟!

يقولُ : لَم تسُرَّني بالوصالِ يوماً ، إلاَّ رُعْتَني بالصدودِ ثلاثاً . فـ (أَيَّ) : ٱستفهاميَّةٌ ، يرادُ مِنها النفيُ ، وهٰذا طمعٌ شديدٌ مِنَ الناظمِ ، وإلاَّ . . فالعشَّاقُ ـ كَما سبقَ في عدَّةِ مواضعَ ، مِنها المجلسُ الثاني ، ومِنْها ما قُبيلَ الكلامِ علىٰ قولِهِ : (عَلَّ ٱلأَمِيْرَ يَرَىٰ ضَعْفِيْ فَيَشْفَعَ لِيْ . . إلخ) ـ كانوا يَقْتَنِعونَ باليَسيرِ مِن أنواعِ الوِصَالِ .

مسكين المتنبي يبتغي الربح من الحبيب!! إن هذا لشيء عجاب

قالَ قيسٌ [في « ديوانه » ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عِدِيْنِيْ ـ بِنَفسِيْ أَنْتِ ـ وَعْداً فَرُبَّمَا   جَلاَ كُرْبَةَ ٱلْمَحْزُوْنِ عَنْ قَلْبِهِ ٱلْوَعْدُ

لم تكن راحة القلب يوماً بدون القناعة باليسير من المحبوب والشعراء تشهد بذلك

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عِدِيْنِيْ بِوَصْلٍ وَٱمْطُلِيْ بِنَجَازِهِ   فَعِنْدِيْ إِذَا صَحَّ ٱلْهَوَىٰ حَسُنَ ٱلْمَطْلُ

وقالَ قيسٌ [في « ديوانه » ١٠٢ـ١٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ تَكُ لُبْنَىٰ قَدْ أَتَىٰ دُوْنَ قُرْبِهَا   حِجَابٌ مَنِيْعٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيْلُ

فَإِنَّ نَسِيْمَ ٱلْجَوِّ يَجْمَعُ بَيْنَنَا   وَنُبْصِرُ قَرْنَ ٱلشَّمْسِ حِيْنَ تَزُوْلُ

وَأَرْوَاحُنَا بِٱللَّيْلِ فِيْ ٱلنَّوْمِ تَلْتَقِيْ   وَنَعْلَمُ أَنَّا بِٱلنَّهَارِ نَقِيْلُ

وَتَجْمَعُنَا ٱلأَرْضُ ٱلْقَرَارُ وَفَوْقَنَا   سَمَاءٌ نَرَىٰ فِيْهَا ٱلنُّجُوْمَ تَجُوْلُ

إِلَىٰ أَنْ يَعُوْدَ ٱلدَّهْرُ سِلْماً وَتَنْقَضِيْ   تِرَاتٌ يَرَاهَا عِنْدَنَا وَذُحُوْلُ[1]

---

(١) الذحُولُ : الثأرُ والعداوةُ والحقدُ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ ٱلنَّهَارِ فَسَلِّمِيْ ... فَإِنِّيْ يُسَلِّيْنِيْ عَلَيْكِ طُلُوْعُهَا

أَلا وإِنَّ ٱجتماعَ الأَبصارِ علىٰ رؤْيَةِ نحوِ الهلالِ.. لَنوْعٌ مِنَ الوِصالِ ، غيرَ أنَّه لا يتيسَّر لِكلِّ مُفارِقٍ معَ بُعدِ الشقَّةِ ، وتفارُطِ البعدِ ؛ إذ لا يحصُلُ كلُّهُ لِمَن كانَ مثلاً بـ(جاوا)[1] وأَهلُهُ بـ(حضرموت) ، غيرَ أنَّهم شركاءُ بعدُ في التمنِّي ، الذي يعوِّلُ بعضُهُم عليهِ في بَلِّ غُلَّةِ الجَوىٰ ، وتَسكينِ حرِّ النوىٰ .

قالَ أَبو حيَّةَ النميريُّ [في « ديوانهِ » ١٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَاوَيْتُ جُرْحَ ٱلْقَلْبِ مِنهُنَّ بِٱلْمُنَىٰ ... وَبِٱللَّحْظِ ـ لَوْ يَبْذُلْنَهُ ـ ٱلْمُتَسَرِّقِ

وقالَ ٱبنُ سارةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَانِيَّ مِنْ لَيْلَىٰ حِسَانٌ كَأَنَّمَا ... سَقَتْنِيْ بِهَا لَيْلَىٰ عَلَىٰ ظَمَإٍ بَرْدَا

مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ ٱلْمُنَىٰ ... وَإِلاَّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدَا

وقالَ غيرُهُ [وهوَ البستيُّ كما في « النجوم الزاهرة » ٤/ ٢٢٩ مِنَ الوافرِ] :

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكِ لاَ يُرَجَّىٰ ... وَلَكِنْ لاَ أَقَلَّ مِنَ ٱلتَّمَنِّيْ

وقالَ مِهيارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِيْ ... فَهَلْ تَمْنَعُوْنَ ٱلْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاهَا ؟!

وهُو قريبٌ مِمَّا أَملاهُ أَبو بكرٍ الأَنباريُّ عَن بعضِ العربِ [وهوَ توبةُ ٱلخفاجيُّ مِنَ الطَّويلِ] :

فَهلاَّ مَنَعْتُمْ إِذْ مَنَعْتُمْ كلاَمَهَا ... خَيَالاً يُوَافِيْنِيْ عَلَىٰ ٱلنَّأْيِ هَادِيَا

---

(١) جاوا : من بلاد (أندونيسيا) .

سَقَىٰ ٱللهُ أَطْلاَلاً بِأَكْثِبَةِ ٱلْحِمَىٰ ... وَإِنْ كُنَّ قَدْ أَبْدَيْنَ لِلنَّاسِ مَا بِيَا[1]

مَنَازِلُ لَوْ مَرَّتْ بِهِنَّ جَنَازَتِي ... لَقَالَ ٱلصَّدَىٰ يَا صَاحِبَيَّ ٱنْزِلاَ بِيَا

وغنَّتْ إحدىٰ حَظَايا محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ بما يلي [في «الأغاني» ٢٣/ ١٩٤ مِنَ الخفيفِ] :

حَجَبُوهَا عَنِ ٱلرِّيَاحِ لأَنِّي ... قُلْتُ : يَا رِيحُ بَلِّغِيهَا ٱلسَّلاَمَا

لَوْ رَضُوا بِٱلْحِجَابِ هَانَ وَلَٰكِنْ ... مَنَعُوهَا يَوْمَ ٱلرِّيَاحِ ٱلْكَلاَمَا

فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ لِطَيْفِي : ... وَيْكَ إِنْ زُرْتَ طَيْفَهَا إِلْمَامَا

حَيِّهَا بِٱلسَّلاَمِ سِرّاً وَإِلاَّ ... مَنَعُوهَا لِشِقْوَتِي أَنْ تَنَامَا

وقالَ ٱبن قاضي (مَيْلَةَ) مِن قصيدَةٍ لَهُ شائقة ـ أَوردَها ٱبنُ خلِّكانَ[2] فِي ترجمةِ يَحيىٰ بنِ أَكْثَمَ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَآيَسَنِي مِنْ وَصْلِهِ أَنَّ دُونَهُ ... مَتَالِفَ تَسْرِي ٱلرِّيحُ فِيهَا فَتَتْلَفُ

وَغَيْرَانُ يَجْفُو ٱلنَّوْمَ كَيْ لاَ يَرَىٰ لَنَا ... إِذَا نَامَ شَمْلاً فِي ٱلْكَرَىٰ يَتَأَلَّفُ

والأَوَّلُ مِن قولِ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ السابقِ في شرحِ قولِهِ [في «العكبَريّ» ٣/ ١٧٠ مِنَ البسيطِ] :

عَقَدْتُ بِٱلنَّجْمِ طَرْفِي فِي مَفَاوِزِهِ ... وَحُرَّ وَجْهِي بِحَرِّ ٱلشَّمْسِ إِذْ أَفَلاَ

مِن المجلسِ الثامن ، وهُوَ قولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ وَاحِدِ ٱلدُّنْيَا تَخَطَّتْ رِكَابُنَا ... تَنَائِفَ فِيمَا بَيْنَهَا ٱلرِّيحُ تَلْغَبُ

---

(١) الأَكْثِبَةُ : جمع كثيب ؛ وهو : ما اجتمع مِنَ الرَّملِ .

(٢) في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/ ١٥٩ .

وقالَ ٱبنُ زيدونَ [مِنَ الكاملِ] :

يُدْنِي مَزَارَكِ حِيْنَ شَطَّ بِهِ ٱلنَّوَىٰ ... أَمَـلٌ أَكَـادُ بِـهِ أُقَبِّـلُ فَـاكِ

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٤٩ مِنَ الكاملِ] :

يُـدْنِـي ٱلْحَبِيْـبَ وَإِنْ تَنَـاءَتْ دَارُهُ ... طَيْفُ ٱلْمَلَامِ لِطَرْفِ سَمْعِيَ ٱلسَّاهِرِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مُمَثَّلَـةٌ حَتَّـىٰ كَـأَنْ لَـمْ تُفَـارِقِـيْ ... وَحَتَّىٰ كَأَنَّ ٱلْيَأْسَ مِنْ وَصْلِكِ ٱلْوَعْدُ

وَحَتَّىٰ تَكَادِيْ تَمْسَحِيْنَ مَدَامِعِيْ ... وَيَعْبَقُ فِيْ ثَوْبَيَّ مِنْ رِيْحِكِ النَّدُّ

هٰذا بعضُ ما يقالُ في تمنِّي الوصَالِ ، وأمَّا مطلَقُ التمنِّي ، وما قيلَ فيهِ مدحاً وذمّاً : فله مكانٌ آخرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ويُعجِبُني قولُ بعضِ المغاربةِ [وهو الحافظ أبو الربيع ابن سالم كما في « نفح الطيب » ٤/ ٣٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

الرضا والسخط والكلام علىٰ ذلك

إِذَا بَرِمَتْ نَفْسِيْ بِحَالٍ أَحَلْتُهَا ... عَلَىٰ أَمَلٍ نَاءٍ فَقَرَّتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ

وَإِنْ أَوْحَشَتْنِـيْ مِـنْ أَمَـانِـيَّ جَفْـوَةٌ ... فَلِيْ فِيْ ٱلرِّضَا بِٱللهِ وَٱلْقَدَرِ الأُنْسُ

وصدقَ واللهِ ، فالمتسخِّطُ ضيِّقُ العطَنِ[1] ، جويُّ[2] الوطَنِ ، كثيرُ الهمومِ ، مَنْزورُ السرورِ ، لا يلَذُّ لَهُ النومُ ، وَلا يصفو لهُ اليومُ [قال الناظم في « العُكبَري » ٢/ ٣٦٠ مِنَ البسيطِ] :

كَرِيْشَةٍ بِمَهَبِّ ٱلرِّيْحِ سَاقِطَةٍ ... لاَ تَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ مِنَ ٱلْقَلَقِ

(١) العطَنُ : مبركُ الإبلِ ، وهوَ كنايةٌ عن ضيقِ الأرضِ على ٱتساعها في عيني المتسخِّطِ .

(٢) الجويُّ : ضيِّقُ الصدرِ .

بخلافِ الراضي . . فإنَّه رَابطُ الجأشِ ، ذاهبُ الإيحاشِ ، رَخيُّ البالِ ، سعيدُ الحالِ ، جَمٌّ الانشراحِ ، كثيرُ الارتياحِ .

ولله دَرُّ ٱلقطبِ ٱلحدَّادِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ تَرْضَ بِٱلْمَقْسُوْمِ عِشْتَ مُنَعَّمَا ... وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرْضَىٰ بِهِ عِشْتَ فِيْ حَزَنْ

وقولِهِ [في « ديوانه » ٤٨٩] :

أَنتَ وَالْخَلاَئِقْ كُلُّهُمْ عَبِيْدْ ... وَالإِلَـٰهُ فِيْنَا يَفْعَلْ مَا يُرِيْدْ

فِكْرُكْ وَٱخْتِيَارُكْ وَيْحَكْ ما يُفِيْدْ ... اَلْقَضَا تَقَدَّمْ فَاغْنَمِ السُّكُوْنْ

لا يَكْثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُوْنْ

اَلَّذِيْ لِغَيْرِكْ لاَ يَصِلْ إِلَيْكْ ... وَالَّذِيْ قُسِمْ لَكْ حَاصِلٌ لَدَيْكْ

فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكْ وَٱلَّذِيْ عَلَيْكْ ... فِيْ فَرْضِ ٱلْحَقِيْقَهْ وَٱلشَّرْعِ ٱلْمَصُوْنْ

لاَ يَكْثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُوْنْ

التوكل والتواكل والفرق بينهما

ومِن قولِهِ : (فٱشتغِلْ بربِّكَ والذي عليكَ) . . تعرِفُ أَنَّهُ لا يصحُّ التوكُّلُ إلاَّ بعزمٍ صحيحٍ ، ورأيٍ رَجيحٍ ، وسَعيٍ نَجيحٍ ، وَحَزمٍ وَثيقٍ ، وتَدبيرٍ دَقيقٍ ، فقد جاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم وقالَ لهُ : أَعقِلُ ناقتي ، أَمْ أَتوكَّلُ ؟ قالَ : « ٱعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[1] .

ومرَّ الشعبيُّ برجُلٍ في إِبِلٍ لهُ فَشَا فيها الجَرَبُ ، فقالَ لَهُ : أَمَا

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه الترمذي (٢٥١٩) وقال : هذا حديث غريب وآخر كتابه « العلل » الملحق بالسنن . وعن عمرو بن أمية الضمري عند ابن حبان في « الإحسان » (٧٣١) بإسناد حسن .

تُدَاوي إِبِلَكَ ؟ قالَ : إِنَّ مَعَنا عجوزاً نَتَّكِلُ علىٰ دعائِها ، قالَ : ٱجعل معَ دُعائِها شيئاً مِنَ القطرانِ .

وما أَحسنَ قولَ أَبي عُبادةَ يمدحُ [في « ديوانِهِ » ١/١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتَ حَزْمٍ وَلَمْ يَبِتْ ... يُـلاَحِـظُ أَعْجَـازَ ٱلأُمُـورِ تَعَقُّبَـا

وقالَ غيرُهُ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْمَرْءَ تَلْقاهُ مِضْيَاعاً لِفُرْصَتِهِ ... حَتَّىٰ إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ ٱلْقَدَرَا

وقالَ [أَبو] عبيدةَ [ٱبنُ ٱلجرَّاحِ] لعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ لمَّا كرِهَ طاعونَ (ٱلشَّامِ) [كما في « تاريخ الطبري » ٢/٤٨٦] : أَتَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ ؟ قالَ : نعم ، إِلىٰ قَدَرِ اللهِ ، فقالَ لَهُ : أَينفعُ الحذرُ مِن القَدَرِ ؟ فقالَ : لَسنا هناكَ ، ولـٰكنَّ اللهَ لا يأْمرُ بما لا ينفعُ ، ولا ينهىٰ عمَّا لا يضُرُّ ، وقد قالَ : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، وقالَ : ﴿ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] .

وليسَ هـٰذا موضعَ البحثِ حتَّىٰ نفيضَ فيهِ ، ولَنا إِليهِ عودةٌ عندَ إِفضاءِ النوبةِ ، نتناوَلُهُ فيها مِن أَطرافِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ويُعجبني قولُ عمرَ بنِ ذرٍّ ـ [بَعدَ] منصرفِهِ مِن دفنِ ٱبنِهِ ذرٍّ ـ : ما بنا بعدَكَ من خصاصةٍ ، ولا إِلىٰ أَحدٍ معَ اللهِ حاجةٌ ، ومَن توكَّلَ علىٰ اللهِ . . كفاهُ ، ومَنِ ٱتَّكلَ علىٰ غيرِهِ . . وَكَلَهُ إِليهِ .

وفي حِفْظي عَن « مفاتيحِ الغيبِ » للرّازيِّ أَنَّهُ يقولُ ـ ما معناهُ ـ : ٱعلم أَنَّني وَقد نيَّفْتُ الآنَ علىٰ ٱلخمسينَ ، جرَّبْتُ نَفسي ، فما مِن أَمرٍ ٱعتمدْتُ فيهِ علىٰ ٱللهِ وحدَهُ . . إِلاَّ ٱنفتحَتْ أَبوابُهُ ، وتيسَّرَتْ أَسبابُهُ ، وما مِن أَمرٍ ٱلتفَتُّ فيهِ إِلىٰ غيرِ ٱللهِ . . إِلاَّ ٱلتوَتْ أُمورُهُ ، وٱعصَوْصَبَتْ أَحوالُهُ .

قصة للغزالي في الرضا

ومِن خيرِ ما جاءَ في ٱلرِّضا : ما ذكرَهُ ٱلإمامُ ٱلغزاليُّ ـ أَو غيرُهُ[1] ـ عَنِ ٱمرأَةٍ حسَّانَةٍ رُئِيَتْ تطوفُ ، وتكادُ يقطرُ مِن وجنتَيْهَا ماءُ ٱلنِّعمةِ وٱلشَّبابِ ، فقيلَ لَها : ما هـٰذهِ النَّضارةُ ؟ قالَتْ : ما سَمَّنَنِي إلاَّ حبُّهُ عزَّ وجلَّ ، والرِّضا بقضائِهِ ، وإلاَّ . . فلو علِمتُم حَدِيثي ؟! قالوا : ما هُوَ ؟ قالَتْ : كنتُ وصاحِبِيْ في يومِ عيدٍ علىٰ ذبحِ شاةٍ ، فبَيْنَا نَحْنُ في فرَحِنا . . إذ خرجَ ٱبْنانا يَلْعَبانِ ، فقالَ أَحدُهما للآخرِ : أَتحبُّ أَن أُريكَ كيفَ ذبحَ أَبي الشاةَ قالَ : نعم ، فذبحَهُ ، ولمَّا رآهُ يتشحَّطُ في دمِهِ[2] . . هربَ فأَكلَهُ الذئبُ ، وكانَ زَوجي ذهَبَ في أَثرِهِ ليردَّهُ ، فماتَ من العَطشِ ، وعلمَتْ بذلكَ ٱبنةٌ لَنا عندَ زوجِها . . فأَلقَتْ نفسَها من رأْسِ الدارِ ، ومَا أَمسَيْتُ إلاَّ وقد خَرِبَ بَيتي ، وهَلَكَ زَوجي ، وٱصطَلَيتُ بنارِ الثُّكلِ ، ولـٰكنَّني صبرْتُ علىٰ بلائِهِ ، ورضيتُ بقَضائِهِ .

حكمة للجنيد في الرضا

وقالَ الجنيدُ : أَصَّلْتُ في نفسي أَنْ لا أَنتظِرَ مِن الأَيَّامِ غيرَ المكارِهِ ، فَإِنْ جاءَتْ . . كنتُ وطَّنْتُ عليها نَفسي ، وإِن جاءَ غيرُها . . عددْتُهُ مِن الأَرباحِ والصُّدَفِ .

الشعر والرضا

وهوَ مثلُ قولِ أَبي ذؤيبٍ [في « جمهرة خطب العرب » ٣/ ٣٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ خَيْرَ فِيْمَنْ لاَ يُوَطِّنُ نَفْسَهُ   عَلَىٰ نائبَاتِ ٱلدَّهْرِ حِيْنَ تَنُوْبُ

وقولِ كثيِّرٍ [في « ديوانه » ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيْبَةٍ   إِذا وُطِّنَتْ يَوْماً لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

---

(١) بل الغزالي بنحوها كما في «الإحياء» (٤/ ٤٨٩) .

(٢) يتشحَّطُ : يضطرِبُ .

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٢٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَحْدَثَ ٱلْعَصْرانِ شَيْئاً نَكِرْتُهُ ... هُمَا ٱلسَّالِبَانِ ٱلْوَاهِبَانِ هُمَا هُمَا

وقالَ ٱبنُ الراونديِّ [مِنَ الكاملِ] :

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيْرَةٌ مَا تَنْقَضِيْ ... وَسُـرُورُهُ يَـأْتِيْـكَ كَـالأَعْيَـادِ

وقالَ أبو العتاهِيَةِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٩٠ مِنَ الكاملِ] :

تَـأْتِـيْ ٱلْمَكَـارِهُ حِيْـنَ تَـأْتِـيْ جُمْلَـةً ... وَأَرَىٰ ٱلسُّرُورَ يَجِيْءُ فِيْ ٱلْفَلَتَاتِ

وقال ٱلبُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/ ١٣٢٥ مِنَ البسيطِ] :

تنكَّرَ ٱلْعَيْشُ حَتَّىٰ صَارَ أَكْدَرُهُ ... يَأْتِي نِظَاماً وَيَأْتِيْ صَفْوُهُ لُمَعَا[1]

وَآنَسَتْ مِنْ خُطُوْبِ ٱلدَّهْرِ كَثْرَتُهَا ... فَلَيْسَ يُرْتَاعُ مِنْ خَطْبٍ إذا طَلَعَا

صُعُوْبَةُ ٱلرُّزْءِ تُلْغَىٰ فِيْ تَوَقُّعِهِ ... مُسْتَقْبَلاً وَٱنْقِضَاءُ ٱلرُّزْءِ أَنْ يَقَعَا

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ١٢٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكَ مَا ٱلْمَكْرُوْهُ إلاَّ ٱرْتِقَابُهُ ... وَأَبرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ[2]

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٩٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أُسىً كَثُرَتْ حَتَّىٰ ٱطْمَأَنَّ لَهَا ٱلْجَوَىٰ ... وَأَرْزَاءُ فَجْعٍ قَدْحُهَا فِيْ ٱلضَّمَائِرِ

وقالَ ٱلخُزَيميُّ [في « ديوانه » ٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ وَقَرَتْنِيْ ٱلْحَادِثَاتُ فَمَا أُرَىٰ ... لِنَـازِلَـةٍ مِـنْ رَيْبِهَـا أَتَـوَجَّـعُ[3]

---

(١) اللُّمعُ : يأتي خلسةً ، أو كوميضِ البرقِ .

(٢) أبرحُ : أفعل تفضيلٍ من البرحاءِ ، وهي شدَّةُ الأذى والمشقَّةُ .

(٣) وقَرتنيْ : جعلتني وقوراً لا أَضجُّ ولا أَتضجَّرُ .

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْجَبَ أَمْراً ... إِنْ تفكَّرْتَ مِنْ صُرُوْفِ الزَّمَانِ ؟

عَارِضَاتُ ٱلسُّرُوْرِ تُوْزَنُ فِيْهِ ... وَٱلْبَلاَيَا تُكَالُ بِٱلْقُفْزَانِ

أبو العتاهية في السجن

ويروىٰ [كما في « الأغاني » ٩٦/٤] : أَنَّ أَبا ٱلعتاهيةِ لمَّا حُبسَ علىٰ تركِ ٱلشِّعْرِ . . سمعَ إِنساناً في ٱلسِّجنِ ينشدُ [كما في « ديوانِ أَبي العتاهيةِ » ١٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَوَّدْتُ مَسَّ ٱلضُّرِ حَتَّىٰ أَلِفْتُهُ ... وَأَسْلَمَنِيْ حُسْنُ ٱلْعَزَاءِ إِلىٰ ٱلصَّبْرِ

وَصَيَّرَنِي يَأْسِيْ مِنَ ٱلنَّاسِ رَاجِياً ... لِحُسْنِ صَنِيْعِ ٱللهِ مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِيْ

فقالَ لَهُ : أَعِدها أَعزَّكَ اللهُ ، فقالَ لَهُ : ويلكَ ما أَسوأَ أَدبَكَ ، وأَقلَّ عقلَكَ ، دَخلْتَ عليَّ فمَا سلَّمتَ تسليمَ المسلِمِ علىٰ المسلمِ ، ولا سأَلتَ مسأَلةَ الحرِّ للحرِّ ، ولا توجَّعتَ توجُّعَ المبتلىٰ للمبتَلَىٰ ، حتَّىٰ إِذا سمعتَ بيتينِ مِن الشعرِ ـ الذي لا فضلَ لكَ غيرُهُ ـ لم تصبرْ عنِ ٱستعادَتِهما ، ولم تقدِّم عذراً فيما فعلْتَ ، فقالَ : يَا أَخي ، إِني دُهشتُ لِهـٰذا الحالِ ، فٱعذِرْني متفضِّلاً مُمتناً ، فقالَ : أَنا أَولَىٰ مِنكَ بالحَيرَةِ والدهشَةِ ؛ لأَنَّكَ حُبِستَ علىٰ الشعرِ ، وإِذا قلتَهُ . . أَمنتَ ، أَمَّا أَنا . . فمأْخوذٌ بأَن أَدلَّ علىٰ ٱبنِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ليُقتَلَ أَو أَقتلَ دونَهُ ، وواللهِ لا أَدلُّ عليهِ ، فقالَ لهُ أَبو العتاهيةِ : لأَنتَ أَولىٰ ، ولو علمتُ أَنَّ هـٰذهِ حالُكَ . . ما سأَلتُكَ ، فقالَ : لا نبخَلُ عليكَ إِذن ، فأَعادَهُنَّ عليهِ حتَّىٰ حفظَهُما ، ثمَّ سأَلَهُ عنِ ٱسمِهِ فقالَ : أَنا خاص داعيةِ عيسىٰ بنِ زيدٍ ، وٱبنِهِ أَحمدَ ، ولم نلبَثْ أَنْ سَمِعْنا صوتَ السجنِ يفتَحُ ، فقامَ ، وتوضَّأَ ، ولبسَ أَحسنَ

ثيابِهِ ، ودخلَ الحرسُ . . فأَخرجونا جميعاً ، وقدَّمَ قبلي إِلىٰ الرشيدِ ، فسأَلَهُ عن أَحمدَ بنِ عيسىٰ ، فقالَ : لا تسأَلني عنهُ ، وٱفعلْ ما بَدا لكَ ، فوَاللهِ لَو كانَ تحتَ ثَوبي ما كشفتُ عنهُ ، فأَمرَ بهِ . . فضربَتْ عنقُهُ ، ثمَّ قالَ لأَبي العتاهِيَةِ : أَظنُّكَ ٱرتعتَ يا إِسماعيلُ ، فقالَ : مِن دونِ ما رأَيتُهُ تسيلُ النفوسُ ، فقالَ : ردُّوهُ إِلىٰ محبَسِهِ ، فٱنتحلَ البيتينِ وزادَ فيهما [في « ديوانِهِ » ١٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا أَنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ ٱلدَّهْرِ كُلَّ مَا تَكَرَّهْتُ مِنْهُ طَالَ عَتْبِيْ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ

كم صفا من أيام المأمون؟!

وحسبكَ أَنَّ المأْمونَ العباسيَّ ـ علىٰ ٱتساعِ ملكِهِ ـ لم يَصفُ لهُ عيشُهُ إِلاَّ أَيَّاماً معدودَةً ، قَضاها في فمِ الصلحِ حينمَا أَعرسَ فيها بـ (بورانَ) .

توجيه السؤال إلى عبد الرحمن الناصر

وإِنَّ عبدَ الرحمـٰنِ الناصرَ كتبَ في وصيَّتِهِ : حكمتُ (الأَندلسَ) خمسينَ سنةً ، لم أَتنسَّمْ فيها روحَ الحياةِ ، وأَتذوَّقْ طعمَ العيشِ . . إِلاَّ في أَربعةَ عَشَرَ يوماً فقطْ ، مِنها يومُ ٱسترجاعي (سَمُّورةَ) ؛ بما حَفِظْتُ علىٰ المسيحيَّةِ البائِسَةِ رَضيعَها ، بعدَ أَنْ نفضَتْ يدَها منهُ ، فكادَتْ تَقْضي مِن فرْطِ السرورِ والفَرحِ بهِ .

المتنبي القنوع الراضي!!

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٥٤ مِنَ الكاملِ] :

جَمَحَ ٱلزَّمَانُ فَمَا لَذِيْذٌ خَالِصٌ مِمَّا يَشُوْبُ وَلاَ سُرُوْرٌ كَامِلُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

عَرَفْتُ ٱللَّيَالِيْ قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا فَلَمَّا دَهَتْنِيْ لَمْ تَزِدْنِيْ بِهَا عِلْمَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱسْتَغْرَبَتْ عَيْنِيْ فِرَاقاً رَأَيْتُهُ ... وَلاَ عَلَّمَتْنِيْ غَيْرَ مَا ٱلْقَلْبُ عَالِمُهْ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢١٢ مِنَ البسيطِ] :

قَدْ هَوَّنَ ٱلصَّبْرُ عِنْدِيْ كُلَّ نَائِبَةٍ ... وَهَوَّنَ ٱلْعَزْمُ حَدَّ ٱلْمَرْكَبِ ٱلْخَشِنِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٩ مِنَ الوافرِ] :

رَمَانِيْ ٱلدَّهْرُ بِٱلأَرْزَاءِ حَتَّىٰ ... فُؤَادِيْ فِيْ غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ[1]

فَصِرْتُ إِذا أَصَابَتْنِيْ سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ ٱلنِّصَالُ عَلَىٰ ٱلنِّصَالِ[2]

عودة إلى الشعراء والرضا والتسليم

قالَ ٱبنُ خلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٣٠٤] : وممَّا أَنشدَهُ ٱبنُ المنجِّمِ لِمُؤرِّجٍ السدوسيِّ قولُهُ [مِنَ البسيطِ] :

رُوِّعْتُ بِٱلْبَيْنِ حَتَّىٰ مَا أُرَاعُ لَهُ ... وَبِٱلْمَصَائِبِ مِنْ أَهْلِيْ وَجِيْرَانِيْ

لَمْ يَتْرُكِ ٱلدَّهْرُ لِيْ عِلْقاً أَضِنُّ بِهِ ... إِلاَّ ٱصْطَفَاهُ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانِ[3]

قالَ ٱبنُ المنجِّمِ : وهٰذا من أَملَحِ ما قيلَ في معناهُما ، ومثلُهما قولُ بعضِ المحدَثينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفَارَقْتُ حَتَّىٰ مَا أُرَاعُ مِنَ ٱلنَّوَىٰ ... وإِنْ غَابَ جِيْرَانٌ عَلَيَّ كِرَامُ

فَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِيْ عَلَىٰ ٱلنَّأْيِ تَنْطَوِيْ ... وَعَيْنِيْ عَلَىٰ فَقْدِ ٱلصَّدِيْقِ تَنَامُ

ومِن هُنا ، أَخذَ ٱبنُ التعاويذيِّ قولَهُ [في « ديوانه » ٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَا أَنَا قَلْبِيْ لاَ يُرَاعُ لِغَائِبٍ ... فَيَأْسَىٰ وَلاَ يُلْهِيْهِ حَظٌّ فَيَفْرَحُ

---

(١) الأرزاءُ : المصيبات . الغشاءُ : ما يغطِّي الشيءَ ويشملهُ .

(٢) النصال ـ جمع نصلٍ ـ : وهوَ الحديدةُ التي في السهمِ .

(٣) العِلقُ : النفيسُ من كلِّ شيءٍ .

توجع ابن التعاويذي على ذهاب بصره

وهُو مِن قصيدَةٍ طويلَةٍ ، يتوجَّعُ فيها لِذهابِ بصرِهِ ، فَمِنها يشيرُ إلىٰ زوجتِهِ [في « ديوانه » ٧٩-٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَبَاكِيَةٍ لَمْ تَشْكُ فَقْداً وَلاَ رَمَىٰ ... بِجِيْرَتِهَا ٱلأَدْنَيْنَ بَيْنٌ مُطَوِّحُ[1]

رَمَتْهَا يدُ ٱلأَيَّامِ فِيْ لَيْثِ غَابِهَا ... بِفَادِحِ خَطْبٍ وَٱلْحَوَادِثُ تَفْدَحُ

رَأَتْ جَلَلاً لاَ ٱلصَّبْرُ يَجْمُلُ بِٱلْفَتَىٰ ... عَلَىٰ مِثْلِهِ يَوْماً وَلاَ ٱلْحُزْنُ يَقْبُحُ

فَلاَ غَرْوَ أَنْ تَبْكِيْ ٱلدِّمَاءَ لِكَاسِبٍ ... لَهَا كَانَ يَسْعَىٰ فِيْ ٱلْبِلاَدِ وَيَكْدَحُ

عَـزِيـزٌ عَلَيْهَـا أَنْ تَـرَانِـيَ جَـاثِمـاً ... وَمَا لِيَ فِيْ ٱلأَرْضِ ٱلْبَسِيطَةِ مَسْرَحُ

وأَنْ لاَ أَقُوْدَ ٱلْعِيْسَ تَنْفَحُ فِيْ ٱلْبُرَىٰ ... وَجُرْدَ ٱلْمَذَاكِيْ فِيْ ٱلأَعِنَّةِ تَمْرَحُ[2]

أَظَـلُّ حَبِيْسَـاً فِـيْ قَـرَارَةِ مَنْـزِلٍ ... رَهِيْنَ أَسىً أُمْسِيْ عَلَيْهِ وَأُصْبِحُ

مَقَـامِـيَ مِنْـهُ مُظْلِـمُ ٱلْجَـوِّ قَـاتِـمٌ ... وَمَسْعَايَ ضَنْكٌ وَهْوَ صَمْحَانُ أَفْيَحُ[3]

أُقَـادُ بِـهِ قَـوْدَ ٱلْجَنِيْبَـةِ مُسْمِحـاً ... وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ غَدْرَةُ ٱلدَّهْرِ أُسْمِحُ[4]

كَـأَنِّـيَ مَيْـتٌ لاَ ضَـرِيْـحَ لِجَنْبِـهِ ... وَمَا كُلُّ مَيْتٍ - لاَ أَبَا لَكَ - يُضْرَحُ

وَهَا أَنَا قَلْبِيْ لاَ يُرَاعُ لِفَائِتٍ ... فَيَأْسَىٰ وَلاَ يُلْهِيْهِ حَظٌّ فَيَفْرَحُ

فَلِلَّـهِ نَصْـلٌ فَـلَّ مِنِّـيْ غِـرَارُهُ ... وَعُوْدُ شَبَابٍ عَادَ وَهْوَ مُصَوِّحُ[5]

وَسَقْيـاً لأَيَّـامٍ رَكِبْـتُ بِهَـا ٱلْهَـوَىٰ ... جَمُوْحاً وَمِثْلِيْ فِيْ هَوَىٰ ٱلْغِيْدِ يَجْمَحُ

---

(١) مطوِّحٌ : مهلِكٌ .

(٢) الجُردُ : جمع أجرد؛ وهو: الفرس القصير الشعر . المذاكي مِنَ الخيلِ : التي أتىٰ عليها بعدَ قروحِها سنةٌ أو سنتانِ .

(٣) صمحانٌ : واسعٌ غليظٌ . الأفيَحُ : كلُّ موضعٍ واسعٍ .

(٤) الجنيبُ : الغريبُ . مسمِحاً : موافقاً .

(٥) المصوِّحُ : اليابسُ المتشقِّقُ .

وماضِيْ صِباً قَضَّيْتُ مِنْهُ لُبَانَتِيْ ... خِلاَساً وَعَيْنُ ٱلدَّهْرِ زَرْقَاءُ تَلْمَحُ[1]
لَيَالِيَ لِيْ عِنْدَ ٱلْغَوَانِيْ مَكَانَةٌ ... وَأَلْحَاظُهَا تَرْنُوْ إِلَيَّ وَتَطْمَحُ
وَلَيْلَىٰ بِهَا أَضْعَافُ مَا بِيْ مِنَ ٱلْهَوَىٰ ... أُعَرِّضُ بِٱلشَّكْوَىٰ لَهَا فَتُصَرِّحُ[2]

ولا لومَ في الإطالةِ بهٰذهِ القطعةِ مِنْها ؛ فإِنَّ عذوبتَهَا ، وحسنَ انسجامِها ، وبديعَ اتساقِها ، وأخذَها بمجامعِ القلوبِ.. تمهِّدُ العذرَ في ذلكَ .

رد قول المتنبي بقوله

ومَعَ ما أَطَلْنا فيهِ الجولَ ، واخترْنا لَهُ مِن أفانينِ القولِ ، كيفَ يَليقُ بالناظمِ أنْ لا يقنعَ بِالوصالِ في كلِّ أربعةِ أيَّام يوماً ؟ وهُوَ من أكبرِ الشعراءِ بَلوىٰ ، وأكثرِهم مِن زمانِهِ شكوىٰ ، أَوَ لَيْسَ القائِلَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٠-١٨١ مِنَ الطَّويلِ] ؟! :

لَحَا ٱللهُ ذِيْ ٱلدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ ... فَكُلُّ بَعِيْدِ ٱلْهَمِّ فِيْهَا مُعَذَّبُ
أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَقُوْلُ قَصِيْدَةً ... وَلاَ أَشْتَكِيْ فِيْهَا وَلاَ أَتَعَتَّبُ
وَبِيْ مَا يَذُوْدُ ٱلشِّعْرَ عَنِّيْ أَقَلُّهُ ... وَلٰكِنَّ قَلْبِيْ يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ قُلَّبُ

أَوَلَيْسَ يقولُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٩ مِنَ الطَّويلِ] ؟! :

أَوَدُّ مِنَ ٱلأَيَّامِ مَا لاَ تَوَدُّهُ ... وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ
يُبَاعِدْنَ حِبّاً يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ ... فَكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ[3] ؟!

---

(١) لُبَانَتي : حاجتي . وخصَّ العينَ الزرقاءَ بالذّكرِ ؛ لأنَّ زرقةَ العينِ ممَّا يتشاءَمُ منهُ العربُ .

(٢) إلى هنا من « وفيات الأعيان » (٥/ ٣٠٥) .

(٣) وصلُه وصدُّه : اسمان معطوفان على الضمير من (يجتمعن) على رأي الكوفيين ، وهو عند البصريين ممتنع إلا إذا ذكر ضمير الرفع ظاهراً . قال ابن مالك :

أَبَىٰ خُلُقُ ٱلدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ ؟!

أَمَا واللهِ : لَقد ٱشتطَّ في الرغبَةِ ، وأَبعَدَ في النجْعَةِ ، وإلاَّ . . فما دونَ ذلكَ يعدُّ مِن حسنِ الحَظِّ ، وتبسُّمِ الدهْرِ الفَظِّ .

التماس العذر للمتنبي

إلاَّ أَنْ يقالَ : إنَّهُ لم يطلبِ المطلَبَ الجَسِيمَ إلاَّ وقتَما كانَتِ الأَيَّامُ سِلماً لهُ ، لم تسقِهِ بعدُ أُجاجَها ، ولا أَرتْهُ ٱعوجاجَها ، علىٰ أَنِّي ما أَظنُّ الدهرَ سالَمَهُ وقتاً ، ولا أَراهُ إلاَّ مقتاً ، والرجْعُ في ذلكَ إلىٰ تاريخِ حياتِهِ ، والإنسانُ ـ كَما ذَكرنا غيرَ مرَّةٍ ـ كثيرُ التقلُّبِ ، ولقد أَلطفَ التهامِيُّ في سؤَالِهِ ، مَعَ نظرِهِ إلىٰ بيتِ الناظمِ ، فقالَ وأَجادَ [في « ديوانهِ » ١٦٥ مِنَ الخفيفِ] :

لا تَقُولِي لِقَاؤُنَا بَعْدَ عَشْرٍ لَسْتُ مِمَّن يَعِيشُ بَعْدَكِ عَشْرَا

الذكاء منه في بيته

ثمَّ في بيتِ الناظمِ سرٌّ ، يظهَرُ مِنْهُ أَنَّ مَحبوبَهُ علىٰ جانِبٍ مِن العِلمِ بالسنَّةِ ، والعمَلِ بها ، فمتىٰ وصلَهُ قبلَ ٱنتهاءِ اليومِ الثالثِ . . خرجَ عمَّا جاءَ في الوعيدِ علىٰ الهجرةِ فوقَ الثلاثِ ، ولقد ظرُفَ بعضُهُم في قولِهِ [مِنَ السريعِ] :

يَا سَيِّدِي عِنْدَكَ لِي مَظْلَمَهْ فَٱسْتَفْتِ فِيهَا ٱبْنَ أَبِي خَيْثَمَهْ
فَإِنَّهُ يَرْوِيهِ عَنْ جَدِّهِ وَجَدُّهُ يَرْوِيهِ عَنْ عِكْرِمَهْ
عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ عَنِ ٱلْمُصْطَفَىٰ نَبِيِّنَا ٱلْمَبْعُوثِ بِٱلْمَرْحَمَهْ
إِنَّ ٱنْقِطَاعَ ٱلْخِلِّ عَنْ خِلِّهِ فَوْقَ ثَلاَثٍ رَبُّنَا حَرَّمَهْ

= وإن علىٰ ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل
قال تعالىٰ : ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ .

وَأَنْـتَ مُـذْ شَهْـرٍ لَنَـا هَـاجِـرٌ　　　أَمَـا تَخَـافُ ٱللهَ فِيْنَـا فَمَـهْ

ومرَّ قُبيلَ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ　　　لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

ما لَهُ بهِ تعلُّقٌ .

* * *

المجلس العاشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٩ مِنَ الخفيفِ] :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إلاَّ	كَمُقَامِ ٱلْمَسِيحِ بَيْنَ ٱلْيَهُوْدِ

هل تنبَّأَ أبو الطيب حقيقة؟

يَقولُ : إنَّ أَهلَ (نَخْلَةَ) ـ وهيَ قريَةٌ بقربِ (بعلبَكَّ) ـ أَعداءٌ لي ، كعداوَةِ اليَهودِ للمَسيحِ ، قالَ الواحديُّ : وبهَـٰذَا مَعَ تَشبيهِهِ نفسَهُ بصالِحٍ ـ عليهِ السلامُ ـ لُقِّبَ المتنبِّي .

وليسَ بِصَحيحٍ . . ولَـٰكِنَّهُ تنبَّأَ حقيقَةً في باديةِ (السماوَةِ) . . حَتَّىٰ حُبِسَ ، ثُمَّ أُطلِقَ بعدَ الاستِتَابَةِ .

الكلام داء الحسد

ومـا ذكـرَهُ لَيـسَ بغـريـبٍ ؛ إِذْ لا يَخْلـو عَظيـمٌ عَـن ٱلحَسَـدِ والامتِحانِ ، فإنْ خَلا عَنْ ذلِكَ . . فليسَ بعظيمٍ ، إلاَّ علىٰ سبيلِ الفلَتاتِ والشذوذِ ، وأَصلُهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وللهِ دَرُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢٢٣ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ نَشْـــرَ فَضِيلَـــةٍ	خَفِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُوْدِ
لَوْلاَ ٱشْتِعَالُ ٱلنَّارِ فِيْمَا جَاوَرَتْ	مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ نَفْحِ ٱلْعُوْدِ

وقالَ الغزاليُّ في بعضِ كتبهِ : إِنِّي لأَستحقِرُ مَن لم يُتَّهَمْ بالكفْرِ ، وأَستصغِرُ مَن لَم يُلْمَزْ بِٱلفُسوقِ ، أَو ما يشبهُ هَـٰذَا القولَ .

وقالَ المنصورُ لِمعنِ بنِ زائِدةَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٤٧] : ما أكثرَ وقوعَ الناسِ فيكَ وفي قومِكَ ، فأنشدَ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْعَـرَانِيْـنَ تَلْقَـاهَـا مُحَسَّـدَةً وَلَنْ تَرَىٰ لِلِئَامِ ٱلنَّاسِ حُسَّادَا[1]

وقالَ قيسٌ [في « ديوانهِ » ١١٧ مِنَ الكاملِ] :

مَوْسُوْمَةٌ بِٱلْحُسْنِ ذَاتُ حَوَاسِدٍ إِنَّ ٱلْجَمَـالَ مَظِنَّـةٌ لِلْحُسَّـدِ

وقالت أُمُّ رومانَ[2] لِعائِشَةَ ـ كما في « الصحيح » ـ : هوِّني عليكِ يا بنيَّةُ ، فَقَلَّما كانَتِ امرأَةٌ وضيئَةٌ قطُّ عندَ رجلٍ ولَها ضرائِرُ . . إلاَّ أكثرْنَ علَيها[3] .

وانتهىٰ إلىٰ أبي حنيفةَ أنَّ ابنَ شُبرُمَةَ وابنَ أبي لَيلىٰ ينالانِ منهُ ، فأنشدَ [كما في « طبقات الحنفية » ١/ ٤٩٨ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ يَحْسُدُوْنِيْ فَإِنِّيْ غَيْرُ لائِمِهِمْ قَبْلِيْ مِنَ ٱلنَّاسِ أَهْلُ ٱلْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوْا
فَدَامَ لِيْ وَلَهُمْ مَا بِيْ وَمَا بِهِمُ وَمَـاتَ أَكْثَـرُنَـا غَيْظـاً بِمَـا يَجِـدُ

وقالَ غيرُهُ [محمد بن الحسن في « طبقات الحنفية » ١/ ٤٩٨ مِنَ البسيطِ] :

مُحَسَّـدُوْنَ وَشَـرُّ ٱلنَّـاسِ مَنْـزِلَـةً مَنْ عَاشَ يَوماً سَلِيْماً غَيْرَ مَحْسُوْدِ

وقالَ أبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ مِنَ الطويلِ] :

وَلَنْ تَسْتَبِيْنَ ٱلدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدْلَلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدِ

---

(١) العَرانينُ : سادةُ الناسِ وأشرافُهُم ، والعرنين : الأنف .
(٢) أم رُومانَ : زوجةُ سيِّدِنا أبي بكرٍ الصديقِ ، وأُمُّ السيدةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهُم .
(٣) أخرجه البخاري (٤١٤١) من حديث الإفك في المغازي .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٧ مِنَ البسيطِ] :

أَنْ تُوْجَدَ ٱلدَّهْرَ إِلاَّ عِنْدَ مَحْسُوْدِ   مُحَسَّدٌ، وَكَأَنَّ ٱلْمَكْرُمَاتِ أَبَتْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٩٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْسَ تَفْتَرِقُ ٱلنَّعْمَاءُ وَٱلْحَسَدُ   مُحَسَّدٌ بِخِلاَلٍ فِيْهِ فَاضِلَةٍ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ٦٠٠ مِنَ الخفيفِ] :

حَسَدٌ فِيْ ٱلْعُلَىٰ وَمَا فِيْ جَمِيْعِ ٱلنَّـ   ـاسِ أَبْلَىٰ بِذِيْ عُلاً مِنْ حَسُوْدِهْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦١١ مِنَ البسيطِ] :

[وَكَمْ] أَنَافَتْ مِنَ ٱلأَبْنَاءِ مَكْرُمَةً   مَشْهُوْرَةً تَدَعُ الآبَاءَ حُسَّادَا!

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٦٦ مِنَ الخفيفِ] :

وَكَفَانِيْ عَلَىٰ الَّذِي يُوْجَدُ ٱلْفَضْـ   ـلُ لَدَيْهِ بِٱلْحَاسِدِيْنَ دَلِيْلاَ

الأئمـة والعلمـاء والافتراء عليهم

وما أُتِيَ ٱلْخليفةُ الرابعُ وأَهلُ بيتهِ . . إلاَّ مِنْ هَـٰذَا البابِ .

ولا يخفىٰ ما قاساهُ أبو حنيفةَ .

وما كانَ مِنِ ٱختفاءِ الإِمامِ مالكٍ في بيتهِ رُبُعَ قرنٍ .

وما جرىٰ علىٰ أَبي عبدِ اللهِ ٱبنِ حنبلٍ مِنَ ٱلضَّرْبِ والحبْسِ والإِهَانَةِ .

وما عاناهُ البخاريُّ حَتَّىٰ ضاقَتْ بهِ الأَرضُ فَدَعَا بالموتِ .

ونُفِيَ أَبو يزيدَ البسطاميُّ سبعَ مرَّاتٍ بِوِشَايَاتِ علماءِ السوءِ .

وشيَّعوا ذَا النونِ المصريَّ مقيَّداً مغلولاً مِن (مصرَ) إِلىٰ (بغدادَ) ، وسارَ معهُ جماعَةٌ مِن المصريينَ يشهدونَ بالزندَقَةِ عليهِ .

وكانَ آخرُ سهمٍ في كنائِنِ الحسَّادِ لِسُحْنونَ أَنِ ٱسْتَأْجَروا بغيّاً تدَّعي عليهِ أنَّهُ يَأْتيها هوَ وأَصحابُهُ ، حَتَّىٰ ٱضطُرَّ إِلىٰ الانجماع في بيتهِ .

وكفَّروا سهْلاً التُّستَريَّ ، ونسبُوهُ إِلىٰ القبائِحِ حَتَّىٰ طَرَدوهُ مِن بلادِهِ .

ورَموا أَبا سَعيدٍ الخرَّازَ بِٱلدَّواهي .

وشَهِدوا علىٰ الجُنيدِ بالإلحادِ ذاتَ المرَّاتِ .

ولم ينجُ الشبليُّ مِن ٱلتَّكفيرِ إِلاَّ بعدَ أَن أَدخلَهُ أَصحابُهُ البيمارستانَ[1] مدَّةً ، ريثَما ٱنكفَّ عنهُ الناسُ ، وحرَّشوا سلطانَ (مِصرَ) علىٰ أَبي بكرٍ النابلسيِّ . . حَتَّىٰ أَمرَ بسلخِ جلدِهِ حيّاً ، فصارَ يقرأُ القرآنَ بتدبُّرٍ وخشوعٍ ، وَهُم يسلخونَهُ ، حَتَّىٰ كادَتْ تَقَطَّعُ القُلوبُ مِن مَرآهُ علىٰ تلكَ الحالِ .

وأَخرَجوا أَبا مَدينَ مِن (بجاية) بتهمَةِ الزَّندقَةِ .

وشَهِدوا بها علىٰ أَبي الحسنِ الشاذِليِّ ، حَتَّىٰ نُفيَ من (مِصرَ) .

وأَخرَجوا واحدَ عصرِهِ وسيِّدَ وقتِهِ ، أَبا عثمانَ المغربيَّ مِن (مكَّةَ) ، وضربوهُ ضرباً مبرِّحاً ، وطَافوا بهِ علىٰ جملٍ ، فأَقامَ بـ(بغدادَ) إِلىٰ أَنْ ماتَ .

---

(١) البيمارستان : لفظٌ فارسيٌّ مركَّبٌ مِن : (بيمار) ومعناها مريضٌ ، و(أستان) بمعنىٰ محلٌ . وتعني هذهِ الكلمةُ : المكانَ المعدَّ لمعالجةِ المرضىٰ ، وأَوَّلُ مَنْ أَقامَ البيمارستانَ مِنَ الخلفاءِ : الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ، وجاءَ ذكرُها في بعضِ المصادرِ بلفظِ (مارستان) .

وهيَّجوا السلطانَ علىٰ عزِّ الدينِ بنِ عبدِ السَّلامِ ، وعَقَدوا مجلِساً لرميهِ بالكفرِ ؛ مِن أَجلِ كلمَةٍ قالَها في عقيدَتِهِ .

وكتَبوا [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٩٤] محضراً بـ(مِصْرَ) علىٰ أَبي الحسنِ الآمديِّ ، ينسبونَهُ إِلىٰ التعطيلِ وفسادِ العقيدَةِ ، وَوَضَعُوا عليهِ خُطوطَهم ، حَتَّىٰ أنتهىٰ إِلىٰ رَجلٍ منهُم فيهِ عقلٌ ودينٌ ، فكتَبَ [مِنَ الكاملِ] :

حَسَدُوا ٱلْفَتَىٰ إِذْ لَمْ يَنَالُوْا سَعْيَهُ ... فَـٱلْقَـوْمُ أَعْـدَاءٌ لَـهُ وَخُصُـوْمُ

كتبهُ فلانُ بنُ فلانٍ .

ورَمَوا عبدَ الوهَّابِ السبكيَّ بالكفرِ ، وشربِ الخمرِ ، والفواحِشِ ، ولبْسِ الزنَّارِ بالليلِ ، وجاؤُوا بهِ مقيَّداً مغلولاً مِن (ٱلشَّامِ) إِلىٰ (مصرَ) ، حَتَّىٰ خرجَ جمالُ الدينِ الإِسنويُّ يتلقَّاهُ في الطريقِ ، ولولاهُ لأُريقَ دمُهُ .

والبابُ واسعٌ ، والشوطُ بطينٌ[1] .

أول ذنب عُصِيَ به الله تعالى هو الحسد

ومِنَ الناسِ مَن يعدُّ الحَسَدَ أَولَ ذنبٍ عُصِيَ بهِ الباري عزَّ وجلَّ ؛ لأَنَّ إِبليسَ لَم يمتَنعْ عَنِ السجودِ لآدمَ . . إِلاَّ مِن أَجلِ ما ٱشتملَ عليهِ منهُ لهُ .

الجدار المنخفض تقفز عليه الكلاب

ثُمَّ لم يكنْ ما كانَ مِنِ ٱبنِ آدمَ إِلىٰ أَخيهِ . . إِلاَّ عن نتيجتِهِ ، وسوءِ مغبَّتِهِ ، وللهِ في خلقِهِ شؤونٌ ، فإِنَّ مدنيَّةَ الإِنسانِ بطبعِهِ . . تقتضي التآلفَ والتراحُمَ ؛ إِذ لا يستَتِبُّ للإِنسانِ أَمرُهُ إِلاَّ ببقاءِ نوعِهِ ، ولا يمكنُ لهُ قضاءُ رغباتِهِ إِلاَّ بمساعدَتِهِم ، فكانَ من حقِّهِ أَن يحبَّهم

---

(١) البطينُ : الملآن .

ويَألَفَهم ؛ لِمَا لَهُ مِنَ المصلحَةِ في بقائِهم ، فلنْ يحبَّ نفسَهُ إلاَّ بحبِّهم ؛ لأنَّ صلاحَهُ في صلاحِهم ، غيرَ أنَّ حُبَّ الذاتِ قد يزيدُ فيخرجُ عَن حدِّهِ ، وكلُّ ما خرجَ عَن حدِّهِ.. رجَعَ إلىٰ ضدِّهِ ، فسادَ التخاصُمُ عَن منبتِ التراحُمِ ، ووقَعَ التناهُبُ في موضِعِ التواهُبِ ، ومنهُ تتبُّعُ الملوكِ عثراتِ رجالاتِهم ، وٱبتغاؤُهُم الغوائِلَ لِعظماءِ أتباعِهم ؛ لأنَّ أُولئكَ الفحولَ لا بُدَّ وَأنْ يُدْلوا بِعَظائِمِ أعمالِهم ، ويعصمَهُم الشرفُ والأنَفُ عن المَلَقِ والخُضوعِ ، وتأبىٰ نفوسُ المستبدِّينَ أن ترىٰ لأحدٍ فضلاً ، وإنَّما تميلُ بطبيعتِها للمتصاغِرينَ المطبوعينَ علىٰ الخيانَةِ ، الذينَ لا ينفعونَ عندَ ٱرتباكِ الأحوالِ ، وٱضطرابِ الأهوالِ ؛ ولِهَـٰذا يسرعُ تقوُّضُ ممالِكِهم في الأوساطِ الحرَّةِ ، وإنَّما تطولُ في الأُمَمِ الميْتَةِ التي أَلِفَتِ الذلَّ وأخذَتْ عليهِ ، ورَئِمَتِ الْهَوَانَ(١) وٱستنامَتْ إليهِ ، فـهٰؤلاءِ الساقطونَ نعمةٌ علىٰ المستبدِّينَ مِن ملوكِ الجَورِ ، ولقمةٌ سائغةٌ لكلِّ آكلٍ .

الذي ألف الذل والهوان مذموم ذمه في الشرع

ولـٰكنَّهُم مذمومونَ في عينِ الشرعِ والعقلِ .

أَمَّا الشرعُ : فالباري جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٩] .

ويقولُ أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧] .

ذمه في العقل وعزة الشعراء

وأَمَّا العقلُ : فقد قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانه » ١٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) رئمَ الهوانَ : أَلِفَهُ وأحبَّه ولزِمهُ .

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ   أَقَمْنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ مَا تَصَعَّرَا[1]

وقالَ الفرزدَقُ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ   ضَرَبْنَاهُ حَتَّىٰ تَسْتَقِيمَ ٱلأَخَادِعُ[2]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ١/ ٣١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْمَلِكُ ٱلْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ   مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِٱلسُّيُوفِ نُخَاطِبُهْ

وقالَ ٱبنُ ظَبيانَ [في « الكامل » ٤/ ١٠٧ مِنَ الطويلِ] :

نُعَاطِي ٱلْمُلُوكَ ٱلْحَقَّ مَا قَسَطُوا لَنَا   وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

وقالَ نهارُ بنُ توسعةَ [في « الكامل » ٤/ ٣٠٣ مِنَ الوافرِ] :

إذا لَمْ يُعْطِنَا نِصْفاً أَمِيرٌ   مَشَيْنَا نَحْوَهُ مَشْيَ ٱلأُسُوْدِ[3]

وقالَ الشدَّاخُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَيْنَا فَلاَ نُعْطِي مَلِيْكاً ظُلاَمَةً   وَلاَ سُوْقَةً إِلاَّ ٱلْوَشِيجَ ٱلْمُقَوَّمَا[4]

وَإِلاَّ حُسَاماً يَبْهَرُ ٱلْعَيْنَ لَمْحُهُ   كَصَاعِقَةٍ مِنْ عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمَا

وقالَ آخرُ [عبيدُ بنُ الأبرصِ في « ديوانهِ » ٨٦ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا تَخَمَّطَ جَبَّارٌ ثَنَوْهُ إِلَىٰ   مَا يَشْتَهُوْنَ وَلاَ يُثْنَوْنَ إِنْ خَمِطُوْا[5]

---

(١) صعَّرَ خدَّهُ : أَمالهُ عَن وجهةِ الناسِ ، ونظرَ إليهم تهاوناً بهم وٱستكباراً .

(٢) الأخادعُ ، هُما الأخدعانِ : عرقانِ في صفحةِ العنقِ .

(٣) النِّصْفُ : شقُّ الشيءِ ، أي تعطي من نفسكَ ما يستحقُّ من الحقِّ كما تأخذُهُ .

(٤) الوشيجُ : شجرُ الرِّماحِ .

(٥) خمطَ الرجلُ : غضبَ وتكبَّرَ وثارَ .

وقالَ الضبِّيُّ ـ أبو الشعْرِ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ بِٱلْجَيْشِ ضَافَنَا   جَعَلْنَا ٱلْقَنَا وَٱلْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلاَ

وأَخرجَ مسلمٌ [في « صحيحه » ٢٨٩٨] : عن المستورد القرشيِّ أنَّهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يقولُ : « تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ والرومُ أكثرُ الناسِ » . فقالَ لهُ عمرو بنُ العاصِ : أبصِرْ ما تقولُ ، قالَ : أقولُ ما سمعتُهُ مِن رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، قالَ : لئِنْ قلْتَ ذلِكَ . . إنَّ فيهم لَخصالاً أربعاً : إنَّهُم لأحلَمُ الناسِ عندَ فتنةٍ ، وأسرعُهُم إفاقةً بعدَ مصيبَةٍ ، وأوشكُهُم كرَّةً بعدَ فرَّةٍ ، وخيرُهم لمسكينٍ ويتيمٍ وضَعيفٍ ، وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ ، وأمنعُهم مِن ظلمِ الملوكِ . وهَـٰذَا هُو موضعُ الشاهدِ .

لا يجلس تحت المحمِل إلا الجَمَل ولا يرضى بالدون إلا الدون

وقالَ بعضُ العرَبِ [مِنَ السريعِ] :

يُعْطِـيْ زِمَـامَ ٱلطَّـوْعِ إِخْـوَانَـهُ   وَيَلْتَـوِيْ بِـٱلْمَلِـكِ ٱلْقَـادِرِ

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَـارِبْ إِذَا لَـمْ تُعْـطَ إِلاَّ ظُـلاَمَـةً   شَبَا ٱلْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُوْلِ ٱلْمَظَالِمِ(١)

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٩٢ـ٩٤ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ ٱفْتِخَـارٌ إِلاَّ لِمَـنْ لاَ يُضَـامُ   مُـدْرِكٌ أَوْ مُحَـارِبٌ لاَ يَنَـامُ

وَٱحْتِمَـالُ ٱلأَذَىٰ وَرُؤْيَـةُ جَـانِيْـ   ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَىٰ بِهِ ٱلأَجْسَامُ(٢)

---

(١) شبا ـ جمعُ شباةٍ ـ : وهيَ طرفُ السيفِ .

(٢) تضوىٰ : تهزلُ .

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ ٱلذَّلِيلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ ٱلْحِمَامُ[1]
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ ٱلْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢١٣ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وَهَلْ تَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَةُ ٱلْكَفَنِ[2] ؟!

والكلامُ فيهِ يَطولُ ، فلنقِفْ بهِ عندَ حدِّهِ .

ضياع العالم بين الجاهلين

ولنعُدْ علىٰ البَدْءِ ، فنقولُ : ما أشدَّ ضياعَ العالِمِ بينَ الجُهَّالِ ، حَتَّىٰ قالَ بعضُهم في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [النمل : ٢١] : لأحبسنَّه معَ غيرِ جنْسِهِ ، والفاضلُ بينَ الحسَّادِ والمستبدِّينَ . . أَضيعُ مِن العالِمِ بينَ الجهَّالِ بكثيرٍ ، فَلا حرجَ علىٰ أَبي الطيِّبِ ؛ إذا تألَّم من أَهلِ زمانهِ إلىٰ هٰذا الحدِّ ، ثُمَّ إنَّكَ لا تجدُ أَذيَّةَ الأَحرارِ في الأَكثرِ الأغلَبِ . . إلاَّ مِن أُولي قرابَتِهم ، وعبيدِ نعمتِهم ، ولله درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

أصل العداوة اصطناع المعروف إلى غير أهله

ويُؤَيِّدُهُ ما يُروىٰ عن سفيانَ مِنْ قولِهِ : ما وجدْنا أَصلَ كلِّ عداوَةٍ . . إلاَّ فِي ٱصطِناعِ المعروفِ إلىٰ اللئامِ ، ومرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهَٰذَا البحثِ أَواخِرَ المَجلسِ الثاني ، وسيعادُ ذَرْوٌ منهُ أَواخرَ المجلسِ السادسَ عشرَ .

---

(١) الغبطةُ : تمني أن يكونَ لك مثلُ الخيرِ الذي عندَ الغيرِ من غيرِ أَن تتمنَّىٰ زواله عنه ، والمعنىٰ : أنه يتمنىٰ مثل حاله . الحِمامُ : الموت .
(٢) المضيمُ : المظلوم . البِزَّةُ : اللباسُ الحسنُ .

الحكم الشرعي في التشبيه الذي في بيت المطلع

والحاصلُ : أَنْ لا أُشنوعَةَ علىٰ الناظِمِ في تشبيهِهِ مُقامَهُ - بأَرضِ قومِهِ علىٰ الهضيمة والاضطهادِ - بمُقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ ، ومُقامِ صالحٍ في ثمودَ ؛ لأَنَّ المشبَّهَ لا يكونُ مثلَ المشبَّهِ بهِ من سائِرِ جهاتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعائشَةَ : « **كُنْتُ لَكِ كأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ** »[1] مَعَ أَنَّهُ لَم يُحمد بينَ الأَخيرَينِ المآلُ .

وجزمَ ٱبنُ حجرٍ الهيتميُّ : بأَنَّهُ لا يكفُرُ معلِّمُ صبيانٍ قال : اليهودُ خيرٌ مِن المسلمينَ بكثيرٍ ؛ لأَنَّهم يَقْضونَ حقوقَ معلِّمي صِبْيانِهم ، إلاَّ إِنْ أَرادَ الخيريَّةَ المطلقَةَ ، وٱستقرَبَ عدمَ الكفرِ في حالَةِ الإِطلاقِ .

وذكرَ في « **تحفته** » : أَنَّ الكتابيَّةَ أَولىٰ بالتزوُّجِ مِن ٱلْمسلِمَةِ التي لا تصلِّي .

وثبتَ [كما في « البداية والنهاية » ٧/١٥٣] : أَنَّ عثمانَ [بن عفان رضي الله عنه] تزوَّجَ [نائلة] بنتَ الفرافصَةِ الكلبيَّةَ - وهيَ علىٰ نصرانيَّتِها - ثُمَّ أَسلمَتْ وحسنَ إِسلامُها ، وكانَ مِن وفائِها لَهُ ما يحفَظُهُ التاريخُ .

قالَ ٱبنُ جريرٍ [في « تفسيره » ٢/٣٧٨] : وأَمَّا القولُ الذي رُويَ عَن شهرِ بنِ حَوشَبٍ ، عَنِ ٱبنِ عبَّاسٍ ، عنْ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم : مِن تفريقِهِ بينَ طلحةَ وٱمرأَتِهِ اليهوديَّةِ ، وبينَ حذيفةَ بنِ اليمانِ وٱمرأَتِهِ النصرانيَّةِ . . فقولٌ لا معنىٰ لَهُ ؛ لخلافِهِ ما أَجمعَتْ علىٰ تحليلِهِ الأُمَّةُ

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥١٨٩) في النكاح ، ومسلم (٢٤٤٨) في فضائل الصحابة .

بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، وحديثِ رسولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقد رُويَ عَن عمرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مِن ٱلقولِ بخلاَفِهِ ما هُوَ أَصحُّ منْهُ إِسناداً .

ويأْتي أَواخِرَ المجلسِ الثالثَ عشرَ ما يصحُّ أَنْ يُتمثَّل بهِ هُنا ؛ لِما فيهِ مِن ٱختيارِ الوحشِ علىٰ البَشَرِ ، فمِنْ أَيْنَ يَنفذُ الانتقادُ علىٰ الناظِمِ بعدَ ما ثبَتَ بلسانِ الفقَهاءِ تفضيلُ بعضِ الكتابيَّاتِ علىٰ بعضِ المسلماتِ ؟ فَلا يتسرَّع بمعاتبتهِ في ذلِكَ . . إلا مَن لا حجَّةَ لَهُ ، ولا رويّة عندَهُ .

ثُمَّ أَلاَ ترىٰ أَنَّ القاضي عبدَ الوهَّابِ المالكيَّ : لَمَّا نَبا بهِ (العراقُ) ، وجفتْهُ (بغدادُ) ، وضاقَتْ حالُهُ فيهِ ، وبَكَأَتْ[1] عليهِ مَجاري ٱلرِّزقِ بهِ . . قالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢١ مِنَ البسيطِ] :

بَغْـدَادُ دَارٌ لأَهْـلِ ٱلْمَـالِ طَيِّبَـةٌ ... وَلِلْمَفَالِيْسِ دَارُ ٱلضَّنْكِ وَٱلضِّيْقِ
ظَلِلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِيْ فِيْ أَزِقَّتِهَا ... كَأَنَّنِيْ مُصْحَفٌ فِيْ بَيْتِ زِنْدِيْقِ

فتشبيهُهُ إِيَّاها بدارِ الزنديقِ ، معَ مَن فيها مِن ٱلعلَماءِ والأَولياءِ والصالحينَ . . لاَ يخرجُ عمَّا قالَهُ الناظمُ .

ويروىٰ : أَنَّ القاضِيَ المذكورَ ٱجتازَ في وجهِهِ ذلِكَ إِلىٰ (مصرَ) بـ(معرَّةِ النعمانِ) ، فقالَ فيهِ صديقُهُ أَبو العلاءِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٩١ـ٢٩٢ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْمَالِكِيُّ ٱبْنُ نَصْرٍ زَارَ فِيْ سَفَرٍ ... بِلاَدَنَا فَحَمِدْنَا ٱلنَّأْيَ وَٱلسَّفَرَا
إِذَا تَفَقَّـهَ أَحْيَـا مَـالِكـاً جَـدَلاً ... وَيَنْشُرُ ٱلْمَلِكَ ٱلضِّلِّيْلَ إِنْ شَعَرَا[2]

---

(١) بكأت : ضاقت وقلَّتْ .

(٢) مالكاً : أي مالكَ بنَ أنسٍ إمام دارِ الهجرةِ صاحب المذهب المشهور الملكُ=

وذكرهُ أيضاً في غيرِ هَـٰذَا الموضعِ مِن « ديوانِهِ » . ويُذكَرُ أَنَّهُ لمَّا وردَ (مصرَ) . . أنثالَتْ[1] عليهِ البَرَكَاتُ ، ودرّتْ لَهُ الخيراتُ ، ولَـٰكِنْ لَم يلبثْ أَنْ عاجَلَتْهُ المنيَّةُ ، مِنْ أَكْلَةٍ أكلَها .

وَهُوَ صَاحِبُ الجوابِ عَن سؤَالِ صاحبِهِ المعريِّ ، ونصُّ السؤَالِ [مِنَ البسيطِ] :

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِيْنٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِيْ رُبْعِ دِيْنَارِ[2]

ونصُّ الجوابِ [مِنَ البسيطِ] :

عِـزُّ ٱلأَمَـانَـةِ أَغْـلاَهَـا، وَأَرْخَصَهَـا ... ذُلُّ ٱلْخِيَانَةِ، فَٱفْهَمْ حِكْمَةَ ٱلْبَارِيْ[3]

* * *

= الضِّلِّيلُ : أمرؤُ القيسِ .

(١) أنثالت : أنصبَّت .

(٢) العسجدُ : الذهبُ . ومعنى السؤال : لو أنَّ إنساناً قطعَ يدَ إنسانٍ . . كان عليه نصف الديةِ ، فيكونُ ثمنُ اليدِ خمس مئةِ دينارٍ . ولو أنَّ إنساناً سرقَ ربع دينارٍ لآخرَ ـ وهو نصاب السرقة ـ قُطعت يدُهُ ، فيكونُ الثمنُ لليدِ ربع دينارٍ ؟ ويعادل قيمة (١) غراماً ذهباً خالصاً .

(٣) وحاصل الجواب: أن اليد حينما كانت عزيزة أمينة . . كانت صيانتها واجبة حتماً . . لأن الاعتداء عليها جريمةٌ فظيعة نكراء بخلاف ما إذا كانت خائنة بتعديها بالسرقة ـ والعياذ بالله ـ فإنها حينئذ تكون ذليلة مهانة لا قيمة لها . . ولذا جاء الشرع الحكيم بوجوب الاقتصاص بقطعها في ربع دينار فصاعداً . .

وقد لخَّص بعض الفضلاء ذلك بقوله :

لمّا كانت أمينةً كانت ثمينةً ؛ فلمّا خانَتْ هَانَتْ .

وفي البيت المذكور ردٌّ قويٌّ متين جداً . . فللّه درُّ هذا الإمام الذَّكيِّ والفقيه الأوحد الألمعي رحمه الله وأكرم مثواه . . وفي البيت كذلك إشارةٌ إلىٰ ما تواردت الشرائع جميعها علىٰ وجوب حفظه . . وهي الضروريات الخمس ومنها المال والنفس . . والله أعلم .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٩ من الخفيف] :

مَفْرَشِيْ صَهْوَةُ ٱلْحِصَانِ وَلَٰكِـــنَّ قَمِيْصِيْ مَسْرُوْدَةٌ مِنْ حَدِيْدِ

حكم المدح بما يشبه الذم عند المؤلف

يقولُ : موضعُ فِرَاشي ظهرُ الحصانِ ، و(الصَّهْوَةُ) : مقعدُ الفارسِ مِن ظهْرِ الفَرَسِ ، و(المَسْرودَةُ) : الدِّرعُ ، والاستدراكُ لا يَخلو مِن ٱلبُرودَةِ ؛ لأَنَّهُ لا يَخلو مكانُهُ إِلاَّ إِذا كانَ ظاهِرُهُ عدمَ التناسُبِ بِما قبلَهُ ، وركوبُ الحِصانِ يناسِبُ لُبسَ الدِّرعِ ، فٱنتفىٰ عنْهُ البديعُ بٱنتفاءِ ما يشبِهُ مِنهُ الذمَّ ، وبعضُهم لا يشترطُ ذَلِكَ ، مستدلاً بقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَنا أَفْصَحُ ٱلْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ »[1] .

والصحيحُ [كما في « مغني اللَّبيب » ١/ ١٥٥] : أَنَّ (بيدَ) هُنا . . لَيستْ بمعنىٰ (غيرَ) ، وإِنَّما هيَ بمعنىٰ مِنْ أَجلِ ، فلا شاهِدَ لذلكَ البعضِ فيهِ ، فٱلمقبولُ في ٱلموضوعِ ـ كما سيأْتي توضيحُهُ في ٱلمجلسِ السَّادسَ عَشَرَ ـ إِنَّما هوَ ما كانَ مِنْ جنسِ قولِ النَّابغَةِ [الذُّبياني في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

(١) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٦٠٩) : أورده أصحاب الغرائب ، ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده ، وإن ذكره المحلي في شرح « جمع الجوامع » والآخذون منه .

وقولِ ٱبنِ الروميِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْنَا غَيْرَ أَنَّ سَمَاحَنَا　　أَضَرَّ بِنَا وَٱلْبَأْسُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَأَفْنَىٰ ٱلرَّدَىٰ أَرْوَاحَنَا غَيْرَ ظَالِمٍ　　وَأَفْنَىٰ ٱلنَّدَىٰ أَمْوَالَنَا غَيْرَ عَائِبِ
أَبُوْنَا أَبٌ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ　　أَبٌ مِثْلُـهُ أَغْنَـاهُـمُ بِـٱلْمَنَـاقِـبِ

وقولِ الآخرِ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوْفَهُمْ　　تُعَابُ بِنِسْيَانِ ٱلأَحِبَّةِ وَٱلْوَطَنْ

وقولِ بعضِهِم فيما يُشبِهُ ٱلمدحَ مِنْ تأكيدِ الذَّمِّ ، وقد أَلطفَ فيهِ وهوَ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُـوَ ٱلْكَلْـبُ إِلاَّ أَنَّ فِيْـهِ مَـلاَلَـةً　　وَسُوْءَ مُرَاعَاةٍ وَمَا ذَاكَ فِيْ ٱلْكَلْبِ

أصل بيت المتنبي

وبيتُ النَّاظمِ ناظرٌ إلىٰ قولِ عنترة [في « ديوانهِ » ٥٨ مِنَ الكاملِ] :

تُمْسِيْ وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ　　وَأَبِيْتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ[(١)]
وَحَشِيَّتِيْ سُرُجٌ عَلَىٰ عَبْلِ ٱلشَّوَىٰ　　نَهْـدٌ مَـرَاكِلُـهُ نَبِيْـلُ ٱلْمِحْـزَمِ[(٢)]

الخيل والمديح فيها

وقد ذكرنا في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ كثرةَ ما يفتخِرُ النَّاظِمُ بٱلفروسيَّةِ وٱلخَيلِ ؛ لِمَا لَها مِن ٱلهَيبةِ ، وما فيها مِنَ ٱلجمالِ ، وهيَ أَفضلُ ذواتِ ٱلأَربَعِ صورةً ، وأَشبهُهَا بالإنسانِ في كرمِ الطبعِ ، وعلوِّ النفسِ .

---

(١) الحشيَّةُ : الفراشُ . سَراةُ كُلِّ شيءٍ : أعلاهُ .

(٢) عبل الشوىٰ : غليظ القَوامِ والعِظامِ ، ملتفُّ العصبِ . الشوى : القوائم . النهدُ : النافرُ الضخمُ . المراكلُ ، جمع مركلٍ وهوَ : حيثُ تبلغُ رِجلُ الرجلِ من الدابة . المِحزمُ : موضعُ الحزامِ .

وقد أَثنىٰ ٱللهُ عليها في ٱلقرآنِ فقالَ : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

قيلَ : عَنىٰ بهِ الشَّياطينَ ، وأَنَّها لا تدخُلُ بيتاً فيهِ فرسٌ ، كما لا تدخلُ الملائِكَةُ بيتاً فيهِ كلْبٌ .

وأَقسمَ اللهُ بخيلِ الغُزاةِ فقالَ : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا * فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا * فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴾ [العاديات : ١-٣] . وكَفاها بذلِكَ شرفاً .

ونسيتُ ـ وما أَنساني إِلاَّ الشيطانُ ـ أَن أَذكُرَ قولَهُ عزَّ ٱسمُهُ : ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ [العاديات : ٢] عندما تكلَّمْتُ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/١٧١ مِنَ البسيطِ] :

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ   تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلاَ

فإِنَّهُ أَشرفُ مِنْ كلِّ معنىً سُقناهُ هُناكَ .

وصحَّ قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱلْخَيْلُ مَعْقُوْدٌ بِنَواصِيْهَا ٱلْخَيْرُ ـ الأَجْرُ وَٱلمَغْنَمُ ـ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »[1] .

وها هنا دقيقَةٌ ، وهيَ أَنَّهُ عليهِ السلامُ : قد أَنبأَ عَن ٱختراعِ ٱلطَّيَّاراتِ وٱلسَّيَّاراتِ ، بما أَخرجَهُ عنهُ مسلمُ بنُ ٱلحجَّاجِ في « صحيحِهِ » [(١٥٥) (٢٤٣)] : مِن طَوافِ المَسيحِ فِي الأَرضِ ، معَ

---

(١) أخرجه عن عروة البارقي رضي الله عنه البخاري (٣١١٩) في الخمس . قال الخطابي : فيه إشارة إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها . وقال عياض : في الحديث مع وجيز لفظه من البلاغة والعذوبة ما لا مزيد عليه في الحسن ، مع الجناس السهل بين الخيل والخير .

ٱستغنائِهِ عَن القِلاصِ[1] ، ولـٰكنَّهُ أشارَ بالحديثِ السابِقِ إِلىٰ أَنْ لا غِنىٰ عَن ٱلخيلِ ما ٱختلفَ المَلَوَانِ[2] ، وذلكَ مِمَّا يزيدُ الإِيمانَ ، لأنَّهُ المؤَكَّدُ بالحِسِّ والعِيانِ .

ومن فضيلةِ الخيلِ . . أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَسْهَمَ لَها سهمينِ ، ولَم يجعلْ للمُسلِمِ إِلاَّ سَهماً واحِداً[3] .

ويروىٰ : أَنَّهُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِ وعلىٰ آلهِ ـ أَمْرَغَ[4] فرساً لَهُ ، ثُمَّ جعلَ يمسحُهُ بردائِهِ ، فقيلَ لَهُ في ذلِكَ . . فقالَ : « بِتُّ ٱلْبَارِحَةَ وَجِبْرِيْلُ يُعَاتِبُنِيْ فِيْ سِيَاسَةِ ٱلْخَيْلِ »[5] .

وصحَّ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « مَنِ ٱحْتَبَسَ فَرَساً فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ إِيْمَاناً بِٱللهِ ، وَتَصْدِيْقاً بِمَوْعُوْدِ ٱللهِ . . كَانَ شِبَعُهُ وَرِيُّهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ حَسَنَاتٍ فِيْ مِيْزَانِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[6] .

---

(١) ولفظه عند مسلم : « ولتتركن القِلاصُ فلا يُسعى عليها . . » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والقلاص ـ جمع قلوص ـ : وهي من الإبل كالفتاة من النساء .

(٢) الملَوانِ : الليلُ والنهارُ .

(٣) أخرج عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٢٨٦٣) ، ومسلم (١٧٦٢) في الجهاد : (أن رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قسم في النَّفل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً) . النَّفَل : الغنيمة .

(٤) أَمرَغَ : قلَّبَهُ في التُّرابِ .

(٥) الخبر لم نقف عليه ، والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحهُ .

(٦) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠١) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٦) في السبق ، وبنحوه عند البخاري (٢٣٧١) في المساقاة ، ومسلم (٩٨٧) في الزكاة، وطرفه : « الخيل ثلاثة : هي لرجل . . » .

وصحَّ عنهُ أنَّهُ قالَ : « مَا مِنْ فَرَسٍ عَربيٍّ ، إلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ كُلَّ يومٍ بِدَعْوَتَيْنِ ، يقولُ : اللَّهُمَّ ، كمَا خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي ، فاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إليْهِ »[1] .

وكانَتِ العَرَبُ لا تُهنِّئُ إلاَّ بالولدِ ، فيقولونَ : لِيَهْنِكَ الفَارِسُ .

وبالشاعِرِ : يقولونَ : لِيَهْنِكَ مَن يذُبُّ عَن عرضِكَ .

وبالمُهرِ : يقولونَ : لِيَهْنِكَ ما تدرِكُ بهِ الثأرَ .

ولهم في تربيتِها ومزيدِ الاعتناءِ بها في الجاهليَّةِ والإسلامِ ما تنطقُ بهِ صوادِقُ الأشعارِ .

الشعراء ومديح الخيل

قالَ طفيلٌ الغنويُّ [في « ديوانهِ » ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلْخَيْلِ أَيَّامٌ فَمَنْ يَصْطَبِرْ لَهَا ... وَيَعْرِفْ لَهَا أَيَّامَهَا الْخَيْرَ يُعْقِبِ

وقالَ رجلٌ مِن قريشٍ [مِنَ الخفيفِ] :

أَتَّقِي دُوْنَهُ الْمَنَايَا بِنَفْسِي ... وَهُوَ يَغْشَىٰ بِنَا صُدُوْرَ الْعَوَالِي

فَإِذَا مِتُّ كَانَ ذَاكَ تُرَاثِي ... وَسِخَالاً مَحْمُودَةً مِنْ سِخَالِي

وقالَ بعضُ بني عامرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

بَنِي عَامِرٍ ، إِنَّ الْخُيُوْلَ وِقَايَةٌ ... لأَنْفُسِكُمْ وَالْمَوْتُ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ

أَهِينُوا لَهَا مَا تُكْرِمُوْنَ وَبَاشِرُوْا ... صِيَانَتَهَا فَالصَّوْنُ لِلْخَيْلِ أَجْمَلُ

مَتَىٰ تُكْرِمُوْهَا يُكْرِمِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ ... وَكُلُّ امْرِىءٍ مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ يَنْزِلُ

---

(١) أخرجه عن أبي ذر رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٣٠) .

وقالَ لبيدٌ [في «ديوانه» ٣٥١ مِنَ الوافرِ] :

مَعَاقِلُنَا ٱلَّتِي نَأْوِي إِلَيْهَا ... بَنَاتُ ٱلأَعْوَجِيَّةِ وَالسُّيُوفُ[1]

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ مُنْشِئاً أَوْ مُتَمَثِّلاً [كما في «المستطرف» ٢/ ٢٤٠ مِنَ الوافرِ]:

أَحِبُّوا ٱلْخَيْلَ وَٱصْطَبِرُوا عَلَيْهَا ... فَإِنَّ ٱلْعِزَّ فِيهَا وَٱلْجَمَالاَ

إِذَا مَا ٱلْخَيْلُ ضَيَّعَهَا أُنَاسٌ ... حَفِظْنَاهَا فَأَشْرَكَتِ ٱلْعِيَالاَ

وقالَ أَعشىٰ بكرِ بنِ وائلٍ ـ يصفُ حسنَ ٱعتنائِهِ بفرسِهِ ـ [مِنَ الخفيفِ]:

وَقِيَامِي عَلَيْهِ غَيْرُ مَضِيعٍ ... دَائِماً بِٱلْغُدُوِّ وَٱلآصَالِ

ومِمَّا قالَهُ كعبٌ يومَ الخندَقِ [مِنَ الوافرِ] :

خُيُولٌ لاَ تُضَاعُ إِذَا أُضِيعَتْ ... خُيُوْلُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلسَّنَةِ ٱلْجَمَادِ

يُنَازِعْنَ ٱلأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... إِذَا نَادَىٰ إِلَىٰ ٱلْفَزَعِ ٱلْمُنَادِيْ

وقالَ حسَّانُ يذكُرُ الحارثَ بنَ هشامٍ ، وفرارَهُ عَن أَخيهِ فِيْ يومِ بدرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَرَاكَضَنَا تَحْتَ ٱلْعَجَاجَةِ حَارِثٌ ... عَلَىٰ ظَهْرِ جَرْدَاءٍ كَبَاسِقَةِ ٱلنَّخْلِ

يُقَلِّبُهَا طَوْراً وَطَوْراً يَحُثُّهَا ... وَيَعْدِلُهَا بِٱلنَّاسِ وَٱلْمَالِ وَٱلأَهْلِ

ولم ينسَ حظَّهُ الناظمُ مِن مثلِ هٰذا المعنىٰ ، فقالَ [في «العُكبَريِّ» ٣/ ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تَسِرْ سِرْنَا إِلَيْكَ بِأَنْفُسٍ ... غَرَائِبَ يُؤْثِرْنَ ٱلْجِيَادَ عَلَىٰ ٱلأَهْلِ[2]

---

(١) الخيلُ الأَعوجيَّةُ : منسوبةٌ إلى فرسٍ كانَ في الجاهليَّةِ .

(٢) غرائبُ: جمع غريبةٍ ؛ وهيَ : الغريبةُ منَ الناسِ بما حازت منَ الأخلاقِ التي لاتوجدُ في سواها .

وقالَ القحيفُ العجليُّ ـ أو رجلٌ مِن بني تميمٍ ـ وقد سألهُ فرسَهُ بعضُ الملوكِ [كما في « ديوان الحماسة » ١/ ٦٧ مِنَ الوافرِ] :

أَبَيْتَ ٱللَّعْـنَ إِنَّ سَكَـابِ عِلْـقٌ ... نَفِيْـسٌ لاَ يُعَـارُ وَلاَ يُبَـاعُ[1]

مُفَـدَّاةٌ مُكَـرَّمَـةٌ عَلَيْنَـا ... تُجَـاعُ لَهَـا ٱلْعِيَـالُ وَلاَ تُجَـاعُ

سَلِيْلَـةُ سَـابِقَيْـنِ تَنَـاجَـلاَهَـا ... إِذَا نُسِبَـا يَضُمُّهُمَـا ٱلْكُـرَاعُ[2]

فَلاَ تَطْمَعْ ـ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ ـ فِيْهَا ... وَمَنْعُكَهَـا بِشَـيْءٍ مُسْتَطَـاعُ

وقالَ شاعرُ المعرَّةِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٣٧ مِنَ الوافرِ] :

وَيَغْبِـقُ أَهْلَـهُ لَبَـنَ ٱلصَّفَـايَـا ... وَيَمْنَحُ قُوْتَ مُهْجَتِهِ ٱلْجَوَادَا[3]

وقالَ أيضاً [في « سقطِ الزندِ » ١٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

غَـذَاهُـنَّ مُحْمَـرَّ ٱلنَّجِيْـعِ قَـوَارِحـاً ... كَمَا كُنَّ يُغْذَيْنَ ٱلضَّرِيْبَ مِهَارَا[4]

وقال [في « سقطِ الزندِ » ١٢٠ مِنَ الوافرِ] :

ذَكِـيُّ ٱلْقَلْـبِ يَخْضِبُهَـا نَجِيْعَـاً ... بِمَا جَعَلَ ٱلْحَرِيْرَ لَهَا جِلاَلاَ

---

(١) أبيتَ اللعنَ : تحيَّةٌ كانت تقالُ للملوكِ في الجاهليَّةِ . سَكابِ : اسمُ فرسهِ . العلقُ : الشيءُ النفيسُ . يقولُ : إنَّ فرسي متاعٌ نفيسٌ لا يعرَّضُ للبيعِ ولا يبذلُ للإعارةِ .

(٢) السليلُ : الولدُ . الكراعُ : هوَ في الأصلِ أنفٌ يتقدَّمُ في الجبلِ ، فسمِّيَ بهِ هذا الفحلُ لعظمِهِ .

(٣) الغَبوقُ : الشرابُ بالعشيِّ . الصفايا ـ جمع صفيَّةٍ ـ : وهيَ الناقةُ الغزيرةُ اللبنِ . والمعنىٰ : يؤثرُ فرسَهُ علىٰ نفسِهِ بالقوتِ .

(٤) النجيعُ : دم الجوف . القوارحُ : المنتهيةُ أَسنانُها . الضَّريبُ : اللبنُ الذي يُخلطُ حلوهُ بحامضهِ . يقولُ : إنَّما غذاها بالضريبِ بسببِ قلَّةِ اللبنِ .

وقالَ [في « سقط الزند » ١٢٠ مِنَ الوافرِ] :

وَأَعْظَمُ حَادِثٍ فَرَسٌ كَرِيمٌ ... يَكُونُ مَلِيكُهُ رَجُلاً شَحِيحَا

وهي أَشرفُ المراكِبِ .

وأخرجَ النَّسائيُّ [في « سننه » ٦/٢١٤] مِن حديثِ سلمةَ بنِ نُفيلٍ السَّكُونيِّ : (أَنَّ النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نَهَىٰ عَن إِذالَةِ الخيلِ) ؛ وهوَ آمتهانُها في الحَملِ عَليها .

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الخفيفِ] :

أَطْيَبُ ٱلطَّيِّبَاتِ قَتْلُ ٱلأَعَادِيْ ... وَرُكُوبٌ عَلَىٰ ظُهُورِ ٱلْجِيَادِ

وَرَسُولٌ يَأْتِيْ بِوَعْدِ حَبِيْبٍ ... وَحَبِيْبٌ يَأْتِيْ بِلاَ مِيْعَادِ

وقالَ آبنُ عقبةَ [مِنَ الكاملِ] :

وَقَسَمْتُ حَالاَتِيْ ثَلاَثاً مِثْلَمَا ... قَدْ كَانَ قَسَّمَهَا أَبِيْ ٱلشَّهْمُ ٱلسَّرِيْ

كَرَمٌ تَدِيْنُ لَهُ ٱلأَنَامُ وَحَالَةٌ ... ظَهْرُ ٱلْحِصَانِ وَحَالَةٌ لِلْمِنْبَرِ

وَتَخِذْتُ أَصْحَاباً إِذا نَادَمْتُهُمْ ... لَمْ أَخْشَ مِنْهُمْ مَنْ يَنُمُّ وَيَفْتَرِيْ

عِلْمِيْ وَحِلْمِيْ وَٱلْحِصَانُ وَصَارِمِيْ ... وَنَدَىٰ يَمِيْنِيْ وَٱلْعَفَافُ وَدَفْتَرِيْ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٧٥ مِنَ الكاملِ] :

تَخِذُوْا ٱلْمَجَالِسَ فِيْ ٱلْبُيُوْتِ وَعِنْدَهُ ... أَنَّ ٱلسُّرُوْجَ مَوَاضِعُ ٱلْفِتْيَانِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٣٠ مِنَ الكاملِ] :

فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَاماً تَحْتَهُمْ ... وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوْا عَلَىٰ صَهَوَاتِهَا

وَقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَعَزُّ عَزِيْزٍ فِي ٱلدُّنَىٰ سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَلا يبعُدُ عنهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٩ مِنَ الكاملِ] :

مُتَفَيِّئِينَ ظِلَالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ أَجَلِ ٱلظَّلِيمِ وَرِبْقَةِ ٱلسِّرْحَانِ[1]

وَرَأَيتُ بعضَ أَهلِ (اليمنِ) يقولُ [مِنَ الطّويلِ] :

رَكِبْنَا ٱلْمَطَايَا وَٱلْجِيَادَ فَلَمْ نَجِدْ أَلَذَّ وَأَشْهَىٰ مِنْ رُكُوبِ ٱلْمَوَاتِرِ[2]

وفيهِ أَشياءُ :

أَحدُها : أَنَّهُ بيتٌ قَديمٌ يعزىٰ للجِنِّ بلفظِهِ ، إلاَّ المواتِرُ ، فَفي بيتِ الجِنِّ مكانَها الأَرانِبُ ، وهُو مشكلٌ بأَنَّ الجنَّ تجتَنِبُها من أَجلِ الحيضِ ، ولهَـٰذَا كانَتْ ٱلعربُ تعلِّقُ كعبَها فِي رِجلِ الطفْلِ ، كالمَعاذَةِ ، ثم رأَيتُه في « شرحِ القاموسِ » ـ رواهُ عَن ثعلبٍ ـ بِإِبدالِ الأَرانِبِ بالثعالِبِ ، وهُوَ ظاهرٌ إِذَن .

ثانيها : أَنَّ مراجيحَ الأَبطالِ والعجائزِ سواءٌ في ركوبِ المواتِرِ ، ولا كذلِكَ في عتاقِ الخيلِ ، وقد قالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٧٣ مِنَ البسيطِ] :

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِيْ قَنَصٌ شُهْبُ ٱلْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيْهِ وَٱلرَّخَمُ[3]

وقد يجابُ عنهُ : بأَنَّ اليمانيَّ قالَ : أَلَذَّ وأَشهىٰ ، وهَـٰذَا قد

---

(١) المطهَّمُ : الفرسُ التام ، كلُّ شيءٍ منه على حدتهِ ، فهوَ بارعُ الجمالِ . الظليمُ : ذكرُ النعامِ . السرحانُ : الذئبُ . الرِّبقةُ : ما يكونُ في رقبةِ الشاةِ تحبسُها من التصرُّفِ .

(٢) المَواتِرُ : كلمةٌ عاميَّةٌ يمنيَّةٌ ؛ المقصودُ بها السياراتُ .

(٣) البازي : من الفصيلة الصقرية وهو من طيور (مصر) النادرة . الرخمُ : طائرٌ أبقعُ ، يشبهُ النسرَ في الخلقةِ ، وهو طائر دنيء .

يكونُ ، وإِنَّما يأْتي الانتقادُ لو قالَ : أَعزَّ وأَعلىٰ .

ثالثُهَا : أَنَّ هَـٰذِهِ الملاحظةَ مِن جنسِ ملاحظتِنا علىٰ الإمامِ العينيِّ قولَهُ ـ في حديثِ : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ كَفَضْلِ ٱلثَّرِيْدِ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلطَّعَامِ »[1] ، ما معناهُ ـ : إِنَّ هـٰذا بالنسبةِ لذلِكَ العهدِ ، أَمَّا الآنَ . . فقدْ أَحدَثُوا من الأَخبصَةِ ، والحلويَّاتِ ، والمطاعِمِ ، ما قد يُستَقَلُّ معَها الثريدُ . وقُلنا : داخلتْهُ عجمَةٌ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ وإلاَّ فالبُرُّ أَفضلُ الطعامِ ، واللَّحمُ أَفضلُ الإِدامِ ، لا يزالانِ كذلكَ إِلىٰ يومِ القِيامِ ، وَما الثريدُ غيرُ البُرِّ مأْدوماً بِاللحْمِ ؟! قالَ الشاعِرُ [في « تحفة الأحوذي » ١٠/ ٢٦١ مِنَ الوافر] :

إِذَا مَـا ٱلْبُـرُّ تَـأْدِمُـهُ بِلَحْـمٍ ... فَـذَاكَ أَمَـانَـةُ ٱللهِ ٱلثَّـرِيْـدُ

وكانَ البُرُّ يلبك لبابه بالشُّهاد[2] في عَهدِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فلَم يفضِّلْهُ علىٰ الثريدِ ، فلا فضْلَ في المَواتِرِ علىٰ عَنَاجِيْجِ الخَيلِ[3] . . إِلاَّ عندَ مَن أَعشىٰ التمدُّنُ الممقوتُ بصرَهُ ، وغطَّىٰ علىٰ بصيرتِهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إِلاَّ باللهِ .

قول الجاحظ في الكتاب

وعلىٰ ذكرِ مجالسةِ الكِتابِ في بعضِ ما جاءَ عَنِ ٱلناظِمِ . . ذكرْتُ قولَ الجاحِظِ : ما أَعلمُ جاراً أَبَرَّ ، ولا خليطاً أَنصفَ ، ولا رفيقاً أَطوعَ ، ولا معلِّماً أَخضعَ ، ولا صاحِباً أَظهَرَ كفايةً ، وأَقلَّ جنايَةً ،

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٥٤١٨) في الأطعمة ، ومسلم (٢٤٤٦) في فضائل عائشة . وفي الباب : عن أبي موسى رضي الله عنه أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٤) ، والبخاري (٣٤١١) ، ومسلم (٢٤٣١) ، والنسائي (٧/ ٦٨) .

(٢) الشُّهاد : العسلُ ما دامَ لَم يُعصَر مِن شمعِهِ .

(٣) عناجيجُ الخيلِ : جيادُها .

ولا أَقلَّ إبراماً ، ولا أنزرَ إملالاً ، ولا أنزهَ عَن رِيبَةٍ ، ولا أبعدَ عَن غِيبَةٍ ، ولا أكثرَ تصرُّفاً ، ولا أَقلَّ تكلُّفاً ، ولا أتركَ للشَّغبِ ، ولا أزهَدَ في الجدالِ ، ولا أَحسنَ مواتَاةً ، ولا أعجَلَ مكافَأَةً ، ولا أَحضَرَ معونةً ، ولا أَيسرَ مُؤنَةً. . . مِن كِتابٍ .

قول المؤلف في الكتاب

وصدقَ واللهِ فيما قالَ ، فلقد جرَّبتُهُ في نَفْسي ، ووجدْتُ مِن الأنسِ بِهِ تعلُّةً عَن الذاهِبِ ، وسلوةً من الغائِبِ ، وزهداً في الخائِنِ ، وعزاءً عَن الحائِنِ ، وقلتُ من قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ٣٨٨ مِنَ البسيطِ] :

لِيْ غُنْيَةٌ بِمُنَاجَاةِ ٱلدَّفَاتِرِ عَنْ ... مَنْ لاَ يُنَاسِبُنِيْ مِنْ جُمْلَةِ ٱلنَّاسِ
قَدْ قُلْتُ نَاساً وَلَـٰكِنْ رُبَّمَا مُسِخُوْا ... فِيْ عَيْنِ كُلِّ بَصِيْرٍ جِيْلَ نَسْنَاسِ

وقالَ غيرِيْ [مِنَ الكاملِ] :

نِعْمَ ٱلْمُحَدِّثُ وَٱلْجَلِيْسُ كِتَابُ ... تَلْهُوْ بِهِ إِنْ خَانَكَ ٱلأَصْحَابُ
لاَ مُفْشِيـاً سِـرّاً إِذَا ٱسْتَـوْدَعْتَـهُ ... وَتُفَـادُ مِنْـهُ حِكْمَـةٌ وَصَـوَابُ

وقالَ الجرجانيُّ [مِنَ الخفيفِ] :

لَـمْ أَجِـدْ لَـذَّةَ ٱلسَّـلاَمَـةِ حَتَّـىٰ ... صِرْتُ لِلْبَيْتِ وَٱلْكِتَابِ جَلِيْسَا

وقد سبقَ بعضُ ما يتعلَّقُ بالخيلِ في المجلسِ الرابعِ ، عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَذَرْنِـيْ وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـيْ وَذَابِلِـيْ ... نَكُنْ وَاحِداً يَلْقَىٰ ٱلْوَرَىٰ وَٱنْظُرَنْ فِعْلِيْ[1]

---

(١) الطِّرفُ : الفرسُ الكريمُ ، وجمعهُ ، طروفٌ . الذابلُ : ما اهتزَّ ولانَ من الرماحِ .

ويأتي ـ بحسَبِ كلِّ فرصَةٍ ـ ما يليقُ بِها مِن أَحوالِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولِتَقِيِّ الدينِ السبكيِّ جوابٌ عَن زَمانِ خلقِها ، وما يتعلَّقُ بهِ ، أَضربْتُ عنهُ ؛ لأَنَّ صدري لَم ينشرِحْ لما ذكرَ في أَدِلَّتِهِ ، وهُوَ موجودٌ برمَّتِهِ في « حياةِ الحيوانِ » [١/ ٢٨٠ـ٢٨٦] للدميريِّ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢١ مِنَ الخفيفِ] :

عِشْ عَزِيْزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ	بَيْنَ طَعْنِ ٱلْقَنَا وَخَفْقِ ٱلْبُنُوْدِ

الحيـاة السعيـدة أو الموت العزيز

(البنود) : الأَعلامُ الكبيرَةُ ، والباقي معروفٌ ، والمعنىٰ متداوَلٌ بينَ الشعَراءِ ، جاهليَّةً وإِسلاماً ، فمِنْهُ قولُ الحُصينِ بنِ حُمامٍ المُريِّ ، وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ [كما في « الأغاني » ١٤/ ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْـتُ بِمُبْتَـاعِ ٱلْحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ ... وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

وقالَ ٱبنُ ميَّادَةَ [في « ديوانهِ » ٢١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ذَمِيْمَةٍ ... وَلَلْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ عَنَاءٍ مُطَوَّلِ

وقالَ سليمانُ بنُ قتةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ الأُلَىٰ بِٱلطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... تَآسَّوْا فَسَنُّوْا لِلْكِرَامِ ٱلتَّآسِّيَا[١]

وقد تمثَّلَ بهِ مصعبُ بنُ الزبيرِ يومَ زاحفَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ[٢] ، وكانَ من حديثِهِ [كما في « الكامل » ٤/ ١٠٧ بنحوه] : أَنَّهُ لمَّا خذَلَهُ أَصحابُهُ ، وتقاعَدَ عنهُ عسكرُهُ ، وخفَّ عنهُ رجالُهُ . أَرسلَ إِليهِ عبدُ الملكِ أَخاهُ محمَّد بنَ مروانَ يعرضُ عليهِ الأَمانَ ، وولايةَ (العِراقَينِ) أَبداً ما دامَ حيّاً ، وأَلفَي أَلفِ درهمٍ صلَةً ، فأَبىٰ ،

---

(١) الطَّفُّ : موضع قرب (الكوفة) ، فيه قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه .

(٢) في وقعة (دير الجاثليق) .

وقالَ : إنَّ مِثْلي لا ينصرفُ عن هَـٰذَا المكانِ إلاَّ غالباً ، أو مقتولاً ، فشدَّ عليهِ أَهلُ الشامِ ، حَتَّىٰ طعنَهُ زائِدةُ بنُ قيسِ بنِ قدامةَ السعديُّ ، ونادىٰ يا لَثاراتِ المختارِ ، فنزلَ إليهِ ٱبنُ ظبيانَ ، واحتزَّ رأْسَهُ ، وحملَهُ إلىٰ عبدِ الملكِ ، فبكىٰ ، وقالَ : لقد كانَ أَحبَّ الناسِ إليَّ ، وأَشدَّهُم مودَّةً لي ، ولَـٰكِنَّ المُلْكَ عقيمٌ .

وقالَ عبدُ الملكِ مرَّةً لجلسائِهِ : مَن أَشجَعُ الناسِ ؟ فقالَ بعضُهم : قطريٌّ ، وقالَ بعضٌ : شبيبٌ ، وقالَ آخرُ : فلانٌ ، قالَ عبدُ الملكِ : بَلْ رجلٌ جَمَعَ بينَ سُكينَةَ بنتِ الحسينِ ، وعائِشَةَ بنتِ طلحَةَ ، وأَمَةِ الحميدِ بنتِ عبدِ اللهِ بنِ عامرِ بنِ كريزٍ ، وقِلابَةَ ٱبنةِ ريَّانَ بنِ أُنيفٍ الكلبيِّ ، وعُرِضَ عليهِ الأَمانُ ، وولايَةُ (ٱلعِرَاقَينِ) ما دامَ حيّاً ، وما في بيتِ المَالِ كلُّهُ فأَبىٰ ، ومشىٰ بسيفِهِ إلىٰ الموتِ ، حَتَّىٰ قتِلَ ، ذاكَ مصعبُ بنُ الزبيرِ ، لا مَن قَطَعَ ٱلجسورَ مرَّةً إلىٰ هُنا ، وأُخرىٰ إلىٰ هُناكَ .

ولمَّا وُضعَ رأسُهُ بينَ يديهِ . . أَنشدَ [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/١٠٧ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ أَرْدَىٰ ٱلْفَوَارِسُ يَوْمَ حِسِّيْ	غُـلاَمـاً غَيْـرَ مَنَّـاعِ ٱلْمَتَـاعِ(١)
وَلاَ فَــرِحٍ بِخَيْــرٍ إِنْ أَتَــاهُ	وَلاَ هَلِعٍ مِنَ ٱلْحَدَثَانِ لاَعِ(٢)
وَلاَ وَقَّــافَــةٍ وَٱلْخَيْــلُ تَـرْدِيْ	وَلاَ خَـالٍ كَـأُنْبُـوبِ ٱلْيَـرَاعِ(٣)

---

(١) حِسِّي : اسم موضع .
(٢) لاعٍ : متوجِّعٌ .
(٣) الوقافة : المحجم عن القتال . واليراع ـ مفردها يراعة ـ : وهي القصبة التي يكتب بها قبل القلم .

بالهاشميين الأبطال تشجع أنفسها

وحسبُكَ بالهاشميِّينَ ذِكراً وشرفاً وفخراً . . أَنَّ الأَبطالَ تشجَّعُ بِهم نفوسَها ، وتتذكَّرُ أَحوالَهم ؛ لتفرِّجَ بِهم بؤسَها ، وممَّا يستدرُّ إِعجابي ، ويمتلِىءُ بهِ إِهَابِيْ ، قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنْ إِرْثِكُمْ أَعْطَتْ صَفِيَّةُ مُصْعَباً ... جَمِيْلَ ٱلأَسَىٰ لَمَّا ٱسْتُحِلَّتْ مَحَارِمُهْ
وَثُكْلُ ٱبْنِهِ مُوْفٍ عَلَىٰ ثُكْلِ نَفْسِهِ ... فَمَا كَانَ إِلاَّ صَبْرُهُ وَعَزَائِمُهْ
وَعُرْوَةُ إِذْ لاَ رِجْلُهُ ٱنصَرَفَتْ بِهِ ... وَقَدْ خَرِمَتْهُ فِي بَنِيْهِ خَوَارِمُهْ(١)
بَكَىٰ أَقْرَبُوْهُ شَجْوَهُ وَهْوَ ضَاحِكٌ ... يُعَزِّيْهِمُ حَتَّىٰ تَحَيَّرَ لاَئِمُهْ

وللهِ درُّهُ في قولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَاهَا ٱلرَّدَىٰ بَعْدَ ٱلرَّدَىٰ فَتَتَابَعَتْ ... تَتَابُعَ مُنْبَتِّ ٱلْفَرِيْدِ ٱلْمُنَظَّمِ(٢)

وهو مثلُ قولِ كثيِّرِ ٱبنِ أَبي وداعَةَ [في « أخبار مكة » ٤/ ٦٠ مِنَ الخفيفِ] :

أَهْلُ بَيْتٍ تَتَابَعُوا لِلْمَنَايَا ... مَا عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتَابِ

صور من شجاعة الشجعان على مر الزمان

وكانَ أَنسُ بنُ النضرِ مِمَّن وَفَّىٰ للهِ ، فـ[قد أخرج « البخاري » (٢٨٠٥) في (الجهاد) أنه] : ثبتَ في يومِ أُحدٍ حَتَّىٰ ٱستُشهِدَ ، وأَصابَهُ يومئِذٍ بضعٌ وستُّونَ ـ ما بينَ طعنَةٍ برمْحٍ وضربَةٍ بسيفٍ ـ ولم يعرفْهُ إلاَّ أُختُهُ ببَنانِهِ .

ويعجبُني قولُ بعضِهِم ـ وأَظنُّني قد سقتُهُ فيما سبقَ مِنَ ٱلْمَجالِسِ ـ [مِنَ الكاملِ] :

يَلْقَىٰ ٱلسُّيُوْفَ بِوَجْهِهِ وَبِنَحْرِهِ ... وَيُقِيْمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ

---

(١) خوارمه : خوارم الدهر مصائبه .
(٢) المنبتُّ : المقطوعُ . الفريدُ المنظَّمُ : العِقْدُ .

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ: ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا فَعَقَرْتَ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ تُعْقَرِ
وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرْبِلٍ أَثْوَابَ عَيْشٍ مُقْفِرِ
أَوْمَا إِلَىٰ ٱلْكَدْمَاءِ هَـٰذَا طَارِقٌ نَحَرَتْنِيَ ٱلأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ أَنْحَرِ[1]

وذكرتُ بِهِ أَنَّ عتبةَ بنَ ربيعةَ ٱلتمسَ يومَ بدرٍ بيضَةً يدخلُها في رأسِهِ ، فلم يوجَدْ في الجَيشِ ـ معَ كثرتِهِ ـ بيضَةٌ تَسَعُ هامتَهُ مِن كِبَرِهَا ، فأَقامَ هامتَهُ مقامَ المِغْفَرِ ، وٱعتَجرَ[2] ببردٍ لَهُ علىٰ رأْسِهِ ، وخرَجَ إِلىٰ ميدانِ المبارَزَةِ .

ويعجبُني قولُ ٱلشَّريفِ ٱلرَّضيِّ فيما يتعلَّقُ بمصعبِ بنِ ٱلزُّبيرِ [في « ديوانه » ٢/ ٨٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ حَلَّقَتْ خَوْفَ ٱلْهَوَانِ بِمُصْعَبٍ قَـوَادِمُ آبَـاءٍ كِـرَامِ ٱلْمَقَـادِمِ[3]
عَلَىٰ حِيْنَ أَعْطَوْهُ ٱلأَمَانَ فَعَافَهُ وَخُيِّرَ فَٱخْتَارَ ٱلرَّدَىٰ غَيْرَ نَادِمِ

وقالَ يزيدُ بنُ ٱلمهلَّبِ يذمُّ بعضَ ٱلهاربينَ : هَبُوهُ غُلبَ علىٰ ٱلمُلكِ ، فمَن غلبَهُ علىٰ ٱلموتِ ؟ فلمَّا كانَ يومُ ٱلعقر ، وٱمترىٰ ٱلناسُ في قتلِهِ . . قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ ٱلملِكِ : ما كانَ وٱللهِ ليفرَّ يزيدُ ، فٱلتمَسوهُ في ٱلقَتْلىٰ ، وما كادوا يعرفُونَهُ إلاَّ بعدَ لأْيٍ مَا مِن كثْرَةِ ما أَصابَهُ .

ولمَّا قيلَ لهُ : هلاَّ تَبني لَكَ قصراً . . قالَ : هو مَبْنِيٌّ ، قَالوا : أَينَهُ ؟ قالَ : إِمَّا دارُ ٱلإِمارَةِ ، وإِمَّا ٱلسِّجْنُ ، وإِمَّا ٱلقبرُ .

---

(١) الكَدْماءُ : النعجةُ كثيرةُ اللحمِ .
(٢) اعتجرَ : لفَّ العمامةَ علىٰ رأسهِ .
(٣) المقادم ـ جمعُ مَقْدَمٍ ـ : وهوَ مصدرُ (قَدِمَ) .

فأَخذَهُ أَبو فراسٍ ٱلحمدانيُّ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّـا أُنَـاسٌ لاَ تَـوَسُّـطَ عِنْـدَنَـا ... لَنَا ٱلصَّدْرُ فِيْ كُلِّ ٱلأُمُوْرِ أَوِ ٱلْقَبْرُ

ويعجبُني فيهِ قولُ ٱلرَّضيِّ [في « ديوانه » ٢/ ٨٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَـٰذَا يَزِيْدُ بْنُ ٱلْمُهَلَّبِ نَافَرَتْ ... بِهِ ٱلذُّلَّ أَعْرَاقُ ٱلْجُدُوْدِ ٱلأَكَارِمِ

فَقَـالَ وَقَـدْ عَـنَّ ٱلْفِـرَارُ أَوِ ٱلـرَّدَىٰ ... لَحَا ٱللهُ أَخزَىٰ ذُكْرَةٍ فِيْ ٱلْمَوَاسِمِ

وَمَا غَمَرَاتُ ٱلْمَوْتِ إِلاَّ ٱنْغِمَاسَةٌ ... وَلاَ ذِيْ ٱلْمَنَايَا غَيْرُ تَهْوِيْمِ نَائِمِ

رَأَىٰ أَنَّ ضَرْبَ ٱلسَّيْفِ أَهْوَنُ مَحْمَلاً ... مِنَ ٱلْعَارِ يَبْقَىٰ وَسْمُهُ فِيْ ٱلْمَخَاطِمِ (١)

فَعَافَ ٱلدَّنَايَا وَٱمْتَطَىٰ ٱلْمَوْتَ شَامِخاً ... بِمَـارِنِ عِـزٍّ لاَ يَـذِلُّ لِخَـاطِـمِ (٢)

وللهِ قولُ بعضِهم [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ بُدَّ أَنْ أَسْعَىٰ لأَشْرَفِ رُتْبَةٍ ... وَأَمْنَعَ عَيْنِيْ عَنْ لَذِيْذِ مَنَامِيْ

وَأَقْتَحِمَ ٱلأَمْرَ ٱلْجَسِيْمَ بِحَيْثُ أَنْ ... أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ خَلْفِيْ تَارَةً وَأَمَامِيْ

فَإِمَّا مُقَاماً يَضْرِبُ ٱلْمَجْدُ وَسْطَهُ ... سُـرَادِقَـهُ أَوْ بَـاكِيـاً لِحِمَـامِ

وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْلُغْ مَقَاماً أَرُومُهُ ... فَكَمْ حَسَرَاتٍ فِيْ نُفُوْسٍ كِرَامِ

وقولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٢/ ٧٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَـأَحْمِـلُ نَفْسِـيْ عِنْـدَ كُـلِّ مُلِمَّـةٍ ... عَلَىٰ مِثْلِ حَدِّ ٱلسَّيْفِ أَخْلَصَهُ ٱلْهِنْدُ

فَإِنْ عِشْتُ مَحْمُوداً فَمِثْلِي بَغَىٰ ٱلْغِنَىٰ ... لِيَكْسِـبَ مَـالاً أَوْ يَنُثَّ لَـهُ حَمْـدُ (٣)

وَإِنْ مِتُّ لَمْ أَظْفَرْ فَلَيْسَ عَلَىٰ ٱمْرِئٍ ... غَـدَا طَـالِبـاً إِلاَّ تَقَصِّيْـهِ وَٱلْجُهْـدُ

---

(١) المَخاطِمُ : الأُنوفُ .

(٢) المارِنُ : ما لانَ مِنَ الأَنفِ . الخاطِمُ : القائِدُ .

(٣) النثُّ : نشرُ الحديثِ .

هدبة بن خشرم يستمهل السجان ليتم لعبته ثم يساق إلى القتل وسبب حبسه وقتله

وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلِسِ ذكرُ هدبةَ بنِ الخشرَمِ ، وأَنَّهُ قالَ للسجَّانِ ـ لَمَّا جاءَ يؤذِنُهُ بعزمِهم علىٰ قتْلِهِ ـ : رويدَكَ حَتَّىٰ أُتِمَّ لُعبَتي ، وكانَ يلعَبُ الشطرَنجَ ، فما أنزعَجَ ، ولاَ أندهَشَ ، ولاَ تغيَّرَ .

وكانَ من حديثِهِ : أَنَّهُ قتلَ زيادَةَ بنَ زيدٍ العذريَّ ؛ لأَنَّهُ شبَّبَ بأُختِهِ فاطمةَ ، وقالَ [مِنَ الرجزِ] :

عُوجِيْ عَلَيْنَا وَٱرْبَعِيْ يَا فَاطِمَا أَمَا تَرَيْنَ ٱلدَّمْعَ مِنِّيْ سَاجِمَا

فرُفِعَ إلىٰ سعيدِ بنِ العاصِ ، وكانَ أَميرَ (المدينَةِ) ، وكانَ الذي رفعَهُ عبدُ الرحمٰنِ أَخو زيادَةَ ، فكرِهَ الحُكمَ في القضيَّةِ سعيدٌ ، وأَرسلَهُما إلىٰ معاويَةَ ، فلمَّا صارا بينَ يديهِ . . قالَ عبدُ الرحمٰنِ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، أَشكو إِليكَ مظْلَمَتي ، وقتلَ أَخي ، فقالَ معاويَةُ : قلْ يا هدبَةُ ، قالَ : إِنْ شئْتَ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ كلاماً ، أَو شعراً ؟ قالَ : لاَ ، بَلْ شِعراً ، فقالَ [في « ديوانه » ٩٥ـ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَـا لَقَـوْمِـيْ لِلنَّـوائِـبِ وَٱلـدَّهْـرِ وَلِلْمَرْءُ يُرْدِيْ نَفْسَهُ وَهْوَ لاَ يَدْرِيْ
وَلِلأَرْضِ كَمْ مِنْ صَالِحٍ قَدْ تَلاَءَمَتْ عَلَيْـهِ وَوَارَتْـهُ بِلَمَّـاعَـةٍ قَفْـرِ
فَـلا ذَا جَـلاَلٍ هِبْنَـهُ لِجَـلاَلِـهِ وَلاَ ذَا ضَيَاعٍ هُنَّ يُتْرَكْنَ لِلْفَقْرِ[1]

إلىٰ أَنْ قالَ [في « ديوانه » ٩٧ـ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّـا رَأَيْـتُ أَنَّمَـا هِـيَ ضَـرْبَـةٌ مِنَ ٱلسَّيْفِ أَوْ إِغْضَاءُ عَيْنٍ عَلَىٰ وِتْرِ
عَمَـدْتُ لأَمْـرٍ لاَ يُعَيِّـرُ وَالِـدِيْ خِزَايَتُهُ حَيّاً وَلاَ وَهْوَ فِيْ ٱلْقَبْرِ

---

(١) الضياعُ : العيالُ ، وهو في الأصلِ : مصدرُ ضاعَ الشيءُ ، فسمَّاهم بهِ .

رُمِينَا فَرَامَيْنَا فَصَادَفَ سَهْمُنَا مَنِيَّةَ نَفْسٍ فِيْ كِتَابٍ عَلَىٰ قَدْرِ
وَأَنْـتَ أَمِيْـرُ ٱلْمُـؤْمِنِيْـنَ فَمَـا لَنَـا وَرَاءَكَ مِنْ مَعْدٍ وَلاَ عَنْكَ مِنْ قَصْرِ[1]
فَإِنْ تَكُ فِيْ أَمْوَالِنَا لَمْ تَضِقْ بِهَا ذِرَاعاً وَإِنْ صَبْرٌ فَنَصْبِرُ لِلصَّبْرِ

فقالَ لهُ معاويَةُ : أَراكَ قد أقرَرْتَ يا هدبَةُ ، فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : أَقدْني ، فكرِهَ ذٰلِكَ معاويَةُ ، وضنَّ بهدبَةَ عنِ القتلِ ، وقالَ : أَلِزيادَةَ وَلَدٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أَصغيرٌ أَم كبيرٌ ؟ قالَ : بَل صغيرٌ ، قالَ : يحبسُ هدبَةُ إِلىٰ أَن يبلغَ ابنُ زيادَةَ ، فأَرسلَهُ إِلىٰ (المدينَةِ) . . فحُبسَ بِها سبعَ سنينَ ، فلمَّا بلغَ ابنُ زيادَةَ . . عُرِضَ عليهِ عشرُ دِياتٍ ، فكادَ أَنْ يرضىٰ ، فقالَتْ أُمُّهُ : أُعطِي اللهَ عهداً ، لئِنْ لم تقتلْهُ . . لأَتزوجنَّهُ ، فيكونُ قد قتلَ أَباكَ ، ونكحَ أُمَّكَ ، وكانَ مِمَّن عرضَ عليهِ الدياتِ : الحسينُ بنُ عليٍّ ، وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعبَيدُ اللهِ بنُ العبَّاسِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ ، ومروانُ بنُ الحكَمِ ، وغيرُهم ، ولمَّا ذُهِبَ بهِ إِلىٰ (الحرَّةِ) ليُقتلَ . . لقيَهُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ حسَّانَ ، فقالَ لهُ : أَنشدْني ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا ٱلدَّهْرُ سَرَّنِيْ وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ ٱلْمُتَقَلِّبِ
وَلاَ أَتَمنَّـىٰ ٱلشَّـرَّ وَٱلشَّـرُّ تَـارِكِـيْ وَلَـٰكِنْ مَتَىٰ أُحْمَلْ عَلَىٰ ٱلشَّرِّ أَرْكَبِ

وقالَ [الأبياتُ لأَبي الطمحانِ القينيِّ كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٨٣ الطويل] :

أَلاَ عَلِّـلاَنِـيْ قَبْـلَ نَـوْحِ ٱلنَّـوَائِـحِ وَقَبْلَ ٱرْتِقَاءِ ٱلنَّفْسِ فَوْقَ ٱلْجَوَانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِيْ عَلَىٰ غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِيْ وَلَسْتُ بِرَائِحِ

---

(١) من مَعْدٍ : من متجاوَزٍ إلىٰ غيرِكَ .

إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي تَفِيضُ عُيُونُهُمْ وَغُودِرْتُ فِي لَحْدٍ ثَقِيلِ ٱلصَّفَائِحِ
يَقُولُونَ هَلْ أَصْلَحْتُمُ لأَخِيكُمُ؟ وَمَا ٱلْقَبْرُ فِي ٱلأَرْضِ ٱلْفَضَاءِ بِصَالِحِ

ونظرَ إِلىٰ ٱمرأتِهِ وهِيَ تبْكي . . فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَقِلِّي عَلَيَّ ٱللَّوْمَ يَا أُمَّ بَوْزَعَا وَلاَ تَجْزَعِي مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
وَلاَ تَنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ ٱلدَّهْرُ بَيْنَنَا أَغَمَّ ٱلْقَفَا وَٱلرَّأْسِ لَيْسَ بِأَنْزَعَا[1]

فسألَتِ القومَ أَنْ يمهلوهُ ، ثُمَّ أَتَتْ جزَّاراً ، فأَخذَتْ منهُ مُديَةً ، فجدعَتْ أَنفَها ، ثُمَّ أَتَتْهُ مجدوعَةَ الأَنفِ ، وقالَتْ : أَهَـٰذَا فعلُ مَن لها حاجةٌ بالرِّجالِ ؟ قالَ : أَمَّا الآنَ . . فقد طابَ الموتُ ، وٱلتفتَ إِلىٰ أَبويهِ وهُما يبكيانِ ، فقالَ [مِنَ الرَّمَلِ] :

أَبْلِيَانِي ٱلْيَوْمَ صَبْراً مِنْكُمَا إِنَّ حُزْناً مِنْكُمَا ٱلْيَوْمَ لَشَرّ
مَا أَظُنُّ ٱلْمَوْتَ إِلاَّ هَيِّناً إِنَّ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ دَارَ ٱلْمُسْتَقَرّ

ثُمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَذَا ٱلْعَرْشِ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مُؤْمِنٌ مُقِرٌّ بِزَلاَّتِي إِلَيْكَ فَقِيرُ
وَإِنِّي وَإِنْ قَالُوا : أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ وَحَجَّابُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ[2]
لأَعْلَمُ أَنَّ ٱلأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنْ فَعَدْلٌ وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ غَفُورُ

ثُمَّ ٱلتفتَ إِلىٰ ٱبنِ زيادَةَ وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي فِي ٱلْحَدِيدِ فَإِنَّنِي قَتَلْتُ أَبَاكُمْ مُطْلَقاً لَمْ يُقَيَّدِ

---

(١) أغمَّ ٱلقفَا ـ من الغمِّ ـ : وهو سيلانُ الشعرِ للجبهةِ . الأنزعُ : هوَ الذي ٱنحسَر شعره عَن جانبَيْ جبهتِهِ وموضعِهِ .

(٢) الصَّريرُ : صوتُ الباب ، وهوَ كنايةٌ عنِ البخلِ ؛ لأَنَّ البابَ الذي لا يُفتحُ إلاَّ بينَ الحينِ والآخرِ يكونُ لهُ هذا الصريرُ ، أَمَّا الكريمُ . . فلا صوتَ لبابِهِ .

ثُمَّ ضُربَتْ عنقُهُ ، وكانَ أَرسَلَ إِلىٰ أُمِّ سلمَةَ ـ زوجِ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ أَن تستغفِرَ لهُ ، فلمَّا قُتلَ . . ٱستغفرَتْ لهُ .

وكانَتْ دِرْعُ عليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ صدراً لاَ ظهْرَ لَها ، فقيلَ لَهُ : أَمَا تخافُ أَنْ تُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِ ظهرِكَ ؟ قالَ : إِذا أَمكنْتُ عدوِّي مِن ظَهري . . فَلا أَبقىٰ اللهُ عليَّ ، فهو الأَحقُّ ، بقولِ الحُصينِ بنِ الحُمامِ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْنَا عَلَىٰ ٱلأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُومُنَا وَلَٰكِنْ عَلَىٰ أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ ٱلدِّمَا

وقالَ ٱلبُحتريُّ أَو ٱلببَّغا [الببغا في « قرى الضيف » ١/ ٣٢٧ مِنَ البسيطِ] :

يَلْقَىٰ ٱلرِّمَاحَ بِصَدْرٍ مِنْهُ لَيسَ لَهُ ظَهْرٌ وَهَادِيْ جَوَادٍ مَا لَهُ كَفَلُ

وقالَ العلويُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِيْ عَلَىٰ ٱلْقَنَا وَتَنْدَقُّ مِنْهُ فِيْ ٱلصُّدُوْرِ صُدُوْرُهَا

وأَخذهُ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِيْ عَلَىٰ ٱلْقَنَا مُحَلَّلَةٌ لَبَّاتُهَا وَٱلْقَلاَئِدُ

وقالَ [في « العُكبريّ » ١/ ١٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَوْا بِنَواصِيهَا ٱلْقِسِيَّ فَجِئْنَهَا دَوَامِيْ ٱلْهَوَادِيْ سَالِمَاتِ ٱلْجَوَانِبِ[١]

جحدر بن مالك وأسد الحجاج ورباطة جأشه

و[ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » ٩/ ١٢٥ أنه] : كانَ جَحدَرُ بنُ مالِكٍ فتَّاكاً شجاعاً ، فأَغارَ علىٰ أَهلِ (حجرٍ) وناحيتِها ، فبلغَ ذٰلِكَ الحجَّاجَ ، فكتبَ إِلىٰ عامِلهِ باليمامَةِ يوبِّخُهُ بتلاعُبِ جحدرٍ عليهِ ،

---

(١) القسيُّ : جمع قوسٍ . الهواديُّ : الأعناقُ . النواصي ـ جمع ناصيةٍ ـ : وهو مقدَّم شعرِ الرأسِ ، ونواصي الناس : أشرافهم .

ويأمرُهُ بالاجتهادِ في طلبهِ ، فلمَّا وصَلَ إليهِ الكتابُ . . أَرسلَ إلىٰ فتيَةٍ مِن بني يربوعٍ ، وجعلَ لَهم جُعْلاً عظيماً . . إنْ هُم قَدروا عليهِ ، فأَرسلوا إليهِ يُظهرونَ أَنَّهم خارجونَ لاحقونَ بهِ ، فاطمأَنَّ إليهم ، وَوَثِقَ بِهم ، فلمَّا أَصابوا منهُ غِرَّةً . . شدُّوه كِتافاً ، وقدِموا بهِ علىٰ العامِلِ ، فوجَّهَ بهِ معهم إلىٰ الحجَّاجِ ، فلمَّا أُدخِلَ عليهِ . . قالَ لهُ : مَن أَنتَ ؟ قالَ : جَحدَرُ بنُ مالِكٍ ، قالَ : ما حملَكَ علىٰ ما كانَ منْكَ ؟ قالَ : جفاءُ السُّلطانِ ، وجرأَةُ الجَنَانِ ، وكَلَبُ الزمانِ ، قالَ : وما بلغَ من جرأَتِكَ ؟ قالَ : لو بَلاني الأَميرُ . . لَوَجدَني مِن صالِحي الأَعْوانِ ، قالَ لَهُ : فإِنَّا قاذفونَ بكَ في حائرٍ فيهِ أَسَدٌ ضارٍ عاقِرٌ ، فإِن هُوَ قتلَكَ . . فقد كفانا مَؤُنَتَكَ ، وإِنْ أَنتَ قتلتَهُ . . خلَّينا سبيلَكَ ، قالَ : لقد عظُمَتِ المنَّةُ ، وقويتِ المحنةُ ، وأَرسلَ وهُوَ في محنتِهِ إلىٰ (اليمَنِ) بقصيدتِهِ النونيَّةِ المشهورةِ ، التي يقولُ فيها ـ كما سبقَ ـ [مِنَ الوافرِ] :

أَلَيسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو وَإِيَّانَا فَذَاكَ لَنَا تَدَانِي

ثُمَّ إنَّ الحجَّاجَ أَجاعَ الأَسدَ أَيَّاماً ، وأَرسلَ إلىٰ جَحدَرٍ ، فأُتِيَ بهِ مِن السجْنِ ، ويدُهُ اليمنىٰ مغلولَةٌ إلىٰ عنقِهِ ، وأُعطِيَ سيفاً ، وقُذِفَ بهِ إلىٰ حائرِ الأَسَدِ[1] ، والحجَّاجُ وجلساؤُهُ في منظرةٍ لَهم تشرفُ علَيهِ ، فلمَّا نظرَ جَحدَرٌ إلىٰ الأَسَدَ . . قالَ [مِنَ الرجَزِ] :

لَيْثٌ وَلَيْثٌ فِيْ مَجَالٍ ضَنْكِ كِلاَهُمَا ذُوْ شِدَّةٍ وَمَحْكِ[2]

---

(١) الحائرُ : الحوضُ الذي يُسيَّبُ إليهِ مسيلُ الماءِ .

(٢) المحكُ : التمادي في اللجاجةِ عند المساومةِ والغضبِ .

وَقُــوَّةٍ فِــيْ نَفْسِــهِ وَفَتْــكِ   إِنْ يَكْشِـفِ ٱللهُ قِنَـاعَ ٱلشَّـكِّ
فَهُــوَ أَحَــقُّ مَنْــزِلٍ بِتَــرْكِ

فلمَّا نَظَرَ إِليهِ الأَسدُ.. زأَرَ زأرَةً شديدةً، وتمطَّىٰ، وأَقبلَ عليهِ حَتَّىٰ صارَ علىٰ قيدِ الرُّمحِ، فوثَبَ وثبَةً هائِلَةً، تلقَّاها جَحدَرٌ بالسيفِ، فضربَهُ حَتَّىٰ خالَطَ ذُبابُ السيفِ[1] لَهواتِهِ، فخرَّ الأَسدُ كَأَنَّهُ فُسطَاطٌ تردَّىٰ بالريحِ، وسقطَ جَحدَرٌ علىٰ قفاهُ من شدَّةِ وثبَةِ الأَسَدِ، وثِقَلِ الكُبولِ، فكبَّرَ الحجَّاجُ والناسُ أَجمعونَ، وأَطلَقَ جحدَراً، وأَحسنَ جائِزتَهُ، وخلَّىٰ سبيلَهُ.

وقيلَ: إِنَّهُ ٱصطفاهُ، وجعلَهُ مِن سُمَّارِهِ، ثُمَّ لم يلبثْ أَنْ ولاَّهُ (اليمامَةَ).

ونظرَ بعضُهم إِلىٰ المهلَّبِ ٱبنِ أَبي صُفرةَ راكِباً في أَبنائِهِ، وكلُّهم فارسٌ، فقالَ: آنسَ اللهُ الإِسلامَ بتلاحقِكُم، أَشهدُ باللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ هٰؤُلاءِ أَسباطَ نُبُوَّةٍ.. فَإِنَّهُم أَسباطُ حربٍ، وماتَ المهلَّبُ بعدَ تعرُّضِهِ للحتوفِ علىٰ فراشِهِ، وكذلِكَ كانَتْ وفاةُ ٱبنِهِ المغيرةِ، وهُوَ الذي يقولُ فيهِ زيادٌ الأَعجمُ [في «ديوانه» ٨٩ مِنَ الكاملِ]:

مَاتَ ٱلْمُغِيْرَةُ بَعْدَ طُوْلِ تَعَرُّضٍ   لِلْقَتْـلِ بَيْـنَ أَسِنَّـةٍ وَصَفَـائِـحِ

وأَمَّا يزيدُ.. فقد سبقَ أَنَّهُ قُتِلَ، وكانَ قتلُهُ في جماعَةٍ مِن أَهلِهِ يومَ العَقرِ؟ ولهٰذا كانَ يقالُ [كما في «وفيات الأعيان» ٦/٣٠٨]: ضَحَّىٰ بَنو أُميَّةَ بالدِّينِ يومَ كَرْبَلاءَ، وبِالشجاعَةِ يومَ العَقْرِ، وقُتِلَ تسعةٌ مِنهم في واقعَةِ قندابيل، وقُتلَ باقيهِمْ صبراً بـ(الشامِ)، وما أَحسنَ ما قالَهُ

(١) ذباب السيف: حدُّ طرفيه.

كعبٌ الأشقريُّ في المهلَّبِ وبنيهِ [كما في « الأغاني » ١٤/٢٧٨ مِنَ الوافرِ] :

بَـرَاكَ ٱللهُ حِيْـنَ بَـرَاكَ بَحْـراً ... وَفَجَّـرَ مِنْـكَ أَنْهَـاراً غِـزَارَا

بَنُوكَ ٱلسَّابِقُونَ إِلَىٰ ٱلْمَعَالِيْ ... إِذَا مَـا أَعْظَـمَ ٱلنَّـاسُ ٱلْخِطَـارَا

كَـأَنَّهُـمُ نُجُـومٌ حَـوْلَ بَـدْرٍ ... تَكَمَّـلَ إِذْ تَكَمَّـلَ فَـاسْتَـدَارَا

مُلُـوكٌ يَنْـزِلُـونَ بِكُـلِّ ثَغْـرٍ ... إِذَا مَا ٱلهَامُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ طَارَا

رِزَانٌ فِيْ ٱلْخُطُوْبِ تَرَىٰ عَلَيْهِمْ ... مِنَ ٱلشَّيْخِ ٱلشَّمَائِلَ وَٱلْوَقَارَا

نُجُـومٌ يُهْتَـدىٰ بِهِـمُ إِذَا مَـا ... أَخُوْ ٱلْغَمَرَاتِ فِيْ ٱلظُّلُمَاتِ حَارَا

ونظرَ عبدُ اللهِ بنُ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ [كما في « الأغاني » ٤/٣٣٨] : إِلىٰ فتىً عليهِ أُبَّهَةُ الشرفِ ، يحاربُ مستقتلاً ، فناداهُ : يَا فتىٰ ، لَكَ الأَمانُ ولَو كُنتَ مروانَ بنَ محمَّدٍ ، فقالَ : إلاَّ أَكُنْهُ . . فلستُ بدونِهِ ، فقالَ لَهُ : لكَ الأَمانُ كائِناً مَن كُنتَ ، فأَطرقَ ثُمَّ أنشدَ [مِنَ المتقاربِ] :

أَذُلَّ ٱلْحَيَـاةِ وَكُـرْهُ ٱلْمَمَـاتِ ؟! ... وَكُـلاًّ أَرَاهُ طَعَـامـاً وَبِيْـلاَ[1]

وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ غَيْـرُ إِحْـدَاهُمَـا ... فَسَيْراً إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ سَيْراً جَمِيْلاَ

ثُمَّ لمْ يزَلْ يقاتِلُ حَتَّىٰ قتِلَ ، فإِذا هُوَ ٱبنُ مسلمَةَ بنِ عبدِ الملِكِ .

متى يكون الإقدام نافعاً؟

ثُمَّ إِنَّ الإِقدامَ ليسَ بمحمودٍ إِلاَّ حيثُ كانَ نافعاً ، وإِلاَّ كانَ مِن التهوُّرِ المذمومِ ، وقد سبقَ رأْيُ معاويَةَ حينَما سأَلَهُ ٱبنُ العاصِ عَن حالِهِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

شُجَاعٌ إِذَا مَا أَمْكَنَتْنِيَ فُرْصَةٌ ... فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِيْ فُرْصَةٌ فَجَبَانُ

(١) وبيلٌ : ثقيلٌ وَخِمٌ .

وقالَ بعضُهم : جِسمُ الحربِ الشجاعَةُ ، وقلبُها التدْبيرُ ، ولسانُها المكيدَةُ ، وجناحُها الانقيادُ للقائِدِ ، ورائِدُها الرِّفقُ ، وسائِقُها النصرُ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٤-١٧٥ مِنَ الكاملِ] :

ٱلرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ ٱلشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ ٱلْمَحَلُّ ٱلثَّانِي

فَإِذَا هُمَا ٱجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَّةً ... بَلَغَتْ مِنَ ٱلْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

وَلَرُبَّمَا طَعَنَ ٱلْفَتَىٰ أَقْرَانَهُ ... بِٱلرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ ٱلأَقْرَانِ

لَوْلاَ ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَىٰ ضَيْغَمٍ ... أَدْنَىٰ إِلَىٰ شَرَفٍ مِنَ ٱلإِنْسَانِ[1]

وَلَمَا تَفَاضَلَتِ ٱلنُّفُوسُ وَدَبَّرَتْ ... أَيْدِيْ ٱلْكُمَاةِ عَوَالِيَ ٱلْمُرَّانِ[2]

وقد مرَّ في المجلسِ السادسِ بعضُ ما يناسِبُ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، مِمَّا تتمادَحُ بهِ العرَبُ مِن ٱلْمَوتِ تحتَ بارِقَةِ السيوفِ ، وذلِكَ في الكَلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ لاَ تَمُتْ تَحْتَ ٱلسُّيُوْفِ مُكَرَّماً ... تَمُتْ وَتُقَاسِيْ ٱلذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

* * *

---

(١) الضيغمُ : السبعُ .

(٢) المرَّان : القنا اللينة .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٢ مِنَ الخفيفِ] :

فَٱطْلُبِ ٱلْعِزَّ فِي لَظَىٰ وَدَعِ ٱلذُّ ... لَّ وَلَو كَانَ فِي جِنَانِ ٱلْخُلُوْدِ

شرح المطلع

(لَظَىٰ) : مِن أَسماءِ جهنَّمَ ، نسأَلُ اللهَ منها السلامَةَ ، والبيتُ من قولِ عنترَةَ [في « ديوانه » ١٧٨ مِنَ الكاملِ] :

مَـاءُ ٱلْحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ كَجَهَنَّـمٍ ... وَجَهَنَّـمٌ بِـٱلْعِـزِّ أَطْيَـبُ مَنْـزِلِ

لا يجوز تحقير ما عظَّم اللهُ

وفيهِ تَصغيرٌ لِمَا عظَّمَ اللهُ مِن أمرِها ، فقد قالَ جلَّ شأْنُهُ : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان : ٦٥] ، وقالَ : ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف : ٤١] .

ويُعجبُني قولُ ٱبنِ حجرِ الهيتمِيِّ في « زواجرِهِ » : ولمَّا بَعُدَ عَن ٱلْعِلمِ أَقوامٌ.. لاحَظوا أَعمالَهم ، وٱتفقَ لِبعضِهم مِن الأَلطافِ ما يشبهُ الكَراماتِ ، فٱنبَسَطوا في الدعاوَىٰ ، وخالَفوا سيرةَ السلفِ في ٱلابتعاد عَنها ، حَتَّىٰ نُقِلَ عَن بعضِهم أَنَّهُ قالَ : وَدِدْتُ أَنَّ القيامَةَ قَدْ قامَتْ ؛ حَتَّىٰ أَنصِبَ خيمَتِي علَىٰ جهنَّمَ ، فقالَ لَهُ رجلٌ : ولِمَ ذلِكَ ؟ قالَ : إِنِّي أَعلمُ أَنَّ جهنَّمَ إِذا رأَتني تخمُدُ ، فأَكونُ رحمةً للخلقِ ، وهَـٰذَا من أَقبحِ الكلامِ وأَفحشِهِ ؛ لأَنَّهُ يتضمَّنُ تحقيرَ ما عظَّمَ اللهُ شأْنَهُ مِن أَمرِ النَّارِ ، فَإِنَّهُ تعالىٰ بالغَ في وصفِها فقالَ : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة : ٢٤] وقال : ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان : ١٢] .

وفي الحَديثِ الصحيحِ عندَ مُسْلِمٍ [٢٨٤٣] وغيرِهِ [الترمذي (٢٥٨٩)

بلفظ : « جزءٌ واحدٌ »] : « نَارُكُمْ هَـٰذِهِ ٱلَّتِي تُوقِدُونَ ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ جَهَنَّمَ » قَالُوا : وَٱللهِ إِنْ كَانَتْ نَارُنَا لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ ، قالَ : « فإِنَّهَا فَضُلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً ، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا » .

وفي « الصحيح » [عند « مسلم » ٢٨٤٢] أيضاً : « يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَومَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

ثُمَّ إِنَّ ما جاءَ عَنْ ٱلنَّاظِمِ ، وَعَن عنترةَ العبسيِّ في بيْتَيْهِما ـ كَما قد أَشرْنا إِليهِ قُبيلَ الكلامِ ـ عَلَىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٣٤] :

فَثِبْ ـ وَاثِقاً بِاللهِ ـ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِي ٱلْفَمِ

. . كلامُ مَن لَم يعرفْ مِنْ ٱلإِسلام سرَّهُ ، وإِلاَّ . . فإِنَّهُ لا عِزَّ إِلاَّ فيهِ ، ولاَ شرفَ إِلاَّ بِهِ ، فهوَ سنامُ ٱلْمَجْدِ ، ومعراجُ السعْدِ ، وقد قالَ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ لِلْعَرَبِ : أَلم تَكونوا أَذَلَّ الناسِ ، وأَحقرَ الناسِ ، وأَفقرَ الناسِ . . فأَعزَّكُم اللهُ ، ورفعَكُمْ ، وأَغناكُمْ بِٱلإِسلامِ ؟ فإِذا طلَبْتُم ذلِكَ بغيرِهِ . . ذَلَلْتُمْ ، وهُوَ مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] ، ومنهُ تَعرِفُ أَنَّ النَّاظِمَ لا يعشَقُ إِلاَّ مظاهِرَ الزِّينَةِ ٱلكاذِبَةِ ، ولا يرغَبُ إِلاَّ في عزِّ ٱلباطِلِ ٱلمموَّهِ .

المجد المموَّه المزعوم

نظيرَ ذلِكَ ٱلمغرورِ ٱلَّذي سمعَ واعظاً يقولُ : من تركَ الصلاةَ متعمِّداً . . كانَ في النَّارِ مع فِرْعونَ وهامانَ وأُبيِّ بنِ خلَفٍ ، فقالَ : ومَن لَنا بمجالَسَةِ هـٰؤُلاءِ ٱلملوكِ ، ومجاورَتِهِم في دارٍ واحدَةٍ .

ويُحكىٰ [في « الأغاني » ١١/٢٦٧] : أَنَّ بعضَ ٱلمجوسِ أَعانَ ٱلأُقَيْشِرَ ـ

الشاعرَ ـ علىٰ مؤُنَةِ نِكاحِهِ ، فقالَ [في « ديوانه » ١١٦ـ١١٧ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

كَفَانِيَ ٱلْمَجُوسِيُّ مَهرَ ٱلرَّبَابْ ... فِـداً لِلْمَجُـوسِـيِّ خَـالٌ وَعَـمّ

شَهِـدْتُ عَلَيْـكَ بِطِيْـبِ ٱلأُرُوْمْ ... وَأَنَّـكَ بَحْـرٌ جَـوَادٌ خِضَـمّ

وَأَنَّـكَ سَيِّـدُ أَهْـلِ ٱلْجَحِيْـمْ ... إِذَا مَـا تَـرَدَّيْـتَ فِيْمَـنْ ظَلَـمْ

تُجَـاوِرُ هَـامَـانَ فِـيْ قَعْـرِهَـا ... وَفِرْعَـوْنَ وَٱلْمُكْتَنَـىٰ بِـالْحَكَـمْ

فقـالَ لَـهُ : منعَـكَ قـومُـكَ ، وأعطيتُـكَ ، ثُـمَّ تجعلُنـي فـي الجحيمِ ؟! قالَ لَهُ : أَمَا تَرضَىٰ أَنْ جعلتُكَ مِن أَصحابِ ٱلمُلوكِ والرؤَساءِ .

لم ولن ولا يكون العز إلا في الإسلام والشواهد على ذلك

فالعزُّ الذي يتوهَّمُهُ أَبو الطيِّبِ . . لَيسَ إِلاَّ مِن جنسِ ما دعا بهِ الأُقَيْشِرُ للمجوسيِّ ، ورَغِبَ فيهِ المائِقُ قبلَهُ ، وإِلاَّ فالعزُّ كلُّهُ ليسَ إِلاَّ فِي الإِسلامِ ، الذي رفَعَ السُّوقَةَ إِلىٰ المُلوكِ ، وقايَسَ الغنيَّ بالصعْلوكِ ، وأَجرىٰ كلَّ إِنسانٍ في حرِّيَّتِهِ مِلْءَ رسنِهِ ، لا يُشرَطُ عليه إِلاَّ تسمُّتُ الأَنظمَةِ العادلَةِ ، ومراعاةُ القوانينِ الصالحَةِ ، التي تسوِّغُ لأَدنىٰ الناسِ منزلَةً أَنْ يطلُبَ حقَّهُ من أَعظمِهم قدراً ، وإِنَّ في خبرِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ معَ سوادِ بنِ غَزيَّةَ ـ يومَ بدرٍ[1] ـ ومعَ

---

(١) وكانَ مِن خَبرِ سيِّدِنا سَوَادِ بنِ غَزيَّةَ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ كما رواهُ ٱبنُ هشام (٢/ ٦٢٦) : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَدَّلَ صفوفَ أَصحابهِ يومَ بدرٍ ، وفي يدِهِ سهمٌ يُعدِّلُ بهِ القومَ ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزيَّةَ ـ وهوَ متقدِّمٌ مِنَ الصفِّ ـ فطعنَ في بطنهِ بالسهمِ ، وقالَ : « ٱستَوِ يَا سَوَادُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، أَوجعْتَني ، وقد بعثَكَ اللهُ بالحقِّ والعدلِ . . فأَقدني ـ دَعني أَقتصُّ منكَ ـ فكشفَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَن بطنهِ ، وقالَ : « ٱستَقِدْ » ، قالَ : فاعتنقَهُ ، فقبَّلَ بطنَهُ ، فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَا

عُكَّاشَةَ بنِ مِحْصَنٍ قبيلَ موتِهِ . . لَمَا يَمْلأُ الأُنوفَ شَمَماً ، ويأْخُذُ بأَعنَّتِها إِلىٰ عنانِ السماءِ ؛ إِذ يجعلُ كلَّ إِنسانٍ ملكاً في نفسهِ ، لا سلطانَ فوقَهُ إِلاَّ للعدْلِ ـ يحرسُهُ حُماتُهُ من خدَّامِ الأُمَّةِ كما قرَّرْنا ـ وإِلاَّ للهِ الذي لا عزَّ إِلاَّ فِي الذُّلِّ له ، ولا غنىً إِلاَّ في الفقرِ إِليهِ .

وللهِ درُّ القائِلِ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱلرِّجَالُ تَذَلَّلَتْ بِرِقَابِهَا ... طَمَعاً إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ودَرُّ أَبِي عُبادَةَ ـ لو أَرادَ ربَّهُ ـ في قولِهِ [في «ديوانه» ٢/ ٨٤٧ من الطويل] :

وَيُعْجِبُنِي فَقْرِيْ إِلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ ... لِيُعْجِبَنِي لَوْلاَ مَحَبَّتُكَ ٱلْفَقْرُ

وقولُ تقيِّ الدينِ ٱبن تيميَّةَ [من البسيطِ] :

فَٱلْفَقْرُ لِيْ وَصْفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أَبَداً ... كَمَا ٱلْغِنَىٰ لَكَ وَصْفٌ لاَزِمٌ ذَاتِيَ

ويُروىٰ [كما في « نفحِ الطِّيبِ » ١/ ٢٤] : أَنَّ منذرَ بنَ سعيدِ البلوطيَّ ـ واعِظَ (الأَندلُسِ) ـ قامَ خطيباً في الناسِ يومَ الاستسقاءِ ، وقالَ : يا أَيُّها الناسُ ، وأَخذَ يكرِّرُها ، حَتَّىٰ ظَنَّ بعضُهم أَنَّهُ أُرتجَ عليهِ ، وما هِيَ لَهُ بعادَةٍ ؛ إِذْ قلَّمَا قامَ إِلاَّ تفتَّحَ عَنْ ثجٍّ[1] بَحْرٍ زاخرٍ ، وفي الثالثَةِ أَوْ ٱلرَّابعةِ قالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ـ١٧] ، ثُمَّ ٱندفعَ في مضمارِهِ كالماءِ يجري في

= حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذَا يَا سَوَادُ ؟ » قالَ : يا رسولَ اللهِ ، حضرَ ما ترىٰ ، فأَردتُ أَن يكونَ آخرَ العهدِ بكَ . . أَنْ يمسَّ جلدي جلدُكَ ، فدعا رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لهُ بخيرٍ ، وقالَهُ لهُ .

(١) الثَّجُّ : السيلانُ .

ٱنحدارِه ، فلا تسلْ عمَّا سالَ مِنَ ٱلْعَبَراتِ ، وٱرتفعَ مِنَ ٱلزَّفَراتِ ، وحريٌّ بذلِكَ ، والمُلكُ عظيمٌ ، والمالِكُ حكيمٌ ، والرجْعُ إِليهِ لازِمٌ ، وهوَ بالخفيَّاتِ عالِمٌ .

وما أَحسنَ ما كانَ يَدْعو بهِ أَبو ٱلمظفَّرِ ٱلسَّمعانيُّ من قولِهِ : ٱللَّهُمَّ ٱجعل قلوبَنا خزائِنَ توحيدِكَ ، وأَلسنتَنا مفاتيحَ تمجيدِكَ ، وجوارِحَنا خدَمَ طاعتِكَ ، فإِنَّهُ لا عزَّ إِلاَّ في الذُّلِّ لَكَ ، ولا غنىٰ إِلاَّ في الفقرِ إِليكَ ، ولا أَمْنَ إِلاَّ في الخوفِ منكَ ، ولا قرارَ إِلاَّ في القَلَقِ نحوَكَ ، ولا رُوحَ إِلاَّ في النظَرِ إِلىٰ وجهِكَ ، ولا راحَةَ إِلاَّ في الرضا بِقَسْمِكَ ، ولا عيشَ إِلاَّ في جوارِ المقرَّبينَ عندَكَ .

وبمناسبَةِ ما أَشرنا إِليهِ من عزِّ التقوىٰ ، وٱرتفاعِ التمايُزِ بينَ الناسِ إِلاَّ بهِ . . نذكرُ قولَ ٱبنِ الخطَّابِ لعاملِهِ بـ(مصرَ) : متىٰ ٱستعبدتُمُ ٱلنَّاسَ ، وقد ولدتْهُم أُمَّهاتُهم أَحراراً ؟

وحديثَهُ مع جبلَةَ بنِ الأَيهمِ : فقد عزمَ أَنْ يُقِيْدَ ٱلفَزاريَّ منهُ في لطمةٍ لطمهُ إِيَّاها ، فقالَ : أَتُقِيْدُهُ مِنِّي ، وأَنا مَلِكٌ ، وهوَ سوقَةٌ ؟ قالَ : قد جمعَكَ وإِيَّاهُ الإِسلامُ ، فَمَا تفضُلُهُ إِلاَّ بالعافيَةِ[1] .

الرشيد بين يدي الفضيل بن عياض

ويعجبُني ما ذكرَه الطرطوشِيُّ وغيرُهُ ، عن الفضْلِ بنِ الربيعِ ، قالَ [كما في « حلية الأولياء » ٨/١٠٦] : حجَّ الرشيدُ ، فبينا أَنا نائِمٌ ذاتَ لَيلَةٍ . . سمعتُ قرعَ البابِ ، فقلتُ : مَن ؟ فقيلَ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فخرجْتُ مسرعاً ، فوجدْتُ الرشيدَ ، فقلْتُ : لو أَرسلْتَ إِليَّ ، قالَ : ويحَكَ ، قد حاكَ في نفسي ما لا يخرجُهُ إِلاَّ عالِمٌ

---

(١) حديثُ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ معَ جَبَلَةَ تقدَّمَ في غيرِ هذا المجلسِ .

فأنظرْهُ لي ، فقلتُ : ها هُنا سفيانُ بنُ عيينةَ ، قالَ : فأمضِ بنا إليهِ ، فأتيناهُ . . فقرَعْنا عليهِ بابَهُ ، فقالَ : مَن هَـٰذَا ؟ قلتُ : أَجِبْ أميرَ المؤمنينَ ، فخرجَ مسرعاً ، وقالَ : لو أَرسلتَ إليَّ . . أَتيتُكَ ، قالَ : خِذْ لِمَا جئْنا لَهُ ، فحادَثَهُ ساعةً ، ثُمَّ قالَ لَهُ : أَعليكَ دينٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أقضِ دينَهُ يا فضلُ .

ثُمَّ أنصرَفْنا ، فقالَ الرشيدُ : ما أَغنىٰ عنِّي شيئاً صاحبُكَ ، فأنظرْ لي غيرَهُ ، قلتُ : ها هنا عبدُ الرزَّاقِ واعظُ (العِراقِ) ، فقالَ : أمضِ بنا إليهِ ، فجرىٰ لَنا معَهُ مثلُ الأوَّلِ .

فقالَ الرَّشيدُ : أنظُرْ ليْ غيرَهُ ، فقلتُ : ها هُنا فضيلُ بنُ عياضٍ ، قالَ : أمضِ بنا إليهِ ، فأَتيناهُ . . فإذا هُوَ قائِمٌ يصلِّي ، يردِّدُ آيَةً مِن كتابِ اللهِ ، فقرعْتُ البَابَ . . فقالَ : مَنْ هَـٰذَا ؟ فقلتُ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : ما لي ولأَميرِ المؤمنينَ ؟ فقلتُ : سبحانَ اللهِ! أَما تجِبُ عليكَ طاعتُهُ ، فقالَ : أَوَ لَيسَ قد رويَ عَنْ النَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « لَيْسَ لِمؤْمِنٍ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ »(١) .

وفتحَ البابَ ، ثُمَّ أرتقىٰ مسرعاً إلىٰ أعلىٰ الغرفَةِ ، وأَطفأَ السراجَ ، والتجأَ إلىٰ زاويةٍ مِن زوايا الغرفَةِ ، فجعلَنا نجولُ عليهِ بأَيدينا ، حَتَّىٰ سبقَتْ إليهِ كفُّ الرشيدِ ، فقالَ : أَوَّاهُ ما أَليَنَها مِن

(١) أخرجه عن حذيفة رضي الله عنه الترمذي (٢٢٥٥) بلفظ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه ، قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق » وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وابن ماجه (٤٠١٦) في الفتن .

يدِ. . إنْ نَجَتْ مِن عذابِ اللهِ ، فقلْتُ في نَفْسي : ليكلِّمنَّهُ الليلَةَ بكلامٍ نقِيٍّ ، مِن قلبٍ تقيٍّ ، فقالَ : جِدَّ لِمَا جئْنَاكَ لَهُ ، قالَ : وفيمَ جئتَ ؟ حمَلْتَ علىٰ نفسِكَ ، وجميعُ مَن معَكَ حَملوا عليكَ ، حَتَّىٰ لَو سألْتَهم عندَ ٱنكشافِ الغِطاءِ أَنْ يَحمِلوا عَنْكَ شِقْصاً مِن ذَنبٍ. . ما فَعَلوا ، ولَكانَ أَشدُّهم حبّاً لَكَ. . أَشَدَّ هرَباً منكَ .

إنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، لمَّا وَلِيَ الخلافَةَ. . دَعَا سالِمَ بنَ عبدِ اللهِ ، ومحمَّدَ بنَ كعبٍ القرظيَّ ، ورجاءَ بنَ حيوَةَ ، وقالَ لَهم : قد ٱبتليتُ بِهَـٰذَا البلاءِ ، فأَشيروا عليَّ ، فعدَّهُ بلاءً ، وعددْتَهُ أَنتَ وأَصحابُكَ نعمَةً .

فقالَ لَهُ سالمٌ : إنْ أَردْتَ النَّجاةَ مِن عذابِ اللهِ غداً. . فَصُمْ عَنْ ٱلدُّنْيَا ، وليكُنْ إفطارُكَ علىٰ الموتِ .

وقالَ لَهُ محمَّدُ بنُ كعبٍ : إنْ أردْتَ النجاةَ. . فليكُنْ كبيرُ المسلمينَ لَكَ أباً ، وأَوسطُهم لكَ أخاً ، وأَصغرُهم لكَ ٱبناً ، فبرَّ أَباكَ ، وٱرحَمْ أَخاكَ ، وَتَحَنَّنْ علىٰ ولدِكَ .

وقالَ لَهُ رجاءُ بنُ حيوَةَ : إنْ أَرَدْتَ النجاةَ غداً. . فأَحبَّ للمسلمينَ ما تحبُّ لنفسِكَ ، وٱكرَهْ لَهم ما تكرَهُ لنفسِكَ ، ثُمَّ متىٰ شئْتَ فَمُتْ ، وإنِي لأَقولُ لَكَ هَـٰذَا ، وإنِي لأَخافُ عليكَ أَشدَّ الخوفِ ، يومَ تزِلُّ الأَقدامُ ، فهلْ معكَ مَن يأْمرُكَ بمثلِ هَـٰذَا ؟ فبكىٰ الرشيدُ بكاءً شديداً ، فقلْتُ لَهُ : ٱرفُقْ بأَميرِ المؤمنينَ .

فقالَ : يا ٱبنَ الربيعِ ، قتلتَهُ أَنتَ وأَصحابُكَ ، وأَرفُقُ بهِ أَنَا ، ثُمَّ أَفاقَ الرشيدُ ، فقالَ : زِدْني ، قالَ : بلغَني أَنَّ عاملاً لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ. . شكا إليهِ السهَرَ ، فكتَبَ إليهِ عمرُ يقولُ : ٱذكُر يا أَخي سَهَر

أَهلِ النارِ في النارِ ، وخلودَ الآبَادِ فيها ، فإنَّ ذلكَ يطرُدُ بكَ إلىٰ ربِّكَ نائِماً ويقظانَ ، وإيَّاكَ أَنْ تزِلَّ قدمُكَ عَن هَـٰذَا السبيلِ ، فيكونَ آخرَ العهدِ بكَ ، ومنقطعَ الرَّجاءِ منكَ ، والسلامُ ، فلمَّا قرأَ كتابَهُ . . طَوىٰ إليهِ البلادَ ، فقالَ لهُ عمرُ : ما أَقدمَكَ ؟ قالَ : خلعتَ قَلْبي بكتابِكَ ، لاَ وَلِيتُ لَكَ وِلايةً أبداً ، حتَّىٰ أَلقىٰ اللهَ .

فبكىٰ هارونُ ، ثُمَّ قالَ : زِدْني ، فقالَ : إنَّ جدَّكَ العبَّاسَ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقالَ : أَمِّرني علىٰ إمارَةٍ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « يَا عَمُّ ، نَفْسٌ تُنْجِيهَا . . خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا ، إِنَّ ٱلإِمارَةَ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَكُوْنَ أَمِيْرَاً . . فَٱفْعَلْ »[1] .

فبكىٰ هارونُ بكاءً شديداً ، ثُمَّ قالَ : زِدْني يرحَمُكَ اللهُ . فقالَ : يا حسنَ الوجْهِ ، أَنتَ الذي يسأَلُكَ اللهُ عَن هَـٰذَا الخَلْقِ ، فإنْ ٱسْتَطَعتَ أَنْ تقيَ هَـٰذَا الوجْهَ مِنَ ٱلنَّارِ . . فٱفعَلْ . وإيَّاكَ أَن تُصبِحَ أَو تُمسيَ وفي قلبكَ غشٌّ لرعيَّتِكَ ، فقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشَّاً . . لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ ٱلْجَنَّةِ »[2] ، فبكَىٰ هارونُ ،

---

(١) أخرجه عن العباس رضي الله عنه مختصراً البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٩٦) . وقال : هذا هو المحفوظ مرسل . وقيل : إنه عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال العباس : يا رسول الله ، ألا توليني؟ فذكره ، ثم ذكره موصولاً ، والأول أصح ، تفرد به هذا السلمي البصري . وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/ ٣٤٤) : رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد .

(٢) أخرج نحوه عن معقل بن يسارٍ أحمدُ (٥/ ٢٧) ، والبخاري (٧١٥٠) في الأحكام ، ومسلم (١٤٢) (٢٢٩) في الإمارة (٥) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر بلفظ : « ما من أمير يلي أمور المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح لهم . . إلا لم يدخل معهم الجنة » .

ثُمَّ قالَ : أَعليكَ دَينٌ ؟ قالَ : نعم ، لِرَبي يحاسبُني عليهِ فالويلُ لي إِن سأَلَني ، والويلُ لي إِنْ لَم يُلْهِمْني حُجَّتي ، فقالَ هارونُ : إِنَّما أَعْني دينَ العبادِ ، فقالَ : إِنَّ رَبِّي لم يأْمُرْني بهَـٰذَا ، وإِنَّما أَمَرَني أَنْ أُصَدِّقَ وعدَهُ ، وأُطيعَ أَمرَهُ ، فقالَ جلَّ ٱسمُهُ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] ، فقالَ لهُ الرشيدُ : هَـٰذِهِ أَلفُ دينارٍ . . أَنفقْها علىٰ عيالِكَ ، وتقوَّ بها علىٰ عبادَةِ ربِّكَ ، فقالَ فضيلٌ : أَنا أَدلُّكَ علىٰ النجاةِ وتكافِئُني بِمِثْلِ هَـٰذَا ، ثُمَّ صمَتَ ، فلم يكلِّمْنا ، فخرجْنا من عندِهِ ، فقالَ الرشيدُ : إِنْ دَلَلْتَني علىٰ رجُلٍ . . فدُلَّني علىٰ مثلِ هَـٰذَا ؛ فإِنَّ هَـٰذَا سيِّدُ المؤمنينَ اليومَ .

ويرویٰ [في « الحلية » ٨/١٠٧] : أَنَّ ٱمرأَةً مِن نسائِهِ دخلَتْ عليهِ بعدَ خروجِهِم ، وقالَتْ لهُ : يا هَـٰذَا ، أَلا ترىٰ ما نحنُ فيهِ ، ثُمَّ تردُّ المالَ ، فقالَ لَها : إِنَّ مَثَلي ومَثَلَكم . . كمثَلِ قومٍ كانَ لهم بعيرٌ ، يأْكُلونَ مِن كسبِهِ ، فلمَّا كبرَ . . نحروهُ ، مُوتوا جوعاً ولا تنحَرُوا فُضَيْلاً ، فلَمَّا سمعَ الرشيدُ مراجَعَتَها لَهُ . . طمعَ في قَبُولِهِ ، فجاءَ فجلسَ إِلىٰ جنبِهِ ، فلم يكلِّمهُ ، فبينَما نحنُ كذلِكَ . . إِذ جاءَتْ جاريَةٌ سوداءُ فقالَتْ : يا هَـٰذَا ، لقد آذيتَ الشيخَ منذُ أَتيتَهُ ، فٱنصرِفْ يرحمُكَ اللهُ ، فانصرَفْنا ، هَـٰذَا آخرُ القصَّةِ .

وكَمْ مِن شاهدٍ فيها لِمَا تقرَّرَ مِن عزِّ الإِسلامِ ، ومساواتِهِ ، معَ السلامَةِ مِن غِشِّ الأَحبارِ والرُّهْبانِ ، الذي ٱجتثَّهُ ٱللهُ مِن أَصلِهِ ، بمثلِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٣١] .

ومعلومٌ أَنَّهم لمْ يعبدوهُم ، ولَـٰكِنَّهُ يحذِّرُ مِن تقليدِهِم في كلِّ ما يَقولونَ ، ومِنَ ٱلْمُغالاةِ في ٱلاعتقادِ بِهِم ، ومِن تصديقِهِم فيما يدَّعونَ مِن غُفْرانِ الذنوبِ ، وتكفيرِ الخَطايا ، وما أَشبهَ ذٰلِكَ ، مِن ٱلضَّلالاَتِ التي لا يزالُ يترسَّمُها مَن ٱتبعَ هَواهُ مِن أَهلِ ملَّتِنا ، تصديقاً لقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ ، وذِراعاً بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوْهُ » ، فَقَالُوا : ٱلْيَهُودَ وٱلنَّصارىٰ ؟! قالَ : « فَمَنْ إِذَنْ »[1] .

الإمام زين العابدين في الطواف

ولا يتجافىٰ عن الموضوعِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، ما ذكرَهُ صاحِبُ « المستطرَفِ » [١/١٤٩] عن الأَصمعيِّ ، قالَ : بَينا أَنا أَطُوفُ لَيْلَةً بٱلبيتِ . . إِذ رأَيتُ شابّاً متعلِّقاً بأَستارِهِ ، يقولُ [مِنَ البسيطِ] :

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا ٱلْمُضْطَرِّ فِيْ ٱلظُّلَمِ	يَا كَاشِفَ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَلْوىٰ مَعَ ٱلسَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ وَٱنْتَبَهُوا	وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَمْ تَنَمِ
أَدْعُوْكَ رَبِّيْ حَزِيْناً خَائِفاً قَلِقَا	فَٱرْحَمْ بُكَائِيْ بِحَقِّ ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَرَمِ
إِنْ كَانَ جُوْدُكَ لاَ يَرْجُوهُ ذُوْ سَفَهٍ	فَمَنْ يَجُوْدُ عَلَىٰ ٱلْعَاصِيْنَ بِٱلنِّعَمِ

ثُمَّ ٱرتفعَ نحيبُهُ ، وطافَ أُسبوعاً آخرَ ، ثُمَّ أَمسكَ بوصائِلِ البيتِ ، وتضرَّعَ بأَبياتٍ أُخرىٰ ـ لا أَذكرُها الآنَ[2] ـ ثُمَّ سقطَ مغشيّاً

---

(١) أخرجه عن أبي سعيد رضي الله عنه البخاريُّ (٣٤٥٦) في الأنبياء ، وفيه : « سَلَكُوا ، سَلَكْتموهُ » ، وفي مسلمٍ (٢٦٦٩) في العلم بلفظ : « في جحرِ ضبٍّ لاتَّبعتمُوهُم » .

(٢) والأَبياتُ هيَ :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلمَقْصُودُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ شَكَوْتُ إِلَيْكَ الضُّرَّ . . فَارْحَمْ شِكَايَتِيْ=

عليهِ إِلىٰ الأَرضِ ، فدنوتُ منهُ ، فإِذا هُوَ زينُ العابِدِينَ : عليُّ بنُ الحسينِ ، فوضعتُ رأْسَهُ علىٰ حِجْري ، وبكيْتُ ، فقطَرَتْ مِنِّي دمعَةٌ علىٰ خدِّهِ ، ففتحَ عينيَهِ وقالَ : مَن هَـٰذَا الذي يتهجَّمُ عَلَينا ؟ قلتُ : عبيدُكَ الأَصمعيُّ ، يا سيِّدي ما هذا البكاءُ والجزَعُ ، وأَنتَ من أَهلِ بيتِ النبوَّةِ ؟ أَليسَ اللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ؟ فقالَ لي : هَيْهَاتَ هَيْهات ، إِنَّ اللهَ خلَقَ الجنَّةَ لِمَنْ أَطاعَهُ ، ولَو كانَ عبداً حبشيّاً ، وخلَقَ النارَ لِمَنْ عصاهُ ، ولَو كانَ حرّاً قرشياً ، أَليسَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ؟

كَذا فِي حِفْظي عَن « ٱلمستطرف » ، ولا يصِحُّ أَن يكونَ صاحِبَ القصَّةِ الأَصمعيُّ ؛ لتأَخُّرِ زمانِهِ ، فلعلَّهُ الفرزدقُ ، أَو غيرُهُ ، ثُمَّ إِنَّ في الشعرِ الذي روَاهُ ـ وبالأَخصِّ ما نسيتُهُ منهُ ـ ٱنحلالاً قَد يُشْتَمُّ مِنهُ الافتعالُ ، أَمَّا موضِعُ الشاهِدِ منهُ . . فشدَّةُ تواضُعِ زَينِ العابدينَ ، وخوفِهِ مِنْ اللهِ تعالىٰ ـ كما هو المَعروفُ من حالِهِ ـ معَ أَنَّهُ أَعَزُّ الناسِ نفساً ، وأَشمخُهُم أَنفاً ، وأَبعدُهُم همَّةً ، حَتَّىٰ لقد كانَ يخرُج أَيَّامَ الموسِمِ ، في جَمالِ شارَتِهِ ، وحسنِ هيأَتِهِ ، وفاخِرِ لباسِهِ . . فلا يزيدُ جموعَ الأَعيانِ علىٰ السلامِ ، ولقد قالَ لَهُ قائِلٌ : ما هَـٰذَا التيهُ

= أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ تَكْشِفُ كُرْبَتِيْ ... فَهَبْ لِي ذُنُوبِيْ كُلَّهَا وَاقْضِ حَاجَتِيْ
أَتَيْــتُ بِــأَعْمَــالٍ قِبَــاحٍ رَدِيئَــةٍ ... وَمَا فِيْ الْوَرَى عَبْدٌ جَنَى كَجِنَايَتِيْ
أَتُحْـرِقُنِـيْ بِـالنَّـارِ يَـا غَـايَـةَ الْمُنَـىٰ ... فَأَيْنَ رَجَائِي ؟ ثُمَّ أَيْنَ مَخَافَتِيْ ؟

يا ٱبن بنتِ رَسولِ اللهِ ؟ قالَ : ليسَ بتيهٍ ترىٰ ، وَلَـٰكِنَّها العزَّةُ التي يقولُ اللهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

ويروىٰ مثلُ هَـٰذَا عَن ٱلحسنِ ، كما سيأتي في ٱلمجلسِ ٱلسّادسَ عشرَ .

تواضع السلطان سليم العثماني

وبلغَني عَنِ ٱلسُّلطانِ سليمٍ ٱلعثمانيِّ ، ما ذكَّرَني بقولِ ٱلنّاظمِ [في «العُكبَريّ» ٤/١٧٩ مِنَ الكاملِ] :

مُتَصَعْلِكِيْنَ عَلَىٰ ضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ   مُتَـوَاضِعِيْـنَ عَلَـىٰ عُلُـوِّ ٱلشَّـانِ

إذ كتبَ ـ في محلِّهِ ٱلخاصِّ علىٰ قطعَةٍ مِنَ ٱلرُّخَامِ ـ هَـٰذَينِ ٱلبيتينِ [في «شذرات الذهب» ٤/١٤٤ مِنَ البسيطِ] :

ٱلْمُلْكُ للهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنىً   يَرْدُدْهُ قَهراً وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ ٱلدَّرَكَا

لَوْ كَانَ لِيْ أَوْ لِغَيْرِيْ قِيْدُ أُنْمُلَةٍ   فَوْقَ ٱلتُّرَابِ لَكَانَ ٱلأَمْرُ مُشْتَرَكَا

تواضع السلطان عبد الحميد

وأَخبرني ٱلسَّيِّدُ ٱلثِّقَةُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ ٱلرَّحمٰنِ بنِ طاهرٍ ، عَنْ ٱلسُّلطانِ عبدِ ٱلحميدِ ، أَنَّهُ قلَّما خرجَ في مواكبِهِ ٱلرَّسميَّةِ ٱلضَّخمَةِ ، ٱلَّتي يتنافَسُ ٱلنَّاسُ فيها علىٰ ٱستطلاعِ غرَّتِهِ ، ويسافرونَ لذلِكَ مِنْ ٱلْجِهاتِ ٱلبعيدَةِ ـ علىٰ حدِّ قولِ ٱلموميِّ ـ [مِنَ الوافرِ] :

وَكَـمْ عَيْـنٍ تُـؤَمِّـلُ أَنْ تَـرَانِـيْ   وَتَفْقِـدُ بَعْـدَ رُؤْيَتِـيَ ٱلسَّـوَادَا

. . إلاَّ وقامَ في صدرِ عربتِهِ أَحدُ العلماءِ ، يُنادي بأَعلىٰ صوتِهِ ، مِن حينِ يركَبُ إلىٰ حينِ ينزِلُ : الملكُ للهِ الواحدِ القهَّارِ ، لاَ تتكَبَّرْ ، ومَن فوقَكَ أَكبَرُ . وهَـٰذَا ـ واللهِ في ذلِكَ الموقفِ الذي يملأُ العيونَ بجمَالِهِ ، ويملِكُ الأَفئدَةَ بجلالِهِ ـ لَمِمَّا تَتَنَدَّىٰ لَهُ الخدودُ ، وتتفطَّرُ منهُ القلوبُ .

ويعجبُني فيما يشبهُ بيتَ الناظمِ الذي نتكلَّمُ عليهِ ، قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضَ ٱلْحَيَاةِ مَذَلَّةً ... عَلَيْهِمْ وَعِزَّ ٱلْمَوْتِ غَيْرَ مُحَرَّمِ

أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا ٱلْعَيْشَ وَٱلذَّمُّ وَاقِعٌ ... عَلَيْـهِ وَمَـاتُـوا مِيْتَـةً لَـمْ تُـذَمَّـمِ

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشهاب بن جمرة!!

ولا بأْسَ علىٰ ذكرِ (لَظَىٰ) في البيتِ . . أَنْ نذكُرَ حديثَ ٱبنِ الخطَّابِ معَ الجهنيِّ ، وذلِكَ أَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [في « الإصابة » ٣/ ٣٨٨ بنحوها] : خرجَ إِلىٰ (حرَّةِ وَاقِمٍ) ، فلقيَ رجلاً من جهينةَ ، فقالَ لهُ : ما ٱسمكَ ؟ قالَ : شهابٌ ، قالَ : ٱبنُ مَن ؟ قالَ : جمرَةَ ، قالَ : ومِمَّن أنتَ ؟ قالَ : مِن الحَرقَةِ ، قالَ : ثم مِمَّن ؟ قالَ : مِن بَني ضِرام ، قالَ وأَينَ منزلُكَ ؟ قالَ : بـ(حرَّةِ لَيلىٰ) ، قالَ : وأَينَ تريدُ ؟ قالَ : (ذَاتِ لَظَىٰ) ، فقالَ عمرُ : أَدرِكْ أَهلَكَ ، فما أَراكَ تدرِكُهم إِلاَّ وقَد ٱحترَقوا ، قالَ الراوي : فأَدْرَكَهم وقد أَحاطَتْ بِهِم النارُ .

التشاؤم بالاسم القبيح

ونظيرُها : أَنَّهُ لمَّا وقعَ الطاعونُ بـ(مصْرَ) في ولايةِ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ . . هرَب مِنها ، فنزلَ قريةً من الصعيدِ ، فقدمَ عليهِ رَسولٌ مِن أَخيهِ حينَ نزلَها ، فقالَ لهُ : ما ٱسمُكَ ؟ قالَ : طالِبُ بنُ مدرِكٍ ، فقالَ : أَوَّهْ ، ما أَراني راجعاً إِلىٰ (الفُسطَاطِ) ، وماتَ في تِلكَ القريَةِ .

ولمَّا خرَجَ صلاحُ الدينِ بنُ أَيُّوبَ مِن (مصْرَ) . . سمعَ قوَّالاً ينشِدُ [في « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » ٣/ ١٠٤ مِنَ الوافرِ] :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ   فَمَا بَعْدَ ٱلْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ[1]

فتطيَّرَ مِن ذلِكَ ، وكانَ كَما تطيَّرَ ، فإِنَّهُ ٱشتغلَ بـ(الشام) ، وقتالِ الإفرنْجِ ، ولمْ يعدْ إِلىٰ (مصرَ) حَتَّىٰ ماتَ بعدَ طولِ المدَّةِ .
والحكاياتُ في مثلِهِ كثيرَةٌ .

التفاؤل بالاسم الحسن

وعكسُهُ : أَنَّ سعدَ ٱبنَ أَبي وقَّاصٍ وجَّهَ إِلىٰ ٱبنِ الخطَّابِ برَسُولٍ ، فقالَ لَهُ [كما في « المنتظم حتى سنة (٢٥٧ هـ) » ٤/ ٢٧٠] : ما ٱسمكَ ؟ قالَ : ظَفَرٌ ، قالَ : ٱبنُ مَن ؟ قالَ : ٱبنُ قَرِيبٍ ، فقالَ عُمرُ : ظَفَرٌ قريبٌ إِن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولمَّا هاجرَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقارَبَ (المدينةَ) . . سمعَ منادياً يُنادي أَخاهُ ويقولُ : يا سالِمُ ، يا سالِمُ ، فقالَ لأَصحابِهِ : « سَلِمْنَا » ، فلمَّا دخلَها . . سمِعَ آخرَ يُنادي : يا غانِمُ ، قالَ : « غَنِمْنَا » ، فلمَّا نزلَ . . أُتيَ برُطَبٍ ، قالَ : « حَلاَ لَنَا ٱلْبَلَدُ »[2] .

وفي يومِ الحديبيَّةِ لمَّا أَقبلَ سهيلٌ . . قالَ : « سَهُلَ لَنا الأَمرُ »[3] .

---

(١) الشَّميم : مصدرُ (شمَّ) . والمعنى : تمتَّعْ مِن طيبِ رائِحةِ عرارِ (نجدٍ) ؛ فهذا أَوانُهُ ، وهوَ لا يوجدُ بعدَ العشيَّةِ .

(٢) لم نجده .

(٣) أخرجه عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) في الشروط بلفظ : « سهل لكم من أمركم » ، وعند أحمد في « المسند » (٤/ ٣٣٠) بلفظ : « سهل من أمركم » .

وربَّما يَأْتي موضعٌ آخرُ يقتضي ٱستيفاءَ ما يُقالُ في الطِّيرَةِ والفألِ[1] ، أمَّا هـٰذا . . فلا أكثرَ لَهُ مِمَّا ذُكرَ .

والله أعلمُ

* * *

(١) لِمَا أخرج عن أنس رضي الله عنه أحمد (٣/ ١٥٤) ، والبخاري (٥٧٥٦) في الطب ، ومسلم (٢٢٢٤) (١١٢) في السلام ، وأبو داوود (٣٩١٦) في الطب ، والترمذي (١٦١٥) في السِّيَر ، وابن ماجه (٣٥٣٧) في الطب أنه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ قال : « لا عدوىٰ ولا طيرة وأحب الفأل » قيل : يا رسول الله ، وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الطيبة » . وفي الباب : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند أبي داوود (٣٩١٠) في الطب ، والترمذي (١٦١٤) في السير وقال : حسن صحيح ، وغيره : « الطيرة شرك ـ وما منا ـ ولكن الله يذهبه بالتوكل » وهو معدود من الكبائر .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٢ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ بِقَوْمِيْ شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوْا بِيْ	وَبِنَفْسِـيْ فَخَـرْتُ لاَ بِجُـدُوْدِيْ

فخر الإنسان بقومه، ولن يكون غير ذلك وإن أبى

لو اقتصرَ الناظِمُ علىٰ هَـٰذَا البيتِ . . لكانَ ألأمَ الناسِ نسباً ، غيرَ أنَّهُ شفعَهُ بقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٣] :

وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا ... دَ وَعَوْذُ الْجَانِيْ وَغَوْثُ الطَّرِيْدِ

إلا أنَّ هَـٰذَا كانَ بارِداً ، فانحطَّ وخمَلَ ، حَتَّىٰ كأَنْ لم يكُنْ بخلافِ الأَوَّلِ ، فقد كانَ حُلْوَ اللفظِ ، مليحَ المعنىٰ في بابِهِ ، فسارَ وانتشرَ ، وهُوَ من قولِ الفرزدَقِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ تَمِيْماً كُلَّهَا غَيْرَ سَعْدِهَا ... زَعَانِفُ لَوْلاَ عِزُّ سَعْدٍ لَذَلَّتِ

ومثلُهُ قولُ عليِّ بنِ جبلَةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلاً مَآثِرُ غَيْرِهِمْ ... وَلَـٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ عِجْلُ

وكثيراً ما يشفُّ كلامُ الناظِمِ عَنْ انحطاطِ نَسَبِهِ وزَمانَةِ حسَبِهِ ، كما في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ أُبَالِيْ بَعْدَ إِدْرَاكِيَ الْعُلاَ ... أَكَانَ تُرَاثاً مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسْبَا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٦٧ مِنَ المنسرحِ] :

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُوْدَ لَهُمْ ... مَنْ نَفَرُوْهُ وَأَنْفَدُوْا حِيَلَهْ(١)

---

(١) نافرني فنفرتُهُ : أَصلُ المنافرةِ أَنَّ الرجلينِ منَ العربِ كانا يحتكمانِ في الجاهليَّةِ =

تفضيل الفرع على الأصل عند المتنبي

وتراهُ مِن أَجْلِ ما يَجِدُ مِن ذلِكَ في نفسِهِ . . يفضِّلُ الفرعَ دائِماً علىٰ الأَصلِ ، لا في نفسِهِ فقط ، بلْ حَتَّىٰ في مَمْدوحيهِ ، أَلا تَراهُ يقولُ لسيفِ الدولَةِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٢٠ مِنَ الوافرِ] :

وَإِنْ تَفُـقِ ٱلأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِنهُـمْ فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

ويقولُ لهُ ـ أَيضاً ـ [في « العُكبريّ » ٣/ ١١١ مِنَ الرَّجَزِ] :

[وَٱلْعَاذِلِيْنَ فِيْ ٱلنَّدَىٰ ٱلْعَوَاذِلاَ] قَـدْ فَضَلُـوْا بِفَضْلِـكَ ٱلْقَبَـائِـلاَ

ومن ذلِكَ قولُهُ [في « العُكبري » ٢/ ١٧٩ مِنَ الخفيف] :

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيْفٍ وَلَوَ ٱنِّيْ لَهُ إِلَىٰ ٱلشَّمْسِ عَازِيْ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٧٨ مِنَ الخفيفِ] :

كُـلُّ آبَـائِـهِ كِـرَامُ بَنِـي ٱلـدُّنْـ ـيَـا وَلَـٰكِنَّـهُ كَـرِيْـمُ ٱلْكِـرَامِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ يَكُ سَيَّارُ بْنُ مُكْرَمٍ ٱنْقَضَىٰ فَإِنَّكَ مَاءُ ٱلْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ ٱلْوَرْدُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٩١ مِنَ البسيطِ] :

وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ ٱلْغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا فَإِنَّ فِي ٱلْخَمْرِ مَعْنىً لَيْسَ فِي ٱلْعِنَبِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ١٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتِيْهاً وَفَخْراً تَغْلِبَ ٱبْنَةَ وَائِلٍ فَـأَنْـتِ لِخَيْـرِ ٱلْفَـاخِـرِيْـنَ قَبِيْـلُ

= إلىٰ من عرفَ بالرِّياسةِ والفضلِ والصدقِ ، فيقولانِ لهُ : أيُّ نفرينا أَفضلُ ؟ فإذا فضَّلَ أَحدهما على الآخرِ ، فالمغلوبُ منفورٌ ، والغالبُ نافرٌ . أنفدوا : أفنَوا .

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٧٠ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَو لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ ... لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِيْ أُمَّا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣١ مِنَ البسيطِ] :

تَمْشِي الْكِرَامُ عَلَى آثَارِ غَيْرِهِمِ ... وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِي وَتَبْتَدِعُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ ... إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

تَشَرَّفَ عَدْنَانٌ بِهِ لاَ رَبِيعَةٌ ... وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لاَ الْعَوَاصِمُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٨٥ مِنَ الكاملِ] :

أَنْسَابُ فَخْرِهِمُ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا ... أَنْسَابُ أَصْلِهِمُ إِلَى عَدْنَانِ

وكذبَ واللهِ وافترى ، إنَّما ذلِكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ولَكِنْ مَا أَحسنَ قولَ ابنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٤٢٥ مِنَ البسيطِ] :

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ: ... كَلاَّ لَعَمْرِي وَلَكِنْ مِنْهُ شَيْبَانُ

كَمْ مِنْ أَبٍ قَدْ عَلاَ بِابْنٍ ذُرَى شَرَفٍ ... كَمَا عَلا بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

---

(١) الرَّغامُ : الترابُ .

لم تذق حلاوة الآباء

ويُذكَرُ : أَنَّ هاشمياً دخلَ علىٰ المنصورِ ، فسأَلَهُ عن أَبيهِ ، فقالَ : ماتَ رحمهُ اللهُ ، وتركَ كذا رحمَهُ اللهُ ، وفعلَ كذا رحمَهُ اللهُ ، وأَوصىٰ بِكذا رحمَهُ اللهُ ، فقالَ لَهُ الربيعُ ـ وكانَ قائماً علىٰ رأسِ المنصورِ ـ : أَخِّرْ عَن أَميرِ المؤمنينَ ، فقد أَضجرْتَهُ بأَبيكَ ، قالَ لَهُ : لا لَومَ عَليكَ ، فإِنَّكَ لَم تَذُقْ حلاوَةَ الآباءِ ، وكانَ الربيعُ دَعِيّاً ، فاستلقىٰ المنصورُ من كثرَةِ الضحِكِ .

مَن بيتُهُ من زجاجٍ . . لا يرمي الناس بالحجار

ويروىٰ [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٦/ ٨٣٠] : أَنَّ قتيبةَ بنَ مسلمٍ الباهليَّ ، لمَّا فتحَ (سمرقنْدَ) . . أَفضىٰ إِلىٰ أَثاثٍ لم يعرفْ مثلُهُ ، فأَمرَ بدارٍ ففرشَتْ ، وفي صحنِها قدورٌ لا يرتقىٰ إِلَيها إِلاَّ بالسلالِمِ ، فأَقبلَ الحصينُ[1] بنُ المنذِرِ بنِ الحارثِ بنِ وَعْلَةَ الرقاشيُّ ـ والناسُ علىٰ مراتِبِهم ـ وهو شيخٌ كبيرٌ ، فلمَّا رآهُ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ـ أَخو قتيبَةَ ـ قالَ لقتيبَةَ : أَتأْذَنُ لي في معاتبَتِهِ ؟

قالَ : إِنَّهُ خبيثٌ لا يُطاقُ ، فَأَبىٰ عبدُ اللهِ إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ ، وكانَ عبدُ اللهِ قد تسوَّرَ حائِطاً إِلىٰ امرأَةٍ ، فقالَ للحُصَينِ : أَمِنَ البَابِ دَخلْتَ يا أَبَا سَاسانَ ؟

قالَ : نعم ، أَسَنَّ عمُّكَ[2] عَن تسُّورِ الحيطَانِ .

قالَ : أَرأَيْتَ هَـٰذِهِ القدورَ ؟

قالَ : هيَ أَعظمُ من أَنْ لا تُرىٰ .

---

(١) في « بغيةِ الطلبِ » : (الحُضَينُ) بدل (الحُصَينِ) .
(٢) أَسَنَّ : كَبِرَ وصَارَ مُسِناً .

قـالَ : مـا أَحسـبُ بكـرَ بـنَ وائِـلٍ رأَىٰ مثلَهـا ، قـالَ : لاَ ولا عيلانُ ، ولَو رَآها . . لسمِّيَ شبعانَ ، فقالَ لَهُ : يا أَبا ساسانَ ، أَتعرِفُ الذي يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَزَلْنَا وَأَمَّرْنَا وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ تَجُرُّ خُصَاهَا تَبْتَغِي مَنْ تُحَالِفُ

قالَ : نعم ، أَعرِفُهُ ، وأَعرِفُ الذي يقولُ [مِنَ الوافرِ] :

وَخَيْبَـةُ مَـنْ يَخِيْـبُ عَلَـىٰ غَنِيٍّ وَبَـاهِلَـةَ بْـنِ يَعْصُـرَ وَالـرِّبَـابِ

قالَ : أَفتعرِفُ الذي يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ فِقَاحَ ٱلأَزْدِ حَوْلَ ٱبْنِ مِسْمَعٍ وَقَدْ عَرِقَتْ أَفْوَاهُ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ[1]

قالَ : أَعرِفُهُ ، وأَعرِفُ الذي يقولُ [مِنَ الكاملِ] :

قَـوْمٌ قُتَيْبَـةُ أُمُّهُـمْ ، وَأَبُـوهُـمُ لَوْلاَ قُتَيْبَةُ أَصْبَحُوا فِي مَجْهَلِ

قالَ أَمَّا الشِّعْرُ فأَراكَ ترويهِ ، ولَـٰكِنْ هَلْ تقرأُ شيئاً مِنَ ٱلْقُرآنِ ؟ قالَ : الكثيرَ الطيِّبَ : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان : ١] ، فغضِبَ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ، وقالَ : لقد بلغني أَنَّ ٱمرأَةَ الحصينِ تزوَّجَت بهِ وهِيَ حبلَىٰ من غيرِهِ ، فلم يتحرَّكِ الشيخُ عَن هيئَتِهِ ، وقالَ ـ علىٰ رسلِهِ ـ : وما يكونُ تلِدُ غلاماً علىٰ فِراشي ؟! فيقالُ : ٱبنُ الحصينِ ، كَما يقالُ : عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ؟!! فأَقبَلَ قتيبةُ علىٰ أَخيهِ وقالَ : لا يبعدُ اللهُ غيرَكَ ، ليتَكَ سكَتَّ ؛ إِذ لَمْ تقدِرْ .

أتكون باهلياً خليفة؟!

ويُذكرُ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : أَنَّ قتيبةَ هَـٰذا مازحَ أَعرابيّاً فقالَ : أَيسرُّكَ أَنْ تكونَ باهليّاً خليفةً ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولو أَنَّ لي

---

(١) الفِقاحُ ـ جمعُ فَقْحَةَ ـ : وهيَ حَلَقةُ الدُّبرِ .

ما طلعَتْ عليهِ الشَّمْسُ ، قالَ : أَفَيَسُرُّكَ أَنْ تكونَ باهليّاً في الجنَّةِ ؟ فأَطْرَقَ ثُمَّ قالَ : نعم ، علىٰ شرْطِ أَنْ لا يعلَمَ أَهلُ الجنَّةِ أَنِّي باهليٌّ .

لا يعبأ الله بالباهلي أبداً!!!

ولمَّا حجَّ أَبو جَزْءٍ ـ وكانَ قومُهُ يعظِّمونَهُ ـ سأَلَهُ عن نسبِهِ بعضُ بني سعدٍ ؟ فذكَرَ أَنَّهُ باهليٌّ ، فاَقتحمَتْهُ عينُهُ[1] ، فقالَ لَهُ قائِلٌ : إِنَّهُ أَميرٌ ابنُ أَميرِ ابنُ أميرٍ . . حَتَّىٰ عدَّ خمسةً بأَسمائِهِم ، فقالَ السعديُّ : واللهِ لَو عددْتَ لَهُ مِن بيتِ النبوَّةِ أَضعافَ ما عددْتَ لَهُ في الإِمارَةِ ، ثمَّ كانَ باهليّاً . . ما كانَ الله ليعبأَ بِهِ .

ما كانت إهانة الله لك بجعلك باهلياً في الدنيا . . إلا ليعوضك يوم القيامة

ويُحكىٰ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : أَنَّ أَعرابيّاً لَقِيَ شخصاً فسأَلَهُ مَنْ أَنتْ ؟ فقالَ : من باهلَةَ ، فرقَّ لَهُ ، فقالَ ذلِكَ الشخصُ : وأَزيدُكَ أَنِّي لَستُ من صميمِهِم ، ولٰكِنْ مِن مَواليهِم ، فأَقبلَ الأعرابيُّ يقبِّلُ يدَيهِ ورجليهِ ، فقالَ لَهُ : ولِمَ هٰذَا ؟ فقالَ : لأَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ ما اَبتلاكَ بهٰذِهِ المهانَةِ في الدنيا . . إِلاَّ ليعوِّضَكَ في الآخرَةِ .

السبب في اتضاع باهلة

وما كانَ السبَبُ في اَتضاعِ غَنِيٍّ وباهلَةَ ـ علىٰ ما لَهما مِن الغنَاءِ والشرَفِ ـ إِلاَّ شفوفَ أَخوَيهِما فزارةَ وذُبيانَ ، وتقدُّمُهُما عليهِما بالمآثِرِ ، فاَنحطَّا بالنسبَةِ لذلِكَ ، كَما ذكرهُ اَبنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/٩١] وغيرُهُ .

وفي المَثَلِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] : كُن عِصاميّاً ، ولا تَكُنْ عِظاميّاً .

---

(١) اَقتحمتهُ عينُهُ : اَزدرتْهُ .

اعصامي أم عظامي؟!

ويحكىٰ [كما في «مجمع ٱلأَمثالِ» ٢/ ٣٣١] : أَنَّ ٱلحجَّاجَ أَرادَ أَن يختبرَ رَجلاً . . فقالَ لَهُ : أَعصاميٌّ أَنتَ أَمْ عِظاميٌّ ؟ فقالَ : أَنا عصاميٌّ وعظاميٌّ ، فقضىٰ حوائِجَهُ ، ثمَّ ٱستنطقَهُ ، فوجدَهُ مِنْ أَجهلِ النَّاسِ ، فقالَ : لتَصْدُقَنِّي ، أَو لأَقتلنَّكَ ، كيفَ أَجبتَني بِما قلتَ لَمَّا سَأَلْتُكَ ؟ فإِنِّي لَم أَجِدْكَ حيثُ زعمْتَ ، قالَ : إِنِّي وٱللهِ لا أَعرفُ ٱلعصاميَّ ولا ٱلعظاميَّ ما هوَ ، فخشيتُ أَن أَقولَ أَحدَهُما فيضُرَّني . . فقلْتُ : كِلَيهما ، وتوكَّلتُ علىٰ ٱللهِ ، فقالَ ٱلحجَّاجُ : أَلا إِنَّ ٱلمقاديرَ تجعَلُ ٱلعِيَّ خَطيباً .

وكانَتِ ٱلْعَربُ تُسمِّي مَن كَرُمَ أَبواهُ : طَرفاً ، ومَنْ شَرُفَ أَبوهُ ولَم تكُنْ أُمُّهُ هُناكَ هَجيناً ، ومَنْ شَرُفَتْ أُمُّهُ ولَمْ يشرُفْ أَبوهُ مُذَرَّعاً ، وهُوَ والمقرِفُ شيءٌ واحدٌ .

وأَنشدَ ٱلأَزهريُّ في «التهذيبِ» [مِنَ الطَّويل] :

إِذَا بَـاهِلِـيٌّ عِنْـدَهُ حَنْظَلِيَّـةٌ   لَهَـا وَلَـدٌ مِنْـهُ فَـذَاكَ ٱلْمُـذَرَّعُ

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ١/ ٢٩ مِنَ البسيطِ] :

تُـرِيـكَ سُنَّـةَ وَجْـهٍ غَيْـرَ مُقْـرِفَـةٍ   مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلاَ نُدَبُ

من هو العصامي؟ ومن هو العظامي؟

وحيثُما قالوا عصاميٌّ . . فإِنَّما يريدونَ قولَ النابغَةِ [الذُّبيانيِّ] يمدحُ عصاماً حاجبَ النعمانِ [كما في «مجمع الأمثال» ٢/ ٣٣١ مِنَ الرَّجَزِ] :

نَفْسُ عِصَـامٍ سَـوَّدَتْ عِصَـامَـا   وَعَلَّمَتْـهُ ٱلْكَـرَّ وَٱلإِقْـدَامَـا

وحيثُما قالوا عظاميٌّ . . فقد أَرادوا قولَ الآخرِ [كما في «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» ١/ ١٣٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا ٱلْحَيُّ عَاشَ بِعَظْمِ مَيْتٍ   فَـذَاكَ ٱلْعَظْـمُ حَـيٌّ وَهْـوَ مَيْـتُ

الفخر بالنفس

وقالَ بعضُهم [كما في «المثل السائر» ١/ ١٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلإنسَانُ إلاَّ ٱبْنُ يَوْمِهِ ... عَلَىٰ مَا تَجلَّىٰ يَوْمُهُ لاَ ٱبْنُ أَمْسِهِ

وَمَا ٱلْفَخْرُ بِٱلْعَظْمِ ٱلرَّمِيْمِ وَإِنَّمَا ... فَخَارُ ٱلَّذِي يَبْغِيْ ٱلْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

وقالَ أبو نعمانَ [كما في «المستطرف» ١/ ٨٠ منَ الكاملِ] :

لاَ تَنْظُرَنَّ إِلىٰ ٱمْرِىءٍ مَا أَصْلُهُ ... وَٱنظُرْ إِلىٰ أَفْعَالِهِ ثُمَّ ٱحْكُمِ

ويحسُنُ أن يستأنِسَ بقولِ الناظِمِ [كما في «العُكبَرِيِّ» ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

الفخر بالنفس والآباء

وممَّا ٱجتمَعَ فيهِ الطريفُ والتالِدُ ، وٱلتقىٰ عليهِ الولَدُ والوالِدُ . .

قولُ أُميَّةَ [في «ديوانهِ» ٥٠٥ مِنَ الوافرِ] :

وَرِثْنَا ٱلْمَجْدَ عَنْ كُبْرَىٰ نِزَارٍ ... وَأَوْرَثْنَـا مَـآثِـرَهُ بَنِيْنَـا

وقولُ عامرِ بنِ الطُّفَيلِ [في «ديوانهِ» ١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفَارِسَهَا ٱلْمَشْهُوْرَ فِيْ كُلِّ مَرْكَبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِيْ عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَىٰ ٱللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلاَ أَبِ

وَلَـٰكِنَّنِيْ أَحْمِيْ حِمَاهَا وَأَتَّقِيْ ... أَذَاهَا وَأَرْمِيْ مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكَبِ

وقولُهُ ـ أَو هِيَ للمتوكِّلِ الليثيِّ ـ [في «ديوان الحماسة» ٢/ ٢٦٥ مِنَ الكاملِ] :

لَسْنَـا وَإِنْ أَحْسَابُنَـا كَـرُمَـتْ ... يَـوْمـاً عَلَـىٰ ٱلأَحْسَـابِ نَتَّكِـلُ

نَبْنِـيْ كَمَـا كَـانَـتْ أَوَائِلُنَـا ... تَبْنِـيْ وَنَفْعَـلُ مِثْـلَ مَـا فَعَلُـوْا

ويقربُ منهُ قولُ زهيرٍ ـ وهُوَ ممَّا أَجمعَ أَهلُ العلمِ على تقديمِهِ ـ [في « ديوانهِ » ٤٢ـ٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
إِذَا جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَىٰ بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَىٰ مُكْثِرِيْهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيْهِمُ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّيْنَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلاَّ وَشِيْجُهُ ؟ وَتُغْرَسُ إِلاَّ فِيْ مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ ؟(١)

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوْا
قَوْمٌ سِنَانٌ أَبُوْهُمْ حِيْنَ تَنْسُبُهُمْ طَابُوْا وَطَابَ مِنَ ٱلأَوْلَادِ مَا وَلَدُوْا
إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوْا جِنٌّ إِذَا فَزِعُوْا مُرَزَّؤُوْنَ بَهَالِيْلٌ إِذَا جُهِدُوْا(٢)

الإعطاء عند القلة.. أمدح ما يكون بالجود

وبعدُ : فقولُهُ في القطعةِ الأُولىٰ : (وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّيْنَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ) وقولُهُ في الثانيةِ : (بَهَالِيْلٌ إِذا جُهِدُوا).. أَمدحُ ما يكونُ بالجودِ ، وأَبلغُ ما يمكِنُ من الثناءِ بالسخاءِ ؛ لأَنَّ معناهُ : أَنَّهم يبذلونَ ويجودونَ علىٰ الفاقَةِ والجهْدِ .

ومنهُ قولُ عقيلِ بنِ ٱلعَرَنْدَسِ يمدَحُ بني عمروٍ الغنويِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/٢٦٩ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) الخطيُّ : الرمحُ . الوشيجُ : القنا الملتفُّ في منبتهِ . يقولُ : لا تنبتُ القناةَ إلا القناةُ ، ولا تُغرسُ النخلُ إلا بحيثُ تنبتُ وتصلحُ ، وكذلكَ لا يولدُ الكرامُ إلا في موضعٍ كريمٍ .
(٢) البُهلولُ : العزيزُ الجامعُ لكلِّ خيرٍ .

إِنْ يُسْأَلُوا ٱلْخَيْرَ أَعْطَوْهُ وَإِنْ جُهِدُوا　　فَٱلْجَهْدُ يُخْرِجُ مِنْهُمْ طِيبَ أَخْبَارِ

وقولُ المقنَّعِ الكنديِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٤٣ مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْفُضُولِ سَمَاحَةً　　حَتَّىٰ تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيْلُ

وقالَ عمرُو بنُ الأهتمِ[١] [كما في « لسان العرب » ٩/ ٢٥٣ مِنَ البسيطِ] :

إِنَّا بَنُوْ مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذَوُوْ حَسَبٍ　　فِيْنَا سَرَاةُ بَنِيْ سَعْدٍ وَنَادِيْهَا[٢]

جُرْثُوْمَةٌ أُنُفٌ يَعْتَفُّ مُقْتِرُهَا　　عَنِ ٱلْخَبِيْثِ وَيُعْطِيْ ٱلْخَيْرَ مُثْرِيْهَا[٣]

وَٱلْبَذْلُ مِنْ مُعْدِمِيْهَا إِنْ أَلَمَّ بِهَا　　حَقٌّ وَلاَ يَشْتَكِيْهَا مَنْ يُنَادِيْهَا

وهُوَ دونَ الأَوَّلَينِ ؛ إِذْ تَجودُ فقراؤُهم بِلا شرطٍ ولا قيدٍ ، وهٰؤلاءِ إِنَّما يبذُلُ مُقْتِروهُم إِذَا وجبَتِ الحقوقُ ، فَهم أَقربُ إِلىٰ قولِ أَبي الجويريَةِ العنزيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ مُوْسِرِيْهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيْهِمُ　　وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّيْنَ ٱتِّسَاعُ ٱلْخَلاَئِقِ

فهُوَ داخِلٌ تَحتَ السَّعَةِ التي أَشارَ إِليها الناصِحُ الحكيمُ [صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ] في قولِهِ : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوْا ٱلنَّاسَ بِأَرْزَاقِكُمْ ، ولَـٰكِنْ تَسَعُوْنَهُم بِأَخلاقِكُم »[٤] . وخيرُ ما في الأَوَّلِ . . قولُهُ تقدَّسَتْ

---

(١) واسمه عمرو بن سنان ، توفي سنة : (٥٧ هـ) .

(٢) السَّراةُ : وسطُ الشيءِ وأَعلاهُ .

(٣) الجرثومةُ : الأصلُ . أُنُفٌ : أَبِيُّونَ ، مِنَ الأَنَفَةِ .

(٤) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (١/ ١٢٤) وصححه بلفظ : « وَلْيَسَعْهُم مِنكُمْ بَسْطُ ٱلوَجْهِ ، وَحُسْنُ ٱلخُلُقِ » ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٥٠) بلفظ : « وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنكُمْ بَسْطُ ٱلْوَجْهِ » . وزاد في عزوه العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/ ١٧٨) و(٣/ ٤٩) إلى البزار =

أسماؤهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

الفخر بالآباء

ولنعُدْ إلىٰ حيثُ ٱنحرَفَ بنا الاستطرادُ ، فنقولُ : ذكرَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٩١] عن شراحيلَ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، أنَّهُ قالَ : إنِّي لأَسيرُ تحتَ قبَّةِ يحيىٰ بنِ خالدِ البرمكيِّ ، وعديلُهُ فيها القاضي أبو يوسُفَ . . إذْ عرضَ لهُ رَجُلٌ مِن بني أَسَدٍ في شارَةٍ حسنَةٍ ، وأنشدَهُ شعراً لم يرضَهُ ، ثُمَّ قالَ لهُ : يا أَخا بني أَسدٍ ، إذا قلتَ الشعرَ . . فقُل مِثلَ هَـٰذَا ، وأنشدَ قولَ مروانَ بنِ أَبي حفصةَ [في « ديوانه » ٨٨ـ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهُمْ فِيْ بَطْنِ خُفَّانَ أَشْبُلُ

بَهَالِيْلُ فِيْ ٱلإِسلاَمِ سَادُوْا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ

هُمُ ٱلْقَوْمُ، إِنْ قَالُوْا أَصَابُوْا وَإِنْ دُعُوْا ... أَجَابُوْا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوْا وَأَجْزَلُوْا

وَمَا يَسْتَطِيْعُ ٱلْفَاعِلُوْنَ فِعَالَهُمْ ... وَإِنْ أَحْسَنُوْا فِيْ ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوْا

فٱهتزَّ القاضي ، وأَعجبتْهُ الأَبياتُ كثيراً ، وقالَ : مَن قائلُها يا أَبا الفضلِ ؟ قالَ : مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ في والدِ هَـٰذَا الفتىٰ . قالَ شراحيلُ : فرمقَني أَبو يوسفَ بعينَيهِ ـ وأَنا علىٰ فرسٍ لي عتيقٍ ـ وقالَ لي : مَن أَنْتَ يا فتىٰ ـ حيَّاكَ اللهُ تعالىٰ وقرَّبَكَ ؟ ـ قلتُ : أَنا

= (١٩٧٧) و(١٩٧٨) ، وإلى الطبراني في « مكارم الأخلاق » ، وابن عدي في « الكامل » وضعفه ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٥٤) ، وعن أبي نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥) ، وفي الباب : عن عائشة عند البيهقي في « الشعب » (٨٠٥٤) أيضاً .

شراحيلُ بنُ معنِ بنِ زائدَةَ الشيبانيُّ ، ثُمَّ قالَ شراحيلُ : وَاللهِ ما أَتَتْ عليَّ ساعةٌ قطُّ . . كانَتْ أَقَرَّ لِعَيني مِن تلْكَ الساعَةِ ٱرتياحاً وسُروراً .

وقالَ ٱبنُ ميَّادَةَ [في « ديوانهِ » ٢٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنُوْ ٱلصَّالِحِيْنَ ٱلصَّالِحُونَ وَمَنْ يَكُنْ ۝ لآبَـاءِ سُـوْءٍ يَلْقَهُـمْ حَيْـثُ سَيَّـرَا
فَمَا ٱلْعُوْدُ إِلاَّ نَابِتٌ فِيْ أَرُوْمَةٍ ۝ أَبَىٰ شَجَرُ ٱلْعِيْدَانِ أَنْ يَتَغَيَّرَا[1]

وقالَ الكُميتُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٤٧ مِنَ البسيطِ] :

تَجْرِيْ أَصَاغِرُهُمْ مَجْرَىٰ أَكَابِرِهِمْ ۝ وَفِيْ أَرُوْمَتِهِ مَا يَنْبُتُ ٱلشَّجَرُ

وقالَ أَبو تمَّام [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٣ مِنَ الوافرِ] :

فُـرُوْعٌ لاَ تَـرِفُّ عَلَيْـكَ إِلاَّ ۝ شَهِدْتَ بِهَا عَلَىٰ طِيْبِ ٱلأُرُوْمِ
وَفِيْ ٱلشَّرَفِ ٱلْحَدِيْثِ دَلِيْلُ صِدْقٍ ۝ لِمُخْتَبِـرٍ عَلَـىٰ ٱلشَّـرَفِ ٱلْقَـدِيْـمِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا بِيَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَإِنَّهَا ۝ سَجِيَّةُ آبَـائِـيْ وَفِعْـلُ جُـدُوْدِيْ
هُمُ ٱلْقَوْمُ فَرْعِيْ مِنْهُمْ مُتَفَرِّعٌ ۝ وَعُوْدُهُمُ عِنْدَ ٱلْحَوَادِثِ عُوْدِيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٨٣٦ مِنَ الكاملِ] :

نَسَبٌ كَمَا ٱطَّرَدَتْ كُعُوْبُ مُثَقَّفٍ ۝ لَدْنٍ يَزِيدُكَ بَسْطَةً فِيْ ٱلطُّوْلِ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٧ـ٢٤٨ مِنَ الكاملِ] :

شَرَفٌ تَتَابَعَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ۝ كَـٱلـرُّمْـحِ أُنْبُـوْبـاً عَلَـىٰ أُنْبُـوْبِ

---

(١) العَيدانُ ـ جمع عيدانةٍ ـ : وهي أطولُ ما يكونُ من النخلِ ، ولا تكونُ عيدانةً حتى يسقطَ كَرَبُها كلُّهُ ويصيرُ جذعها أجردَ من أعلاهُ إلى أسفلهِ .

(٢) اللدْنُ : الليِّنُ .

وَأَرَىٰ ٱلنَّجَابَةَ لاَ يَكُوْنُ تَمامُهَا لِنَجِيْبِ قَوْمٍ لَيْسَ بِٱبْنِ نَجِيْبِ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ٥١٠ مِنَ الخفيفِ] :

وَهُوَ ٱلْمَجْدُ لَيْسَ يَحْوِيْهِ مَنْ لَمْ يَتَقَـدَّمْ فِيْـهِ أَبُـوْهُ وَجَـدُّهْ

وقالَ [في « ديوانه » ٤/ ٢٤٠٥ مِنَ الكاملِ] :

لاَ عُذْرَ لِلشَّجَرِ ٱلَّذِيْ طَابَتْ لَهُ أَعْـرَاقُـهُ أَنْ لاَ يَطِيْـبَ جَنَـاهُ

وفي أَصدقِ الكلام : ﴿ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٧-٢٨] .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتَـىً عَلَّمَتْـهُ نَفْسُـهُ وَجُـدُوْدُهُ قِرَاعَ ٱلأَعَادِيْ وَٱبْتِذَالَ ٱلرَّغَائِبِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ قَطَعَ ٱلرَّحْمَـٰنُ أَصْلاً أَتَىٰ بِهِ فَإِنِّيْ رَأَيْتُ ٱلطَّيِّبَ ٱلطَّيِّبَ ٱلأَصْلِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٣٢ مِنَ الكاملِ] :

أَفْعَـالُ مَـنْ تَلِـدُ ٱلْكِـرَامُ كَـرِيْمَـةٌ وَفِعَالُ مَنْ تَلِدُ ٱلأَعَاجِمُ أَعْجَمُ[1]

صلاح الآباء يسري إلى الأبناء

ولاَ شَكَّ أَنَّ لأَحوالِ الآباءِ علاقَةً قويَّةً بأَحوالِ الأَبناءِ ـ صلاحاً وفساداً ـ مِنْ ٱلأَبِ السابعِ فمنْ دونَهُ ، كما فصَّلْتُ ذلِكَ ودلَّلْتُ عليهِ بالشَّرْعِ وأَقوالِ أَهلِ الأَدبِ في رسالَةٍ لي في علْمِ الأَخلاقِ ، غيرَ أَنَّ ذلِكَ كثيراً ما يتخلَّفُ لأَسبابٍ عاديَّةٍ ، وأُمورٍ خارجيَّةٍ ، فكَمْ مِن جليلٍ ذهبَ أَبناؤُهُ في غيرِ طريقِهِ ، كما يحكىٰ عن بعضِ أَولادِ سيِّدي عبدِ القادرِ الجيلانيِّ .

---

(١) الأَعجمُ عندَ العربِ : هوَ اللئيمُ .

وخرجَ أَحدُ أَبناءِ إِمامِ دارِ الهجرَةِ ومعهُ الحَمامُ يلعبُ بِهِ ـ وقد طرَّ عِذارُهُ ـ فتغَامَزَ أَصحابُ الإِمامِ . . ففطنَ لذلكَ وقالَ [في « الديباجِ المذَهَّبِ » ١٨] : الأَدبُ أَدبُ اللهِ لا آدابُ الآباءِ والأُمَّهاتِ .

ويحكىٰ : أَنَّ ٱبنَ عرفَةَ حضَرَ عقدَ نكاحِ شيخِهِ ٱبنِ عبدِ السلامِ لولدِهِ ، وكُتِبَ خطُّ الصَّدَاقِ ، ووضَعَ أَهلُ المجلِسِ شهادَتَهُم فيهِ ، فلمَّا وصلَ إِلىٰ ٱبنِ عرفَةَ ليكتُبَ شهادَتَهُ . . وجَدَ فيهِ : تزوَّجَ العالِمُ الفاضِلُ ، فٱمتنعَ من كتابَةِ شهادَتِهِ ، وقالَ : لَم أَعرفْ لَهُ علماً حَتَّىٰ أَشهدَ بِهِ ، فقالَ لَهُ شيخُهُ : إِنَّكَ جاهِلٌ ، إِنَّما أَنتَ تشهدُ علىٰ النكاحِ لا العلمِ .

ويستنتَجُ منهُ : أَنَّ ٱبنَ الشيخِ لَم يكنْ عالِماً ، وهو موضعُ الشاهِدِ ، وأَنَّهم تسامَحوا بذكرِ العلْمِ في الوثيقَةِ معَ عدمِ وجودِهِ ، وأَنَّ الشيخَ أَغضبَهُ ٱنتزاعُ صفةِ العلمِ عَن ولدِهِ ، وإِلاَّ . . فما كانَ لَهُ أَنْ يخاطِبَ الإِمامَ ٱبنَ عرفَةَ بقولِهِ : يا جاهِلُ ، وإِنْ كانَ تلميذاً لَهُ .

أَمَّا حكمُ المسأَلَةِ : فقدْ قرَّرْناهُ في المسأَلَةِ (٩٤٠) من كتابِنَا « صَوب الركام » .

وعبارَةُ « الجَمْعِ » لابنِ السبكيِّ : وموردُ الصدْقِ والكذِبِ النسبةُ التي تضمَّنَها ؛ أَي : الخبرُ لَيسَ غيرُ ، كقائِمٍ في (زيدُ بنُ عمروٍ قائمٌ) لا بنوَّةُ زيدٍ ، ومِن ثَمَّ قالَ مالِكٌ وبعضُ أَصحابِنا : الشهادَةُ بتوكيلِ فلانِ بنِ فلانٍ فلاناً ، شهادةٌ بالوكالَةِ فقط ، والمذهَبِ بالنَّسَبِ ضِمناً ، والوكالَةِ أَصلاً . ٱنتَهت . وما ذكرهُ آخِراً هُو الذي لاحظَهُ ٱبنُ عرفَةَ ، وٱعتمدَهُ ٱبنُ حجرٍ في « تحفَتِهِ » .

وقبل كل شيء السعادة الأزلية

وفي « تفسيرِ البَغَويِّ » [٣/٢٢٩] : أَنَّ السامريَّ ـ الذي عبدَ العجلَ ـ كانَ ٱسمُهُ موسىٰ ، وأَنَّهُ لمَّا ولدتْهُ أُمُّهُ في السنَةِ التي يقتَلُ فيها الأَبْناءُ . . وضعَتْهُ في كَهْفٍ مِن خَوفِها عليهِ ، فأَمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ جِبْرائِيلَ بتَربيَتِهِ ؛ لما سبقَ في الأَزَلِ لَهُ وبِهِ مِنَ ٱلْفِتْنَةِ ، ٱنتهىٰ بمعناهُ .

قد تخلف الوردة شوكاً

وفي ذٰلِكَ يقولُ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلطِّفْلُ لَمْ يُكْتَبْ سَعِيْداً تَخَلَّفَتْ ... ظُنُـوْنُ مُـرَبِّيْـهِ وَخَـابَ ٱلْمُـؤَمِّـلُ

فَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ جِبْرِيْلُ كَافِرٌ ... وَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

وقالَ حسَّانُ بنُ ثابِتٍ ـ في هِجاءِ أَبي سفيانَ بنِ الحارثِ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبُـوْكَ أَبٌ حُـرٌّ وَأُمُّـكَ حُـرَّةٌ ... وَقَـدْ يَلِـدُ ٱلْحُـرَّانِ غَيْـرَ نَجِيْـبِ

وقالَ بعضُهُم يهجو شَقيقَهُ [كما في « الأغاني » ١٣/١١١ مِنَ الوافرِ] :

أَبُوْكَ أَبِيْ وَأَنْتَ أَخِيْ وَلَـٰكِنْ ... تَفَـاضَلَـتِ ٱلطَّبَـائِعُ وَٱلظُّـرُوْفُ

وَأُمُّـكَ حِيْـنَ تُنْسَـبُ أُمُّ صِـدْقٍ ... وَلَـٰكِـنَّ ٱبْنَهَـا طَبِـعٌ سَخِيْـفُ[1]

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

لَئِنْ فَخَـرْتَ بِـآبَـاءٍ لَهُـمْ نَسَـبٌ ... لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَـٰكِنْ بِئْسَمَا وَلَدُوْا

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا ٱنْتَسَبُـوْا فَفَـرْعٌ مِـنْ قُـرَيْـشٍ ... وَلَـٰكِـنَّ ٱلْفِعَـالَ فِعَـالُ عُكْـلِ

---

(١) الطَّبِعُ : الكَسِلُ .

وقالَ الحارثيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

شَرِيْفٌ بِجَدَّيْهِ وَضِيْعٌ بِنَفْسِهِ   لَئِيْمٌ مُحَيَّاهُ كَرِيْمُ ٱلْمُرَكَّبِ[1]

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٢٢٩ مِنَ البسيطِ] :

يَا أَكْرَمَ ٱلنَّاسِ آبَاءً وَمُفْتَخراً   وَأَلأَمَ ٱلنَّاسِ مَبْلُوّاً وَمُخْتَبَرا

ونظرَ خالدُ بنُ صفوانَ إِلىٰ لئيمِ نفسٍ كريمِ ٱلأبوينِ . . فقالَ : سبحانَ مَن قالَ : يُخرِجُ ٱلخبيثَ من ٱلطَّيِّبِ ، ثُمَّ أَنشدَ لِحسَّانَ في أَبي سفيانَ ـ أيضاً ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ يَعْجَبَنَّ ٱلنَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا   فَمَا خَبَثٌ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيْبِ

وقالَ ٱلنَّاظِمُ [في « العكبَريِّ » ٤/ ١٤٤ مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ ٱلأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيْراً   عَلَىٰ ٱلأَوْلاَدِ أَخْلاَقُ ٱللِّئَامِ

ويقالُ فيمنْ لَؤُمَ أَبواهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبٌ غَيْرُ مَحْمُودِ ٱلسَّجِيَّاتِ سَفْلَةٌ   وَوَالِدَةٌ فِيْهَا ٱلْحَدِيْثُ يَطُوْلُ

وسمعَ بعضُ ٱلصَّالحينَ ولدَهُ يفتخرُ ، فقالَ لَهُ : أَمَّا أُمُّكَ : فقد ٱشتريتُها بثلاثينَ درهماً ، وأَمَّا أَبوكَ : فلا أَكثرَ ٱللهُ مثلَهُ في ٱلمسلمينَ .

أبو دلامة وبنته

وقالَ أَبو دُلامَةَ ـ في بنتٍ لَهُ بالَتْ عليهِ ـ [في « ديوانهِ » ٩٥ مِنَ الوافرِ] :

بَلَلْتِ عَلَيَّ ـ لاَ حُيِّيْتِ ـ ثَوْبِيْ   فَبَالَ عَلَيْكِ شَيْطَانٌ رَجِيْمُ

---

(١) المُحيَّا : الوجهُ . المُرَكَّبُ : الأصلُ ، تقولُ : فلانٌ كريم المُرَكَّبِ ؛ أي : كريمُ أَصلِ مَنصِبهِ في قومِهِ .

ثُمَّ قالَ للسَّيِّدِ ٱلحميريِّ : أَجزْ ، فقالَ من غيرِ تلبُّثٍ [كما في « ديوانِ أَبي دُلامةَ » ٩٥ مِنَ الوافرِ] :

صَدَقْتَ أَبَا دُلاَمَةَ لَمْ تَلِدْهَا مُطَهَّـرَةٌ وَلاَ فَحْـلٌ كَـرِيـمُ
وَلَكِـنْ قَـدْ حَـوَتْهَـا أُمُّ سُـوْءٍ إِلَـىٰ لَبَّـاتِهَـا وَأَبٌ لَئِيْـمُ

فقالَ أَبو دُلامَةَ : لَعنَةُ ٱللهِ عليكَ ، ما دعاكَ إِلىٰ هَـٰذَا كلِّهِ .

خسة الأم تودي بالأبناء إلى الحضيض

أَمَّا خِسَّةُ الأُمِّ . . فكثيراً ما تأْخذُ بأَبنائِها إِلىٰ الحضيضِ ، وإِنْ كرمَتِ ٱلآبَاءُ ، قالَ بعضُ العربِ [وهو رافعُ بنُ هُرَيمٍ في « لسان العرب » ٦/ ٢٠١ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـوْ كُنْتُـمْ لِمُكْيِسَـةٍ لَكِسْتُـمْ وَكَيْسُ ٱلأُمِّ يَظْهَرُ فِيْ ٱلْبَنِيْنَا[١]

وقالَ آخرُ [وهو أَوسُ بن حجرٍ في « ديوانهِ » ٥٦ مِنَ الوافرِ] :

وَرِثْنَا ٱلْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ أَسَـأْنَـا فِـيْ دِيَـارِهِـمُ ٱلصَّنِيْعَـا
إِذَا ٱلْحَسَبُ ٱلصَّمِيْمُ تَـدَاوَلَتْـهُ بَنَاتُ ٱلسُّوْءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيْعَا

وقالَ خفافُ بنُ ندبةَ [في « ديوانه » ١٠٨ مِنَ المتقاربِ] :

كِـلاَنَـا يُسَـوِّدُهُ قَـوْمُـهُ عَلَـىٰ ذَلِـكَ ٱلنَّسَـبِ ٱلْمُظْلِـمِ

يَعني : أَنَّهُ هُوَ والعبَّاسُ بنُ مرداسٍ يسوِّدُهما قومهُما ، مع أَنَّهما مِن جاريتَينِ .

وقالَ الأَعورُ الشنيُّ [كما في « لسان العرب » ١٠/ ٤٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا يَسْتَوِيْ ٱلْمَرْآنِ هَـٰذَا ٱبْنُ حُرَّةٍ وَهَـٰذَا هَجِيْـنٌ بَضْعَـةٌ مُتَشَـرَّكُ[٢]

---

(١) مُكْيِسَةٌ : تلدُ الأكياسَ ، والأَكياسُ : همُ الأَذكياءُ المتوقِّدونَ .

(٢) البَضعَةُ : القطعةُ والجزءُ . مُتَشَرَّكٌ : ٱشتركَ فيهِ كثيرونَ .

قَعَـدْنَ بِـهِ خَـالاَتُـهُ فَخَـذَلْنَـهُ ... أَلاَ إِنَّ عِرْقَ ٱلسُّوءِ لاَ بُدَّ يُدْرِكُ

وقالَ ٱلحصينُ بنُ ٱلحُمامِ [بل يزيد بن الحكم كما في «ديوان الحماسة» ١/ ٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

دَفَعْنَـاكُـمُ بِـالْحِلْـمِ حَتَّـىٰ بَطِـرْتُـمُ ... وَبِالْكَفِّ حَتَّىٰ كَانَ دَفْعُ الأَصَابِعِ[1]

فَلَمَّـا رَأَيْنَـا جَهْلَكُـمْ غَيْـرَ مُنْتَـهٍ ... وَمَا قَدْ مَضَىٰ مِنْ حِلْمِكُمْ غَيْرَ رَاجِعِ

. . مَسَسْنَا مِنَ ٱلآبَاءِ شَيْئاً وَكُلُّنَا ... إِلَىٰ حَسَبٍ فِيْ قَوْمِهِ غَيْرُ وَاضِعِ

فَلَمَّـا بَلَغْنَـا الأُمَّهَـاتِ وَجَـدْتُـمُ ... بَنِيْ عَمِّكُمْ كَانُوا كِرَامَ ٱلْمَضَاجِعِ[2]

اختيار الأم من الدين

فتَخَيُّرُ الأُمَّهاتِ مِن وَاجباتِ الشرْعِ ، وقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ ؛ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ** »[3] .

وقالَ الشاعرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَوَّلُ إِحْسَـانِـيْ إِلَيْكُـمْ تَخَيُّـرِيْ ... لِمَاجِدَةِ ٱلأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا

وقالَ أبو عبيدَةَ العنبريُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَوَّلُ خُبْثِ ٱلْمَرْءِ خُبْثُ تُرَابِهِ ... وَأَوَّلُ لُؤْمِ ٱلْقَوْمِ لُؤْمُ ٱلْحَلاَئِلِ

---

(١) البَطَرُ : قلَّةُ احتمالِ النعمة .

(٢) المضاجع : كناية عن الأزواج ، أي : نظرنا فإذا نحن وأنتم سواء في شرف الآباء ، ولكننا أكرم أمهات منكم .

(٣) هذا طرفٌ من حديثينِ : عن عائشة رضي الله عنها أَخرجَ الشطرَ الأَوَّل منه ابنُ ماجه (١٩٦٨) والحاكمُ في « المستدرك » (٢٦٨٧) ، بلفظِ : « تَخَيَّرُوْا لِنُطَفِكُمْ ، وَأَنْكِحُوْا الأَكْفَاءَ . . » .

وأَخرجَ الشطرَ الثاني منه أبو عبد الله القُضاعي في « مسندِ الشهاب » (٦٣٨) بلفظ : « . . . وَٱنْظُرْ فِيْ أَيِّ نِصَابٍ تَضَعُ وَلَدَكَ ، فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » .

وقالَ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ [متمثلاً بكلام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كما في «المنتظم حتى سنة : (٢٥٧ هـ)» ٣٤٥/٤] : مَن أرادَ أنْ يتزوَّجَ ٱمرأةً . . فلينظُرْ إلىٰ أبيها وأخيها ، فإنَّها تجيءُ لهُ بمثْلِ أحدِهما .

ويروىٰ [كما في «لسان العرب» ٩١/١] : أنَّ قيسَ بنَ عاصمٍ المنقريَّ ـ سيِّدَ أهلِ الوبَرِ ـ : قامَ يُرقِّصُ ولداً لهُ مِن نفُوسَةَ ٱبنةِ زيدِ الفوارسِ . . فقالَ لهُ [مِنَ الرجزِ] :

أَشْبِهْ أَبَا أُمِّكَ أَوْ أَشْبِهْ حَمَلْ ... وَٱرْقَأْ إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ زَنْأً فِي ٱلْجَبَلْ[1]

فأخذتْهُ نفُوسَةُ ، وقالَتْ [مِنَ الرجزِ] :

أَشْبِهْ أَخِي أَوْ أَشْبِهَنْ أَبَاكَا ... أَمَّا أَبِي فَلَنْ تَنَالَ ذَاكَا

تَقْصُرُ أَنْ تَنَالَهُ يَدَاكَا

ومِن أمدَحِ ما يكونُ بالخؤُولَةِ . . قولُ أبي عُبادَةَ [في «ديوانِه» ٢١/١ مِنَ الكاملِ] :

وَخُؤُولَةٍ فِي هَاشِمٍ وَدَّ ٱلْعِدَا ... أَنْ لَمْ تَكُنْ وَلَهُمْ بِهَا مَا شَاؤُوْا

بَيْنَ ٱلْعَوَاتِكِ وَٱلْفَوَاطِمِ مُنْتَمَىً ... تَزْكُوْا بِهِ ٱلأَخْوَالُ وَٱلآبَاءُ[2]

ويُذْكَرُ [كما في «البيان والتبيين» ١٠٨/١] : أنَّ أُختَ لقمانَ كانَتْ تحتَ رجُلٍ لا يُنجِبُ ، فٱلتمَسَتْ مِن زَوجِهِ أنْ تدَعَ لَها فراشَ أخيها ليلَةً ـ مِن حيثُ لاَ يشعُرُ ـ فٱشتملَتْ منهُ علىٰ ولدٍ باسقَةٍ ، يقولُ فيهِ

أخت لقمان تأتي بولد منه

---

(١) الزنأُ : الصعودُ . ولكن هذا البيت متداخل من بيتين وهما :

أَشْبِهْ أَبَا أُمِّكَ أَوْ أَشْبِهْ حَمَلْ ... وَلاَ تَكُونَنَّ كَهِلَّوْفٍ وَكَلْ

يُصْبِحُ فِي مَضْجَعِهِ قَدِ ٱنْجَدَلْ ... وَٱرْقَأْ إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ زَنْأً فِي ٱلْجَبَلْ

(٢) العواتكُ والفواطمُ : جدَّات النبي صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

النمِرُ بنُ تولَبَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ [في « ديوانه » ١٠٦ـ١٠٧ مِنَ المتقارب] :

لُقَيْمُ بْـنُ لُقْمَـانَ مِـنْ أُخْتِـهِ   وَكَـانَ ٱبْـنَ أُخْـتٍ لَـهُ وَٱبْنَمَـا
لَيَـالِـيَ حُمِّـقَ فَـٱسْتَحْصَنَـتْ   إِلَيْـهِ فَجَـامَعَهَـا مُظْلِمَـا
فَـأَحْبَلَهَـا رَجُـلٌ نَـابِـهٌ   فَجَـاءَتْ بِـهِ رَجُـلاً مُحْكَمَـا

و(حُمِّقَ) : مَبْنِيٌّ لِلْمفعولِ مشدَّدٌ ، والمرادُ : لَيالي شَرِبَ الخمرَ ، وليسَ هَـٰذَا بلقمانَ الحكيمِ ، وإِنَّما هُوَ غيرُهُ علىٰ الأَشْهرِ .

حاتم الطائي يخطب امرأة فترده

ويروىٰ : أَنَّ حاتِماً الطائِيَّ خطَبَ هِندَ ٱبنَةَ عتبَةَ . . فرغبتْ عَنْهُ ، ولَمَّا عَذَلَها أَهلُها . . قالَتْ : إِنَّهُ لا ينجِبُ ، فتزوَّجَ أُخرىٰ وولدَتْ لَهُ غُلاماً ، حَتَّىٰ إِذا بلَغَ سِنَّ التمييزِ . . خرجَ بِهِ أَبوهُ يستعرِضُ ٱلنَّعَمَ ، فرأَىٰ عِجْلَةً صغيرةً أَعجبَتْهُ ، فقالَ : يا أَبتِ مِن أَيِّ الخَيلِ هَـٰذِهِ ؟ قالَ : صدقَتْ هِندٌ إِذْ زَعمَتْ أَنِّي لا أُنجبُ .

وقد أَنكرَ بعضُ المتحذلِقينَ هَـٰذَا مرَّة عَلَيَّ ، وقالَ : فيهِ حطٌّ مِن مقامِ عديِّ بنِ حاتِمٍ رِضْوانُ اللهِ عليهِ ، فقلْتُ لَهُ :

أَوَّلاً : إِنَّهُ لَم يتعيَّن في الروايَةِ ، وَإِنْ كانَ أَكثرَ الظنِّ أَنَّهُ المرادُ .

وأَمَّا ثانياً : فَإِنَّهُ غيرُ مدافِعٍ في شَرَفِ صحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وحسنِ وفائِهِ لعليٍّ رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجمعينَ ، ومعَ ذلِكَ . . فقدْ دفعَهُ عنِ النَّجابَةِ مَنْ لا ينطِقُ عَنْ ٱلْهَوىٰ ، وقالَ لَهُ : « إِنَّكَ لَعَرِيْضُ ٱلْقَفَا »(١) .

وَأَمَّا شرفُ الأُمِّ : فقلَّمَا يفيدُ إِلاَّ بمساعَدَةٍ مِن جهَةِ الأَبِ .

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٥١٠) في التفسير ، عريضُ القفا : كثيرُ النومِ ، وذلكَ دليلُ الغباوَةِ .

قالَ غسانُ بنُ وَعْلَةَ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٢٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

إذَا كُنْتَ فِيْ سَعْدٍ وَأُمُّكَ مِنْهُمُ   شَطِيْراً فَلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدِ
وَإِنَّ ٱبْنَ أُخْتِ ٱلْقَوْمِ مُصْغىً إِنَاؤُهُ   إِذَا لَمْ يُزَاحِمْ خَالُهُ بَأَبٍ جَلْدِ(١)

قد يستفرغ الآباء الشرف والمجد ولا يبقون لأعقابهم شيئاً

وكثيراً ما يستفرغُ الآباءُ فروعَ المجدِ والشرَفِ ، ولا يبقونَ لأَعقابِهم منهُ إلاَّ النزرَ الحقيرَ ، كما رأَيتُهُ في « شرحِ النهجِ » [١٢/ ٤٥] عَن حالِ سيِّدِنا عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وقد ذُكِرَ لآبائِنا مِنَ ٱلعِلْمِ والعبادَةِ والورَعِ والزهادَةِ . . ما تكادُ تنخرِقُ بِهِ العادَةُ ، يشهَدُ ببعضِهِ النقلُ ، ويدلُّ لَهُ العِيانُ ، وإِنْ دَفَعَ العقلُ ، وقد حصلَ لأَعقابِهِم مِنَ ٱلانحِطَاطِ ما أَخشىٰ أَن يكونَ مصداقَ ما أُثِرَ عنِ ٱبنِ الخطَّابِ .

متى ينفع الحسب والنسب الابن

ثُمَّ إِنَّ شرَفَ الآباءِ لاَ ينتفِعُ بِهِ الأَبناءُ إلاَّ إذا كانوا منهُ علىٰ طرَفٍ صالحٍ ، بشهادَةِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

وقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « تَجِدُوْنَ ٱلنَّاسَ مَعَادِنَ ، خِيَارُهُمْ فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِيْ ٱلإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوْا »(٢) .

وللهِ درُّ سيِّدِنا الحدَّادِ في قولِهِ [مِنَ المديدِ] :

لاَ وَلاَ تقْنَــعْ بِكَــانَ أَبِــيْ   وَٱتَّبِـعْ فِـيْ ٱلْهَـدْيِ خَيْـرَ نَبِـيْ

---

(١) أصغيتُ الإناءَ : إذا أملتُهُ ، وذلكَ كنايةٌ عَن نقصانِ ٱلحقِّ وضعفِ ٱلجانبِ إلاَّ إذا كانَ أَعمامُهُ أَقوىٰ مِن أَخوالِهِ .

(٢) أَخرجهُ البخاري (٣٤٩٣) في المناقب .

وقالَ عديُّ بنُ زيدٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَوَارِثِ مَجْدٍ لَمْ يَنَلْهُ وَمَاجِدٍ ... أَصَابَ بِمَجْدٍ طَارِفٍ غَيْرِ مُتْلَدِ

فَلا تَغْفِرَنْ عَنْ سَعْيِ مَنْ قَدْ وَرِثْتَهُ ... وَمَا اسْطَعْتَ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِكَ فَازْدَدِ

وقالَ كشاجمُ [في « ديوانهِ » ٢٨٥ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا افْتَخَرْتَ بِأَعْظُمٍ مَقْبُورَةٍ ... فَالنَّاسُ بَيْنَ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقِ

فَأَقِمْ لِنَفْسِكَ فِيْ انْتِسَابِكَ شَاهِداً ... بِحَدِيْثِ مَجْدٍ لِلْقَدِيْمِ مُحَقِّقِ

وقالَ آخرُ [الفرزدقُ في « ديوانهِ » ٢/ ٣٥٠ مِنَ الكاملِ] :

زَانُوْا قَدِيْمَهُمُ بِحُسْنِ حَدِيْثِهِمْ ... وَكَرِيْمَ أَخْلاَقٍ بِحُسْنِ وُجُوْهِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

قَدْ زَيَّنُوْا أَحْسَابَهُمْ بِسَمَاحِهِمْ ... لاَ خَيْرَ فِيْ حَسَبٍ بِغَيْرِ سَمَاحِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٧٩ مِنَ المنسرحِ] :

وَلَسْتُ أَعْتَدُّ لِلْفَتَىٰ حَسَباً ... حَتَّىٰ يُرَىٰ فِيْ فِعَالِهِ حَسَبُهْ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا الْحَسَبُ الْمَوْرُوْثُ لاَ دَرَّ دَرُّهُ ... لَمُحْتَسَبٌ إِلاَّ بِآخَرَ مُكْتَسَبْ[1]

إِذَا الْغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً ... مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِيْ الْحَطَبْ

وقالَ الببَّغا [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَبْنِ افْتِخَاراً لِنَفْسِهِ ... تَضَايَقَ عَنْهُ مَا بَنَتْهُ جُدُوْدُهُ

وَلاَ خَيْرَ فِيْمَنْ لاَ يَكُوْنُ طَرِيْقُهُ ... دَلِيْلاً عَلَىٰ مَا شَادَ قِدْماً تَلِيْدُهُ

---

(١) مُحتَسَبٌ : مِن العدِّ ؛ أَي : محسوبٌ ومعدودٌ في مَفاخِرِكَ .

وقالَ آخرُ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/ ٤١١ مِنَ المتقارب] :

وَمَا يَنْفَعُ ٱلأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ[1]

وقال الخزَيميُّ [في « ديوانهِ » ٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْمِ ٱلْقَدِيْمَ بِحَادِثٍ مِنَ ٱلْمَجْدِ لَمْ يَنْفَعْكَ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ

وما أَكثرَ ما يقولُ المهلَّبُ ٱبنُ أَبي صفرَةَ لبنيهِ : لا تتَّكِلوا علىٰ ما سبقَ من فِعْلي ، وٱفعَلوا ما يُنسَبُ إِليَّ ، ثُمَّ ينشدُ متمثِّلاً [البيت لقيس بن عاصم كما في « الأغاني » ١٤/ ٨٢ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَىٰ وَالِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فِعَالَهُ ٱلْمَوْلُوْدُ[2]

---

(١) النواصبُ : الخوارجُ ، وسُمُّوا بذلك لنصبهمُ العداوة لعليٍّ رضي الله عنه .

(٢) هذا البيتَ قالهُ قيسُ بنُ عاصمٍ حين كان يُحتَضَرُ ، وهوَ مِن ضِمنِ وَصيَّةٍ لهُ وهيَ :

يا بَنيَّ إذا مِتُّ . . فَسَوِّدوا كبارَكُم ، ولا تَسودوا صغارَكم ؛ فيُسَفِّهَ الناسُ كبارَكم ، وعليكم بإصلاحِ المالِ ؛ فإنَّهُ مَنْبَهَةٌ للكريمِ ، وبهِ يُستغنىٰ عَنِ اللئيمِ ، وإذا مِتُّ . . فأدفنوني في ثيابي التي كُنتُ أُصلِّي فيها وأَصومُ . . . ثُمَّ جمعَ ثمانينَ سَهماً وربطَها بوترٍ ، ثُمَّ قالَ : أكسِروها فلَمْ يستطيعوا ، ثُمَّ قالَ : فرِّقوا ، ففَرَّقوا ، فقالَ : أكسِروها سَهماً سَهماً فَكَسروها ، ثُمَّ قالَ : هَكذا أنتم في ٱلاجتماعِ وفي ٱلفُرقَةِ ، ثُمَّ قالَ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَىٰ وَالِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فِعَالَهُ ٱلْمَوْلُوْدُ
وَتَمَامُ ٱلْفَضْلِ ٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْحِلْـ ـمُ إِذَا زَانَهُ عَفَافٌ وَجُوْدُ
وَعَلَيْكُمْ حِفْظُ ٱلأَصَاغِرِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْحِنْثَ ٱلأَصْغَرُ ٱلْمَجْهُوْدُ=

وسَمعَ ٱبنُ أَبي ربيعَةَ إِنساناً يقولُ [مِنَ المنسرحِ] :

كُنِ ٱبْنَ مَنْ شِئْتَ وَٱكْتَسِبْ أَدَباً   يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ ٱلنَّسَبِ

فقالَ لَهُ : ٱسكتْ ، لاَ فخرَ لَكَ في ذلِكَ ، ثُمَّ أَنشأَ يقولُ [مِنَ المنسرحِ] :

لاَ فَخْرَ إِلاَّ فَخَارُ مُنْتَخَبٍ   يَسْمُو بِأُمٍّ كَرِيمَةٍ وَأَبِ

وقالَ الشريفُ الرضِيُّ [في « ديوانهِ » ١/ ١٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَخَرْتُ بِنَفْسِيْ لاَ بِقَوْمِيْ مُوَفِّراً   عَلَىٰ نَاقِصِيْ قَوْمِيْ مَآثِرَ أُسْرَتِيْ

إِلاَّ أَنَّهُ واللهِ أَساءَ الأَدبَ ؛ إِذ ٱلانتسابُ إِلىٰ سادَةِ الكونِ لا يوازيهِ فخرٌ ، ولاَ يدانيهِ مجدٌ ، ولو أَنَّهُ ٱفترشَ الثريَّا ، وأَوطأَ قدمَهُ السَّماءَ .

وقالَ أَبو عُبادةَ [كما في « ديوانهِ » ١/ ٨ مِنَ الكاملِ] :

أَغْنَىٰ جَمَاعَةَ طَيِّءٍ عَمَّا ٱبْتَنَتْ   آبَاؤُهَا ٱلْقُدَمَاءُ لِلأَبْنَاءِ

فَإِذَا هُمُ ٱفْتَخَرُوا بِهِ لَمْ يَبْجَحُوا   بِقَدِيمِ مَا وَرِثُوا مِنَ ٱلْعَلْيَاءِ[1]

وقالَ لبعضِ العلويَّةِ وقد أَكرمَهُ [كما في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٦٣ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تُوجِبَنْ لِكَرِيمِ أَصْلِكَ مِنَّةً   لَوْ كُنْتَ مِنْ عُكْلٍ لَكُنْتَ كَرِيمَا

= ثُمَّ ماتَ ، فقالَ عَبدةُ بْنُ الطيِّبِ يرثيهِ :

عَلَيْكَ سَلاَمُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ   وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

تَحِيَّةَ مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً   إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بِلاَدَكَ سَلَّمَا

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ   وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

(١) يبجحوا : يفخروا .

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانه » ٦٨ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ لَمْ تَكُنْ لَكَ أَجْدَادٌ تَنُوْءُ بِهِمْ   إِلاَّ بِنَفْسِكَ نِلْتَ ٱلنَّجْمَ مِنْ كَثَبِ

وكانَ الأَحرىٰ بالرضيِّ أَن يقولَ ما قالَ أَبو المظفَّرِ الأَبيَوَرديُّ ، الفقيهُ الشافعيُّ ؛ لأَنَّهُ ٱلأَحقُّ بهِ ، وهوَ [في « طبقات ابن السبكي » ٦/٨٣ مِنَ الكاملِ] :

يَـا مَـنْ يُسَـاجِلُنِـيْ وَلَيْـسَ بِمُـدْرِكٍ   شَأْوِيْ وَأَيْنَ لَهُ جَلاَلَةُ مَنْصِبِيْ ؟!

لاَ تَتْعَبَـنَّ فَـدُوْنَ مَـا حَـاوَلْتَـهُ   خَـرْطُ ٱلْقَتَـادَةِ وَٱمْتِطَـاءُ ٱلْكَـوْكَـبِ

وَٱلْمَجْـدُ يَعْلَـمُ أَيُّنَـا خَيْـرٌ أَبـاً   فَٱسْأَلْهُ يَعْلَمْ أَيَّ ذِيْ حَسَبٍ أَبِيْ ؟

جَدِّيْ مُعَاوِيَةُ ٱلأَغَرُّ سَمَتْ بِهِ   جُرْثُومَةٌ مِنْ طِيْنِهَا خُلِقَ ٱلنَّبِيْ[1]

وَوَرِثْتُـهُ شَـرَفـاً رَفَعْـتُ مَنَـارَهُ   فَبَنُـوْا أُمَيَّـةَ يَفْخَـرُوْنَ بِـهِ وَبِـيْ

الفخار والمجد الذي لا يبيد

ويروىٰ : أَنَّ الحسينَ دخلَ علىٰ يزيدَ بنِ معاويَةَ ، فجعلَ يزيدُ يفتخرُ ويقولُ : نحنُ ونحنُ ، والحسينُ ساكتٌ ، حتَّىٰ أَذَّنَ المؤَذِّنُ ، فلمَّا قالَ : أَشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللهِ . . قالَ لَهُ : أَبو مَن هـٰذَا يا يزيدُ ؟ ولعلَّ الداخِلَ غيرُ الحسينِ مِن أَهلِ البيتِ ، أَو ٱلْمَدخولَ عليهِ معاويَةُ .

ومِنْ هـٰذهِ القصَّةِ أَخذَ عليُّ بنُ محمَّدِ بنِ جعفرٍ قولَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ   بِمَـطِّ خُـدُوْدٍ وَٱمْتِـدَادِ أَصَـابِـعِ

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا ٱلْفَخَارَ . . قَضَىٰ لَنَا   عَلَيْهِمْ بِمَا نَهْوَىٰ نِدَاءُ ٱلصَّوَامِعِ

---

(١) جرثومةُ الشيءِ : أَصلُهُ .

وهوَ القائِلُ ـ أَيضاً ـ [مِنَ المتقارب] :

بَلَغْنَا ٱلسَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا وَلَوْلاَ ٱلسَّمَاءُ لَجُزْنَا ٱلسَّمَا

يَطِيبُ ٱلثَّنَاءُ لآبَائِنَا وَذِكْرُ عَلِيٍّ يَزِينُ ٱلثَّنَا

وقالَ ٱبنُ مَيَّادَةَ [في « ديوانهِ » ٢٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا حَلَّ بَيْتِي بَيْنَ بَدْرٍ وَمَازِنٍ وَمُرَّةَ نِلْتُ ٱلشَّمْسَ وَٱشْتَدَّ كَاهِلِي

وقالَ إِسحاقُ الموصليُّ [في « صبح الأعشى » ١/ ٤٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُوْمَتِي وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفِي شَامِخاً وَتَنَاوَلَتْ يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِداً غَيْرَ قَائِمِ

وقالَ زُهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ.. قَعَدُوْا

وقالَ النابغَةُ الجعديُّ [في « ديوانهِ » ٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

بَلَغْنَا ٱلسَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُوْدُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُوْ فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا[1]

---

(١) قال صاحبُ « العقدِ الفريدِ » (١/ ٢٥٦) :

وفدَ الشاعرُ علىٰ رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فأنشدَهُ البيتَ ، فقالَ له النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِلَىٰ أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَىٰ ؟ » قال : إلىٰ الجنَّةِ . قال النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنْ شَاءَ اللهُ » . فلما ٱنتهىٰ إلى قولهِ من الطويل :

وَلاَ خَيْرَ فِيْ حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِيْ صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرا

.. قالَ له النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ يَفْضُضِ ٱللهُ فَاكَ » فعاشَ مئةً وثلاثينَ سنةً لم تُفضَضْ له سنٌّ .

وقالَ الفرزدقُ [مِنَ الوافرِ] :

فَلَـوْ أَنَّ ٱلسَّمَـاءَ دَنَـتْ لِمَجْـدٍ   وَمَكْـرُمَـةٍ دَنَـتْ لَهُـمُ ٱلسَّمَـاءُ

وقالَ تميمُ بنُ مقبلٍ [مِنَ الكاملِ] :

نَالُوْا ٱلسَّمَاءَ فَأَمْسَكُوْا بِعِنَانِهَا   حَتَّىٰ إِذَا كَانُوْا هُنَاكَ ٱسْتَمْسَكُوْا

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانِهِ » ٦/ ٢٢٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَدَلَّوْا عَلَىٰ هَامِ ٱلْمَعَالِيْ إِذَا ٱرْتَقَىٰ   إِلَيْهَـا أُنَـاسٌ غَيْـرُهُـمْ بِـٱلسَّـلاَلِـمِ

فأَغارَ عليهِ صاحبُنَا فقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣١٠ مِنَ الكاملِ] :

فَـوْقَ ٱلسَّمَـاءِ وَفَـوْقَ مَـا طَلَبُـوْا   فَـإِذَا أَرَادُوْا غَـايَـةً نَـزَلُـوْا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٨ مِنَ الوافرِ] :

وَقَـالُـوْا : هَـلْ يُبَلِّغُـكَ ٱلثُّـرَيَّـا ؟   فَقُلْتُ : نَعَمْ ، إِذَا شِئْتُ ٱسْتِفَالاَ !!

ومِن غلوِّهِ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٥ مِنَ البسيطِ] :

وَعَـزْمَـةٌ بَعَثَتْهَـا هِمَّـةٌ ، زُحَـلٌ   مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ ٱلتُّرْبِ مِنْ زُحَلِ[1]

وسمعَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ رجلاً يُنشِدُ [كما في « خزانة الأدب » ١/ ٨٦ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ حِمْيَرِيٌّ حِيْنَ تَنْسِبُنِيْ   لاَ مِنْ رَبِيْعَةَ آبَائِيْ وَلاَ مُضَرِ

.. فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ذلِكَ أَلأَمُ لَكَ ، وأَبْعَدُ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ »[2] .

---

(١) زحل : ٱسم كوكبٍ ، وهو أحد كواكب المجموعةِ الشمسيَّةِ .

(٢) لم نعثر عليه .

ومِمَّا يروىٰ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ [كما في « المستطرف » ١/ ٢٩٠ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْقَبَـائِـلَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ كُلَّهَـا لَيَـرَوْنَ أَنَّـا هَـامُ أَهْـلِ ٱلأَبْطَـحِ
وَتَـرىٰ لَنَـا فَضْـلاً عَلَـىٰ سَـادَاتِهَـا فَضْلَ ٱلْمَنَارِ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ ٱلأَوْضَحِ

لا يجوز الافتخار بأهل الشرك

ثُمَّ النهيُ عَنْ ٱلْفَخرِ بالأنسابِ إِنَّما ينحطُّ علىٰ مَنِ ٱفتخَرَ بأَهلِ الشركِ أَو الفسقِ ، أَو أَرادَ الباطلَ ، أَو أَفضىٰ إِلىٰ الغلوِّ ، وإِلاَّ . . لَما ٱعتُبِرَتِ الأَنسابُ في نحوِ الإِمامَةِ والكفاءَةِ .

ويروىٰ : أَنَّ العبَّاسَ مرَّ بنفَرٍ من قريشٍ ، يقولونَ : إِنَّما مثَلُ محمَّدٍ في أَهلِهِ كمثَلِ نخلَةٍ نبتَتْ في كُناسَةٍ ، فبلَّغَهُ ذلكَ ، وأَحفظَهُ حَتَّىٰ قامَ خطيباً ، وقالَ : « أَيُّها ٱلنَّاسُ ، مَنْ أَنَا ؟ » قَالوا : أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، قَالَ : « فَأَنَا رَسُوْلُ اللهِ ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ ٱلْخَلْقَ ٱلَّذِيْ أَنَا مِنْهُم فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ شُعُوباً ، فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِهِمْ شَعْباً ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيوتاً ، فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتاً ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً وَوَالِداً ، وَإِنِّيْ مُبَاهٍ ، قُمْ يَا عَبَّاسُ » فقامَ عَنْ يمينِهِ ، ثُمَّ قالَ : « قُمْ يَا سَعْدُ » فَقامَ عَنْ يَسارِهِ ، ثُمَّ قالَ : « هَـٰذَا عَمِّيْ فَلْيُرِنِيْ ٱمْرُؤٌ عَمّاً مِثْلَهُ ، وَهَـٰذَا خَالِيْ فَلْيُرِنِيْ ٱمرؤٌ خَالاً مِثْلَهُ »[1] . أَوْ ما هَـٰذَا معناهُ .

---

(١) أورد نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في كنز العمال (٣٧٣٢٣) عند ابن النجار وعن جابر رضي الله عنه (٣٣٣٣١) ، ونسبه للترمذي والحاكم ، وعن أنس رضي الله عنه (٣٧٠٨٤) عند الطبراني والحاكم ، وعن جابر رضي الله عنه (٣٧٠٨٥) عند الترمذي والطبراني والحاكم وأبي نعيم .

وقد ٱفتخَرَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يومَ تقاصرَتِ ٱلْخُطىٰ ، وتقلَّصَتِ الخُصىٰ في حنينٍ ، بقولِهِ : « أَنا النبيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنا ٱبنُ عَبْدِ ٱلْمَطَّلِبْ »[1] .

وٱحتجَّ بِهِ الإِمامُ الرازيُّ : علىٰ إِيمانِ عبدِ المطلبِ ؛ لأَنَّهُ عليهِ السلامُ لَم يكُن لينتسِبَ في موضِعِ الفخْرِ إِلىٰ غيرِ مؤْمِنٍ .

وقد أَخرجَ البيهقيُّ في « شُعَبِ الإِيمانِ » [بنحوه (٥١٣٣) و(٥١٣٤)] : من حديث أُبيِّ بنِ كعبٍ ومعاذِ بنِ جبلٍ : أَنَّ رجلَين ٱنتَسَبا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقالَ أَحدُهما : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ ، وقالَ الآخرُ : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱنْتَسَبَ رَجُلاَنِ عَلَىٰ عَهْدِ مُوْسَىٰ ، فقالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ إِلَىٰ تِسعَةٍ ، وقَالَ ٱلآخَرُ : أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنِ بْنِ الإِسْلاَمِ ، فَأَوْحَىٰ ٱللهُ إِلَىٰ مُوْسَىٰ : أَنْ قُلْ لِهَـٰذَيْنِ ٱلْمُنْتَسِبَيْنِ : أَمَّا أَنْتَ أَيُّها ٱلْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ تِسعَةِ آباءٍ فِيْ ٱلنَّارِ . . فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِيْ ٱلنَّارِ ، وَأَمَّا أَنْتَ أَيُّها ٱلْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ ٱثْنَيْنِ . . فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِيْ ٱلْجَنَّةِ »

وَأَخرجَ البيهقيُّ ـ أيضاً ـ [بنحوه في « الشعب » ٥١٣٢] عن أَبي ريحانَةَ ، عن النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنِ ٱنْتَسَبَ إِلَىٰ تِسعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيْدُ بِهِمْ عِزّاً وَشَرَفاً . . فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِيْ ٱلنَّارِ » .

وأَخرجَ ـ أَيضاً ـ [بنحوه في « الشعب » ٥١٢٩] عن ٱبنِ عبَّاسٍ : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « لاَ تَفْتَخِرُوْا بِآبَائِكُمُ ٱلَّذِيْنَ

---

(١) أخرجهُ عن البراء البخاريُّ (٢٨٦٤) في (الجهاد) .

مَاتُوا فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَٱلَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ ، لَمَا يُدَهْدِهُ ٱلْجُعَلُ[1] بِأَنْفِهِ خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمْ ٱلَّذِيْنَ مَاتُوْا فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ » .

وأَخرجَ ـ أَيضاً ـ [بنحوه في « الشعب » ٥١٢٦] عن أَبي هريرةَ ، عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْخَرُوْنَ بِرِجَالٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ . . أَوْ لَيَكُوْنُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ ٱلْجُعْلَانِ ٱلَّتِيْ تَدْفَعُ ٱلنَّتَنَ بِأَنْفِهَا » .

فما ورَدَ مِنَ ٱلنَّهْيِ عَن مطلَقِ ٱلافتخارِ محمولٌ علىٰ هَـٰذَا التقييدِ ، أَو على ما سبقَ مِنَ ٱلْغُلُوِّ ، أَو إِرادَةِ الباطِلِ ، ولَسنا بصدَدِ البحثِ عمَّا تقتضيهِ الأَحاديثُ المذكورَةُ مِن عذابِ أَهلِ الفترَةِ ؛ لأَنَّ لَهُ موضعاً يخصُّهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، نجمَعُ بهِ أَطرافَ الكَلامِ فيهِ ، ولا أُطيلُ بِما لي في مَعْتَبَةِ قومي علىٰ التخلُّفِ عَن آبائِهِم ومبايَنَتِهِم في أَعمالِهِم ، ولا بِما لِي مِنْ ٱلْفَخرِ بِنِسْبَتِي ٱلَّتي ينقطِعُ عَنها النظيرُ ، كَما قلْتُ لولَدي [في « ديوان المؤلف » ٢٨٤ مِنَ البسيطِ] :

وَأَنْتَ يَا ٱبْنِيْ لَجِذْمٌ طَابَ مَغْرِسُهُ ... يُسْقَىٰ بِمَاءٍ مِنَ ٱلْفُرْقَانِ دَفَّاقِ[2]

أَرُوْمَةٌ لَوْ تَجَلَّىٰ نُوْرُ عُنْصُرِهَا ... فِيْ جُنْحِ دَاجِيَةٍ هَمَّتْ بِإِشْرَاقِ

وَنِسْبَـةٌ كَـٱلنُّجُـوْمِ ٱلـزُّهْـرِ مُنْقَطِـعٌ ... عَنْهَا ٱلنَّظِيْرُ ـ يَدُ ٱلْمَوْلَىٰ ـ بِإِطْلَاقِ[3]

---

(١) يدهدِهُ : يدحرِجُ .

(٢) الجذمُ والأَرومةُ : الأَصلُ . دفَّاقٌ : عظيمُ الدفقِ والاندفاعِ لكثرتِهِ .

(٣) يد المولى : أي هي يد المولى ونعمته علينا ، والجملة معترضة .

ويُعْجِبُني قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُـلُّ أَنَـابِيْـبِ ٱلْقَنَـا مَـدَدٌ لَـهُ وَمَا يَنْكُتُ ٱلْفُرْسَانَ إِلاَّ ٱلْعَوَامِلُ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٦ مِنَ الوافرِ] :

سِنَـانٌ فِـيْ قَنَـاةِ بَنِـيْ مَعَـدٌّ بَنِـيْ أَسَـدٍ إِذَا دَعَـوُا ٱلنِّـزَالاَ

وهُوَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٤٨ مِنَ الكاملِ] :

كَالرُّمْحِ فِيْهِ بِضْعَ عَشْرَةَ فِقْرَةً مُنْقَـادَةً تَحْـتَ ٱلسِّنَـانِ ٱلأَصْيَـدِ

وقالَ الناميُّ [في « قرى الضيف » ١/ ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

قَنَاةٌ مِنَ ٱلْعَلْيَاءِ أَنْتَ سِنَانُهَا وَتِلْـكَ أَنَـابِيْـبٌ إِلَيْـكَ وَأَكْعُـبُ

والمعنىٰ موجودٌ في قولِ بشارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢١٢ مِنَ الخفيفِ] :

خُلِقُـوا سَـادَةً فَكَـانُـوْا سَـوَاءً كَكُعُـوْبِ ٱلْقَنَـاةِ تَحْـتَ ٱلسِّنَـانِ

* * *

---

(١) النكتُ : الوخزُ . الأنابيبُ ـ جمعُ أنبوبٍ ـ : وهوَ العُقدةُ الناشزةُ في القنا . العواملُ ـ جمعُ عاملٍ ـ : وهو صدرُ الرمحِ ، وهوَ ما يلي السنانَ .

وأَهدىٰ إِليهِ بعضُهُم هديَّةً فيها صورةُ سَمَكٍ مِن لَوزٍ وسكَّرٍ في عسَلٍ ، **فقالَ** [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٢٥ مِنَ الكامِلِ] :

أَقْصِـرْ فَلَسْـتَ بِـزَائِـدِيْ وُدًّا	بَلَـغَ ٱلْمَـدَىٰ وَتَجَـاوَزَ ٱلْحَـدَّا

شرح المطلع

(**أَقْصَرَ عَنِ ٱلشَّيْءِ**) : إِذا كفَّ عنهُ معَ القدرَةِ عليهِ ، وقَصُرَ عَنْهُ : إِذا عجزَ ، وقَصَّرَ فيهِ : إِذا لَم يبالغْ .

يقولُ : إِنَّ التودُّدَ لاَ يزيدُ في ودِّي لَكَ ؛ لأَنَّهُ قد بلغَ الغايَةَ ، فهُوَ يصفُ ودَّ نفسِهِ للممدوحِ ، لا ودَّ الممدوحِ لَهُ ، وفي البيتِ أَشياءُ :

مـا زاد علـى حـده . . انقلب إلى ضده

أَحدُها : أَنَّ ما جاوزَ حدَّهُ ٱنقلَبَ إِلىٰ ضدِّهِ ؛ ولِهَـٰذَا جاءَ الأَمرُ بالاقتصادِ في المحبَّةِ ، ففي الخبَرِ : « **أَحْبِبْ حَبِيْبَكَ هَوْناً مَا ، فَعَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ بَغِيْضَكَ يَوْماً مَا ، وأَبْغِضْ بَغِيْضَكَ هَوْناً مَا ، فَعَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ حَبِيْبَكَ يَوْماً مَا** »[(١)] .

وقالَ أَرُسْطَاطَالِيْسُ : لاَ يَملأَنَّ قلبَكَ محبَّةُ شيءٍ ، ولاَ يستولِيَنَّ عليكَ بغضُهُ ، وٱجعلهُما قصداً ، فإِنَّ القلبَ كٱسمِهِ يتقلَّبُ . وفي النفسِ شيءٌ مِن صحَّةِ هَـٰذَا ؛ لأَنَّ النكتَةَ التي ذكرَها مِن تقلُّبِ القلبِ كَٱسمِهِ إِنَّما تتمُّ لَو كانَ القائِلُ يتكلَّم بالعربيَّةِ ، أَو كانَ ٱسمُهُ في لغتِهِ يدلُّ علَىٰ ما يدلُّ عليهِ بلسانِ العرَبِ ، فَلْيُتأَمَّلْ .

هل يقف الحب عند حد معين؟!

ثانيها : ٱختلَفَ أَهلُ الأَدبِ والمحبَّةِ في حدِّهَا ، أَيقِفُ عندَ غايةٍ ، أَم تجري إِلىٰ مَا لا نهايَةَ ؟

---

(١) أَخرجهُ عن أَبي هريرة رضي الله عنه الترمذيُّ (١٩٩٨) وقال : حديث غريب .

وبيتُ الناظِمِ مِنَ ٱلأوَّلِ ، وهوَ من قولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا زَالَ يَغْلُوْ حُبُّ مَيَّةَ عِنْدَنَا وَيَزْدَادُ حَتَّىٰ لَمْ نَجِدْ مَا يَزِيْدُهَا

وقد قالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٤٤١ مِنَ الكاملِ] :

ٱللهُ يَعْلَمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةً فِيْ حُبِّ عَزَّةَ مَا وَجَدْتُ مَزِيْدَا

وقالَ عمرُ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٧٩ مِنَ الرمَلِ] :

لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُكُمْ غَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِيْ أَوْ أُجَنّ

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ [في « الأغاني » ٩/ ١٧٦ مِنَ الوافرِ] :

أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ ٱلْعَهْدَ مِنْهَا أَطِيْرُ لَوَ ٱنَّ إِنْسَاناً يَطِيْرُ
غَنِيُّ ٱلنَّفْسِ أَنْ أَزْدَادَ حُبّاً وَلَٰكِنِّيْ إِلَىٰ وَصْلٍ فَقِيْرُ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦٥٢ مِنَ البسيطِ] :

مَا فَوْقَ حُبِّكِ حُبّاً لَسْتُ أَعْلَمُهُ فَلاَ يَضُرُّكِ أَنْ لاَ تَسْتَزِيْدِيْنِيْ

وقالَ الحيْصَ بيصَ [مِنَ الوافرِ] :

تَقَرْطَقْ أَوْ تَمَنْطَقْ أَوْ تَقَبَّا فَلَنْ تَزْدَادَ عِنْدِيَ قَطُّ حُبًّا[1]
تَمَلَّكَ بَعْضُ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِيْ فَإِن تُرِدِ ٱلزِّيَادَةَ هَاتِ قَلْبَا

وقالَ بالثاني آخرونَ : منهم جميلُ بنُ معمَرٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلِقْتُ ٱلْهَوَىٰ مِنْهَا وَلِيْداً وَلَمْ يَزَلْ إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ يَنْمُو حُبُّهَا وَيَزِيْدُ

---

(١) تَقَرْطَقْ : ٱلبس القُرْطَقَ ، وهو القباءُ . تمنطق : ضع النطاق على وسطك .

وقد مرَّ هٰذا ـ معَ جملَةٍ مِنْ الشَّواهِدِ تصلُحُ لهُ ولسابقِهِ ـ في الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العكبري » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا يَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَداً [وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاً]

مِن ٱلْمجلِسِ السابعِ .

ويتعلَّقُ بهِ بعضُ ما يأْتي آخرَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

[أَرَقٌ عَلَىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ] وَجَوىً يَزِيْدُ وَدَمْعَةٌ تَتَرَقْرَقُ

مِنْ ٱلْمَجلسِ الثاني عشرَ .

والثاني هُوَ الأَنسبُ بما ذكرهُ الإمامُ الغزاليُّ وٱبنُ مسكويهِ عَنِ ٱلروحِ ، وقد سبقَ عن الأَوَّلِ ما يناسبُ ذلِكَ في المجلسِ الرابعِ ، وقالَ الثاني ـ ما معناهُ ـ : إِنَّنا نجدُ النفوسَ تقبلُ الصورَ المختلفةَ مِنْ ٱلْمحسوساتِ والمعقولاتِ علىٰ وجهِ التمامِ ، من غيرِ مفارقَةٍ ولا معاقبَةٍ ، ولا ٱنمحاءِ رسمٍ ، بلْ لا تزالُ تقبلُ الرسومَ بعدَ الرسومِ ، والصورَ بعدَ الصورِ ، بلْ تزدادُ قوَّةً علىٰ القَبولِ ، كلَّما ٱرتاضت بكثرَةِ المعلوماتِ ، ولهٰذهِ العلَّةِ يزدادُ الإنسانُ فَهماً كلَّما ٱزدادَ علماً ، فليسَتِ ٱلنَّفْسُ إذاً جسماً ـ إِلىٰ آخرِ ما أَطالَ فيهِ ـ ولخَّصناهُ في « رسالةِ الأخلاقِ » ، ولا شَكَّ أَنَّ هٰذا هو مذهبُ السادَةِ الصوفيَّةِ ، وما أَحسنَ ما قالَ بعضُهم [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ أَرَىٰ أَنْ قَدْ تناهَىٰ بِيَ ٱلْهَوَىٰ إِلَىٰ غَايَةٍ مَا فَوْقَهَا لِيَ مَطْلَبُ

فَلَمَّا تَلاَقَيْنَا وَعَايَنْتُ حُسْنَهَا تَبَيَّنْتُ أَنِّيْ إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ

فوائد الهدية تثبيت وتقوية المحبة

ثالثُها : أنَّ في البيتِ ما لا غايَةَ بعدَهُ في المناسَبَةِ لجوابِ الهديَّةِ ؛ إذ قد جاءَ في حديثِ عائِشَةَ : يا نساءَ المؤمنينَ ، تَهادوا وَلَو فِرْسِنَ شَاةٍ[1] ؛ فَإِنَّهُ يُنْبِتُ المودَّةَ ، ويُذهِبُ الضغائِنَ ، ذكرَهُ الحافِظُ في « الفتحِ » [باب الهبة : ٥/١٩٨] وغيرُهُ .

ووجهُهُ : أَنَّهُ لمَّا أَشارَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إلىٰ أَنَّ الغرَضَ مِنَ ٱلْهَدِيَّةِ تثبيتُ المحبَّةِ في ٱلقلوبِ . . قالَ الناظِمُ : إنَّ محبَّتي لَكَ لا تحتاجُ إلىٰ تثبيتٍ ؛ لأَنَّها مِنَ ٱلْقُوَّةِ بحيثُ لم تَعُدْ تقبلُ الزيادَةَ بعدُ ، فلِلَّهِ درُّهُ ما أَدقَّ نظرَهُ ، وأَبعدَ غورَهُ ، إنْ أرادَ هَـٰذَا .

وذكرَ غيرُ واحدٍ : أَنَّ المنصورَ قالَ يوماً للربيعِ بنِ يونسَ : سَلْ حاجتَكَ ، قالَ : حاجَتي أَنْ تُحِبَّ الفضلَ ٱبني ، فقالَ لهُ : ويحَكَ إنَّ لِلْمَحَبَّةِ أَسباباً ، فقالَ لَهُ : قد أَمكنكَ اللهُ مِن إيقاعِ سَببِها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : تُنعِمُ عليهِ ، فإِنَّكَ إذا أَنعمتَ عليهِ . . أَحبَّكَ ، وإذا أَحبَّكَ . . أَحْبَبْتَهُ .

* * *

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٢٤٨٩٠) ونسبه لأحمد والبخاري ومسلم بلفظ : « يا نساء المسلمات ، لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِن شاةٍ » . الفِرسِنُ : العَظمُ القليلُ اللحمِ ، وهوَ خُفُّ الشاةِ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٥ مِنَ الكاملِ] :

أَرْسَلْتَهَا مَمْلُوءَةً كَرَماً	فَرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدَا

أصل معنى بيت المطلع وشرحه

أَصلُ المعنىٰ : أَنَّ إِحدىٰ نساءِ الأنصارِ بعثَتْ معَ ابنتِها طَبَقاً لِرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مملوءاً مِنَ الخضراتِ ، فردَّهُ مملوءاً حُليّاً[1] .

وكذلِكَ فعلَ اللَّيثُ بنُ سعدٍ [كما في « شذراتِ الذَّهبِ » ١/ ٢٨٥] : فقد أَهدىٰ إِليهِ إِمامُ دارِ الهجرَةِ صِينِيَّةً مملوءَةً تمراً ، فأَعادَها مملوءَةً ذهباً .

وقولُهُ : (فرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدَا) إِمَّا أَن يُريدَ ما كتبَهُ مِنَ الأَبياتِ اللَّواتي مِنها هٰذانِ ، وإِمَّا أَن يُريدَ ما يَظهرُ مِنْ أَثَرِها بينَ النَّاسِ ؛ لأَنَّها لا تخفىٰ صنيعتُهُ إِليهِ معَ نباهَتِهِ وبُعْدِ صِيتِهِ ، فَلا بُدَّ وأَنْ تسيرَ أَخبارُها ، ولا سيَّما إِذا تحدَّثَ بِها ، فيكونُ قد أَدمَجَ التَّمدُّحَ بالنَّباهَةِ وانتشارِ الذِّكرِ في جَوابِ الهديَّةِ ، وهوَ إِذاً قريبٌ مِنْ قولِهِ في الأُخرىٰ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٦٤ مِنَ المنسرحِ] :

تُنْشِدُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ	بِأَلْسُنٍ مَا لَهُنَّ أَفْوَاهُ

وقولِ نصيبٍ [في « البيانِ والتَّبيينِ » ١/ ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَعَاجُوا فَأَثْنَوا بِالَّذِيْ أَنْتَ أَهْلُهُ	وَلَوْ سَكَتُوْا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

---

(١) لم نعرفه .

وقولِ ٱلأعشىٰ [في « ديوانه » ٢٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ عِتَاقَ ٱلْعِيْسِ سَوْفَ تَزُوْرُكُمْ   ثَنَـاءٌ عَلَـىٰ أَعْجَـازِهِـنَّ مُعَلَّـقُ

لأَنَّ ٱلمرادَ مِنَ الثَّناءِ ٱلمعلَّقِ علىٰ ٱلأعجازِ . . هوَ ٱلغِناءُ الَّذي يترنَّمُ بهِ ٱلرُّدَّافُ مِنْ أَشعارِ ٱلشُّكرِ والثَّناءِ علىٰ ٱلمَزورِ ، علىٰ حدِّ قولِ ٱلرَّاعي [مِنَ الطَّويلِ] :

وَخَوْدٍ مِنَ ٱللائِي تَسَمَّعْنَ بِٱلضُّحَىٰ   قَرِيْضَ ٱلرَّدَافِيْ بِٱلْغِنَاءِ ٱلْمُهَوَّدِ[1]

ولا يَبعدُ أَنْ يقومَ ما يتعالَمُ بهِ ٱلنَّاسُ ـ مِنْ خبرِ ٱلهديَّةِ لشيوعِها ـ مقامَ ما يُشاهَدُ مِنِ ٱمتلاءِ ٱلحقائِبِ في بيتِ نصيبٍ ، فلا إِشكالَ ، وقدْ قالَ الشَّمَرْدَليُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَادِيْكَ لاَ يَخْفَىٰ مَوَاقِعُ صَوْبِهَا   فَتَعْفُوْ إِذَا مَا ضُيِّعَ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ

وَهَلْ تَسْتَطِيْعُ ٱلأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَا ٱنْطَوَتْ   عَلَـىٰ رَيِّهَـا إِنْكَـارَ مَـا فَعَـلَ ٱلْقَطْـرُ ؟

وقالَ الرَّضيُّ [في « ديوانه » ٢/ ٩٢٦ مِنَ الكاملِ] :

وَلِسَـانُ نِعْمَتِـكَ ٱلَّتِـيْ قَلَّـدْتَنِـيْ   بِٱلشُّكْرِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ بَيَانِيْ

فَإِذَا سَكَتُّ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنْ فَمِيْ   عَنِّيْ يَدُ ٱلْمَعْرُوْفِ وَٱلإِحْسَانِ

الثناء يبقى وتذهب الهدية

وفي ٱلبيتِ رائحَةُ تعاظُمٍ وٱمتنانٍ علىٰ ٱلمُهدي ؛ إِذِ ٱلحمدُ أَفضلُ مِن تلكَ ٱلهديَّةِ ، بَلْ وممَّا هوَ أَكبرُ مِنها ؛ فقد قالَ ٱبنُ ٱلخطَّابِ لأَحدِ بني هَرِمِ بنِ سِنانَ [بنحوِهِ في « مجمع الأمثالِ » ١/ ١٨٩] : ما فعلتُمْ بزُهيرٍ ؟ قالوا : حَمَّلْنا ، وكَسَونا ، وأَكْرَمْنا ، وأَفضَلنا ، فقالَ : لـٰكنَّ ما كَساكُمْ بهِ زهيرٌ لا يفنىٰ ٱلدَّهرَ .

---

(١) الخودُ : الفتاة الحسنةُ الخَلقِ الناعمةُ .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٤٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

حُفِظَ ٱلْقَرِيْضُ فَلَمْ يُضَيَّعْ حَقُّهُ   أَبَـداً وأَنْـتَ لَـهُ مِـنَ ٱلْعُشَّـاقِ
هَـا إِنَّـهُ وَعَطَـاءَكَ ٱلْجَـمَّ ٱللُّهَـىٰ   أَخَوانِ : ذَا فَانٍ ، وَهَـٰذَا بَاقِيْ[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَلْطَفُ مِنْهُ فِيْ ٱلْفُؤَادِ مَحَلَّةً   ثَنَـاءٌ تُبَقِّيْـهِ ٱلْقَصَـائِـدُ أَوْ شُكْـرُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ـ٦٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَائِنْ لَهُ فِيْ سَاحَتِيْ مِنْ صَنِيْعَةٍ   قَطَعْتُ لَهَا عُقْلَ ٱلْقَوَافِيْ ٱلشَّوَارِدِ[2]
وَإِنِّيْ لَمَحْقُوْقٌ بِأَنْ لاَ يَطُوْلَنِيْ   نَـدَاهُ إِذَا طَـاوَلْتُـهُ بِـٱلْقَصَـائِـدِ
يُحَكْنَ لَهُ حَوْكَ ٱلْبُرُوْدِ لِزِيْنَةٍ   وَيُنْظَمْنَ عَنْ جَدْوَاهُ نَظْمَ ٱلْقَلاَئِدِ
وَحَسْبُ أَخِيْ ٱلنُّعْمَىٰ جَزَاءً إِذَا ٱمْتَطَىٰ   سَوَائِرَ مِنْ شِعْرٍ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ خَالِدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ يُبْقِ كَرُّ ٱلدَّهْرِ غَيْرَ عَلاَئِقٍ   مِنَ ٱلْقَوْلِ تُرْضِيْ سَامِعِيْنَ وَتُغْضِبُ

ويروىٰ [كما في « ٱلمعجمِ ٱلأوسطِ » للطَّبرانيِّ ٤/ ٥٠] : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كثيراً ما يقولُ لعائِشَةَ ـ رضوانُ ٱللهِ عليها ـ : « كَيْفَ بَيْتُكِ ؟ » ، فتُنشِدُهُ [مِنَ ٱلكاملِ] :

يَجْـزِيْـكَ أَوْ يُثْنِـيْ عَلَيْـكَ وَإِنَّ مَـنْ   أَثْنَىٰ عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَىٰ

فيصدِّقُها .

---

(١) اللُّهىٰ : العطايا .
(٢) العُقُلُ ـ جمع عِقالٍ ـ : وهو الحبلُ الذي يشدُّ بهِ البعيرُ في وسطِ ذراعهِ .

وقالَ محمودٌ ٱلورَّاقُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا بَلَغَتْ أَيْدِي ٱلْمُنِيلِينَ بَسْطَةً ... مِنَ ٱلطَّوْلِ إلاَّ مِنَّةُ ٱلشُّكْرِ أَطْوَلُ

وَلاَ رَجَحَتْ فِي ٱلْوَزْنِ يَوْماً صَنِيعَةٌ ... عَلَىٰ ٱلْمَرْءِ إلاَّ مِنَّةُ ٱلشُّكْرِ أَثْقَلُ

وقالَ ٱبنُ الجزَّارِ السرقسطيُّ [كما في « نفح الطيب » ٣/٤٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَنَاءُ ٱلْفَتَىٰ يَبْقَىٰ وَيَفْنَىٰ ثَرَاؤُهُ ... فَلا تَكْتَسِبْ بِٱلْمَالِ شَيْئاً سِوَىٰ ٱلذِّكْرِ

فَقَدْ أَبْلَتِ ٱلأَيَّامُ كَعْباً وَحَاتِماً ... وَذِكْرُهُمَا غَضٌّ جَدِيدٌ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ

كفران النعم يستوجب الوعيد

وما أكثرَ ما وردَ في كفرانِ النِّعمِ مِنَ ٱلوَعيدِ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧] ، وقالَ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، وقالَ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وفي ٱلفائدَةِ السَّابعَةِ مِن « بلابلِ التَّغريدِ » مبحَثٌ جميلٌ ، ما أَظنُّني سُبِقْتُ إِليهِ .

لم يشكر الله.. من لم يشكر الناس

ويقالُ : « مَن لَم يَشْكُرِ الناسَ . . لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ »[1] فأَخذَهُ البُحتريُّ وقالَ [في « ديوانِه » ١/١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَنْ لاَ يُؤَدِّيْ شُكْرَ نِعْمَةِ خِلِّهِ ... فَأَنَّىٰ يُؤَدِّيْ شُكْرَ نِعْمَةِ رَبِّهِ

وخطبَ نصرُ بنُ سيَّارٍ فقالَ [في « المستطرف » ١/٥٠٧] : قالَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَنْعَمَ عَلَىٰ قَوْمٍ فَلَمْ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي في « سننه » (١٩٥٥) ، وأحمد في « مسنده » (١٨٤٧٢) .

يَشْكُرُوهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ . . اُسْتُجِيبَ لَهُ فِيهِمْ »[1] . وَإِنِّي قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَىٰ آلِ سَامٍ ، فَلَمْ يَشْكُرُونِي ، فَأَذَاقَهُمُ ٱللهُ حَرَّ ٱلْحَدِيدِ ، فَمَا دَارَ عَلَيْهِمُ ٱلْحَوْلُ حَتَّىٰ قُتِلُوا جميعاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

كفران النعم من اللؤم

وقالَ زهيرٌ [مِنَ الكاملِ] :

وٱلْكُفْـــرُ مَخْبَثَـــةٌ لِنَفْـــسِ ٱلْمُنْعِـــمِ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٥ مِنَ البسيطِ] :

لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ ... إِنِّي لَفِي ٱللُّؤْمِ أَحْظَىٰ مِنْكَ فِي ٱلْكَرَمِ

شكران النعم من الكرم

وقالَ يزيدٌ المهلَّبيُّ [مِنَ البسيطِ] :

إِنْ يُعجِزِ ٱلدَّهْرُ كَفِّي عَنْ جَزَائِكُمُ ... فَـإِنَّنِـي بِـٱلْهَـوَىٰ وَٱلشُّكْـرِ مُجْتَهِـدُ

أَخذهُ الناظمُ فقالَ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٧٦ مِنَ البسيطِ] :

لاَ خَيْـلَ عِنْـدَكَ تُهْـدِيهَـا وَلاَ مَـالُ ... فَلْيُسْعِدِ ٱلنُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ ٱلْحَالُ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَنَا لَمْ أَشْكُرْكَ نُعْمَاكَ جَاهِداً ... فَلاَ نِلْتُ نُعْمَىٰ بَعْدَهَا تُوْجِبُ ٱلشُّكْرَا

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه أبو شجاع الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣/ ٥٧١) ، وهو في « كنز العمال » (٦٤٤٩) ، (٦٤٧٥) ونسبه للعقيلي وابن لال والشيرازي في « الألقاب » بلفظ : « من أنعم على أخيه نعمة فلم يشكرها فدعا عليه . . استجيب له » . وفي الأول : « من أسدى » .

وقالَ بعضُهُم [كما في « المستطرف » ١/٥٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّ لِيْ فِيْ كُلِّ مَنْبتِ شَعْرَةٍ   لِسَاناً يُطِيْلُ ٱلشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّرَا

وقالَ أَبو الوفا [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَادِيَ لاَ أَسْطِيْعُ كُنْهَ صِفَاتِهَا   وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِيْ جَمِيْعاً تَكَلَّمُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْكَتَنِيْ نُعْمَىٰ كَأَنِّيَ مُفْحَمٌ   وَلَمْ أَرَ مِثْلِيْ مُفْحَماً وَهُوَ مُقْوِلُ[1]

وقالَ بعضُهُم [وهو ابن سُرَيج كما في « الأغاني » ١/٢٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

شَكَرْتُكَ إِنَّ ٱلشُّكْرَ دَيْنٌ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ   وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِيْ

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٣٩١ مِنَ الكاملِ] :

أَنْتَ ٱمْرُؤٌ جَلَّلْتَنِيْ نِعَماً   أَوْهَتْ قُوَىٰ شُكْرِيْ فَقَدْ ضَعُفَا

لاَ تُسْدِيَنْ إِلَيَّ عَارِفَةً   حَتَّىٰ أَقُوْمَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/٤٣٥ مِنَ البسيطِ] :

كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ لَوْلاَ مَا أُخَفِّفُهَا   بِهِ مِنَ ٱلشُّكْرِ لَمْ تُحْمَلْ وَلَمْ تُطَقِ

فَٱدْفَعْ بِرَبِّكَ عَنِّيْ ثِقْلَ فَادِحِهَا   فَإِنَّنِيْ خَائِفٌ مِنْهَا عَلَىٰ عُنُقِيْ[2]

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠-٢١ مِنَ الكاملِ] :

أَخْجَلْتَنِيْ بِنَدَىٰ يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ   مَا بَيْنَنَا تِلْكَ ٱلْيَدُ ٱلْبَيْضَاءُ

وَقَطَعْتَنِيْ بِٱلْجُوْدِ حَتَّىٰ إِنَّنِيْ   مُتَخَوِّفٌ أَنْ لاَ يَكُوْنَ لِقَاءُ

---

(١) المُفْحَمُ : الذي لا يستطيعُ قولَ الشعرِ .

(٢) أَمرٌ فادحٌ : صعبٌ ثقيلٌ .

صِلَةٌ غَدَتْ فِيْ ٱلنَّاسِ وَهْيَ قَطِيْعَةٌ عَجَبٌ وَبِرٌّ عَادَ وَهْوَ جَفَاءُ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/ ١٢٠ـ١٢١ مِنَ البسيطِ] :

إِيهاً أَبَا ٱلْفَضْلِ شُكْرِيْ مِنْكَ فِيْ نَصَبِ أَقْصِرْ فَمَا لِيَ فِيْ جَدْوَاكَ مِنْ أَرَبِ

لاَ أَقْبَلُ ٱلدَّهْرَ نَيْلاً لاَ يَقُوْمُ بِهِ شُكْرِيْ وَلَوْ كَانَ مُسْدِيْهِ إِلَيَّ أَبِيْ

لأَشْكُرَنَّكَ إِنَّ ٱلشُّكْرَ نَائِلُهُ أَبْقَىٰ عَلَىٰ حَالِهِ مِنْ حَالَةِ ٱلنَّشَبِ

والأخيرُ يشبهُ ما سبقَ ممَّا سقناهُ لهُ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٣٣ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمْ نَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ ٱلْمَوَالِيْ وَلَمْ نَذْمُمْ أَيَادِيْكَ ٱلْجِسَامَا

وَلَٰكِنَّ ٱلْغُيُوْثَ إِذَا تَوَالَتْ بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ ٱلْغَمَامَا

وقالَ العثمانيُّ في الصاحبِ ٱبنِ عبَّادٍ [مِنَ المتقاربِ] :

وَفَدْنَا لِنَشْكُرَ كَافِيْ ٱلْكُفَاةِ وَنَسْأَلُهُ ٱلْكَفَّ عَنْ بِرِّنَا

فقالَ لهُ العلويُّ ـ وكان حاضراً ـ : قد كُفِيتَ المؤنَةَ ، فإنَّ الصاحِبَ صارَ لا يعطي شيئاً . وسيُعادُ الكلامُ في مثلِ هٰذَا أوائلَ المجلسِ الخامسَ عشرَ .

اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك

ويُروىٰ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ٱشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَأَنْعِمْ عَلَىٰ مَنْ شَكَرَكَ ، فَإِنَّهُ لاَ زَوالَ لِلنِّعْمَةِ إِذَا شُكِرَتْ ، ولاَ بَقَاءَ لَهَا إِذَا كُفِرَتْ »[1] .

---

(١) هذا ليس حديثاً ، بل هو حكمة كما في كتاب « الزهد » لابن أبي عاصم (٣٦٨) ، وبمعناه الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من لم يشكر الناس لا يشكر الله » . أيضاً عن الأشعث وأسامة وابن مسعود .

وقالَ ٱبنُ سقلابٍ : رأَيتُ البُحترِيَّ فقلْتُ لهُ : ما الخبرُ ؟ فأَنشدَ بديهاً [مِنَ الوافرِ] :

يَـزِيْـدُ تَفَضُّـلاً وَأَزِيْـدُ شُكْـراً ... فَـذَلِـكَ دَأْبُـهُ أَبَـدَاً وَدَأْبِـيْ

سيد الشاكرين ﷺ

وقامَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ حَتَّىٰ تفطَّرَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ في ذلِكَ ؟ فقالَ : « أَفلاَ أَكُوْنُ عَبْداً شَكُوراً ؟ »(١) .

إذا صنعت معروفاً.. فليكن إلى مثل هؤلاء

و[روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/٥٠٩ أنه] جاءَ رجلٌ من الأَنصارِ إِلىٰ ٱبنِ الخطَّابِ وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

أُذْكُرْ صَنِيْعِيَ إِذْ فَاجَاكَ ذُوْ سَفَهٍ ... يَوْمَ ٱلسَّقِيْفَةِ وَٱلصِّدِّيْقُ مَشْغُوْلُ

فقالَ عمرُ بأَعلىٰ صوتِهِ : ٱدنُ منِّي ، فدَنا منهُ ، فأَخذَ بذراعِهِ حَتَّىٰ ٱستشرفَهُ الناسُ ، وقالَ : أَلا إِنَّ هَـٰذَا ردَّ عنِّي سفيهاً مِن قومِهِ يومَ السقيفةِ ، ثُمَّ حملَهُ علىٰ نجيبٍ ، وزادَ في عطائِهِ ، وولاَّهُ صَدَقاتِ قومِهِ ، وقالَ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وقالَ رجلٌ [كما في « المستطرف » ١/٥٠٩] لسعيدِ بنِ العاصِ وهوَ أَميرُ (الكوفَةِ) : لي عندَكَ يدٌ ، قالَ : وما هِيَ ؟ قالَ : كَبَتْ بِكَ فَرَسُكَ ، فتقدَّمَتُ إِليكَ قبلَ غلمانِكَ ، فأَخذْتُ بيدِكَ وأَعَنْتُكَ علىٰ الركوبِ ، قالَ : فأَينَ كنتَ حَتَّىٰ الآنَ ؟ قالَ : حُجبتُ عَنْ ٱلوصولِ

= وفي كنز العمال : (٦٤١٣) بلفظ « أَشكَرُ الناس لله أشكرهم للناس » عند أحمد والطبراني والبيهقي والضياء وغيرهم . كما في « كنز العمال » (٦٤٤٣) عند أحمد والترمذي .

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) في التهجد .

إليكَ ، قالَ : قد أَمرنا لَكَ : بِمئتَي أَلفِ درهَمٍ ، وبما يملِكُهُ الحاجِبُ ، عقوبةً لَهُ علىٰ حجبِك عنَّا .

وكانَ الحجَّاجُ مَنَّ علىٰ عمرانَ بنِ حطَّانَ ـ أَبعدَهُ اللهُ ـ فقالَ لَهُ قطريُّ بنُ الفجاءَةِ : عُدْ إِلىٰ قتالِ عدوِّ اللهِ ، فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

أَأُقَاتِلُ ٱلْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ بِيَـدٍ تُقِـرُّ بِـأَنَّهَـا مَـوْلاَتُـهُ
مَـاذَا أَقُـولُ إذا وَقَفْـتُ إزَاءَهُ فِي ٱلصَّفِّ وَٱحْتَجَّتْ لَهُ فَعلاَتُهُ ؟
أَأَقُـوْلُ جَـارَ عَلَـيَّ لاَ إِنِّـيْ إِذاً لأَحَقُّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهُ وُلاَتُهُ
وَتَحَـدَّثَ ٱلأَقْـوَامُ أَنَّ صَنَـائِعـاً غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنْظَلَتْ نَخلاَتُهُ[1]

ومرَّ أَبو دُلَفٍ ـ الشاعرُ ـ بقومٍ فقالَ بعضُهم : هَـٰذَا الذي يقولُ فيهِ الشاعِرُ [مِنَ المديدِ] :

إِنَّمَـا ٱلـدُّنْيَـا أَبُـوْ دُلَـفٍ بَيْـنَ بَـادِيْـهِ وَمُحْتَضَـرِهْ
فَـإِذَا وَلَّـىٰ أَبُـوْ دُلَـفٍ وَلَّـتِ ٱلـدُّنْيَـا عَلَـىٰ أَثَـرِهْ

فبكىٰ حتَّىٰ جرَتْ دموعُهُ ، فقالَ لَهُ بعضُ أَصحابِهِ : لِماذا ؟ قالَ [كما في « المنتظم » حتى سنة (٢٥٧ هـ) ٢٥٧/١٠] : لأَنِّي لَم أَقضِ حقَّ هَـٰذَا الشاعرِ ، قالوا : أَوَلَمْ تعطِهِ مئةَ أَلفِ درهمٍ ؟ قالَ : واللهِ ما في نَفسي إلاَّ أَنَّها لَمْ تكُن مئةَ أَلفِ دينارٍ .

المتنبي والشكر

وللناظِمِ في مطلَقِ الشُّكْرِ قولُهُ [في « العُكبريِّ » ١٢٦/٢ مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ مِنَـنٌ تُفْنِـي ٱلثَّنَـاءَ كَـأَنَّمَـا بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لاَ يُؤَدَّىٰ لَهَا شُكْرُ

وقولُهُ [في « العُكبريِّ » ٧٨/١ مِنَ الوافرِ] :

أُثِيبُـكَ بِـالَّـذِيْ أَوْلَيْـتَ شُكْـراً وَأَيْنَ مِنَ الَّذِيْ تُوْلِيْ ٱلثَّوَابُ؟!

---

(١) « المستطرف » (٥٠٩/١) .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٣٨٨ مِنَ الوافرِ] :

وَقَـدْ حَمَّلْتَنِـي شُكْـراً طَـوِيـلاً ثَقِيْـلاً لاَ أُطِيْـقُ بِـهِ حِـرَاكَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٨٥ مِنَ البسيطِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُحسِنُ ٱلْمَشْكُوْرُ مِنْ جِهَتِيْ وَٱلشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ ٱلإِحْسَانِ لاَ قِبَلِي

الشعراء والشكر

ويعجبُني قولُ بعضِهِم [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/ ٢٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَشْكُرُ مَا عِشْتُ ٱلسَّدُوسِيَّ بِرَّهُ وَأُوْصِيْ بِشُكْرٍ لِلسَّدُوْسِيِّ مِنْ بَعْدِيْ

وَأطالَ بعضُهم في شكرِ الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ ولَم تكُنْ لَهُ عليهِ إلاَّ منَّةٌ يسيرَةٌ ، فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱلصَّدِيْقُ أَدَامَ شُكْرِيَ لِلَّتِيْ لَـمْ آتِهَـا إِلاَّ عَلَـىٰ ٱلتَّقْـدِيْـرِ

أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْعُتْبَ بَـاطِـنُ أَمْرِهِ فَسَكَتُّ مُحْتَشِماً عَلَىٰ ٱلتَّقْصِيْرِ

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانهِ » ١٨٤ مِنَ الكاملِ] :

لاَ يَقْبَلُوْنَ ٱلشُّكْرَ مَا لَمْ يُنْعِمُوْا نِعَمـاً يَكُـوْنُ لَهَـا ٱلثَّنَـاءُ تَبِيْعَـا

وقالَ أَنوشُروانَ : مَنْ أَثْنَىٰ عليكَ بِما لَم تولهِ . . فغيرُ بعيدٍ أَنْ يذمَّكَ بما لم تفعَلْهُ .

يباح ذم المقصر . . كما يجب شكر المنعم

وكما يجبُ شكرُ المنعِمِ . . فإِنَّهُ قدْ يباحُ ذَمُّ المقصِّرِ ؛ إِذ [روى القرطبي في « تفسيره » ٦/١ أنه] : جاءَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] ، إِنَّها في الضيفِ ينزِلُ بالقومِ فلا يحسنونَ قِراهُ ، فيجوزُ لهُ أَن يأْخذَ مِن أَعراضِهِم بِقَدْرِ ما قصَّروا فيهِ من حقِّهِ ، وقد سبقَ ـ في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ ـ ذكرُ قولِ حاتِمٍ [مِنَ الكاملِ] :

وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلضَّيْفَ مُخبِرُ أَهْلِهِ   بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

معَ ما يناسبُهُ مِنَ ٱلْكَلامِ .

المتوكل يريد أن يختص أبا العيناء للمنادمة

وٱعتزَمَ المتوكِّلُ علىٰ ٱختصاصِ أَبي العيناءِ للمنادمَةِ ، ثُمَّ قالَ لهُ : لَولا حِدَّةٌ في لسانِكَ ، فقالَ : إِنْ توهَّم الخليفَةُ أَنّي مثْلُ العقرَبِ تلدَغُ النبيَّ والذميَّ . . فقدْ صانَ اللهُ عبدَهُ عن ذلِكَ ، وإِنْ لاَم علىٰ ذمِّ المُسيءِ ، وَشكَرَ ٱلمحسنَ ؛ فالباري جلَّ شأْنُهُ يقولُ في المدحِ : ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤٤] . ويقولُ في الذمِّ : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

[القلم : ١١-١٣] .

ثُمَّ أَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَىٰ ٱلْخَيْرِ أَهْلَهُ   وَلَمْ أَشْتُمِ ٱلْجِبْسَ ٱللَّئِيمَ ٱلْمُذَمَّمَا[1]

فَفِيْمَ عَرَفْتُ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ بِٱسْمِهِ   وَشَقَّ لِيَ ٱللهُ ٱلْمَسَامِعَ وَٱلْفَمَا

مُدحَ سعيد بن سلم ببيتين ولا أجمل منهما

ويروىٰ عنْ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبةَ بنِ مسلمٍ الباهليِّ قالَ : مدَحني رجلٌ مِنَ ٱلعربِ ببيتينِ لم أَسمعْ لَهما نظيراً في المدْحِ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُولُ لِسَارِيْ ٱللَّيْلِ: لاَ تَخْشَ ظُلْمَةً   سَعِيْدُ بْنُ سَلْمٍ ضَوْءُ كُلِّ بِلاَدِ

لَنَا مُقْرَمٌ أَرْبَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مُقْرَمٍ   جَوادٌ حَثَا فِيْ وَجْهِ كُلِّ جَوَادِ[2]

---

(١) الجِبسُ : الجامدُ الثقيلُ الروحِ ، والفاسقُ ، والرديءُ ، والجبانُ واللئيمُ .

(٢) المُقْرَمُ : السيِّدُ الجوادُ المعظَّمُ ، يعني : أَنَّهُ سبقَ في الجودِ ، والسابقُ يحثو الترابَ بحافرِ فَرَسِهِ في وجهِ المسبوقِ .

ثُمَّ هَجاني بعدَ ذلِكَ ببيتَينِ لم أرَ أَمَضَّ مِنْهُما ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

ثـم هجـي بيتيـن ولا أمضّ منهما

لِكُـلِّ ثَنَـاءٍ مَـا عَلِمْـتَ كَـرَامَـةٌ ... وَلَيْـسَ لِمَـدْحِ ٱلْبَـاهِلِـيِّ ثَـوَابُ
مَدَحْتُ ٱبْنَ سَلْمٍ وَٱلْمَدِيْحُ مَهَزَّةٌ ... فَكَـانَ كَصَفْـوَانٍ عَلَيْـهِ تُـرَابُ

وٱمتدَحَ ٱبنُ الروميِّ بعضَ الكُتَّابِ فماطلَهُ بالجائزَةِ ، ثُمَّ ردَّ إليهِ مدحَهُ وقالَ : ٱمدَحْ بهِ مَنْ شئْتَ غيري ، فقالَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٦٠٣-٦٠٤ مِنَ الوافرِ] :

ابن الرومي يُمطَل بعد مديحه فما الرد؟!

رَدَدْتَ عَلَيَّ شِعْرِيْ بَعْدَ مَطْلٍ ... وَقَـدْ دَنَّسْـتَ مَلْبَسَـهُ ٱلْجَـدِيْـدَا
وَقُلْتَ : ٱمْدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِيْ ... وَمَـنْ ذَا يَقْبَـلُ ٱلْمَـدْحَ ٱلـرَّدِيْـدَا
وَمَـا لِلْحَـيِّ فِـيْ أَكْفَـانِ مَيْـتٍ ... لَبُوْسٌ بَعْدَ مَا ٱمْتَلأَتْ صَدِيْدَا

وقالَ لآخرَ - وقدْ حرمَهُ - [كما في « ديوانِهِ » ٤/ ١٦٢٩ مِنَ الكاملِ] :

رُدُّوا عَلَـيَّ صَحَـائِفَـاً سَـوَّدْتُهَـا ... فِيْكُـمْ بِـلاَ حَـقٍّ وَلاَ ٱسْتِحْقَـاقِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢٤٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ كُنْتَ مِنْ جَهْلِ حَقِّيْ غَيْرَ مُعْتَذِرٍ ... وَكُنْتَ مِنْ رَدِّ مَدْحِيْ غَيْرَ مُتَّئِبِ[1]
فَأَعْطِنِيْ ثَمَنَ ٱلطِّرْسِ ٱلَّذِي كُتِبَتْ ... فِيْـهِ ٱلْقَصِيْـدَةُ أَوْ كَفَّـارَةَ ٱلْكَـذِبِ[2]

ويُذكَرُ : أَنَّ الناظِمَ كانَ أَعدَّ قصيدَتَهُ - التي يقولُ في مطلَعِهَا [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٦٠ مِنَ الكاملِ] :

في هن بناتي أزوجهن من أريد

بَـادٍ هَـوَاكَ صَبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَصْبِـرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَىٰ

---

(١) مُتَّئِبٌ : راجعٌ .

(٢) الطرسُ : الصحيفةُ .

لابنِ الفراتِ ، ثُمَّ لَمَّا لَم يُرضِهِ . . قلَبَها لابنِ العميدِ ، ولمَّا عوتِبَ في ذلِكَ . . قالَ : هُنَّ بناتي أُزَوِّجُهنَّ علىٰ من شئتُ .

صور من الهجاء لمن لم يشكر النعم

وكانَ عيسىٰ بنُ فرخانَ يتيهُ علىٰ أبي العيناءِ في أيّامِ وزارتِهِ ، فلمَّا صُرِفَ عَنها . . لقي أبا العيناءِ في بعضِ السِّكَكِ ، فسَلَّمَ عليهِ سلاماً خفيفاً ، فقالَ لقائِدِهِ : مَنْ هَـٰذَا ؟ قالَ : أَبُو موسىٰ ، فدَنا منهُ حَتَّىٰ أَخذَ بعِنانِ بغلتِهِ ، وقالَ : لقد كنتُ أَقنَعُ بإِيمائِكِ دونَ بناتِكَ ، وبلحظِكَ دُونَ لفظِكَ ، فٱلحَمدُ للهِ علىٰ ما آلتْ إِليهِ حالُكَ ، فلئِنْ أَخطأَتْ فيكَ النعمةُ . . فلقد أَصابَتْ فيكَ النِّقْمَةُ ، ولئِنْ كانَتْ ٱلدُّنيا أَبدتْ صفحاتِها بٱلإقبالِ عليكَ . . لقدْ أَظهرَتْ محاسِنَها بالإدبارِ عنكَ ، وللهِ ٱلمنَّةُ إِذ أَغنانا عَنِ ٱلكَذِبِ عليكَ ، ونزَّهَنا عَنْ قولِ ٱلزُّورِ فيكَ ، وقد ـ واللهِ ـ أَسأْتَ حملَ ٱلنِّعمَةِ ، وما شكَرتَ حقَّ ٱلمنعِمِ ، ثُمَّ أَطلَقَ يدَهُ من عنَانِهِ ، ورجعَ إِلىٰ مكانِهِ ، فقيلَ لَهُ : يا أَبا عبدِ اللهِ ، لقد بالغتَ في ٱلسَّبِّ ، فَما كانَ ٱلذّنبُ ؟ قالَ : سأَلتُهُ حاجَةً أَقلَّ مِن قيمتِهِ . . فردَّني عَنها بقولٍ أَقبحَ مِن خِلْقَتِهِ .

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٢] : أَنَّ ربيعةَ الرقيَّ ٱمتدَحَ يزيدَ بنَ أُسيدٍ السلميَّ ، فقصَّرَ يزيدُ في حقِّهِ ، ثُمَّ ٱمتدحَ يزيدَ بنَ حاتِمِ بنِ قبيصةَ المهلَّبِيَّ ، فلم يلتفتْ إِليهِ ، فقالَ [في « شعرِهِ » ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَانِـي ـ وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ ـ رَاجِعـاً بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ٱبْنِ حَاتِمِ[1]

---

(١) حُنينٌ : ٱسمُ رجلٍ . وهذا مَثَلٌ أَصلُهُ : كما ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٥٧) : أَنَّ حنيناً كانَ مِن أَهلِ (دَوْمةِ الكوفةِ) فَدَعاهُ قومٌ إِلىٰ الصحراءِ ليغنِّيَهم ، فمضىٰ مَعَهم ، فلمَّا سَكِرَ . . سلبوهُ ثيابَهُ ، وتركوهُ عُرياناً في خُفَّيهِ ،=

فعادَ فعطفَ عليهِ وأَرضاهُ ، وبالغَ في الإحسانِ إليهِ ، فقالَ يمدحُ يزيدَ بنَ حاتِمٍ ، ويَذُمُّ يَزيدَ بنَ أُسيدٍ [في « شعره » ٩٧ـ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِيْ ٱلنَّدَىٰ   يَزِيْدَ سُلَيْمٍ وَٱلأَغَرِّ ٱبْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَىٰ ٱلأَزْدِيِّ تَفْرِيْقُ مَالِهِ   وَهَمُّ ٱلْفَتَىٰ ٱلْقَيْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ   وَلَكِنَّنِيْ فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ[1]

ويزيدُ ٱبنُ حاتِمٍ هَـٰذَا هُوَ جَدُّ الوزيرِ أَبي محمدٍ المهلَّبيِّ المشهورِ .

وشبيهٌ بهَـٰذَا الحديثِ [كما في « شذرات الذهب » ٢/ ٣١٢] : أَنَّ ٱبنَ عِنِّينَ الدمشقِيَّ قَدِمَ (ٱلْيَمَنَ) عَلَىٰ الملكِ العزيزِ طغتكينَ بنِ أَيُّوبَ وٱمتدَحَهُ بغُرَرِ القصائِدِ ، فأَجزَلَ صلَتَهُ ، وأَكسبَهُ أَموالاً طائِلَةً ، فلمَّا وصلَ الديارَ المصريَّةَ ـ وسلطانُها يومَئِذٍ ٱبنُ أَخيهِ العزيزُ عثمانُ بنُ صلاحِ الدينِ بنِ أَيُّوبَ ـ أَلزمَهُ أَربابُ دِيوانِ الزكاةِ بدفعِ صدقَةِ التجارَةِ عَنْها ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّىٰ بِٱلْعَزِيْزِ لَهَا   أَهْلٌ ، وَلاَ كُلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ[2]
بَيْنَ ٱلْعَزِيْزَيْنِ بَوْنٌ فِيْ فِعَالِهِمِ   هَـٰذَاكَ يُعْطِيْ ، وَهَـٰذَا يَأْخُذُ ٱلصَّدَقَهْ

وذكرَ غيرُ واحدٍ [منهم الأصفهاني في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٤] : أَنَّ ربيعةَ الرقيَّ ـ الآنِفَ الذِّكْرِ ـ ٱمتدحَ العبَّاسَ بنَ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ

= رجعَ إلىٰ أَهلِهِ ، وأَبصروهُ بتلكَ الحالَةِ . . قالوا : جاءَ حنينٌ بخُفَّيهِ . فغدَتْ مثلاً لكُلِ إنسانٍ خائبٍ وخاسِرٍ .

(١) التمتامُ : إشارةٌ إلى تمتمةٍ كانت في لسانِ يزيدَ بن أُسيدٍ .

(٢) غَدِقَةٌ : مُمطِرَةٌ .

عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ بقولِهِ [في « شعرِهِ » ٨٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ قِيْلَ لِلْعَبَّاسِ : يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ ... قُلْ : لاَ وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
مَا إِنْ أَعُدُّ مِنَ ٱلْمَكَارِمِ خَصْلَةً ... إِلاَّ وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَهَا
وَإِذَا ٱلْمُلُوْكُ تَسَايَرَتْ فِيْ بَلْدَةٍ ... كَانُوْا كَوَاكِبَهَا وَكُنْتَ هِلاَلَهَا
إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مَعْقُوْلَةً ... حَتَّىٰ حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

فلمْ يُرضِهِ ، فقالَ [في « شعرِهِ » ٦٧ مِنَ الوافرِ] :

هَزَزْتُكَ هِزَّةَ ٱلسَّيْفِ ٱلْمُحَلَّىٰ ... فَلَمَّا أَنْ ضَرَبْتُ بِكَ ٱنْثَنَيْتُ
فَهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضَيَاعاً ... كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيْهَا وَٱفْتَرَيْتُ
فَأَنْتَ ٱلْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ ... كَأَنِّيْ إِذْ مَدَحْتُكَ قَدْ زَنَيْتُ

فرفعَهُ إلىٰ الرشيدِ ـ وكانَ أثيراً[١] عندَهُ ، وقد همَّ أنْ يخطُبَ إليهِ ٱبنتَهُ ـ فأَحضرَ ربيعةَ ، وقالَ : يا ماصَّ بَظْرِ أُمِّهِ ، تَهْجو عَمِّي ؟ قالَ : لقد مدحتُهُ بشعرٍ ما قيلَ مثلُهُ في الخُلَفاءِ ، وأنشدَهُ لَهُ ، فٱستجادَهُ ، وقالَ لِلْعَبَّاسِ : كَمْ أثبتَهُ ؟ فواللهِ ما قيلَ في أحدٍ مثلُهُ ، فسكَتَ العبَّاسُ وغصَّ بِرِيْقِهِ ، فقالَ ربيعةُ : أثابني عليهِ بدينارَينِ ، قالَ الرشيدُ : بِحَياتي لا تكذبْ ، فقالَ : وحياتِكَ لا أكثرَ مِنْهُما ، فغضِبَ الرشيدُ أشَدَّ الغضَبِ علىٰ العبَّاسِ ، وأَوجعَهُ تأنيباً ، ثُمَّ ٱشترىٰ عرضَهُ مِنْ ربيعةَ بثلاثينَ ألفَ درهمٍ ، وخلعَهُ ، وحملَهُ على بغلَةٍ ، ورجَعَ عمَّا كانَ همَّ بهِ مِنَ ٱلْخِطْبَةِ إليهِ .

وفي العبَّاسِ هَـٰذا يقولُ بشَّارٌ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٢٧ـ١٢٨ مِنَ البسيطِ] :

ظَلَّ ٱلْيَسَارُ عَلَىٰ ٱلْعَبَّاسِ مَمْدُوْدُ ... وَقَلْبُهُ أَبَداً بِالْبُخْلِ مَعْقُوْدُ

---

(١) الأثيرُ : التابعُ ، وفلانٌ أثيري : أي مِنْ خُلَصائي .

إِنَّ ٱلْكَرِيْمَ لَيُخْفِيْ عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّىٰ تَرَاهُ غَنِيّاً وَهْوَ مَجْهُوْدُ
وَلِلْبَخِيْلِ عَلَىٰ أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرْقُ ٱلْعُيُوْنِ عَلَيْهَا أَوْجُهٌ سُوْدُ[1]
إِذَا تَكَرَّمْتَ عَنْ بَذْلِ ٱلْقَلِيْلِ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ ٱلْجُوْدُ
أَوْرِقْ بِخَيْرٍ تُرَجَّىٰ لِلنَّوَالِ فَمَا تُرْجَىٰ ٱلثِّمَارُ إِذَا لَمْ يُوْرِقِ ٱلْعُوْدُ

وقد أَلَمَّ في الأَخيرِ بقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ** »[2] .

عبث ربيعة الرقي بالعباس بن محمد في حضرة الرشيد

وفي حِفْظي عَنْ بَعْضِ ٱلْكُتُبِ [كما في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٤] : أَنَّ ربيعَةَ الرَّقِّيَّ مَا زالَ يعبثُ بالعبَّاسِ ـ ولم يكُن ذلِكَ إلاَّ عن رِضىٰ من الرشيدِ في باطن الأَمْرِ ، كَما هِيَ عادَةُ المُلوكِ ، وكما يُعرَفُ جليّاً مِنَ ٱلْقِصَّةِ الآتيةِ ، فلقد جاءَ العبَّاسُ بغاليَةٍ أَهْداها للرشيدِ[3] ، وطفِقَ يُطْنِبُ في وصفِها ، فٱعترضَهُ ربيعَةُ وقالَ : تصِفُها بحضرَةِ أَميرِ المُؤْمِنينَ ، الذي تُجبىٰ لهُ نَفائِسُ الدنيا مِن شرقِها إلىٰ غربِها ، وما قَدْرُ غاليتِكَ هَـٰذِهِ عندَها ؟ ثُمَّ ٱلتفتَ إلىٰ الرَّشيدِ وقالَ : بحياتِكَ إلاَّ ما جَعَلْتَها لي بِنَصيبي مِنَ ٱلْعَطاءِ إلىٰ سَنةٍ ، فقالَ : خُذْها ، فدَهَنَ إِبْطَيْهِ وَٱسْتَهُ ومَذاكيرَهُ ، ثُمَّ ٱسْتأذَنَ لغلامِهِ فدخَلَ ، فقالَ لَهُ : ٱذهَبْ إلىٰ فلانَةَ ، وقُلْ لَها : ٱدْهَني بما بقِيَ في الحُقِّ ٱستَكِ وإِبْطَكِ وسائِرَ بدنِكِ ، فلآتِيَنَّكِ الساعَةَ ، فضحِكَ الرشيدُ حَتَّىٰ ٱستلقىٰ .

---

(١) خَصَّ العيونَ الزرقاءَ بالذِّكرِ هنا ؛ لأَنَّها ممَّا تكرهُهُ العربُ وتتشاءَمُ بهِ ، ولأَنَّ صاحبَها يكونُ مليئاً بالأَضغانِ .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٥٠) .

(٣) الغاليةُ : وِعَاءٌ يوضعُ فيهِ الطِّيبُ ، وأَوَّلُ مَن سمَّاها بذلكَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ .

وما كانَ ربيعَةُ ليفعَلَ هَـٰذَا . . إلاَّ عَن إشارَةٍ مِنَ ٱلرَّشيدِ ، أو عنْ عِلمٍ بطبيعتِهِ ومواقعِ رضاهُ ، ولا يُنكرُ هَـٰذَا معَ ركانَةِ الرشيدِ ، فإنَّ طِباعَ الملوكِ أَشبَهُ بطِباعِ الصبيانِ ، وكثيراً ما تركَبُ الصعْبَ والذَّلولَ في سبيلِ شهواتِ الانتقامِ ، وقد تعذَّرَ عليهِ ؛ لِمَكانِ قربِ العبَّاسِ منهُ ، وٱحترامِهِ لهُ في الظاهِرِ ، إلاَّ مِنْ هَـٰذَا الطريقِ .

من أخبار العباس مع الرشيد

ومِنْ أَخبارِهِ مَعَ العبَّاسِ هَـٰذَا ـ ولا إخالُهُ إلاَّ قبلَ نفرَتِه عنْهُ ـ أَنَّهُ قالَ لَهُ [كما في « الأغاني » ١٨/٢٣٧] : لقد أَكثرَ الشعراءُ في الأَمينِ ، وأُحِبُّ أَنْ أَسمَعَ في المَأْمونِ ، فذكَرَ العبَّاسُ ذلكَ لأَشجَعَ ، فقالَ [في « شعرِهِ » ٢٣٨ مِنَ المديدِ] :

بَيْعَـةُ ٱلْمَـأْمُـوْنِ آخِـذَةٌ بِعِنَـانِ ٱلْحَـقِّ فِـيْ أُفُقِـهْ
لَـنْ يَفُـكَّ ٱلْمَـرْءُ رِبْقَتَهَـا أَوْ يَفُـكَّ ٱلـدِّيْـنَ مِـنْ عُنُقِـهْ
وَلَـهُ مِـنْ وَجْـهِ وَالِـدِهِ صُـوْرَةٌ تَمَّـتْ وَمِـنْ خُلُقِـهْ

فَأتىٰ بها العبَّاسُ إلىٰ الرشيدِ ، فٱستحسنَهَا ، وقالَ : لِمَنْ ؟ قالَ : هِيَ لي ، قالَ : الآنَ سرَّتْني مِنْ جِهتَينِ ؛ لإصابَتِها ما في نَفْسي ، ولأَنَّها لكَ ، وأَعْطَاهُ ثلاثينَ أَلفَ دينارٍ ، فٱحتَقَبَها ولَمْ يُعْطِ أَشْجَعَ مِنْها إلاَّ خمسَةَ آلافٍ ، علىٰ أَنَّ الخَمسةَ كثيرٌ بالنسبَةِ إلىٰ ما سبقَ مِن لؤمِهِ .

حبس أمير المؤمنين ابن الخطاب للحطيئة

و[روى الأصفهاني في « الأغاني » ٢/١٧٨ أنه] : لَمَّا أَكثرَ الحُطَيئَةُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ، وٱستعدىٰ عليهِ الزِّبْرِقَانُ ابنَ الخطَّابِ رضي الله عنه . . حَبَسَهُ ، فكتَبَ إليهِ مِنَ ٱلسِّجْنِ [في « ديوانهِ » ١٩١ مِنَ البسيطِ] :

مَاذَا تَقُوْلُ لأَفْرَاخٍ بِذِيْ مَرَخٍ حُمْرِ ٱلْحَوَاصِلِ لاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ

أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِيْ قَعْرِ مُظْلِمَةٍ   فَامْنُنْ عَلَيْهِمْ هَدَاكَ ٱللهُ يَا عُمَرُ

فأَطلقَهُ ، وشرطَ عليهِ أَنْ يكُفَّ لسانَهُ عَنِ ٱلنَّاسِ ، فتقدَّمَ إِلىٰ عمرَ بالأَبياتِ التي سبقَ بعضُها في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ ومِنْهَا قولُهُ [في « ديوانهِ » ٢٧٧ مِنَ الكاملِ] :

أَشْكُوْ إِلَيْكَ بَلِيَّتِيْ مِنْ صِبْيَةٍ   لاَ يَشْبَعُوْنَ وَأُمُّهُمْ لاَ تَشْبَعُ

وَبُعِثْتَ لِلشُّعَرَاءِ مَبْعَثَ دَاحِسٍ   أَوْ كَالْبَسُوْسِ بِرُدْعِهَا تَتَكَوَّعُ

يقولُ لَهُ : لقد كُنتَ شُؤماً علىٰ الشعراءِ كشُؤْمِ داحسٍ علىٰ عبْسٍ وذبيانَ ، وكشؤْمِ البَسوسِ علىٰ بني وائِلٍ .

ذهاب الحطيئة إلى علقمة بن علاثة بعد خروجه من السجن وإذا به قد مات!!

وبِعَقِبِ مراجعاتٍ طويلَةٍ كتبَ لَهُ إِلىٰ علقمَةَ بنِ علاثَةَ ، فصادفَهُ قد ماتَ والناسُ منصرفونَ من قبرِهِ ، وٱبنُهُ حاضِرٌ ، فأَنشدَ قصيدَتَهُ اللاَّميَّةَ المشهورَةَ ، التي يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٣٥ـ٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱلْقَائِلِ ٱلْفَعَّالِ عَلْقَمَةَ ٱلنَّدَىٰ   رَحَلْتُ قَلُوْصِيْ تَجْتَوِيْهَا ٱلْمَنَاهِلُ

يَدَاهُ خَلِيْجُ ٱلْبَحْرِ إِحْدَاهُمَا دَماً   تَفِيْضُ وَأُخْرَىٰ بَحْرُ جُوْدٍ وَنَائِلُ

فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلُلْ حَيَاتِيْ وَإِنْ تَمُتْ   فَمَا فِيْ حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ

وَمَا كَانَ بَيْنِيْ لَوْ لَقِيْتُكَ سَالِماً   وَبَيْنَ ٱلْغِنَىٰ إِلاَّ لَيَالٍ قَلاَئِلُ

فقالَ ٱبنهُ : كم تظنُّ أَبي يعطيكَ لو وجدْتَهُ حيّاً ؟ فقالَ : مئَةَ ناقَةٍ يتبعُها أَولادُها ، فقالَ لَهُ : هِيَ لَكَ[1] .

ويروىٰ : أَنَّ علقمَةَ كانَ أَوصىٰ لَهُ بمثْلِ نصيبِ أَحدِ أَولادهِ .

---

(١) « الأغاني » (١٦/٣١٨) ، وكنا قد ذكرنا هذه القصة في حاشية غير هذا المجلس برواية تقرب من هذه فليتنبه .

جود الأبناء

قالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٩١] : ومثْلُ قصَّةِ الحُطَيئَةِ معَ ٱبنِ علقَمَةَ ، أَنَّ ٱبْنَ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ شراحيلَ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، فقالَ لَهُ [مِنَ البسيطِ] :

أَيَا شُرَاحِيْلُ بنَ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةٍ يَا أَكْرَمَ ٱلنَّاسِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ

أَعْطَىٰ أَبُوْكَ أَبِيْ مَالاً فَعَاشَ بِهِ فَأَعْطِنِيْ مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ أَبُوْكَ أَبِيْ

مَا حَلَّ قَطُّ أَبِيْ أَرْضاً أَبُوْكَ بِهَا إِلاَّ وَأَعْطَاهُ قِنْطَاراً مِنَ ٱلذَّهَبِ

فأَعطاهُ شراحيلُ بنُ معنٍ قنطاراً مِنَ ٱلذهَبِ .

هـذا الشبل مـن ذاك الأسد

وإنِّي لأَتعجَّبُ مِنَ ٱلقاضي إِذْ نَسِيَ أَنْ يُشيرَ إِلىٰ قصَّةِ ٱبنِ حَيُّوسٍ ـ مَعَ أَنِّي لَمْ أَعرِفْها إلاَّ مِنْهُ ـ وحاصِلُها [كما في « وفيات الأعيان » ٤/٤٣٩] : أَنَّ ٱبنَ حَيُّوسٍ هَـٰذَا ٱمتدَحَ الأَميرَ محمودَ بنَ نصرِ بنِ صالحِ بنِ مرداسٍ الكِلابيَّ صاحِبَ (حلبٍ) ، ثُمَّ ٱمتدَحَ ٱبنَهُ نصراً بعدَهُ بقصيدَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانه » ١/٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَبَاعَدْتُ عَنْكُمْ حِرْفَةً لاَ زَهَادَةً وَجِئْتُ إِلَيْكُمْ حِيْنَ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ

فَلاَقَيْتُ ظِلَّ ٱلأَمْنِ مَا عَنْهُ حَاجِزٌ يَصُدُّ وَبَابَ ٱلْعِزِّ مَا دُوْنَهُ سِتْرُ

وَطَالَ مُقَامِيْ فِيْ إِسَارِ جَمِيْلِكُمْ فَدَامَتْ مَعَالِيْكُمْ وَدَامَ لِيَ ٱلأَسْرُ

وَجَادَ ٱبْنُ نَصْرٍ لِيْ بِأَلْفٍ تَصَرَّمَتْ وَإِنِّـيْ عَلِيْـمٌ أَنْ سَيُخْلِفُهَـا نَصْـرُ

فقالَ : أَمَا واللهِ ، لَو قالَ : سيُضْعِفُها نَصْرُ . . لأَضْعَفْتُهَا لَهُ ، وأَعطاهُ أَلفَ دينارٍ في طبقٍ مِن فِضَّةٍ ، وكانَ ٱجتمعَ علىٰ بابِ نصرٍ جماعةٌ مِنَ ٱلشعَراءِ ، فتَأَخَّرَتْ جوائِزُهُم ، فٱتَّفقُوا علىٰ تقديمِ ورَقَةٍ إِليهِ كتَبوا فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ بَابِكَ ٱلْمَحْرُوْسِ مِنَّا عِصَابَةٌ مَفَالِيْسُ فَٱنْظُرْ فِيْ أُمُوْرِ ٱلْمَفَالِيْسِ
وَقَدْ قَنِعَتْ مِنكَ ٱلْجَمَاعَةُ كُلُّهَا بِعُشْرِ الَّذِي أَطْلَقْتَهُ لابْنِ حَيُّوْسِ
وَمَا بَيْنَنَا هَـٰذَا ٱلتَّفَاوُتُ كُلُّـهُ وَلَـٰكِنْ سَعِيْدٌ لاَ يُقَاسُ بِمَنْحُوْسِ

فلَمَّا وقفَ عليها الأَميرُ نَصْرٌ. . أَطلقَ لَهُم مِئَةَ دينارٍ ، وقالَ : واللهِ لَو قالوا : بمِثْلِ الَّذي أَطلقْتَه لابْنِ حَيُّوسٍ. . لأَعطيتُهم مثلَهُ .

كرم سيف الدولة

أَمَّا سيفُ الدولةِ بنُ حمدانَ : فقد زادَ علىٰ ما صنعَ هـٰؤلاءِ إذ [روى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٣/ ٤٠٤ أنه] : دخلَ عليهِ القاضي أبو نَصرٍ محمَّدُ بنُ محمَّدٍ النيسابوريُّ فطرحَ مِن كُمِّهِ كِيساً فارغاً ، وأَنشدَ قصيدَةً يقولُ مِنْها [مِنَ الطَّويلِ] :

حِبَـاؤُكَ مُعْتَـادٌ وَأَمْـرُكَ نَـافِـذٌ وَعَبْدُكَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ أَلْفِ دِرْهَمِ

فضحِـكَ سيفُ الـدولَـةِ حَتَّىٰ ٱستغـرَبَ[1] ، وأَمرَ لَـه بـأَلـفِ دينارٍ[2] ، جُعِلَتْ في الكيسِ .

وإِقرارُ القاضي بالعبوديَّةِ لسيفِ الدولَةِ أَكبرُ ممَّا كانَ يتعاظَمُ أَبو حيَّانَ [كما في « طبقات ابن السبكي » ٥/ ٢٠٩] مِن قولِ إِمامِ الحرمَينِ في خُطْبَةِ بَعْضِ كُتُبِهِ يخاطِبُ نظامَ المُلْكِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا إِلاَّ دَوْحَةٌ قَدْ غَرَسْتَهَا وَسَقَّيْتَهَا حَتَّىٰ تَمَادَىٰ بِهَا ٱلْمَدَىٰ
فَلَمَّا ٱقْشَعَرَّ ٱلْعُوْدُ مِنْهَا وَصَوَّحَتْ أَتَتْكَ بِأَغْصَانٍ لَهَا تَطْلُبُ ٱلنَّدَىٰ[3]

---

(١) ٱستغربَ : سالَ دمعُهُ .
(٢) لكن في « وفيات الأعيان » : ألف درهم .
(٣) صوَّحَتْ : يبِسَتْ أَغصانُها .

وقد كانَ أَبو حيَّانَ يقولُ : كيفَ يرضىٰ الإمامُ أَنْ يخاطِبَ النظامَ بهـٰذَا الخطابِ ؟ ثُمَّ يذُمُّ الدنيا التي تحوِجُ مِثْلَ الإمامِ إِلىٰ ذلِكَ .

ومَرَّ ما يناسِبُ هـٰذَا ـ مَعَ الإحالَةِ علَىٰ ما هُنَا ـ في المجلسِ الخامسِ في الكلامِ علَىٰ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

كَصِفَاتِ مَوْلاَنَا أَبِيْ ٱلْفَضْلِ ٱلَّتِيْ بَهَرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ وَأَفْحَمَا

* * *

المجلس الحادي عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

تَمَثَّلُوْا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوْا	لَكُنْتَ فِيْ ٱلْجُوْدِ غَايَةَ ٱلْمَثَلِ

شرح المطلع

يقولُ : إِنَّ النَّاسَ يضربونَ المثلَ في الجودِ بحاتِمٍ ، ولَو عقلوا . . لتمثَّلوا بكَ ؛ لأَنَّكَ أَكرمُ وأَجودُ منهُ ، أَو لأَنَّه غائِبٌ وأَنتَ حاضِرٌ ، فيكونُ حينئِذٍ كقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ	فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

لو سبقت حاتماً بيوم لما ذكره الناس!!

ويروىٰ [في « المستطرف » ١/ ٣٥٠] : أَنَّ رجلاً مِن الأَنصارِ جاءَ إِلىٰ عبيدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهُما ـ فقالَ لهُ : يا ٱبنَ عمِّ الرسولِ ، وُلِدَ لي في هـٰذه الليلةِ مولودٌ ، سمَّيتُهُ بٱسمِكَ تيمُّناً بكَ ، وإِنَّ أُمَّهُ ماتَتْ ، فقالَ لَهُ : باركَ الله لكَ في الهبَةِ ، وآجرَكَ في المصيبَةِ ، ثمَّ دَعا بوكيلِهِ وقالَ لَهُ : ٱنطلِقِ الساعَةَ فٱشترِ للمولودِ جاريَةً تحضنُهُ ، وٱدفعْ لأَبيهِ مِئتَي دينارٍ ليُنفِقَها علىٰ تربيتِهِ ، وقالَ للأَنصاريِّ : عُدْ إِلينا بعد أَيَّامٍ ، فقد جِئتَنا وفي العيشِ يَبَسٌ ، وفي المالِ قلَّةٌ ، فقالَ الأَنصاريُّ : جُعِلْتُ فِداكَ ، أَما واللهِ لَو سبقْتَ حاتِماً بيومٍ . . لَمَا ذكرتهُ العربُ .

وكَم مِن كريمٍ ينحرُ البُدْنَ النضارَ[1] لِمَنِ ٱستجداهُ ، غير أَنَّ

---

(١) المعنىٰ : كَم مِن كريمٍ يُعطي ٱلخيرَ ٱلكثيرَ ، ويذبَحُ الشِّياهَ وٱلبُدنَ لِمَن يأْتيهِ =

الوُجدَ يُعدي على الجودِ ، وكانَ حاتِمٌ يُعطي المجهودَ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] . وفي الحديثِ : « دِرْهَمٌ سَبَقَ أَلْفَ دِرْهَمٍ »(١) .

وممَّا يروى عن أَبي ذرٍّ مرفوعاً : « إِنَّ أَفْضَلَ ٱلصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، يَمْشِيْ بِهِ إِلَىٰ فَقِيْرٍ »(٢) .

صُورٌ من أخبار الكرماء

ووقفَ أَعرابيٌّ على محمَّدِ بنِ معْمَرٍ ، وكانَ سخيّاً ، فسأَلَهُ ، فنزعَ لَهُ خاتَمَهُ ، وقالَ : لا تُخدَعْ عن فَصِّهِ ؛ فقد قامَ بمئَةِ دينارٍ ، فقلعَهُ وقالَ : دونكَهُ ، فإِنَ الفضَّةَ تكفيني لحاجَتي ، فقالَ ابنُ مَعْمَرٍ : هٰذا أكرمُ منِّي .

وسُئِلَ حاتِمٌ وقيلَ لَهُ : هلْ غلبَكَ أَحدٌ في الكرم ؟ قالَ : لا ، إِلاَّ غلامٌ يتيمٌ نزلْتُ بفنائِهِ ، فذبحَ لي رأْسَ غنَمٍ ، وكانَ لا يملِكُ إِلاَّ عَشَرَةً ، فلمَّا رآني استطيَبْتُ دِماغَهُ . . ذَبَحَها بأَسْرِها ، وقدَّمَ إِليَّ أَدْمِغَتَها ، ولمَّا عاتَبْتُهُ . . قالَ : سبحانَ اللهِ! تستطيبُ شيئاً أَقدِرُ عليهِ فأَبخَلُ بهِ ، إِنَّ ذلكَ لسبَّةٌ . قيلَ لَهُ : فما الذي عوَّضْتَهُ ؟ قالَ : ثلاث

= طالباً ، ولكنْ مَعَ هذا لا يسلَمُ لَهُ الجود ؛ لأَنَّهُ ليسَ عينُ الكرمِ أَنْ تدفعَ وأَنتَ غنيٌّ ، بلِ الكرَمُ - كُلُّ الكرَمِ - أَنْ تدفعَ وأَنتَ لا تملِكُ إِلاَّ النَّزْرَ اليَسيرَ ، ولأَنَّ السَّعَةَ والخيرَ مِن شأْنِهِ أَنْ يجعَلَ - في بعضِ الأَحيانِ - مِنَ البخيلِ كَريماً .

(١) أخرج نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه النسائي (٥/ ٥٩) في الزكاة ، وابن خزيمة (٢٤٤٣) ، وابن حبان في « الإحسان » (٣٣٤٧) بلفظ : « سبق درهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ . . . » بإسناد صحيح من طريقين .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (٥/ ١٧٨ و١٧٩) وفيه : « جهد من مقل أو سرٌّ إلى فقير » وإسنادهما ضعيف .

مئةِ ناقةٍ ، وخمسَ مئةِ رأسٍ مِنَ الغَنَمِ ، فقيلَ لَهُ : أَنْتَ أكرمُ منهُ إذاً ، قالَ : هَيهَاتَ! جادَ بكلِّ ما يملِكُ ، ولَم أَجُدْ إلاَّ بقليلٍ مِن كثيرٍ .
غيرَ أنَّه لا يُسَلَّمُ الكرَمُ لِلْغلامِ إلاَّ إنْ فعلَ ذلكَ معَ عدَمِ المعرفةِ بحاتِمٍ ، وإلاَّ كانَ فعلُهُ متاجرَةً .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَىٰ أَمْ تَسَاخِيَا

ويُروىٰ [كما في « الأغاني » ٢/ ١٦٠] : أَنَّ الحُطيئَةَ ٱنحدرَ علىٰ عتيبةَ بنِ النهَّاسِ العجليِّ ـ وكانَ مُثْرِياً من وجوهِ بكرِ بنِ وائلٍ ـ فدخلَ عليهِ الحُطيئَةُ في عباءَةٍ ، وقالَ : أَعطِني ، فٱعتذَرَ بكثرَةِ الحقوقِ ، ولَم يعرفْهُ ، ولَمَّا خرَجَ . . قالَ لَهُ بعضُ أَصحابِهِ : لقد عرَّضْتَنا للشرِّ بِجَفَائِكَ لِلْحُطَيئَةِ ، فقالَ : أَهُوَ هُوَ ؟ قالوا : نعَم ، فردَّهُ وٱعتذَرَ إليهِ ، وقالَ لهُ : ليسَ عِندَنا إلاَّ ما يسرُّكَ ، فأَنتَ أَشعرُ العرَبِ ، قالَ : كلاَّ ، ولـٰكِنَّ أَشعرَهم الذي يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

حبيبي!! فات الأوان

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُوْنِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

فقالَ عتيبةُ : أَمَا إنَّها لأَولُ أَفاعيكَ[1] ، ثمَّ أَكرمهُ ، وقالَ لهُ : ٱشترِ ما شِئْتَ وعليَّ ثمنُهُ ، وبعثَ معَهُ خادمَهُ ، فٱشترىٰ ما أَرادَ مِنَ السُّوقِ ثمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

سُئِلْتَ فَلَمْ تَبْخَلْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلاً فَسِيَّانِ ، لاَ ذَمٌّ عَلَيْكَ وَلاَ حَمْدُ
وَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ مَا ٱلْجُوْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ وَلَـٰكِنَّهُ يُعْدِي عَلَى ٱلنَّائِلِ ٱلْوُجْدُ

---

(١) أي : حيلك .

فأَخذَهُ أَبو بكرِ الخوارزميُّ وقالَ في الصاحب بنِ عبَّادٍ [في « ديوانهِ » ٤٠٩-٤١٠ مِنَ البسيطِ] :

لاَ تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ كَفَّاهُ بِٱلْجُوْدِ سَحّاً يُشْبِهُ ٱلدِّيَمَا
فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطِي وَيَمْنَعُ لاَ بُخْلاً وَلاَ كَرَمَا

فأَمهلَهُ الصاحبُ حتَّىٰ مات . . فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِرَكْبٍ مِنْ خُرَاسَانَ مُقْبِلٍ أَمَاتَ خَوَارِزْمِيُّكُمْ ؟ قِيْلَ لِيْ : نَعَمْ
فَقُلْتُ : ٱكْتُبُوْا بِٱلْجِصِّ مِنْ فَوْقِ قَبْرِهِ أَلاَ لَعَنَ ٱلرَّحْمٰنُ مَنْ يَكْفُرُ ٱلنِّعَمْ

وكانَ ٱبنُ العميدِ وَصلَ الناظمَ عِندَما وردَ عليهِ بثلاثةِ آلافِ دينارٍ ، وثلاثةِ أَفراسٍ مُسرَجَةٍ محلاَّةٍ ، وثيابٍ فاخرَةٍ ، ودَسَّ مَن يسأَلُهُ عَنْهُ وعَن سيفِ الدولةِ ، فقالَ : هٰذا أَجزَلُ عطاءً إِلاَّ أَنَّهُ متكلِّفٌ ، وسيفُ الدولةِ يُعْطِي طبعاً ، فٱحتقدَها عليهِ ، وسعىٰ في قتلِهِ .

وبعدَ هٰذا كلِّهِ فَلا إِسرافَ في مَضْرِبِ المثَلِ بجودِ حاتِمٍ .

بعض عجائب حاتم

وقد قيلَ لماويَّةَ [كما في « الأغاني » ١٧/ ٣٩٠] : حدِّثينا ببعضِ عجائِبِ حاتِمٍ ، فقالَتْ : أَعجبُ ما رأَيتُ منهُ أَنَّها أَصابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ ، أَذهبَتِ ٱلخُفَّ وٱلحافِرَ ، وأَخذَني وإِيَّاهُ ٱلجوعُ ، وعَلَّلْنا ٱلعيالَ حتَّىٰ ناموا علىٰ ما بِهِم ، فَبَينا نحنُ كذلكَ . . إِذا بٱمرأَةٍ تقولُ : يا أَبا عديٍّ . . جِئتُكَ عَن صِبيَةٍ يَتَعاوَوْنَ مِثلَ ٱلكلابِ جوعاً ، فقالَ لَها : أَحضِريهم ، فرفعْتُ إِليهِ رَأْسي ، وقلتُ لَهُ : مِن أَينَ لكَ إِشباعُهُم ، وما نامَ أَولادُكَ إِلاَّ بالتَّعليلِ ؟! فلمَّا جاءَتِ ٱلمرأَةُ بأَولادِها . . عَمَدَ إِلىٰ فرسِهِ فذَبَحَها ، ثمَّ نبَّهَ أَولادَهُ ، وسارَ في ٱلحيِّ بيتاً بيتاً

يدعوهُم ، وتقنَّعَ بكسائِهِ ، وجلسَ ناحيةً ، فوٱللهِ ما أَصبحوا وعلىٰ ظَهْرِ ٱلأَرضِ غيرُ ٱلعِظامِ ، ولا وٱللهِ ما ذاقَ شيئاً مِنها ، وإِنَّهُ لأَشدُّهم جوعاً .

الشهامة والجود العربي

ونظيرُ هٰذهِ ٱلقصَّةِ : ما أَخبرني بهِ السَّيِّدُ عبدُ ٱللهِ بنُ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ طاهرٍ : أَنَّ إِسماعيلَ باشا ـ خَدِيْويَّ (مِصرَ) ـ سمعَ بفَرسٍ معَ بعضِ ٱلعَربِ بـ(نجدٍ) ، وكانَ محِبّاً للخيلِ ، فأَرسلَ وفداً لِشرائِها بِما بلغَتْ ، فنزَلَ وفدُهُ علىٰ ضيافَةِ ٱلعربيِّ صاحبِ ٱلفرسِ ، ورأَوا مِنَ اللَّباقَةِ أَنْ لا يفاتِحوهُ بشأْنِها إِلاَّ بعدَ ٱلاستئناسِ ، فأَمهلوهُ حتَّىٰ اللَّيلِ ، فسأَلوهُ عنها ؟ وأَخبروهُ بأَنَّ مجيئَهُم مِن أَجلِها ، ومَنَّوهُ فيها ما شاءَ ، فقالَ لَهُم : إِنَّها غيرُ موجودَةٍ ، فقالوا : لقد سأَلْنا عنها بعضَ عبيدِكُمْ ساعَةَ ما وصلنا ، فأَرونا إِيَّاها ، فَلا تُخفِها عنَّا ، وسَلْ ما تُريدُ ، فلمَّا أَلحُّوا عليهِ . . أَخبرَهُم بأَنَّهُ لَم يَجِدْ ما يذْبَحُهُ لَهُم غيرَها ، وأَنَّهُ ذبحَها لَهُم ، فَدَفعوا لَهُ كميَّةً وافرَةً مِنَ الدَّنانيرِ ، وأَكبَروا صنيعَهُ وعروبيَّتَهُ ، ثمَّ عَادوا أَدراجَهُم ، فصادَفوا ٱلخديويَّ قد خرجَ لاستقبالِهِم إِلىٰ (ٱلإِسكندريَّةِ) ، مِن حرصِهِ علىٰ ٱلفرَسِ ، ولمَّا بقَروا لَهُ ٱلحديثَ . . ٱرتاحَ مِن جهَةٍ ، بقدرِ ما ٱستاءَ مِنَ ٱلأُخرىٰ ، وٱستقلَّ ما دَفَعوا لَهُ ، وأَضعَفَهُ لَهُ .

هل يذبح الحطيئة ابنه للضيفان؟!

وما رأَيتُ في ٱلجودِ أَحسنَ ممَّا نظمَهُ ٱلحُطيئَةُ في قولِهِ [كما في « ديوانه » ٢٧١ـ٢٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَطَاوِيْ ثَلاَثٍ عَاصِبِ ٱلْبَطْنِ مُرْمِلٍ ... بِبَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا نَاظِرٌ رَسْمَا[1]

---

(١) الطاوي : الجائعُ . عاصبُ البطن : يشدُّ العصائبَ على بطنهِ تسكيناً للجوعِ . مرملٌ : الذي نفدَ زادهُ .

وَأَفْرَدَ فِيْ شِعْبٍ عَجُوزاً حِيَالَهَا ... ثَلاَثَةُ أَفْرَاخٍ تَخَالُهُمُ بُهْمَا[1]

حُفَاةً عُرَاةً مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ ... وَلاَ عَرَفُوْا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوْا طَعْمَا[2]

رَأَىٰ شَبَحاً وَسْطَ الظَّلاَمِ فَهَالَهُ ... فَلَمَّا بَدَا ضَيْفاً تَشَمَّرَ وَاهْتَمَّا

وَقَالَ: هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلاَ قِرَىٰ ... بِحَقِّكَ لاَ تَحْرِمْهُ تَاللَّيْلَةَ اللَّحْمَا

فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ: ... أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِيْ وَيَسِّرْ لَهُمْ طُعْمَا

وَلاَ تَعْتَذِرْ بِالْعُدْمِ عَلَّ الَّذِيْ طَرَا ... يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوْسِعُنَا شَتْمَا[3]

فَرَوَّىٰ قَلِيْلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً ... وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا

فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَىٰ الْبُعْدِ عَانَةٌ ... قَدِ انْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا[4]

عِطَاشاً تُرِيْدُ الْمَاءَ فَانْسَابَ نَحْوَهَا ... عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْهَا إِلَىٰ دَمِهَا أَظْمَا

فَلَبَّثَ حَتَّىٰ يَرْتَوِيْنَ عِطَاشُهَا ... وَفَوَّقَ فِيْهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا[5]

فَخَرَّتْ نَحُوْصٌ ذَاتُ جُحْشٍ سَمِيْنَةٌ ... قَدِ اكْتَنَزَتْ لَحْماً وَقَدْ طُبِّقَتْ شَحْمَا[6]

فَيَا بِشْرَهُ إِذْ قَدْ جَرَىٰ نَحْوَ قَوْمِهِ ... وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَىٰ

فَبَاتُوْا كِرَاماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ ... وَمَا غَرِمُوْا غُرْماً وَقَدْ غَنِمُوْا غُنْمَا

وَبَاتَ أَبُوْهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَباً ... لِضَيْفِهِمُ وَالأُمُّ مِنْ بِشْرِهَا أُمَّا

---

(١) البُهم - جمعُ بهمةٍ - : وهوَ ولدُ الضأنِ .

(٢) الملَّةُ : الرمادُ الحارُّ والجمرُ .

(٣) طرا : جاءَ طارئاً .

(٤) العانةُ : قطيعُ الأُتُنِ . المِسْحَلُ : حمارُ الوحشِ .

(٥) لبَّث : انتظر ، والرواية في « الديوان » : (فَأَمْهَلَهَا) بدل : (فَلَبَّثَ) .

(٦) النحوصُ : الأتانُ السمينةُ الفتيَّةُ . طبِّقت : امتلأتْ .

ايهم أشد كرماً عبد الله بن جعفر، أم قيس بن سعد بن عبادة، أم عرابة الأوسي؟

ويُحكىٰ [في «المستطرف» ١/٣٦٦] : أنَّهُ تمارىٰ ثلاثةُ نفرٍ في عبدِ ٱللهِ بنِ جعفرٍ ، وقيسِ بنِ سعدِ بنِ عُبادَةَ ، وعَرَابَةَ ٱلأَوسيِّ ، ثمَّ قَضَوا لعَرابَةَ بعدَ التَّجربةِ ؛ وذلكَ أَنَّ صاحبَهُ وجدَهُ خرجَ مِن منزلِهِ يريدُ الصَّلاةَ ، ومعهُ عبدانِ ، فقالَ : ٱبنُ سبيلٍ منقطعٌ بهِ ، فصفَّقَ بيديهِ ، وقالَ : أَوَّاهُ أَوَّاهُ ، ما أَصبحَ ولا أَمسىٰ اللَّيلةَ عندَ عَرَابةَ شيءٌ ، ولَمْ تترُكْ لَهُ ٱلحقوقُ غيرَ هَـٰذينِ ٱلعبدَينِ ، فخذْهُما ، فقالَ الرَّجلُ : وٱللهِ ما كنتُ بالَّذي يقصُّكَ جناحَيكَ ، فقالَ : إِنْ أَخذْتَهما . . وإلاَّ فهُما حُرَّانِ لوجْهِ ٱللهِ تعالىٰ ، فخُذ إِن شئْتَ ، أَو أَعتِقْ ، فأَخذَهُما ـ كما هوَ في حِفْظي مِن قديمٍ عَنْ « مجمَعِ الأحبابِ »[1] ـ والصَّحيحُ أَنَّ عَرَابَةَ لا يُداني عبدَ ٱللهِ بنَ جعفرٍ ، ولا يَسعىٰ بقدمِهِ ، ولا يَمتحُ بغربهِ[2] ، :وما شهرَهُ إلاَّ قولُ الشَّمَّاخِ فيهِ [كما في « ديوانه » ٣٣٥ـ٣٣٦ مِنَ الوافرِ] :

رَأَيْـتُ عَـرَابَـةَ ٱلأَوْسِـيَّ يَسْمُـوْ إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِيْنِ

إِذا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ تَلَقَّـاهَـا عَـرَابَـةُ بِـٱلْيَمِيْـنِ

وغايةُ ما أَثابهُ علىٰ ذلكَ وَسْقَ بعيرٍ تمراً ، في عامٍ شديدٍ ، فصارَ هـٰذا الشِّعرُ مثلاً سائِراً ، وأَثراً باقياً ، لا تبلىٰ جِدَّتُهُ ، ولا تتغيَّرُ

(١) «مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب» للشريف السيد محمد بن الحسن الواسطي (٧٧٦هـ) : هو كتاب أختصر فيه مصنفه «حلية الأولياء» ، وسلك في إختصاره مسلكاً وسطاً ، مع زيادة تراجم أئمة من «صفوة الصفوة» ، وكذلك تراجم رجال زاهدين ، وكذلك أرَّخ وترجم للدولتين (النورية والصلاحية) . وهو من منشورات دار المنهاج .

(٢) يمتحُ بغربه : ينزع بدلوه الكبيرة ، وفي الحديث عن رؤياه ﷺ لعمر : « ثم استحالت في يده غَرباً ، فلم أرَ عبقرياً يَفري فريَّه » .

محاسِنُهُ ، وقدَحَ في مروءَةِ ٱلشَّمَّاخِ ، وحطَّ في قدرِهِ ؛ لسقوطِ هِمَّتِهِ عن درجَةِ مثلِهِ ، وتبذُّلِهِ معَ صحبتِهِ لرسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ قالَ ٱبنُ دأبٍ [كما في « الأغاني » ٩/ ١٩٦] : عجباً للشَّمَّاخِ يمدحُ عَرَابةَ بهـٰذا الشِّعْرِ ، وبقولِهِ في القصيدَةِ ٱلأُخرىٰ [كما في « ديوانه » ٢٥٦ـ٢٥٧ مِنَ البسيطِ] :

أَشْكُـوْ إِلَيْـكَ عَـرَابُ ٱلْيَـوْمَ خَلَّتَنَـا ... يَا ذَا ٱلْعَلَاءِ وَيَا ذَا ٱلسُّؤْدَدِ ٱلْبَاقِيْ(١)
أَنْتَ ٱلأَمِيْرُ ٱلَّذِيْ تَحْنُوْ ٱلرُّؤُوْسُ لَهُ ... قَمَـاقِـمُ ٱلْقَـوْمِ مِـنْ بَـرٍّ وَآفَـاقِ(٢)
مِنْ بَيْتِ مَأْثَرَتَيْ عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ ... سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَٱبْنُ سَبَّاقِ
ضَخْـمُ ٱلـدَّسِيْعَـةِ مِتْـلَافٌ أَخُـو ثِقَـةٍ ... جَزْلُ ٱلْمَوَاهِبِ ذُوْ قِيْلٍ وَمِصْدَاقِ(٣)

ويقولُ لعبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ [في « الأغاني » ٩/ ١٩٦] :

إِنَّكَ يَا ٱبْنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ ٱلْفَتَىٰ ... وَنِعْـمَ مَـأْوَىٰ طَـارِقٍ إِذَا أَتَـىٰ
وَجَارُ ضَيْفٍ طَرَقَ ٱلْحَيَّ سُرَىٰ ... صَادَفَ زَاداً وَحَدِيْثاً مَا ٱشْتَهَىٰ

إِنَّ ٱلْحَـدِيْـثَ طَـرَفٌ مِـنَ ٱلْقِـرَىٰ

لَعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ كانَ أَحقَّ بذلكَ الشعرِ الجزْلِ مِن عَرابَةَ ، ثمَّ ذكرتُ أَنْ قد أَسلفتُ بعضَ هـٰذا في المجلسِ الثالثِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [« العُكبَريّ » ١/ ٣١٠ مِنَ المنسرحِ] :

قَدْ أَجْمَعَتْ هـٰذِهِ ٱلْخَلِيْقَةُ لِيْ ... أَنَّـكَ يَـا ٱبْـنَ ٱلنَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا

وأَنَّهُ سيُعادُ بعضُهُ قبيلَ الخاتِمَةِ ، فَلا مؤَاخَذَةَ .

---

(١) الخَلَّةُ : الحاجة والفقرُ .

(٢) القماقمُ : هو السيّدُ الكثير الخير الواسعُ الفضلِ .

(٣) ضخمُ الدسيعةِ : أي عظيمُ العطيّةِ . القِيلُ : الوعدُ بالخيرِ .

أجواد العرب في الإسلام عشرة:

وقالَ ٱبنُ عبدِ البَرِّ في « الاستيعَابِ » [٢/٢٦٧] : يقولونَ : إِنَّ أَجوادَ العربِ في الإِسلامِ عَشَرَةٌ :

فأَجوادُ أَهلِ (الحجازِ) : عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعُبيدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ ، وسعيدُ بنُ العاصِ .

وأَجوادُ أَهْلِ (الكوفةِ) : عتَّابُ بنُ وَرْقاءَ الرياحيُّ ، وأَسماءُ بنُ خارجَةَ بنِ حصنٍ الفزاريُّ ، وعكرمَةُ بنُ ربعيٍّ الفيَّاضُ أَحدُ بني تيمِ اللهِ بنِ ثعلبَةَ .

وأَجوادُ أَهلِ (البَصرَةِ) : عمرُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ معمَرٍ ، وطلحةُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ خلَفٍ الخزاعيُّ ـ المُلقَّبُ بِطَلْحةِ الطَلَحَاتِ ـ وعُبيدُ اللهِ ٱبنُ أَبي بكرَةَ .

وأَجوادُ أَهلِ (الشامِ) : خالدُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أَسدِ ٱبنِ أَبي العاصِ بنِ أُميَّةَ بنِ عبدِ شمسٍ ، ولَيْسَ في هٰؤلاءِ كلِّهم أَجودُ مِن عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، ولَمْ يكنْ مسلمٌ يبلغُ مبلغَهُ فِي الجودِ . ٱنتهىٰ كلامُ « الاستيعابِ » بمعناهُ وأَكثرِ لفظِهِ . فترىٰ أَنَّهُ لَمْ يذكُرْ عَرابَةَ بجانبِهِ أَصلاً ، فضلاً عَن أَنْ يقايِسَهُ بهِ ، أَوْ يفضِّلَهُ عليهِ .

ولَولا أَنَّني أَحفظُ القصَّةَ التي ذكرتُها قبلُ ، مِن سابقِ قراءَتي علىٰ والدِي يرحمُهُ اللهُ في « مجمعِ الأَحبابِ » . . لمَا ٱلتفتُّ إِليها ، وَلا ٱلْقَيتُ بالاً لَها .

لكل دولة كرماؤها

وقالَ أَبو العيناءِ [كما في « المستطرف » ١/٣٥٤] : تَذاكروا السخاءَ ، فٱتفقوا علىٰ آلِ المهلَّبِ في الدولَةِ المروانيّةِ ، وعلىٰ البرامِكَةِ في الدولَةِ العبَّاسيَّةِ ، ثمَّ ٱتَّفقوا علىٰ أَنَّ أَحمدَ بنَ أَبي دُؤَادٍ أَسخىٰ مِنهم أَجمعيْنَ .

وفي الأوَّلِينَ يقولُ الشاعِرُ [كما في « المثل السائر » ٢/١٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

نَـزَلْـتُ عَلَـىٰ آلِ ٱلْمُهَلَّـبِ شَـاتِيـاً ... غَرِيْباً عَنِ ٱلأَوْطَانِ فِيْ زَمَنِ ٱلْمَحْلِ

فَمَا زَالَ بِيْ إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ ... وَإِنْعَامُهُمْ حَتَّىٰ حَسِبْتُهُمُ أَهْلِيْ

وفي يحيىٰ بنِ خالدٍ يقولُ ٱلشاعِرُ [كما في « المستطرف » ١/٣٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَلْتُ ٱلنَّدَىٰ هَلْ أَنْتَ حُرٌّ؟ فَقَالَ: لاَ ... وَلَـٰكِنَّنِـيْ عَبْـدٌ لِيَحْيَـىٰ بْـنِ خَـالِـدِ

فَقُلْتُ : شِرَاءً ؟ قَالَ : لاَ بَلْ وِرَاثَةً ... تَـوَارَثَنِـيْ مِـنْ وَالِـدٍ بَعْـدَ وَالِـدِ

وقالَ ٱبنُ مناذرٍ فيهِ وفي بنيهِ ـ وأَجادَ ولا سيَّما في الأَخيرِ ـ [كما في « الأغاني » ١٨/٢٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَانَا بَنُوْ ٱلأَمْلاَكِ مِنْ أَرْضِ بَرْمَكٍ ... فَيَا طِيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ

لَهُمْ رِحْلَةٌ فِيْ كُلِّ عَامٍ إِلَىٰ ٱلْعِدَا ... وَأُخْرَىٰ إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيْقِ ٱلْمُعَطَّرِ

إِذا نَـزَلُـوا بَطْحَـاءَ مَكَّـةَ أَشْـرَقَـتْ ... بِيَحْيَىٰ وَبِٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ وَجَعْفَرِ

فَتُظْلِمُ بَغْدَادٌ وَتَجْلُو لَنَا ٱلدُّجَىٰ ... بِمَكَّـةَ مَـا حَجُّـوْا ثَـلاَثَـةُ أَقْمُـرِ

فَمَـا خُلِقَـتْ إِلاَّ لِجُـوْدٍ أَكُفُّهُـمْ ... وَأَقْـدَامُهُـمْ إِلاَّ لأَعْـوَادِ مِنْبَـرِ

ولا يُحصىٰ ما تَجدُ للفريقينِ من أَنواعِ الثناءِ في هـٰذهِ المجموعةِ وفاءً بحقِّ الأَمانَةِ ، وٱعترافاً بالفضْلِ لأَهلِهِ ، وقالَ بعضُهم في ٱبنِ أَبي دُؤَادٍ [أبو تمَّامٍ في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ أَنْسَتْ مَسَاوِىءَ كُلِّ دَهْرٍ ... مَحَاسِنُ أَحْمَدَ ٱبْنِ أَبِيْ دُؤَادِ

بمـاذا يكـون فخـر العرب؟

وصدقَ واللهِ لِسَانُ الدينِ ٱبنُ الخطيبِ في قولِهِ [في « نفح الطيب » ٦/٤٠٢] : لَم تفتخِرِ العَربُ قطُّ بذَهَبٍ يُجمَعُ ، ولا ذُخرٍ يُرفَع ،

ولا قصرٍ يُبنىٰ ، ولا غَرْسٍ يُجنىٰ ، إنَّما فخرُها . . عدوٌّ يُغلَبُ ، وثناءٌ يُجلَبُ ، وَجُزُرٌ تُنحَرُ ، وحَديثٌ يُذكَرُ ، وَجُودٌ في الفاقةِ ، وسماحٌ فوقَ الطاقةِ ، ولَقد ذهبَ الذهَبُ ، وفَنيَ النَّشَبُ ، وتمزَّقَتِ الثِّيابُ ، وهَلَكَتِ الخيلُ العِرابُ ، وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ، وبقيَتِ المَحاسِنُ تُروىٰ وتنقلُ ، والأعراضُ تُجلىٰ وتُصقَلُ ، والأَخبارُ في مكارِمِهم تطولُ .

صور رائعة من الجود الحضرمي

ومن أَجوادِ متأخري الحضارمَةِ سيِّدُنا الإمامُ حسنُ بنُ صالحٍ البحرُ ، بلغَ من سماحِهِ وإيثارِهِ ، أَنَّهُ أَعدَّ ضيافةً لجدي المحسنِ ليلةَ بنائِهِ ببنتِهِ ، ولَمَّا أَطلَّ مِنَ النَّافذَةِ . . رأَىٰ زُمَرَ المكدِّينَ محيطينَ بالدارِ ، فقالَ : ٱفتحوا لَهُم ، وقدِّموا لَهم الطعامَ ، فلم يسعهُم إلاَّ ٱمتثالُ أَمرِهِ ، ولم يكنْ غيرَ بعيدٍ حتَّىٰ أَقبلَ جدِّي في موكبِهِ ، فٱستأنفوا لهم ضيافةً أُخرىٰ تليقُ بِحِشمتِهِم وكثرتِهم ، وكم لَهُ مِن مثلِ هـٰذا النوعِ .

وسارَ مرَّةً إلىٰ (تريمَ) ، وٱتَّبعَهُ مَن عَلِمَ بهِ من محبِّيهِ ، وما أَصحابُهُ إلاَّ أَتباعُ الأَنبياءِ ، مِن ضعفاءِ الخلقِ وفقرائِهِم ، فأَضافَهُ السيِّدُ حسينُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ سهلٍ غداءً ، وٱستدعىٰ سادةَ (تريمَ) وأَعيانَها لِحُضورِ مجلسِهِ ، فٱستأثَروا بالمنزِلِ الذي كانَ فيهِ الحبيبُ حَسَنٌ ، ولم يتَّسعْ لأحدٍ مِن أَتباعِهِ ؛ إذْ لَم يكُن إلاَّ علىٰ عمودَينِ ، وكانَ في بصرِهِ شيءٌ ، فكانَ كلَّ ساعَةٍ يضَعُ يديْهِ علىٰ حاجبَيهِ يتأَمَّلُ في وجوهِ الناسِ ، ليرىٰ أَحداً مِن أَصحابِهِ ، فشعرَ بذلكَ صاحبُ المنزلِ ـ وكانَ العَشاءُ عندَهُ أَيضاً ـ فلمَّا ٱنتهَوا مِنَ الغداءِ . . قالَ لِلْحبيبِ : أَرىٰ أَنْ تَقيلُوا في بيتِ السيِّدِ أَحمدَ الجنيدِ ،

ثمَّ ترجعوا مِنَ العشيِّ ، فقالَ لَهُ : نعم ، ثمَّ لَم يكنْ مِن صاحبِ المنزلِ وهُوَ السيِّدُ حسينُ بنُ سهلٍ إلاَّ أَنِ ٱستدعىٰ العُمَّالَ ، ورفعَ حاجزاً كانَ بينَ المنزلِ الذي تغدَّىٰ فيهِ الحبيبُ ومنزلٍ آخرَ مثلِهِ في السعَةِ ، ولم يمسيا إلاَّ وَهُما منزلٌ واحدٌ ، يسعُ ستَّةَ أَعمدَةٍ ، فتعشَّىٰ وهُوَ قريرُ العَينِ برؤيَةِ أَتباعِهِ المساكينِ ، مع حِظَةِ أَعيانِ (تريمَ) بمؤاكلتِهِ ومجالَستِهِ ، فٱستحقَّ ذلكَ الصنيعُ إعجابَ الخلقِ أَجمعينَ .

وقرأَ مرَّةً قولَهُ تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] فقالَ : لا أُحِبُّ في الدنيا إلاَّ وَلدي وحِصاني ، ولا سبيلَ إلىٰ بيعِ الولدِ ، ولٰكِنْ بِيعوا الحصانَ ، وتصدَّقَ بثمنِهِ في الحالِ .

وكانَ من عادتِهِ أَنْ لا يبيت عندَهُ دينارٌ ولا دِرهمٌ ، بلْ كلُّ ما كان يدخلُ عليهِ مِنَ الفُتوحِ علىٰ ٱتساعِ جاهِهِ ، ينفِقُهُ علىٰ أَهلِهِ ، وفي الأَكبادِ الجائِعَةِ ، والأَجسامِ العارِيَةِ ، وتحمُّلِ المغارِمِ ، وبذلِ المكارِمِ ، فهوَ الأَحقُّ بقولِ زِيادِ الأَعجمِ ـ أَو زينبَ بنتِ الطثريَّةِ ترثي بهِ أَخاها يزيدَ ـ أَو أَبي تمَّامٍ ، فقد وُجدَ في شعرِ كلٍّ منهُم ـ وهُوَ [في « ديوانِ أَبي تمَّامٍ » ٢/ ١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِيْ كَفِّهِ غَيْرُ رُوْحِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ ٱللهَ سَائِلُهْ

وقد أَغارَ عليهِ صاحبُنا ؛ إذ كانَ كَما قُلنا : يتلقَّفُ كلَّ ما صنعَ المُجيدونَ من أَهلِ الشعرِ ، ولٰكنَّهُ لم يأتِ إلاَّ ببيَتٍ ملزقٍ ، هُوَ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٣٢ مِنَ الكاملِ] :

لاَ خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إلاَّ عَارِفٌ ‏ ‏ ‏ ‏ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

وقاربَ في قولِهِ [في العُكبَريِّ ٢/ ٥٥ مِنَ الخفيفِ] :

مَا سَمِعْنَا بِمَنْ أَحَبَّ ٱلْعَطَايَا فَٱشْتَهَىٰ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهَا فُؤَادُهْ

وكانَ - أعني سيِّدَنا البحْرَ - صادِقَ التوكُّلِ علىٰ اللهِ والاعتمادِ عليهِ ، حتَّىٰ إنَّه بما في خزائِنِ ربِّهِ أَوثَقُ منهُ بِما في يدِهِ ، وكلَّما حزَبَهُ أمرٌ . . فَزِعَ إِلىٰ الصلاةِ ، مقتفياً هدْيَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم في ذلكَ[1] ، حتَّىٰ إذا لَمْ يَجِدِ الضَّيفُ شيئاً عندَهُ . . ذهَبَ بعدَ تأهيلِهِ يصلي ، فيُفتَحُ لَهُ بوافِرِ الكرامَةِ .

ولقد أَرَادَ بعضُ السادَةِ آلِ الحبشيِّ ٱمتحانَهُ ، فقالوا لوكيلِهِ : متىٰ علمْتَ فراغَ جيبِهِ ، ونفادَ ما في بيتِهِ . . فأَخبِرْنا ، فظَنَّ بهِم أَنَّهم لم يقولوا ذلكَ إلاَّ ليتشرَّفوا بإعانَتِهِ علىٰ فِعْلِ المعروفِ ، فأَخبرَهُم ، فجاؤُوا بقضِّهِم وقضيضِهِم ، وخيلِهِم ورَجِلِهِم[2] ، عندَما وجبَتْ صلاةُ المغربِ ، ذلكَ الوقتُ الذي لاَ يتفرَّغُ فيهِ لغيرِ مولاهُ ، فقابَلَهُم بِما جُبِلَ عليهِ مِنَ البَشاشَةِ ، وبعقبِ الصلاةِ ٱستأْذَنَهُم وفزِعَ إِلىٰ وردِهِ ، يستفتِحُ به أَبوابَ القِرىٰ مِن فائِضِ الجودِ ، فَما كانَ بأَسرعَ مِنْ أَنْ جَاءَ خادِمُهُ يقولُ لهُ : أَهدىٰ إِليكَ آلُ فلانٍ كبشاً ، فقالَ لَهُ : أَصلحوهُ ، ثمَّ جاءَهُ واحدٌ مِن جيرانِهِ وقالَ : إِنَّ عِندي آصُعاً مِنَ

---

(١) لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٧٣٠) : أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ . . قال : « لا إله إلا الله رب العرش الكريم » . حزبه أمرٌ : نزل به أمر مهمٌّ أو أصابه غمٌّ .

وأورده عن حذيفة ، الهنديُّ في « كنز العمال » (٨٠٠١) بلفظه المراد وهو : (كان ﷺ إذا حزبه أمر . . صلَّىٰ) وعزاه إلىٰ أحمد وأبي داوود .

(٢) رَجِلهم : مشاتهم .

البُرِّ ، إنْ كانَتْ لَكَ في شرائِها حاجَةٌ . . وإلاَّ بعتُها لغيرِكَ ، فقالَ : وأيُّ الحاجةِ ؟! هاتِها ، وفرِّقوها علىٰ أبياتٍ من أهلِ قريَتِنا يُوافونا بِها مخبوزَةً مَعَ العِشَاءِ ، وما كادَ يفرَغُ مِن حزبِهِ . . حتَّىٰ حلَّتِ العِشَاءُ ، فصلَّىٰ بهِم ، ثمَّ أخذَ في مُؤَانَستِهِم إلىٰ أنْ حَضَر ذلكَ الطَّعامُ ، فتولَّىٰ بنفسِهِ قسمَةَ ٱللَّحمِ بينَهُم ـ كَما هِيَ العادةُ عِندَنا ـ فبارَكَ اللهُ فيهِ حتَّىٰ كَفَاهُم أَجمعينَ .

وعُشَّاقُ ٱلخُرافاتِ يكذبونَ في روايَةِ هٰذه ٱلقصَّةِ ، ويدَّعونَ أَنَّهُ أخرجَ الطعامَ بعْدَ صلاةِ العشاءِ مِن مَخْدَعِهِ ، وأنَّهُ جاءَ بهِ من مطبخِ الإمامِ الجيلانيِّ بـ(بغدادَ) ، والواقعُ إنَّما هُوَ ما ذكرناهُ ، وإذ قد ذكرنا ٱبنَ سَهلٍ فهُوَ مِن أَجوادِ الحضارِمَةِ المُتأخِّرينَ ـ أيضاً ـ والمجلسُ أَضيَقُ مَنْ أَنْ يتَّسِعَ لذِكْرِ مكارِمِهِ ؛ فإنَّها البحْرُ الذي لا يدرَكُ مَقَرُّهُ ، ولا يُبْلَغُ عَبْرُهُ .

ولَقد كانَ العلاَّمَةُ الجليلُ الوالدُ علويُّ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ المشهورِ يخِفُّ طَرَباً كلَّما ذَكَرَهُ ، ويتفتَّحُ عَن ثَجِّ بَحْرٍ[1] مُضْطَرِبِ الأَمواجِ مِن أخبارِ جودِهِ ، وإذ كانَتِ العِبَارَةُ أَضيَقَ مِنَ الإحاطةِ بهِ . . فلا بدَّ مِن واحِدَةٍ يُعرَفُ بِهَا جَنَىٰ تلكَ الشجرَةِ ، أَخبرَنا شيخُنا أبو بكرٍ ٱبنُ عبدِ الرحمٰنِ بنِ شهابِ الدينِ : أَنَّ والدَهُ كانَ مديناً للسيِّدِ حسينٍ ، ثمَّ عزمَ علىٰ تزويجِ ٱبنتينِ لَهُ ، ولم يكُنْ عندَهُ شَيْءٌ ممَّا يجهِّزُهُما بهِ ، فٱضطرَّ مَعَ خجلِهِ مِنَ السيِّدِ حسينٍ أنْ يأتيَ إليهِ بنفائِسِ كتبِهِ ليرهَنَها ، أَو يبيعَها منه ، حتَّىٰ يَخْصِمَ الذي لَهُ ، ويستعينَ هُوَ بالفاضِلِ علىٰ أمرِ

(١) الثجُّ : علوُّ وسطِ البحرِ إذا تلاقَت أمواجهُ .

البنتينِ ، وما كادَ يصلُ عندَهُ حتَّىٰ تلقَّاهُ بالرحْبِ والسعَةِ ، فأَخبرهُ بحاجتِهِ ، فقالَ لَهُ : مقضيَّةٌ ، فَطِبْ نفساً ، وقَرَّ عيناً ، علىٰ شرطِ أَنْ نتَّخِذَ هـٰذا اليومَ عيداً ، وندعوَ مَنْ تأْنَسُ بِهِم مِمَّنْ تَعتادُ مطارَحَتَهم الأَشعارَ ، فأَجابَ إِلىٰ ذلكَ ، وقَضَوا سحابَةَ اليومِ في أَنعمِ بالٍ ، وأَسعدِ حالٍ ، ولمَّا عزَمَ علىٰ الانصرافِ . . قالَ لَهُ : أَمَّا كتبُكَ : فأَنتَ أَحوجُ إِليها منِّي ، وأَمَّا الذي عندَكَ : فقد أَبرأْتُكَ مِنْهُ ، وهـٰذِهِ مئَةُ ريالٍ تبلَّغْ بِها لبعضِ ما تريدُ ، فأَثنىٰ عليهِ خيراً ، وٱنصرَفَ مجبورَ الْخاطِرِ ، يستحثُّ خُطا أَتانِهِ ليفضِيَ إِلىٰ أَهلِهِ بالبشارةِ ، وما كادَ يصِلُ دارَهُ إِلاَّ وزوجُهُ يضيءُ وجهُها مِن الفرْحِ ، ويتهلَّلُ جبينُها مِنَ السرورِ ، تفديه بالنفسِ والأَهلِ ، وتقولُ لَهُ : جزاكَ اللهُ خيراً علىٰ ما أَرسلتَ مِنَ الخيراتِ ، التي ما كنتُ أَظنُّ أَنْ يتيسَّرَ لكَ بعضُها ، فضلاً عَن كلِّها ، إِلاَّ بسفرَةٍ طويلةٍ إِلىٰ شيءٍ مِن أَقاصي البلادِ ، قالَ : وما الذي أَرسلْتُهُ ؟! قالتْ : كلَّ ما نحتاجُهُ في جهازِ البنتينِ من ذَهَبٍ وفضَّةٍ في أَحسنِ صياغَةٍ ، ومِنْ ثيابٍ حريريَّةٍ وقطنيَّةٍ في أَجملِ تطريزٍ وخياطَةٍ ، ومِنْ أَثاثٍ ورياشٍ أَكثَرَ مِنَ الحاجَةِ ، ومِنْ أَغنامٍ وطعامٍ فوقَ الكفَايَةِ ، حتَّىٰ ما لا بُدَّ مِنه مِنَ الخَزَفِ كُنْتَ قد تفطَّنْتَ لَهُ ، فٱندهشَ في عقلِهِ ، وٱضطرَبَ في أَمرِه ، وكادَ يشكُّ في نفسِهِ ، وجرىٰ علىٰ قلبِهِ كثيرٌ مِمَّا ذكرناهُ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٣٢ مِنَ الكاملِ] :

كَبُـرَ ٱلْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ ... صَارَ ٱلْعِيَانُ مِنَ ٱلْيَقِيْنِ تَوَهُّمَا[1]

---

(١) في « العكبري » : (صَارَ ٱلْيَقِيْنُ مِنَ ٱلْعِيَانِ تَوَهُّماً) ولعلَّهُ الصوابُ .

ولا حاجةَ للتنبيهِ إلىٰ أَنَّ السيِّدَ حُسيناً هُوَ الذي بعث بجميع ذلكَ إلىٰ بيتِ السيِّدِ عبدِ الرحمـٰنِ بدونِ علمِهِ ، وقالَ لأَهلِهِ : إنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ السيِّدِ عبدِ الرحمٰنِ ، وإِنَّما قُلنا : لا حاجةَ للتنبيهِ علىٰ ذلكَ ؛ لأَنَّهُ معلومٌ مِنَ المَقامِ ، وللهِ دَرُّ الناظمِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٤ مِنَ الخفيفِ] :

ذِيْ ٱلْمَعَالِيْ فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَىٰ هٰكَـذَا هٰكَـذَا وَإِلاَّ فَـلاَلاَ

وقولِ الآخرِ [وهو أمية ابن أبي الصلت كما في « طبقات فحول الشعراء » ١/ ٢٦٢ مِنَ البسيطِ] :

هَـٰذِيْ ٱلْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيْبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالاَ
هَـٰذِيْ ٱلْمَكَارِمُ لاَ ثَوْبَانِ مِنْ عَدَنٍ خِيطَـا قَمِيْصـاً فَعَـادَا بَعْـدُ أَسمَـالاَ

ولكَمْ فِي الخَلَفِ مِنْ نُسخَةٍ لِلْسَلَفِ ، وفي الزوايا من خبَايا ، وفِي الخزائِنِ من ضنائِنَ ، غير أَنَّ الأَسفَ كلَّ الأَسفِ ، أَنَّ كلَّ من نَظَمَ أَو خطَبَ ، أَو تكلَّمَ أَو كتَبَ ، لم ينصحْ للحقيقةِ ، وإِنَّما يقولُ تنفُّقاً ، ويكتُبُ تملُّقاً ، يَبْتَغي مرضاةَ الحسَّادِ بما يبيعُ مِن ذمَّةٍ ، ويُرضيْ عُبَّادَ الخرافاتِ بما يمكُثُ بِهِ الفسادُ في الأُمَّةِ ، وما أَفحشَ ذَنْبَ مَن يتقاضىٰ نزراً حقيراً ، ثمَّ يترُكُ وراءَهُ وِزراً كبيراً ، وإِنَّما ٱنتشرَتِ الخرافاتُ ، وخفيَتِ الفضائِلُ ؛ لأَنَّهُ لا يُحسَدُ أَربابُ الأُولىٰ ، بلْ تتوفَّرُ الدواعي علىٰ التوسُّعِ بِها بينَ عشَّاقِ الأَغرابِ مِن صغارِ النُّهَىٰ وسُفَهاءِ الأَحلامِ ، بخلافِ المجدِ الحقِّ ، والفضْلِ الصحيحِ ؛ فإِنَّهُ يُقْذي العيونَ ، ويَحِزُّ في الأَكبادِ ، فتتوفَّرُ الدواعي لهضمِهِ ، ويستجيْشُ الحُسَّادُ لِكَتْمِهِ ، ولهـٰذا كانَتِ الفَضيلَةُ الصادقةُ

أَخفىٰ ما تكونُ عندَ الحضارمَةِ [في « ديوان المؤلف » ق ٨ مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْتَ شِعْرِيَ أَقَوْمِيَ بِالْخُصُوصِ هَوَوْا   إِلَىٰ الْحَضِيْضِ كَذَا، أَمْ كُلُّهَا الْعَرَبُ؟!

الشهامة أن تشهد لعدوك بما هو فيه

لقد زَمِنَتِ المروءَةُ ، وقلَّ الحياءُ ، وفاضَ الكذِبُ ، وغاضَ الصدْقُ ، وانقلَبَ المعروفُ منكراً ، والمنكرُ معروفاً ، وتوكَّنَتْ في هشيمِ الصدورِ غربانُ الإحسادِ ، بلا وازعٍ من الدينِ ، ولا رادعٍ مِنَ المروءَةِ ، ولا ننكرُ ما عليهِ العَربُ مِنَ التَّحاسُدِ ، لكنْ معَ شهامَةٍ وفَضْلٍ ، وإنصافٍ وعدْلٍ ، أَعانَ علىٰ ظهورِ الحقائِقِ ناصعةً ، واتصالِ الأَخبارِ صافيَةً ، أَلا ترىٰ صدقَ أَبي سفيانَ في صفتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مَعَ كونِهِ أَعدىٰ عدوِّهِ[1]؟!

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الَّذي رواهُ البُخاريُّ (٢٩٤٠) و(٢٩٤١) عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهُما ـ أَنَّهُ أَخبرَهُ : (أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كتبَ إِلىٰ قيصرَ يدعوهُ إلىٰ الإِسلامِ ، وبعثَ بكتابهِ إِليهِ معَ دِحيَةَ الكلبيِّ ، وأَمرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يدفَعَهُ إِلىٰ عَظيمِ (بُصرىٰ) ؛ لِيَدفعَهُ إِلىٰ قيصرَ ، وكانَ قيصرُ لَمَّا كشفَ اللهُ عنهُ جنودَ فارسَ . . مَشىٰ مِن (حمصَ) إلى (إِيلياءَ) شكراً لِمَا أَبلاهُ اللهُ ، فلَمَّا جاءَ قيصَرَ كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ . . قالَ حينَ قرأَهُ : التَمسوا لي هاهنا أَحداً مِن قومِهِ ؛ لأَسأَلَهُم عَن رسولِ اللهِ ﷺ .

قالَ ابنُ عبَّاسٍ فأَخبرني أَبو سفيانَ : أَنَّهُ كانَ بـ(الشَّأْمِ) في رجالٍ مِن قريشٍ قدِموا تِجَاراً في المدَّةِ الَّتي كانَتْ بينَ رسولِ اللهِ ﷺ وبينَ كُفَّارِ قريشٍ ، قالَ أَبو سفيانَ : فوجَدَنا رَسولُ قيصرَ ببعضِ (الشَّأْمِ) ، فانطُلِقَ بي وبأَصحابي . . حتَّىٰ قدِمْنا (إِيلياءَ) ، فأُدخلنا عليهِ ، فإِذا هوَ جالسٌ في مجلسِ مُلكِهِ ، وعليهِ التَّاجُ ، وإِذا حولَهُ عُظماءُ الرُّومِ ، فقالَ لتَرجُمانِهِ : سَلهم أَيُّهم أَقربُ نَسباً إِلىٰ هذا الرَّجُلِ الَّذي يزعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ . قال أَبو سُفيانَ : فقلتُ : أَنا أَقربُهم إِليهِ نَسباً .

قالَ : ما قرابةُ ما بينَكَ وبينَهُ ؟ فقلتُ : هوَ ابنُ عميٍّ ، وليسَ في الرَّكبِ يومئذٍ أَحدٌ مِن بني عبدِ منافٍ غيري .

فقالَ قيصرُ : أَدنوهُ ، وأَمرَ بأَصحابي فجُعلوا خلفَ ظهري عندَ كتِفِي ، ثُمَّ=

. . . .

= قالَ لترجُمانِهِ : قُل لأصحابِهِ : إنِّي سائِلٌ هذا الرَّجُلَ عَنِ الَّذي يزعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ ، فإنْ كَذَبَ . . فكذِّبوهُ .

قالَ أَبو سفيانَ : واللهِ لولا الحياءُ يومئذٍ مِن أَن يَأْثُرَ عَنِّي أَصحابي الكذِبَ . . لَكَذبتُهُ حينَ سألَني عنهُ ، ولكنِّي استحييتُ أَن يأثُروا الكذبَ عنِّي فصَدَقتُهُ .

ثُمَّ قالَ لتَرجُمانِهِ : قُل لهُ : كيفَ نسبُ هذا الرَّجُلِ فيكُم ؟ قلتُ : هوَ فينا ذو نسبٍ .

قالَ : فهَل قالَ هذا القولَ أَحدٌ منكُم قبلَهُ ؟ قلتُ : لا .

فقالَ : كنتمُ تتَّهمونَهُ بالكذِبِ قبلَ أَن يقولَ ما قالَ ؟ قلتُ : لا .

قالَ : فهَل كانَ مِن آبائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ قلتُ : لا .

قالَ : فأَشرافُ النَّاسِ يتَّبعونَهُ أَم ضعفاؤُهُم ؟ قلتُ : بَل ضعفاؤُهم .

قالَ : فيزيدونَ أَو ينقصونَ ؟ قلتُ : بَل يزيدونَ .

قالَ : فهَل يرتَدُّ أَحدٌ سَخْطَةً لدينِهِ بعدَ أَن يدخُلَ فيهِ ؟ قلتُ : لا .

قالَ : فهَل يغدِرُ ؟ قلت : لا ، ونحن الآن منه في مدةٍ نخاف أن يغدِرَ .
قالَ أَبو سفيانَ : ولم يمكنِّي كلمةٌ أُدخِلُ فيها شيئاً أَنتقِصُهُ بهِ ، لاَ أَخافُ أَن تؤثَرَ عَنِّي غيرُها .

قالَ : فهَل قاتلتُموهُ أَو قاتَلَكُم ؟ قلتُ : نَعم .

قالَ : فكيفَ كانَتْ حربُهُ وحربُكُم ؟ قلتُ : كانَت دِوَلاً وسِجالاً ، يُدالُ علينا المرَّةُ ، ونُدال عليهِ الأُخرىٰ .

قالَ : فماذا يأْمُرُكُم به ؟ قالَ : يأْمُرُنا أَن نعبدَ اللهَ وحدَهُ لا نشرِكَ بهِ شيئاً ، ويَنهانا عَمَّا كانَ يعبدُ آباؤُنا ، ويأْمُرُنا بالصَّلاةِ ، والصَّدقَةِ ، والعَفَافِ ، والوفاءِ بالعهدِ ، وأَداءِ الأَمانَةِ .

فقالَ لترجُمانِهِ حينَ قلتُ ذلكَ لَهُ : قلْ لهُ : إنِّي سأَلتُكَ عَن نسبِهِ فيكُم ، فزعمتَ أَنَّهُ ذو نسبٍ ، وكذلكَ الرُّسُلُ تُبعَثُ في نَسبِ قومِها .

وسأَلتُكَ هَل قالَ أَحدٌ منكُم هذا القولَ قبلَهُ ، فزعمتَ أَن لاَ ، فقلتُ : لو=

. . . .

= كانَ أَحدٌ منكُم قالَ هذا ٱلقولَ قبلَهُ . قلتُ : رجُلٌ يأْتَمُّ بقولٍ قد قيلَ قبلَهُ .

وسألتُكَ هَل كنتُم تتَّهمونَهُ بٱلكذِبِ قبلَ أَن يقولَ ما قالَ ، فزعمتَ أَن لا ، فعرفْتُ أَنَّهُ لَم يكُن لِيَدَعَ ٱلكذِبَ علىٰ النَّاسِ ، ويكذِبَ علىٰ ٱللهِ .

وسأَلتُكَ هَل كانَ من آبائِهِ مِنْ مَلِكٍ ، فَزَعَمْتَ أَن لا ، فقلتُ : لَو كانَ مِن آبائِهِ مَلِكٌ . . قلتُ : يطلُبُ مُلْكَ آبائِهِ .

وسأَلتُكَ أَشرافُ النَّاسِ يتَّبعونَهُ أَم ضعفاؤُهم ، فزعمتَ أَنَّ ضعفاءَهُمُ ٱتَّبعوهُ ، وهُم أَتباعُ الرُّسُلِ .

وسأَلتُكَ هَل يزيدونَ أَو ينقصونَ ، فزعمْتَ أَنَّهم يزيدونَ ، وكذلكَ ٱلإيمانُ حتَّىٰ يَتِمَّ .

وسأَلتُكَ هَل يرتَدُّ أحدٌ سخطةً لدينِهِ بعدَ أَن يدخُلَ فيهِ ، فزعمْتَ أَن لا ، فكذلكِ ٱلإيمانُ حتَّىٰ تَخلِطَ بشاشتُهُ ٱلقلوبَ لا يسخَطُهُ أَحدٌ .

وسألتُكَ هَل يغدِرُ ، فزعمْتَ أَن لا ، وكذلكَ الرُّسُلُ لا يغدِرونَ .

وسأَلتُكَ هَل قاتلتُموهُ وقاتَلَكُم ، فزعمْتَ أَن قَد فعلَ ، وأَنَّ حربَهُ وحربَكُم تكونُ دِوَلاً ، ويُدالُ عليكُمُ ٱلمرَّةَ ، وتُدالونَ عليهِ ٱلأُخرىٰ ، وكذلكَ الرُّسُلُ تُبتلىٰ ، وتكون لها العاقبة .

وسألتك بماذا يأمركم ، فزعمتَ أَنَّهُ يأْمرُكُم أَنْ تَعبدوا ٱللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً ، وينهاكُم عَمَّا كانَ يعبُدُ آباؤُكُم ، ويأْمُرُكُم بالصَّلاةِ ، والصِّدقِ ، وٱلعفافِ ، وٱلوفاءِ بٱلعهدِ ، وأَداءِ ٱلأَمانَةِ ، قالَ : وهذهِ صِفَةُ النَّبيِّ .

قَد كنتُ أَعلَمُ أَنَّهُ خارجٌ ، ولَكنْ لَمْ أَعْلَمْ أَنَّهُ مِنكم ، وإِنْ يكُ ما قلْتَ حَقّاً . . فَيُوشِكُ أَن يملُكَ موضِعَ قدميَّ هاتينِ ، ولو أَرجو أَن أَخلُصَ إِليهِ . . لتجشَّمتُ لقاءَهُ ، ولو كنتُ عندَهُ . . لغسلْتُ قدمَيهِ .

قالَ أَبو سفيانَ : ثُمَّ دعا بكتابِ رسولِ ٱللهِ ﷺ فقُرِىءَ ، فإِذا فيهِ :

« بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيْمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ ٱللهِ وَرَسُوْلِهِ . . . إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيْمِ ٱلرُّوْمِ ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ، أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنِّيْ أَدْعُوْكَ بِدِعَايَةِ ٱلإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ . . تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ . . يُؤْتِكَ ٱللهُ أَجْرَكَ =

صور من ذلك

وجاءَ مِحفنُ ٱبنُ أَبي محفنٍ إِلىٰ معاويَةَ ليتملَّقَهُ ، فقالَ لَهُ [في « شرح النهج » ١/٢٢] : مِن أَينَ أَقبلتَ ؟ قالَ : مِنْ عنْدِ أَجبنِ الناسِ ، وأَفْهَهِ الناسِ ، وأَبخَلِ الناسِ ، قالَ : مَن تَعني ؟ قالَ : عليَّ بنَ أَبي طالبٍ ، فقالَ لَهُ : ٱسكتْ ، فَضَّ اللهُ فاكَ ، أَمَّا قولُكَ : إِنَّه أَجبنُ الناسِ ، فواللهِ إِنَّا لَنعُدُّ مَنْ مَاتنَهُ ساعةً ثمَّ ٱنهزَمَ أَشجَعَ الناسِ ، وأَمَّا قولُكَ : إِنَّه أَفْهَهُ الناسِ ، فواللهِ ما سَنَّ الفصاحَةَ لقريشٍ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ غيرُهُ ، وأَمَّا قولُكَ : إِنَّهُ أَبخلُ الناسِ ، فواللهِ لو كانَ لَهُ بيتٌ مِن تِبْنٍ ، وبيتٌ مِن تِبْرٍ . . لَنفدَ بيتُ تبرِهِ قبلَ أَن ينفدَ بيتُ تبنِهِ .

ويروىٰ : أَنَّ النعمانَ بنَ المنذرِ سأَلَ حاتِماً عَن نفسِهِ وعَن الزبرقانِ بنِ بدرٍ فقالَ : أَمَا واللهِ إِنَّ آلَ حاتِمٍ لا يبلغونَ أَصغَرَ ولدِ الزبرقانِ ، ثمَّ سأَلَ الزبرقانَ عَن حاتِمٍ وعَنْ نفسِهِ ؟ فقالَ : أَمَا واللهِ لو كُنتُ ومالي وآلي لِحاتِمٍ . . لغَرِقْنا في غداةٍ واحدَةٍ في وجوهِ المعروفِ ، أَو ما يقربُ من هـٰذا السياقِ .

= مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ . . فَعَلَيْكَ إِثْمُ ٱلأَرِيسِيِّينَ و ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] » .

قالَ أَبو سُفيانَ : فلَمَّا أَن قضىٰ مقالتَهُ . . عَلَتْ أَصواتُ الَّذينَ حولَهُ مِنْ عُظَماءِ الرُّومِ ، وكَثُرَ لَغَطُهم ، فلا أَدري ماذا قالوا ، وأُمِرَ بنا فأُخرِجْنَا ، فلَمَّا أَن خرجْتُ مَعَ أَصحابي ، وخَلَوتُ بِهم . . قلتُ لَهُم : لَقد أَمِرَ ـ [عَظُمَ] ـ أَمْرُ ٱبنِ أَبي كبشَةَ ، هذا مَلِكُ بَني ٱلأَصفرِ يخافُهُ .

قالَ أَبو سُفيانَ : وٱللهِ ما زلتُ ذَليلاً مُستيقناً بِأَنَّ أَمرَهُ سيظهَرُ . . حتَّىٰ أَدخَلَ ٱللهُ قلبيَ ٱلإسلامَ وَأَنا كَارِهٌ) .

وقد أَخذَهُ الكميتُ في قولِهِ لخالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ [في «الأغاني» ١٧/ ٣٧ مِنَ المنسرحِ] :

لَـوْ أَنَّ كَعْبـاً وَحَـاتِمـاً نُشِـرَا ... كَانَا جَمِيْعاً مِنْ بَعْضِ مَا تَهَبُ

ثمَّ أَلَمَّ بهِ البحتريُّ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لَوْ تَرَىٰ فِيْ مُلْكِهِ كُنْتَ نَائِلاً ... لأَوَّلِ عَـافٍ مِـنْ مُـرَجِّيْـهِ مُقْتِـرُ

وربَّما يكونُ موضِعَ الزبرقانِ أَوسُ بنُ حارِثَةَ بنِ لامٍ أَو غيرُهُ مِنَ العربِ.

ويشبهُ ذلكَ قولُ أَوسٍ المذكورِ ، وقدِ ٱنتدبَ هُوَ وحاتِمٌ وزيدُ الخيلِ لخطبَةِ ماويَّةَ ، حينَ ٱشتطَّتْ وٱشترطَتْ أَنْ لا تتزوَّجَ إِلاَّ كَريما ، وآلتْ علىٰ نفسِها أَنْ تجدَعَ أَنفَ مَنْ خطبَها غيرَ كريمٍ ، فتَحاماها الخُطَّابُ ، حتَّىٰ ٱنتدبَ لَها هـٰؤُلاءِ ، فقالَتْ لَهُم - في حديثٍ طويلٍ أَشرنا مرَّةً إِليهِ - : لِيَصِفْ كلُّ واحدٍ مِنكم نفسَهُ في شعرِهِ ، فكانَ في جملَةِ ما قالَهُ أَوسُ بنُ حارِثَةَ - وهُوَ موضِعُ الشاهِدِ - [مِنَ الطَّويلِ] :

فـإِنْ تَنْكِحِيْ زَيْـداً فَفَـارِسُ قَـوْمِـهِ ... إِذا ٱلْحَرْبُ يَوْماً أَقْعَدَتْ كُلَّ قَائِمِ

وَإِنْ تَنْكِحِيْ مَاوِيَّةَ ٱلْخَيْرِ حَاتِماً ... فَمَا مِثْلُهُ فِيْنَا وَلاَ فِيْ ٱلأَعَاجِمِ

فَتىً لاَ يَزَالُ ٱلدَّهْرَ أَكْبَرَ هَمِّهِ ... فِكَـاكُ أَسِيْـرٍ أَوْ مَعُـوْنَـةُ غَـارِمِ

وَإِنْ تَنْكِحِيْنِيْ تَنْكِحِيْ غَيْرَ فَاجِرٍ ... وَلاَ نَهْنَهٍ عِنْدَ ٱلأُمُوْرِ ٱلْعَظَائِمِ

وذُكِرَ في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قولُ قَيسِ بنِ الخطيمِ [في «ديوانه» ٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أُجَالِدُهُمْ يَوْمَ ٱلْحَدِيْقَةِ حَاسِراً ... كَأَنَّ يَدِيْ بِٱلسَّيْفِ مِخْرَاقُ لاَعِبِ[1]

---

(١) الحديقةُ : قريةٌ من أعراضِ (المدينةِ) في طريقِ (مكَّةَ) ، كانت بها وقعةٌ بين =

ولَم يكُنْ ثَمَّ غيرُ خزرجيٍّ ، وهُم أَلدُّ خصومِهِ ، فقالَ لَهم رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَكذلِكَ هُوَ ؟ » فقالَ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شمَّاسٍ : والذي بعثَكَ بالحقِّ يا رسولَ اللهِ ، لقد خرجَ إلينا سابعَ عُرسِهِ عليهِ غَلاَلَةٌ وملحفَةٌ مورَّسَةٌ ، فجالَدَنا حتَّىٰ قَتَلَ مِنَّا سبعةً ، أَو ما يقرُبُ مِن هـٰذا ، فأرتاحَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وتهلَّلَ وجهُهُ .

ومرَّ عليٌّ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ بطلحَةَ قتيلاً يومَ الجملِ ، فتمثَّلَ بقولِهِ [كما في « ديوانِ » النابغةِ الجعديِّ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كَانَ يُدْنِيهِ ٱلْغِنَىٰ مِنْ صَدِيقِهِ   إِذا مَا هُوَ ٱسْتَغْنَىٰ وَيُبْعِدُهُ ٱلْفَقْرُ

أَو سمعَ إنساناً ينشدُ هـٰذا البيتَ ، فقالَ : ذاكَ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ[1] .

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ قولُ القطاميِّ [في « ديوانِهِ » ٨٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ وَإِنْ كَانَ قَوْمِيْ لَيسَ بَيْنَهُمُ   وَبَيْنَ قَوْمِكَ إِلاَّ ضَرْبَةُ ٱلْهَادِيْ[2]

مُثْنٍ عَلَيْكَ بِمَا ٱسْتَبْقَيتَ مَعْرِفَتِيْ   وَقَدْ تَعَرَّضَ مِنِّيْ مَقْتَلٌ بَادِيْ

وقالَ عمرُو بنُ معدِ يكَرِبَ الزبيديُّ ، يصفُ بني سُلَيمٍ ، وكانَتْ بينَهُم إِحَنٌ[3] في الجاهليَّةِ [في « أدب الكاتب » ١/ ٤٣٤] : للهِ بنو سُلَيمٍ

= الأوسِ والخزرَجِ قبلَ الإسلامِ ، وإياها أرادَ قيسٌ في قولِهِ . المخراقُ : ما تلعبُ بِهِ الصبيانُ من الخرقِ المفتولةِ .

(١) « الأغاني » (١٨/ ٣٣١) .

(٢) الهادي : العنقُ ؛ لأنها تتقدم على البدنِ ، وهادي السهمِ : نصلُهُ .

(٣) إحنٌ ـ جمع أَحنَةٍ ـ : وهيَ الحقدُ والغضبُ .

ما أَشدَّ لقاءَها ، وأَكرمَ عطاءَها ، وأَثبتَ بِناءَها ، لقد قاتَلْناكم يا بني سُلَيمٍ فَما أَجبْناكُمْ ، وهَاجَيْناكُمْ فَما أَفحمناكُمْ ، وٱستَرْفَدْناكُمْ فما أَبخلناكُمْ .

وقلَّ مَن رثىٰ عمرَو بنَ عبدِ ودٍّ إلاَّ تعرَّضَ للثناءِ علىٰ قاتلِهِ ، الإمامِ الغالِبِ عليِّ ٱبنِ أَبي طالِبٍ - كرَّمَ اللهُ وجهَهُ - حتَّىٰ قالَت أُختُ عمرٍو [كما في « ثمار القلوب » (١/٤٩٦) من البسيط ، ولكن فيه أن القائل ابنته] :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ دَائِمَ ٱلأَبَدِ
لَٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لاَ يُعَابُ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَىٰ أَبُوهُ بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

وقد سبقَ ما قالَهُ عبدُ الملِكِ بنُ مروانَ ، مِنْ بالغِ الثناءِ علىٰ المصعَبِ بنِ الزبيرِ ، وبينَهُما ما لا تبرُكُ عليهِ الإِبلُ من الأَشلاءِ الممزَّقَةِ ، والأَرحامِ المقطَّعَةِ .

ولقد كانَ الجوُّ أَشدَّ ظُلمَةً مِن ذلكَ بينَ يزيدَ بنِ المهلَّبِ ويزيدَ بنِ عبدِ الملِكِ ، ولمَّا حُمِلَ رأسُ الأَوَّلِ إِلىٰ الثاني . . نالَ منهُ بعضُ جلسائِهِ ، فقالَ لَهُ : مَهْ ، إِن يزيدَ طلَبَ جسيماً ، وركِبَ عظيماً ، وماتَ كريماً ، وصدَقَ ٱبنُ دُريدٍ في قولِهِ يعنيهِ [في « وفيات الأعيان » ٦/٣٠٥ مِنَ الرَّجَزِ] :

وَقَدْ سَمَا قَبْلِي يَزِيدُ طَالِباً شَأْوَ ٱلْعُلاَ فَمَا وَهَىٰ وَلاَ وَنَىٰ

ومرَّ مثلُهُ فيهِ عَنِ الشريفِ الرضيِّ أَوائِلَ المجلسِ قبلَ هٰذا .

ولَمَّا وردَ كعبٌ الأَشقريُّ علىٰ الحجَّاجِ موفَداً من قِبَلِ المهلَّبِ ٱبنِ أَبي صفرَةَ ، وسأَلَهُ عَن قتالِ الخوارِجِ . . أَنشدَ قصيدتَهُ التي يقولُ فيها [مِنَ البسيطِ] :

كُنَّا نُهَوِّنُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ شَأْنَهُمُ حَتَّىٰ تَفَاقَمَ أَمْرٌ كَانَ يُحْتَقَرُ

لَمَّا وَهنَّا وَقَدْ حَلُّوْا بِسَاحَتِنَا ... وَٱسْتُنْفِرَ ٱلنَّاسُ مَرَّاتٍ فَمَا نَفَرُوْا
نَادَىٰ ٱمْرُؤٌ لاَ يُمَارَىٰ فِيْ عَشِيْرَتِهِ ... فِيْهِ وَلَيْسَ بِهَا عَنْ مِثْلِهِ قِصَرُ
بَـاتَـتْ كَتَـائِبُنَـا تُـرْدَىٰ مُسَـوَّمَـةً ... حَوْلَ ٱلْمُهَلَّبِ حَتَّىٰ نَوَّرَ ٱلْقَمَرُ
هُنَاكَ وَلَّوْا خَزَايَا بَعْدَمَا هُزِمُوْا ... وَحَالَ دُونَهُمُ ٱلأَنْهَارُ وَٱلْجُدُرُ
تَأْبَىٰ عَلَيْنَا حَرَارَاتُ ٱلنُّفُوْسِ فَمَا ... نُبْقِيْ عَلَيْهِمْ وَلاَ يُبْقُوْنَ إِنْ قَدِرُوْا[1]

ويدخلُ فيهِ كلُّ ما يأتي في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ ... عَلَـىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

ويُذكَرُ : أنَّ تيمورْلَنْكَ أبصرَ السيِّدَ الجرجانيَّ علىٰ فرسٍ لهُ عتيقٍ ، يمرحُ خيلاءَ وكِبراً ، فقالَ للسعدِ : ألا ترىٰ إلىٰ ما عليهِ السيِّدُ وحصانُهُ مِنَ الزهْوِ ؟! فقالَ لَهُ : لا عجبَ ، حتَّىٰ لو أنَّهُ طارَ إلىٰ السماءِ . . لكانَ محقوقاً لذلكَ الشرفِ ، ثمَّ دنا مِن السيِّدِ وقالَ لَهُ : ألا ترىٰ إلىٰ ما عليهِ السعدُ وبغلُهُ مِنَ الضَّعفِ والقطافِ[2] ؟ فقالَ السيدُ : وكيفَ لا ؟! وعليهِ جبلٌ مِن جبالِ العلمِ ، فحريٌّ أنْ تتفسَّخَ ببغلِهِ القوائمُ ، وكأنَّما أخذَهُ مِن قولِ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٢١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا حَمَلَتْكَ ٱلْعِيْسُ أَوْدَىٰ بِأَيْدِهَا ... جَلاَلُكَ حَتَّىٰ مَا تَكَادُ بِهِ تَخْطُوْ[3]

هـٰذا علىٰ ما بينَ الرجلينِ مِنَ التَّباعُدِ ، ثمَّ لا ننكرُ أنَّ ما يتكلَّمُ بهِ الأعداءُ من الثناءِ علىٰ خصومِهِم بعدَ انتصارِهِم عليهِمْ لا يصلُحُ أنْ

---

(١) « الأغاني » (١٤/ ٢٧٦) .
(٢) القطاف : ضيق مشي الدابة .
(٣) أودىٰ : هلكَ . الأيدُ : القوَّةُ . الجلالُ : العُظْمُ .

يكونَ شاهداً لِمَا نقرِّرُهُ مِن تناصُفِ العربِ في أَقوالِهِم .

أَمَّا أَوَّلاً : فلأَنَّ مَن شفىٰ غيظَهُ مِن خصومِهِ ، واْستفرَغَ حزازةَ نفسِهِ بِما اْنتقمَ مِنهُم ، لا يبقىٰ في صدرِهِ ما يمنعُهُ مِن ذكرِهِم بالخيرِ في الأَغلبِ ، إلاَّ عِندَ مَنِ اْشتدَّ خبثُهُ ، ونغَلَ قلبُهُ .

وأَمَّا ثانياً : فلأَنَّ المرادَ مِن مثلِ ذلكَ إِنَّما هُوَ التوصُّلُ إِلىٰ تعظيمِ النفسِ ؛ لأَنَّ الانتصارَ علىٰ الحقيرِ لا يعدُّ شيئاً مذكوراً ، إِنَّما يُمتدَحُ بالانتصارِ علىٰ العظيمِ ، كَما سيأْتي أَثناءَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، غيرَ أَنَّ شيئاً مِن ذلكَ لا يغيِّرُ في وَجْهِ ما ذكرناهُ ، إِذ كثيرٌ منهُ كانَ مِن غيرِ اْنتصارٍ ، وكانَ في أَيَّامِ الحياةِ والمساماةِ ، وهُوَ بينَ العَربِ الطريقُ المَهْيَعُ[1] ، والغالِبُ المطَّرِدُ ، ثمَّ إِنَّا لا نريدُ مِنَ الثَّناءِ إلاَّ ما يكونُ حَقّاً مطابقاً للواقعِ ، بِلا إِفراطٍ ولا تفريطٍ ، وإلاَّ . . كانَ مِنَ المَذمومِ الممقوتِ ، الداخلِ تحتَ قولِ القائِلِ [مِنَ الكاملِ] :

ذَهَبَ اْلَّذِيْنَ يُعَاشُ فِيْ أَكْنَافِهِمْ   وَاْلْمُنْكِـرُوْنَ لِكُـلِّ أَمْـرٍ مُنْكَـرِ
وَبَقِيْتُ فِيْ خَلْفٍ يُزَكِّيْ بَعْضُهُمْ   بَعْضاً لِيَدْفَعَ مُعْوِرٌ عَنْ مُعْوِرِ

وهٰذا لونٌ آخرُ مِنَ الحَديثِ ، لاَ بُدَّ وأَنْ نوفِّيَهُ حقَّهُ في محلِّهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) المَهْيَعُ : الواسعُ الواضحُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٣ مِنَ المنسرحِ] :

هَـدِيَّـةٌ مَـا رأَيْـتُ مُهْـدِيَهَـا إلاَّ رَأَيْتُ ٱلْعِبَادَ فِيْ رَجُلِ

هل يجمع رجل واحد جميع محاسن الناس؟!

(هَدِيَّةٌ) : خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، تقديرُهُ : هديَّتُكَ هديَّةٌ مَا رأَيتُ الَّذي أَهداها . . إلاَّ رأَيتُ الناسَ كلَّهم في شخصِهِ ؛ لأَنَّ فيهِ جميعَ ما في الناسِ مِن معاني الفضْلِ والسؤْدَدِ والكرَمِ ، لا يُقالُ : إنَّ في الناسِ الأَخِسَّاءُ ، فإذا رأَىٰ فيهِ ما فيهِم . . كانَ عينَ الذمِّ ؛ لأَنَّهُ لم يُرد بالعبادِ إلاَّ الكرامَ منهُم ، فَـ(أَل) فيهِ للعهدِ الذهنيِّ ، والمعنىٰ متكرِّرٌ في ديوانِهِ ، مِنهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٦٦ مِنَ المتقاربِ] :

أَحُلْمـاً نَـرَىٰ أَمْ زَمَـانـاً جَـدِيْـدَا أَمِ ٱلْخَلْقُ فِيْ شَخْصٍ حَيٍّ أُعِيْدَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

أَنَّـىٰ يَكُـوْنُ أَبَـا ٱلْبَـرِيَّـةِ آدَمٌ وَأَبُوْكَ ـ وَٱلثَّقَلاَنِ أَنْتَ ـ مُحَمَّدُ ؟!

ومعناهُ : كيفَ يكونُ آدمُ أَبا الورىٰ ، وأَبوكَ محمَّدٌ ، وأَنتَ الثقلانِ ، قد جمعَ اللهُ فيكَ ما فرَّقَهُ فيهِم من أَنواعِ الفضلِ والكمالِ ؟! وهُوَ من قصيدَةٍ لَهُ فائقةٍ[1] ، غيرَ أَنَّ هٰذا البيتَ مذمومٌ مِنْها ، ومعيبٌ عندَ أَهلِ البيانِ بالتشويشِ[2] .

---

(١) قصيدة مدح بها شجاع بن محمد الطائي المنبجي ومطلعها :

اليَـوْمَ عَهْـدُكُـمُ فـأَيْـنَ ٱلمَـوْعِـدُ هَيْهَـاتَ لَيْـسَ لِيَـوْمِ عَهْـدِكُـمُ غَـدُ

وهي من أربعين بيتاً .

(٢) وذلك لأنه فصل في هذا البيت بين المبتدأ والخبر بجملة من مبتدأ وخبر وهذا تعسف.

ومِنَ المعنىٰ ـ أيضاً ـ قولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٢٠٥ مِنَ الكاملِ] :

إنِّيْ أَرَاكَ مِنَ ٱلْمَكَارِمِ عَسْكَراً فِيْ عَسْكَرٍ وَمِنَ ٱلْمَعَالِيْ مَعْدِنَا

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٦٤ مِنَ الكاملِ] :

اَلْجَيْشُ جَيْشُكَ غَيْرَ أَنَّكَ جَيْشُهُ فِـيْ قَلْبِـهِ وَيَمِيْنِـهِ وَشِمَـالِـهِ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/ ١٩٩ مِنَ الكاملِ] :

لَمَّا سَمِعْتُ بِهِ سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ وَرَأَيْتُـهُ فَـرَأَيْـتُ مِنْـهُ خَمِيْسَـا

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّـا رَأَوْهُ وَحْـدَهُ قَبْـلَ جَيْشِـهِ دَرَوْا أَنَّ كُلَّ ٱلْعَالَمِيْنَ فُضُوْلُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/ ١٧١ مِنَ الكاملِ] :

نُسِقُوْا لَنَا نَسَقَ ٱلْحِسَابِ مُقَدَّماً وَأَتَىٰ فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا[1]

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٧٦ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا عُـدَّ ٱلْكِـرَامُ فَتِلْـكَ عِجْـلٌ كَمَا ٱلأَنْوَاءُ حِيْنَ تُعَدُّ عَامُ[2]

---

(١) المعنىٰ : قالَ الواحِديُّ : جُمِعَ لنا الفضلاءُ في الزمانِ ، ومَضوا متتابعينَ ، متقدمينَ عليكَ في الوجودِ ، فلما أتيت بعدهم . . كانَ فيكَ مِنَ الفضلِ ما كانَ فيهِم ، مثل الحساب يذكر تفاصيلُهُ أولاً ، ثم تجمع تلك التفاصيلُ ، فيُكتبُ في آخرِ الحسابِ ، كذلك أنت . . . جمع فيك ما تفرَّق فيهم مِنَ الفضائِلِ والعلمِ والحكمةِ .

(٢) الأنواءُ ـ جمعُ نَوْءٍ ـ : وهوَ سقوطُ نجمٍ مِن منازلِ القمرِ في المغربِ معَ الفجرِ ، وطلوعُ رقيبِهِ من المشرقِ يقابلهُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٨٧ مِنَ البسيطِ] :

غَدَرْتَ يَا مُوْتُ كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدِ ... بِمَنْ أَصَبْتَ وَكَمْ أَسْكَتَّ مِنْ لَجَبِ[١]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٠ مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا وَزَنْتُ بِكَ ٱلدُّنْيَا وَزَنْتَ بِهَا ... وَبِٱلْوَرَىٰ قَلَّ عِنْدِيْ كَثْرَةُ ٱلْعَدَدِ[٢]

وقد أَساءَ الأَدبَ في هٰذا ؛ لأَنَّهُ ٱنتزعَهُ ممَّا جرىٰ لَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ليلةَ الإِسراءِ ، مِن أَنَّ الملائِكَةَ وزنتْهُ فرجَحَ بأَلفٍ من أُمَّتِهِ[٣] .

ومِنَ المَعنىٰ ـ أَيضاً ـ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَكَ ٱلْخَيْرُ، غَيْرِيْ رَامَ مِنْ غَيْرِكَ ٱلْغِنَىٰ ... وَغَيْـرِيْ بِغَيْـرِ ٱلـلَّاذِقِيَّـةِ لَاحِـقُ

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلأَقْصَىٰ ، وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَىٰ ... مَنْـزِلُـكَ ٱلـدُّنْيَـا، وَأَنْـتَ ٱلْخَـلَائِـقُ

---

(١) اللجَبُ : الصوتُ والجلبةُ ، وجيشٌ لجِبٌ : عرمرمٌ .

(٢) في « العكبري » : (رَجَحْتَ) بدل : (وَزَنْتَ) .

(٣) ليسَ ذلكَ في ٱلإِسراءِ وٱلمعراجِ ، فقد روىٰ الدَّارِمِيُّ في « سُننهِ » (١٤) عنَ أَبي ذرٍّ ـ رَضيَ ٱللهُ عنهُ ـ قالَ : قُلتُ : يا رسولَ ٱللهِ . . كَيفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ نَبِيٌّ حِينَ ٱسْتُنبِئْتَ ؟ فقالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ . . أَتَانِيْ مَلَكَانِ وَأَنَا بِبَعْضِ بَطْحَاءِ (مَكَّةَ) ، فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ، وَكَانَ ٱلآخَرُ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَهُوَ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَزِنْهُ بِرَجُلٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِ فَوَزَنْتُهُ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِعَشَرَةٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِمِئَةٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِأَلْفٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، كَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَنْتَثِرُوْنَ عَلَيَّ مِنْ خِفَّةِ ٱلْمِيْزَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَهَا » .

وهٰذا عِندي أَبدعُها وأَفخَمها ، وأَملؤُها للفمِ ، ولقد أَخطأَ مَنْ فضَّلَ عليهِ قولَ السلاميِّ [كما في « قرى الضيف » ١/ ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَبَشَّرْتُ آمَالِيْ بِمَلْكٍ هُوَ ٱلْوَرَىٰ وَدَارٍ هِيَ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمٍ هُوَ ٱلدَّهْرُ

ولئِن كانَ في بيتِ المتنبي ضميرٌ يتعلَّق بما قبلَهُ ، وهٰذا قائِمٌ بذاتِهِ ، وفيهِ زيادةُ وصفِ اليوم ؛ فإنَّ فيهِ جزالةً وفخامةً ، وحلاوةً وطلاوةً ، لا يوازيها شيءٌ مِمَّا جاءَ في بيتِ السلاميِّ ، ولئِنْ كانَ السلاميُّ هُوَ السابقَ . . فأَصلُ المعنىٰ قولُ عبدَة يَرثي قيسَ بنَ عاصِمٍ المنقريَّ [كما في « المستطرف » ١/ ١٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ وَلَـٰكِنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا

وقولُ ٱبنِ المقفَّعِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٨٧ مِنَ الوافرِ] :

أَتَقْتُلُنِـيْ فَتَقْتُـلَ بِـيْ كَـرِيْمـاً يَمُـوْتُ بِمَـوْتِـهِ بَشَـرٌ كَثِيْـرُ

ويروىٰ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٤] : أَنَّ أَبا تمَّام جاءَ إِلىٰ أَحمدَ ٱبنِ أَبي دؤَادٍ يعتذرُ إِليهِ ، ويقولُ لَهُ : أنتَ جميعُ النَّاسِ ، ولا طاقَةَ لي بغضبِ جميعِ النَّاسِ ، فقالَ لَهُ : ما أَحسنَ هٰذا المعنىٰ! فَمِنْ أَينَ أَخذْتَهُ ؟! قالَ مِن قولِ أَبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٢٠٢ مِنَ السَّريعِ] :

لَيْـسَ عَلَـىٰ ٱللهِ بِمُسْتَنْكَـرٍ أَنْ يَجْمَـعَ ٱلْعَـالَـمَ فِـيْ وَاحِـدِ

وقالَ ٱبنُ دُرَيدٍ [في « المستطرف » ١/ ٤٦٦ مِنَ الرَّجزِ] :

وَٱلنَّـاسُ أَلْـفٌ مِنْهُـمُ كَـوَاحِـدٍ وَوَاحِـدٌ كَـٱلأَلْـفِ إِنْ أَمْـرٌ عَـرَا

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ البسيطِ] :

فَـرْدٌ وَحِيْـدٌ يَـرَاهُ ٱلنَّـاسُ كُلُّهُـمُ كَأَنَّهُ ٱلنَّاسُ طُرّاً وَهْوَ إِنْسَانُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٠ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ ٱلْوَغَىٰ لَغَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِيْ جَحْفَلٍ لَجِبِ

وقالَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرُكَ مَا كَانُوْا ثَلاَثَةَ إِخْوَةٍ وَلَـٰكِنَّهُمْ كَانُوْا ثَلاَثَ قَبَائِلِ

ونظرَ إِليهِ أَبو عبادةَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٣٢ مِنَ الكاملِ] :

كَانُوْا ثَلاَثَةَ أَبْحُرٍ أَفْضَىٰ بِهَا رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ إِلَىٰ ثَلاَثَةِ أَقْبُرِ

وقالَ في أَصلِ المعنىٰ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَرَ أَمْثَالَ ٱلرِّجَالِ تَفَاوَتَتْ لَدَىٰ ٱلْمَجْدِ حَتَّىٰ عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

وقالَ قبلَ ذلكَ جَرِيرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٤٩ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُوْ تَمِيْمٍ رَأَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وأَخذ البوصيريُّ المعنىٰ لِمدحِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فكانَ أَحقَّ بِهِ مِنَ الجميعِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلاَلَتِهِ فِيْ عَسْكَرٍ حِيْنَ تَلْقَاهُ وَفِيْ حَشَمِ

ومصداقُهُ ما يروىٰ عن قَيْلَةَ بنتِ مخرمَةَ : أَنَّها جاءَتْ تطلبُهُ ، فأَلفتْهُ في مسجدِهِ قد توسَّدَ ذراعَهُ ، وعليهِ الجلالُ الإِلـٰهيُّ ، والوقارُ السماويُّ ، والعظمَةُ الربانيَّةُ ، فأَكبرتْهُ ، وأَخذَتْها رعدةٌ مِنَ الفَرَقِ ، فقالَ لَها ﷺ : « هوِّنِي عَلَيْكِ ٱلسَّكِيْنَةَ ، فَإِنِّيْ لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، وَلَـٰكِنِّيْ ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ ٱلْقَدِيْدَ بِمَكَّةَ »[١] .

---

(١) أورده في « كنز العمال » (١٤٩٦٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ونسبه إلى ابن ماجه (٣٣١٢) قال في « الزوائد » : إسناده صحيح ورجاله ثقات . =

فما أَشرفَ هٰذا التواضعَ الكريمَ علىٰ ذلكَ المقدارِ العظيمِ!

وللهِ درُّ الناظمِ في قولِهِ ـ الذي قدْ ذكرناهُ مرَّةً ـ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٩ مِنَ الكاملِ]:

مُتَصَعْلِكِيْنَ عَلَىٰ ضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ   مُتَـوَاضِعِيْـنَ عَلَـىٰ عُلُـوِّ ٱلشَّـانِ

بل ما أَحلىٰ قولَ سبطِ ٱبنِ الفارضِ [في « ديوان ٱبنِ الفارضِ » ٢١٣ مِنَ الطَّويلِ]:

فَيَا رَبِّ بِٱلْخِلِّ ٱلْحَبِيْبِ مُحَمَّدٍ   نَبِيِّكَ وَهُـوَ ٱلسَّيِّـدُ ٱلْمُتَـوَاضِـعُ

أَنِلْنَا مَعَ ٱلأَحْبَابِ رُؤْيَتَكَ ٱلَّتِيْ   إِلَيْهَـا قُلُـوْبُ ٱلأَوْلِيَـاءِ تُسَـارِعُ

فَبَابُكَ مَقْصُوْدٌ وَفَضْلُكَ زَائِدٌ   وَجُوْدُكَ مَوْجُوْدٌ وَعَفْوُكَ وَاسِعُ

ومرِضَ أَبو الفرجِ الدارِميُّ صاحبُ « الاستذْكارِ » فزارَهُ أَبو حامدٍ الإسفراييني ، فقالَ [في « طبقات ابن السبكي » ٤/ ٦٥ مِنَ السَّريعِ]:

مَرِضْتُ فَٱحْتَجْتُ إِلَىٰ عَائِدٍ   فَعَـادَنِـيْ ٱلْعَـالَـمُ فِـيْ وَاحِـدِ

ذَاكَ ٱلإِمَـامُ ٱبْـنُ أَبِـيْ طَـاهِـرٍ   أَحْمَـدُ ذُوْ ٱلْفَضْـلِ أَبُـوْ حَـامِـدِ

وأَبو حامدٍ هٰذا : هُوَ ممدوحُ المعريِّ بقصيدَتِهِ التي مستهلُّها هٰذا [في « سقطِ الزندِ » ١٦٥ مِنَ البسيطِ]:

لاَ وَضْـعَ لِلـرَّحْـلِ إِلاَّ بَعْـدَ إِيْضَـاعِ   فَكَيْفَ شَاهَدْتَ إِمْضَائِيْ وَإِزْمَاعِيْ؟[1]

= بلفظ : « هون عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

(١) لا وضعَ : كنايةٌ عنِ النزولِ . الإيضاعُ : وضع البعيرِ في السيرِ .

وكانوا يصلُّونَ الظهرَ بعدَ الجمعةَ في مسجدِ (المسيلَةِ) ، فقالَ لَهم بدويٌّ : لِماذا ؟ قالوا : لأنَّ الجمعَةَ لا تصِحُّ إلاَّ بأَربعينَ ، والعدَدُ ناقصٌ عندَنا ؛ فلهٰذا نصلِّي الظهرَ احتياطاً ، قالَ لَهم : أَوَليسَ الحبيبُ طاهرٌ[1] وحدَهُ يعدلُ بأَربعينَ ؟ ولا يبعدُ أَن يكونَ منهُ قولهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] .

وقالَ الأَرَّجانيُّ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٠٧ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ زُرْتَهُ لَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ فِيْ رَجُلٍ ... وَٱلدَّهْرَ فِيْ سَاعَةٍ، وَٱلأَرْضَ فِيْ دَارِ

* * *

(١) يعني الإمام المجاهد ، طاهر بن حسين بن طاهر العلوي الحسيني ، ولد سنة : (١١٨٤هـ) وتوفي سنة : (١٢٤١هـ) ، أحد الأئمة الأعيان ، صاحب الشخصية القوية ، الشجاع ، الغيور ، صاحب المؤلفات النافعة ، ومنها « إتحاف النبيل ببعض معان حديث جبريل » .

وقالَ يمدحُ عبيدَ اللهِ بنَ خراسانَ الطرابُلسيَّ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٥ مِنَ البسيطِ] :

أَظَبْيَةَ ٱلْوَحْشِ لَوْلاَ ظَبْيَةُ ٱلإِنْسِ   لَمَا غَدَوْتُ بِجِدٍّ فِي ٱلْهَوَىٰ تَعِسِ

شرح المطلع

(الإِنسُ) : جماعةُ النَّاسِ ، و(ٱلجَدُّ) : الحظُّ وٱلبَخْتُ ، و(التَّعْسُ) : العثورُ ضدُّ ٱلانتعاشِ :

ومنهُ ٱلحديثُ : « تَعِسَ وَٱنْتَكَسَ وَإِذَا شِيْكَ فَلاَ ٱنْتَقَشَ »[1] .

وكانَتِ ٱلعربُ إِذا عثرَتْ . . دعتْ بالتعسِ لِمَنْ تكرَهُ .

ومِنه قولُ أُمِّ مِسطَحٍ في حديثِ الإفكِ الطويلِ : (تعسَ مِسطَحٌ)[2] .

قد يألف الإنسان الوحوش ويخاف من الناس

والحاصِلُ : أَنَّهُ يخاطِبُ الظبيَةَ الوحشيَّةَ ، ولَم يخاطِبها إِلاَّ لإِلفِهِ إِيَّاها ، وسكونِها إِليهِ ؛ مِن كثرَةِ ما يسلُكُ مِنَ البوادي لتطلُّبِ الأُنسِ ، ومناجاةِ النفسِ ، علىٰ حدِّ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَخْـرُجُ مِـنْ بَيْـنِ ٱلْبُيُـوْتِ لَعَلَّنِـيْ   أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِيْ ٱلسِّرِّ خَالِيَا

---

(١) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٨٨٧) في الجهاد ، وابن ماجه (٤١٣٦) في الزهد وأوله : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط » .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري في حديث الإفك (٤٧٥٠) في التفسير .

وقولِ ذي الرُّمَّةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَخُطُّ وأَمْحُو ٱلْخَطَّ ثُمَّ أُعِيْدُهُ ... بِكَفِّيَ وَٱلْغِزْلاَنُ حَوْلِيَ رُتَّعُ
عَشِيَّةَ مَا لِيْ حِيْلَةٌ غَيْرَ أَنَّنِيْ ... بِلَقْطِ ٱلْحَصَىٰ وَٱلْخَطِّ فِيْ ٱلأَرْضِ مُوْلَعُ

وقولِ الآخرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَوَىٰ ٱلذِّئْبُ فَٱسْتَأْنَسْتُ بِٱلذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ ... وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيْرُ

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانِهِ » ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ بَعْدَ أَوْطَانِيْ سُكُوْنٌ إِلىٰ ٱلْفَلاَ ... وَبِٱلْوَحْشِ أُنْسِيْ إِذْ مِنَ ٱلإِنْسِ وَحْشَتِيْ[1]

احببت من اجلكم من كان يشبهكم

يقولُ للظبيَةِ : لَوَلا شبيهُتكِ مِنَ الإنسِ . . لَمَا غدوتُ تاعسَ الجَدِّ ، منكودَ الحظِّ ، مُبلبَلَ البالِ ، هائِماً علىٰ وَجهي مِنَ الهوىٰ ، ولَيسَ في البيتِ ما توضَعُ عليهِ اليدُ ، أَو ينشرحُ لَهُ الصدْرُ ، أَو ينفَتِحُ لَهُ السمعُ ، بَلْ أَنكروا عليهِ قولَهُ : (تَعِسٍ) وقالوا : إِنَّما صوابُهُ تاعِسَ كما عبَّرنا ، والعرَبُ كثيراً ما تشبِّهُ الغِيدَ الحِسانَ برواتِعِ الغزلانِ ، والوجْهُ حُسْنُ الأَجيادِ[2] .

ويروىٰ [في « الأغاني » ٢/٧٥] : أَنَّ المجنونَ ٱشترىٰ ظبيَةً بناقَةٍ ، وأَخذَ يمسحُ عَنْها الترابَ ويقبِّلُها ، ويقولُ [في « ديوانِهِ » ٢٠٦ـ٢٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا شِبْهَ لَيْلَىٰ لاَ تُرَاعِيْ فَإِنَّنِيْ ... لَكِ ٱلْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيْقُ
فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيْدُكِ جِيْدُهَا ... وَلَـٰكِنَّ عَظْمَ ٱلسَّاقِ مِنْكِ دَقِيْقُ

---

(١) سكونٌ : ٱستئناس . أُنسي : نقيض وحشتي . الإِنس : الناسُ .
(٢) الأجياد : الأعناق .

ومرَّ مرَّةً أُخرىٰ برجلينِ ٱصطادا ظَبْيَةً وربَطاها ، فعزَمَ عليهِما أَنْ يُطْلِقاها ، فأَبيا عليهِ ، فٱشتَراها بكبشٍ مِن غنمِهِ ، وأَطلقَهَا ، وفي ذلكَ يقولُ [في « ديوانه » ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

شَرَيْتُ بِكَبْشٍ شِبْهَ لَيْلَىٰ وَلَوْ أَبَوْا لأَعْطَيْتُ مَالِيْ مِنْ طَرِيْفٍ وَتَالِدِ

وَلَوْ كُنْتُمَا حُرَّيْنِ مَا بِعْتُمَا فَتىً شَبِيْهاً بِلَيْلَىٰ بَيْعَةَ ٱلْمُتَزَايِدِ

وأَعْتَقْتُمَاهَا رَغْبَةً فِيْ ثَوَابِهَا وَلَمْ تَرْغَبَا فِيْ نَاقِصٍ غَيْرِ زَائِدِ

وقيلَ : إِنَّ الرجلينِ أَخوهُ وٱبنُ عمِّه ، وإِنَّهُ أَنشدَهُما [في « ديوانه » ٢٨٥ مِنَ البسيطِ] :

يَا صَاحِبَيَّ ٱللَّذَيْنِ ٱلْيَوْمَ قَدْ رَبَطَا شِبْهاً لِلَيْلَىٰ بِحَبْلٍ ثُمَّ غَلاَّهَا

إِنِّيْ أَرَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ أَعْطَافِ شَاتِكُمَا مَشَابِهاً أَشْبَهَتْ لَيْلَىٰ فَحُلاَّهَا

ولَمَّا أَبَيا . . تهدَّدَهُما بالقتْلِ ، وكانَ أَجلدَ مِنهما قبلَ أَنْ يشتَدَّ بِهِ الهوىٰ ، فأَطْلَقاها .

ويحكىٰ عَنِ الأَصمعيِّ : أَنَّهُ رأَىٰ أَعرابياً صنعَ ما هُوَ أَكبرُ مِن ذلكَ ، وأَنشدَ ـ ومِنْ شعرِهِ تُعرَفُ قصَّتُهُ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَذَكَّرَنِيْ مَنْ لا أَبُوْحُ بِحُبِّهِ مَحَاجِرَ ظَبْيٍ فِيْ حُبَالَةِ قَانِصِ

فَقُلْتُ وَأَسْرَابُ ٱلدُّمُوعِ سَوَافِحٌ وَعَيْنِيْ إِلىٰ عَيْنَيْهِ نَظْرَةُ شَاخِصِ

أَلاَ أَيُّهَـٰذَا ٱلْقَانِصُ ٱلظَّبْيِ خَلِّهِ فَإِنَّا فَدَيْنَاهُ بِسَبْعِ قَلاَئِصِ

خَفِ ٱللهَ لا تَخْبِسْهُ إِنَّ شَبِيْهَهُ حَبِيْبِيْ وَقَدْ أَرْعَدَتْ مِنْهُ فَرَائِصِيْ

أَو ما يقربُ مِن هـٰذا .

ومِن أَكاذيبِ أَبي حيَّةَ النميريِّ ـ وهُوَ مِمَّن يروي عَنِ الفرزدقِ ـ :

أَنَّهُ قالَ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٣٢٧] : رميتُ يوماً ظبيَةً ، فلَمَّا خرجَ السهمُ . ذكرْتُ بالظبيَةِ حبيبةً لي ، فشدَدْتُ خلْفَ السَّهمِ حتَّىٰ أَدركتُهُ قبلَ أَن يصيبَها ، وأَخذْتُ بقَذَذِهِ ، وما تركتُهُ يَمَسُّها .

ومَعَ خسَّةِ هٰذهِ الأُكذوبةِ ، وسقوطِ قذْرِها ، فقد نظرَ إِليها الناظمُ بعينِ الاستحسانِ ، وشنَّ الغارَةَ علَيها ، حتَّىٰ أَخذَها في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَكَادُ يُصِيبُ ٱلشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمْيِهِ وَيُمْكِنُهُ فِي سَهْمِهِ ٱلْمُرْسَلِ ٱلرَّدُّ

ولَيستْ هٰذهِ بأَقبحَ مِن قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٣ مِنَ الوافرِ] :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا : جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيراً ، وَٱبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعَا[1]

فما أَخذَ هٰذا المعنىٰ إِلاَّ مِن أُكذوبةٍ كذبَها أَبو العنبسِ الصيمريُّ عَنْ لسانِ رجُلٍ مِنَ العرَبِ ، زعمَ أَنَّهُ قالَ : رأَيتُ رجلاً نامَ ، وفي يدِهِ غَمْرٌ ، فَجَرَّهُ النملُ ثلاثةَ فراسخَ ، فأُعجبَ بها أَبو الطيِّبِ ، ورأَىٰ أَن لا يُخلِّي ديوانَهُ عن مثلِها ، ولم يَكْفِهِ حتَّىٰ جعلَ موضِعَ الرجلِ جبلاً ، ولئِن أَشارَ إِلىٰ ٱستحالتِهِ . فقد أَعادَهُ في قصيدَةٍ أُخرىٰ يقولُ [في « العُكبريّ » ٣/ ٢٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ ٱلْجَهْلُ وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ ٱلنَّمْلُ

فما كانَ أَثقلَ روحَهُ ، وأَقلَّ فتوحَهُ ، في أَمثالِ هٰذا الكلام البارِدِ السخيفِ ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

---

(١) الثبيرُ : جبلٌ معروفٌ بـ(الحجازِ) ، قيل فيه : أشرق ثبير كيما نغير .

وعلىٰ ذكرِ إرسالِ الظباءِ ، لا بدَّ مِن أَن نشيرَ إلىٰ ما قالهُ فقهاؤُنا : مِن حرمَةِ إطلاقِ الصيدِ ؛ لأَنَّهُ يشبهُ سوائِبَ الجاهليَّةِ ، قالَ ٱبنُ حجرٍ : نعم ، إنْ قالَ عندَ إرسالِها : أَبحتُهُ لِمَن يأْخذُهُ . . أُبيحَ لآخذِهِ أَكلُهُ فقط . اهـ .

وظاهرُهُ : أَنَّ ذلكَ القولَ لا يبيحُ الإرسالَ ، ونظرَ الرمليُّ في الجوازِ حينئذٍ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلاَ سَقَيْتُ ٱلثَّرَىٰ وَٱلْمُزْنُ مُخْلِفُهُ   دَمْعاً يُنَشِّفُهُ مِنْ لَوْعَةٍ نَفَسِيْ

شرح المطلع

يقول لِلظَّبيَةِ ـ أَيضاً ـ : لَولا شبيهَتُكِ . . لَمَا سقيتُ الثَّرىٰ عندَ أَخلافِ المُزنِ دمعاً ، تتبعُهُ حرارةُ الأنفاسِ فتنشِّفُهُ .

إطفاء الدمع بنار الفؤاد

وللهِ درُّ ٱبنِ الفارضِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٤ مِنَ البسيطِ] :

وَأَدْمُعٌ هَمَلَتْ لَوْلاَ ٱلتَّنَفُّسُ مِنْ   نَارِ ٱلْهَوَىٰ لَمْ أَكَدْ أَنْجُوْ مِنَ ٱللُّجَجِ[1]

ففي البيتِ نوعٌ مِنَ الطِّباقِ في الجمعِ بينَ الماءِ والنارِ .

وقد قالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ البسيطِ] :

لا تَعْجَبَا أَنَّ دَمْعاً فَاضَ مِنْ حُرَقٍ   مَاءٌ أَفَاضَتْهُ نَارٌ مِنْ مَرَاجِلِهِ

وَمِمَّا جَاءَ في ٱحتراقِ القلبِ ، وشدَّةِ النَّفَسِ ، قولُ أَبي الطَّمحَانِ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

هَلِ ٱلْوَجْدُ إِلاَّ أَنَّ قَلْبِيَ لَوْ دَنَا   مِنَ ٱلْجَمْرِ قِيْدَ ٱلرُّمْحِ لاحْتَرَقَ ٱلْجَمْرُ ؟

وقولُ ٱبنِ الأَحنفِ [في « ديوانه » ١٥٨ مِنَ البسيطِ] :

يَا قَابِسَ ٱلنَّارِ قَدْ أَعْيَتْ قَوَادِحُهُ   اِقْبِسْ إِذا شِئْتَ مِنْ قَلْبِيْ بِمِقْبَاسِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

جَرَّبْتُ مِنْ حَرِّ ٱلْهَوَىٰ مَا تَنْطَفِيْ   نَارُ ٱلْغَضَىٰ وتَكِلُّ عَمَّا تُحْرِقُ

---

(١) هملت : ٱنصبَّت . اللُّججُ ـ الواحدة لُجَّةٌ ـ : معظمُ الماءِ .

وقالَ الخابز أرزيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

بِقَلْبِيَ جَمْرٌ مِنْ هَوَاهُ فَإِنْ أَكُنْ شَكَوْتُ فَهَـٰذَا الْوَجْدُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْرِ

وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَقِّ الْهَوَىٰ إِنِّي أُحِسُّ مِنَ الْهَوَىٰ عَلَىٰ كَبِدِيْ جَمْراً وَفِيْ أَعْظُمِيْ رَضًّا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ ـ وهُوَ مما سبقَ لنا ذكرُهُ ـ [في « ديوانِهِ » ١/ ٣٨١ مِنَ البسيطِ] :

تَعْتَادُنِيْ زَفَرَاتٌ حِيْنَ أَذْكُرُهَا تَكَادُ تَنْقَدُّ مِنْهُنَّ الْحَيَازِيْمُ

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا بَعَثْتَ إِلَىٰ الْهَوَىٰ بَعَثَ الْهَوَىٰ نَفَساً يَكُوْنُ عَلَىٰ الضَّمِيْرِ دَلِيْلا

وقالَ غيرُهُ [وهو الصِمَّةُ بن عبد اللهِ في « الأغاني » ٦/٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا زَفَرَاتُ الْحُبِّ صَعَّدْنَ فِيْ الْحَشَا وَرَدْنَ وَلَمْ يُوْجَدْ لَهُنَّ طَرِيْقُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢١٩ مِنَ الكاملِ] :

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا بِالدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُوْلَ وُقُوْدِ

وهُوَ مخالِفٌ لبعضِ ما سبقَ ، أَواخرَ المجلسِ السادسِ ، قبيلَ قولِ الناظم [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَىٰ الْمَوْتَ فِيْ الْهَيْجَا جَنَىٰ النَّحْلِ فِيْ الْفَمِ

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الكاملِ] :

فَبَدَتْ تُشِبُّ بِدَمْعِهَا نَارَ الْهَوَىٰ مَنْ ذَا رَأَىٰ نَاراً تُشَبُّ بِمَاءِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٠ مِنَ البسيطِ] :

وَكُلَّمَا فَاضَ دَمْعِي غَاضَ مُصْطَبَرِيْ ... كَأَنَّ مَا فَاضَ مِنْ جَفْنَيَّ مِنْ جَلَدِيْ

وقالَ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٢٧٤ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ ٱلسِّلَاحِ عَلَىٰ ٱلْبُكَا ... فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَقَلْبَكَ تُفْزِعُ

سكينة بنت الحسين تسأل عروة عن أذينة

ويحكىٰ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٢١] : أَنَّ سُكينةَ ٱبنةَ الحسينِ وقفَتْ علىٰ عروةَ بنِ أُذينَةَ ، وكانَ ثقةً في الحديث ، أَخرجَ لَهُ مالِكُ ٱبنُ أَنسٍ ، فقالَتْ لَهُ : أَنتَ الذي يقالُ فيكَ الرجلُ الصالحُ ، أَلستَ القائِلَ [في « ديوانهِ » ٢٩ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا وَجَدْتُ أُوَارَ ٱلْحُبِّ فِيْ كَبِدِيْ ... ذَهَبْتُ نَحْوَ سِقَاءِ ٱلْمَاءِ أَبْتَرِدُ[1]

هَبْنِيْ بَرَدْتُ بِمَسِّ ٱلْمَاءِ ظَاهِرَهُ ... فَمَنْ لِنَارٍ عَلَىٰ ٱلْأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ ؟!

قالَ لَها : بلىٰ ، فأَشارَتْ إِلىٰ جَواريها ، وقالَتْ : هُنَّ حرائِرُ إِن خرجَ هٰذا مِن قلبٍ سليمٍ .

الرشيد وعقد الجارية

ويروىٰ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٣١] : أَنَّ هاشمَ بنَ سليمانَ مولىٰ بني أُميَّةَ ، غنَّىٰ للرشيدِ مرَّةً بما سبقَ من قولِ جميلٍ [في « ديوانهِ » ١٧٦-١٧٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا تَرَاجَعْنَا ٱلَّذِيْ كَانَ بَيْنَنَا ... جَرَىٰ ٱلدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِٱلْكُحْلِ

فَيَا وَيْحَ نَفْسِيْ حَسْبَ نَفْسِيَ ٱلَّذِيْ بِهَا ... وَيَا وَيْحَ عَقْلِيْ مَا أُصِيبُ بِهِ أَهْلِيْ

خَلِيْلَيَّ فِيْمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا ... قَتِيْلاً بَكَىٰ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ مِثْلِيْ ؟

---

(١) أُوارُ الحبِّ : حرارتُهُ .

فطربَ الرشيدُ ، وقلَّدَ هاشِماً عِقداً نفيساً ، فاْغرورَقَتْ عيناهُ بالدموعِ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما يبكيكَ ؟ فتلَجْلَجَ حتَّىٰ أَلَحَّ عليهِ ، فقالَ : إِنَّ لهـٰذا العقدِ قصَّةً ، قالَ : ما هِيَ ؟ قالَ : أَحضَرَني الوليدُ يوماً ، غنَّتْهُ فيهِ إِحدىٰ حَظاياهُ فأَصلحْتُ غناءَها ، فدفعَتْ لي هـٰذا العقْدَ ، وظَلْنا بِأَسعدِ يومٍ وأَهناهُ ، ولَمَّا قدموا السفينةَ في العشيِّ ليركبوا عَلَيها . . سقطتِ الجاريَةُ ، ولَمْ يَقدِروا عَلَيها ، فاْشتدَّ جزَعُ الوليدِ ، واْستردَّ العِقد مِنِّي ؛ ليتذكَّرَها بهِ ، ويشمَّها فيهِ ، ودفَعَ لي ثلاثينَ أَلفاً عوضاً عنهُ ، فقالَ لهُ الرشيدُ : لا تعجَبْ ؛ فإِنَّ اللهَ كَما ورَّثَنا مُلْكَهم ، وَرَّثَنا أَموالَهم ، فسبحانَ مَنْ لا يزولُ مُلكُهُ!

ويُذكرُ [بنحوه في « المستطرف » ٢/٣٣١] : أَنَّ إِسحاقَ الموصلِّيَّ غنَّىٰ الواثقَ بنَ المعتصِمِ بهـٰذه الأَبياتِ [مِنَ البسيطِ] :

مَاكُنْتُ أَعلَمُ مَا فِيْ ٱلْبَيْنِ مِنْ شَجَنٍ	حَتَّىٰ تَنادَوْا بِأَنْ قَدْ جِيْءَ بِٱلسُّفُنِ
قَـامَـتْ تُـوَدِّعُنِـيْ وَٱلـدَّمـعُ يَغْلِبُهَـا	فَهَمْهَمَتْ بَعْضَ مَا قَالَتْ وَلَمْ تُبِنِ
مَالَتْ إِلَيَّ وَضَمَّتْنِي لِتَرْشُفَنِيْ	كَمَا يَمِيلُ نَسِيمُ ٱلرِّيحِ بِٱلْغُصُنِ
وَأَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ بَاكِيَةٌ	يَا لَيْتَ مَعرِفَتِيْ إِيَّاكَ لَمْ تَكُنِ

فكادَ الواثقُ أَنْ يطيرَ مِنَ الطَّرَبِ والارتياحِ ، ثمَّ غنَّىٰ إِسحاقُ بالأَبياتِ الآتيةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

قِفِـيْ وَدِّعِينَـا يَـا سُعَـادُ بِنَظْـرَةٍ	فَقَدْ حَانَ مِنَّا يَا سُعَادُ رَحِيْلُ	قفي ودعينا يا سعاد
فَيَا جَنَّةَ ٱلدُّنْيَا وَيَا غَايَةَ ٱلْمُنَىٰ	وَيَا سُؤْلَ نَفْسِيْ هَل إِلَيْكِ سَبِيْلُ	
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ لِعِلَّةٍ	فَأَفْنَيْتِ عِلاَّتِيْ فَكَيْفَ أَقُوْلُ ؟	
فَمَا كُلُّ يَوْمٍ لِيْ بِأَرْضِكِ حَاجَةٌ	وَلاَ كُلُّ يَوْمٍ لِيْ إِلَيْكِ وُصُوْلُ	

فما تركَ الواثِقُ دمعَةً إلاَّ ذراها ، ولا عَبرَةً إلاَّ أجراها .

هل تعار العين للبكاء؟!

وربَّما تقِلُّ مناسَبَةُ البيتِ للحِكايتين ، غيرَ أنَّهُ يَكفي اجتماعُهما في إرسالِ العَبَراتِ التي من لازِمِها تصاعُدُ الزفرَاتِ ، ولله درُّ العبَّاسِ بنِ الأحنفِ في قولِهِ [في «ديوانه» ١١٦ مِنَ الكاملِ] :

نَزَفَ ٱلْبُكَاءُ دُمُوْعَ عَيْنِكَ فَٱسْتَعِرْ عَيْنـاً لِغَيْـرِكَ دَمْعُهَـا مِـدْرَارُ
مَـنْ ذَا يُعِيْـرُكَ عَيْنَـهُ تَبْكِـيْ بِهَـا أَرَأَيْـتَ عَيْنـاً لِلْبُكَـاءِ تُعَـارُ ؟!

وقالَ الحسينُ بنُ مطيرٍ [في «ديوانه» ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ كَبِدٌ مَقْرُوْحَةٌ مَنْ يَبِيْعُنِيْ بِهَا كَبِداً لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوْحِ
أَبَىٰ ٱلنَّاسُ وَيْبَ ٱلنَّاسُ لاَ يَشْتَرُوْنَهَا وَمَنْ يَشْتَرِيْ ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيْحِ[١] ؟

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَهَلْ مِنْ مُعِيْرٍ طَرْفَ عَيْنٍ خَلِيَّةٍ فَإِنْسَانُ عَيْنِ ٱلْعَامِرِيِّ كَلِيْمُ ؟

* * *

(١) وَيْبَ : أي ويأبَ .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٢/ ١٨٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلاَ وَقَفْتُ بِجِسْمٍ مُسْيَ ثَـالِثَـةٍ	ذِيْ أَرْسُمٍ دُرُسٍ فِيْ ٱلأَرْبُعِ ٱلدُّرُسِ

شرح المطلع (المُسْيُ) : المساءُ ، كالصبحِ والصباحِ ، و(الأَرْسُمُ) : جمعُ رَسمٍ ، وهوَ أَثرُ الديارِ ، و(الدُّرُسُ) : جمع دارسٍ ، وهُوَ الذي ٱنمحىٰ ، يقولُ : لولا هـٰذهِ الظبيَةُ . . لَما وقفتُ برسومِ دارِها مساءَ الليلةِ الثالثَةِ مِن ظَعنِها ؛ أَي : لَمَا وقفتُ بربْعِها مَعَ قربِ العهدِ بلقائِها ، وكانَ وقوفي علىٰ رسومِها بجسمٍ دارسٍ ناحلٍ ، قد أَبلاهُ الحزنُ ، وأَنحلَهُ حتَّىٰ عادَ مثلَ تلكَ الرسومِ ، إلاَّ أَنَّهُ قد يشكِلُ ٱنمحاءُ الآثارِ مع قربِ الوقتِ ، فهلاَّ قالَ مثلَ ما قالَ النابغةُ [الذبيانيُّ في « ديوانهِ » ٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـوَهَّـمْـتُ آيَـاتٍ لَهَـا فَعَـرَفْتُهَـا	لِسِتَّـةِ أَعْـوَامٍ وَذَا ٱلْعَـامُ سَـابِعُ

أَو [مثلَ] ما قالَ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٩ـ١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَارٌ لَهَـا بِـٱلـرَّقْمَتَيْـنِ كَـأَنَّهَـا	مَرَاجِعُ وَشْمٍ فِيْ نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِيْنَ حِجَّةً	فَلأْياً عَرَفْتُ ٱلدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

الاشتياق قبل الفراق أَمَّا فَرْطُ الاشتياقِ معَ قربِ مدَّةِ الفراقِ : فإِنَّهُ ليسَ بِبِدْعٍ ؛ إِذْ قالَ الأَعرابيُّ [في « جمهرة الأمثال » ٢/ ٣٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَشَوْقاً وَلَمَّا تَمْضِ لِيْ غَيْرُ لَيْلَةٍ	فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ ٱلْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا ؟

وقالَ أَحدُ بني العنبرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَهَـٰذَا وَلَمَّـا تَمْضِ لِلبَيْنِ لَيْلَـةٌ	فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ شُهُوْرُ؟

وفي عكسِهِ : يقولُ شاعرُ المعرَّةِ [في « نفح الطيب » ٦/ ٩٣ مِنَ البسيطِ] :

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُنَاجِيْ ٱلشَّوْقَ نَاجِيَةٌ ... هَلاَّ وَنَحْنُ عَلَىٰ عَشْرٍ مِنَ ٱلْعُشَرِ؟

إِنَّما البِدْعُ انمحاءُ الآثارِ بعقبِ وقْتِ الارتحالِ ، إلاَّ أَنْ يُقالَ : إنَّ بيوتَهم كانَتْ مِن شَعْرٍ ، يُعَفِّي أَثَرَها أَوَّلُ ريحٍ تَهُبُّ ، وكيفَما كانَ الأَمرُ . . فالأَولىٰ في المعنىٰ ما قالهُ الواحديُّ : إنَّهُ وقفَ عَليها ثلاثةَ أَيَّامٍ يناجي الدِّيَارَ ، ويتشمَّمُ الآثارَ ، علىٰ حدِّ قولِ أَبي نواسٍ ، الذي بالَغَ الجاحِظُ في الثَّنَاءِ عليهِ [في « المثل السائر » ٢/ ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَارِ نَدَامَىٰ عَطَّلُوْهَا وَأَدْلَجُوْا ... بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيْدٌ وَدَارِسُ[١]

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ ٱلزِّقَاقِ عَلَىٰ ٱلثَّرَىٰ ... وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ[٢]

وَقَفْنَا بِهَا يَوْماً وَيَوْماً وَثَالِثاً ... وَيَوْماً لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

تُدَارُ عَلَيْنَا ٱلرَّاحُ فِيْ عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ ٱلتَّصَاوِيْرِ فَارِسُ[٣]

قَرَارَتُهَا كِسْرَىٰ وَفِيْ جَنَبَاتِهَا ... مَهاً تَدَّرِيها بِٱلْقِسِيِّ ٱلْفَوَارِسُ[٤]

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوْبُهَا ... وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَلاَنِسُ

وقدِ اختُلِفَ في مدَّةِ الإقامةِ المرادَةِ مِنَ البيتِ الثالث ، فقيلَ : سبعةُ أَيَّامٍ ؛ لأَنَّ اليومَ الذي يكونُ لهُ يومَ الترحُّلِ خامساً هُوَ الرابعُ ، وقيلَ : خمسةٌ ، والمرادُ يومُ الترحُّلِ خامِسَ الأَيَّامِ ، وقد نُسِبَ إلىٰ الرابعِ لالتصاقِهِ بهِ ، وسنتكلَّمُ علىٰ هـٰذهِ الأَبياتِ فيما بعدُ .

---

(١) أَدلجوا : ساروا من أَوَّلِ الليلِ .

(٢) الزقاقُ : أوعيةُ الخمرِ . أضغاثُ ريحانٍ ـ جمعُ ضِغْثٍ ـ والضغثُ : القبضةُ منهُ .

(٣) عسجديَّةٌ : ذهبيَّةٌ .

(٤) تدَّرِيها : تختِلُها لتصطادَها مِن دونِ أَنْ تشعرَ .

التعلل بآثار الحبيب لإطفاء ما في القلب من اللهيب.. سنَّة العرب

أَمَّا الآنَ : فسنبدأُ بِما يناسِبُ البيتَ مِنَ التَّعَلُّلِ بالآثارِ ، وزيارةِ الأَطلالِ ، فما زالَتْ تلكَ سنَّةُ العرَبِ ، والحكمَةُ فيها أَنَّهم معَ سلامَةِ الفطرَةِ ، ورقَّةِ الطبْعِ ، وغلبَةِ الحُبِّ ، وصدْقِ الهوىٰ ، وتمَكُّنِ الأُلفَةِ.. كانوا رحَّالَةً في الأَغلبِ ، ينتجعونَ كلَّ حينٍ غيثاً ، ويرتادونَ كلَّ وقتٍ شِعْباً ، فإِذا جاءَ أَحبابُهم وقد تحمَّلوا.. عَكَفوا علىٰ آثارِهِم ، وتعلَّلُوا بما يتنسَّمونَ مِن روائِحِهم في آثارِهِم ، ويَجِدونَ في ذلكَ نوعاً مِنَ الوِصالِ ، ولِهـٰذا أَكثروا في أَشعارِهِم مِن ذِكرِ الأَطلالِ والديارِ ، قالَ أمرؤُ القيسِ [في « ديوانه » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ ٱللِّوَىٰ بَيْنَ ٱلدَّخُوْلِ فَحَوْمَلِ[1]

وقالَ [في « ديوانه » ١٧٢ مِنَ السَّريعِ] :

صُـمَّ صَـدَاهَـا وَعَفَـا رَسْمُهَـا ... وَٱسْتَعْجَمَتْ مِنْ مَنْطِقِ ٱلسَّائِلِ

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانه » ٧ مِنَ الطَّويلِ] :

سَلِ ٱلرَّبْعَ أَنَّىٰ يَمَّمَتْ أُمُّ سَالِمٍ ... وَهَلْ عَادَةٌ لِلرَّبْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا ؟!

وقالَ أَعشىٰ وائِلٍ [في « ديوانه » ٢٨٣ مِنَ الخفيفِ] :

مَـا بُكَـاءُ ٱلْكَبِيْـرِ بِـالأَطْـلاَلِ ... وَسُـؤَالِـيْ وَمَـا تُجِيْـبُ سُـؤَالِـيْ

وقالَ النابغَةُ [الذبيانيُّ في « ديوانه » ٢٣٣ مِنَ البسيطِ] :

وَٱسْتَعْجَمَتْ دَارُ نُعْمٍ مَا تُكَلِّمُنَا ... وَٱلـدَّارُ لَـوْ كَلَّمَتْنَـا ذَاتُ أَخْبَـارِ

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

يَقَرُّ لِعَيْنِيْ أَنْ أَرَىٰ مِنْ مَكَانِهَا ... ذُرَىٰ عُقُدَاتِ ٱلأَبْرَقِ ٱلْمُتَقَاوِدِ

---

(١) سقطُ اللِّوى : اسمُ موضعٍ ، وكذلك الدخول وحومل .

وَأَنْ أَرِدَ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي شَرِبَتْ بِهِ سُلَيْمَىٰ إِذا مَلَّ ٱلسُّرَىٰ كُلُّ وَاحِدِ
وَأُلْصِقَ أَحْشَائِيَ بِبَرْدِ تُرَابِهِ وَإِنْ كَانَ مَمْزُوجاً بِسُمِّ ٱلأَسَاوِدِ

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشيريُّ [في « ديوانه » ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا نَزَلْنَا شِيْحَةَ ٱلرَّمْلِ أَعْرَضَتْ وَلاَحَتْ لَنَا حُزْوَىٰ وَأَعْلاَمُهَا ٱلْغُبْرُ
شَرِبْنَا بِمَاءِ ٱلشَّوْقِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا سَرَتْ فَٱسْتَقَرَّتْ فِيْ مَفَاصِلِنَا ٱلْخَمْرُ
وَظَلَّ بِعَيْنَيْكَ ٱللَّجُوجَيْنِ وَاكِفٌ مِنَ ٱلدَّمْعِ أَنْ لا يَنْطِقَ ٱلطَّلَلُ ٱلْقَفْرُ
عَلاَمَ تَقُوْلُ ٱلْهَجْرُ يَشْفِيْ مِنَ ٱلْجَوَىٰ؟! أَلاَ لاَ وَلَٰكِنْ أَوَّلُ ٱلْكَمَدِ ٱلْهَجْرُ

وقالَ بعضُ أَهلِ الجاهليَّةِ [في « طبقات ابن السبكي » ٣/٣١٨ مِنَ الوافرِ] :

أَمُرُّ عَلَىٰ ٱلدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَىٰ أُقَبِّلُ ذَا ٱلْجِدَارَ وَذَا ٱلْجِدَارَا
وَمَا حُبُّ ٱلدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِيْ وَلَٰكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ ٱلدِّيَارَا

وقالَ أَبو حيَّةَ [في « ديوانه » ١٠٠ـ١٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ حَيِّ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَبِيْبِ ٱلْمَغَانِيَا لَبِسْنَ ٱلْبِلَىٰ مِمَّا لَبِسْنَ ٱللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَىٰ ٱلْمَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لاَ يَمَلُّ ٱلتَّقَاضِيَا

وقالَ آخرُ مِنَ العَرَبِ [في « ديوان الحماسة » ٢/١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ كُلَّ أَرْضٍ أَوْطَنَتْهَا وَإِنْ خَلَتْ لَهَا حِجَجٌ يَنْدَىٰ بِمِسْكٍ تُرَابُهَا

وخيرُ ما في البابِ علىٰ الإطلاقِ قولُ كُثيِّرِ عزَّةَ [في « ديوانه » ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ هَٰذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَٱعْقِلاَ قَلُوْصَيْكُمَا ثُمَّ ٱحْلُلاَ حَيْثُ حَلَّتِ
وَمُسَّا تُرَاباً طَالَمَا مَسَّ جِلْدَهَا وَبِيْتَا وَظَلاَّ حَيْثُ بَاتَتْ وَظَلَّتِ
وَلاَ تَيْأَسَا أَنْ يَقْبَلَ ٱللهُ مِنْكُمَا إِذَا أَنْتُمَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّتِ

وما سبق أَوائِلَ المجلسِ التاسعِ من قولِ بعضِهِم [وهو البحتري كما في « المثل السائر » ٢/ ٢٩١ مِنَ الخفيفِ] :

قِفْ مَشُوْقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيْناً   أَوْ مُعِيْنـاً أَوْ عَـاذِراً أَوْ عَـذُوْلاَ

وقالَ العكوَّكُ [مِنَ البسيطِ] :

خَلَّفْتِنِيْ نِضْوَ أَحْزَانٍ أُعَالِجُهَا   بِالْجَزْعِ أَنْدُبُ فِيْ أَنْضَاءِ أَطْلاَلِ

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٤٥١ـ١٤٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفِ الْعِيْسَ فِيْ أَطْلاَلِ مَيَّةَ وَاسْأَلِ   رُسُوْماً كَأَخْلاَقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

وَمَا يَوْمُ حُزْوَىٰ إِنْ بَكَيْتُ صَبَابَةً   لِعِرْفَانِ رَبْعٍ أَوْ لِعِرْفَانِ مَنْزِلِ(١)

بِأَوَّلِ مَا هَاجَتْ لَكَ الشَّوْقَ دِمْنَةٌ   بِأَجْرَعَ مِقْفَارٍ مُرِبٌّ مُحَلَّلِ(٢)

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٧١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا اسْتَحْلَبَـتْ عَيْنَيْـكَ إِلاَّ مَحَلَّـةٌ   بِجُمْهُوْرِ حُزْوَىٰ أَوْ بِجَرْعَاءِ مَالِكِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٨٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَفْـتُ عَلَـىٰ رَبْـعٍ لِمَيَّـةَ نَـاقَتِـيْ   فَمَا زِلْتُ أَبْكِيْ عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ

وَأَسْقِيْـهِ حَتَّـىٰ كَـادَ مِمَّـا أَبُثُّـهُ   تُكَلِّمُنِـيْ أَحْجَـارُهُ وَمَـلاَعِبُـهْ

ويروىٰ [في « الأغاني » ١/ ٦١] : أَنَّ الوليدَ استقدَمَ معبداً علىٰ البريد ، وأَمَرَهُ أن يغنِّيهِ بهـٰذِهِ الأَبياتِ [مِنَ الكاملِ] :

يَا رَبْعُ مَا لَكَ لاَ تُجِيْبُ مُتَيَّمَا ؟   قَدْ عَاجَ نَحْوَكَ زَائِراً وَمُسَلِّمَا

---

(١) حُزوى : موضعٌ بالباديةِ .

(٢) الدِّمنة : آثارُ الناسِ وأطلالُهم . الأجرعُ : الكثيبُ الليِّنُ . المقفارُ : الخالي من الأمكنةِ . مُرِبٌّ محلَّلٌ : يرُبُّ الناسَ ويجمعُهم .

جَـادَتْـكَ كُـلُّ سَحَـابَـةٍ هَطَّـالَـةٍ حَتَّـىٰ تُـرَىٰ عَـنْ زَهْـرَةٍ مُتَبَسِّمَـا
لَوْ كُنْتَ تَدْرِيْ مَنْ دَعَاكَ أَجَبْتَهُ وَبَكَيْتَ مِنْ حُرَقٍ عَلَيْهِ إِذاً دَمَا

فغنَّاهُ ، ووصلَهُ بعشرةِ آلافِ دينارٍ[1] ، وردَّهُ إِلىٰ (المدينَةِ) من وقتِهِ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٢١ مِنَ الكاملِ] :

لاَ أَنْتَ أَنْتَ وَلا ٱلدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ ٱلنَّوىٰ وَتَقَضَّتِ ٱلأَوْطَارُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفُوْا جَدِّدُوْا مِنْ عَهْدِكُمْ بِٱلْمَعَاهِدِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَسْمَعْ لِنِشْدَانِ نَاشِدِ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨١ مِنَ الوافرِ] :

أَظُنُّ ٱلدَّمْعَ فِيْ خَدِّيْ سَيَبْقَىٰ رُسُوْماً مِنْ بُكَائِيْ فِي ٱلرُّسُوْمِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَعَـنْ سَفَـهٍ يَـوْمَ ٱلأُبَيْـرِقِ أَمْ حِلْـمِ وُقُوْفٌ بِرَبْعٍ أَوْ بُكَاءٌ عَلَىٰ رَسْمِ[3] ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٦ مِنَ الكاملِ] :

تَأْبَىٰ ٱلْمَنَازِلُ أَنْ تُجِيْبَ وَمِنْ جَوىً يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ دَعَوْتُ غَيْرَ مُجِيْبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٢٣ـ١٩٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتُ أُجْرِيْ أَدْمُعِيْ مِنْ شُؤُوْنِهَا رُبُـوْعٌ لَهَـا بِـٱلأَبْـرَقَيْـنِ وَأَرْسُـمُ
وَقَفْتُ بِها وَٱلرَّكْبُ شَتَّىٰ سَبِيْلُهُمْ يُفِيْضُوْنَ ، مِنْهُمْ : عَاذِرُوْنَ وَلُوَّمُ

---

(١) ولكن في « الأغاني » (١/ ٦١) خمسة عشر ألفاً .
(٢) المعاهد : المنازلُ يُرجَعُ إليها بعدَ فراقِها .
(٣) الأُبيرقُ : موضعٌ .

هِـيَ ٱلـدَّارُ إِلاَّ أَنَّهـا لاَ تَكَلَّـمُ   عَفَا مَعْلَمٌ مِنْهَا وَأَقْفَرَ مَعْلَمُ[1]

تُقَيِّضُ لِيْ - مِنْ حَيْثُ لاَ أَعلَمُ - ٱلنَّوَىٰ   وَيَسْرِيْ إِلَيَّ ٱلشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

وقالَ أَبو هنَّانَ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تُصَافِحْ رِجْلُهَا صَفْحَةَ ٱلثَّرَىٰ   لَمَـا كُنْـتُ أَدْرِيْ عِلَّـةً لِلتَّيَمُّـمِ

وقد أَغارَ علىٰ هـٰذا شيخُنا أَبو بكرِ ٱبنُ شهابٍ في رثائِهِ لسيِّدِنا الحسينِ .

وأَوَّلُ من بكىٰ علىٰ الآثارِ رجلٌ مِنَ العربِ ، يقالُ لَهُ : ٱبنُ حِذامٍ ، بشهادةِ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ٢٠٠ مِنَ الكاملِ] :

عُوْجَا عَلَىٰ ٱلطَّلَلِ ٱلْمُحِيْلِ لَعَلَّنَا   نَبْكِيْ ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَىٰ ٱبْنُ حِذَامِ[2]

وقد تكرَّرَ في « ديوانِ الناظمِ » ذكرُها ، والبكاءُ عليها ، والاستشْفاءُ بِها ، والوقوفُ عندَها ، فقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/٣٢٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بَلِيْتُ بِلَىٰ ٱلأَطْلاَلِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا   وُقُوْفَ شَحِيْحٍ ضَاعَ فِيْ ٱلتُّرْبِ خَاتَمُهْ

---

(١) المَعْلمُ : ما يُستدلُّ بهِ على الطريقِ . عَفَا : ٱنمحىٰ وذهبَ . أَقْفَرَ : خلا .

(٢) قيل لأبي عبيدةَ : هل قالَ أحدٌ الشعرَ قبلَ ٱمرىءِ القيسِ ؟ قال : نعم ، قدم علينا رجالٌ من باديةِ بني جعفرِ بنِ كلابٍ فكنَّا نأتيهم فنكتبُ عنهم ، فقالوا : ممن ابن خدام ؟ قلنا : ما سمعنا به! قالوا : بلى قد سمعنا به ورجونا أن يكونَ عندكم منهُ علمٌ ؛ لأنكم أهلُ أمصارٍ ، ولقد بكىٰ في الرملِ قبل ٱمرىءِ القيسِ ، وقد ذكرهُ في شعرهِ حيث يقول : وأنشدوا بيتهُ . وابن حِذَامٍ وخِدامٍ وخَذَامٍ واحدٌ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٧٧ مِنَ البسيطِ] :

بَكَيْتُ يَا رَبْعُ حَتَّىٰ كِدْتُ أَبْكِيكَا وَجُدْتُ بِيْ وَبِدَمْعِيْ فِيْ مَغَانِيكَا[1]
فَعِمْ صَبَاحاً فَقَدْ هَيَّجْتَ لِيْ شَجَناً وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوكَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٩٢ مِنَ الخفيفِ] :

قِفْ عَلَىٰ ٱلدِّمْنَتَيْنِ بِٱلدَّوِّ مِنْ رَيَّـ ـا كَخَالٍ فِيْ وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ[2]
بِطُلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ فِيْ عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيَالِيْ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٦ ـ ٧ مِنَ الكاملِ] :

ذِكْرُ ٱلصِّبَا وَمَرَابِعُ ٱلآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِيْ قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِيْ
دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ ٱلْهُمُومُ عَلَيَّ فِيْ عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثُرِ ٱللُّوَّامِ
وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَتْ بِهَا تَبْكِيْ بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ[3]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ مِنَ الكاملِ] :

أَثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ نَبْكِيْ وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا ٱلإِبِلُ[4]
لَوْ كُنْتَ تَنْطِقُ قُلْتَ مُعْتَذِراً بِيْ غَيْرُ مَا بِكَ أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٠ مِنَ الوافرِ] :

أُسَائِلُهَا عَنِ ٱلْمُتَدَيِّرِيْهَا فَمَا تَدْرِيْ وَلاَ تُذْرِيْ دُمُوعَا

---

(١) المغاني ـ جمعُ مغنىً ـ : وهوَ المنزلُ الذي كانَ بهِ أهلُهُ .
(٢) الدَّوُّ : الأرضُ الواسعةُ القفرةُ المستويةُ .
(٣) عروة بن حزام : هو صاحب عفراء ، وهو أحد العشاق المشهورين ؛ والمعنى : أن كثرة الأمطار التي أشبهت دموع هذا العاشق أذهبت آثار الديار .
(٤) الإرزامُ : حنينُ الإبلِ .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

مَـرَرْتُ عَلَـىٰ دَارِ ٱلْحَبِيْـبِ فَحَمْحَمَـتْ جَوَادِيْ وَهَلْ تُشْجِيْ ٱلْجِيَادَ ٱلْمَعَاهِدُ[١] ؟

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدُسْنَـا بِـأَخْفَـافِ ٱلْمَطِـيِّ تُـرَابَهَـا فَمَا زِلْتُ أَسْتَشْفِيْ بِلَثْمِ ٱلْمَنَاسِمِ[٢]

وهٰذا شبيهٌ بقولِهِ مِنَ الأُخرىٰ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٩٧ مِنَ الخفيفِ] :

فَخُذَا مَاءَ رِجْلِهِ وَٱنْضَحَا فِيْ ٱلْـ ـمُـدْنِ تَـأْمَـنْ بَـوَائِـقَ ٱلـزِّلْـزَالِ
وَٱمْسَحَـا ثَـوْبَـهُ ٱلْبَقِيْـرَ عَلَـىٰ دَا ئِكُمَـا تُشْفَيَـا مِـنَ ٱلأَعْـلاَلِ[٣]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٥٦ ـ ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا فُؤَاداً لِعِرْفَانِ ٱلرُّسُوْمِ وَلا لُبَّا ؟
نَزَلْنَا عَنِ ٱلأَكْوَارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا[٤]
نَذُمُّ ٱلسَّحَابَ ٱلْغُرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا

وقولُهُ : (نَزَلْنَا عَنِ ٱلأَكْوَارِ . . . إِلىٰ آخرِهِ) : مأخوذٌ مِن صنيعِ إمامِ دارِ الهجرَةِ ، فقد رويَ أَنَّ الإمامَ الشافعيَّ كانَ عندَهُ ، فرأَىٰ علىٰ بابِهِ خيلاً وكراعاً أُهديَتْ لَهُ ، فجعلَ يحدُّ النظرَ إِليها ، ويكثرُ التأَمُّلَ ؛ ٱستحساناً لَها ، وٱغتباطاً بِها ، ولَمَّا عرفَ الإمامُ مالكٌ ٱمتدادَ عينهِ إِليها . . قالَ لَهُ : هِيَ كلُّها لكَ ، قالَ لَهُ : لَو أَبقيتَ

---

(١) الحَمحمةُ : دونَ الصهيلِ . الجوادُ : الفرسُ الذكرُ والأُنثى .
(٢) المَنسِمُ : الخُفُّ .
(٣) البقيرُ : ثوبٌ لا كُمَّ له ، وهو الذي يلبسُهُ الصبيانُ ، ويُلبَسُ للأموات عندَ التكفينِ .
(٤) الأكوار ـ جمعُ كُورٍ ـ : وهو رحلُ الناقةِ .

لِنفسكَ مِنها دابّةً ، قالَ : أَستحيي أَن أَطأَ تربةً سارَ فيها سيِّدُ البشَرِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بحافِرِ دابَّةٍ[1] .

وتعلَّقَ بِهِ السريُّ الرفَّاء فأَحسنَ الاتِّباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٣٤٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

حُيِّيْتَ مِنْ طَلَلٍ أَجَابَ دُثُوْرُهُ يَوْمَ ٱلْعَقِيْقِ سُؤَالَ دَمْعٍ سَائِلِ
نَخفَىٰ وَنَنْزِلُ وَهْوَ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْ أَنْ يُذَالَ بِرَاكِبٍ أَوْ نَاعِلِ

وللهِ درُّ شيخِنا ٱبنِ شهابٍ إِذْ يقولُ عَن مدينةِ (تريمَ) [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا نَحنُ زُرْنَاهَا وَجَدْنَا تُرَابَهَا يَفُـوْحُ لَنَـا عَـنْ عَنْبَـرٍ مُتَنَفِّـسِ
وَنَمْشِيْ حُفَاةً فِيْ ثَرَاهَا تَأَدُّباً نَـرَىٰ أَنَّنَـا نَمْشِـيْ بِـوَادٍ مُقَـدَّسِ

ومرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهِ أَواخِرَ المجلسِ الثاني في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٠١ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ نَـاقَتِـيْ تَقْبَـلُ ٱلـرَّدِيْـفَ وَلاَ بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمُـرُّ بِـرَبْـعٍ كُنْـتَ فِيْـهِ كَـأَنَّمَـا أَمُرُّ مِنَ ٱلإِكْرَامِ بِٱلْحِجْرِ وَٱلرُّكْنِ

وقالَ ٱلإِمامُ الشِبْليُّ [في « نفحِ الطِّيبِ » ١/٤١-٤٢ مِنَ ٱلخفيفِ] :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ مُذْ تَرَاءَىٰ لِعَيْنِيْ رَسْـمُ آثَـارِهِـمْ فَهَـاجَ ٱشْتِيَـاقِـيْ
هَـٰـذِهِ دَارُهُـمْ وَأَنْـتَ مُحِـبٌّ مَـا بَقَـاءُ ٱلـدُّمُـوْعِ فِـيْ ٱلآمَـاقِ
فَٱلْمَغَانِيْ لِلْصَبِّ فِيْهَا مَعَانِيْ وَهْيَ تُدْعَىٰ مَصَارِعَ ٱلْعُشَّاقِ
حُلَّ عَقْدَ ٱلدُّمُوْعِ وَٱحْلُلْ رُبَاهَا وَٱتْرُكِ ٱلصَّبْرَ وَٱقْضِ حَقَّ ٱلْفِرَاقِ

(١) وهكذا شأن الأئمة الفضلاء مع جلالة الرسول الأعظم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وقالَ بعضُ شعراءِ ٱلأندلُسِ [وهو محمد بن سفر كما في « نفح الطيب » ٣/ ٢١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجاءَتْ كَمَا يَمْشِيْ سَنَا ٱلصُّبْحِ فِيْ ٱلدُّجَىٰ　　وَطَوْراً كَمَا يَمْشِيْ ٱلنَّسِيْمُ عَلَىٰ ٱلنَّهْرِ
فَتَابَعْتُ بِٱلتَّقْبِيْلِ آثَارَ مَشْيِهَا　　كَمَا يَتَقَصَّىٰ كَاتِبٌ أَحْرُفَ ٱلسَّطْرِ

وما أَحسنَ قولَ بعضِ المتأَخِّرينَ ! [مِنَ الطَّويلِ] :

بَكَىٰ ٱلنَّاسُ أَطْلالَ ٱلدِّيَارِ وَلَيْتَنِيْ　　وَجَدْتُ دِيَاراً لِلدُّمُوْعِ ٱلسَّوَاكِبِ

وهوَ مِن قولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَهِيْنَةُ أَحْجَارٍ بِبَيْدَاءَ دَكْدَكٍ　　تَوَلَّتْ فَحَلَّتْ عُرْوَةَ ٱلْمُتَهَتِّكِ[1]
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ إِنْ تَشَكَّتْ وَإِنَّمَا　　أَنَا ٱلْيَوْمَ أَبْكِيْ أَنَّهَا لَيْسَ تَشْتَكِيْ

وقد لاذَ فيهِ بقولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٤ مِنَ الكاملِ] :

وَشَكِيَّتِيْ فَقْدُ ٱلسَّقَامِ لأَنَّهُ　　قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِيْ أَعْضَاءُ

شدة احترام السلطان عبد الحميد لآثار النبي ﷺ

ويُعجبُني ما أَخبرني بهِ السيِّدُ الثقةُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمٰنِ بنِ طاهرٍ ، عَنِ السُّلطانِ عبدِ الحميدِ : أَنَّهُ كانَ عندَهُ فردُ نعلٍ مِن نِعالِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فذُكِرَتْ لَهُ أُختُها عندَ رجلٍ مِن أَهلِ (المغربِ) ، فَثامَنَهُ بِها حتَّىٰ ٱستقرَّ الثمنُ ، وتمَّ الكلامُ علىٰ ما يتمنَّاهُ البائعُ ، فأَرسَلَ لَهُ عدَّةَ مراكِبَ ، ولمَّا جاءَ . . ٱستقبلَهُ في موكبِهِ الضخمِ الفخْمِ الشائقِ ، حافيَ القدَمِ ، حاسِرَ الرأْسِ ، وقد فرشَ الطريقَ بالسجادِ ، فقيلَ لَهُ : إِنَّكَ لم تتحقَّقْ صحَّةَ النسبَةِ بعدُ ، فقالَ : قد قيلَ : إِنَّها نعلُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ،

---

(١) الدكدكُ : الرملُ المتلبِّدُ .

وحاشىٰ أَنْ أَستقبِلَ ما نُسِبَ إِليهِ إِلاَّ علىٰ أَبلغِ ما يكونُ من شاراتِ الإِجْلالِ والتعْظيمِ .

ثمَّ لا أَدري ، هَلْ كانَت حَذْوَ التي عندَهُ فتمَّ البيْعُ ، أَمْ لا .

وحسبُكَ أَنَّ جِلدَ المصحَفِ يحرمُ مسُّهُ مَعَ الحدَثِ ، ويبقىٰ لَهُ شرفُهُ حتَّىٰ بعدَ الانفصالِ ، علىٰ خلافٍ ليسَ هـٰذا موضِعَ ذكرِهِ ، وقد وفَّينا مبحثَ الآثارِ والتبرُّكِ بِها حقَّهُ في كتابِنا : « **بَلاَبِلِ ٱلتَّغْرِيْدِ** » .

كيفيـة شـرب الخمـر وجلساتها

أَمَّا قولُ أَبي نواسٍ السابقُ : (قَرَارَتُها كِسْرَىٰ . . . إِلىٰ آخرِ البيتين) . . فمعناهُ : أَنَّ في قرارَةِ الكَأْسِ صورةَ كسرىٰ ، وأَنَّ في جوانِبِها صوَرَ بقرٍ وحشيَّةٍ مِن جِهَةٍ ، وصوَرَ فرسانٍ تصوِّبُ قِسيَّهَا إِلىٰ تلكَ البقرِ في الجهَةِ الأُخرىٰ ، وأَنَّ صرفَ الرَاحِ يبلغُ إِلىٰ جيوبِ الفرسانِ ، وأَنَّ الماءَ الذي يرادُ للمزجِ بمقدارِ ما يواري رؤُوسَهم ، وقد سبقَ إِلىٰ بعضِ ذلكَ الملِكُ الضِّلِّيلُ [امرؤُ القيسِ] في قولِهِ [في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّا ٱسْتَطَابُوْا صُبَّ فِيْ ٱلكَأْسِ نِصْفُهُ　　وَجَـاؤُوْا بِمَـاءٍ لاَ بِطَـرْقٍ وَلاَ كَـدْرِ

وَلَنَا أَنْ نتساءَلَ : أَيُّ الشيخينِ أَكبرُ حالاً ، وأَبعدُ همَّةً ؟ أَأَبو مديَنَ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَدِرْهَا لَنَا صِرْفاً وَدَعْ مَزْجَهَا عَنَّا　　فَإِنَّا أُنَاسٌ لاَ نَرَىٰ ٱلْمَزْجَ مُذْ كُنَّا

أَمْ سلطانُ العاشقينَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَدِرْهَا لَنَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزْجَهَا　　فَعَدْلُكَ عَنْ ظَلْمِ ٱلْحَبِيْبِ هُوَ ٱلظُّلْمُ[1]

---

(١) الظَّلْمُ : الريقُ .

فلِلاحْتِمالاتِ مَجَالٌ ، ولكلِّ مقام رجالٌ ، فلنقِفْ عندَ الحدِّ ، وَلْنَرْبَعْ علىٰ الضَّلَعِ ، وَلْنَتَأَخَّر حيثُ أَخَّرَنا القدَرُ ، أَمَّا الباري جلَّ شأْنُهُ : فقد أَخبرَ بأَنَّ المقرَّبينَ يشربونَ سِلافَها صِرفاً ، وأَنَّ الأَبرارَ يتناولونَها مزيجةً ، فقالَ تقدَّستْ أَسماؤُهُ :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٥-٦].

وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾

[المطففين : ٢٢-٢٨] .

ومن المطرِبِ ـ فيما يتعلَّقُ بأَبياتِ أَبي نُواسٍ ـ قولُ بعضِ شعراءِ الأَندلُسِ [وهو غالب بن رباح كما في « نفح الطيب » ٣/ ٤٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَأْسٍ يُرَىٰ كِسْرَىٰ بِهَا فِيْ قَرارَةٍ ... غَرِيْقاً وَلَٰكِنْ فِيْ زُلاَلٍ مِنَ ٱلْخَمْرِ
وَمَا صَوَّرَتْهُ ٱلْفُرْسُ عَنْ عَبَثٍ بِهَا ... وَلَٰكِنْ لِمَعْنَىً فِيْهِ أَخْفَىٰ مِنَ ٱلسِّحْرِ
أَرَادُوْا لَهُ مَا ٱعْتَادَهُ فِيْ حَيَاتِهِ ... فَنُوْمِيْ إِلَيْهِ بِٱلسُّجُوْدِ وَلاَ نَدْرِيْ

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنَيْنَا عَلَىٰ كِسْرَىٰ سَمَاءَ مُدَامَةٍ ... مُكَلَّلَـةٍ حَـافَـاتُهَـا بِنُجُـوْمِ[1]
فَلَوْ رُدَّ فِيْ كِسْرَىٰ بْنِ سَاسَانَ رُوْحُهُ ... إِذاً لاصْطَفَـانِـيْ دُوْنَ كُـلِّ نَـدِيْـمِ

---

(١) المرادُ بالنجومِ : الفقاقيعُ التي تعلو الكأْسَ .

وممَّا يُعزىٰ إليهِ [كما في « خزانة الأدب » ١/ ٣٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَمْرَاءَ قَبْلَ ٱلمَزْجِ صَفْرَاءَ بَعْدَهُ   أَتَتْ بَيْنَ ثَوْبَيْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجْنَةَ ٱلْمَعْشُوْقِ صِرْفاً فَسَلَّطُوْا   عَلَيْهَا مِزَاجاً فَٱكْتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ

والأَكثرُ يعزونَها إلىٰ ٱبنِ دريدٍ ، ولبعضِهم فيها منامٌ طويلٌ ، حاصلُهُ [بنحوه في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٢٧] : أَنَّ بعضَهم ٱنتقدَ فيهِ علىٰ قائِلِها التشويشَ[1] ؛ إذ قدَّمَ الحمرَةَ علىٰ الصفرَةِ أَوَّلاً ، ثمَّ قدَّمَ الصفرَةَ علىٰ الحمرَةِ في ذكرِ النرجسِ قبلَ الشقائِقِ ، وأَنَّ قائِلَها قالَ للمعترِضِ : إلىٰ هٰذا الحدِّ تحاسِبُني يا بغيضُ ؟

وقالَ السريُّ الرَّفَّاءُ [في « ديوانهِ » ٣٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

ومَـوْسُـوْمَـةٍ كَـاسَـاتُـهَـا بِفَـوَارِسٍ   مِنَ ٱلْفُرْسِ تَطْفُوْ فِيْ ٱلْمُدَامِ وَتَغْرَقُ
أُقَبِّـلُ مِنْـهُ كُـلَّ شَـاكٍ سِـلاَحَـهُ   وَفِـيْ يَـدِهِ سَهْـمٌ إِلَـيَّ مُفَـوَّقُ

وصف المؤلف لمجالس شرب الشاي

وقد سبقَ في المجلسِ التاسعِ بعضُ ما يتعلَّقُ بالرَّاحِ ، ولأَهلِ بلادِنا ولَعٌ شديدٌ بشربِ الشايِ ، وتأَنُّقٌ كثيرٌ في طبخِهِ وإِدارتِهِ ، وأَنا وإِنْ كنْتُ لا أُحبُّهُ . . فإِنَّني أُجاريهم في ٱستعمالِهِ ، وأَنبسطُ كثيراً بمجلسِهِ ، ولي فيهِ عدةُ مقاطيعَ ؛ إذ قلَّ ما يُقترَحُ عليَّ في وصفِهِ إلاَّ بادرْتُ بِمَا يفتحُ اللهُ بهِ ، فمِنْ ذلكَ قولي في صفةِ يومٍ غامَتْ شَمْسُهُ ، وذهَبَ نحسُهُ ، وطابَ لَنا علىٰ طبخِهِ أُنْسُهُ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) التَّشويشُ : ٱلتَّخليطُ ، لٰكنْ قالَ في « ٱلقاموس » : وٱلتَّشويشُ وٱلمشوَّشُ وٱلتشوُّشُ كلُّها لحنٌ ووهمٌ ، ٱلجوهريُّ : وٱلصَّوابُ ٱلتَّهويشُ . اهـ. ولذا قالَ في «المعجَم الوسيط» : ٱلتَّشويشُ : ٱلتَّخليطُ ، وقيلَ : ٱلتَّشويشُ مِنْ كلامِ المولَّدينَ .

وَيَوْمٍ كَإِبْهَامِ ٱلْحُبَارَىٰ مِنَ ٱلْأُنْسِ ... قَضَيْتُ بِهِ فِي ٱلطِّيْبِ مَا تَشْتَهِيْ نَفْسِي[1]
عَلَىٰ قَهْوَةٍ تَنْفِيْ ٱلْهُمُوْمَ وَتَجْلِبُ ٱلسُّـ ... ـرُوْرَ وَلاَ تَجْنِيْ عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ وَٱلْحِسِّ
لَهَا صِبْغَةٌ مِنْ عَنْدَمٍ قَبْلَ مَزْجِهَا ... بِمَاءٍ وَبَعْدَ ٱلْمَزْجِ صَفْرَاءُ كَٱلْوَرْسِ[2]
زُجَاجَاتُهَا كَٱلْمَاءِ صَفْواً وَرِقَّةً ... وَلُطْفاً أَتَتْ مِنْ صَنْعَةِ ٱلرُّوْمِ وَٱلْفُرْسِ
تَشُقُّ عَجَاجَ ٱلْمُوْجِعَاتِ بِأَدْهَمٍ ... وَوَرْدٍ يُطَارِدْنَ ٱلْكُرُوْبَ فَلاَ تُمْسِيْ
وَمِنْ لَبَنٍ حِيْناً يَكُوْنُ مِزَاجُهَا ... لَهُ رَغْوَةٌ مِثْلَ ٱلنَّدِيْفِ مِنَ ٱلْبُرْسِ[3]
عَلَىٰ ٱلْيُمْنِ وَٱلإِقْبَالِ فِيْ ظِلِّ رَوْضَةٍ ... وَعَيْنَيَّ مِنَ ٱلنُّدْمَانِ فِيْهَا إِلَىٰ خَمْسِ
كِتَابٍ وَبُسْتَانٍ وَكَأْسٍ وَقَيْنَةٍ ... وَسَيِّدَةٍ مِن دُوْنِهَا طَلْعَةُ ٱلشَّمْسِ

ومنهُ في يومٍ قضيناه غِبَّ سماءٍ في روضَةٍ مِن النخْلِ دانيةِ الجَنَىٰ [في «ديوان المؤلف» ق ١٨٤ مِنَ ٱلخفيفِ] :

فِيْ مَرَاحِ ٱلصِّبَا وَمَرعَىٰ ٱلأَمَانِيْ ... وَٱبْتِسَامِ ٱلْهَوَىٰ وَطِيْبِ ٱلزَّمَانِ
هَاتِهَا تَطْرُدُ ٱلْهُمُومَ وَتَسْتَدْ ... عِيْ ٱلْمَسَرَّاتِ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
فِيْ رِيَاضٍ مِنَ ٱلنَّخِيْلِ تَلاَقَىٰ ٱلْـ ... ـمَاءُ فِيْهَا مِنَ ٱلسَّمَا وَٱلسَّوَانِيْ[4]
بَاسِمَاتٍ ثُغُوْرُهَا تَتَبَارَىٰ ... فِيْ حَفِيْفٍ مُعَبِّرٍ عَنْ تَهَانِيْ
تَمْلأُ ٱلْعَيْنَ قُرَّةً بِٱجْتِلاَهَا ... فِيْ جَنَاهَا كَحَالِيَاتِ ٱلْغَوَانِيْ[5]

---

(١) إبهامُ الحبارىٰ : كنايةٌ عَن قِصَرِ الوقتِ .
(٢) العندمُ : الدمُ . الورسُ : نبتٌ أصفرُ يكونُ في (اليمنِ) ، تُتَّخذُ منه طلاء للوجهِ .
(٣) البُرسُ : القطنُ .
(٤) السواني : ـ جمع سانية ـ : وهي آلة تستعمل لرفع الماء من منخفض بواسطة دابة تديرها ، وهي موجودة إلى الآن بريف (مصر) .
(٥) الحالياتُ : لابساتُ الحُلِيِّ .

يُشْبِهُ ٱلأَصفَرُ ٱلْمُنَاصِفُ مِنهَا مَنظَرَ ٱلشَّايِ فِيْ ٱنْتِصافِ ٱلدِّنَانِ
وَنُهُوْدُ ٱلدُّمَىٰ ٱلْمُذَنَّبُ يَحْكِيْـ ـهَا فَكَمْ مِنْ تَنَاسُبٍ وَٱفْتِنَانِ
وَتَكَـادُ ٱلْقُلُـوْبُ تَنشَـقُّ مِمَّـا فِـي تَـدَلِّيْ قِنْـوانِهَا مِنْ حَنَانِ
هَـٰكَذَا ٱلأُمَّهَاتُ يَفعَلْنَ بِـالأَبْـ ـنَاءِ فَٱلسِّرُّ غَيْرُ خَافِيْ ٱلْمَعَانِيْ
كُلَّمَـا حَـرَّكَ ٱلنَّسِيْـمُ غُصُـوْنـاً زَادَ طِيْباً أَرِيْجُ تِلْكَ ٱلْمَغَانِيْ
وَإِذَا حَـاكَـتِ ٱلْمِيَـاهُ نَسِيْجـاً يَتَـلاشَـىٰ ٱلتَّـأَنُّـقُ ٱلخُسْـرُوَانِـيْ
طِبْنَ مَـرأىً وَمَسْمَعـاً وَمَـذَاقـاً وَخَيَـالاً بِـذِكْـرَيَـاتٍ حِسَـانِ
مَلْعَبُ ٱللَّهْوِ مَسْقَطُ ٱلرَّأسِ مجْنَىٰ ثَمَـرَاتِ ٱلنُّهَـىٰ ٱلشَّهِـيِّ ٱلْمَجَـانِـيْ
مَهْبَطُ ٱلنُّوْرِ مَرْبَعُ ٱلْحُوْرِ مَأْوَىٰ ٱلسَّـ ـعْـدِ مِـنْ هَـاشِـمٍ سِبَـاطِ ٱلبَنَـانِ
سَـادَةٌ يَمْـلأُ ٱلـزَّمَـانَ سَنَـاهُـمْ بَهجَـةً مِـنْ فُـلاَنَـةٍ وَفُـلاَنِ
فَـٱسْقِنِيهَـا بِغَيْـرِ إِثْـمٍ شَمُـوْلاً تُطْلِقُ ٱلْعَقْلِ فِيْ رَقِيْقِ ٱلأَوَانِيْ
بَيْنَ سِحْرٍ مِنَ ٱلْحَدِيْثِ حَلاَلٍ وأَغَـارِيْـدِ بُلْبُـلٍ وَأَغَـانِـيْ
صِـرْفَـةً أَوَّلاً وَلاَ بَـأْسَ بِـالْمَـزْ جِ وَلاَ سِيَّمَـا لِتَعْجِيْـلِ ثَـانِـيْ
هَـاتِهَـا مِـنْ شَقَـائِـقٍ ثُـمَّ إِنْ مَـا لَتْ بِرأْسِيْ فَمِنْ خُدُودِ ٱلقِيَانِ
إِنَّمَـا ٱلْعَيْـشُ رَوْضَـةٌ وَمُـدَامٌ وَكَـلاَمٌ عَلَـىٰ بِسَـاطِ ٱلأَمَـانِ
وَشِـوَاءٌ بِجَنْبِـهِ رُطَـبٌ غَـ ـضٌّ لَـذِيْـذٌ مُنَـوَّعُ ٱلأَلْـوَانِ
وَإِذَا زَادَ بَعْـدَ ذَلِـكَ شَيْئـاً فَدَلاَلُ ٱلدُّمَىٰ وَشَجْوُ ٱلْمَثَانِيْ
فِيْ صُعُوْدٍ مِنَ ٱلسُّعُوْدِ ٱخْتَلَسْنَا لَـذَّةَ ٱلْيَـوْمِ مِـنْ نَعِيْـمِ ٱلجِنَـانِ

ومنهُ أَيضاً في صفةِ يومٍ آخرَ [في « ديوان المؤلف » ق ٣٧ مِنَ البسيطِ] :

مَا كَادَ يَلْتَفُّ فِيْ ذَيْلِ ٱلدُّجَىٰ ٱلْقَبَسُ إِلاَّ وَصَحْبِيْ إِلَىٰ حَيِّ ٱلدُّمَىٰ لَبِسُوْا
إِلَىٰ رِيَاضٍ قَدِ ٱلتَفَّتْ خَمَائِلُهَا يَكَادُ فِيْهَا خَرِيْقُ ٱلرِّيْحِ يَحْتَبِسُ

يُسَافِرُ ٱلطَّرْفُ فِيْ أَقْطَارِهِنَّ عَلَىٰ ... تَأَشُّبٍ فَهُنَاكَ ٱلضَّوْءُ وَٱلْغَلَسُ[1]

شَجْرَاءُ رَقَّتْ حَوَاشِيهَا وَزَيَّنَهَا ... زَهْرُ ٱلرَّبِيْعِ وَعَذْبُ ٱلْمَاءِ يَنْبَجِسُ

فَلِلْجَدَاوِلِ فِيْ حَافَاتِهَا زَجَلٌ ... وَلِلْفَوَاخِتِ فِيْ أَفْنَانِهَا جَرَسُ[2]

يَبْكِيْ ٱلْحَمَامُ وَيَرْفَضُّ ٱلْغَمَامُ وَتُسْـ ... ـتَجْلَىٰ ٱلْمُدَامُ وَلاَ وَاشٍ وَلاَ حَرَسُ

عَلَىٰ ٱلأَغَانِيْ وَشَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ ... جَلْبُ ٱلسُّرُوْرِ وتَنْبِيْهِ ٱلْهَوَىٰ جَلَسُوْا

كَمَا يُذَابُ ٱلنُّضَارُ ٱلصِّرْفُ رَوْنَقُهُ ... وَلاَ صُـدَاعٌ وَلاَ إِثْـمٌ وَلاَ هَـوَسُ

يُذْكِيْ ٱلْجَوَىٰ بِلَهِيْبٍ فِيْ ٱلزُّجَاجِ لَهُ ... أَشِعَّـةٌ فِـيْ وُجُـوْهِ ٱلْقَـوْمِ تَنْعَكِـسُ

ظَلُّوْا عَلَيْهِ نَشَاوَىٰ وَٱلْكَوَاعِبُ يَسْـ ... ـحَبْنَ ٱلذُّيُوْلَ وَلَمْ يَعْلَقْ بِهِمْ دَنَسُ[3]

تَجْلَىٰ ٱلْكُؤُوْسُ وَتَهْتَزُّ ٱلنُّفُوْسُ وَإِنْ ... نَـالَ ٱلسُّـرُوْرُ وَقَـاراً بَيْنَهُـمْ حَمَسُـوْا

مَيْـلٌ إِلَـىٰ كُـلِّ لَهْـوٍ فِيْـهِ فَـائِـدَةٌ ... يَثْنِيْ ٱلْعِدَا وَبِهِمْ مِنْ حِلِّهِ خَرَسُ

فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ زَمَانِ ٱلْمِحْنَةِ ٱخْتَلَسُوْا ... سَحَـابَـةَ ٱلْيَـوْمِ وَٱللَّـذَّاتُ تُخْتَلَـسُ

فِيْ مَرْبَعِ ٱلنُّوْرِ مَثْوَىٰ ٱلْحُوْرِ يَشْمَلُهُمْ ... مَعَ ٱلْجَمَالِ ٱلَّذِيْ يَسْبِيْ ٱلنُّهَىٰ ٱلْقُدُسُ

وإنَّما أَطلتُ ببعضِ ما لي في الموضوعِ ؛ لأنّي لم أرَ فيهِ ما توضَعُ عليهِ اليدُ سواهُ ، وما تركتُ منهُ أكثرُ وأكثرُ ، ولَولا خشيةُ الإملالِ والإثقالِ . لذكرتُ أرجوزةً كانَ اقترحَها عليَّ والدي ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ سنةَ : (١٣١٩ هـ) في صفةِ يومٍ طابَ لَهُ فيهِ الأُنسُ ؛ ليمتحنَ شاعريَّتي ، فكنتُ عندَ ظنِّهِ ، وقرَّةَ عينِهِ ، وإنَّما وددتُ ذكرَها ، وإن لم تكُن هناكَ ، بلْ كما شاءَتِ الحداثةُ والبَديهَةُ ؛ لِما تبعَثُ لي مِنَ

---

(١) التأشُّبُ : التجمُّعُ .

(٢) الفواختُ : نوعٌ من الحمام المطوَّق . الجرْس : صوت مناقير الطير ، وأجرس الطائر إذا سمع صوت جرسه مرة ، والجَرَس معروف ، والمراد أنغامه .

(٣) نشاوىٰ ـ جمعُ نشوانَ ـ : وهوَ السكرانُ .

ٱلذِّكرياتِ ؛ ولِما ٱستوجبتُ بِها من صالِحِ الدعواتِ ، التي أكبرُ ظَنِّي بها أَن تكونَ قد لا مستْ سماءَ القَبولِ .

تفنن أهل اليمن في استعمال الشاي

وبعدُ : فقد أَفضىٰ بأَهلِ بلادِنا الافتنانُ في ٱستعمالِ الشايِ ، والتأَنُّقِ فيهِ ، إِلىٰ الاختلافِ في كيفيَّةِ صبِّهِ ، فٱختارَ بعضُهُم أَن يكونَ إِلىٰ نصفِ الكأْسِ ، وأَنْ يبقىٰ أَعلاهُ فارِغاً ، وفي ذلكَ يقولُ شاعِرُهُم [مِنَ الخفيفِ] :

وَٱمْتِلاَءُ ٱلْكُؤُوسِ قَالُوْا مَعِيْبٌ ... وَرَأَوْا أَنَّهُ علَىٰ ٱلنِّصْفِ زَاهِيْ

وبمجردِ ما سمعتُ هـٰذا البيتَ ، نقضْتُهُ علىٰ صاحبِهِ من طرفِ اللسانِ بقولي [مِنَ الخفيفِ] :

قَـالَ رَبُّ ٱلأَنَـامِ كَـأْسـاً دِهَـاقـاً ... وَهُوَ رَدٌّ لِقَوْلِ أَهْلِ ٱلْمَلاَهِيْ

ثمَّ رأَيتُ أَنَّ الشعراءَ ٱختلفوا مِن قبلِنا في نظيرِ ذلكَ ، فقالَ بعضُهم في موافقتي [مِنَ الكاملِ] :

وَكَأَنَّمَا ٱلأَقْدَاحُ مُتْرَعَةَ ٱلْحَشَا ... بيْنَ ٱلشُّرُوْبِ كَوَاكِبُ ٱلْجَوْزَاءِ

وقالَ الآخَرُ في ما يشبِهُ قولَ الأَوَّلِ [وهو السري الرفاء في « قرى الضيف » ٢/ ١٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يُعَاطِيْكَ كَأْساً غَيرَ مَلأَىٰ كَأَنَّهَا ... إِذا مُزِجَتْ أَحْدَاقُ دِرْعٍ مُزَرَّدِ

كَـأَنَّ أَعَـالِيْهَـا بيَـاضُ سَـوَالِـفٍ ... يَلُوْحُ عَلَىٰ تَوْرِيْدِ خَدٍّ مُوَرَّدِ

غيرَ أَنَّ هـٰذا التشبيهَ ، لا ينطبقُ إِلاَّ علىٰ ٱمرأَةٍ قائمةٍ علىٰ رأْسِها ؛ لأَنَّ السوالِفَ التي هي صفحاتُ العُنقِ لا تكونُ فوقَ الخدودِ ، وإِنَّما تكونُ تحتَها ، وقد يمكنُ التمحُّلُ في التأْويلِ ، بأَنَّ المرادَ مجرَّدُ

التشبيهِ بالحمرَةِ والبياضِ ، ومَهْما يكنْ مِنَ الأَمرِ . . فقد ذكرتُ قولَ ناصحِ الدينِ الأَرَّجانيِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٧٧ مِنَ البسيطِ] :

هَـٰذَا ٱلزَّمَانُ عَلَىٰ مَا فِيْهِ مِنْ كَدَرٍ حَكَـىٰ ٱنْقِـلاَبَ لَيَـالِيْـهِ بِـأَهْلِيْـهِ

غَدِيْرُ مَاءٍ تَرَاءَىٰ فِيْ أَسَافِلِهِ خَيَالُ قَوْمٍ تَمَشَّوْا فِيْ نَوَاحِيْهِ

فَٱلرَّأْسُ يُنْظَرُ مَنْكُوْساً أَسَافِلُهُ وَٱلرِّجْلُ يُنْظَرُ مَرْفُوْعاً أَعَالِيْهِ

وللإِمامِ السيوطيِّ في إِعرابِ البيتِ الأَخيرِ كلامٌ طويلٌ .

* * *

ومِنها في المديحِ : [قولُ أَبي الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٩ مِن البسيطِ] :

مِنْ كُلِّ أَبْيَضَ وَضَّاحٍ عِمَامَتُهُ	كَأَنَّمَا ٱشْتَمَلَتْ نُوراً عَلَىٰ قَبَسِ

شرح المطلع

(الأَبْيَضُ) : النقيُّ الوضِيءُ ، و(الوَضَّاحُ) : المشرقُ ، و(القَبَسُ) : الشعلةُ من النارِ ، و(عِمَامَتُهُ) : مبتدأٌ ، خبرُهُ : الجملةُ بعدَهُ .

قالَ الشارحُ : والمعنىٰ أَنَّه يقولُ : كلُّ كريمٍ لنورِ وجهِهِ ، وإشراقِ جبينِهِ . كأَنَّ عمامتَهُ علىٰ شعلَةِ نارٍ ، فشبَّهَ وجهَهُ لنورِ جبينِهِ بالقبَسِ ، وهو منقولٌ مِن قولِ قيسِ الرقياتِ [في « ديوانه » ٤٤ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّمَـا مُصْعَـبٌ شِهَـابٌ مِـنَ ٱللّٰـ	ـه تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلْعَتْمَاءُ

ٱنتهىٰ بٱختصارٍ .

وعندي : أَنَّه ناقصٌ ؛ لأَنَّ النورَ بناءً عليهِ يذهَبُ ضياعاً ، والذي أَراهُ أَنَّهُ شبَّهَ العمامَةَ بالنورِ لبياضِها ؛ ولِما ٱنعكسَ فيها من إِشراقِ الوجْهِ عَليها ، وشبَّهَ الوجْهَ بضياءِ النارِ لِلَمَعانِهِ وتبلُّجِهِ ، أَو أَنَّه شبَّهَ الجبينَ بالنورِ ، والخدَّ بالقبَسِ ، قريباً مِن قولِ ٱبنِ عَنْقاءَ [في « الإيضاح في علوم البلاغة » ١/ ٣٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

كَـأَنَّ ٱلثُّـرَيَّـا عُلِّقَـتْ فِـيْ جَبِيْنِـهِ	وَفِيْ خَدِّهِ ٱلشِّعْرَىٰ وَفِيْ نَحْرِهِ ٱلْقَمَرْ

أَمَّا قولُهُ : إِنَّه منقولٌ من قولِ قيسِ الرقيَّاتِ . . فلا ننكرُ ٱحتمالَ

نظرِهِ إليهِ ، غيرَ أَنَّ الأكثرَ بهِ شَبَهاً قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » مِنَ البسيطِ] :

إذا صَدَعْنَا ٱلدُّجَىٰ عَنَّا بغُرَّتِهِ   خِلْنَا بِهَا قَبَساً نَجْلُوْهُ أَوْ ضَرَمَا

وقد سبقَ كثيرٌ ممَّا يتعلَّقُ بمعنىٰ البيتِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَلُوْحُ بَدْرُ ٱلدُّجَىٰ فِيْ صَحْنِ غُرَّتِهِ   وَيَحْمِلُ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلاَ

ونزيدُ هُنا قولَ أَبي نُوَاسٍ [في « المستطرف » ٢/ ٤٢ مِنَ المتقاربِ] :

نَظَــرْتُ إِلَــىٰ وَجْهِــهِ مَــرَّةً   فَـأَبْصَـرْتُ وَجْهِـيَ فِـيْ وَجْهِـهِ

وقولَ ٱبنِ الروميِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَأَنَّهُ ٱلشَّمْسُ إِذْ وَافَىٰ ٱلْمُنِيْفَ بِهَا   عَلَىٰ ٱلْبَرِيَّـةِ لا نَـارٌ عَلَـىٰ عَلَـمِ[1]

وللناظِمِ ما لا يُحصىٰ كثرةً في المعنىٰ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَيْسَ لِشَمْسٍ مُذْ أَنَرْتَ إِنَارَةٌ   وَلَيْـسَ لِبَـدْرٍ مُـذْ تَمَمْـتَ تَمَـامُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَفِيْفٌ تَرُوْقُ ٱلشَّمْسَ صُوْرَةُ وَجْهِهِ   وَلَوْ نَزَلَتْ شَوْقاً لَحَادَ إِلَىٰ ٱلظِّلِّ

وفي صفتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : (كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجرِي في وَجْهِهِ)[2] .

---

(١) المنيفُ والعَلَمُ : الجبلُ الطويلُ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٤١٥) ، وأحمد (٢/ ٣٨٠) ، والترمذي (٣٦٤٨) وفي « الشمائل » (١٢٤) ، وابن حبان في « الإحسان » (٦٣٠٩) بإسناد صحيح . =

يَقُولُ وَاصِفُهُ : (لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ)[1] .

إشراق وجه مصعب بن الزبير

و[جاء في « المستطرف » (٢/ ٢٩) أنه] : كانَ مصعبُ بنُ الزبيرِ مشهوراً بالجمالِ ، فبَيْنا هُوَ بفناءِ دارِهِ ليلَةً بالبصرَةِ . . إذ جاءَتْهُ ٱمرأَةٌ أَقامَتْ مَلِيّاً تنظرُ إِليهِ ، فقالَ : ما شأنُكِ يرحمُكِ اللهُ ؟ قالَتْ : ٱنطفأَ مصباحُنا ، فجئتُ أَستصبِحُ علىٰ وجهِكَ . وهِيَ شبيهَةٌ بما سبقَ مِن قصَّةِ زَينِ العابِدِينَ .

ويذكُرُ بعضُهم قريباً مِنها للمتوكِّلِ العباسيِّ[2] .

و[روى ابن قيم الجوزية في « روضة المحبين » ٢٠١ أنه] كانَ مصعبُ معَ فرطِ جمالِهِ يَحْسُدُ الناسَ علىٰ الجمالِ ، فَبَينا هُو يخطُبُ يوماً . . إذ دخَلَ ٱبنُ جودانَ مِن ناحيةِ الأَزدِ ـ وكانَ جميلاً ـ فأَعرضَ بوجهِهِ عَن تلكَ الجهَةِ ، فجاءَ ٱبنُ حُمْرانَ ـ وكانَ جميلاً أَيضاً ـ مِنَ النَّاحيَةِ التي أَقبلَ عَلَيها ، فرمىٰ ببصرِهِ إِلىٰ مؤخِّرِ المسجِدِ ، فدخلَ الحسنُ البصريُّ ـ وكانَ من أَجملِ الناسِ ـ فنزلَ مصعبٌ عَنِ المنبَرِ .

وكانَ لَهُ ٱبنٌ يدعىٰ : زَينُ المواكِبِ ، كانَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ مفتوناً بالنظَرِ إِلىٰ جمالِهِ[3] .

= وطرفه :(ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنما الشمس تجري . .) .

(١) وردت هذه الجملة في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي في « الشمائل » (٥) ، وفي « السنن » (٣٦٣٧) ، وأحمد (١/ ٩٦) ، وابن حبان في « الإحسان » (٦٣١١) بإسناد صحيح .

(٢) أيضاً في « المستطرف » (٢/ ٢٩) .

(٣) وكانَ مِن أَخبارِهِ معَهُ كَما في « الأغاني » (١/ ١٥٧) ما ذكرَهُ ٱبنُ الكلبيِّ : أَنَّ عمرَ ٱبنَ أَبي ربيعةَ كانَ يُسايرُ عروةَ بنَ الزُّبيرِ ويحادِثُهُ ، فقالَ لهُ : وأَينَ زينُ=

وكانتْ عائِشةُ بنتُ طلحةَ من أَجملِ أَهلِ زمانِها ، أَو أَجمَلَهم ، فقالَ لَها أَنسُ بنُ مالكٍ[1] [كما في « الأغاني » ١١/١٩٧] : واللهِ ما رأَيتُ أَحسنَ منْكِ ، إلاَّ معاويَةَ علىٰ منبرِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فقالَتْ : واللهِ لأَنا أَحسنُ مِنَ النَّارِ في عينِ المقرورِ ، في الليلَةِ البارِدَةِ .

إشراق وجه لبابة بنت عبيد الله

وكانتْ لُبابَةُ بنتُ عُبيدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ عندَ الوليدِ بنِ عتبَةَ ٱبنِ أَبي سفيانَ ، فكانَتْ تقولُ : ما نظرْتُ وَجهي معَ وَجْهِ إنسانٍ في مرآةٍ إلاَّ رحمتُهُ ؛ لافتضاحِهِ بحسنِ وَجهي ، ما عَدا الوليدَ ، فكنتُ إذا نظرتُ إِليهِ مَعَ وجهي . . تصاغرَتْ إِليَّ نفسي ؛ مِن فرْطِ جمالِهِ[2] .

الأصمعي وصاحبة البرقع

وقالَ الأَصمعيُّ [في « روضة المحبين » ٢٠٣] : بَينا أَنا علىٰ بعضِ مياهِ العربِ . . إذ سمعتُ الناسَ يقولونَ : جاءَتْ ، جاءَتْ ، فإذا ٱمرأَةٌ لَم أَرَ مثلهَا في حسنِ الوَجهِ ، وتَمامِ الخَلْقِ ، فلَمَّا رأَتْ كثرةَ التشوُّقِ إِليها . . أَرسلَتْ برقُعَها ، فكأَنَّما هُوَ غمامَةٌ سترَتْ شمساً ، فقلْتُ :

= المواكبِ ـ يعني ابنَهُ محمَّدَ بنَ عروةَ وكانَ يُسمَّىٰ بذلكَ لجمالِهِ ـ فقالَ لهُ عروةُ : هوَ أَمامَكَ ، فركضَ يطلُبُهُ ، فقالَ لهُ عروةُ : يا أَبا الخطَّابِ . . أَوَلسنا أَكفاءَ كراماً لمحادثَتِكَ ومُسَايَرَتِكَ ؟ فقالَ : بلىٰ ، بأَبي أَنتَ وأُميِّ ، ولكنِّي مفتونٌ بهذا الجمالِ ، أَتبعهُ حيثُ كانَ ، ثُمَّ ٱلتفتَ إليهِ وقالَ :

إِنِّـي ٱمْـرُؤٌ مُـوْلَـعٌ بِـٱلْحُسْـنِ أَتْبَعُـهُ ... لاَ حَـظَّ لِـيْ فِيْـهِ إلاَّ لَـذَّةُ ٱلنَّظَـرِ

ثُمَّ مضىٰ حتَّىٰ لَحِقَهُ ، فسارَ معهُ ، وجعلَ عروةُ يضحكُ مِن كلامِهِ ؛ تعجُّباً منهُ .

(١) ولكن في « الأغاني » (١١/١٩٧) أَبو هريرة بدلاً من أَنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنهما .

(٢) « المستطرف » (٢/٢٩) .

لَو متَّعتِينا بالنظَرِ إلىٰ وجهِكِ . . فقالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّكَ إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ ٱلْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ ٱلَّذِيْ لاَ كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فقالَ أعرابيٌّ : أنا واللهِ مِمَّنْ قلَّ صبرُهُ ، وأنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَوَحْشِيَّةَ ٱلْعَيْنَيْنِ أَيْنَ لَكِ ٱلأَهْلُ ... أَبِالْحَزْنِ حَلُّوا أَمْ مَحَلُّهُمُ ٱلسَّهْلُ ؟
وأَيَّـةُ أَرْضٍ أَخْـرَجَتْـكِ ؟ فَـإِنَّنِـيْ ... أَرَاكِ مِنَ ٱلْفِرْدَوْسِ إِنْ فُتِّشَ ٱلأَصْلُ
قِفِيْ خَبِّرِيْنَا مَا طَعِمْتِ وَمَا ٱلَّذِيْ ... شَرِبْتِ وَمِنْ أَيْنَ ٱسْتَقَلَّ بِكِ ٱلرَّحْلُ
تَنَاهَيْتِ حُسْناً فِيْ ٱلنِّسَاءِ فَإِنْ يَكُنْ ... لِبَدْرِ ٱلدُّجَىٰ نَسْلٌ فَأَنْتِ لَهُ نَسْلُ

ويُعجِبُني قولُ الأعشىٰ ، وهُوَ الذي أَحلتُ عليهِ مرَّةً فيما سلفَ [في « ديوانه » ١٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لَوْ يُنَادِيْ ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا ... أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِيْ لأَلْقَىٰ ٱلقَلاَئِدَا

ومعنىٰ (يُنَادِيْ) : يفاخِرُ ، والمرادُ مِن (قِنَاعِ الشَّمْسِ) : حسنُها .

ومِن قطعةٍ لإبراهيمَ بنِ المهديِّ فِيها غناءٌ [مِنَ البسيطِ] :

نُورٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ ... حَتَّىٰ تَكَاسَلَ فِيْهِ ٱلرُّوْحُ وَٱلْبَدَنُ

وقالَ الكسائيُّ يمدحُ الأَمينَ والمأمونَ [كما في « المستطرف » ٢/٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ قَمَرَيْ أُفْقٍ وَفَرْعَيْ بَشَامَةٍ ... يَزِيْنُهُمَا عِرْقٌ كَرِيْمٌ وَمَحْتِدُ[1]
سَلِيْلَيْ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَحَائِزَيْ ... مَوَارِيْثَ مَا أَبْقَىٰ ٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدُ

---

(١) البَشامةُ : شجرٌ طيِّبُ الرائحةِ يُستاكُ بِهِ . المحتِدُ : الخالصُ الأصل والأرومة من كُلِّ شيءٍ .

الحجر الذي لا يعجبك.. يشجُّك

وبهٰذين ، ذكرتُ أَنَّ بعضَ العربِ تقدَّمَ إلىٰ الرشيدِ بأَبياتٍ اَستكثرَها عليهِ ؛ لرثاثَةِ هيئتِهِ ، فقالَ لَهُ [في «تاريخ الطبري» ٥/٢٥] : إن كان الشعرُ لَكَ كما تقولُ.. فقُلْ : في هٰذين ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، وحشةُ الغربَةِ ، وروعةُ المفاجأَةِ ، وبهرُ الدرجَةِ ، وجلالةُ المقام ، وصعوبةُ البديهَةِ ، تحولُ بينَ المرءِ وبينَ لسانِهِ ، فليمهلْني أَميرُ المؤمنينَ ريثَما يعودُ النافرُ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما أَحسنَ جوابَكَ! وقد جعلْنا فيه عذرَكَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، لقد نَفَّسْتَ الخِناقَ ، وسهَّلْتَ مَيدانَ السباقِ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

بَنَيْتَ بِعَبْدِ ٱللهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... ذُرَىٰ قُبَّةِ ٱلإِسْلاَمِ فَٱخْضَرَّ عُوْدُهَا
هُمَا طُنُبَاهَا بَارَكَ ٱللهُ فِيْهِمَا ... وَأَنْتَ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَمُوْدُهَا[1]

فقالَ لهُ الرشيدُ : وأَنتَ باركَ اللهُ فيكَ ، سَل حاجتَكَ ، ولتكُنْ علىٰ قدرِ إِحسانِكَ .

أيجوز للرجال أن يتزوجوا على النساء؟!

ولنعُدْ إِلىٰ ما يتعلَّقُ بحسنِ الصورةِ ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ شوذَبٍ : دخلَتِ امرأَةٌ جميلةٌ علىٰ الحَسَنِ البصريِّ ، فقالَتْ [في «روضة المحبين» ٢٠٣] : يا أَبا سعيدٍ ، أَيحلُّ لِلرِّجالِ أَنْ يتزوَّجوا علىٰ النساءِ ؟ قالَ : نَعم ، قالَت : وعلىٰ مِثْلي ؟ ثمَّ أَسفرَت عَن وجهٍ اَستجْهَرَنا بجمالِهِ ، وقالَتْ : يا أَبا سعيدٍ ، لا تُفْتوا الرجالَ بهٰذا ، ثمَّ ولَّتْ ، فقالَ الحسنُ : ما علىٰ رجلٍ كانَتْ هٰذِهِ في زاويةِ بيتِهِ ما فاتَهُ مِنَ الدُّنيا .

---

(١) الطنَبُ : حبلُ الخباءِ والخيمة والفسطاط .

الصـــورة الحسنـــة والشعراء

ولله درُّ بعضِهم في قولِهِ [كما في « المستطرف » ٢/ ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّهَا فِي عَهْدِ يُوْسُفَ قَطَّعَتْ   قُلُـوْبَ رِجَـالٍ لاَ أَكُـفَّ نِسَـاءِ

وقالَ الآخرُ [في « روضة المحبين » ٢٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَنِيرِيْ مَكَانَ ٱلْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ ٱلْبَدْرُ   وَقُومِيْ مَقَامَ ٱلشَّمْسِ مَا ٱسْتَأْخَرَ ٱلفَجْرُ

فَفِيْكِ مِنَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُنِيْرَةِ ضَوْؤُهَا   وَلَيْـسَ لَهَـا مِنْـكِ ٱلتَّبَسُّـمُ وَٱلثَّغْـرُ

وما أَحسنَ قولَ شوقيٍّ [في « ديوانه » ٢/ ١٥٩ مِنَ البسيطِ] :

صُـوْنِـيْ جَمَـالَـكِ عَنَّـا إِنَّنَـا بَشَـرٌ   مِنَ ٱلتُّرَابِ وَهَـٰذَا ٱلْحُسْنُ رُوْحَانِيْ

وهُوَ وإِنْ كانَ قد أَلَمَّ في بعضِهِ بقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ   فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيْ ٱلْخُدُوْرِ ٱلْعَوَاتِقُ

وفي البعضِ الآخَرِ بقولِ خالدِ الكاتِبِ [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ كَانَ مِنْ بَشَرٍ لَمْ يَفْتِنِ ٱلْبَشَرَا   وَلَمْ يَفُقْ فِيْ ٱلضِّيَاءِ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَا

نُـوْرٌ تَجَسَّـمَ مُنْحَـلاً وَمُنْعَقِـداً   سِلْكٌ تَضَمَّنَ فِيْ تَنْسِيْقِهِ دُرَرَا

.. فقد أَحسنَ متنهُ ، وأَجادَ سبكهُ ، وأَبدعَ معناهُ ، وأَحكَمَ لفظَهُ ، وٱستنزلَهُ مِن سماءِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

جمال الظاهر عنوان جمال الباطن

ثمَّ إِنَّ جمالَ الظاهرِ بالأَغلَبِ ، مقرونٌ بجمالِ الباطنِ ، وما بعثَ اللهُ مِن نبيٍّ إِلاَّ حسنَ الصورَةِ ؛ ولأَنَّ اللهَ تعالىٰ ـ بلطيفِ حكمتِهِ ، وبديعِ صنعتِهِ ـ لم يخلقِ الصُّورَةَ مختارَةَ الصفاتِ ، سليمَةً مِنَ الآفاتِ ، إِلاَّ عَن فضلِ الإِبداعِ ، ولَنْ تكونَ علىٰ ذلكَ ، إِلاَّ إِذا

كانَتْ علىٰ ما يلائِمُ حسنَها ، من أَحاسنِ الطباعِ ، وقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱطْلُبُوا ٱلْخَيْرَ عِنْدَ صِباحِ ٱلْوُجُوْهِ »[1] .

وكانَ عليهِ السلامُ : يَسْتَحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ ٱلرَّسُوْلُ ـ ٱلَّذِيْ يُرْسَلُ إِلَيْهِ ـ حَسَنَ ٱلْوَجْهِ ، حَسَنَ الاسْمِ ، كَمَا أَخرجهُ البزارُ وغيرُهُ[2] .

وكانَ يرشدُ مَن رأَىٰ جمالَ صورَتِهِ إِلىٰ إِصلاحِ باطِنِهِ ، فقد أَخرجَ الديلميُّ ، عَن جريرِ بنِ عبدِ اللهِ ـ الذي كانَ يسمِّيهِ ٱبنُ الخطَّابِ [في « روضة المحبين » ١٩٩] : (يوسُفَ هـٰذهِ الأُمَّةِ)[3] ـ أَنَّهُ قالَ : قالَ لي

---

(١) أورده السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٦١) بلفظ : « التمسوا الخير عند حسان الوجوه » ، وقال : رواه الطبراني من حديث يزيد بن خصيفة عن أبيه عن جده مرفوعاً ، وكذا عند أبي يعلىٰ وهو مشهور ، له طريق عن أنس وجابر وعائشة وابن عباس وابن عمر ويزيد القسملي وأبي بكرة وأبي هريرة ولفظ أكثرهم : « اطلبوا الخير. . . » وأطال فيه ، وكذا العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٩٤) وقال الشاعر :

اثت شرط النبي إذ قال يوماً فأبتغوا الخير في صباح الوجوه

كما جاء في رواية القضاعي في « مسنده » (١/ ٣٨٤) .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١/ ٨٥) بلفظ : « إِذَا بَعَثْتُمْ إِلَيَّ رَسُوْلاً . . فَٱجْعَلُوْهُ حَسَنَ ٱلْوَجْهِ حَسَنَ ٱلاسْمِ » .

وأورده في « كنز العمال » عن أبي هريرة (١٤٧٧٥) ، والبزار والطبراني في « الأوسط » .

و(١٤٧٧٦) عن بريدة وعزاه إلى البزار ، وعن أبي هريرة (١٤٩٢٧) زاد نسبته إلى البزار والعقيلي والطبراني في « الأوسط » ، وعن ابن عباس (١٤٩٢٨) وعزاه إلى الديلمي وابن النجار . . بألفاظ متقاربة .

(٣) أورد الخبر ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧٣٠) ، وابن حجر في « الإصابة » (١١٣٦) .

رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَنْتَ ٱمْرُؤٌ قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ خَلْقَكَ ، فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ »[1] .

وقالَ جلهمَةُ بنُ عرفطَةَ ـ وقد بَصُرَ بالنبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في طفوليَّتِهِ ، يَستسقي بِهِ أَبو طالِبٍ ـ : كأَنَّهُ قَمَرُ دِجنَّةٍ ، تَجلَّتْ عَنْهُ سَحَابَةٌ قَتْماءُ .

الشعراء والجمال

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانهِ » ١٧ مِنَ الكاملِ] :

فَرَأَيْتُ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوْعِهَا ... فِيْ ٱلْحُسْنِ أَوْ كَدُنُوِّهَا لِغُرُوْبِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ خَجِلَتْ شَمْسُ ٱلضُّحَىٰ مِنكَ غُدْوَةً ... فَكَادَتْ كَمَا جَاءَتْ إِلَىٰ ٱلشَّرْقِ تَرْجِعُ

وقالَ عليُّ بنُ الجَهْمِ [في « ديوانهِ » ١٤٨ مِنَ الكاملِ] :

يَا بَدْرُ كَيْفَ صَنَعْتَ بِٱلْبَدْرِ ... وَفَضَحْتَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِيْ ؟

ٱلدَّهْرُ أَنْتَ بِأَسْرِهِ قَمَرٌ ... وَلِذَاكَ لَيْلَتُهُ مِنَ ٱلشَّهْرِ

وقالَ بعضُهم [وهو جميل بثينة كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٧٢] مِنَ الطَّويلِ :

لَهَا ٱلنَّظْرَةُ ٱلأُوْلَىٰ عَلَيْهِمْ وَبَسْطَةٌ ... وَإِنْ كَرَّتِ ٱلأَبْصَارُ كَانَتْ لَهَا ٱلْعُقْبَىٰ

وهُوَ مثلُ ما أَظنُّني قد ذكرتُهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، من قولِ أَبي نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٣٠٩ مِنَ الهَزَجِ] :

يَزِيْدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً ... إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

---

(١) لم أجده ، وأما جماله فيدل عليه ما سلف ، وورد نحوه : « اللهم . . أحسنت خَلقي فحسِّن خُلقي » رواه أحمد عن عائشة رضي الله عنها ، وابن حبان في « الإحسان » (٩٥٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح وينظر (١١/ ٣٣١٨٤) .

وقولِهِ [في « ديوانه » ٦٠٤ مِنَ الكاملِ] :

لِلْحُسْنِ فِيْ وَجَنَاتِهِ بِدَعٌ   مَا أَنْ يَمَلَّ ٱلدَّرْسَ قَارِيْهَا

وقولِ ٱبنِ المعتزِّ [من السريع] :

مَنْظَرُهُ قَيْدُ عُيُوْنِ ٱلْوَرَىٰ   فَلَيْسَ خَلْقٌ يَتَعَدَّاهُ[1]

وقالَ أبو فراسٍ [مِنَ الكاملِ] :

فَإِذَا بَدَا ٱقْتَادَتْ مَحَاسِنُهُ   قَسْراً إِلَيْهِ أَعِنَّةَ ٱلْحَدَقِ

وقالَ محمَّدُ بنُ وهيبٍ [في « الأغاني » ١٩/ ٩٢ مِنَ الكاملِ] :

مَا لِمَنْ تَمَّتْ مَحَاسِنُهُ   أَنْ يُعَادِيْ طَرْفَ مَنْ رَمَقَا
لَكَ أَنْ تُبْدِيْ لَنَا حَسَناً   وَلَنَا أَنْ نُعْمِلَ ٱلْحَدَقَا

وكانَ بعضُ الحكماءِ يقولُ [في « روضة المحبين » ٢٠٠] : يَنبَغي للعبدِ أَنْ ينظُرَ كلَّ يومٍ إِلىٰ المرآةِ ، فإِن رأَىٰ حُسْناً . . لَم يَشِنْهُ بفعلٍ قبيحٍ ، وإِنْ رأَىٰ قبيحاً . . لَم يجمَعْ بينَ قبيحَينِ .

وقالَ بعضُهُم [كما في « روضة المحبين » ١٩٩ مِنَ السَّريعِ] :

يَا حَسَنَ ٱلْوَجْهِ تَوَقَّ ٱلْخَنَا   لا تُبْدِلَنَّ ٱلزَّيْنَ بِٱلشَّيْنِ
وَيَا قَبِيْحَ ٱلْوَجْهِ كُنْ مُحْسِناً   لا تَجْمَعَنْ بَيْنَ قَبِيْحَيْنِ

وقامَ رجلٌ وسيمٌ ينظرُ وجهَهُ في المرآةِ ، فقالَ : اللَّهمَّ كَما حسَّنْتَ خَلْقي ، فحَسِّنْ خُلُقي ، وقامَ فِي أَثَرِهِ رجلٌ دميمٌ ، وكأَنَّهُ

---

(١) ومنها قوله :

قلبـيَ ميَّـالٌ إلـى ذا وذا   ليـس يـرىٰ شيئـاً فيـأباهُ
يهيـمُ بـالحسنِ كمـا ينبغـي   ويـرحـمُ القبـحَ فيهـواهُ

كانَ غافلاً ، فأُسقِطَ في يدِهِ ؛ لأَنَّهُ إِنْ قالَ : مثلَ الأَوَّلِ . . تضاحَكوا عليهِ ، وإِن سكَتَ . . كانَ اعترافاً بالعِيِّ والنقيصَةِ ، فلَم يكُنْ مِنْهُ ، إِلاَّ أَن تخلَّصَ مِن ذلكَ المأْزِقِ الحرِجِ بأَحسنِ ما يتخلَّصُ بهِ الأَريبُ[1] ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لئِنْ لَمْ تكُ ٱلْمِرْآةُ أَبْدَتْ وَسَامَةً فَقَدْ أَبْدَتِ ٱلْمِرْآةُ جَبْهَةَ ضَيْغَمِ

قد يتخلف جمال الباطن عن جمال الظاهر وبالعكس

وقد يتخلفُ جمالُ الباطِنِ عَنْ جمالِ الظاهِرِ ، وعكسُهُ ، فمِنَ الأَوَّلِ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٢٢ مِنَ البسيطِ] :

لَيسَ ٱلجَمَالُ لِوَجْهٍ صَحَّ مَارِنُهُ أَنْفُ ٱلْعَزِيْزِ بِقَطْعِ ٱلْعِزِّ يُجْتَدَعُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْحُسْنُ فِيْ وَجْهِ ٱلْفَتَىٰ شَرَفاً لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْ فِعْلِهِ وَٱلْخَلاَئِقِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ وَلاَ كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِنَجِيْبِ

وقولُ غيرِهِ [كما في « قرى الضيف » ٢/ ٤٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَلْ يَنْفَعُ ٱلْفِتْيَانَ حُسْنُ وُجُوْهِهِمْ إِذا كَانَتِ ٱلأَعْرَاضُ غَيْرَ حِسَانِ ؟

ومِن الثاني : أَنَّ الحجَّاجَ بعثَ برأْسِ ابنِ الأَشعَثِ ، معَ رجلٍ دميمٍ ، حامضِ الوجْهِ ، فاستخفَّ بهِ عبدُ الملِكِ بادياً ، ولـٰكنَّهُ لمَّا استنطَقَهُ . . تنَقَّىٰ وكفَّىٰ ، وحدَّثَهُ عَنِ الواقعةِ كأَنَّهُ يَراها ، فأَنشدَ عبدُ الملِكِ متمثِّلاً [بشعرِ عمروِ بنِ شأْسٍ في « ديوانه » ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادَتْ عِرَاراً بِٱلْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ عِرَاراً لَعَمْرِيْ بِٱلْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

---

(١) الأَريبُ : العاقِلُ .

فضحِكَ الرجلُ ، حتَّىٰ كادَ يَجِدُ منهُ عبدُ الملِكِ ، وقالَ لهُ : مِمَّ تضحَكُ ؟ قالَ : تعرِفُ عِراراً هٰذا ؟ قالَ : لا ، وإنَّما بلغَني الشعرُ فتمثَّلْتُ بهِ ، قالَ : أَنا هُوَ ، وقائِلُهُ أَبي : عمروُ بنُ شأْسٍ ، وكانَتْ زوجُهُ تبغِضُني ، وجَهِدَ أَنْ يُصلِحَ بينَنا ، فلَم يقدِرْ ، فقالَ البيتَ ، وبعدَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ كُنْتِ مِنِّيْ أَوْ تُرِيْدِيْنَ صُحْبَتِيْ ... فَكُوْنِيْ لَهُ كَٱلشَّمْسِ رَبَّتْ بِهِ ٱلأُدَمْ(1)

وَإِلاَّ فَسِيْرِيْ سَيْرَ رَاكِبِ نَاقَةٍ ... تَيَمَّمَ غَيْثاً لَيْسَ فِيْ سَيْرِهِ أَمَمْ(2)

وَإِنَّ عِرَاراً إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ ... فَإِنِّي أُحِبُّ ٱلْجُوْنَ ذَا ٱلْمَنْكِبِ ٱلْعَمَمْ(3)

وطلَّقَها بعدَ ذلكَ ، وندمَ علىٰ فراقِها ، فأَخذَ عبدُ الملكِ ، يكرِّرُ البيتَ الأَخيرَ . وقالَ ٱبن خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤١٨/٤] : إِنَّهُ كانَ مرسلاً مِن قِبَلِ المهلَّبِ إِلىٰ عندِ الحجَّاجِ ، واللهُ أَعلمُ أَيُّ ذلكَ الأَصحُّ .

وذكرَ القاضي [في « وفيات الأعيان » ٤١٧/٤] : قصَّتينِ تشبِهُها ، لا حاجةَ بِنا إِليها .

الفرزدق وخفة دمه

وقالَ خالدُ بنُ صفوانَ للفرزدَقِ : ما أَنتَ بالذي أَكبرنَهُ لمَّا رأَينَهُ ، وقطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ(4) !! فقالَ الفرزدَقُ : وَلا أَنتَ بِالذي قالَتِ الفتاةُ لأَبيها :

﴿ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

---

(١) الأُدَمُ ـ جمع أُدمةٍ ـ : وهيَ شربةٌ من سوادٍ في وجهِ الرجلِ .
(٢) الأَمَمُ : الاعوجاجُ .
(٣) الجون : الأَسوَدُ . العَمَمُ : التامُّ .
(٤) أخذاً من قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ . . ﴾ [يوسف : ٣١] .

وكانَ الفرزدَقُ قبيحاً مِن آثارِ الجدريِّ بوجهِهِ ، حتَّىٰ لقد قالَ لهُ بعضُهم [كما في «وفيات الأعيان» ٦/ ٩٩] : كأنَّ وجهَكَ أحراحٌ[1] مجتمعةٌ ، قالَ : تأمَّلْ هَل تجدُ فيها حِرَّ أُمِّكَ .

وقالَ نضلَةُ السلميُّ [في «مجمع الأمثال» ١/ ٤١٤ مِنَ الوافرِ] :

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهْوَ خَرْقٌ وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ[2]
فَلَمْ يَخْشَوْا مَصَالَتَهُ عَلَيْهِمْ وَتَحْتَ ٱلرَّغْوَةِ ٱللَّبَنُ ٱلصَّرِيحُ[3]

ودخلَ بعضُهم علىٰ المأمونِ فأكرمَهُ ، وأخذَ يعمِّمُهُ بنفسِهِ ، وكانَتْ بقربِهِ جاريةٌ تتبسَّمُ ، وكانَ الرجلُ دَميماً ، فقالَ لَها المأمونُ [كما في «المستطرف» ١/ ٢٥٩] : مِمَّ تضحَكينَ ؟ قالَ الرجلُ : أنا أُخبرُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، تضحَكُ مِن دمامَتي ، وإكرامِكَ .

من أخبار الظرفاء والقبحاء

ودخلَ بعضُهم في شَمْلَةٍ ، مَعَ قبحِ منظرةٍ فيهِ ، علىٰ معاويَةَ ، فٱزدراهُ ، وٱقتحمتهُ عينُهُ ، ففطِنَ الرجلُ ، وقالَ [بنحوه في «جمهرة خطب العرب» ٣/ ٢٥١] : إنَّ الشملَةَ لا تكلِّمُكَ ، وإنَّما يكلمُكَ مَنْ فيها ، والمَرءُ بأصغريْهِ ، فٱستسناهُ عندَ ذلكَ ، ثمَّ أحمدَ مخبرتَهُ .

وقالَ ٱبنُ مكرَّمٍ لأبي العيناءِ : يا قِردُ ، فقالَ أبو العيناءِ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس : ٧٨] .

وقالَ حمَّادُ يهجو بشَّاراً [كما في «الأغاني» ١٤/ ٣٢١ مِنَ الهَزَجِ] :

شَبِيهُ ٱلْوَجْهِ بِٱلْقِرْدِ إِذَا مَا عَمِيَ ٱلْقِرْدُ

---

(١) الأحراحُ ـ جمع حِرِح ـ : وهوَ فَرجُ المرأةِ .
(٢) الخرقُ : الدَّميمُ الأسودُ .
(٣) المصالَةُ : ما سال من الأقطِ إذا طُبِخَ ثم عصرَ ، رديءُ الكيموسِ ، ضارٌّ بالمعدةِ وهو مَصلُ اللبن .

فبكىٰ ، وقالَ : ما كفاهُ أَن جعلَني قرداً ، حتَّىٰ أَعماهُ ، وَيْلي مِنهُ ، يراني فيشبِّهُني ، ولاَ أَراهُ ، فكيفَ أُشَبِّهُهُ ؟!

وكانَ الجاحِظُ أَقبحَ خلقِ اللهِ ، حتَّىٰ إِنَّ آمرأَةً قادتْهُ إِلىٰ رَسَّامٍ ، وقالَتْ لهُ [بنحوه في « نفح الطيب » ٤/٢٩٧] : مثلَ هـٰذا ، فقالَ للرسَّامِ : ماذا تَعني ؟ قالَ : لا تسأَلْ ، قالَ : لاَ بدَّ ، قالَ : إِنَّها طلبَتْ مِنِّي صورَةَ الشيطانِ ، فقلْتُ : لا أَقدِرُ حتَّىٰ أَرىٰ المثالَ ، فجاءَتْ بِكَ الآن ، وقالَتْ : ما سَمِعتَهُ .

وكانَ يقالُ : إِنَّهُ لم يوجَدْ للمُعَيديِّ نظيرٌ في القبحِ ، حتَّىٰ كانَ الجاحظُ ، ثمَّ لم يكنْ لهُ شبيهٌ ، حتَّىٰ جاءَ الحريريُّ ، فتناسىٰ الناسُ الماضِيَ مِن أَبي عثمانَ ، ولَهِجُوا بالحاضرِ مِن قبحِ الحريريِّ .

والناسُ كثيراً ما يتوسَّعونَ في خبثِ الحاضِرِ وقبحِهِ ، ويرمونَهُ بأَكثرَ ممَّا فيهِ ، بمقدارِ ما يضيِّقونَ مِن خيرِهِ ، ويقلِّلُونَهُ ، فهم إِزاءَ مساوىءِ معاصِريهم عاملونَ بقولِ الناظِمِ [في « العكبريّ » ٣/٨١ مِنَ البسيط] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... [فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ ما يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ]

وأَما إِزاءَ محاسِنِهم . . فآخذونَ بقولِ الحماسيِّ [قَعْنبِ بنِ أمّ صاحبٍ في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ٢/١٨٧ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ سَمِعُوا رِيْبَةً طَارُوْا بِهَا فَرَحاً ... مِنِّي وَمَا سَمِعُوْا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوْا[1]

صُـمٌّ إِذَا سَمِعُـوْا خَيْـراً ذُكِـرْتُ بِـهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوْا[2]

---

(١) طَارُوا بها : أي أَسْرَعوا إلى الناس يبعثُونها وينشُرونها .

(٢) أَذِنُوا : اسْتَمَعوا .

وقولِ غيرِهِ [مِنَ البسيطِ] :

مُسْتَنْجِدٌ بِجَمِيلِ ٱلصَّبْرِ مُكْتَئِبٌ عَلَىٰ بَنِي زَمَنٍ أَفْعَالُهُمْ عَجَبُ
إِنْ يَعْلَمُوا خَيْراً أَخْفَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرّاً أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

ومن محاسنِ الحريريِّ : أَنَّ طالباً قدمَ عليهِ ، فأزدراهُ ، فعرفَ ما في نفسِهِ ، فأنشدَهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٦٦ مِنَ البسيطِ] :

مَا أَنْتَ أَوَّلَ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرٌ وَرَائِدٍ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ ٱلدِّمَنِ
فَٱخْتَرْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي إِنَّنِي رَجُلٌ أَنَا ٱلْمُعَيْدِيُّ فَٱسْمَعْ بِي وَلاَ تَرَنِي[1]

فيروىٰ : أَنَّ الطالبَ أرعوىٰ حينئذٍ ، وأنشدَ متمثِّلاً بقولِ محمَّدِ بنِ هانىءٍ الأندلسيِّ ، علىٰ ما صوَّبَهُ ٱبنُ خلِّكانَ [في « ديوانِ ابن هانىءٍ » ٣/ ٣٦١ـ٣٦٢ مِنَ البسيطِ] :

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ ٱلرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلاَحٍ أَطْيَبَ ٱلْخَبَرِ
حَتَّىٰ ٱلتَقَيْنَا فَلاَ وَٱللهِ مَا سَمِعَتْ أُذْنِي بِأَكْبَرَ مِمَّا قَدْ رَأَىٰ بَصَرِي

وعلىٰ ذكرِ هـٰذين البيتين ، يُحكىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٦/ ٤٦] : أَنَّ الزمخشريَّ لمَّا قدم (بغدادَ) للحجِّ . . مضىٰ لزيارتِهِ ٱبنُ الشجريِّ ، فتمثَّلَ لهُ بهـٰذين البيتينِ ، وبقولِ الناظمِ أيضاً [كما في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْتَعْظِمُ ٱلأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا صَغَّرَ ٱلْخَبَرَ ٱلْخُبْرُ[2]

---

(١) أراد المثل العربي : تسمع بالمَعيديِّ خيرٌ من أن تراه .
(٢) أورد الأبيات ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » (١٩/ ١٢٨) ، و« المستفاد من تاريخ بغداد » (ص٢٢٨) .

وتمثَّلَ الزمخشريُّ للشريفِ بقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم لزيدِ الخيلِ : « مَا وُصِفَ لِيْ أَحَدٌ فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَرَأَيْتُهُ فِيْ ٱلإِسْلاَمِ . . إلاَّ رَأَيْتُهُ دُوْنَ مَا وُصِفَ لِيْ ، غَيْرَكَ »[1] فتعجَّبَ النَّاسُ مِنَ الشَّريفِ يتمثَّلُ بالشِّعرِ ، ومِنَ الزَّمخشريِّ ـ وهُوَ أعجميٌّ ـ يستشهدُ بالحديثِ! .

وقد سبقَ أولَ المجلسِ الثالثِ ، ذكرُ بيتِ قيسِ الرقياتِ ، الذي ذكرَهُ الشارحُ مَعَ ٱختصارِ قصَّةٍ فيهِ ، ولا بأسَ بالاستطرادِ هُنا لحديثِ قيسٍ :

فإنَّهُ لمَّا أُحيطَ بٱبنِ الزبيرِ . . دعاهُ وقالَ لَهُ [بنحوه في « الأغاني » ٥/٨٧] : خُذْ مِن هٰذ المالِ ما أَطقتَ ، وٱنجُ بنفسِكَ ، فقالَ : ما كُنْتُ لأَسأَلَ عنكَ الركبانَ أبداً ، وبقيَ يقاتِلُ مَعَ المصعبِ ، حتَّىٰ قُتِلَ ، فهربَ هُوَ إِلىٰ (الكوفةِ) ، ووقفَ علىٰ بابٍ عليهِ ٱمرأَةٌ ، عرفَتْ أنَّهُ خائفٌ ، فقالَتْ لَهُ : ٱدخُلْ ، فأَقام عندَها أَربعةَ أشهرٍ ، في أَرغدِ عيشٍ ، لا يتساءَلانِ ، وكانَ عبدُ الملكِ قد أَهدرَ دمَهُ ، وجَعَلَ فيه ديَتَهُ ، وهيَ تسمعُ الجَعيلَةَ فيهِ ، كلَّ مَمْسىً ومَصْبَحٍ ، فَلمَّا طالَ الثواءُ . . قالَ لَها : يا هٰذهِ ، إِنِّي قد طربْتُ إِلىٰ أَهلي ، قالَتْ : فلا تعجَلْ ، فَلَمَّا كانَ الليلُ . . قالَت لَهُ : إذا شئْتَ . . فٱنزلْ ، فإذا راحلتانِ ، إحداهُما الزامِلَةُ ، وعلىٰ الأُخرىٰ الرَّحلُ ، ومعَهُما عبدانِ يدلأَنِهِ الطريقَ ، ويقومانِ بما عناهُ ، عندَ ذلكَ قالَ

---

(١) أورده ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٣٢١) بلفظ : « ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد » ، وبلفظه ذكره الحافظ في « الإصابة » (١/ ٥٧٣) في ترجمة زيد الخيل (٢٩٤١) .

لَها : مَنْ أَنْتِ ؟ فواللهِ ما رأَيْتُ أكرمَ مِنكِ ، قالَتْ : أَولاَ تعرِفُني ؟ قالَ : لا واللهِ ، قالَتْ : أَنا التي قلْتَ فيها [في « ديوانهِ » ٧٠ مِنَ المنسرحِ] :

عَـادَ لَـهُ مِـنْ كَثِيْـرَةَ ٱلطَّـرَبُ فَعَيْنُـهُ بِـٱلـدُّمُـوْعِ تَنْسَكِـبُ

وهيَ : أُمُّ عبدِ الصمدِ بنِ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، ثمَّ مضىٰ ، وأَتىٰ أَهلَهُ طَروقاً بـ(المدينةِ) ، فبكَوا ، وقالوا : ما خرجَ الطَّلَبُ مِن عندِنا إلاَّ بالأَمسِ ، فأَنْجُ بنفسِكَ ، فنزلَ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، وقالَ لَهُ : جئتُكَ مستجيراً ، فركِبَ إِلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، وقالَ : حاجَةٌ يا أَميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : كلُّ حاجَةٍ لَكَ مقضيَّةٌ ، ما لم تكُن عبيدَ اللهِ بنَ قيسٍ ، قالَ : ما كُنْتُ أَراكَ تحجرُ عليَّ شيئاً ، قالَ : فكلُّ حاجَةٍ لَكَ مطلقَةٌ ، قالَ : هِي عبيدُ اللهِ بنُ قيسٍ ، تَهَبُ لي ذنوبَهُ ، ثمَّ غدا عليهِ ، فأَنشدَهُ القصيدةَ المستهلَّةَ بذلكَ البيتِ ، ومِن مديحِها [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ المنسرحِ] :

يَعْتَـدِلُ ٱلتَّـاجُ فَـوقَ مَفْـرِقِـهِ عَلَىٰ جَبِيْـنٍ كَـأَنَّـهُ ٱلـذَّهَـبُ

فقالَ تمدحُني بما يُمدَحُ بهِ الأَعاجِمُ ، وتقولُ في مصعبٍ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّمَـا مُصْعَـبٌ شِهَـابٌ مِـنَ ٱللّٰـ ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

ثمَّ أَمرَ بعِسَاسٍ مِن الخَلَنْجِ ، تُمْلأُ بأَلبانِ البُخْتِ ، يَحملُ العِسَّ جماعةٌ ، بِحِلَقٍ فيهِ ، فوضِعَتْ بينَ يدَيْ عبيدِ اللهِ ، وقالَ لَهُ عبدُ الملكِ : أَينَ هـٰذهِ من عساسِ المصعبِ ؟ التي تقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٢٢٩ مِنَ الخفيفِ] :

يَلْبِسُ ٱلْجَيْشَ بِٱلْجُيُوشِ وَيَسْقِيْ   لَبَنَ ٱلْبُخْتِ فِيْ عِسَاسِ ٱلْخَلَنْجِ[1]

قالَ : بونٌ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لَو طُرِحَتْ عِسَاسُكَ هٰذه كلُّها في عسٍّ مِن عِسَاسِ المصعبِ.. لتقلقَلَتْ فيهِ ، قالَ لَهُ عبدُ الملِكِ : أَبيتَ إلاَّ كَرماً ، قاتَلَكَ اللهُ ، ٱخرجْ لا خيرَ لَكَ عندي أَبداً ، فخرَجَ مِنْ عندِهِ ، ولَحقَ بعبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، فأَخبرَهُ ، فقالَ : عمِّرْ نفسَكَ ، فعمَّرَ نفسهُ أَربعينَ سنةً ، فأَعطاهُ ما يكفيهِ لتلكَ المدَّةِ ، فقالَ في ذلكَ [في « ديوانهِ » ١١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

تَقَدَّتْ بِيَ ٱلشَّهْبَاءُ نَحْوَ ٱبْنِ جَعْفَرٍ   سَـوَاءٌ عَلَيْهَـا لَيْلُهَـا وَنَهَـارُهَـا[2]

وفي القصَّةِ أَشياءُ :

أَحدُها : ما سبقَ مِنَ التَّشبيبِ في القصيدةِ بأُمِّ عبدِ الصمدِ بنِ عليٍّ ، فإنَّهُ لا يتَّفِقُ مع تقدُّمِ قصَّتها معَهُ ، وتأَخُّرِ مدحِهِ بها لعبدِ ٱلملِكِ ، إلاَّ أَن يقالَ : لاَ مانِعَ مِن تَفَارُطِ المدحِ عنِ النسيبِ[3] .

ثانيها : أَنَّ الأَليقَ بالمعهودِ ، أَنْ لا يكونَ ٱمتداحُهُ لعبدِ الملِكِ إلاَّ بحضرَةِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ؛ إذ كيفَ يتجشَّمُ السفرَ مِن أَجلِهِ إلىٰ (الشَّامِ) ، ثم يدعُهُ يدخلُ وحدَهُ علىٰ عبدِ الملِكِ ، بعدَ قَبولِ شفاعَتِهِ فيهِ ، وهُما حاضِرانِ بـ(دمشْقَ) معاً ؟ أَمَّا جراَةُ ٱبنِ الرقياتِ علىٰ عبدِ الملِكِ : فلا تستنكَرُ ، مَعَ ما سبقَ من إيثارِهِ الموتَ في الوفاءِ للمصعَبِ ، علىٰ الاستئثارِ بالأَموالِ .

---

(١) الخَلنجُ : شجرٌ تُتخذُ من خشبهِ الأواني .

(٢) تقدَّت : سارت سيراً ليسَ بعَجلٍ ولا مبطىءٍ .

(٣) النسيبُ : رقيقُ الشعرِ في النِّساءِ .

وفي البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ إشارَةٌ إلىٰ فضلِ العمائِمِ البيضِ ، يُؤخَذُ مِن ٱستعارتِهِ لها النورَ كما قرَّرْناهُ ، وهُوَ ما عليهِ فقهاؤُنا ، قالَ ٱبنُ حجَرٍ في « تحفتِهِ » : والأفضلُ في لونِها البياضُ ، وصحَّةُ لُبْسِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ لِعمامَةٍ سوداءَ ، ونزولُ أكثرِ الملائكَةِ يومَ بدرٍ بعمائِمَ صفرٍ ، وقائِعُ محتمِلَةٌ ، فَلا تنافي عمومَ الخبرِ الصحيحِ ، الآمرِ بِلُبْسِ البياضِ[1] ، وأَنَّهُ خيرُ الألوانِ ، في الموتِ والحياةِ . كذا قالَ الشيخُ .

ولِباحِثٍ أَنْ يقلِبَ عليهِ الموضوعَ ، فيقولَ : إِنَّ الأَمرَ بلبسِ البياضِ عامٌّ ، ولبسُ العمامَةِ السوداءِ ، والعمائِمِ الصفرِ ، مخصِّصٌ لذلكَ العمومِ ، ويؤيِّدُهُ ما ذَكَرَهُ الشيخُ نفسُهُ في بابِ القضاءِ ، حيثُ قالَ : ويدخُلُ القاضي ، وعليهِ عمامَةٌ سوداءُ ، كما فعلَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، لَمَّا دخلَ (مكَّةَ) يومَ الفتحِ[2] .

---

(١) لحديث ابن عباس رضي الله عنهما : « البسوا البياض فإنها خير ثيابكم » ، أخرجه أبو داوود (٣٨٧٨) في الطب ، والترمذي (٩٩٤) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (١٤٧٢) في الجنائز .

(٢) قال العلامة السيد محمد جعفر الكتاني في كتابه « الدِّعامة لمعرفة أحكام العِمامة » (ص/٨٦) : فصل : ولبس عليه الصلاة والسلام العمامة السوداء في عدة مواطن كما ورد التصريح بذلك في عدة أحاديث ، أخرج أحمد ومسلم والأربعة والترمذي في « الشمائل » وابن سعد وابن أبي شيبة ، والحارث ابن أبي أسامة وأبو القاسم البغوي وابن عدي وغيرهم عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، وابن أبي شيبة عن ابن عمر وأبو بكر بن أبي الحارث عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل مكة ، وفي رواية : دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء .

ثمَّ العمامَةُ سنَّةٌ للصلاةِ ، وللتجمُّلِ خارجَها ، قالَ ٱبنُ حَجَرٍ : لِلأَحاديثِ الكثيرَةِ فيها ، وٱشتدادُ ضعفِ كثيرٍ مِنها يجبرُهُ كثرةُ الطُّرُقِ ، وتحصلُ السنَّةُ بكونِها علىٰ الرأسِ ، أَو نحوِ قلنسوَةٍ تحتَها ، وفي حديثٍ ما يدلُّ علىٰ أَفضليَّةِ كِبَرِهَا ، لٰكنَّهُ لا يحتجُّ بهِ ، حتَّىٰ في فضائِلِ الأَعمالِ ؛ لشدَّةِ ضعفِهِ .

وينبغي ضبطُ طولِها وعَرضِها ، بِما يليقُ بلابِسِها عادَةً في زمانِهِ ومكانِهِ ، فإِنْ زادَ فيها علىٰ ذلكَ . . كُرِهَ ، ومِن هديِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أَنَّهُ كانَ يلبَسُها ، ويلبَسُ القلنسوَةَ تحتَها ، ويلبَسُ القلنسوَةَ بغيرِ عمامَةٍ ، ويلبسُ العمامَةَ بغيرِ قلنسوَةٍ ، ولم يتحرَّرْ شيءٌ في طولِ عمامَتِهِ وعرضِها ، فالحقُّ ما ذكرَهُ الشيْخُ مِنَ الرُّجوعِ إِلىٰ ما يليقُ بالزمانِ والمكانِ .

وهلْ تَكفي القلنسوَةُ عَنِ العمامَةِ في أَصلِ السُّنَّةِ ؟

الجوابُ ما ذكرهُ ٱبنُ حَجَرٍ ـ أَيضاً ـ مِن قولِهِ : ولا بَأْسَ بلبْسِ القلنسوَةِ اللاَّطِئَةِ بالرأْسِ ، والمرتَفِعَةِ تحتَ العمامَةِ ، وبِلا عمامَةٍ ؛ لأَنَّ كلَّ ذلكَ جاءَ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، وقد يتأَيَّدُ بهِ ما ٱعتادَهُ بعضُ أَهلِ النواحي ، مِن تركِ العمامَةِ ، وتميُّزِ علمائِهم بطيلسَانَ علىٰ قلنسوةٍ بيضاءَ لاصقَةٍ بالرأْسِ ، لٰكِنْ بتسليمِ ذلكَ . . فإِنَّ الأَفضلَ لُبْسُ العمامَةِ بِعَذَبَتِها ، وما وقعَ لصاحِبِ « القاموسِ » ، مِن أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، لَم يفارِقِ العَذَبَةَ . . مردودٌ ، والصوابُ : أَنَّهُ كانَ يتركُها أَحياناً . ٱنتهىٰ بٱختصارٍ ، ولفظُهُ من « التحفَةِ » ، ولٰكنَّهُ يقولُ في « فتاويهِ » : حدُّ العمامَةِ ـ التي تحصلُ بِها الفضيلَةُ ، المشارُ إِليها بحديثِ : « صَلاَةٌ بِعِمَامَةٍ ، خَيْرٌ مِنْ

سَبْعِيْنَ صَلاَةٍ بِلاَ عِمَامَةٍ »[1] ـ العرفُ ، فما سمَّاهُ العرفُ عمامةً ، قلَّ أَو كَثُرَ . . حصلَتْ بِهِ الفضيلَةُ ، وما لا . . فلا .

ونَحْوُ القلنسوَةِ لا يُحَصِّلُ فضيلَةَ العمامَةِ المذكورَةِ ؛ لأَنَّها لا تسمَّىٰ عمامَةً . ٱنتهىٰ .

وفي « دَرِّ الغَمَامَةِ » لَهُ ، ما يوافِقُ ما سبَقَ عَنِ « التُّحْفَةِ » ، ونصُّهُ بعدَ نحوِ ما سبقَ عنها : (ويؤْخَذُ مِن ذلكَ : أَنَّ لُبْسَ القلنسوَةِ البيضَاءِ يُغْنِي عَنِ العمامَةِ ، وبِهِ يتأَيَّدُ ما ٱعتادَهُ بعضُ مدنِ (اليمَنِ) من تركِ العمامَةِ مِن أَصلِها) . اهـ .

وكانَتِ الكُبَراءُ تمتازُ بعمائِمِها ، وما سمِّيَ الزِّبْرِقَانُ إلاَّ لامتيازِهِ بصفرَةِ العمامَةِ .

وكانَ سعيدُ بنُ العاصِ ، المكتني بأَبي أُحيحَةَ ، إِذا ٱعتمَّ بـ(مكَّةَ) . . لم يعتمَّ أَحدٌ بلونِ عمامَتِهِ ؛ إِعظاماً لَهُ ، وفيهِ يقولُ أَبو قيسِ بنِ الأَسلَتِ [في « ديوانه » ٨٨ـ٨٩ من الوافر] :

وَكَانَ أَبُوْ أُحَيحَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ ... بِمَكَّةَ غَيْرَ مُهْتَضَمٍ ذَمِيْمِ
إِذَا شَدَّ ٱلْعِصَابَةَ ذَاتَ يَوْمٍ ... وَقَامَ إِلَىٰ ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْخُصُوْمِ
فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ يَمْشِيْ ... بِمَكَّةَ غَيْرَ مُدَّخَلٍ سَقِيْمِ[2]

وكانَتِ الفرسانُ تتقنَّعُ ، ما عدا أَبي تميمِ بنِ طريفٍ ، فإِنَّهُ لا يبالي أَنْ يُعرَفَ .

---

(١) أخرج الحافظ في « لسان الميزان » (٣/ ٢٤٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « صلاة بعِمامة تعدل خمساً وعشرين صلاة بلا عمامة . . » .

(٢) « البيان والتبيين » (١/ ٤٣٥) ، المدَّخَل : الدعيُّ الذي يدخلُ في القومِ .

وكانَ التقنُّعُ مِن شِيَمِ الأَشرافِ ، يقصدونَ بذلكَ مبايَنَةَ العامَّةِ ، ويقولونَ : إِنَّ من وطئَتَهُ الأَعينُ . . وطئَتَهُ الأَرجُلُ .

والأَصحُّ عندَنا : عدمُ ندبِ التحنيكِ في العمامَةِ .

وذُكِرَتِ العِمَامَةُ لأَبي الأَسودِ ، فقالَ [في « البيان والتبيين » ١/٤٣٦] : هِيَ جُنَّةٌ في الحربِ ، ومكنَةٌ في الحرِّ ، ومدفأَةٌ في القَرِّ ، ووقارٌ في النديِّ ، وزيادَةٌ في القامَةِ ، وتعظيمٌ للهامَةِ .

وكانَتْ عمائِمُ الأَكثرينَ من مشايخِنا ، إِلىٰ الكبَرِ أَقربُ مِنها إِلىٰ الصغَرِ ، ولا معابَةَ في شيءٍ مِن ذلكَ ؛ لأَنَّ العادَةَ قدِ ٱضطربَتْ ، والأَحوالَ قدِ ٱختلفَتْ ، فما بشيءٍ مِنَ الحالينِ إِزراءٌ ، ولا خروجَ عَنِ العادَةِ ، وإِنَّني واللهِ قلَّما أَذكُرُ غُرَرَهُم الباهرةَ ، وعمائِمَهُم الزاهِرَةَ . . إِلاَّ خطرَ بذِهْني ما هُمُ الأَحقُّ بهِ ، مِن قولِ الشاعرِ [في « المستطرف » ١/٤٩٦ مِنَ الوافرِ] :

إِذا لَبِسُوا عَمَـائِمَهُـمْ طَـوَوْهَـا عَلَـىٰ كَـرَمٍ وَإِنْ سَفَـرُوْا أَنَـارُوْا

أَمَّا اليومُ : فتكبيرُ العمامَةِ يكادُ يعدُّ مِنَ الإِزراءِ المكروهِ ، أَوِ المحرَّمِ ، علىٰ ما في ذلكَ مِنَ التفصيلِ المذكورِ في أَبوابِ الشهاداتِ مِنَ الفقهِ ، وما رأَتْ عَيني أَحسنَ لَفّاً لَها ، مِن أَهلِ (تريمِ) حرسَها اللهُ تعالىٰ .

وأَنكرَ بعضُهم لفظ (العِمَّةِ) بمعنىٰ العمامةِ ، وقالَ : إِنَّما هُوَ ٱسمٌ للهيئَةِ فقط ، وإِنِّي لأَتعجَّبُ مِن ذلكَ ، معَ شهرَةِ ٱستعمالِهِ بينَ العلماءِ ، ومِنْهم الجاحظُ ، والظَّنُّ بهِم أَنْ لا يتواترَوا علىٰ الغلَطِ ، بلْ كثيراً ما طرَقَ سَمْعي ، لفظ (العِمَّةِ) بمعنىٰ العِمامَةِ في شيءٍ مِن

أَشعارِ القدماءِ ، لا يحضُرُني مِنها الآنَ إلاَّ قولُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ١١٠ مِنَ البسيطِ] :

عَارِيْ ٱلأَشَاجِعِ مَعْصُوْبٌ بِعِمَّتِهِ أَمْرُ ٱلزَّعَامَةِ ، فِيْ عُرْنِيْنِهِ شَمَمُ

علىٰ أنِّي لستُ متأكِّداً من كونِهِ بهٰذا اللفظِ ؛ لأنَّ الحفظَ يخونُ .

وقالَ الفرزدَقُ يَهْجو [مِنَ الرَّجَزِ] :

قُبِّحَتِ ٱلْعَيْنَانِ تَحْتَ ٱلْعِمَّهْ

فقالَ المهجوُّ [مِنَ الرَّجَزِ] :

بَلْ قُبِّحَ ٱلْهَاجِيْ وَنَاكَ أُمَّهْ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٩٠ مِنَ البسيطِ] :

أَكَارِمٌ حَسَدَ ٱلأَرْضَ ٱلسَّمَاءُ بِهِمْ	وَقَصَّرَتْ كُلُّ مِصْرٍ عَن طَرَابُلُسِ

شرح المطلع

(أَكَارِمٌ) : جَمْعُ أَكْرَمَ ، كأَفاضِل جمعُ الأَفضلِ ، يقولُ : بوجودِهِم في الأَرضِ حسدَتْها السماءُ ، ولَو أَنَّهُ قالَ : (حسدَتْ) بالتأْنيثِ ، و(قصرَ) بالتذكيرِ . . لكانَ أَولىٰ ؛ لأَنَّ التأْنيثَ في السماءِ أَكثرُ فيها مِنَ التَّذكيرِ ، وفي « شمسِ العلوم » للقاضي نشوانَ بن سعيدٍ : كلُّ مؤنَّثٍ بلا علامَةِ تأْنيثٍ ، يَجوزُ تذكيرُهُ ، كالسماءِ ، والأَرضِ ، وٱلشمسِ ، والنارِ ، والقوسِ ، وهِيَ فائدَةٌ جليلةٌ . قالَ شارحُ « القاموسِ » : وردَّ عليهِ شيخُنا ، وقالَ : هٰذا كلامٌ غيرُ معوَّلٍ عليهِ ، عندَ أَربابِ التحقيقِ ، ولْيرجعِ النَّاظِرُ إِلىٰ مادَّةِ (سَمَا) مِنْهُ ؛ ليحيطَ بما فيهِ مِنَ البحثِ .

أيهما افضل الأرض أم السماء؟

وقدِ ٱختُلِفَ في المفاضلَةِ بينَ الأَرضِ والسماءِ ، ففضَّلَ الأُولىٰ قومٌ ؛ لأَنَّها مستقرُّ الأَنبياءِ ، ومدفنُهُم ، وفَضَّلَ الثانيةَ الأَكثرونَ ؛ لأَنَّهُ لم يُعْصَ اللهُ فِيها ، ومعصيَةُ إِبليسَ نادرَةٌ ، أَو لم تكُنْ فيها ، معَ الاتفاقِ علىٰ أَفضليَّةِ البقعَةِ التي ضمَّتْ جسدَ نبيِّنا صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، بَلِ ٱدَّعىٰ ٱبنُ حجرٍ : الإِجماعَ علىٰ أَفضليَّتِها علىٰ العرشِ والكرسيِّ .

والحقُّ : أَنَّهُ قولٌ مولَّدٌ ، فَٱدِّعاءُ الإِجماعِ عليهِ ، مِن أَظهرِ الأَغلاطِ ، كما نبَّهَ عليهِ الكرديُّ ، وقرَّرتُهُ في كتابي : « الفَوائِدُ

الجَنيّةُ » ، وأُلْحِقَ بمدفَنِهِ عليهِ السلامُ سائِرُ مدافِنِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عَلَيهم أجمعينَ ، كَمَا قرَّرَهُ بعضُهم ، وأكثرُ العلماءِ يفضِّلُونَ (مكّةَ) علىٰ (المدينةِ) ، خَلا تلكَ البقعةِ الشريفَةِ ، وخالفَهُم إمامُ دارِ الهجرَةِ ، فجزمَ بتَفْضيلِ (المدينةِ)[1] . وبيتُ الناظِمِ ناظِرٌ إلىٰ بعضِ ذلكَ ، وإلىٰ قولِ زهيرٍ [مِنَ البسيطِ] :

تَنَافَسُ ٱلْأَرْضُ مَوْتَاهُمْ إِذَا دُفِنُوْا كَمَا تَنَافَسَ عِنْدَ ٱلْبَاعَةِ ٱلْوَرَقُ
كَأَنَّ آخِرَهُمْ فِيْ ٱلْجُوْدِ أَوَّلُهُمْ إِنَّ ٱلشَّمَائِلَ فِيْ ٱلْأَخْلَاقِ تَتَّفِقُ

تفاخر الأماكن والأعضاء على بعضها

وقد تكرَّرَ نظيرُهُ عندَ الناظمِ ، فمِنْهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٠٦ مِنَ المتقاربِ] :

وَإِنَّ ٱلْفِئَامَ ٱلَّتِـيْ حَـوْلَـهُ لَتَحْسُـدُ أَرْجُلَهَـا ٱلْأَرْؤُسُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/٩٩ مِنَ الخفيفِ] :

خَيْرُ أَعْضَائِنَا ٱلرُّؤُوْسُ وَلَٰكِنْ فَضَلَتْهَـا بِقَصْـدِكَ ٱلْأَقْـدَامُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٤٨ مِنَ الخفيفِ] :

عَظَّمَتْـهُ مَمَالِـكُ ٱلْفُـرْسِ حَتَّـىٰ كُـلُّ أَيَّـامِ عَـامِـهِ حُسَّـادُهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

أَرْضٌ لَهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلُهَا لَوْ كَانَ مِثْلُكَ فِيْ سِوَاهَا يُوْجَدُ

---

(١) أي : مالكٌ مستدلاً بقوله ﷺ : « المدينة خير البقاع » و« المدينة خير من مكة » رواه عن رافع بن خديج الطبراني والدارقطني في « الأفراد » كما في « الجامع الصغير » (٩١٨٥) .

(٢) الفئامُ : الجماعاتُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٥ مِنَ الوافرِ] :

فَإِنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَيهِ تَحْسُدُ ٱلْحِدَقَ ٱلقُلُوبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١٥ مِنَ البسيطِ] :

وَتَغْبِطُ ٱلأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَلَّ بِهِ وَٱلْخَيْلُ تَحْسُدُ مِنْهَا أَيُّهَا رَكِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٤٦ مِنَ البسيطِ] :

ٱلْمَجْلِسَانِ عَلَىٰ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا مُقَابِلاَنِ ولَـٰكِنْ أَحْسَنَا ٱلأَدَبَا

إِذَا صَعِدْتَ إِلَىٰ ذَا.. مَالَ ذَا رَهَباً وَإِنْ صَعِدْتَ إِلَىٰ ذا.. مَالَ ذَا رَغَبَا

فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لاَ حِسَّ يَرْدَعُهُ ؟! إِنِّي لأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْكُمَا عَجَبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٤٦ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ ظَلَّتْ أَوَاخِرُهَا ٱلْعَوَالِيْ مَعَ ٱلأُوْلَىٰ بِجِسْمِكَ فِيْ قِتَالِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَاسَدَتِ ٱلبُلْدَانُ حَتَّىٰ لَوَ ٱنَّهَا نُفُوسٌ لَسَارَ ٱلشَّرْقُ وَٱلْغَرْبُ نَحْوَكَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٦٨ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا حَلَلْتَ مَكَاناً بَعْدَ صَاحِبِهِ جَعَلْتَ فِيْهِ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ تِيْهَا[2]

ولا يبعُدُ عنهُ أيضاً قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْحَظُّ حَتَّىٰ تَفْضُلَ ٱلعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّىٰ يَكُوْنَ ٱلْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

---

(١) المعنىٰ : أقامت أعالي ثيابكَ التي تظهرُ للناسِ تَحسُدُ الأقربَ من جسدكَ وهيَ التي تباشرُ جسدكَ ، فبينهما قتالٌ لذلك .

(٢) التيهُ : التكبُّرُ والفخر .

وقالَ حبيبُ بنُ أَوسٍ [وهو أبو تمَّامٍ في « ديوانهِ » ٢/ ٩٩ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا تَـأَمَّلْـتَ ٱلـدِّيَـارَ رَأَيْتَهَـا ... تُثْرِيْ كَمَا تُثْرِي ٱلرِّجَالُ وَتُعْدِمُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٦٢ مِنَ المنسرحِ] :

يَشْتَـاقُـهُ مِـنْ كَمَـالِـهِ غَـدُهُ ... وَيُكْثِـرُ ٱلْـوَجْـدَ نَحْـوَهُ ٱلأَمْـسُ

وقالَ ٱلبُحتريُّ لَمَّا جاءَ وفدُ الرومِ إِلىٰ عندِ المتوكِّلِ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٩٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَوَدُّ قَوْمُهُمُ ٱلأُلَىٰ بَعَثُوا بِهِمْ ... لَوْ ضَمَّهُمْ بِٱلأَمْسِ ذَاكَ ٱلْمَحْفَلُ

قَدْ نَافَسَ ٱلْغَيَبُ ٱلْحُضُوْرُ عَلَىٰ ٱلَّذِيْ ... شَهِدُوا ، وَقَدْ حَسَدَ ٱلرَّسُولَ ٱلْمُرْسِلُ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ البسيطِ] :

تَنَافَسَ ٱلنَّاسُ فِيْ أَيَّامِ دَوْلَتِهِ ... فَمَـا يَبِيْعُـوْنَ سَـاعَـاتٍ بِأَعْـوَامِ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَنَافَسَتِ ٱلأَيَّامُ فِيَّ وَلَمْ تَزَلْ ... عَلَىٰ حَسَدٍ مِنْ أَجْلِ ذَاكَ وَأَحْقَادِ

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

يُنَافِسُ يَوْمِيْ فِيَّ أَمْسِيْ تَشَرُّفاً ... وَتَحْسُدُ أَبْكَارِيْ عَلَيَّ ٱلأَصَائِلُ(١)

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا سَائِراً بِٱلْقَلْبِ غَدْراً كَيْفَ لَمْ ... تُتْبِعْهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِيْ ؟

بَعْضِي يَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِيْ وَيَحْـ ... ـسُدُ بَاطِنِيْ إِذْ أَنْتَ فِيْهِ ظَاهِرِيْ

---

(١) الأصائل ـ جمع أصيلٍ ـ : وهوَ آخرُ النهارِ .

وقلتُ في رثاءِ العلاَّمَةِ الجليلِ ، السيِّدِ أحمدَ بنِ حسنٍ العَطَّاسِ ، ما هوَ الغايَةُ في الموضوعِ ، وهُوَ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأُدْرِجَ فِيْ ثَوْبٍ مِنَ ٱلْقُطْنِ أَضْمَرَتْ لَهُ حَسَداً فِيْ نَفْسِهَا ٱلْحُلَلُ ٱلْخُضْرُ

علىٰ أَنَّهُ فوقَ ذلكَ ، مثالٌ مِنْ أَمثلةِ ٱلاتِّساعِ ٱلبَديعيِّ ؛ إِذ يحتمِلُ أَنْ يُرادَ بـ (الحُلَلُ الخُضْرُ) الَّتي كانَ يلبَسُها في الدُّنيا ، أَوِ الَّذي تنتظرُهُ في ٱلجنَّةِ ، أَوِ ٱلقِسمانِ ؛ إِذ لا مانِعَ مِن حملِ ٱلمشترَكِ علىٰ معنيَيْهِ .

ذكاء الفضل بن الربيع وهو صغير

ويُحكىٰ : أَنَّ الرَّشيدَ قالَ للفضلِ بنِ الرَّبيعِ ـ وهوَ صغيرٌ ـ : دارُنا أَحسنُ أَمْ دارُكُم ؟ فقالَ لَهُ : إِذا كنتَ في دارِنا . . فدارُنا أَحسنُ ، وإِذا كنتَ في دارِكَ . . فهيَ أَحسنُ ، وكانَ في يدِهِ خاتَمٌ ، فقالَ لَهُ : أَرأَيتَ أَحسنَ مِن هٰذا ؟ قالَ : الأُصبُعُ الَّذي هوَ فيهِ .

ويروىٰ نظيرُهُ للفتحِ بنِ خاقانَ .

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا أَحْسَنَ ٱلدُّنْيَا وَفِيْ ٱلدَّارِ خَالِدٌ وَأَقْبَحَهَا لَمَّا تَجَهَّزَ خَالِدُ

وقالَ العلويُّ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّما ٱلدَّارُ بِٱلْحُلُوْلِ فَإِنْ هُمْ فَارَقُوْهَا فَحَيْثُ حَلُّوْا ٱلدِّيَارَا

وقالَ سليمانُ الحاربيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا لَمْ تَكُنْ لَيْلَىٰ بِنَجْدٍ تغَيَّرَتْ مَحَاسِنُ دُنْيَا أَهْلِ نَجْدٍ وَطِيْبُهَا

وأَلمَّ صاحبُنا ببعضٍ ذلكَ فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤ مِنَ الخفيفِ] :

نَزَلَتْ إِذْ نَزَلْتَهَا ٱلدَّارُ فِيْ أَحْـ ـسَنَ مِنْهَا مِنَ ٱلسَّنَا وَٱلسَّنَاءِ[١]

* * *

(١) السنا : الضياءُ والنورُ . السناءُ : العلوُّ والرفعةُ .

المحتوى

المحتوى

المجلس السابع

أَحْيَا! وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ	وَٱلْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِي وَمَا عَدَلاَ

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَدًا ۞ وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاَ

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفًا	يَهْوَى ٱلْحَيَاةَ ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

إِلاَّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ	شَيْبـاً إِذَا خَضَّبَتْـهُ سَلْـوَةٌ نَصَـلاَ

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً	تَزُوْرُهُ فِيْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

عَلَّ ٱلْأَمِيرَ يَرَىٰ ضَعْفِيْ فَيَشْفَعَ لِيْ ... إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

المجلس الثامن

يَلُوحُ بَدْرُ ٱلدُّجَىٰ فِيْ صَحْنِ غُرَّتِهِ	وَيَحْمِلُ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلاَ

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ	تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلَا

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ إِنَّ هَارِبَهُمْ	إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاَ

المجلس التاسع

كَـمْ قَتِيْـلٍ ـ كَمَـا قُتِلْـتُ ـ شَـهِيْـدٍ	بِبَيَـاضِ ٱلطُّلَـىٰ وَحُمْـرِ ٱلْخُـدُوْدِ

يَتَـرَشَّفْـنَ مِـنْ فَمِـيْ رَشَفَـاتٍ هُـنَّ فِيْـهِ أَحْلَـىٰ مِـنَ ٱلتَّـوْحِيْـدِ

هَـٰـذِهِ مُهْجَتِـيْ لَـدَيْـكِ لِحِيْنِـيْ فَانْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ

شَيْبُ رَأْسِيْ وَذِلَّتِيْ وَنُحُوْلِيْ ودُمُوْعِيْ عَلَىٰ هَوَاكَ شُهُوْدِيْ ؟!

المجلس العاشر

مَـا مُقَـامِـيْ بِـأَرْضِ نَخْلَـةَ إِلاَّ	كَمُقَـامِ ٱلْمَسِيْـحِ بَيْـنَ ٱلْيَهُـوْدِ

فَاطْلُبِ ٱلْعِزَّ فِي لَظَىٰ وَدَعِ ٱلذُّ	لَّ وَلَـو كَـانَ فِـي جِنَـانِ ٱلْخُلُـوْدِ

لاَ بِقَوْمِيْ شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوْا بِيْ	وَبِنَفْسِـي فَخَـرْتُ لاَ بِجُـدُوْدِيْ

المجلس الحادي عشر

تَمَثَّلُوا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوا	لَكُنْتُ فِيْ ٱلْجُوْدِ غَايَةَ ٱلْمَثَلِ

هَدِيَّةٌ مَا رَأَيْتُ مُهْدِيَهَا	إِلاَّ رَأَيْتُ ٱلْعِبَادَ فِيْ رَجُلِ

أَظَبْيَةَ ٱلْوَحْشِ لَوْلاَ ظَبْيَةُ ٱلإِنْسِ	لَمَا غَدَوْتُ بِجِدٍّ فِيْ ٱلْهَوَىٰ تَعِسِ

أَكَارِمُ حَسَدَ ٱلأَرْضَ ٱلسَّمَاءُ بِهِمْ	وَقَصَّرَتْ كُلُّ مِصْرٍ عَنْ طَرَابُلُسِ

* * *